

صَحِيح

مختصر تفسير ابن كثير

للمحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير

انقصر وضعه أمارته وضع غريب الفاظه

أحمد عبد الرزاق البكري محمد عادل محمد محمد عبد اللطيف خائف

المجلد الأول

دار المسئلة

الطبعة والنشر والتوزيع

صحيح

مختصر تفسير ابن كثير

كَافَةُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّرْجُمَةِ مَحْفُوظَةٌ

لِلنَّاشِرِ

دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجُمَةِ

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

الطبعة الثالثة

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي مواز لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران

عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشرييني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

بريدياً : ص.ب ١٦١ القوية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة

أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،

٢٠٠١م هي عضو الجائزة تنويهاً لمعد

ثالث مغنى في صناعة النشر

صَحِيح

مَخْصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ

لِلْحَافِظِ عِمَادِ الدِّينِ ابْنِ الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ

اقتصره وخرجه أماريته وشرح غريب ألفاظه

أحمد عبد الرازق البكري محمد عادل محمد محمد عبد اللطيف خلف

المجلد الأول

دار السنين للامر

الطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نحمدك اللهم حمدًا يوافي النعم ، ونشكرك اللهم أن هياتنا لخدمة كتابك وسنة نبيك ، ونسألك من فضلك العميم مزيدًا من الرعاية والتوفيق .

ونصلي ونسلم على خير الخلق عندك ، وأحبههم إليك ، وأكرمهم لديك ، سيدنا محمد ﷺ الذي اصطفيته للرسالة ، وأيده بالمعجزة ، وآتته من جوامع الكلم ما طوى به غزير المعاني في اليسير من الألفاظ ، فكان بيانه النبوي الشريف أبلغ ما عرفت العريية بعد كتاب الله العزيز ، وبهما هدى الله الضال ، وعلم الجاهل ، وأرشد الحائر .

فصلواتك اللهم وسلامك على نبيك الكريم ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد :

هذا مختصرٌ محققٌ لتفسير القرآن العظيم للعلامة الإمام الحافظ الثبت الثقة أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، والذي تقدمه دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة التي دأبت على تقديم كتب التراث للقارئ في ثوب قشيب ؛ ولما كان لهذا العالم الجليل وكتابه « تفسير القرآن العظيم » دور عظيم في عالم التفسير ، فنود أن نلقي الضوء على حياة هذا العالم الجليل وذلك من خلال عرض لترجمة خاصة به .

فما لاشك فيه أن « علم التفسير » من أهم العلوم الإسلامية التي حرص المسلمون منذ عهد النبي ﷺ وحتى عصرنا الحالي على تعلمها ، والنهل من معينها ؛ لذا فقد عني الصحابة ومن بعدهم التابعين ثم تابعيهم على تعليم هذا العلم حتى أطلق الصحابة على الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ؓ ترجمان القرآن ، ثم كما فقد عني العلماء منذ القرن الأول بموضع الكتب التي تجمع علم التفسير واستمرت هذه العناية بذلك العلم حتى عصرنا الحالي .

ويعد « تفسير القرآن العظيم » المشهور بتفسير ابن كثير ، من الكتب الجامعة التي لا غنى لكل بيت مسلم عنها ، وذلك لما يحويه بين دفتيه من علم غزير ونفع للإسلام والمسلمين ، لذا فإن هذا الكتاب قد ظل على مر العصور مرجعًا مهمًا للعلماء وطلاب العلم يستقون من معينه ما يروون به ضامًا لهم ، لذا فقد حرصنا على تقديم هذا التفسير في صورة معاصرة ، وطريقة سهلة واضحة خالية من الإسرائيليات والآثار الموضوعية ، مع الاحتفاظ بروح المؤلف ومنهجه في كتابه ، وذلك حتى يستفيد القارئ المسلم .

ترجمة ابن كثير

حياته :

هو الإمام الحافظ الحجة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن كثير بن درع القرشي من بني حصلة .

ولد في قرية مجدل إحدى قرى بصرى سنة (٧٠١ هـ) لأب كان يعمل خطيباً لتلك القرية ، وقد توفي أبوه وهو في الثانية من عمره فنشأ يتيمًا .

انتقل ابن كثير بعد وفاة والده مع إخوته من مجدل إلى دمشق ، وكان ذلك في سنة (٧٠٧ هـ) وقام على رعايته وتعليمه شقيقه الأكبر عبد الوهاب .

كانت نشأة الإمام الحافظ ابن كثير مليئة بالأحداث الخطيرة ، فقد شهد هجوم التتار على الشام ، ومحاولات الصليبيين الهجوم على البلاد الإسلامية ، ومع ذلك فلم تزده هذه الأحداث إلا قوة وصلابة .

تعلمه :

بدأ ابن كثير في تعلم القرآن الكريم ككثير من علماء عصره ، واستطاع حفظه وتلاوته وهو في العاشرة من عمره .

وتلقى ابن كثير العلم على يد نخبة كبيرة من علماء عصره ، وعلى رأسهم صهره الحافظ المنزي المتوفى سنة (٧٤٢ هـ) (مؤلف كتاب تهذيب الكمال) الذي تأثر به ابن كثير تأثرًا كبيرًا . كما تأثر بمؤرخ الشام القاسم بن محمد البرزالي المتوفى سنة (٧٣٩ هـ) .

كما كان لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨ هـ) أثر كبير في حب ابن كثير للعلم ، إذ كانت له به خصوصية ، حيث كان من تلامذته المخلصين ، وكان يفتي برأيه .

شيوخه :

تلقى الإمام الحافظ ابن كثير العلم على يد نخبة كبيرة من العلماء ، إضافة إلى ما سبق ذكرهم ، ومن هؤلاء :

في الحديث والتاريخ :

- مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨ هـ) .

أصول الفقه :

الإمام ابن قاضي شهابية المتوفى سنة (٧٢٦ هـ) .

الحديث :

القاسم ابن عساكر المتوفى سنة (٧٢٣ هـ) .

أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري المعروف بالفركاح المتوفى سنة (٧٢٩ هـ) .

أحمد بن أبي طالب الحجار المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة (٧٣٠ هـ) .

الشعر :

نجم الدين موسى بن علي محمد المتوفى سنة (٧١٦ هـ) .

كما أخذ بقية العلوم عن مجموعة من العلماء والشيخ أمثال ابن الشيرازي وإسحاق الآمدي وأبي موسى القرافي وأبي الفتح الدبوسي ..

مكانته العلمية :

يعد الإمام الحافظ ابن كثير من الحفاظ المحدثين ، وقد ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ في الطبقة الثالثة والعشرين .

استطاع الإمام الحافظ ابن كثير أن يكون لنفسه شخصية متميزة مكنته من أن يكون أحد علماء عصره الذين يشار إليهم بالبنان ؛ لذا فقد كان يقصده طلاب العلم من كل بقاع الأرض لتلقي العلم على يديه ، كما كانت له الريادة والمكانة العلمية المتميزة والتي تمكنه من أن يتولى مشيخة أم صالح بعد وفاة شيخه الإمام الذهبي سنة (٧٤٨ هـ) ومشيخة دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها تقي الدين السبكي سنة (٧٥٦ هـ) .

كما درس بالنجيبية والجامع الفوقاني ، كما كانت له مشاركة في صنع القرارات الحربية كما فعل مع السلطان بإرشاده إلى ما يفعله مع أهل قبرص لردعهم .

آثاره ومؤلفاته :

خلف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير بعد وفاته تراثاً علمياً كبيراً ، لم يصلنا منه إلا النذر اليسير ، ومن أشهر هذه المؤلفات .

- كتاب البداية والنهاية ، وهو يعد من أهم المراجع التاريخية ، استقى منه جميع المؤرخين ممن أتوا بعده ، حيث اعتمد فيه على منهج المحدثين في ذكر سلسلة السند حيث قام بدمج التاريخ بالرواية والتفسير .

- الاجتهاد في طلب الجهاد الذي حكى فيه أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين خلال القرن الثامن ، ويعتبر الكتاب وثيقة تاريخية ؛ نظراً لأن مؤلفها قد عاصر الأحداث .

- اختصار علوم الحديث الذي اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث .

- السيرة النبوية الذي أخرج من كتابه البداية والنهاية .

- أحاديث التوحيد والرد على الشرك .

- جامع المسانيد .

- طبقات الشافعية .

- هذا إضافة إلى غيرها من الكتب المفقودة مثل :

- التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل .

- الكواكب الدراري في التاريخ .

- سيرة الشيخين .

- الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن إدريس .

- شرح صحيح البخاري .

وغيرها من الكتب التي ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون والداوودي في طبقات المفسرين والسيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ .

ويأتي على رأس مصنفاته تفسير القرآن العظيم المشهور بتفسير ابن كثير .
رأي علماء عصره فيه :

- قال عنه الداودي في طبقات المفسرين : (كان أحفظ من أدركناه لمتون الحديث ، وأعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه يعترفون بذلك ... وكان (فقيها جيد الفهم ، صحيح الدين) .

- وقال عنه النعيمي : (وكانت له أجوبة مسكتة) .

- وقال عنه الحافظ الذهبي : (خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم) وقال أيضًا : (الإمام المفتي المحدث البار ، فقيه متفنن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقال) .

- وقال عنه أبو المحاسن الحسيني : (أفتى ودرس وناظر وبدع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل) .

- وقال عنه السيوطي : (له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله) .

- وقال عنه السبكي : (اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ وبينهم عموم وخصوص : المزي والبرزالي والذهبي ، والشيخ الوالد (يقصد ابن كثير) لا خامس لهم في عصرهم) .
أسلوبه في الحياة :

كان يتحاشى الإدلاء برأيه الصريح في القضايا السياسية ؛ لذا فقد امتنع عند الإفتاء في أمور كثيرة كانت ستؤدي إلى الانقلاب على السلطان ، والثورة عليه ، كما كان يمتنع عن الإفتاء ضد أي قاض ؛ لأن في الفتوى تشويش على الحكام ^(١) .

وعلى الرغم من تحفظه في إبداء رأيه حول التغيير إلا أنه كان صريحًا في التعامل .
منهجه في التفسير :

غلب على أسلوبه طابع التحديث ويتضح ذلك في مؤلفاته الكثيرة التي بين أيدينا ، فقد اشتملت هذه المصنفات على موسوعة تفسيرية وحديثية وتاريخية ، ويتضح ذلك بشكل كبير في تفسيره الذي

حرص أن يفسر فيه القرآن بالقرآن ثم بالسنة الصحيحة ثم بأقوال السلف الصالح .
وفاته :

توفي الإمام الحافظ حجة عصره أبو الفداء إسماعيل بن كثير في (شعبان ٧٧٤ هـ) عن عمر يقارب ٧٣ سنة ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه الإمام تقي الدين ابن تيمية ورثاه بعض طلابه بقوله :

لَفَقَدِكَ طَلَابُ الْعُلُومِ تَأْسَفُوا وَجَادُوا بِدَمْعٍ لَا يَبِيدُ غَزِير
وَلَوْ مَزَجُوا مَاءَ الْمَدَامِ بِالْذَّمَا لَكَانَ قَلِيلًا فَيْكَ يَا ابْنَ كَثِير

منهج الاختصار والتحقيق

أولاً : الاختصار :

اعتمدنا في اختصار هذا الكتاب على خمس نسخ مختلفة ، قديمة وحديثة لتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) حتى تنفادي أي خطأ أو سقط في أي نسخة من النسخ .

اختصرنا الكتاب على النحو التالي :

- ١ - قمنا بحذف سلسلة السند كلها عدا راوي الحديث أو الأثر .
- ٢ - حذفنا جميع الإسرائيليات الموجودة بالكتاب ، سواء كانت هذه الإسرائيليات أخباراً أو آثاراً .
- ٣ - قمنا بحذف جميع الأحاديث الموضوعة والمنكرة .
- ٤ - قمنا بحذف جميع الأحاديث الضعيفة التي ليس لها ما يقويها من السند ، وأبقينا على الحديث الضعيف الذي له روايات أخرى تقويه عملاً بالقول القائل : (الأحاديث الضعيفة يقوي بعضها بعضاً) . وكذلك أبقينا على الأحاديث الضعيفة المشتهرة على ألسنة الناس ، وقد أشرنا إلى ضعف هذه الأحاديث في الهامش ، وذلك حتى يعلم القارئ وضع هذه الأحاديث وضعها .
- ٥ - قمنا بحذف الأحاديث المكررة بنفس المعنى ، وكان اختيارنا لأصح هذه الأحاديث ، وإذا كان الحديث مكرراً لمرات كثيرة كنا نبقى على حديثين أو ثلاثة ، وذلك حتى لا يتعرض القارئ للضجر أو الملل مع المحافظة على الانسجام والترابط في المعنى .

ثانياً : التحقيق :

- قمنا بضبط الأحاديث النبوية والآثار ضبطاً كاملاً حتى نسهل على القارئ نطق الحديث أو الأثر بشكله الصحيح ، ورغبة في الوصول إلى المعنى بدقة ووضوح .
- ٢ - قمنا بتخريج جميع الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب تخريجاً علمياً من المصادر الأصلية ، حيث قمنا بذكر اسم الكتاب ورقم الحديث ، وإذا كان الكتاب غير مقسم إلى أبواب كمسند الإمام أحمد ، فقد قمنا بذكر الجزء ورقم الصفحة .
- ٣ - قمنا بتخريج جميع القراءات القرآنية الموجودة في الكتاب من مصادرها الأصلية ، وعزونا القراءة إلى قارئها ، وذكرنا القراءات المختلفة في اللفظ الواحد ، وذكرنا مصدرنا في هذا التخريج بذكر اسم الكتاب ورقم الجزء أو الصفحة ، وأعدنا فهرساً لها في نهاية الكتاب .
- ٤ - قمنا بعزو الشعر إلى قائله على قدر ما أتيج لنا ، وذكرنا مكان هذا الشعر وقائله ، والكتب التي ذكر فيها .

- ٥ - قمنا بشرح غريب الألفاظ التي رأينا أن قارئ اليوم ربما لا يعرفها ، فشرحنا معانيها ومقصودها في الآية أو الحديث ، وذلك بعد الرجوع إلى كتب غريب الحديث وأمهات معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس المحيط والمعجم الوسيط وغيرها .

- ٦ - اعتمدنا في تخريج بعض الآثار على كتب التفسير الكبيرة مثل : تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي وتفسير القرطبي ، وذلك لتوثيق الأثر وبيان وجوده ، وذلك بذكر الجزء والصفحة .
- ٧ - قمنا بإعداد فهرس علمية للكتاب جمعنا فيها جميع الأحاديث والآثار الواردة بالكتاب ، مرتبة ترتيباً ألفبائياً ، وذلك بذكر طرف الحديث أو الأثر ، ومكان وجوده في الكتاب بذكر الجزء والصفحة . وإذا كان الحديث أو الأثر ذكر أكثر من مرة في الاستشهاد ، فإننا نذكر مكان وجوده ، وذلك بهدف عموم الفائدة وسهولة الوصول إلى مواضع الأحاديث والآثار داخل الكتاب .

وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

قَسَمَ الْحَقِيقُ وَالْمَرَجَعَةُ بِذَلِكَ السَّلَامِ

أحمد عبد الرزاق البكري محمد عادل محمد محمد عبد اللطيف خلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة ابن كثير

قال الشيخ الإمام الأوحى ، البارع الحافظ المتقن ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير البصري الشافعي ، رحمه الله تعالى ورزى عنه :

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ﴿ فَيَسْأَلُ عِندَ رَبِّكَ شَدِيدَ الْعِقَابِ ﴾ ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ﴿ مَتَكَبِّرِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ﴿ وَسُيِّرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ﴿ قَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا يَابِئُهُمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ واختتمه بالحمد فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُجْعَلُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ فله الحمد في الأولى والآخرة ، أي في جميع ما خلق وما هو خالق ، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي « اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد » ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النّفس ، أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم ؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم ، وكمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وتوالي منته ، ودوام إحسانه إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِسْمِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنِعْمَتُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ .

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل ، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن ، من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَكُونُ النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ أَلَيْسَ كَمَا جُمِعَ إِلَى اللَّهِ لَمْ تَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُعِي . وَبُيُتَ قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلَ النَّبِيِّ الَّذِي يُؤْمِرُ بِاللَّهِ وَكَانَ فِيهِ وَالنَّبِيُّونَ لَكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ لَا تَذَرُكُمْ بِهِ وَمَنْ يَلِكُ ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم ، وأسد وأحمر ، وإنس وجان ، فهو نذير له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْثُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْثَارُ مَوْعِدُهُ ﴾ فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده ، بنص الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِ اللَّهُ الْحَدِيثَ لِيُتَبَذَّلَ مِنْ حَيْثُ لَا يَلْتَمِسُونَ ﴾ ﴿ وَأُمِّي لَهُمْ ﴾ وقال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ^(١) قال مجاهد : يعني الإنس والجن . فهو صلوات الله وسلامه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٦/٤) ، وابن حبان في صحيحه (٢٠٠) والهيتمي في مجمع الزوائد (٦٥/٦) .

عليه رسول الله إلى جميع الثقلين : الإنسان والجن ، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذبههم إلى تفهّمه فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لَذِكْرًا ءَاتِيئِهِ وَلَسَدَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ .

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك ، وطلبه من مظانه ، وتعلّم ذلك وتعليمه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْكُرُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَآيَاتِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أَتْلُوكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَا يُرْكِبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فذمّ الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله .

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عمّا ذمهم الله تعالى به ، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه ، وتفهمه وتفهمه ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ اعلموا أنّ الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينّا لكم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي ، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : إنّ أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمّل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى : كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَالَفِينَ حَصِيصًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِشُبُهَانٍ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَقُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » ^(١) يعني السنة . والسنة أيضًا تنزل عليهم بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن ، وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « فِيمَ تَحْكُمُ ؟ » قال : بكتاب الله . قال : « فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ » قال بسنة رسول الله ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود في السنن (السنة ب ٦) بلفظ : « أُوتِيتُ الْكِتَابَ » .

قال : « فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ » قال : أجتهد رأيي ، قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ » ^(١) . وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدركوا بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ، لا سيما علماؤهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود ؓ . قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته . وقال أيضًا : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا .

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ، بركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : « اللَّهُمَّ فَهِّمْنِي فِي الدِّينِ وَعَلِّمْنِي التَّأْوِيلَ » ^(٢) وعن عبد الله بن مسعود قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس . وقد مات ابن مسعود ؓ في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعمر بعده عبد الله بن عباس ستًا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود . وقال أبو وائل : استخلف عليّ عبد الله بن عباس على . الموسم ، فخطب الناس ، فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية : سورة النور ، ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن الشدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَخُذُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ^(٣) . ولهذا كان عبد الله بن عمرو ؓ قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك . ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ؛ فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ؛ فلا نؤمن به ولا نكذبه ، ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرًا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحيها الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧/١) وأبو داود في السنن (الأفضية ١٩) وابن ماجه في السنن (مناسك ٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٥) ومسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد في مسنده (٣٢٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في السنن (٢٦٦٩) والدارمي في السنن (١٣٦/١) .

لإبراهيم ، وتعين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم . ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائر كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ رَحْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَنَأْمِنُهُمْ كُتِبَ لَهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَكَ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُ أَحَدًا ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعفت القولين الأولين وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ؛ إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما ، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَكَ ﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ؛ فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف ، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن تنبه على الصحيح منها ، وتبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته فلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم .

فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ؛ إذ قد يكون الصواب في الذي تركه . أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب ، أو جاهلاً فقد أخطأ . وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان ، رتكث بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور ، والله الموفق للصواب .

فصل : إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ؛ فإنه كان آية في التفسير ، كما قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقال ابن أبي مليكة : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواح قال : فيقول له ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله . ولهذا كان سفیان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . وكسب يد بن جبیر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء ابن أبي رباح ، والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع ابن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً ، وليس كذلك ؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه ، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن لليبس لذلك والله الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من

بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك .
 فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ ؛ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ^(١) وعن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَقَدْ أَخْطَأَ » . وفي لفظ لهم « مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ » ^(٢) أي لأنه قد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابهِ ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم . وهكذا سمي الله القذفة كاذبين فقال : ﴿ فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالْحَدِيثِ فَوَلَّيْنَاكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ، ولو كان أخبر بما يعلم ؛ لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم . ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روي عن أبي معمر قال : قال أبو بكر الصديق ﷺ : « وَأَيُّ أَرْضٍ تَقْلَنِي ؟ وَأَيُّ سَمَاءٍ تَظْلِنِي ؟ إِذَا قُلْتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ . وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّمِيمِيِّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ سَثَلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَفَكَهْ وَأَبَّا ﴾ فَقَالَ : أَيُّ سَمَاءٍ تَظْلِنِي ، وَأَيُّ أَرْضٍ تَقْلَنِي ؟ إِذَا أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ . وَعَنْ حَمِيدٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَرَأَ عَلَى الْمَنْبَرِ ﴿ وَفَكَهْ وَأَبَّا ﴾ فَقَالَ : هَذِهِ الْفَاكِهِةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا فَمَا الْأَبُّ ؟ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ يَا عُمَرُ . وَقَالَ حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ وَفِي ظَهْرِ قَمِيصِهِ أَرْبَعُ رِقَاعٍ فَقَرَأَ ﴿ وَفَكَهْ وَأَبَّا ﴾ فَقَالَ : فَمَا الْأَبُّ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكْلُفُ فَمَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَدْرِيهِ ؟ . وَهَذَا كُلُّهُ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُمَا ﷺ إِنَّمَا أَرَادَا اسْتِكْشَافَ عِلْمِ كَيْفِيَةِ الْأَبِّ ، وَإِلَّا فَكَوْنُهُ نَبْتًا مِنَ الْأَرْضِ ظَاهِرٌ لَا يَجْهَلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَتُنَا فِيهَا جَاءَ ۖ رَحْمَةً ۖ وَنَصِيًّا ﴾ الآية . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَثَلَ عَنْ آيَةٍ لَوْ سَثَلَ عَنْهَا بَعْضُكُمْ لَقَالَ فِيهَا فَأَيُّ أَنْ يَقُولَ فِيهَا .

وعن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس ﷺ في يومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ﷻ فقال له ابن عباس : « فَمَا ؟ يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﷻ » فقال له الرجل : إِنَّمَا سَأَلْتُكَ لِتُحَدِّثَنِي ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه ، الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم . وعن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله فسأله عن آية من القرآن ؟ فقال : أخرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني . وعن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سُئِلَ عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً . وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن . وعن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة . وعن يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥١) وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) والطبراني في الكبير (١٧٥/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (العلم باب ٥) .

القرآن سكت كأن لم يسمع . وعبيد الله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير ، منهم : سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيب ، ونافع . وعن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي يؤول آية من كتاب الله قط . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن ، فاتق الله وعليك بالسداد . وعن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ، وعن مغيرة عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه . وقال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله ﷻ وعن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة ؛ لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُلْجِمُ مِنْ نَارٍ » ^(١) .

وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير عن عائشة قالت : ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات بعدد ، علمهن إياه جبريل عليه السلام . فإنه حديث منكر غريب وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري ، قال البخاري : لا يتابع في حديثه ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي : منكر الحديث ، وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبرائيل ، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث ؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد في جهالته كما صرح بذلك ابن عباس عن أبي الزناد قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله .

مقدمة مفيدة

تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة

عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والمتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ، و ﴿ بَيِّنَاتٍ لِّكَ نَحْمَدُكَ ﴾ إلى رأس العشر و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة وسائر السور

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٥/٢) والترمذي في السنن (٢٦٤٩) .

بمكة .

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال : فمنهم من لم يزد على ذلك ، ومنهم من قال : ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة آية ، وقيل : ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل ومائتان وخمس وعشرون آية ، أو ست وعشرون آية ، وقيل : ومائتان وست وثلاثون آية ، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان . وأما كلماته فقال عطاء ابن يسار : سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة . وأما حروفه فقال مجاهد : هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثمائة ألف حرف وواحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً ، وقال الفضل عن عطاء بن يسار : ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً . وقال سلام أبو محمد الحماني : إن الحجاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال : أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ قال : فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف حرف وأربعون ألفاً وسبعمائة وأربعون حرفاً ، قال : فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف ﴿ وَلَيَسْأَلَنَّ ﴾ وثلاثة الأول عند رأس مائة آية من براءة ، والثاني على رأس مائة أو إحدى ومائة من الشعراء ، والثالث إلى آخره ، وشُبَّعه الأول إلى الدال من قوله تعالى : ﴿ فَيَنْتَهي مَنْ آمَنَ بِهِ وَيَمْتَنُّ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ والسبع الثاني إلى الباء من قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ ﴾ والثالث إلى الألف الثانية من قوله تعالى في الرعد : ﴿ أَكْثَلُهَا ﴾ والرابع إلى الألف في الحج من قوله : ﴿ جَعَلْنَا مَسْكًا ﴾ والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ ﴾ والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح : ﴿ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوءِ ﴾ والسابع إلى آخر القرآن .

وأما التحزيب والتجزئة : فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن ، والحديث في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخميس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من قاف حتى تختم ^(١) .

فصل : واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة ؟ فقليل : من الإبانة والارتفاع ، قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملكٍ دونها يتذبذب

فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة . وقيل : لشرفها وارتفاعها كسور البلدان . وقيل : سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه مأخوذ من أسرار الإناء وهو البقية ، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوًا لانضمام ما قبلها . وقيل : لتامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة . (قلت) : ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنزله ودوره . وجمع السورة سور بفتح الواو وقد تجمع على سور

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩/٤) وابن ماجه في السنن (إقامة ١٧٨) .

وسُورَات .

وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصاله ، أي هي بائنة عن أختها ومنفردة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ وقيل : لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال : خرج القوم بأيّاتهم أي بجماعاتهم قال الشاعر :

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بأيّتنا نزجي اللقاح المطافلا

وقيل : سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها ، قال سيبويه : وأصلها آية مثل أكمة وشجرة ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية بهمزة بعدها مدة . وقال الكسائي : أصلها آية على وزن أمانة فقلبت ألفاً ثم حذفت لالتباسها . وقال الفراء : أصلها آية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفاً كراهية التشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياي .

وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ولك . وقد تكون أكثر ، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿ لَيْسَ خَلْقُكُمْ ﴾ و ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ و ﴿ فَاسْتَقْبَلُوهُ ﴾ . وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ و ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ و ﴿ وَالْمَصَرِ ﴾ وكذلك ﴿ التَّوْحِيدِ ﴾ و ﴿ طه ﴾ و ﴿ يَسْ ﴾ و ﴿ حَمَّ ﴾ في قول الكوفيين و ﴿ حَمْدٌ ﴾ عَسَقَ ﴿ عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول : هذه فواخ السور ، وقال أبو عمرو الداني : لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى : ﴿ مَدَامَتَانِ ﴾ بسورة الرحمن .

فصل : قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية ، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط ، واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات .

سورة الفاتحة

يقال لها : (الفاتحة) أي فاتحة الكتاب خطأ وبها تفتح القراءة في الصلوات ، ويقال لها : (أم الكتاب) عند الجمهور وقد ثبت ذلك في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُمُّ الْقُرْآنِ ، وَأُمُّ الْكِتَابِ ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » ^(١) ويقال لها : (الحمد) ويقال لها : (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ : حَسْبُنِي عَبْدِي » ^(٢) فسميت الفاتحة : صلاة لأنها شرط فيها . ويقال لها (الشفاء) لما روي عن أبي سعيد مرفوعاً « فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُوءٍ » ^(٣) ويقال لها : (الرقية) لقوله ﷺ : لرجل رقى بها « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ ؟ » ^(٤) وروى الشعبي عن ابن عباس أنه سماها : (أساس القرآن) قال : وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم ، وسماها سفيان بن عيينة (بالواقية) وسماها يحيى بن أبي كثير (الكافية) لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها ، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة « أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها » ^(٥) .

وهي مكية وقيل : مدنية ويقال : نزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة . والأول أشبه لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ وهي سبع آيات بلا خلاف ، واختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها ، أو بعض آية ، أو لا تعد من أولها بالكلية ، والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى . وكلماتها خمس وعشرون كلمة ، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً . وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة ، وقيل : إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته . قال ابن جرير : والعرب تسمي كل جامع أمراً أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع : أمّا ، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ : أم الرأس ، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّا ومنه قول ذي الرمة :

على رأسه أم لنا نفتدي بها جماع أمور ليس نعصي لها أمراً

وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها ، وقيل : لأن الأرض دحيت منها . وضح تسميتها بالسبع المثاني ؛ لأنها تنثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن : « هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَهِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » ^(٦) . وعن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَبْعُ آيَاتٍ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إِخْدَاهُنَّ ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَهِيَ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَفَاتِحَةُ الْكِتَابِ » ^(٧) وروى عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى : ﴿ سَبْعًا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٥٧) والهندي في كنز العمال (٢٥٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٣) والبيهقي في السنن (٣٧/٢) والمنذري في الترهيب (٣٦٧/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/١) ، والمجلوني في كشف الخفا (١٠٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) وأبو داود في السنن (٣١٨٥) والترمذي في السنن (٢٠٦٤) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٣٨/١) . (٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٨/٢) .

(٧) أخرجه البيهقي في السنن (٤٥/٢) والهندي في كنز العمال (٢٥١٩) .

الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث بما يختص بالفاتحة من وجوه

أحدها : أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة ، والمراد القراءة كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي بقراءتك . كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس ، وهكذا قال في هذا الحديث : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ نِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » ثم بين تفصيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة ، فدل على عظمة القراءة في الصلاة ، وأنها من أكبر أركانها ، إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة ، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ ، والمراد صلاة الفجر . كما جاء مصرحاً به في الصحيحين « أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ » ^(١) فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة ، وهو اتفاق من العلماء ، ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني ، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة غير فاتحة الكتاب أم تجزئ هي أو غيرها ؟ على قولين مشهورين : القول الأول : فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم ، أنها لا تتعين ، بل مهما قرأ به من القرآن أجزأه في الصلاة ، واحتجوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تَشَاءُونَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء في صلاته أن رسول الله ﷺ قال له : « إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَشَاءُ مِنْ الْقُرْآنِ » ^(٢) قالوا : فأمره بقراءة ما تيسر ، ولم يعين له الفاتحة ، ولا غيرها فدل على ما قلنا .

والقول الثاني : أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها ، وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم ، وجهه جمهور العلماء ، واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ » ^(٣) والخداج هو الناقص كما فُسر به في الحديث « غير تمام » ، واحتجوا أيضاً بما روي عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ » ^(٤) .

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة ، وقال آخرون : إنما تجب قراءتها في معظم الركعات ، وقال الحسن وأكثر البصريين : إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذاً بمطلق الحديث « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ » وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي : لا تتعين قراءتها ، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تَشَاءُونَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ وقد روي عن أبي سعيد مرفوعاً « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالْحَمْدِ وَسُورَةٍ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ غَيْرِهَا » ^(٥) .

والوجه الثالث : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٧/٢) ، (٣١٢/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٢) والبيهقي في السنن (٣٨٠/٢) ، والطبراني في الكبير (٣٠/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) والترمذي في السنن (٣١٢) وأبو داود في السنن (٨٢١) .

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) وأبو داود في السنن (٨٢٢) والترمذي في السنن (٢٤٧) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٣٧) والبخاري في شرح السنة (٤٥/٣) .

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها ، كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثاني : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية للفاتحة ولا غيرها ، لا في صلاة الجهرية ، ولا في صلاة السرية لما روي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ » (١) .

والقول الثالث : أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم ، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا » (٢) ، وهو قول قديم للشافعي ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل .

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور . وروي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا وَضَعْتَ جَنْبَكَ عَلَى الْفِرَاشِ وَقَرَأْتَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقُلَّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ فَقَدْ أَتَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْمَوْتَ » (٣) .

تفسير الاستعاذة وأحكامها

قال الله تعالى : ﴿ خُذِ الزَّمَنَ وَأَمْرًا بِالْعَرْبِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) وَإِنَّمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (٢) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٣) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿ وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٤) وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا الَّذِينَ يَصِرُوا وَمَا يُلْقُوهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظِي عَظِيمٍ ﴾ (٥) وَإِنَّمَا يَزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها ، وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي ، والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا ، ولا يتغنى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ، كما قال تعالى : ﴿ يَتَّبِعُونَ آدَمَ لَا يَفْقَهُنَّكُمْ الشَّيَاطِينُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٧) وقال : ﴿ افْتَحِذُوا ذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ دُونِهِمْ وَلَكُمْ عَدُوٌّ يَتَّبِعُ الشَّيَاطِينِ بَدَلًا ﴾ (٨) وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين ، وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فَمِعْرَاكَ لَاخُوتِيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿ وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١٠) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١١) إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿ .

قالت طائفة من القراء وغيرهم : يتعوذ بعد القراءة ، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة ، وعن مالك رحمه الله : أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة ، واستغربه ابن العربي ! . وحكى قولاً ثالثاً ، وهو الاستعاذة أولاً وآخرها جمعاً بين الدليلين ، والمشهور الذي عليه الجمهور ، أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها ، ومعنى الآية عندهم ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٨٥٠) والبيهقي في السنن (١٦٠/٢) والألباني في الضعيفة (٥٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير الصلاة (١١١٣) ومسلم في الصلاة (٧٩ ، ٨٠) وأبو داود في السنن (٦٠٣) .

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٦/١) .

الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١﴾ أي إذا أردت القراءة ، كقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْلِبُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية أي إذا أردتم القيام ، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك . فعن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ، ثُمَّ يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا ثُمَّ يَقُولُ - أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » ^(١) ، وقال الترمذي : هو أشهر شيء في هذا الباب ، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق ، والنفخ بالكبر ، والنفث بالشعر . وعن جبير بن مطعم قال : رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال : « اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا - ثَلَاثًا - الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا - ثَلَاثًا - سُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا - ثَلَاثًا - اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ » ^(٢) قال عمر : وهمزة الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر . وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : استب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما غضبًا شديدًا حتى يخيل إلي أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبي ﷺ : « إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الْعُصْبِ » فقال : ما هي يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » قال : فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضبًا وقد روي أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذة .

مسألة : وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمحتمة يأثم تاركها . وحكى الرازي عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال : وقال ابن سيرين : إذا تعوذ مرة واحدة في عمره ، فقد كفى في إسقاط الوجوب ، واحتج الرازي لعطاء بظاهر الآية ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ وهو أمر ظاهر الوجوب ، وبمواظبة النبي ﷺ عليها ، ولأنها تدرأ شر الشيطان ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ ولأن الاستعاذة أحوط ، وهو أحد مسالك الوجوب ، وقال بعضهم : كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته ، وحكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ، ويتعوذ لقيام رمضان في أول ليلة منه .

مسألة : وقال الشافعي في الإملاء : يجهر بالتعوذ ، وإن أسر فلا يضر ، وقال في الأم بالتخفيف ؛ لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة ، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ؟ ورجح عدم الاستحباب ، والله أعلم ، فإذا قال المستعبد : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة ، وزاد بعضهم : أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ ، وقال آخرون : بل يقول : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، إن الله هو السميع العليم . وحكي عن بعضهم أنه يقول : أستعبد بالله من الشيطان الرجيم ؛ لمطابقة أمر الآية .

مسألة : ثم الاستعاذة في الصلاة ، إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد . وقال أبو

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦٩/٣) والترمذي في السنن (٢٤٢) وأبو داود في السنن (٧٧٥) وابن ماجه في السنن (٨٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٢٠) وأبو داود في السنن (٧٦٤) والحاكم في المستدرک (٤٣٥/١) ، ابن ماجه في السنن (٨٠٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧٨٠) والطبراني في الكبير (١١٦/٧) والترمذي في السنن (٣٤٥٢) .

يوسف : بل للصلاة ؛ فعلى هذا يتعوذ المأموم ، وإن كان لا يقرأ ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد . والجمهور بعدها قبل القراءة .

ومن لطائف الاستعاذة : أنها طهارة للنفوس مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدر ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ، ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بالإحسان ، بخلاف العدو من نوع الإنسان ؛ كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ ، وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيداً ، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً ، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً ، ومن قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً ، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان .

فصل : والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر ، والعيادة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي :

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمِلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ بِمَنْ أَحَاذِرُهُ
لَا يَجْزِي النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنني في ديني أو دنيائي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه . فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ، ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ، ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه . وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة ؛ قوله في الأعراف : ﴿ خُذِ الْقَوْلَ مِنْهُمْ لَعَنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْعُرْضِ عَنِ الْجَبَلَيْنِ ﴾ ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال : ﴿ وَإِنَّمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ شَيْطَانُ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ .

والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير .

ولهذا يسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن » فقلت : أو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » ^(١) . وعن أبي ذر أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقْطَعُ الصَّلَاةَ : الْمَرْأَةُ ، وَالْحِمَارُ ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/٥) والنسائي في السنن (٢٧٥/٨) .

وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ » فقلت : يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال :
« الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ » ^(١) .

والرجيم فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود من الخير كله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝
وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ فَنَافِلُهُمْ فِيهَا بُرُوجٌ ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٦٦) وأحمد في مسنده (٨٦/٤) والبيهقي في السنن (٢٧٤/٢) والزيهلي في نصب الراية (٨١/٢) .

تفسير البسملة وأحكامها

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كتبت في أولها ؟ أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية ؟ والعلماء في ذلك على أقوال : فعن ابن عباس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(١) . وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة ، وعدّها آية .

ومن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ، ومن التابعين عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهري ، وبه يقول عبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد ابن حنبل وغيرهم .

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وقال داود : هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها ، وهذا رواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكاها أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله .

فأما الجهر بها فمفزع على هذا فمن رأى أنها ليست من الفاتحة ، فلا يجهر بها ، وكذا من قال : إنها آية في أولها ، وأما من قال : بأنها من أوائل السور ، فاختلفوا ؛ فذهب الشافعي رحمته الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة ، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً فجهر بها من الصحابة : أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية ، ومن التابعين عن سعيد بن جبير ، وعكرمة ، والزهري ، وعلي بن الحسن وسعيد بن المسيب ، وعطاء وطاوس ومجاهد ، وغيرهم كثيرون ، والحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بها كسائر أبعاضها ، وروي عن أبي هريرة : أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ : إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ ، وروي عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم ، وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم ^(٢) .

وعن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال : كانت قراءته مدّاً ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمد بسم الله ومد الرحمن ومد الرحيم ^(٣) . وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ^(٤) . وعن أنس أن معاوية صلى بالمدينة فترك البسملة ، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك ، فلما صلى المرة الثانية بسم . وذهب آخرون أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف ، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأحمد بن حنبل . وعند الإمام مالك أنه لا يقرأ بالبسملة

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٧٨٨) والبيهقي في السنن (٤٢/٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٠٢/١) .

(٣) أخرجه الدارقطني في السنن (٣٠٨/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٦) والترمذي في السنن (٢٩٤٧) والحاكم في المستدرک (٢٣٢/٢) .

بالكلية لا جهراً ولا سراً ، واحتجوا بما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة بالحمد لله رب العالمين ^(١) ، وبما ورد عن أنس بن مالك قال : صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ، ولمسلم : لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها ^(٢) .

فَصَلِّ فِي فَضْلِهَا

عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فقال : « هُوَ اسْمُ مَنْ أَسْمَاءُ اللَّهُ وَمَا يَتَنَّهُ وَيَتَنَّى اسْمُ اللَّهِ الْأَكْبَرُ إِلَّا كَمَا يَتَنَّى سَوَادُ الْعَيْنَيْنِ وَيَضَاهِمَا مِنَ الْقُرْبِ » ^(٣) وعن عاصم قال : سمعت أبا تيمية يحدث عن رديف النبي ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : « لَا تُقُلْ تَعَسَ الشَّيْطَانُ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : تَعَسَ الشَّيْطَانُ ، تَغَاظَمَ وَقَالَ : يَقُوَّتِي صَرَعَتُهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِاسْمِ اللَّهِ ؛ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ » ^(٤) . فهذا من تأثير بركة بسم الله ، ولهذا تُستحب في أول كل عمل وقول . فتستحب في أول الخطبة ، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء . وتستحب في أول الوضوء ، لما ورد عن أبي هريرة مرفوعاً : « لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يُذَكِّرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » ^(٥) .

ومن العلماء من أوجها عند الذكر ههنا ، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً . وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وجماعة ، وأوجها آخرون عند الذكر ومطلقاً في قول بعضهم . وتستحب عند الأكل لما ورد أن رسول الله ﷺ قال لربيعة عمر بن أبي سلمة : « قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ، وَكُلْ يَتِمِّنْكَ ، وَكُلْ يَمَّا تَلِيكَ » ^(٦) ومن العلماء من أوجها والحالة هذه ، وكذلك تستحب عند الجماع ؛ لما ورد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ يَتَنَّهُمَا وَلَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » ^(٧) .

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله : باسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان ، وكل قد ورد به القرآن ، أما من قدره باسم تقديره باسم الله ابتدائي ، فلقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنَا مِنْهُمَا وَكَصِفَتْ أَيْدِي رَسُولِ اللَّهِ لَعْفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ ، ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو : أبدأ باسم الله ، أو ابتدأت باسم الله ، فلقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وكلاهما صحيح . فإن الفعل لا بد له من مصدر ، فلك أن تقدر الفعل ومصدره ، وذلك بحسب الفعل الذي

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩٤/٦) وأبو داود في السنن (٧٨٣) والدارمي في السنن (٢٨١/١) ، والبيهقي في السنن (٨٥/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١٤/٣) ، والدارمي في السنن (٢٨٣/١) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٥٢/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٥) ، والحاكم في المستدرک (٢٩٢/٤) ، وأبو داود في السنن (٤٩٨٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٠) وأبو داود في السنن (١٠١) وابن ماجه في السنن (٣٩٧) وأحمد في مسنده (٤١/٣) .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤/٩) .

(٧) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١) ومسلم في النكاح (١١٦) وأبو داود في السنن (٢١٦١) .

سميت قبله ، إن كان قيامًا أو قعودًا أو أكلًا أو شربًا أو قراءة أو وضوءًا أو صلاة ؛ فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركًا وتيمنًا واستعانة على الإتمام والتقبل .
وأما مسألة الاسم هل هو المسمى أو غيره ؟ ففيها للناس ثلاثة أقوال :
أحدها : أن الاسم هو المسمى .

قالت الحشوية والكرامية والأشعرية : الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية .
وقالت المعتزلة : الاسم غير المسمى ونفس التسمية .

واختار عندنا : أن الاسم غير المسمى وغير التسمية . ثم نقول : إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات متقطعة وحروف مؤلفة ، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى . وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى ، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات ، وهو عبث . فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث . ثم شرع يستدل على مغايرة الاسم للمسمى ، بأنه قد يكون الاسم موجودًا والمسمى مفقودًا كلفظة المعدم ، وبأنه قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة ، وقد يكون الاسم واحدًا والمسميات متعددة كالمشترك ، وذلك دال على تغاير الاسم والمسمى . وأيضًا فالاسم لفظ وهو عرض ، والمسمى قد يكون ذاتًا ممكنة أو واجبة بذاتها . وأيضًا فلفظ النار والثلج لو كان هو المسمى لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ، ولا يقوله عاقل .

﴿ اللَّهُ ﴾ علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّكَ الْقُدُّوسُ أَلْسَلَّمَ الْمُؤْمِنُ الْهَمِيمُ الْمَرِيضُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » (١) .

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل ، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له ، وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والفزالي وغيرهم ، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة . قال الخطابي : ألا ترى أنك تقول : يا الله ولا تقول : يا الرحمن ؟ فلو لا أنه من أصل الكلمة ؛ لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام ، وقيل : إنه مشتق ، واستدلوا عليه بقول رؤية بن العجاج :

لَهُ دَرُ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّةِ سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأْلِهِي

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٦) والترمذي في السنن (٣٥٠٧) وأحمد في مسنده (٤٩٩/٢) ، والحاكم في المستدرک (١٦/١) .

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر ، وهو التأله من أله يأله الإلاه وتألها . وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ ﴾ ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه مثل فعال ، فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة ، قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس وقيل : أصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم .

وقيل : هو مشتق من وله إذا تخمر والوله ذهاب العقل ، يقال : رجل واله وامرأة ولهى ومولوه إذا أرسل في الصحراء ، فالله تعالى يحير أولئك والفكر في حقائق صفاته ، فعلى هذا يكون ولاه فأبدلت الواو همزة : كما قالوا : في وشاح : إشاح وقال الرازي : إنه مشتق من ألّهت إلى فلان أي سكنت إليه فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره ، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْصَرُّ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ ^(١) الَّذِينَ آمَنُوا ، والمعنى أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال . وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة ، وذكر أنه لو كان مشتقاً لاشترك في معناه كثيرون ، ومنها أن بقية الأسماء تذكر صفات له ، فتقول : الله الرحمن الرحيم الملك القدوس ، فدل أنه ليس بمشتق قال : فأما قوله تعالى : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ﴾ ^(٢) الله على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ، ومنها قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَيِّئًا ﴾ ، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر ، والله أعلم .

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم . وزعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وذكر عن المبرد أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي ، قال أحمد بن يحيى : الرحيم عربي والرحمن عبراني فلهذا جمع بينهما ، قال أبو إسحاق : وهذا القول مرغوب عنه . وقال القرطبي : والدليل على أنه مشتق ما ورد عن عبد الرحمن بن عوف ^(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي ، فَتَمَّ وَصَلُهَا وَصَلْتُه ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ » ^(١) وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمخالفة والشقاق ، وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له . قال أبو علي الفارسي : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة ، ثم حكي عن الخطابي وغيره ، أنهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا : لعله أرفق كما في الحديث « إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ، وَإِنَّهُ يُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْغُفْرِ » ^(٢) وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب ، وقد ورد عن أبي هريرة ^(٣) قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ » ^(٣) وقال الشاعر :

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبَنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٤٨/١) والبيهقي في السنن (٢٦/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) وأبو داود في السنن (٤٨٠٧) وأحمد في المسند (٨٧/٤) ومالك في الموطأ (٩٧٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٧٣) .

مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿١﴾ ، ولما تجهرم مسيلة الكذاب ، وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به ، فلا يقال إلا مسيلة الكذاب ، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر ، وأهل الوير من أهل البادية والأعراب .

وقد زعم بعضهم ، أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن ؛ لأنه أكد به والمؤكد لا يكون إلا أقوى من المؤكد ، والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد ، وإنما هو من باب النعت ولا يلزم ما ذكره ، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ ، وإنما تجهرم مسيلة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة .

وأما ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ : فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ، ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك ، فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم ؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء ، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص . فإن قيل : فإذا كان الرحمن أشد مبالغة ، فهلا اكتفى به عن الرحيم ؟ فقد روي أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك ؛ فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى ، وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وقال كفار قريش يوم الحديبية ، لما قال رسول الله ﷺ لعلي : « ائْتِبْ ﴾ يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴿ ١ ﴾ ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ ، والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم ، فإنه قد وجد في أشعارهم الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن . قال سلامة بن جندب الطهوي :

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا إِذْ عَجَلْنَا عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَفْقِذُ وَيُطْلِقُ
﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

القرء السبعة على ضم الدال في قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو مبتدأ وخبر ، وروي عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج أنهما قالا : ﴿ الحمد لله ﴾ بالنصب وهو على إضمار فعل ، وقرئ ﴿ الحمد لله ﴾ بكسر الدال إبتاعاً للأول والثاني (٢) .

قال ابن جرير : معنى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح الأجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٤) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٩) والزبيدي في نصب الراية (٣٨٩/٣) .

(٢) قراءة الكسر هي قراءة أبو نهيك ، أما قراءة الفتح فهي قراءة ابن السميع وهما قراءتان شاذتان (انظر : زاد المسير ١١/١) .

عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا . وقال ابن جرير : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه ، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد لله . قال : وقد قيل : إن قول القائل : الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنی وصفاته العلی ، وقوله : الشكر لله ثناء عليه بنعمه وأياديه ، ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر ، واشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين ، أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر :

أَقَادَتْكُمْ النِّعْمَاءُ مِنِّْي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحْجَبًا

ولكنهم اختلفوا أيهما أعم الحمد أو الشكر ؟ فقيل : الحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه ، وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول ، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه ؛ لأنه يكون بالقول والفعل والنية . وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية ، لا يقال شكرته لفروسيته ، وتقول : شكرته على كرمه وإحسانه إلي . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين .

وقيل : الحمد نقيض الذم تقول : حمدت الرجل أحمده حمداً ومحمدة فهو حميد ومحمود . والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، والشكر : هو الثناء على الحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له وباللام أفصح ، وأما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحي ولل ميت وللجماد أيضاً ، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ، ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضاً .

ذَكَرَ أَقْوَالُ السَّلَفِ فِي الْحَمْدِ

قال عمر لعلي - وأصحابه عنده - لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر قد عرفناها ، فما الحمد لله ؟ قال علي : كلمة أحياها الله تعالى لنفسه ، ورضيها لنفسه ، وأحب أن يقال . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » ^(١) ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إِلَّا كَانَ الَّذِي أُعْطِيَ أَفْضَلَ بِمَا أَخَذَ » ^(٢) وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم : « أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَالَ : يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِلْجَلَالِ وَجْهِكَ ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ ، فَعُضِّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ فَلَمْ يَذَرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِيهَا فَصَعَدَا إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَا : يَا رَبَّنَا إِنَّ عَبْدًا قَدْ قَالَ مَقَالَ لَا نَذَرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا ؟ قَالَ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ - مَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ قَالَا : يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ : لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ ، كَمَا يَنْبَغِي لِلْجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ . فَقَالَ اللَّهُ لَهُمَا : اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يُلْقَانِي فَأُجْزِيَهُمَا بِهَا » ^(٣) .

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى ، كما جاء في الحديث :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٨٣) وابن ماجه في السنن (٣٨٠٠) والحاكم في المستدرک (٤٩٨/١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٠٧/١) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٠٥) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٤٤/١٢) .

« اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ ، وَيَبْدَكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » ^(١) .

والربُّ هو المالك المتصرف ، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى . ولا يستعمل الرب لغير الله ، بل بالإضافة تقول : رب الدار رب كذا ، وأما الرب فلا يقال إلا لله ﷻ ، وقد قيل : إنه الاسم الأعظم .

و ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله عز وجلّ والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر ، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً .

عن ابن عباس ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله السموات والأرض ، وما فيهن ، وما بينهن مما نعلم وما لا نعلم . وفي رواية : رب الجن والإنس ، واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وهم الجن والإنس .

والعالم مشتق من العلامة قلت : لأنه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز :

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْعَدُهُ الْجَاوِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بالترهيب ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَعَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ » ^(٢) .

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قرأ بعض القراء ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وقرأ آخرون ﴿ مَلِكِ ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع ^(٣) ، ويقال : ملك بكسر اللام وإسكانها ، ويقال : ملك أيضاً ، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ ﴿ مَلِكِي يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . وقد روي من طرق متعددة أن رسول الله ﷺ كان يقرأها ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ إِلَهَ الْوَحِيدِ الْفَهَارِ ﴾ وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قدم تقدم الإخبار بأنه رب العالمين ، وذلك عام في الدنيا والآخرة ، وإنما أضيف إلى يوم الدين ؛ لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّيْكَهُ صَفًّا لَا تَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ وعن ابن عباس في ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يقول : لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا .

قال : و ﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إلا من عفا عنه ، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر .

والملك في الحقيقة هو الله ﷻ قال الله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَيْكَ الْفُتُورُ أَسَلِّمُ ﴾ وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً : « أَخْتَنِعُ اسْمَ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلاكِ وَلَا مَالِكِ إِلَّا

(١) ذكره المنذري في الترغيب (٤٤١/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) والترمذي في السنن (٣٥٤٢) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) والأباني في الصحيحة (١٦٣٤) .

(٣) قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف (مالك) والباقون بغير الألف (انظر : تقريب النشر ص ٧) .

اللَّهُ» (١) وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ يَمِينَهُ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَتَى مُلْكُ الْأَرْضِ ؟ أَتَى الْجَبَّارُونَ ؟ أَتَى الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ » (٢) وفي القرآن العظيم ﴿ لَيْسَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ وقوله ﷺ : « مثل الملوك على الأسرة » (٣) .

و ﴿ الذِّبِّ ﴾ الجزء والحساب كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ وفي الحديث : « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » (٤) أي حاسب نفسه لنفسه كما قال عمر ؓ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم (٥) .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ العبادة في اللغة من الذلة يقال : طريق معبد وبغير معبد أي مذلل . وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف . وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحرص ، أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة . والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة ، والتفويض إلى الله ﷻ وهذا المعنى في غير آية من القرآن ، وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب ، وهو مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى ، وإرشاده لعباده بأن يشنوا عليه بذلك ، ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك ، وهو قادر عليه ، وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ » (٦) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : فَسَمِعْتُ الصَّلَاةَ يَتَنِي وَيَتَنِّي نَضْفَتَيْنِ نَضْفَتَيْنِ لِي وَنَضْفَتَهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ : حَمِدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ قَالَ اللَّهُ : أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ قَالَ اللَّهُ : مَجَّدَنِي عَبْدِي ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ : هَذَا يَتَنِي وَيَتَنِّي عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ : ﴿ هَدَيْنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صِرَاطَ الذِّبِّ أَمَتَتْ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَنْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ : هَذَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » (٧) . وعن ابن عباس ؓ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعني إياك نوحده ، ونخاف ، ونرجوكم يا ربنا لا غيرك ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها . وقال قتادة :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٣٧) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٢) ومسلم في صفات المنافقين (٢٣) وابن ماجه في السنن (١٩٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٩) ومسلم في الإمامة (١٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢٤٠/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٤/٤) والحاكم في المستدرک (٥٧/١) ، والبيهقي في السنن (٣٥١/٤) والطبراني في الكبير (٣٤١/٧) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥٩) .

(٦) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) وأبو داود في السنن (٨٢٢) والنسائي في السنن (١٣٧/٢) .

(٧) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨ ، ٤٠) ، والنسائي في السنن (١٣٦/٢) وأحمد في المسند (٢٤١/٢) ، والترمذي في السنن (٩٥٣) .

يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم ، وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها ، والاهتمام والجزم تقديم ما هو الأهم فالأهم .

فإن قيل : فما معنى النون في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع ، فالداعي واحد ، وإن كانت للتعظيم ، فلا يناسب هذا المقام ؟

وقد أجب بآن المراد من ذلك ، الإخبار عن جنس العباد ، والمصلي فرد منهم ، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم ، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير . ومنهم من قال : يجوز أن تكون للتعظيم ، كأن العبد قيل له : إذا كنت داخل العبادة ، فأنت شريف ، وجاهك عريض ، فقال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وإن كنت خارج العبادة ، فلا تقل نحن ، ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله ﷻ و فقرهم إليه . ومنهم من قال : إياك نعبد ، ألطف في التواضع من إياك عبدنا ، لما في الثاني من تعظيم لنفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى ، الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ، ولا يشي عليه كما يليق به ، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى .

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعبدته في أشرف مقاماته فقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ ، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ فسماه عبداً عند إنزاله عليه ، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به ، وأرشدته إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قراءة الجمهور بالصاد ، وقرئ السراط وقرئ بالزاي (١) .

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال : «فِيضْفُهَا لِي ، وَنَضْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسئوله ، ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة ، ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل . وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه ، كما قال موسى ﷺ : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ، وقد يتقدمه مع ذلك وصف مسئول كقول ذي النون : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ . وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول كقول الشاعر :

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَتَيْتُ عَلَيْكَ الْمُرَّةَ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

والهداية ههنا الإرشاد والتوفيق ، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

(١) روى رويس وابن مجاهد عن قبل (السراط ، وسراط) حيث أتى بالسین والباقون بالصاد ، وأشم خلف عن حمزة الصاد زائلاً (الزراط) في جميع القرآن واختلف عن خلاد ، وبه قرأ أبو عمرو الداني (انظر : تقريب النشر ص ٧) .

فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا .

وأما ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ فقال الطبري : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وذلك في لغة جميع العرب . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصر ، قال : ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامه أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعرج باعوجاجه .

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط ، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللرسول .

فروي أنه كتاب الله ، فعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللَّهِ » (١) .

وقيل : هو الإسلام ، فعن ابن عباس قال : قال جبريل لمحمد ﷺ : « قل يا محمد اهدنا الصراط المستقيم » يقول : ألهمنا الطريق الهادي ، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه ، وعنه في قوله تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : ذاك الإسلام ، وقال ابن الحنفية في قوله تعالى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره . وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَىٰ جَنْبَيْهِ الصُّرَاطِ سُرُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُّقْتَحَنَةٌ ، وَعَلَىٰ الْأَبْوَابِ سُورٌ مُّزَخَّاةٌ وَعَلَىٰ بَابِ الصُّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصُّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوِجُوا . وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصُّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْبِجُ ، فَالصُّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصُّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصُّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » (٢) . وقال مجاهد : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : الحق وهذا أشمل ، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم . وعن أبي العالية ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال : هو النبي ﷺ وصاحبه من بعده ، قال عاصم : فذكرنا ذلك للحسن فقال : صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة . فإن من اتبع النبي ﷺ ، واقتدى بالذين من بعده أبي بكر وعمر ، فقد اتبع الحق ، ومن اتبع الحق ، فقد اتبع الإسلام ، ومن اتبع الإسلام ، فقد اتبع القرآن ؛ وهو كتاب الله وحبله المتين وصراطه المستقيم ، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضاً والله الحمد . فإن قيل : فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟ .

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك ، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٩٦٧) وعزه للذهبي في مسند الفردوس .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٤) والحاكم في المستدرک (٧٣/١) والمظفر في الترغيب والترهيب (٢٤٤/٣) .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ مَن لَّهُنَّ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم : ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ مَوَاجِزِ السَّبِيلِ ﴾ ، وبهذا جاءت الأحاديث والآثر ؛ فعن عدي بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمتي وناساً ، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له فقالت : يا رسول الله ! نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فمئن علي من الله عليك ، قال : « مَن وَإِذْكَ ؟ » قالت : عدي بن حاتم ، قال : « الَّذِي قَرَأَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » قالت : فمئن علي ، فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه علي قال : سليه حملاتاً ، فسألته ، فأمر لها ، قال : فأتيتني ، فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها ، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبي ﷺ قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر فقال : « يَا عَدِي مَا أَفْرَكَ ؟ أُنْ يُقَالُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ؟ مَا أَفْرَكَ ؟ أُنْ يُقَالُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، فَهَلْ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ ﷻ ؟ » قال : فأسلمت ، فرأيت وجهه استبشر ، وقال : « إِنَّ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ الْيَهُودُ ، وَإِنَّ الضَّالِّينَ النَّصَارَى » . قلت : عن عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : « هم اليهود ﴾ ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال : « النصارى هم الضالون » ^(١) .

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله فقال : أنا من غضب الله أفر ، وقالت له النصارى : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال : لا أستطيعه ، فاستمتر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين ، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى ، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية ، لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك ، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي ﷺ .

مسألة : والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والطاء لقرب مخرجيهما وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس ، ومخرج الطاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ؛ ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ، ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة ، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم ، وأما حديث « أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ » ^(٢) ، فلا أصل له والله أعلم .

فصل : اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرئ من حولهم وقوتهم ، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٨/٤) ، والطبراني في الكبير (١٧/١٠٠) .

(٢) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة عند العامة ، وقد ذكره الجولوني في كشف الخفاء (٣٣٢/١) ، والفني في تذكرة الموضوعات

(٨٧) والشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية (٣٤١) .

وهو الدين القويم ، وثبتتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصُّراط الحسية يوم القيامة المفضي بهم إلى جنّات النعيم في جوار النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل ، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون ، وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ . وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية ، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به ، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَرَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجْدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال ، لا كما تقول الفرقة القدريّة ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ، ويحتججون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم ، وهذا حال أهل الضلال والغبي ، وقد ورد في الحديث الصحيح : « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَعَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ » ^(١) يعني في قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ فليس ، بحمد الله ، لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف ؛ لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد .

فصل : يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ، ومعناه اللهم استجب والدليل على استحباب التأمين ما روي عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا تلا ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال : « آمين » حتى يسمع من يليه من الصف الأول ^(٢) . ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٣) قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان ، وقيل في الإجابة ، وقيل في صفة الإخلاص .

وعن ابن عباس ، قال : قلت : يا رسول الله ما معنى آمين ؟ قال : « رَبِّ أَفْعَلْ » . وقال الترمذي : معناه لا تخيب رجاءنا . وقال الأكترون : معناه اللهم استجب لنا .

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية ، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً ، وإن أتم الإمام جهرًا فالجديد أنه لا يجهر المأموم ، وهو مذهب أبي حنيفة ورواية عن مالك ؛ لأنه ذكر من الأذكار ، فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة . والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك لما تقدم « حَتَّى يُرَوِّجَ الْمَسْجِدُ » . ولنا قول آخر ثالث أنه : إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم لأنهم يسمعون قراءة

(١) ذكره البيهقي في الأسماء والصفات (٤٥٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٩٣٤) وأحمد في مسنده (٣١٦/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٨١) ومسلم في الصلاة (٧٤) وأحمد في مسنده (٤٥٩/٣) والبيهقي في السنن (٥٥/٢) .

الإمام ، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد .

قلت : ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْوَالَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُخْلَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَمَنَّيَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمّن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ فدل ذلك على أن من أمّن على دعاء فكأنما قاله ، فلهذا قال من قال : إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء في الحديث « وَمَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقَرَأَهُ الْإِمَامُ لَهُ قِرَاءَةً » ^(١) وكان بلال يقول : لا تسبقني بآمين يا رسول الله ^(٢) . فدل هذا المنزع على أن المأموم لا قراءة عليه في الجهرية .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٦١/٢) والدارقطني في السنن (٣٢٦/١) وابن ماجه في السنن (٨٥٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢١٩/١) والبيهقي في السنن (٥٦/٢) والطبراني في الكبير (٣١١/٦) .

سورة البقرة

وآياتها ست وثمانون ومائتان

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا

عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : «البَقْرَةُ سِتَامُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ ، نَزَلَ مَعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْتُخْرِجَتْ ﷻ إِلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلْعَى النَّيْمُ ﷻ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ فَوُصِّلَتْ بِهَا - أَوْ فَوُصِّلَتْ بِسُورَةِ الْبَقْرَةِ - وَبِسَ قَلْبِ الْقُرْآنِ لَا يَقْرُؤُهَا رَجُلٌ يُرِيدُ اللَّهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ ، وَاقْرَأُوهَا عَلَيَّ مَوْتَاكُمْ » ^(١) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لَا تَجْعَلُوا يُيُوتُكُمْ قُبُورًا ؛ فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقْرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ » ^(٢) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «لَا أَلْفَيْنٌ أَحَدُكُمْ يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى يَتَعْنَى وَيَدْعُ سُورَةَ الْبَقْرَةِ يَقْرَأُهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقْرَةِ ، وَإِنْ أَصْغَرَ الْبَيْتِ الْجَوْفُ الصَّغِيرُ مِنَ كِتَابِ اللَّهِ » ^(٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَغْنَا وَهُمْ ذُوو عَدَدٍ فَاسْتَقْرَأَهُمْ فَاسْتَقْرَأَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا مَعَهُ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَتَى عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًا فَقَالَ : «مَا مَعَكَ يَا فُلَانُ ؟ » فَقَالَ : مَعِيَ كَذَا وَكَذَا وَسُورَةُ الْبَقْرَةِ فَقَالَ : «أَمَعَكَ سُورَةُ الْبَقْرَةِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : «اذْهَبْ فَأَنْتَ أَمِيرُهُمْ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ : وَاللَّهِ مَا مَعْنِي أَنْ أَتَعْلَمَ سُورَةَ الْبَقْرَةِ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ لَا أَقُومَ بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «تَعْلَمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَؤُوهُ ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعْلَمُهُ فَقَرَأَهُ وَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَخْشُوهُ مِسْكًا يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَثَلُ مَنْ تَعْلَمُهُ فَيَزُقُّدْ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أَوْكِي عَلَى مِثْلِكِ » ^(٤) وعن أسيد بن حضير ﷺ قال : بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقْرَةِ - وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ - إِذْ جَالَتْ الْفَرَسُ ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ ، فَقَرَأَ فَجَالَتْ الْفَرَسُ ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتْ الْفَرَسُ ، فَانصرفت ، وكان ابنه يحيى قريئًا منها ، فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال : «اقْرَأْ يَا ابْنَ حَضِيرِ » قَالَ : قَدْ أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى يَحْيَى ، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيئًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا قَالَ : «وَتَذَرِي مَا ذَاكَ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : «بَلَّكَ الْمَلَائِكَةُ دَنْتَ لِبَصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ » ^(٥) وعن جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدثوه أن رسول الله ﷺ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهو مصابيح قال : «فَلَعَلَّهُ قَرَأَ سُورَةَ الْبَقْرَةِ » قال : فسألت ثابتًا ، فقال : قرأت سورة البقرة ^(٦) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٩/٢) ، والسيوطي في جمع الجوامع (١٠٣١١) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٢) والترمذي في السنن (٢٨٧٧) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٢) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٢/٦) والهندي في كنز العمال (٢٥٥١) .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٨٧٦) . (٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٨) .

(٦) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٥٧/٩) .

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول « تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنْ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ وَتَزَكَّهَا حَشَرَةٌ وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ » قال : تم سكت ساعة ثم قال : « تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزُّهْرَاوَانِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَّاتَانِ أَوْ فَرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاجِبِ فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ : مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُولُ : أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنَ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ وَأَسْهَوْتُ لَيْلَكَ ، وَإِنْ كُلُّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ ، فَيُعْطَى الْمَلِكُ يَمِينَهُ وَالْخُلْدُ بِشِمَالِهِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ خُلَّتَانِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ : بِمِ كَسِينَا هَذَا ؟ فَيَقَالُ : بِأَخْذِكَ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ يُقَالُ : أَفْرَأَ وَاضْعُدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرْفِهَا فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذَا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً » (١) .

الزهرأوان : المنيرتان ، والغياية ما أظلك من فوقك . والفرق : القطعة من الشيء ، والصواف : المصطفة المتضامة ، والبطلة : السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها ، وقيل : لا تستطيع النفوذ في قارئها . ومن ذلك حديث النّوأس بن سمعان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدَمُهُمْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ » وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال : « كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ وَيَبْتَهُمَا شَرْقٌ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فَرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِيهِمَا » (٢) .

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ السَّبْعِ الطَّوْلِ

عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال : « أُعْطِيتُ السَّبْعَ الطَّوْلَ مَكَانَ التَّوْرَةِ ، وَأُعْطِيتُ الْمِيزَانَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ ، وَأُعْطِيتُ الْمَثَانِي مَكَانَ الزَّبُورِ وَفُضِّلْتُ بِالْمُفْضَلِ » (٣) ، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأَوَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ خَيْرٌ » (٤) وعن سعيد بن جبیر في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْأَمْثَانِ ﴾ قال : هي السبع الطول ؛ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ، قال : وقال مجاهد هي السبع الطول .

فصل : والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها ، ولكن قوله تعالى فيه : ﴿ وَأَنْتُمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ رَجَعْتُمْ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية يقال : إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها ، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل ، وكان خالد بن معدان يسمي البقرة فسطاط القرآن . وعن ابن عباس : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وعن عبد الله بن الزبير قال : نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وعن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ، ثم قال : هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٥) والدارمي في السنن (٤٥٠/٢) ، والحاكم في المستدرک (٥٦٠/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٣/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) والطبراني في الكبير (٧٦/٢٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٣/٦) والحاكم في المستدرک (٥٦٤/١) .

وعن عتبة بن مرثد قال : رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً فقال : « يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ » ^(١) وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم : « يَلَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ » يعني أهل بيعة الرضوان لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَلَمْ ﴾ قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور ، فمنهم من قال : هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها .

ومنهم من فسرهما ، واختلف هؤلاء في معناها ، قال ابن زيد بن أسلم : إنما هي أسماء السور . وعن مجاهد أنه قال : ﴿ اَلَمْ ﴾ و ﴿ حَمْ ﴾ و ﴿ اَلتَّص ﴾ و ﴿ مَنَّ ﴾ فوائج افتتح الله بها القرآن ، وعن ابن أبي نجیح أنه قال : ﴿ اَلَمْ ﴾ اسم من أسماء القرآن ، ولعل هذا يرجع إلى معنى أنه اسم من أسماء السور ، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون ﴿ اَلتَّص ﴾ اسماً للقرآن كله ؛ لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول : قرأت ﴿ اَلتَّص ﴾ إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن . وقيل : هي اسم من أسماء الله تعالى ، فقال الشعبي وغيره : فوائج السور من أسماء الله تعالى ، وعن شعبة قال : سألت السدي عن ﴿ حَمْ ﴾ و ﴿ طَسَّ ﴾ و ﴿ اَلَمْ ﴾ فقال : قال ابن عباس : هي اسم الله الأعظم . وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ اَلَمْ ﴾ قال : أما ﴿ اَلَمْ ﴾ فهي حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى .

قلت : مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي (ا ، ل ، م ، ص ، ر ، ك ، هـ ، ي ، ع ، ط ، س ، ح ، ق ، ن) يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهي نصف الحروف عددًا والمذكور منها أشرف من المتروك ويبان ذلك من صناعة التصريف . قال الزمخشري : وهذه الحروف الأربعة عشرة مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ، ومن المستعلية والمنخفضة ، ومن حروف القلقة . وقد سردها مفصلة ثم قال : فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها . وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله ، ومن ههنا لخص بعضهم في هذا المقام كلاماً فقال : لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى ؛ ومن قال من الجهلة : إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيراً ، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر ، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به ، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا : ﴿ مَا مَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيك ، كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي الصريح في أماكن قال : وجاء منها على

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥٤٦٥) وسعيد بن منصور في سننه (٢٩٠٨)

حرف واحد كقوله : ﴿ مَنَّ ﴾ ﴿ تَّ ﴾ ﴿ قَ ﴾ . وحرفين مثل ﴿ حَم ﴾ وثلاثة مثل ﴿ اَلَمْ ﴾ وأربعة مثل ﴿ اَلْتَّ ﴾ و ﴿ اَلَمَّ ﴾ وخمسة مثل ﴿ كَهَمَمَ ﴾ و ﴿ حَمَّ ﴾ عَسَقَ ﴾ لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

قلت : ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، ويان إعجازه وعظمته . وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم ، فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره .

﴿ اَلَمْ ﴾ ذَلِكَ اَلِكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ ذَلِكَ اَلِكِتَابُ ﴾ أي هذا الكتاب وذلك بمعنى هذا ، والعرب تعارض بين اسمي الإشارة ، فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر وهذا معرّوف في كلامهم ، وقال الزمخشري : ذلك إشارة إلى ﴿ اَلَمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكُورْ عَوَاتِّ يَتَكَ ذَلِكَ ﴾ وقد ذهب بعض المفسرين أن ذلك إشارة إلى القرآن الذي وعد الرسول ﷺ بإنزاله عليه .

ومن قال : إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل ، كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزاع ، وتكلّف ما لا علم له به .

والريب الشك ، وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : ﴿ لَا رَيْبَ فِيْهِ ﴾ : لا شك فيه . ومعنى الكلام أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهي أي لا ترتابوا فيه .

ومن القراء من يقف على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ ويستدئ بقوله تعالى : ﴿ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ، والوقف على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيْهِ ﴾ أولى للآية التي ذكرناها ؛ ولأنه يصير قوله تعالى : ﴿ هُدًى ﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون ﴿ فِيْهِ هُدًى ﴾ .

و ﴿ هُدًى ﴾ يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت ومنصوبًا على الحال ، وخصت الهداية للمتقين كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُمْ عَلَيْهٖ عَمًى اُولَٔئِكَ يَنَادُوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيْدٍ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار ، وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني نورًا للمتقين . وقال ابن عباس : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بي ويعملون بطاعتي .

وعن ابن عباس ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال : الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به . وقيل : الذين يجتنبون كبائر الإثم . واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله . وهو كما قال . وقد روي عن عطية السعدي قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَبْلُغُ

الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدْعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا يَمَّا بِهِ بَأْسٌ ، ^(١) وعن ميمون أبي حمزة قال : كنت جالسًا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له : أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى ، سمعته يقول : يحبس الناس يوم القيامة في بقيق واحد فينادي مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر ، قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا الله العبادة فيمرون إلى الجنة . ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله ﷻ . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأصل التقوى للتوقي مما يكره لأن أصلها وقى من الوقاية قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَّاوَلْتُهُ وَأَتَقْنَا بِالسَّيِّدِ

وقد قيل : إن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى ، فقال له : أما سلكت طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت قال : فذلك التقوى . وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ الثَّقَى
وَاضْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَزْ ضِ الشُّؤْكَ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا اسْتَفَادَ الْمَرْءُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ أَمْسَمَ عَلَيْهَا أَبْرَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ » ^(٢) . ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

عن عبد الله قال : الإيمان التصديق . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يؤمنون يصدقون . وعن الزهري : الإيمان العمل . وعن الربيع بن أنس : يخشون .

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولًا واعتقادًا وعملاً ، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق بالعمل ، والإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل .

قلت : أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك . كما قال تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلنَّبِيِّينَ ﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ ، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال كقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملاً . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٥١) وابن ماجه في السنن (٤٢١٥) والبيهقي في السنن (٣٣٥/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٦٤/٨) وابن ماجه في السنن (١٨٥٧) والمنذري في الترغيب (٤١/٣) .

بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعاً : أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص . ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ والخشية خلاصة الإيمان والعلم . وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه ، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو العالبة في قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ قال : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وعن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن . وقال ابن عباس ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ قال : بما جاء منه - يعني من الله تعالى وقيل : الغيب : القرآن . ﴿ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

أي يقيمون الصلاة بفروضها . وقال الضحاك عن ابن عباس : إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها . وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها . وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ فهذا إقامتها . وقال ابن عباس : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : زكاة أموالهم . وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ قال : نفقة الرجل على أهله ، وهذا قبل أن تنزل الزكاة . وقال الضحاك : كانت النفقات قرباناً يتقربون بها إلى الله على قدر ميرستهم وجهدهم ، حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات ؛ هن النسخات المثبتات . واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات ، فإنه قال : وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين ، زكاة كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك ؛ لأن الله تعالى وصفهم ومدحهم بذلك ، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه .

قلت : كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال . فإن الصلاة حق الله وعبادته ، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده ، والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم ، وأولى الناس بذلك القربان والأهلون والماليك ، ثم الأجانب ، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ولهذا ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحُجِّ الْبَيْتِ » ^(١) وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء . ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير : وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله ، مع ما يسأل ربه من حاجاته . وقيل هي مشتقة من الصلي ، وهو الملازمة للشيء من قوله

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ومسلم في الإيمان (٢٠) والترمذي في السنن (٢٦٠٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٤) .

تعالى : ﴿ لَا يَسْتَلْهَىٰ ﴾ أي لا يلزمها ويدوم فيها ﴿ إِلَّا الْآتِفَ ﴾ واشتقاقها من الديقاء أصبح وأشهر .
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ..

أي يصدقون بما جئت به من الله ، وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاءهم به من ربهم . ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا . وقد اختلف المفسرون في الموصوفين هنا ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاهما ابن جرير :

أحدها : أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً وهم كل مؤمن ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم .
والثاني : هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب ، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات .
والثالث : أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب والموصوفون ثانياً بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ لمؤمني أهل الكتاب ، ويستشهد لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ، وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوْلَاهُ ، وَرَجُلٌ أَدْبَ جَارِيَتَهُ فَأَخْسَنَ تَأْدِيَتَهَا ثُمَّ أَتَقَمَهَا وَتَزَوَّجَهَا » (١) . وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة ، وهي أن الله وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين ، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق ، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين عربي وكنابي ..

قلت : والظاهر قول مجاهد أنه قال : أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة في المنافقين ، فهذه الآيات الأربع عامات في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكنابي من إنسي وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى ، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها ، فلا يصح الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والزكاة ، إلا مع الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ ، وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والإيقان بالآخرة ، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله وكتبه . لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً فإذا دخلوا في الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين ، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملًا ، كما جاء في الصحيح « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُكْذِبُوهُمْ وَلَا تَصْدُقُوهُمْ وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ » (٢) . ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام ، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيشة فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلوا لهم .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١١٦) والنسائي في السنن (١١٥/٦) ، وأحمد في مسنده (٤٠٥/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٦/٤) ..

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي المتصفون بما تقدّم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق من الذي رزقهم الله ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل ، والإيقان بالدار الآخرة ، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات ﴿ عَلَى هُدًى ﴾ أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

وقال ابن جرير : فإنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم ، وتأويل قوله تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي غطوا الحق وستره ، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك ، سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به . أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ، ومن أضله فلا هادي له ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة ، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهملك ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ : كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ أي طبع الله ، وقال قتادة في هذه الآية : استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ، ولا يفقهون ، ولا يغفلون . قال مجاهد : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : الطبع ثبت الذنوب على القلب فحقت به من كل نواحية حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم . وقال ابن جرير ، وقال بعضهم : إنما معنى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم ، وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال : إن فلاناً أصم عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً ، قال : وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم .

قلت : وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً وما جراه على ذلك إلا اعتزاله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ولو فهم قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبُ أَفْسَدَتُهُمْ وَأَبْصَرَتُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْتُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى ، جزاء وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح ، فلو أحاط علماً بهذا ما قال : والله أعلم .

قال القرطبي : وأجمعت الأمة على أن الله ﷻ قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال : ﴿ بَلْ مَلَغَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَكْرَهُمْ ﴾ وذكر حديث قلب القلوب : « وَيَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ بَيِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ » ^(١) وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : « تُغْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ سَوْدَاءَ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ بَيْضَاءَ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَيْضٍ مِثْلَ الصُّفَا فَلَا تُضَرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالْآخِرُ أَشْوَدُ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا لَا يَعْرِفُ مَغْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا » ^(٢) وقال ابن جرير : والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَكْتَةُ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَتَرَعَ وَاسْتَعْتَبَ ؛ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَغْلُو قَلْبُهُ ؛ فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » ^(٣) قال ابن جرير : فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفرض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها . وإعلم أن الوقف التام على قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة وهي الغطاء يكون على البصر ، فعن ابن عباس : الغشاوة على أبصارهم ، وقال ابن جريح : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر . لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ، ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين ، شرع الله تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبتلون الكفر ، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس ، أطنب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق ، كما أنزل سورة براءة فيهم ، وسورة المنافقين فيهم ، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور ، تعريفًا لأحوالهم لتجنب ويجتنب من تلبس بها . ﴿ وَنَ الْنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ .

النفاق هو إظهار الخير ، وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادي ، وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب ، قال ابن جريح : المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ، فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً ، وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم ، وكانوا ثلاث قبائل بنو

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢٥١/٦) والحاكم في المستدرک (٢٨٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٣١) والمنذري في الترغيب (٢٣١/٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٢٤٤) والحاكم في المستدرک (٥١٧/١) وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

قينقاع حلفاء الخزرج ، وبنو النضير ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلة من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام ﷺ ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا ؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول وكان رأسًا في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية ، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق ؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

عن ابن عباس ﴿ وَنَ الْآنَاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَاْلَيُّوْا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ ﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع لذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ، ومن اعتقاد إيمانهم وهو كفار في نفس الأمر ، وهذا من المحذورات الكبار أن يظنُّ بأهل الفجور خير فقال تعالى : ﴿ وَنَ الْآنَاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَاْلَيُّوْا الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ ﴾ أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر .

وقوله تعالى : ﴿ يُخٰدِعُوْنَ اللّٰهَ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا ﴾ أي يظهرون ما أظهروه من الإيمان ، مع إسرارهم الكفر ، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه ، كما قد يروج على بعض المؤمنين ؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله : ﴿ وَمَا يُخٰدِعُوْنَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ يقول : وما يغترون بصنيعهم هذا ، ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم . عن ابن جريج في قوله تعالى : ﴿ يُخٰدِعُوْنَ اللّٰهَ ﴾ قال : يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك . وقال قتادة : نعت المنافق عند كثير : خنع الأخلاق ، يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، يصبح على حال ويمسي على غيره ، ويمسي على حال ويصبح على غيره ، ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها . ﴿ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَمٌ فَرٰدَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْدٌ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴾ .

عن ابن مسعود وابن عباس وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية ﴿ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَمٌ ﴾ قال : شك ﴿ فَرٰدَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا ﴾ قال : شكاً ، وعن طاووس : يعني الرياء . وقال ابن عباس : نفاق ﴿ فَرٰدَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا ﴾ قال : نفاقاً وهذا كالأول .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴾ وقرئ (يكذبون) ^(١) وقد كانوا متصفين بهذا وهذا ، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا .

وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع

(١) وهي قراءة جمهور القراء (انظر : زاد المسير ٣١/١) .

علمه بأعيان بعضهم ، وذكروا أجوبة عن ذلك منها : أنه ﷺ قال لعمره : « أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » ^(١) ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتله لهم ، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر ، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم ، فيقولون : إن محمداً يقتل أصحابه ، قال القرطبي : وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطي المؤلف مع علمه بسوء اعتقادهم . قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وعن ابن الماجشون . ومنها : ما قال مالك : إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه . قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه ، وإن اختلفوا في سائر الأحكام قال : ومنها ما قال الشافعي : إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يجب ما قبله . ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام « أَمِيزْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوا هَا غَضَبُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ » ^(٢) ومعنى هذا : أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً ، فإن كان يعتقد أنها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة ، وإن لم يعتقد أنها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا . ومنها ما قاله بعضهم أنه : إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم .

قلت : وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا ، أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا ، أو يتكرر منه ارتداده أم لا ، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه ؟ تنبيه : قول من قال : كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين ، إنما مستنده حديث حذيفة ابن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكروا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك ، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليستقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة ، ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم .

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَرَّ يَنْتَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا ۖ ﴾ ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ، ولم يدرك على أعيانهم ، وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَوْنَتْكَ لَوْنُكُمْ فَلَمَّا رَفَعْتَهُمْ بِسْمَتِهِمْ لَنُغْرِيَنَّكَ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۖ ﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي ابن سلول ، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ، ومع هذا لما مات صلى عليه النبي ﷺ وشهد دفنه ، كما يفعل ببقية المسلمين ، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال : « إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۖ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ﴾ .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٣/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ومسلم في الإيمان (٣٦) والنسائي في السنن (٦/٦ ، ٧) .

عن ابن مسعود قال : هم المنافقون ، أما ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية ، وعن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله ؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : إذا ركبوا معصية الله ففيل لهم : لا تفعلوا كذا وكذا قالوا : إنما نحن على الهدى مصلحون . وعن سلمان الفارسي في هذه الآية قال : ما جاء هؤلاء . قال ابن جرير : يحتمل أن سلمان رضي الله عنه أراد بها أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمن النبي ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد ، قال ابن جرير : فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم ، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه ، وتضييعهم فرائضه ، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به ، والإيقان بحقيقته ، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم مقيمون من الشك والريب ، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، فذلك إفساد المنافقين في الأرض ، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال ابن عباس : ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه لإصلاح هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَاخِشُوا اللَّهَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والحياة والنار ، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في أمثال الأوامر وترك الزواجر ﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم ، يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء ؟ والسفهاء جمع سفیه ؛ لأن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ، وقد تولّى سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى . ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤْنَ ۗ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا الإيمان والموالاة والمصافات غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية ، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغرم ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ يعني إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم ، فضمن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ، ومنهم من قال : (إلى) هنا بمعنى (مع) والأول أحسن ، وقال أبو مالك : ﴿ خَلَوْا ﴾ يعني مضوا و ﴿ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ سادتهم وكبرائهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود

ورؤوس المشركين والمنافقين . وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ وَإِذَا خَلَا إِلَى شَاطِئِهِمْ ﴾ : يعني هم رؤساؤهم في الكفر . وقال الضحاك عن ابن عباس : وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أي إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . وعن ابن عباس : قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ .

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة لهم على صنيعهم : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّا يُفْقِسُهُمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا ﴾ الآية ، قال : فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين ، وأهل الشرك به عند قاتل هذا القول ، وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به . وقال آخرون : إن معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا دخلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، يعني من العذاب والنكال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره ؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله ﷻ بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : يمدهم يملئ لهم . وقال مجاهد : يزيدهم ، قال ابن جرير : والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ، والطغيان هو المجاوزة في الشيء . وقال ابن جرير : والعمه : الضلال يقال : عمه فلان يعمه عمها وعموها إذا ضل ، قال : وقوله ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلامهم رجسه ، يترددون حيارى ضلالاً لا يجدون إلى الخروج منه سبيلاً ؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً . وقال بعضهم : العمى في العين والعمه في القلب وقد يستعمل العمى في القلب أيضاً . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِعْدَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

عن ابن عباس ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ ﴾ أي الكفر بالإيمان . وقال مجاهد : آمنوا ثم كفروا . وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى . وحاصل قول المفسرين فيما تقدم : أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ ﴾ أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة وسواء في ذلك من كان قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر ، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى ، كما يكون حال فريق آخر منهم ، فإنهم أنواع وأقسام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ بِعْدَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك ، وقال قتادة : قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَرَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝

مُتَّبِعِينَكُمْ عَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ .

يقال : مَثَلٌ ومَثَلٌ ومَثَلٌ والجمع أمثال ، وتقدير هذا المثل : أن الله سبحانه شبههم في اشتراطهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى ، واستجابهم الغي على الرشد ، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع ، والله أعلم .
وقال بعضهم : تقدير الكلام مثل قصتهم كقصه الذين استوقدوا نارًا .

قلت : وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ مُتَّبِعِينَكُمْ عَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام ، وقوله تعالى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك ﴿ مُتَّبِعِينَكُمْ ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿ عَنْهُمْ ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة فلهذا ﴿ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة .

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُبٌّ يَجْعَلُونَ أَسْجِدًا لِّلَّذِينَ هُمْ يُعْبَدُونَ ۚ وَآذَانُهُمْ مِّنَ الصُّوفِ حَدَرٌ مِّنَ النَّوْثِ ۚ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِٱلْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّنْشَرٌ فِيهِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أخرى ، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿ كَصَيْبٍ ﴾ والصيب المطر ، وقال الضحاك : هو السحاب ، والأشهر : هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات : وهي الشكوك والكفر والنفاق ، ورعد : وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع .

والبرق : هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، ولهذا قال : ﴿ يَجْعَلُونَ أَسْجِدًا لِّلَّذِينَ هُمْ يُعْبَدُونَ ۚ وَآذَانُهُمْ مِّنَ الصُّوفِ حَدَرٌ مِّنَ النَّوْثِ ۚ وَاللَّهُ يُحِيطُ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئًا ؛ لأن الله محيط بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته ثم قال : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي لشدة وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان . وقال ابن عباس : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ؛ لشدة ضوء الحق ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّنْشَرٌ فِيهِ إِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين . وقال ابن عباس ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّنْشَرٌ فِيهِ ﴾ يقول : كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه ، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر ، يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة ، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين . وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم ، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر

من ذلك ، وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى ، ومنهم من يمضي على الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخالص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ظُهُورِهِمْ يُدْرِكُونَ مِمَّا رَّبُّهُمْ عَلِيمٌ بِذُنُوبِهِمْ قَدْ أَفْلَحَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِتْنَةٌ يَوْمَ الْمُنَاقَبَةِ ﴾ .

فتلخص من ذلك : أن المؤمنين صنفان : مقربون وأبرار ، وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون ، وأن المنافقين أيضًا صنفان : صنف منافق خالص ، ومنافق فيه شعبة من نفاق ، فعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَتْ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ الثَّقَافِ حَتَّى يَدْعَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اتَّخَذَ نَحَانَ » ^(١) استدلو به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق ، وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ ؛ قَلْبٌ أَجْرَدٌ فِيهِ مِثْلُ السَّرَاجِ يُزْهِرُ ، وَقَلْبٌ أَغْلَفٌ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ ، وَقَلْبٌ مَنكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصَفَّحٌ ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ فَيَسْرَاجُهُ فِيهِ نُورٌ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ الْخَالِصِ ، عَرَفَ ثُمَّ أَتَكَرَّ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصَفَّحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ ، وَمِثْلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمِثْلِ الْبِقْلَةِ بِمِدْهَا الْمَاءِ الطَّيِّبِ ، وَمِثْلُ الثَّقَافِ فِيهِ كَمِثْلِ الْفَرْحَةِ بِمِدْهَا الْقَيْحِ وَالدَّمِ ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : لما تركوا من الحق بعد معرفته ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وعنه : أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى قدير قادر ، كما معنى عليم عالم ، وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضمروبان لصنف واحد من المنافقين .

قلت : وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ، ولهم أحوال وصفات ، كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة يذكر أحوالهم وصفاتهم ، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم ، والله أعلم ، كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْكُفْرِ يَتَعَفَّوْنَ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ أَوْ كُفِّلْتُمْ فِي بَحْرِ لُجِيِّ ﴾ الآية فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب ، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين . ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ انْبِعَادًا رَّبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ رِيشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

شرح تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغهم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، بأن جعل لهم الأرض فراشًا أي مهدًا كالفرش مقررًا

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) والترمذي في السنن (٢٦٣٢) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) جميعهم بلفظ « أربع من كن فيه » وليس « ثلاث » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٣) والطبراني في الصغير (١١٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/١) .

موطأة، مثبتة كالرواسي الشامخات، والسماء بناء وهو السقف، وأنزل لهم من السماء ماء، والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد، رزقا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن، ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١). وعن معاذ: «أتدري ما حق الله على عباده؟ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(٢). وعن الطفيل بن سبخرة أخيه عائشة أم المؤمنين لأمرها قال: رأيت فيما يرى النائم كأنني على نفر من اليهود فقلت من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزيرًا ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، قال: ثم مررت بنفر من النصاري فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصاري، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «هَلْ أَخْبَرْتِ بِهَا أَحَدًا؟» قلت: نعم، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَتْ يَمْتَنِعُنِي كَذًا وَكَذًا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدُّهُ»^(٣).

عن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدُكُمْ رَبِّكُمْ﴾ للفریقین جميعًا من الكفار والمنافقين، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وعنه في قول الله ﷻ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ قال: الأنداد هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأنانا للصوص البارحة، ولولا البط في الدار لأنني للصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان.

ذِكْرُ حَدِيثٍ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَأَنْهُ كَادَ أَنْ يُنْطِيءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَأَمَّا أَنْ تُبْلَغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبْلَغَهُنَّ؟ فَقَالَ: يَا أَحْيَى إِنِّي أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أَعَذَّبَ أَوْ يُخْصَفَ بِي، قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأُؤَمِّرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ. أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بَوْرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُوَدِّي عِلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَأُؤَمِّرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والنسائي في السنن (٩٠/٧) والترمذي في السنن (٣١٨٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤/٥).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٥) والطبراني في الكبير (٣٨٩/٨).

يَنْصُوبُ وَجْهَهُ لِرَوْحِهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَقِثْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا . وَأَمَرَكُمْ بِالصَّيَامِ ، فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صَرَّةٌ مِنْ مِشْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِشْكِ ، وَإِنْ خَلُوفَ قَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِشْكِ . وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُقْبِهِ ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُقْبَهُ ، وَقَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ أَنْ أَقْتِدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ . وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنْ الْعَبْدُ أَحْصَصَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ ۖ قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَأَنَا أَمُرُكُمْ بِخُمْسِ ، اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ : الْجَمَاعَةُ وَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالْهَجْرَةُ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُقْبِهِ ، إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ فَهُوَ جُنْحِي جَهَنَّمَ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ؟ فَقَالَ : « وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ عَلَى مَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ » (١) .

وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سأله عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد ، فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل ! فقال : ويحك هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي ، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، ليس لها صانع ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه . وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاة والبقرة والأنعام فتلقيه بعرا وروثا ، وتأكله الطيأة فيخرج منها المسك وهو شيء واحد . وسئل أبو نواس عن ذلك فأشدد :

تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ
عُيُونُ مِنَ الْجِنِّ شَاخِصَاتٍ بِأَخْدَاقِ هِيَ الذُّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضْبِ الزَّبْرِجِدِ شَاهِدَاتٍ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ أَتَىٰ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أَعْلَتُ لِلْكَافِرِينَ ۝ ﴾ .

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو ، فقال مخاطبًا للكافرين : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ من مثل ما جاء به ، إن زعمت أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك . قال ابن عباس : شهداءكم أعوانكم . وقال أبو مالك : شركاءكم أي قوما آخرين يساعدونكم على ذلك ، أي استعينوا بالهتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم . وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن

فقال في سورة القصص : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقال في سورة سبحان : ﴿ قُلْ لَّيِّنَ أَجَنَّتِ الْآيَةُ وَالَّذِينَ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ وقال في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِشِرِّ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْرُوكٍ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطْعَمُهُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وكل هذه الآيات مكية ، ثم تحداهم بذلك أيضًا في المدينة فقال في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ يعني من مثل القرآن ، فإنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم ، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى أحادهم الأميين ، ممن لا يكتب ولا يعاني شيئًا من العلوم ، ولهذا قال تعالى ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ أي ولن تفعلوا ذلك أبدًا ، وهذه أيضًا معجزة أخرى ، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا مقدمًا غير خائف ولا مشفق ، أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، وأتى يتأتى ذلك لأحد . والقرآن كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ، ومن جهة المعنى قال الله تعالى : ﴿ الرَّ كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه ، أو بالعكس على الخلاف ، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذي ولا يداني ، فقد أخبر عن مغييات ماضية كانت ، ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل في الشعر : إن أعذبه أكذبه ، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة ، التي لا تفيد شيئًا إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق ، أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته .

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلًا وإجمالًا ، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الخلاوة ، سواء كانت مبسطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكرّر حلا وعلا ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان ، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن ، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف ، حسن نافع ، طيب محبوب ، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن : يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأحوال ، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأنذرت ، ودعت إلى فعل

الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) وقوله ﷺ : « وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا » أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أما الوقود فهو ما يلقي في النار لإضرامها كالحطب ونحوه ، والمراد بالحجارة ههنا : هي حجارة الكبريت ، العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حرًا إذا حميت أجارنا الله منها ، كما قال عبد الله بن مسعود وغيره .
وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ، ولا منافاة بين القولين في المعنى ، لأنهما متلازمان . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله ، قال ابن عباس : أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر . وقد استدلل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أي أرصدت وهيئت ، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ » (٢) وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى .

تَبَيُّهُ يَنْبَغِي الْوُقُوفَ عَلَيْهِ

قوله تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ وقوله في سورة يونس ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ يعم كل سورة في القرآن ، طويلة كانت أو قصيرة ؛ لأنها نكرة في سياق الشرط ، فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين ، كما هو مقرر في موضعه ، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا ، وقد قال الرازي في تفسيره : فإن قيل : قوله تعالى ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله ، أو بما يقرب منه ، ممكن . فإن قلتم : إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر ، كان مكابرة ، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين قلنا : فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني ، وقلنا : إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز ، فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزًا ، فعلى التقديرين يحصل المعجز ، هذا لفظه بحروفه . والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها ، طويلة كانت أو قصيرة . قال الشافعي رحمته الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم ﴿ وَالصَّبْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وحيزة بليغة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَشِيرٌ ۝ فَفَكَرَ سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : وَلَقَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ مِثْلَهَا فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَقَالَ : يَا وَيْرَ يَا وَيْرَ إِنَّمَا أَنْتَ أَذْنَانُ وَصَدْرٌ وَسَائِرُكَ حَقَرٌ فَقَرَّ ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ تَرَى يَا عَمْرُو فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّكَ لَأَعْلَمُ أَنْ تَكْذِبَ .

﴿ وَيَنْبِرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝

لما ذكر تعالى ما أعدّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنعكس ، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله ، الذين صدّقوا بإيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه ، أو السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله . قال تعالى : ﴿ وَيَنْبِرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار ، أي من تحت أشجارها وغرفها وفي الحديث : « أَنَهَارُ الْجَنَّةِ تَفْجُرُ مِنْ تَحْتِ تِلَالٍ ، أَوْ مِنْ تَحْتِ جِبَالِ الْمِشْكِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل ، قال : لأنهم أتوا بالشجرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا . وقال عكرمة : ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ : معناه مثل الذي كان بالأمس . ﴿ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا ﴾ يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول : هذا الذي أتينا به من قبل ، فتقول الملائكة : كُلُّ فَالْلون واحد والطعم مختلف . وهو قول الله تعالى : ﴿ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا ﴾ وقال أبو العالية : يشبه بعضه بعضاً ، ويختلف في الطعم . وقال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم : يعرفون أسماءهم كما كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان ، قالوا في الجنة : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وأتوا به متشابهاً يعرفونه ، وليس هو مثله في الطعم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي من القدر والأذى . وقال مجاهد : من الحيض والغائط والبول والنخام والبراق والمني والولد .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ، ولا انقضاء ، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ يَهْدِنَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝

عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وعن

قتادة : لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟
فأنزل الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ وعن الربيع بن أنس في هذه الآية
قال : هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا تمت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم
الذين ضرب لهم هذا المثل في القرآن ، إذا امتلأوا من الدنيا رأيا أخذهم الله عند ذلك ، فهذا اختلافهم في
سبب النزول . وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدي ، لأنه أمس بالسورة وهو مناسب ، ومعنى الآية : أنه
تعالى أخبر أنه لا يستحي أي لا يستنكف ، وقيل : لا يخشى ، أن يضرب مثلاً ما ، أي : أي مثل كان ،
بأي شيء كان ، صغيراً كان أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل ، وتكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة على البدل ، كما
تقول : لأضربن ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء ، أو تكون ﴿ مَّا ﴾ نكرة موصوفة ببعوضة ، واختار ابن
جرير أن ﴿ مَّا ﴾ موصولة ، و ﴿ بَعُوضَةً ﴾ معربة بإعرابها ، قال : وذلك سائق في كلام العرب ؛ أنهم
يعربون صلة ما ومن بإعرابها ؛ لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :
يَكْفِي بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرَنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه قولان : أحدهما : فما دونها في الصغر والحقارة ، كما إذا وصف
رجل باللؤم والشح ، فيقول السامع : نعم ، وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - والثاني : فما فوقها لما
هو أكبر منها ؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال :
« مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ ، وَمُحِيتَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ » ^(١) فأخبر أنه لا
يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما لا يستنكف عن خلقها ،
كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ
ضَرْبٌ مِثْلُ مَا فَاسْتَوَعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ
شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّلَافِ وَالطَّلَافُ كَثِيرٌ ﴾ وفي القرآن أمثال كثيرة : قال بعض السلف إذا سمعت
المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا
إِلَّا الْكَاسِلُونَ ﴾ . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾
الأمثال صغیرها وكبیرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها .

وقال قتادة : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي يعلمون أنه كلام الرحمن ، وأنه
من عند الله . وقال أبو العالية : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ يعني هذا المثل .
﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود وناس من
الصحابه : يضل به كثيراً ، يعني به المنافقين ، ويهدي به كثيراً ، يعني به المؤمنين ، فيزيد هؤلاء
ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم ، وأنه
لما ضرب له موافق ، فذلك إضلال الله إياهم به ، ويهدي به - يعني المثل - كثيراً من أهل الإيمان
والتصديق ، فيزيدهم هدى إلى هداهم ، وإيماناً لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه
الله له مثلاً ، وإقرارهم به ، وذلك هدياً من الله لهم به ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ إِلَّا الْفَنَاقِقِينَ ﴾ : هم

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢٦) والطبراني في الصغير (٢٥٠/١) .

المنافقون . وعن مصعب بن سعد قال : سألت أبي فقلت : قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال : هم الحرورية . وهذا الإسناد وإن صح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، فهو تفسير على المعنى ، لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه بالنهروان ، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية ، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل ؛ لأنهم سمو خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام ، والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضًا ، وتقول العرب : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة : فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد . وثبت عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلَنَّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ؛ الْغُرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ » ^(١) فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن فسق الكافر أشد وأفحش ، والمراد به من الآية الفاسق الكافر بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ ﴾ وهذه الصفات صفات الكفار المبaine لصفات المؤمنين .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره بإتاهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه بإتاهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون : بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها ، وإتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث ، والتصديق به بما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك على الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينته للناس ولا يكتُمونه ، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا .

وقال آخرون : بل عني بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهده إلى جميعهم في توحيد ما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته ، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها ، الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا : ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبين لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق . وقال آخرون : العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصِف في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به .

قال أبو العالية : هي ست خصال من المنافقين ، إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الحصال الثلاث : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا أؤتمنوا خانوا . وقوله : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ قيل : المراد به صلة الأرحام والقربات . وقيل : المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله ، فقطعوه وتركوه .

(١) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٢٩) ومسلم في الحج (٧٣) والنسائي في السنن (٢١٠/٥) وأحمد في مسنده (١٦٤/٦) .

وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال : في الآخرة ، وقال ابن عباس : كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فأثما يعني به الكفر ، وما نسبته إلى أهل الإسلام فأثما يعني به الذنب . وقال ابن جرير : الخاسرون هم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته ، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يضع من رأس ماله في بيعه ، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة ، أحوج ما كانوا إلى رحمته . ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي كيف تمجدون وجوده أو تعبدون معه غيره ﴿ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أي وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود . عن ابن عباس : كنتم أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ، ثم يميتكم مودة الحق ، ثم يحييكم حين يبعثكم قال : وهي مثل قوله ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا أَلْتُنِيتَنَا وَأَيَّيْتَنَا أَتُتِنِيتَنَا ﴾ قال : كنتم تراثاً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ، أحياكم فخلقكم فهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى : فهذه ميتتان وحياتان ، فهو كقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ أي قصد إلى السماء ، والاستواء ههنا متضمن معنى القصد والإقبال ؛ لأنه عدي إلى فساوهم أي فخلق السماء سبعا ، والسماء ههنا اسم جنس فهذا قال : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال : ﴿ أَلَا يَتْلُمَنَّ خَلْقَ ﴾ وتفصيل هذه الآية في سورة السجدة وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١١ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا مَلْأَيْنَ ١٢ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٣ ﴾ ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولاً ، ثم خلق السموات سبعا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك ، فقد قيل : إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر ، لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر :

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبَوُهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جِدَّهُ

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل السماء ، فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ قال : بعضهن فوق بعض ، وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض ، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال في آية السجدة : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١١ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

أَرْبَعَةَ آيَاتٍ سَوَاءٌ لِلسَّالِئِينَ ﴿١﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٢﴾ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَعَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَعْصِيَةِ وَجْهِكَ وَقَفَّيْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْقَدِيرِ ﴿٣﴾ فَهَذِهِ وَهَذِهِ دَالَتَانِ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ ، وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ نَزَاعًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، إِلَّا مَا نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ لِرَأْسِ الثَّمَرِ بِئَنَّا ﴾ ﴿٤﴾ رَفَعْنَا سَمَكَنَا فَتَوَهَّجَ ﴿٥﴾ وَأَغْلَشْنَا لَيْلَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٧﴾ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَنَزَعْنَاهَا ﴿٨﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَاهَا ﴿٩﴾ قَالُوا : فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ . وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه ، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء ، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء . وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا ، وعن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « خَلَقَ اللَّهُ الثُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ الثَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، مِنْ آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتوحيه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك . ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قومًا يخلف بعضهم بعضًا ، قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل ، وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين ، بل الخلاف في ذلك كثير ، والظاهر أنه لم ير آدم عينًا ، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم ، قاله القرطبي ، أو أنهم قاسوه على من سبق كما سذكر أقوال المفسرين في ذلك .

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم ، كما قد يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئًا لم يأذن لهم فيه ، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقًا . قال قتادة : وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ الآية ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، أي نصلي لك كما سيأتي ، أي ولا يصدر منا شيء من ذلك ، وهلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيبًا لهم

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٣٠/٩) .

عن هذا السؤال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد ، والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاصعون والمحبتون له تبارك وتعالى ، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عبادهم يسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهو يصلون وتركناهم وهم يصلون ، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » ^(١) فيقولهم : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ، من تفسير قوله لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقيل : معنى قوله تعالى جواباً لهم ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء ، والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها ، وقيل : إنه جواب ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من وجود إبليس بينكم ، وليس هو كما وصفتم أنفسكم به ، وقيل بل تضمن قولهم : ﴿ أَتَجَمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم ، فقال الله تعالى لهم : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من أن بقاءكم أصلح لكم وأليق بكم ، ذكرها الرازي من غيرها من الأجوبة ، والله أعلم .

ذِكْرُ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ بِنَسْطِ مَا ذَكَرْنَاهُ

قال ابن جرير فيما رواه عن ابن عباس قال : إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً قال : فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم فأسكنه إياها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال الله للملائكة : إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة ، وليس لله ملك خلق إلا للملائكة والأرض ، وليس فيها خلق ﴿ قَالُوا أَتَجَمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ . وعن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال : خلق الله الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجن يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة ، فكفر قوم من الجن ، فكانت الملائكة تهبط إليهم من الأرض فتقاتلهم ببغيتهم ، وكان الفساد في الأرض ، فمن ثم قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ، ويسفك الدماء كما سفكوا ^(٢) .

وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ قال : لا نعصي ، ولا نأتي شيئاً تكرهه . وقال ابن جرير : التقديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم : سبوح قدوس ، يعني بقولهم : سبوح ، تنزيه له ، وبقولهم : قدوس ، طهارة وتعظيم له . وكذلك قيل للأرض : أرض مقدسة ، يعني بذلك المظهرة ، فمعنى قول الملائكة إذا : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) وابن ماجه في السنن (١٩٥) وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) .

(٢) تفسير الطبري (٢٩٢/١ ، ٢٩٣) .

من الأدناس ، وما أضاف إليك أهل الكفر بك (١) . وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِلَ : أي الكلام أفضل ؟ قال : « مَا اضْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ شُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » (٢) .

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال قتادة : فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنوا الجنة .

وقد استدلل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، ويتنصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر ، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر ، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته ، أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور ، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع والله أعلم . أو بقره واحد الناس على طاعته ، فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف ، وقد نص عليه الشافعي . وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال : لا يشترط وقيل : بلى ، ويكفي شاهدان . وقال الجبائي : يجب أربعة وعائد ومعقود له ، كما ترك عمر رضي الله عنه الأمر شورى بين ستة ، فوقع الأمر على عائد ، وهو عبد الرحمن بن عوف ، ومعقود له ، وهو عثمان ، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقيين ، وفي هذا نظر والله أعلم .

ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء قرشياً على الصحيح ، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ ، خلافاً للغلاة والروافض . ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا ؟ فيه خلاف ، والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام : « إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُزْهَانٌ » (٣) . وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية ، لكن هذا لعذر ، وقد مدح على ذلك . فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ جَاءَكُمْ وَأَفْرُقَكُمْ جَمِيعٌ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَكُمْ فَأَقْتُلُوهُ كَأَيِّتًا مَنْ كَانَ » (٤) وهذا قول الجمهور . وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد ، منهم إمام الحرمين ، وقالت الكرامية : يجوز اثنان فأكثر ، كما كان علي ومعاوية إمامين واجبي الطاعة ، قالوا : وإذا جاز بعث نبين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمامة ، لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف . وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما ، وتردد إمام الحرمين في ذلك ، قلت : وهذا يشبه حال الخلفاء بني العباس بالعراق ، والفاطميين بمصر ، والأمويين بالمغرب ، ولنقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الأحكام ، إن شاء الله تعالى .

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٤) والألباني في الصحيحة (٤٨٤/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٦) ومسلم في الإمارة (٤٢) وأحمد في مسنده (٣١٤/٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٩) وأحمد في مسنده (٢٤/٥) .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ قَالَ يَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عِيبَ السَّيِّئَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام ، وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوها عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ، ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ قال ابن عباس : علمه أسماء ولده إنساناً إنساناً ، والدواب قليل : هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس . وقال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسما وأرض وسهل وبحر وخيل وجمار وأشياء ذلك من الأمم وغيرها .

عن أنس عن النبي ﷺ قال : ﴿ يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ : لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَشْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحْجِي ، ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رُسُولٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَيَأْتُونَهُ ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَ رَبِّهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحْجِي ، فَيَقُولُ : ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، فَيَقُولُ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَةَ ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ فَيَسْتَحْجِي مِنْ رَبِّهِ ، فَيَقُولُ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَهُ فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ ، ائْتُوا مُحَمَّدًا عَبْدًا غَيْرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَشْتَاذَنَ عَلَى رَبِّي فَيَأْتُونِي لِي فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُقَالُ : ازْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَى وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعُ تُشْفَعُ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يَعْلَمُونِيهِ ، ثُمَّ أَسْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَسْفَعُ فَيَحْدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ ، فَأَقُولُ : مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مِنْ حَبْسَةِ الْقُرْآنِ وَوَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ (١) . ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ يعني المسميات ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه ، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين .

قال ابن عباس ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ : إن كنتم تعلمون أنني لم أجعل في الأرض خليفة ، وقال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومعنى ذلك فقال : أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا ، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك . إن كنتم صادقين في قيلكم إنني جعلت خليفة في الأرض من غيركم عصاني وذريته ، وأفسدوا وسفكوا الدماء ، وإن جعلتكم فيها أطعموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس ، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين ﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا

تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا : ﴿ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام .
 قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال زيد بن أسلم : أنت جبرائيل ، أنت ميكائيل ، أنت إسرافيل ، حتى عدّد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ قال : اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء ، قال الله تعالى للملائكة ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَِّّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي ألم أقدم إليكم أنني أعلم الغيب الظاهر والخفي .
 قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قال ابن عباس : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعني ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار . وقال الحسن وقتادة : هو قولهم : ما يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه . وقال الربيع بن أنس : فكان الذي أبدوا هو قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وكان الذي كنتمو بينهم هو قولهم : لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم ، فعفرنا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم . وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ... ﴾ وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم ، فلا يخفى علي شيء ، سواء عندي سرائركم وعلايتكم ، والذي أظهره بألسنتهم قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذي كانوا يكتُمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته ، قال : وصح ذلك كما تقول العرب : قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم .
 ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .
 وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة .

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، دخل إبليس في خطابهم ؛ لأنه وإن لم يكن من عنصرهم ، إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر ، ولهذا قال ابن عباس : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشرف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد .
 وقال عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ : من الذين أبوا فأحرقتهم النار . وقال أبو العالية : من العصاة . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ : فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته . وقال بعض الناس : كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْمَرْثَى وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبَايِعُ هَذَا نَادِيًا رَبِّيَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴾ وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال :

« لَا ، لَوْ كُنْتُ آمِرًا بِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِشَيْءٍ لَأَمَرْتُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » (١) .
وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة ، وقال أنا ناري وهو طيني وكان بدء الذنوب الكبير استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام .

قلت : وقد ثبت في الصحيح « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ » (١)
وقد كان في قلب إبليس من الكبر ، والكفر ، والعناد ما يقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس . قال بعض المعريين ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه .
وقال ابن فورك : تقديره : وقد كان في علم الله من الكافرين ، ورجحه القرطبي ، وذكر ههنا مسألة فقال : قال علماؤنا : من أظهر الله على يديه من ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات ، فليس ذلك ذالاً على ولايته ، خلافاً لبعض الصوفية والرافضة . هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأن لا تقطع بهذا الذي جرى الخارق على يديه أنه يوافي الله بالإيمان ، وهو لا يقطع لنفسه بذلك ، يعني والولي الذي يقطع له بذلك في نفس الأمر ، قلت : وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدي غير الولي ، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضاً بما ثبت عن ابن صياد أنه قال : هو الدخ حين خبا له رسول الله ﷺ : ﴿ فَأَرَيْتَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب ، حتى ضربه عبد الله بن عمر . وبما ثبت به الأحاديث عن الدجال ، بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة ، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت ، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب ، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه ، إلى غير ذلك من الأمور الموهولة . وكان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . فقال الشافعي : قصر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . وقد حكى الرازي وغيره قولين للعلماء ؛ هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض ، أو عام في ملائكة السماوات والأرض ، وقد رجح كلا من القولين طائفة ، وظاهر الآية الكريمة العموم ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ ۝ فَهَؤُلَاءِ أَرْبَعَةٌ أَوْجِهٌ مَقْوِيَةٌ لِلْعُمُومِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .. ﴾
﴿ وَفَلَمَّا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنْ لَوْ كُنَّا نُحْيِي السَّجْدَةَ لَفَعَلْنَا لَقَدْ كُنَّا مِنْكُمْ لَمَعِينَ ۝ ﴾
فأزلهما الشيطان عنها فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ .
يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم ، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس ، أنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغداً ، أي هنيئاً واسعاً طيباً .

وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم هي في السماء أم في الأرض ؟ فالأكثر على الأول .
وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة . وأما قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَأُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم ، وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ فقال ابن عباس : الشجرة التي نهى عنها آدم عليه السلام هي الكرم . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : هي السنبلة ، وعن مجاهد عن ابن

عباس قال : هي البر ، وعن أبي مالك قال : هي النخلة ، وعن مجاهد قال : هي التينة .

فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة . والصواب في ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة ، دون سائر أشجارها ، فأكلها منها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة . وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله : ﴿ عَنْهَا ﴾ عائداً إلى الجنة ، فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم فأزلهما أي فنحاهما ، ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة : فأزلهما أي من قبل الزلل ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أي بسببها ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي من اللباس والنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة ﴿ وَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أي قرار وأرزاق وأجال إلى حين أي إلى وقت مؤقت ومقدار معين ، ثم تقوم القيامة .

وعن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ^(١) ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا » ^(٢) .

وقال الرازي : اعلم أن في هذه الآية تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه ؛ الأول : أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي قال الشاعر :

يَا نَاطِرًا يَرْتَوِ بِعَيْنِي رَاقِدٌ وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ
تَصِلُ الذُّنُوبُ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَزْتَجِي دَرَجَ الْجَنَانِ وَتَنِيلَ قَوْزِ الْعَابِدِ
أَتَسِيَتْ رَبِّكَ حِينَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

عن فتح الموصلي أنه قال : كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا ، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها . فإن قيل : فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء ، فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طرداً قدرئياً ، والقدرى لا يخالف ولا يمانع ؟ فالجواب أن هذا بعينه استدلال به من يقول : إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء ، وأجاب الجمهور بأجوبة ؛ أحدها أنه منع من دخول الجنة مكرماً ، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع . وقد قال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما ، وهو خارج باب الجنة . وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء . ﴿ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الذُّنُوبُ الرَّجِيمُ ﴾ .

قال أبو إسحاق السبيعي عن رجل من بني تميم قال : أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه ؟ قال : علم شأن الحج . وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ آدَمُ ﷺ أَرَأَيْتَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٤٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في السنن (١٠٤٦) والترمذي في السنن (٤٩١) والنسائي في السنن (١١٤/٣) .

أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب ، والمراد به محمد ﷺ ، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه ، وأدخله الجنة ، وجعل له أجرين . قال أبو العالية : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ قال : عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه . ﴿ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ ﴾ أرضى عنكم وأدخلكم الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قَالْتُمْ لَا نَفْعُ الْإِنشَاءِ عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأُولَئِكَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي فاحشون ، قال ابن عباس : أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات التي قد عرفتم ، من المسخ وغيره ، وهذا انتقال من الترغيب إلى التهيب ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلمهم يرجعون إلى الحق ، واتباع الرسول ﷺ ، والاتعاض بالقرآن وزواجه ، وامثال أوامره ، وتصديق أخباره ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ولهذا قال : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ النبي الأمي العربي ، بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً ، مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يقول : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، يقول : لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ قال ابن عباس : ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . قال أبو العالية : يقول : ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ يعني من جنسكم أهل الكتاب ، بعد سماعكم بمبعثه . واختار ابن جرير أن الضمير في قوله : به عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله : ﴿ بِمَا أَنزَلْتُ ﴾ وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان ؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن وأما قوله : ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل ؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير ، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة ، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن ، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا بِهَذَا كَيْفَ ظَنَّنَا قَلِيلًا ﴾ يقول : لا تعترضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، قال سعيد بن جبیر : إن آياته كتابه الذي أنزله إليهم ، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها . وقيل : معناه لا تعترضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع في الناس ، بالكتمان واللبس ، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً يَتَّبِعِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرِخْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(١) فأما تعليم العلم بأجرة ، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله ، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه ، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ؛ فعن أبي سعيد في قصة اللديغ « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ » ^(٢) وقوله في قصة المخطوبة : « زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » ^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٢) ، والحاكم في المستدرک (٨٥/١) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٢٤/٦) ، والدارقطني في السنن (٦٥/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٧) وأبو داود في السنن (٢١١١) والترمذي في السنن (١١١٤) والدارمي في السنن (١٤٢/٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ فَاثِقُونَ ﴾ التقوى : أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . ومعنى قوله : ﴿ وَإِنَّ فَاثِقُونَ ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدون من كتمان الحق وإظهار خلافه ، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآذَكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدون من تلبيس الحق بالباطل ، وتمويهه به ، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴾ فنهاهم عن الشيعين معًا ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به . ولهذا قال ابن عباس : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ، والصدق بالكذب . وقال أبو العالية : ولا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ ، وقال قتادة : ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله .

﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴾ أي لا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به ، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم . وقال مجاهد والسدي وغيرهما : ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ يعني محمداً ﷺ .

قلت : وتكتُموا يحتمل أن يكون مجزومًا ، ويحتمل أن يكون منصوبًا ، أي لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، قال الزمخشري : وفي مصحف ابن مسعود وتكتُموا الحق ، أي في حال كتمانكم الحق ، ﴿ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴾ حال أيضًا ، ومعناه وأنتم تعلمون الحق . ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس ، من إضلالهم عن الهدى ، المفضي بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لترؤجوه عليهم ، والبيان : الإيضاح ، وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَآذَكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ وأن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبي ﷺ ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ، يقول : كونوا معهم ومنهم . وقال ابن عباس : يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص . وقيل : صدقة الفطر . وقوله تعالى : ﴿ وَآذَكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَاعِلُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب ، وأنتم تأمرون الناس بالبر ، وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنبئوها من رقدتكم ، وتنبصروا من عمايتكم . عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله ويتقواه وبالبر ، ويخالفون ، فيعيرهم الله ﷻ .

﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من

التوراة ، وتتركون أنفسكم أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقضون ميثاقي ، وتجحدون ما تعلمون من كتابي . وقال ابن عباس في هذه الآية : أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسبون أنفسكم . والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطيئهم في حق أنفسهم ، حيث كانوا يأمرُونَ بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالصبر مع تركهم له ، بل على تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم .

قلت : لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة ، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَرَزْتُ لَيْلَةَ أُشْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ تُفَرِّضُ شِفَاهَهُمْ بِمَقَارِضٍ مِنْ نَارٍ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالُوا : خُطْبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، يَمُنُّ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَثْلَوْنَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ » (١) .

وعن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ؟ فقال : إنكم ترون أنني لا أكلمه إلا أسمعكم ، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمرا أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان علي أميرا بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول . قالوا : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَقْدَلُ بِهِ أَقْبَابُهُ ، فَيَذُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَذُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا أَصَابَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » (٢) . وقد ورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ، ليس

من يعلم كمن لا يعلم . وعن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عباس : إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثاني ، قال : قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث ، قال : قول العبد الصالح شعيب رضي الله عنه ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾ أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك .

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الَّذِينَ يَطُغُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا دِينِهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجُوعٌ .

يقول تعالى أمرا عبده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قال مقاتل في تفسير هذه الآية : استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة ، فأما الصبر فقيل إنه الصيام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٣) والنذري في الترغيب والترهيب (١٢٤/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٨) وأحمد في مسنده (٢٠٥/٥) والبيهقي في السنن (٩٥/١٠) والألباني في الصحيحة (٢٩٢) .

نص عليه مجاهد ، قال القرطبي وغيره : ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر ، فعن رجل من بني سليم عن النبي ﷺ قال : « الصُّومُ نِصْفُ الصَّبْرِ »^(١) وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلىها فعل الصلاة . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : الصبر صبران . صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وعن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه ، واحتسابه عند الله ، ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ قال : على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله ، وأما قوله : ﴿ وَالصَّلَاةِ ﴾ إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى : ﴿ أَتَقْلَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ الآية . قال حذيفة ، يعني ابن اليمان رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(٢) . وقال ابن جرير : وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له : « أشكم درد » ومعناه أي جعلك بطنك ؟ قال : نعم ، قال : « قُمْ فَصَلْ فَإِنَّ الصَّلَاةَ شِفَاءٌ »^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبَأٌ لَكِبَةٌ ﴾ أي مشقة ثقيلة . ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ قال ابن عباس : يعني المصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد : المؤمنين حقاً ، وقال أبو العالية : إلا على الخاشعين الخائفين ، وقال مقاتل ، وقال الضحاک : إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده . وفي الحديث : « لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ »^(٤) . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَاتِهِمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَإِنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ لَرَّجِعُونَ ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله أي أن الصلاة أو الوصاة لثقيلة ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَاتِهِمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة ، معروضون عليه ﴿ وَإِنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ لَرَّجِعُونَ ﴾ ، أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله ، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات . فأما قوله : ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِهِمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : العرب قد تسمى اليقين ظناً والشك ظناً ، نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة ، والمغيث صارخاً والمستغيث صارخاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده .

قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر . وعن مجاهد قال : كل ظن في القرآن فهو علم .

قلت : وفي الصحيح : أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : « أَلَمْ أَرْزُجْكَ ، أَلَمْ أُكْرِمَكَ ، أَلَمْ أَسْخَرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُوعٌ ؟ » فيقول : بلى فيقول الله تعالى : « أَطَنَنْتَ أَنْتَ مُلَاقِي ؟ » فيقول : لا ، فيقول الله : « الْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَبِيتَنِي »^(٥)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود (١٣١٩) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٥) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٤٥٨) والعقيلي في الضعفاء (٤٨/٢) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦١٦) وأحمد في مسنده (٢٣٧/٥) والمنذري في الترغيب (٥٢٨/٣) .

(٥) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

﴿ يَنْتَهِى إِسْرَؤِيلَ أَذْكُرُوا نَسِيتُ إِلَهِي أَنْصَتُ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم ، وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم ، عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب ، على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالماً . ويجب الحمل على هذا ؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم ؛ لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ وقوله ﷺ : « أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً خَيْرًا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ » ^(١) . وقيل : إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم ، حكاية القرطبي في تفسيره وفيه نظر ؛ لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء ، إبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .
لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نعمة بهم يوم القيامة فقال :
﴿ وَأَتَقُوا يَوْمًا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ ﴾ يعني من الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي لا يقبل منها فداء . وقال : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ مِنْ مَوْلَانِكُمْ ﴾ الآية فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ، ولا شفاعة ذي جاه ، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً . وقال علي عليه السلام في حديث طويل : والصرف والعدل التطوع والفرصة . وهذا القول غريب ههنا ، والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية ، وقد ورد حديث يقويه ، وهو ما قال ابن جرير : فعن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الشاء ، قال : قيل : يا رسول الله ، ما العدل ؟ قال : « الْعَدْلُ الْفِدْيَةُ » ^(٢) .
وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، كما تقدّم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ، ولا يقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ ، ولا يخلص منه أحد ، ولا يجير منه أحد . قال ابن جرير وتأويل قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرشى والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون ، وصار الحكم إلى الجبار العدل ، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها ، وبالחסنة أضعافها ، وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وَفَوْقَهُمْ لَهُمْ مَسْجُودٌ ﴾ مَا لَكُمْ لَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) والحاكم في المستدرک (٨٤/٤) والطبراني في الكبير (٤٢٤/١٩) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٨/١) والطبري في تفسيره (٣٨٣/١) .

نَاصِرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُتَسَلِّحُونَ ﴿٢٦﴾ .

﴿ وَإِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ۝ وَإِذْ يُؤْمِنُ بَدْعُ الْكَلْبِ الْمَذْمُومِ إِبْنَتَاكُمْ وَيُخَوِّفُكُم بِمَا لَكُمْ فِي بِلَادِكُمْ مِنَ الْقَرْبِ بِالْبُحْثِ ۝ وَإِذْ يَبْلُغُ الْأَبْرَارُ أَجْلَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ إِلَىٰ آلِهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَإِذْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْإِبْرَاهِيمَ إِذْ يَمْلِكُ الْمَلَكُ مُثُوقَ الْجَبَابِلِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْسَسْهُمْ أَعَيْنٌ بِمَا كَانُوا فِي الْيَسَارِ ۝

يقول تعالى : اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم ﴿١﴾ وَإِذْ جَعَلْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سَوَاءَ اللَّعَابِ ﴿٢﴾ ، أي خلصتكم منهم ، وأنقذتكم من أيديهم ، صحبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب ، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا حالته ، رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر ، إلا بيوت بني إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل . ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة ، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وأن تترك البنات ، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها ، وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء ، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال : ﴿٣﴾ يَسُومُونَكَ سَوَاءَ اللَّعَابِ يَذِيقُونَ أُنْبَاءَكُمْ وَتَسْتَغِيثُونَ نِسَاءَكُمْ ﴿٤﴾ ومعنى يسومونكم : يولونكم .

وقيل : يديون عذابكم . و ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق ، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافراً ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وبطيحيموس لمن ملك الهند ، ويقال : كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان ، وقيل : مصعب بن الريان ، فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة ، وأصله فارسي من اصطخر .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجاننا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ قال : نعمة . وأصل البلاء الاختبار وقد يكون للخير والشر كما قال تعالى : ﴿ وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ قال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر : ببلوته أبلوه بلاء ، وفي الخير : أبلهه إبلاء وبلاء .

جَزَى اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَ بِكُمْ وَأَنْبَأَهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَمْلُؤُ (١)

قال : فجمع بين اللغتين ؛ لأنه أراد فأنعم الله عليهما خيرا نعم ، التي يختبر بها عباده . وقيل : المراد بقوله ﴿ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء ههنا في الشر ، والمعنى : وفي الذبح مكروه وامتحان . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْلَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴾ معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر ، ﴿ فَأَمْلَيْنَاكُمْ ﴾ أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم . قال ابن عباس : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح بها سنان بن حارثة المري (انظر : تفسير الطبري ١/٣٩٢) .

يوم عاشوراء ، فقال : « مَا هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي تَصُومُونَ ؟ » قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه (١) .

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أُنَبِّئَنَّ لَيْلَةَ ثُمَّ أَخَذْتُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥١ ﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢ ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً ، قيل : إنها ذو القعدة بكمالها وعشر من ذي الحجة ، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل . قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ فقال : ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى : ﴿ وَكَأَنَّمَا سَاقُ أَيْدِيهِمْ وَرَأُوا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَصْفِرْ لَنَا ﴾ الآية . قال : فذلك حين يقول موسى : ﴿ يُقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ وقال سعيد بن جبير وغيره : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ أي إلى خالقكم قلت : وفي قوله ههنا ﴿ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ تنبيه على عظم جرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وعن ابن عباس قال : قال موسى لقومه : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ، قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه ﷻ ، أن يقتلوا أنفسهم قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فأنجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة . وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر ، فقاموا يتناحرون بالشفار ، يقتل بعضهم بعضاً ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل ، فجعل لحيمهم توبة ، وللمقتول شهادة . وقال ابن إسحاق : لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل ، وذراه في اليم ، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه ، فأخذتهم الصاعقة ، ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا إلا أن يقتلوا أنفسهم ، قال : فبلغني أنهم قالوا لموسى : نصبر لأمر الله ، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده ، فجلسوا بالأفنية ، وأصلت عليهم القوم السيوف ، فجعلوا يقتلونهم ، فهش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم ، فتاب الله عليهم وعفا عنهم ، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ٥٣ ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ

بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَيْنِكُمْ ﴾ في بعثني لكم بعد الصعق ، إذ سألتهم رؤيتي جهرة عياناً ، مما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم قال ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَبْنُوْنَ لَكَ حَقٌّ زَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً ﴾ قال : علانية ، وقال الربيع بن أنس : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، قال : فسمعوا كلاماً فقالوا : ﴿ كُنْ نُؤْمِنُ لَكَ حَقٌّ زَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً ﴾ قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا ، يقول : ماتوا . وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صبيحة من السماء . وقال السدي في قوله ﴿ فَأَخَذْنَاكُمْ فَلَمَعَتُ الصَّاعِقَةُ نَارًا ﴾ وقال عروة بن رويم في قوله ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قال : صعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء . وقال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم ، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم . قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَبْنُوْنَ لَكَ حَقٌّ زَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً ﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ، ولم يحك كثير من المفسرين سواء وقد أغرب الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا : يا موسى إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء ، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته ، وهذا غريب جداً إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ، ثم يوشع بن نون ، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله ﷻ ، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون ؟

القول الثاني في الآية : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية : قال لهم موسى ، لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا ، فتاب الله عليهم ، فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله : ﴿ كُنْ نُؤْمِنُ لَكَ حَقٌّ زَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً ﴾ قال : فجاءت غصبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم ، فماتوا أجمعون ، قال : ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله ﴿ ثُمَّ بَدَأْنَاكُمْ نَبِيًّا بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله فقالوا : لا ، فقال أي شيء أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال : خذوا كتاب الله ، قالوا : لا ، فبعث الله ملائكة فتفتت الجبل فوقهم . وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعدما أحيوا . وقد حكى الماوردي في ذلك قولين : أحدهما أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق ، والثاني أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبي : وهذا هو الصحيح ؛ لأن معاينتهم للأمر الفظيعة لا تمنع تكليفهم ، لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات ، وهم في ذلك مكلفون ، وهذا واضح والله أعلم . ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ وهو جمع غمامة ، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويستترها ، وهو السحاب

الأيض ظللوا به في التيه ليقهيم حر الشمس . قال ابن عباس ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ قال : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذي يأتي الله فيه في قوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر . قال ابن عباس : وكان معهم في التيه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المَنَّاء ما هو ؟ .

والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك ، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد ، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً ، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر ، لكن ليس هو المراد من الآية وحده ، والدليل على ذلك قول سعيد بن زيد ؓ قال : قال النبي ﷺ : « الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » ^(١) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ وَفِيهَا شِفَاءٌ مِنَ الشَّمِّ ، وَالْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » ^(٢) . وأما السلوى فقال ابن عباس : السلوى طائر يشبه بالسماوي ، كانوا يأكلون منه . وعن عكرمة : السلوى طير كطير يكون بالجنة ، أكبر من العصفور أو نحو ذلك . وقال قتادة : السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب ، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك ، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده ، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه ؛ لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه شيء ولا يطلبه . وقال وهب بن منبه : السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت .

وقال السدي : لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى ﷺ : كيف لنا بما ههنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن ، فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماوي أكبر منه ، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سميناً ذبحه ، وإلا أرسله فإذا سمن أتاه ، فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل عليهم الغمام ، فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذْ أَسْنَفَتِ مَوْسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْأَرْضَ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قال ابن عطية : السلوى طير ياجماع المفسرين ، وقد غلط الهذلي في قوله : إنه العسل . وقوله تعالى : ﴿ كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أمر بإباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم ، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد ، لم يسألوا خرق عادة

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٩) ومسلم في الأشربة (١٥٧) والبيهقي في السنن (٣٤٥/٩)

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٦٨) وأحمد في مسنده (٣٥٦/٢) والدارمي في السنن (٣٣٨/٢) .

ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوهم في تكثير طعامهم ، فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا الله فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم ، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم ، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر . فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ مِنْ ذِكْرِكُمْ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَنْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ٥٨ ﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَدَاةَ الذَّيْفِ قِيلَ لَهُمْ قَارِئُكُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا يَكُونُوا

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر بصحبة موسى ﷺ ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل ، وقتال من فيها من العماليق الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا ، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم ، وقيل : إن هذه البلدة هي بيت المقدس وقيل : هي أريحاء . ويحكي عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد ، وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء ، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر ، والصحيح الأول أنها بيت المقدس ، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون ﷺ ، وفتحها الله عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب ، باب البلد ﴿ سُجَّدًا ﴾ أي شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، ورد بلدهم عليهم ، وإنقاذهم من التيه والضلال .

وكان ابن عباس يقول في قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي ركعاً ، وحكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته . وقال ابن عباس : كان الباب قبل القبلة . وقال الضحاك : هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس . وعن عبد الله بن مسعود : قيل لهم : ادخلوا الباب سجدًا فدخلوا مقنعي رءوسهم أي رافعي رءوسهم خلاف ما أمروا .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي : مغفرة استغفروا . وقال ابن عباس : قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم . وقال عكرمة : قولوا لا إله إلا الله ، ﴿ نَنْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال قتادة : هذا جواب الأمر ، أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات ، وضاعفنا لكم الحسنات .

وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول ، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها ، والشكر على النعمة عندها ، والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى ، فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر . وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله ﷺ أجله فيها . وأقره على ذلك عمر رضي الله عنه ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ، ونعي إليه روحه الكريمة أيضاً ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر ، كما روي أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى أن عثوثه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك ، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات ، وذلك ضحى ، فقال بعضهم : هذه صلاة الضحى ، وقال آخرون : بل هي صلاة الفتح ، فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه ثماني ركعات عند

أول دخوله ، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إيوان كسرى ، صلى فيه ثمانين ركعات ، والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ، وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ قَبَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي يَدْعُونَ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قيل لئنني إسرائيلي أدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ، فبدلوا وقالوا : حبة في شفرة ^(١) » .

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دلّ عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا سجداً ، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم ، رافعي رءوسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة ، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا ، فاستهزأوا فقالوا : حنطة في شعيرة ، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ عن ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب . وقال أبو العالية : الرجز الغضب . وقال الشعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد . وعن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطَّاعُونَ رِجْزُ عَذَابٍ ، عُذِّبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ^(٢) » ، وعن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ هَذَا الْوَجَعُ وَالسَّقَمُ رِجْزٌ ، عُذِّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ ^(٣) » .

﴿ وَإِذْ أَسْتَشَقَّىٰ مِثْوَىٰ لِّقَوْمِهِ فَقُلْنَا أُضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَسِيبًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِيقَهُمْ كُفُلًا وَآثَرِيوْا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استشفاني لكم ، وتيسيري لكم الماء ، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم ، وتفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عينا ، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها ، فكلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم ، بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ﴿ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه : وجعل بين ظهرانهم حجر مربع ، وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، في كل ناحية منه ثلاث عيون ، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها ، لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نَّبْرِيكَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِدْ قَادِحٌ لَّنَا رَبُّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقَلَيْهَا وَقَفَّاهَا وَفُومَهَا وَعَدَيْهَا وَبَعَيْهَا قَالَ أَتَشْكُرُونَ الَّذِي هُوَ أَذَقَ بِالْأَرْضِ هُوَ خَيْرٌ أَمِيطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالني عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هنيئا سهلا ، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم ، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة ، من البقول ونحوها مما سألتكم .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٤١) ومسلم في التفسير (٦٥) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٣) ومسلم في السلام (٩٢) .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٩٦) والطبراني في الكبير (٩٣/١) .

قال الحسن البصري : فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وقوم ، فقالوا : ﴿ يَلْمُوهُنَّ لَنْ نَقْصِرَ عَنْ طَعَامِ وَجَدِ قَانُ لَنَا رَيْكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَفُشَائِهَا وَقُومِهَا وَتَعْدِيهَا وَيَصْلِيهَا ﴾ وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى ؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم . فهو مأكول واحد .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتُنَبِّئُونَ آلَ إِيْمٍ هُوَ أَذْنُ بِالْأَيْمِ هُوَ خَيْرٌ ﴾ فيه تقرير لهم وتوبيخ على ما سألو من هذه الأطعمة الدنية مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع . وقوله تعالى : ﴿ أَقِطُوا مِصْرًا ﴾ هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في مصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف علي ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ أَقِطُوا مِصْرًا ﴾ قال : مصرًا من الأمصار . وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود ﴿ أَقِطُوا مِصْرَ ﴾ من غير إجراء يعني من غير صرف ^(١) . ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنها فسر ذلك بمصر فرعون . قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضًا . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَائِمًا ﴾ قَوَائِمًا ﴿ ثم توقف في المراد ما هو أم مصر فرعون أم مصر من الأمصار ، وهذا الذي قاله فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره ، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم : هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموها ، فلن يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال : ﴿ أَتُنَبِّئُونَ آلَ إِيْمٍ هُوَ أَذْنُ بِالْأَيْمِ هُوَ خَيْرٌ أَقِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ أي ما طلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَشَرِيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْبَنِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَشَرِيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ ﴾ أي وضعت عليهم ، وألزموا بها شرعاً وقدرًا ، أي لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استدلهم وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ ﴾ قال الضحاك : استحقوا الغضب من الله . وقال الربيع بن أنس : فحدث عليهم غضب من الله . وقال سعيد بن جبير : استوجبوا سخطاً . وقال ابن جرير : انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : باء إلا موصولاً إما بخير وإما بشر ، يقال منه باء فلان بذنبه يئوه به بوءاً وبواء ، إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم من الله سخط . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْبَنِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة ، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع ، وهم الأنبياء وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفر أعظم من هذا ، إنهم كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ،

(١) وهي قراءة الحسن وطلحة بن مصرف والأعمش (انظر : زاد المسير ٨٩/١) .

ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « الْكِبِيرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » (١) وقال ابن مسعود : كنت لا أحجب عن النجوى ، ولا عن كذا ، ولا عن كذا ، فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فأدركته من آخر حديثه وهو يقول : يا رسول الله قد قسم لي من الجمل ما ترى ، فما أحب أن أحدا من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما ، أليس ذلك هو البغي ؟ فقال : « لَا لَيْسَ ذَلِكَ مِنَ الْبَغْيِ وَلَكِنَّ الْبَغْيَ مَنْ بَطَرَ ، أَوْ قَالَ : سَفَهَ الْحَقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ » (٢) يعني رد الحق ، وانتقاص الناس ، والازدراء بهم ، والتعاضم عليهم ، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله ، وقتلهم أنبياءه ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وكساهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة ، جزاء وفاقا . وعن عبد الله بن مسعود قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار . وعن ابن مسعود أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا وَإِمَامًا ضَلَالَةً ، وَتُمَثِّلُ مِنَ الْمُتَمَثِّلِينَ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه ، والمأمور به .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

لما بين تعالى حال من خالف أوامره ، وارتكب زواجه ، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه ، وانتهك المحارم ، وما أحل بهم من النكال ، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع ، فإن له جزاء الحسن ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه .

وقال سلمان ؓ : سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى آخر الآية ، وقال السدي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينما هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم ، فقال : كانوا يصلون ، ويصومون ، ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبيا ، فلما فرغ سلمان من ثنائهم عليهم قال له نبي الله ﷺ : « يَا سَلْمَانُ هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » فاشتد ذلك على سلمان ، فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى ﷺ ، حتى جاء عيسى ، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا ، وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه ، حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمدا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكا . قلت : وهذا لا ينافي ما روي عن ابن عباس ؓ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية - قال - فأنزل الله بعد ذلك

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٦٠/١٠) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٨١/١) ، والهندي في كنز العمال (٩٣٦٦) .

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً ، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به ، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة .

فاليهود أتباع موسى ﷺ الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم . واليهود من اليهودة ، وهي المودة أو اليهود ، وهي التوبة كقول موسى ﷺ : ﴿ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ ﴾ أي تبنا فكأنهم ستموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض ، وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب ، وقال أبو عمرو بن العلاء : لأنهم يهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة ، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له ، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى ، وسماوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم أنصار أيضاً كما قال عيسى ﷺ : ﴿ مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْمَرْءُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ وقيل : إنهم إنما سماوا بذلك من أجل أنهم تزلوا أرضاً يقال لها ناصرة ، والله أعلم . والنصارى جمع نصران ، كمنشأوى جمع نشوان ، وسكارى جمع سكران ، ويقال للمرأة نصرانة .

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق وجب عليهم تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، والانكفاف عما عنه زجر ، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً ، وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم ، وشدة إيمانهم ؛ ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية .

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم ، فقال مجاهد : هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين ، وقال الضحاك : فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور ؛ ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق : لا باس بذبائهم ومناكرتهم . وقال الحسن : هم قوم يعبدون الملائكة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٥٧ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله ، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق ، رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عاهدوا عليه ، ويأخذوه بقوة وحزم وامتنال ، فالطور هو الجبل ، ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وغير واحد ، وهذا ظاهر ، وفي رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال ، وما لم ينبت فليس بطور . وقال الحسن في قوله : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ يعني التوراة . وقال قتادة : القوة : الجدة وإلا قذفه عليكم ، قال : فأقروا أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ، ومعنى قوله : وإلا قذفه عليكم أي أسقطته عليكم ، يعني الجبل . قوله ﴿ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أي : اقرأوا ما في التوراة واعملوا به .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ ﴾ يقول تعالى : ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه ، وانشيتم ونقضتموه ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ٥٨ فَعَلَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ يا معشر اليهود ، ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه ، فيما أخذهم عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره ، إذ كان مشروعاً لهم فتحيلوا على اصطلياد الحيتان في يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عاداتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة ، وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ، ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال مجاهد : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله ، وقال ابن عباس : فجعل الله منهم القردة والخنازير ، فرغم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير . وقال الضحّاك عن ابن عباس : فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول : إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام ، قال : ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه ، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء ، ويحوله كما يشاء . قلت : والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمته الله ، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً ، بل الصحيح أنه معنوي صوري والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ الضمير في ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ عائد إلى القردة ، وقيل على الحيتان ، وقيل : على العقوبة ، وقيل : على القرية ، حكاه ابن جرير . والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿ نَكَالًا ﴾ أي عاقبتهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون : ﴿ فَأَنذَرْتُ اللَّهَ تَكَالُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي من القرى ، قال ابن عباس : يعني جعلناها بما أحللتنا بها من العقوبة ، عبرة لما حولها من القرى . وقال أبو العالية والربيع : ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وكان هؤلاء يقولون : المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان . وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم ، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم ؟ وهذا لعل أحداً من الناس لا يقوله - بعد تصوره - فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان وهو ما حولها من القرى .

وحكي الرازي ثلاثة أقوال : أحدها : أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم ، بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها . والثاني : المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم . والثالث : أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده ، وهو قول الحسن . قلت : وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى ، يبلغهم خبرها وما حل بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قال ابن عباس : هم الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . وقال السدي : أمة محمد ﷺ .

قلت : المراد بالموعظة ههنا الزجر ، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال ، في مقابلة ما ارتكبه من محارم الله ، وما تحلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم ، فلا يصيبهم ما أصابهم . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَزْكِيُوا مَا اَزْكَبَتِ الْيَهُودُ ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ بِأَذْنِ الْحَيْلِ » ^(١) . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَلْخُذَنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

يقول تعالى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببها ، وإحياء الله المقتول ، ونصه على من قتله منهم .

ذِكْرُ بَسْطِ الْقِصَّةِ

عن عبدة السلماني قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى ﷺ فذكروا ذلك له فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَلْخُذَنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدها ذهباً ، فذبحوها ، فضر بهو بعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً ، فلم يورث قاتل بعد .

﴿ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصَ وَلَا يَكْرُ عَوَائِيكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنِّ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا ﴿ آدَعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أي ما هذه البقرة ، وأي شيء صفتها ، قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا أُمِرُوا بِأَذْنِ بَقَرَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدُّوا شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشْتُوا لَمَّا يَبْنَتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبَدِ » ^(٢) قال : ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصَ وَلَا يَكْرُ ﴾ أي لا كبيرة همة ، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ، وقال الضحك عن ابن عباس ﴿ عَوَائِيكَ ذَلِكَ ﴾

(١) ذكره الألباني في إرواء الغليل (٣٧٥/٥) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧٧/١) .

نصف بين الكبيرة والصغيرة ، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر ، وأحسن ما تكون . وقال السدي : العوان النصف التي بين ذلك ، التي قد ولدت وولد ولدها . وقال عطية العوفي : ﴿ فَاقْعْ لَؤُوهَا ﴾ تكاد تسود من صفرتها . وقال سعيد بن جبير : صافية اللون . وقال شريك عن معمر : صاف . وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض . وقال السدي ﴿ تَسْرُ النَّظِيرَ ﴾ : أي تعجب الناظرين . وقال وهب بن منبه : إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وفي التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ في التعريب ، أو كما قال الأول : إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَيْنًا ﴾ أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ إذا بينتها لنا ﴿ لَنَهْتَدُونَ ﴾ إليها .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْمَرْثَ ﴾ أي إنها ليست مذلة بالحرثة ، ولا معدة للسقي في الساقية ، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها . ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها . وقال قتادة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ : لا عيب فيها . وقال عطاء الخرساني : مسلمة القوائم والخلق لا شية فيها . وقال مجاهد : لا يياض ولا سواد . وقال أبو العالية والحسن : ليس فيها يياض .

﴿ قَالُوا أَتِنَّ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ قال قتادة : الآن بينت لنا . ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : كادوا أن لا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذي أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها ، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنهم اشتروها بمال كثير ، وفيه اختلاف ، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك .

مسألة : استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً ، بدليل ما ثبت عن النبي ﷺ : « لَا تَتَعَثُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » ^(١) وكما وصف النبي ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث . وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون : لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعَصَاكَ كَذَلِكَ يُعْيِ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ وَيُزِيلُ عَنْكُمْ عَائِيَتِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال البخاري : ﴿ فَاذْرَيْنَا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ اختلغتم . وقال الضحاك : اختصمتم فيها . وقال ابن جريج : قال بعضهم : أنتم قتلتموه ، وقال آخرون : بل أنتم قتلتموه .

﴿ وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ قال مجاهد : ما تغيبون . وقال المسيب بن رافع : ما عمل رجل

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٣/١٠) بلفظ « لا تصف ، بدلاً من « لا تتعت » .

حسنة في سبعة آيات إلا أظهرها الله ، وما عمل رجل سيئة في سبعة آيات إلا أظهرها ، وتصديق ذلك في كلام الله ﴿ وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ قَتَلْنَا أَسْرِيَهُ بِغَيْرِهَا ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة ، فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، وقد كان معيناً في نفس الأمر ، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيته الله تعالى لنا ، ولكنه أبهمه ولم يجرى من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله . ولهذا قال ابن عباس : إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل في بقرله ، وكانت بقرة تعجبه ، قال : فجعلوا يعطونه بها فيا بئس ، حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها ، فضربوه - يعني القتل - بعضو منها فقام تشخب أوداجه دماً ، فقالوا له : من قتلك ، قال : قتلني فلان .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ أَلَمَتَهُ ﴾ أي فضربوه فحسي ، ونبته تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل ، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد ، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع . ﴿ ثُمَّ بَشَّرْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ ﴾ وهذه القصة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبته تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا ، فعن أبي رزين العقيلي عليه السلام ، قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : « أَمَا مَرَزْتُ بِوَادٍ مُجَحِلٍ ، ثُمَّ مَرَزْتُ بِهِ حَضِرًا ؟ » قال : بلى . قال : « كَذَلِكَ النُّشُورُ » أو قال : ﴿ كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ أَلَمَتَهُ ﴾ ^(١) .

مسألة : استدلل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني لوئاً ، بهذه القصة لأن القتل لما حيي سئل عمن قتله فقال : فلان قتلني . فكان ذلك مقبولاً منه ؛ لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ، ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهوديًا قتل جارية على أوضاع لها ، فرضخ رأسها بين حجرين فقيل : « من فعل بك هذا ، أفلان ؟ أفلان ؟ » حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها ، فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف ، فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين ^(٢) . وعند مالك إذا كان لوئاً ، حلف أولياء القتل قسامة ، وخالف الجمهور في ذلك ، ولم يجعلوا قول القتل في ذلك لوئاً . ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْجِجَارَةِ لَمَا يَتَفَكَّرُ مِنْهُ أَلَأَنْتُمْ لَوْ أَنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ أَلَمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل ، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ كله ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ التي لا تلين أبداً ، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلَمِهِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ أَلَمٌ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكِبَرُ سِنِيهِمْ فَنَسُوا ﴾ .

قال ابن عباس : لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط ، فقيل له : من قتلك ؟ قال : بنو أخي قتلوني ، ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله : والله ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد

(٢) أخرجه مسلم في القسامة (١٧)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٤) .

أَن رَّاهُ ، فَقَالَ اللَّهُ : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ يعني أبناء أخي الشيخ ﴿ فِيهِ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية ، بعيدة عن الموعدة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ، أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه ، عن مجاهد أنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء ، أو يتشقق عن ماء ، أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله ، نزل بذلك القرآن . وقال ابن عباس ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي وإن من الحجارة لآلين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال أبو علي الجبائي في تفسيره : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ هو سقوط البرد من السحاب . وقال يحيى بن يعقوب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾ قال كثرة البكاء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ قال : قليل البكاء ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ قال : بكاء القلب من غير دموع العين .

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز ، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة ، كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة : ولا حاجة إلى هذا ، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ وفي الصحيح : « هَذَا جَبَلٌ يُجِئُنَا وَنُجِئُهُ » (١) ، وكحنين الجذع المتواتر خبره . وفي الصحيح « إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ لِي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ » (٢) وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة ، وغير ذلك مما في معناه ، وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير أي مثلاً لهذا وهذا .

تنبيه : اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم : أو ههنا بمعنى الواو وتقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة : كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنْ شَاءُوا أَوْ كَثُورًا ﴾ .

وقال آخرون : معنى ذلك ﴿ فِيهِ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ عندكم . وقال آخرون : المراد بذلك الإبهام على المخاطب ، كما قال أبو الأسود :

أَحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا وَعَبَّاسًا وَحَمْرَةَ وَالْوَصِيًّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أَصِيبُهُ وَلَيْسَ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

وقال ابن جرير : قالوا : ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكًا في أن حب من سمى رشد ، ولكنه أبهم علي من خاطبه . قال : وقد ذكر عن أبي الأسود ، أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت فقال : كلا والله ، ثم انتزع بقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَافَّةِ كَانُوا فِي سَكَلٍ مُّثِيرٍ ﴾ فقال : أو كان شاكًا من

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٢) وأحمد في مسنده (٩٥/٥) والدارمي في السنن (١٢/١) .

أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم : معنى ذلك : فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين ، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة ، وإما أن تكون أشد منها في القسوة . قال ابن جرير : ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة ، وبعضها أشد قسوة من الحجارة ، قلت : وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ مع قوله : ﴿ أَوْ كَهَيْسَبِ بَنِ السَّمَاءِ ﴾ أي : أن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ لَا تُكْثِرُوا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ قَسْوَةُ الْقَلْبِ ، وَإِنْ أَبْعَدَ النَّاسُ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبَ الْقَاسِي ﴾ (١) .

﴿ أَنْظِمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٢) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .
يقول تعالى : ﴿ أَنْظِمُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي يتقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهد أبائهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي فهموه على الحلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤسهم منهم ﴿ أَنْظِمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ وليس قوله : يسمعون التوراة كلهم قد سمعها ، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وقال السدي : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال : هي التوراة حرّفوها . وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق ، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق ؛ فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ أي مبلغاً إليه ، ولهذا قال قتادة في قوله : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ قال : هم اليهود ، كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ أي تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا به . يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وقال الضحّاك عن ابن عباس : يعني المنافقين من اليهود ، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا : آمنا . وقال السدي : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ، ثم نافقوا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ قد قال : ﴿ لَا يَدْخُلُنَّ عَلَيْنَا قَصَبَةُ الْمَدِينَةِ إِلَّا مُؤْمِنٌ ﴾ فقال رؤسائهم من أهل الكفر والنفاق :

اذهبوا فقولوا : آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا ، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ، ويرجعون إليهم بعد العصر .
 وقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَافِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَانْكُرُوا مَا يُرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وكانوا يقولون ، إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ، ليعلموا خير رسول الله ﷺ وأمره ،
 فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر ، فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان
 المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون : أليس قد قال الله لكم كذا وكذا ؟ فيقولون بلى . فإذا رجعوا إلى
 قومهم يعني الرؤساء فقالوا : ﴿ اتَّخَذْتُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية ، يعني بما أنزل عليكم في كتابكم
 من نعت محمد ﷺ قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذْتُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ قام النبي ﷺ يوم
 قريظة تحت حصونهم ، فقال : « يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت » فقالوا : من أخبر بهذا
 الأمر محمداً ؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿ اتَّخَذْتُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بما حكم الله للفتح ليكون
 لهم حجة عليكم ^(١) . قال ابن جريج عن مجاهد : هذا حين أرسل إليهم علياً فأذوا محمداً ﷺ .
 ﴿ لِيُخَاجِبَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ هؤلاء الناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من
 العرب بما عذبوا به ، فقال بعضهم لبعض ﴿ اتَّخَذْتُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ من العذاب ليقولوا :
 نحن أحب إلى الله منكم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قال أبو العالية : يعني ما أسروا من
 كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم ، وقال الحسن : كان ما أسروا أنهم
 كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب
 محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم ، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في
 كتابهم عند ربهم ، ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ آمنا .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
 ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَسْتَوُوا بِهِ ثُمَّناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ﴾ أي ومن أهل الكتاب . والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا
 يحسن الكتابة . وهو ظاهر في قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي لا يدرون ما فيه . ولهذا في
 صفات النبي ﷺ : أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِن قَبْلِهِ مِن
 كِتَابٍ وَلَا تَخْطُبُ يَسْمِعُكَ إِذَا لَزَمْتَكَ الْقَائِلُونَ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّا أُمَّةٌ أَمِيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا
 نَحْشُبُ ، الشُّهُرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا » ^(٢) أي لا نفتقر في عبادتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب .
 وقال ابن جرير : نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه .
 قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَمَانِيًّ ﴾ يقول : إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً . وقال
 مجاهد : إلا كذباً . وقال ابن جريج عن مجاهد : أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب
 شيئاً ، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ، ويقولون : هو من الكتاب ، أمانى يتمنونها .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨١/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٥) وأبو داود في السنن (٢٣١٩) وأحمد في مسنده (٥٢/٢) .

وقال قتادة ﴿إِلَّا آمَنَ﴾ : يتمنون على الله ما ليس لهم ، قال ابن جرير : والأشبه بالصواب قول ابن عباس . وقال مجاهد : إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً ، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ، ومنه الخبر المروي عن عثمان بن عفان ؓ ما تغيت ولا تمتيت يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب .

قال ابن عباس : ﴿لَا تَقُولُوا لَكَاتِبٌ إِلَّا آمَنَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْتَوُونَ﴾ أي ولا يدرون ما فيه ، وهم يجدون نبوتك بالظن . وقال مجاهد ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْتَوُونَ﴾ يكذبون . وقال قتادة وأبو العالية والربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق .

قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتُّاً قَلِيلاً﴾ الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . والويل : الهلاك والدمار ، وهي كلمة مشهورة في اللغة . ويل : صديد في أصل جهنم . وقال عطاء بن يسار : الويل واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت . وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « وَيْلٌ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَعْرَهُ » (١) . وعن ابن عباس : الويل المشقة من العذاب . وقال الخليل بن أحمد : الويل شدة الشر . وقال سيبويه : ويل لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها . وقال الأصمعي : الويل تفجع ، والويح ترحم . وقال غيره : الويل الحزن . وقال الخليل : وفي معنى ويل ويح وويش وويه وويك وويب ، ومنهم من فرق بينها . وقال بعض النحاة : إنما جاز الابتداء بها وهي نكرة لأن فيها معنى الدعاء ، ومنهم من جوز نصبها بمعنى ألزمهم ويلاً . قلت : لكن لم يقرأ بذلك أحد .

وعن ابن عباس ؓ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال : هم أحبار اليهود . وقال السدي : كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ، فيأخذوا به تمناً قليلاً . وقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء ، وويل لهم مما أكلوا به من السحت .

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْبَاءاً مَقْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، ثم ينجون منها ، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى : ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً﴾ أي بذلك ، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ، ولكن هذا ما جرى ولا كان ولهذا أتى بأم التي بمعنى بل ، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

عن ابن عباس : إن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْبَاءاً مَقْدُودَةً﴾ إلى

قوله ﴿ خَالِدِينَ ﴾ . وقال عكرمة : خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : لن ندخل النار إلا أربعين ليلة ، وسيخلفنا فيها قوم آخرون ، يعنون محمدًا ﷺ وأصحابه ، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم « بَلْ أَنْتُمْ خَالِدُونَ وَمُخَلَّدُونَ لَا يَخْلَفُكُمْ فِيهَا أَحَدٌ » ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَنْبَاءًا مَفْذُودَةً ﴾ الآية (١) . وعن أبي هريرة قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ، فقال رسول الله ﷺ : « اجتمعوا لي مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَهُنَا » فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَتُوكُمْ ؟ » قالوا : فلان ، قال : « كَذَّبْتُمْ بَلْ أَتُوكُمْ فَلَانٌ » ، فقالوا : صدقت وبررت ، ثم قال لهم : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَهْلُ النَّارِ ؟ » فقالوا : نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « اخْسَوْا وَاللَّهِ لَا نَخْلَفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا » ثم قال لهم رسول الله ﷺ : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ ؟ » قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : « هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ شَيْئًا » فقالوا : نعم ، قال : « فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » فقالوا : أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيًا لم يضرك (٢) .

﴿ بَلْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَةُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ .

يقول تعالى : ليس الأمر كما تمنيتم ، ولا كما تشتبهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته ، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشرعية ، فهم من أهل الجنة . ﴿ بَلْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ أي عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به ، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة . وفي رواية عن ابن عباس قال : الشرك . وقال السدي : السيئة الكبيرة من الكبائر وقال مجاهد : ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَتُهُ ﴾ بقلبه . وقال الربيع بن خيثم : الذي يموت على خطاياها من قبل أن يتوب . وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى والله أعلم . ويذكر ههنا الحديث الذي روي عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّهُمْ يُجْتَمِعُونَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ » (٣) وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادًا وأججوا نارًا ، فأنضجوا ما قذفوا فيها (٤) .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذهم ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه ويذكرونه ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وبهذا أمر جميع خلقه ، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٤٦/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٢) والبيهقي في شرح السنة (٢٣/١٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٥) والألباني في الصحيحة (٣٨٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) .

وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين ، وأكدهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : ﴿ أِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الصَّيْرِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَآتَاكَ الْفَرْقَ حَقَّهُ وَالْيَسِيرَ ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلَاةُ عَلَى وَفَّيْهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (١) . ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : « أُمَّكَ » قال : ثم من ؟ قال : « أُمَّكَ » قال ثم من ؟ قال : « أَبَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ » (٢)

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال الزمخشري : خبر بمعنى الطلب وهو أكد ، وقيل : كان أصله ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ كما قرأها من قرأها من السلف ، فحذفت أن فارتفع . وحكي عن أبي واين مسعود أنها قرأها (لا تعبدوا إلا الله) ونقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه . قال واختاره الكسائي والفراء . قال : ﴿ وَأَلَيْسَ ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهلهم . وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أي كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، كما قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحلم ويعفو ويصفح ، ويقول للناس حسناً ، كما قال الله ، وهو كل خلق حسن رضي الله . عن أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؛ فَالْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ مُنْطَلِقٍ » (٣) وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً ، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل ، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالممتنعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله ، أي تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه عن عمد ، بعد العلم به ، إلا القليل منهم . وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَقُولُونَ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانُ وَالْعُدُودُ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقُولُوا هُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعْدُ الْيَوْمِ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ عَذَابًا وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٤) ومسلم في الإيمان (١٣٩) وأحمد في مسنده (٤١٠/١) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٢) والترمذي في السنن (١٨٩٧) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) وأحمد في مسنده (٦٣/٥) .

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار ، كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرج من منزله ، ولا يظهر عليه كما قال تعالى : ﴿ فَتَوَبَّأْ إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ ﴾ وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاضُعِهِمْ وَمِثْلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أي ثم أقرضتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ .

عن السدي قال : كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج ، فكانوا يقتتلون في حرب بينهم ، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائهم ، النضير وحلفاءهم ، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم ، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما ؛ جمعوا له حتى يقدوه ، فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتقذونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وجرم علينا قتالهم ، قالوا : فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا ، فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ الآية . وقال الشعبي : نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ الآية . وقال السدي عن عبد خير : غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلي بلنجر ، فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا ، واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة ، فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله : يا رأس الجالوت هل لك في عجز ههنا من أهل دينك تشتريها مني ، قال : نعم ، قال : أخذتها بسبعمائة درهم ، قال : فإني أربحك سبعمائة أخرى ، قال : فإني قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف ، قال : لا حاجة لي فيها ، قال : والله لتشتريها مني أو لتكفرن بدينك الذي أنت عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه فقرأ في أذنه مما في التوراة : إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته ، ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى فَعُدُّهُمْ رِجَالَهُمْ عَلَيْهِمْ مَوَدَّةٌ ﴾ قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم ، قال : فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين .

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق ، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٧٠/٤) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٣) .

صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك ، وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ونهاجره ، وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، واليهود - عليهم لعائن الله - يتكتمونه بينهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ الْيَعْنَةِ يَرْدُونَ إِلَى الْأَذْذَابِ ﴾ جزء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أولئك الذين أشقوا الحياة الدنيا بالآخرة ﴿ أي استحبوها على الآخرة واختاروها ﴾ ﴿ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴾ أي لا يفر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجرهم منه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ قال السدي عن أبي مالك : أتبعنا . وقال غيره : أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم . فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات . قال ابن عباس من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهية الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأنيده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ، ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسداهم وعنادهم ، لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخبارا عن عيسى : ﴿ وَلَا يَحِذْ لَكُمْ بَعَثَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَحَشَرَ بَيِّنَاتٍ مِّنْ بَيْنِكُمْ ﴾ الآية فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقا يكذبونه ، وفريقا يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوه ، وربما قتلوا بعضهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

والدليل على أن روح القدس هو جبريل ما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ وضع لحنان بن ثابت منبرا في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ أَيِّدْ حَسَانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ كَمَا نَفَّحَ عَنْ نَبِيِّكَ » ^(١) وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهْبِطْهُمْ - أو هاجهم - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » ^(٢) وفي شعر حسان قوله :

وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ

أقوال أخر : وقال ابن عباس ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٥١) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢٣) ومسلم في فضائل الصحابة (١٥٣) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٤) .

الموتى . وقال ابن أبي نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة . وقال الربيع بن أنس : القدس هو الرب تبارك وتعالى . وقال السدي : القدس البركة . وقال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْنَلُونَ ﴾ إنما لم يقل وفريقًا قتلتم ؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا ، لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر ، وقد قال ﷺ في مرض موته : « مَا زَالَتْ أَكَلَةُ خَيْرٍ تُعَاوِذُنِي ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَهْرِي » ^(١) .
﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي في أكنة ، وقال : أي لا تفقه . وقال : هي القلوب المطبوع عليها فلا تعي ولا تفقه . وقرأ ابن عباس وعطاء : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي طردهم الله وأبعدهم من كل خير ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال قتادة : معناه لا يؤمن منهم إلا القليل ، وعن حذيفة قال : « القلوب أربعة » فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه ، وذلك قلب الكافر » ^(٢) . وعن الحسن في قوله : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال : لم تختن ، وهذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم ، وأنها بعيدة من الخير . وعن ابن عباس ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ : أي أوعية للعلم ، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها ، حكاه ابن جرير ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ بضم اللام نقلها الزمخشري أي جمع غلاف أي أوعية بمعنى أنهم ادّعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر ، كما كانوا يفتنون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ليس الأمر كما ادّعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها .

وقد اختلفوا في معنى قوله : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فقال بعضهم : قليل من يؤمن منهم ، وقيل : قليل إيمانهم ، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ وقال بعضهم : إنما كانوا غير مؤمنين بشيء وإنما قال : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط . تريد ما رأيت مثل هذا قط .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بِسِتْنَةٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني من التوراة وقوله : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بِسِتْنَةٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، وعن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ بِسِتْنَةٍ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرًا في الجاهلية ، ونحن أهل شرك وهم

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٢٨) والدارمي في المقدمة (٧) وأحمد في مسنده (١٨/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٧/٣) والطبراني في الصغير (١١٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/١) .

أهل كتاب ، وهم يقولون : إن نبيا سيعث الآن تتبعه قد أطل زمانه ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، قال ابن عباس : أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبثته ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ووجدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وذاد بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم - أخو بني النضير - ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم . فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية .

﴿ يَشْكَا أَشْرَافُ يَهُودِ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنِيَّ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَهُمْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ يَشْكَا أَشْرَافُ يَهُودِ أَنْفُسُهُمْ ﴾ : يهود شروا الحق بالباطل ، وكنمان ما جاء به محمد ﷺ بأن يينوه . وقال السدي : بشما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به ، وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ ، عن تصديقه وموازته ونصرتة ، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا . قال ابن عباس : ﴿ يَشْكَا أَشْرَافُ يَهُودِ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَنِيَّ أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي أن الله جعله من غيرهم ﴿ فَبَاءَهُمْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ : فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم ، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم .

قلت : ومعنى ﴿ فَبَاءَهُمْ ﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب . وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن . قال السدي : أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل ، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ . وعن ابن عباس مثله .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ، ومنشأ ذلك التكبر ، قولوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة ، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « يُعْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغْثَالُ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ ، يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سِجِّينَ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَس ، تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْثَارِ ، يُشَقُّونَ مِنْ طَبَقَةِ الْحَبَالِ غَضَارَةَ أَهْلِ النَّارِ » (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَقُولُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿ قَالُوا تَقُولُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ، ولا نقر إلا بذلك ﴿ وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ يعني بما بعده ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أي

وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ ﴿ أَلَحَقْ مُصِيقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ منصوبًا على الحال ، أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَرَوْنَهُمْ كَمَا يَرَوْنَ آبَاءَهُمْ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ فَلَيْمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعوكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم ، والحكم بها ، وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغيا وعنادا واستكبارا على رسل الله ، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي بالآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات ، على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، والآيات البينات هي : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ، ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أي معبودًا من دون الله في زمان موسى وأيامه ، وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله ﷻ .

﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ رَافِعًا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ قالوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِسْنَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

يعدد ﷺ عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعتوهم وإعراضهم عنه ، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه ولهذا ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك ﴿ وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال قتادة : أي أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم . وعن بلال بن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « حُبُّكَ الشَّيْءِ يُغْمِي وَيُصِمُّ » ^(١) .

وقوله : ﴿ قُلْ يَسْمَا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِسْنَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي بشما تعمدونه في قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات الله ، ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ ، وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان ، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة ، من نقضكم الموائيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله ؟!

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ آذَانُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَلَنْ يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ وَلَنَجْذِثُنَّمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَهْلُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

عن ابن عباس ؓ : يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ آذَانُ الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ،

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٥١٣٠) وأحمد في مسنده (٤٥٠/٦) .

فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم ، بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم : ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات . وقال ابن عباس : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾ : فسلوا الموت . وقال عكرمة قوله : ﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾ إن كنتم صدقيين ﴿ قال : قال ابن عباس : لو تمنى يهود الموت لماتوا . وقال ابن جرير في تفسيره : وبلغنا أن النبي ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا ، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا » ^(١) . فهم - عليهم لعائن الله تعالى - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا ﴾ دعوا إلى المباهلة ، والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك ، علم كل أحد أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة ، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَدْمٍ مَا جَاءَكَ مِنْ أَوَّلِهِ فَقُلْ تَقَالَوْا نَبَّأُ آبَائِنَا وَأَبْنَاءُكُمْ وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضربها عليهم ، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينًا .

وأما من فسر الآية على معنى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في دعواكم ، فتمنوا الآن الموت ، ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة ، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم . ومال إليه ابن جرير بعدما قارب القول الأول ، فإنه قال : القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْدَارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ الآية . فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجرة ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف ، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه في عيسى ابن مريم عليه السلام وجادلوه فيه إلى مفاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، فقال لفريق اليهود : إِنْ كُنْتُمْ مُحَقِّقِينَ فَمَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ، فَإِنْ ذَلِكَ غَيْرُ ضَارِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُحَقِّقِينَ فِيمَا تَدْعُونَ مِنَ الْإِيمَانِ وَقُرْبِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ ، لَكِي يُعْطِيَكُمْ أَمْنِيَّتَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا تَمَنَيْتُمْ ، فَإِنَّمَا تُصَيِّرُونَ إِلَى الرَّاحَةِ مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا وَنَفْسِهَا وَكُدْرَ عَيْشِهَا ، وَالْفَوْزَ بِجَوَارِ اللَّهِ فِي جَنَاتِهِ ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ مِنْ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَكُمْ خَاصَّةً دُونَنَا ، وَإِنْ لَمْ تَعْطَوْهَا عِلْمَ النَّاسِ أَنْكُمْ الْمِطْلُونَ وَنَحْنُ الْحَقُّونَ فِي دَعْوَانَا ، وَانْكَشَفَ أَمْرُنَا وَأَمْرُكُمْ لَهُمْ ، فَامْتَنَعَتِ الْيَهُودُ عَنِ الْإِجَابَةِ إِلَى ذَلِكَ لَعَلَّهَا ، أَنَهَا إِنْ تَمَنَّتِ الْمَوْتَ هَلَكْتَ ، فَذَهَبَتْ دُنْيَاهَا وَصَارَتْ إِلَى خِزْيِ الْأَبَدِ فِي آخِرَتِهَا ، كَمَا امْتَنَعَ فَرِيقُ النَّصَارَى الَّذِينَ جَادَلُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي عَيْسَى إِذْ دَعَا لِلْمَبَاهِلَةِ مِنَ الْمَبَاهِلَةِ .

فهذا الكلام منه أوله حسن ، وآخره فيه نظر ، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل ، إذ يقال : إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود أن يعمر ليزداد خيرًا ، وترتفع درجته

في الجنة ، ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فيها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة ، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ، وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك ، بل قيل لهم كلام نصف ، إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك ، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه ، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم ، وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه ، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . وسميت هذه المباهلة تمنياً ؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره ، وكانت المباهلة بالموت ؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ٩٥ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ أَي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة ؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم ، وهذا من باب عطف الخاص على العام .

عن ابن عباس ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال : الأعاجم . وقال الحسن البصري ﴿ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَهْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ قال : المنافق أحرص الناس ، وأحرص من المشرك على حياة ﴿ يَوْمَ أَخَذَهُمْ ﴾ أي يود أحد اليهود وقال أبو العالية : يود أحد الجوس . قال ابن عباس ﴿ يَوْمَ أَخَذَهُمْ لَوِ يَمْسَرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ قال : هو كقول الفارسي : (ده هزار سال) يقول عشرة آلاف سنة .

وعن ابن عباس ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَجَّجٍ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يَمَسَّهُ ﴾ أي وما هو بمنجيهِ من العذاب ، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة ، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم . وقال العوفي عن ابن عباس : هم الذين عادوا جبرائيل . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر ، وسيجازي كل عامل بعمله .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٩٦ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٧ .

قال الطبري : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك ، فقال بعضهم : إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته .

ذكر من قال ذلك : عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي ، فقال رسول الله ﷺ : « سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةً وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَأْبُغْنِي عَلَى الْإِسْلَامِ » فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله ﷺ : « سَلُوا عَمَّا شِئْتُمْ » قالوا : أخبرنا عن أربع خلال

نسألك عنهن ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل ، وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة ، ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبي ﷺ : « عَلَيْكُمْ عَهْدُ اللَّهِ لَئِنْ أَنَا أَنبَأْتُكُمْ لَشَأْنُكُمْ ؟ » فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق فقال : « نَشَدُّكُمْ بِالَّذِي أُنْزِلَ الثُّورَةُ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَغْقُوبَ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ ، فَتَدَّرَ لَهُ نَذْرًا لَئِنْ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ لَيَحْرِمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمَ الْإِبِلِ ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا ؟ » فقالوا : اللهم نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْنَهُمْ ، وَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ الثُّورَةُ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَيْضٌ ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَضْفَرُ ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّيْبَةُ يَأْذِنُ اللَّهُ ﷻ ؟ ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ الْوَلَدُ ذَكَرًا يَأْذِنُ اللَّهُ ، وَإِذَا عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ الْوَلَدُ أُنْثَى يَأْذِنُ اللَّهُ ﷻ » قالوا : اللهم نعم قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، وَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ الثُّورَةُ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ ؟ » قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » قالوا : أنت الآن فحَدَّثْنَا مِنْ وَلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فعندها نجامعك أو نفارقك قال : « فَإِنَّ وَلِيَّيَ جِبْرِيلُ ، وَلَمْ يَتَّعِبِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَكِيلٌ » قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك ، قال : « فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُصَدِّقُوهُ ؟ » قالوا : إنه عدونا فأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبِيبِي فَإِنَّهُمْ زَلَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ يَأْذِنُ اللَّهُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب ^(١) .

قال البخاري : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبِيبِي ﴾ قال عكرمة : جبرا ، وميك ، وإسراف : عبد ، إيل : الله ^(٢) . وعن أنس بن مالك قال : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف ، فأثنى النبي ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أَخْبَرَنِي بِهِذِهِ جِبْرِائِيلُ أَنْفًا » قال : جبريل ؟ قال : « نَعَمْ » قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبِيبِي فَإِنَّهُمْ زَلَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ « وَأَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَتَارَ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : فَرِيزَادَةُ كَبِدِ الْحَوْتِ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدُ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ » قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . يا رسول الله إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم ييهتوني ، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ : « أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ فِيكُمْ ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا قال : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ » قالوا : أعاده الله من ذلك ، فخرج عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله ^(٣) . ومن الناس من يقول : إيل عبارة عن عبد ، والكلمة الأخرى هي اسم الله ؛ لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع ، فوازنه عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد الملك ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/١) وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٦٦/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب قوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبِيبِي ﴾) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٠) .

عبد القدوس ، عبد السلام ، عبد الكافي ، عبد الجليل ، فعبد موجودة في هذا كله ، واختلفت الأسماء المضاف إليها ، وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك . وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف ، والله أعلم .

عن الشعبي قال : نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالاً يتدرون أحجاراً يصلون إليها ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا ، قال : فكفر ذلك ، وقال : أيما رسول أدرسته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم فقال : كنت أشهد اليهود من مدراسهم ^(١) فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا ، فقلت : إني أتيتكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ، ومن التوراة كيف تصدق القرآن ، قالوا : ومرو رسول الله ﷺ فقالوا : يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به ، قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا ، فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه ، قالوا : فأنت علمنا وكبيرنا فأجبه أنت ، قال : أما إذا نشدنا بما نشدتنا ، فإنا نعلم أنه رسول الله ، قلت : ويحكم إذاً هلكتم ، قالوا : إنا لم نهلك ، قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه !! قالوا : إن لنا عدواً من الملائكة وسلماء من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة ، قلت : ومن عدوكم ومن يسلمكم ؟ قالوا : عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل ، قالوا : إن جبرائيل ملك الفضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ﷻ ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال : فقلت : فوالذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما ، وسلم لمن سالهما ، وما ينبغي لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل ، قال : ثم قمت فاتبعت النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان فقال : « يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا أُقْرِئُكَ آيَاتِ نَزَلْنَ قَبْلُ » فقرأ علي : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ حتى قرأ الآيات ، قال : قلت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد جئت أنا أريد أن أخبرك ، وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر ^(٢) .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين ، الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي ، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل ، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزم الكفر بجميع الرسل ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله ؛ لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، وقد روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَوْبِ » ^(٣) ولهذا غضب

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٦٠٨/١ .

(١) مدراسهم : المكان الذي يتذكرون فيه كتابهم .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٩/١٠) .

ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات، التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي. قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوهم عليهم، وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أُمي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى لهم في ذلك عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

وقال ابن عباس: قال ابن سوريا القطويني لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبتك، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾. وقال مالك بن الصيف: حين بعث رسول الله ﷺ، وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد، وما أخذ علينا ميثاقاً. فأنزل الله تعالى: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وقال الحسن البصري: ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: ﴿نَبَذُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبذاً، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء.

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم إليهم في التمسك بها والقيام بحقها، ولذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتة وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته.

وقال السدي: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ لما جاءهم محمد ﷺ، عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب أصف وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن فذلك قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَتْلُونَ﴾ وقال قتادة في قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَتْلُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكنموه وجحدوا به، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ﴾: وكان حين ذهب ملك سليمان، ارتد فقام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفنوها تحت كرسيه، وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنه، فأخذوا به فجعلوه ديناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ الآية. واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألو محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله ﷻ ما سألوه عنه فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل

اللَّهُ إِلَيْنَا مَنَا ، وَإِنَّهُمْ سَأَلُوهُ عَنِ السَّحَرِ وَخَاصَمُوهُ بِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿٩٩﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴿١٠٠﴾ وَإِن الشَّيَاطِينَ عَمَدُوا إِلَىٰ كِتَابٍ ، فَكَتَبُوا فِيهِ السَّحْرَ وَالْكَهَانَةَ وَمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَدَفَنُوهُ تَحْتَ كُرْسِيِّ مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، فَلَمَّا فَارَقَ سُلَيْمَانُ الدُّنْيَا اسْتَخْرَجُوا ذَلِكَ السَّحْرَ وَخَدَعُوا النَّاسَ ، وَقَالُوا : هَذَا عِلْمُ كَانَ سُلَيْمَانُ يَكْتُمُهُ وَيَحْسَدُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، فَأَخْبَرَهُم النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَرَجَعُوا مِنْ عِنْدِهِ ، وَقَدْ خَرَجُوا وَقَدْ أَدْحَضَ اللَّهُ حُجَّتَهُمْ .

وقال الحسن : ﴿٩٩﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴿١٠٠﴾ قال : ثلث الشعر ، وثلث السحر ، وثلث الكهانة . وعنه أيضًا قال : وتبعته اليهود على ملكه ، وكان السحر قبل ذلك في الأرض لم يزل بها ، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان . فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام ، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها ، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله الهادي .

وقوله تعالى : ﴿٩٩﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴿١٠٠﴾ أي واتبعته اليهود الذين أوتوا الكتاب ، من بعد إغراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ، ما تتلوه الشياطين ، أي ما ترويه وتخبر به وتحذثه الشياطين على ملك سليمان ، وعدها بعلى ؛ لأنه تضمن تتلو تكذب . وقال ابن جرير : ﴿٩٩﴾ ههنا بمعنى في ، أي ، تتلو في ملك سليمان قلت : والتضمن أحسن وأولى والله أعلم . وقول الحسن البصري رحمه الله : وكان السحر قبل زمن سليمان بن داود ، صحيح لاشك فيه ؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام ، وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى : ﴿٩٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَنِي مُوسَى ﴿١٠٠﴾ الآية ثم ذكر القصة بعدها ، وفيها ﴿٩٩﴾ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَكَانَتْ أَلْفَةُ الْمَلِكِ وَالْحُكْمَةُ ﴿١٠١﴾ ، وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام - لنبيهم صالح ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٠٢﴾ أي المسحورين على المشهور .

وقوله تعالى : ﴿٩٩﴾ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوْتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَزُجُمٍ ﴿١٠٠﴾ اختلف الناس في هذا المقام ، فذهب بعضهم إلى أن (ما) نافية ، أعني التي في قوله : ﴿٩٩﴾ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴿١٠٠﴾ قال القرطبي : ما نافية ومعطوف على قوله : ﴿٩٩﴾ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ ﴿١٠٠﴾ ثم قال : ﴿٩٩﴾ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴿١٠٠﴾ وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل ، فأكذبهم الله وجعل قوله : ﴿٩٩﴾ هَرُوتَ وَمَرْوْتَ ﴿١٠٠﴾ بدلًا من الشياطين ، قال : وصح ذلك ، إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى : ﴿٩٩﴾ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴿١٠٠﴾ أو لكونهما لهما أتباع ، أو ذكرًا من بينهم لتمردهما . تقدير الكلام عنده : يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ، ولا يلتفت إلى ما سواه . وروي عن ابن عباس في قوله : ﴿٩٩﴾ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ ﴿١٠٠﴾ الآية ، يقول : لم ينزل الله السحر . وإسناده عن الربيع بن أنس قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا

يعلمون الناس السحر بيابل هاروت وماروت ، فيكون قوله : ﴿ يَبَايِلْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم ، قال : فإن قال لنا قائل : كيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل : وجه تقديمه أن يقال : ﴿ وَأَتَّبِعُوا مَا تَنَزَّلُوا مِنَ السَّحَرِ ﴾ من السحر ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بيابل هاروت وماروت ، فيكون معنيًا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام ؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمدًا عليه السلام أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك بيابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًا عليهم .

ذَكَرُ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ فِي ذَلِكَ إِنَّ صَاحِبَ سَنَدِهِ وَرَفَعَهُ وَبَيَّنَّ الْكَلَامَ عَلَيْهِ : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا أَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : أَيُّ رَبِّ أَتَجَمَّلُ فِيهَا مَنْ يُفَسِّدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قَالُوا : رَبَّنَا نَحْنُ أَطْوَعُ لَكَ مِنْ نَبِيِّ آدَمَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ : هَلُمُّوا مَلَائِكَتَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى تَهْبِطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ فَتَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلَانِ ، قَالُوا : رَبَّنَا هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، فَأَهْبَطَا إِلَى الْأَرْضِ ، وَتَمَثَّلَتْ لَهُمَا الزُّهْرَةُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ الْبَشَرِ ، فَجَاءَتْهُمَا فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا ، فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَتَكَلَّمَا بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ الْإِشْرَاقِ ، فَقَالَا : وَاللَّهِ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا ، فَذَهَبَتْ عَنْهُمَا ثُمَّ رَجَعَتْ بِصَبِيٍّ تَحْمِلُهُ ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا ، فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَقْتُلَا هَذَا الصَّبِيَّ ، فَقَالَا : لَا وَاللَّهِ لَا نَقْتُلُهُ أَبَدًا ، فَذَهَبَتْ ثُمَّ رَجَعَتْ بِقَدَحٍ خَمْرٍ تَحْمِلُهُ ، فَسَأَلَاهَا نَفْسَهَا فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَشْرَبَا هَذَا الْخَمْرَ ، فَشَرَبَا فَسَكِرَا ، فَوَقَعَا عَلَيْهَا ، وَقَتَلَا الصَّبِيَّ ، فَلَمَّا أَفَاقَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ : وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُمَا شَيْئًا أَبْيَثَ مَا عَلَيَّ إِلَّا قَدْ فَعَلْتُمَا هَؤُلَاءِ سَكِرْتُمَا ، فَخَيْرًا يَنْصُرُ الدُّنْيَا وَعَذَابٍ الْآخِرَةِ فَاخْتَارَا عَذَابَ الدُّنْيَا » ^(١) .

ذَكَرُ الْأَثَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رضي الله عنهم أجمعين

روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والتأخرين ، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن لإجمال القصة من غير بسط ولا إطناب ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ .

وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحبينا أن ننبه عليه ، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها قالت : قدمت عليَّ امرأة من أهل دومة الجندل ، جاءت تبغي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته حدثت ذلك ، تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به ، وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤/٢) والبيهقي في السنن (٥/١٠) والألباني في الضعيفة (١٧٠) .

يا ابن أختي ، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفئها ، فكانت تبكي حتى إنني لأرحمها وتقول : إنني أخاف أن أكون قد هلكت : كان لي زوج فغاب عني ، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءني بكليين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا : ما جاء بك ؟ قلت : نتعلم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري ، فارجمي فأبیت ، وقلت : لا ، قالا : فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت ففرغت ولم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلت ؟ فقلت : نعم ، فقالا : هل رأيت شيئاً ؟ فقلت : لم أر شيئاً ، فقالا : لم تفعل ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فأربيت وأبیت ، فقالا : اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت فاقتشعرت وخفت ، ثم رجعت إليهما وقلت : قد فعلت ، فقالا : فما رأيت ؟ قلت : لم أر شيئاً ، فقالا : كذبت لم تفعل ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبیت ، فقالا : اذهبي إلى التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارساً مقنناً بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فجتتهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : فما رأيت ، قلت : رأيت فارساً مقنناً خرج مني ؛ فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فقالا : صدقت ذلك إيمانك خرج منك . اذهبي ، فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئاً ، وما قال لي شيئاً ، فقالت : بلى لم تريدي شيئاً إلا كان ، خذي هذا القمح فابذري فبذرت وقلت : اطلعي فطلعت ، وقلت : احقلي فأحقلت ، ثم قلت ، افركي فأفركت ، ثم قلت : ايسي فأيسيت ، ثم قلت : اطحني فأطحنت ، ثم قلت : اخيزي فأخيزت ، فلما رأيت أنني لا أريد شيئاً ، إلا كان سقط في يدي وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً .

وقد استدلل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان ؛ لأن هذه المرأة بذرت واستغلت في الحال . وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلا على التخيل كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُضِلُّ إِلَيْهِ مَن سَخِرَ مِنْهُنَّ أَفَّا تَعْلَمُ ﴾ استدلل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق ، لا بابل ديناوند كما قاله السدي وغيره ، ثم الدليل على أنها بابل العراق : ما قال أبو صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب ﷺ مر ببابل وهو يسير ، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر ، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة ، فلما فرغ قال : إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي بأرض المقبرة ، ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْلِمَانِ مِن أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَانِ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية : نعم أنزل الملكان بالسحر ، ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس ، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . وقال ابن جريج في هذه الآية : لا يجترئ على السحر إلا كافر ، وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر :
وَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ
وَحَلَّى ابْنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلًا

وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر ، واستشهد له بالحديث : « مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ، ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك ، من الأسباب المقتضية للفرقة ، والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ، ويشنى كل منهما ولا يجمعان ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله . وقال محمد بن إسحاق : إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال : نعم من شاء الله سلطه عليه ، ومن لم يشأ الله لم يسلط ، ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله ، كما قال الله تعالى . وفي رواية عن الحسن أنه قال : لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ أي يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ ، لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق . قال ابن عباس وغيره : ما له في الآخرة من جهة عند الله ، وقال الحسن : ليس له دين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسله ، واتقوا المحارم ، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ، ورضوا به .

وقد استدل بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل ، عن جندب الأزدي أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حُدِّ السَّاحِرُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ » ^(٢) . وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله يحيي الموتى ، ورآه رجل من صالحى المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه ، وذهب يلعب لعبه ذلك ، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقاً فليحيي نفسه ، وتلا قوله تعالى :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢) وأبو داود في السنن (٣٩٠٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٦٠) والحاكم في المستدرک (٣٦٠/٤) ، والطبراني في الكبير (١٧٢/١٢) والدارقطني في السنن (١١٤/٣) .

﴿ أَفَنَتَأْوِكَ الْيَسْحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ ، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه ، والله أعلم . وعن حارثة قال : كان عند بعض الأمراء رجل يلعب ، فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله ، قال : أراه كان ساحراً ، وحمل الشافعي رحمته الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً ، والله أعلم .

فصل : حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده ، قال : وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء ، ويقلب الإنسان حملاً ، والحمار إنساناً ، إلا أنهم قالوا : إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر : تلك الرقى والكلمات المعينة ، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا ، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة ، ثم استدلل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر ، وأن السحر عمل فيه ، وبقصة المرأة مع عائشة رضي الله عنها ، وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها وتعلمها السحر ، قال : وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات كثيرة ، ثم قال بعد هذا :

مسألة : في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور : اتفق المحققون على ذلك ؛ لأن العلم لذاته شريف ، وأيضاً لعموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولأن السحر لو لم يكن يعلم ، لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة ، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب ، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً ، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً ؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة . وهذا الكلام فيه نظر من وجوه : أحدها : قوله : العلم بالسحر ليس بقبيح ، إن عني به ليس بقبيح عقلاً ، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا ، وإن عني أنه ليس بقبيح شرعاً ، ففي هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر ، وفي الصحيح : « مَنْ أَتَى غُرَافاً أَوْ كَاهِنًا فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » ^(١) وفي السنن « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً وَنَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ » ^(٢) .

وقوله : ولا محظور ، اتفق المحققون على ذلك ، كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث ، واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة من العلماء أو أكثرهم ، وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله علم السحر في عموم قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه نظر ؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعي ، ولم قلت إن هذا منه ، ثم ترقية إلى وجوب تعلمه بأن لا يحصل العلم بالمعجز إلا به ضعيف ، بل فاسد ؛ لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً ، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ، ولا علموه ، والله أعلم .

ثم قد ذكر أبو عبد الله الرازي أن أنواع السحر ثمانية :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١١٢/٧) والمندري في الترغيب والترهيب (٣٢/٤) .

النوع الأول : سحر الكذابين والكشدين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة ، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم ، وأنها تأتي بالخير والشر ، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام مبطلاً لمقالتهم ، وراداً لمذهبهم ، وقد استقصى في (كتاب السر المكتوم ، في مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب إليه كما ذكرها القاضي ابن خلكان وغيره ، ويقال : إنه تاب منه ، وقيل : بل صنفه على وجه إظهار الفضيلة ، لا على سبيل الاعتقاد ، وهذا هو المظنون به ، إلا أنه ذكر فيه طريقهم في مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة ، وكيفية ما يفعلون وما يلبسون وما يتسكون به .

والنوع الثاني : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية : ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض ، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه ، قال : وكما أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر ، والمصرع إلى الأشياء القوية للمعان أو الدوران ، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق . وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقْتُهُ الْعَيْنُ » ^(١) قال : فإذا عرفت هذا فنقول : النفس التي تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً فتستغني في هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات ، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات ، وتحقيقه أن النفس إذا كانت متعلقة على البدن ، شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات ، صارت كأنها روح من الأرواح السماوية ، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم ، وإذا كانت ضعيفة ، شديدة التعلق بهذه الذات البدنية ، فحيث لا يكون لها تأثير البتة إلا في هذا البدن ، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانقطاع عن الناس والرياء . قلت : وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال ، وهو على قسمين : تارة تكون حالاً صحيحة شرعية ، يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ويترك ما نهى الله تعالى عنه ورسوله ﷺ ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى ، وكرامات للصالحين من هذه الأمة ، ولا يسمى هذا سحراً في الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة ، لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ، ولا يتصرف بها في ذلك ، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشرعية ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبة لهم ، كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة ، مع أنه مذموم شرعاً - لعنه الله - وكذلك من شابهه من مخالفين الشريعة الحمديدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبسط هذا يطول جداً وليس هذا موضعه .

والنوع الثالث من السحر : الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن ، خلافاً للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين : مؤمنون ، وكفار وهم الشياطين . قال : واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية ، لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقي والدجن والتجويد ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

النوع الرابع من السحر التخيلات : والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٤٤) ومسلم في السلام (٤٢) والترمذي في السنن (٢٠٦١) وأحمد في مسنده (٤٢٠/٢) .

ويشتغل بالشيء المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ، ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه ، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة ، وحيثئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها ، لفطن الناظرون لكل ما يفعله . قال : وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد ، كان العمل أحسن ، مثل أن يجلس المشعبذ في موضع مضيء جداً أو مظلم ، فلا تقف القوة الناضرة على أحوالها والحالة هذه .

قلت : وقد قال بعض المفسرين : إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبة . النوع الخامس من السحر : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية ، كفارس على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ، ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان ، حتى يصورونها ضاحكة وباكية ، إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل . قلت : يعني ما قاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي فحشوها زئبقاً ، فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق ، فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها . قال الرازي : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة . قال : وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر ؛ لأن لها أسباباً معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها .

قلت : ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم ، بما يرونها إياه من الأنوار ، كقضية قمامة الكنيسة التي لهم يلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم ، وأما الخواص فهم معترفون بذلك ، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم ، فيرون ذلك سائغاً لهم . وفيه شبهة على الجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامية ، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب ، فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ^(١) وقوله : « حَدِّثُوا عَنِّي وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَكْذِبْ عَلَيَّ يَلِجِ النَّارَ » ^(٢) ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان ، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة ، فإذا سمعته الطيور ترق له ، فتذهب فتلقى في وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به ، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله ، وتوصل إلى أن جعله أجوف ، فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر ، وانقطع في صومعة ابتناها وزعم أنها على قبر بعض صالحهم ، وعلق ذلك الطائر في مكان منها ، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحيته ، فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة ، فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضاً ، فتأتي الطيور فتحمل من

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٧) وأبو داود في السنن (٣٦٥١) وأحمد في مسنده (١٦٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦/٣) والحميدي في مسنده (١١٦٥) .

الزيتون شيئاً كثيراً ، فلا ترى النصرارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه ، ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة .
النوع السادس من السحر : الاستعانة بخواص الأدوية يعني في الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص ، فإن تأثير المغناطيس مشاهد .

قلت : يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص ، مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المجالات .

النوع السابع من السحر : التعليق للقلب ، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز ، اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك ، وحصل في نفسه نوع من الرعب والخافة ، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء .

قلت : هذا النمط يقال له : التنبلة ، وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان النبيل حاذقاً في علم الفراسة ، عرف من ينقاد له من الناس من غيره .
النوع الثامن من السحر : السعي بالنميمة ، والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة : وذلك شائع في الناس .

قلت : النميمة على قسمين : تارة تكون على وجه التحريش بين الناس ، وتفريق قلوب المؤمنين ، فهذا حرام متفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس ، وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء في الحديث «لَيْسَ بِالْكَذَّابِ مَنْ يَتِمُّ خَيْرًا» ^(١) أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة ، فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث : «الْحَزْبُ خُدْعَةٌ» ^(٢) وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة ، جاء إلى هؤلاء فتم إليهم عن هؤلاء كلاماً ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت ، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة ، والله المستعان .

ثم قال : فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه .

قلت : وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطبقة مداركها ؛ لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ، ولهذا جاء في الحديث : «إِنَّ مِنَ الْبَيِّنَاتِ لَسِحْرًا» ^(٣) وسمي السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل ، والسحر : الرثة وهي محل الغذاء ، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه ، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة : انتفخ سحره ، أي انتفخت رثته من الخوف . وقال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أي أخفوا عنهم عملهم ، والله أعلم .

وقال أبو عبد الله القرطبي : وعندنا أن السحر حق ، وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء ، خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفرائيني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخيل ، قال : ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذي البريد ، لخفة سيره ، قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية .

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٠١) والبيهقي في السنن (١٩٧/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٧) وأبو داود في السنن (٢٦٣٦) والترمذي في السنن (١٦٧٥) وأحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٠٧) وأحمد في مسنده (٢٦٣/٤) والحاكم في المستدرک (٦١٣/٣) .

قال القرطبي : ومنه ما يكون كلامًا يحفظ ، ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال : وقوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ مِنْ الْبَيِّنَاتِ لَسِخْرًا » يحتمل أن يكون مدحًا كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون دُخًا للبلاغة ، قال : وهذا أصح ، قال : لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « فَلَقُلْ بِقَضَائِكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَرُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضِ فَأَقْضِي لَهُ » (١) الحديث .

فصل : وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة رحمته الله في كتابه (الإشراف على مذاهب الأشراف) بابًا في السحر فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة ، إلا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك ، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمته الله إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحره ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة ، وأنها تفعل ما يلتبس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر ، قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا فأما إن قتل بسحره إنسانًا ؛ فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك ، أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل ؛ فإنه يقتل حدًا عندهم ، إلا الشافعي فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصًا ، قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل ، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم ، وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل ، يعني لقصة لبيد بن الأعصم ، واختلفوا في المسلمة الساحرة ؛ فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبو بكر الخلال : أخبرنا أبو بكر المروزي قال : قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهري قال : يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين ؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رحمته الله أنه قال في الذمي : يقتل إن قتل سحره ، وحكى ابن خويز مناد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر : إحداها : أنه يستتاب ، فإن أسلم وإلا قتل ، والثانية : أنه يقتل وإن أسلم ، وأما الساحر فإن تضمن سحره كفرًا ؛ كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ لكن قال مالك : إذا ظهر عليه لم تقبل توبته ؛ لأنه كالزنديق ؛ فإن تاب قبل أن يظهر عليه ، وجاءنا ثابتًا قبلنا ، فإن قتل سحره قتل ، قال الشافعي : فإن قال : لم أتعمد القتل ؛ فهو مخطئ تجب عليه الدية .

مسألة : وهل يسأل الساحر حلًا لسحره ؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري ، وقال عامر الشعبي : لا بأس بالنشرة ، وكره ذلك الحسن البصري ، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم في الأفضية (٤) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٦) .

هلا تنشرت ، فقال : « أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أَفْتَحَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا » ^(١) .

وحكى القرطبي عن وهب : أنه قال : يؤخذ سبع ورقات من سدر ، فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء وهو يقرأ عليها آية الكرسي ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بياقيه فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته .

قلت : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك ، وهما المعوذتان ، وفي الحديث : « لَمْ يَتَعَوَّذْ بِمِثْلِهِمَا » ^(٢) ، وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُولُوا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٣) ، وَمَا يَدْعُوا بِهِمْ وَلَا يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ يَتَوَلَّوْنَ أُولَئِكَ دُونَ مَا يُحِبُّونَ وَمَنْ يُتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَوَلَّى لَهُمْ فَطَوَّافٌ عَلَيْهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا يقولوا : راعنا ، ويورون بالرعونة ، وقد جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون : السام عليكم ، والسام هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم (وعليكم) وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً ، فقال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُولُوا بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٤) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجَعَلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجَعَلْتُ الذُّلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي . وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » ^(٥) . وعن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهده إلي ، فقال : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فأرעה سمعك ؛ فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه . وقال الأعمش عن خيشمة قال : ما تقرأون في القرآن ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فإنه في التوراة يا أيها المساكين . وقال ابن عباس : ﴿ رَعَيْنَا ﴾ أي أرعنا سمعك . وقال أيضاً : كانوا يقولون للنبي ﷺ : أرعنا سمعك ، وإنما راعنا كقولك : عاطنا . وقال مجاهد : ﴿ لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا ﴾ : لا تقولوا : خلافاً ، وفي رواية : لا تقولوا : اسمع منا ونسمع منك . وقال عطاء : ﴿ لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا ﴾ كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها . وقال السدي : كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال : أرعني سمعك واسمع غير مسمع ، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع غير صاغر : وهي كالتي في سورة النساء ، فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا : راعنا . وقال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ راعنا ؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : « لَا تَقُولُوا لِلْعَنَبِ : الْكَزْمُ ، وَلَكِنْ قُولُوا : الْحَبْلَةُ ، وَلَا تَقُولُوا : عَبْدِي ، وَلَكِنْ قُولُوا : فَتَايَ » ^(٦) وما أشبه ذلك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٦/٦) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٥١/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٢/٢) والزيلعي في نصب الراية (٣٤٧/٤) . (٤) أخرجه مسلم في الأدب (١١) وأحمد في مسنده (٥٠٩/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَوْزُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، الذين حذر الله تعالى من مشابهمهم للمؤمنين ، ليقطع المودة بينهم وبينهم ، وبته تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل ، الذي شرعه لنبينهم محمد ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ فِئْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ ما تبدل من آية . وقال مجاهد : أي ما نمحو من آية ، وقال ثبت خطها وبندل حكمها ، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وقال الضحاك : ما ننسخ ، وقال عطاء : أما ﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾ فما نترك من القرآن . وقال ابن أبي حاتم : يعني ترك فلم ينزل على محمد ﷺ . وقال السدي : نسخها قبضها . وقال ابن جرير : ما ننقل من حكم آية إلى غيره فبندله ونغيره ، وذلك أن نحول الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً ، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها ، فكذا معنى نسخ الحكم إلى غيره ، إنما هو تحويله ، ونقل عبارة إلى غيرها ، وسواء نسخ حكمها أو خطها ؛ إذ هي في كلتا حالتها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ ، والأمر في ذلك قريب ؛ لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ، ولحق بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر ، فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه ، والنسخ لا إلى بدله . وأما تفاصيل أحكام النسخ ، وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه . وعن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ ، فكانا يقرآن بها ، فقاما ذات ليلة يصليان ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غادين على رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا يُمَا نُسِخَ وَأُنْسِيَ فَالْهَذَا عَنْهَا » ^(١) فكان الزهري يقرأها : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ بضم النون الخفيفة .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقرأ على وجهين ﴿ نُسَاهَا ﴾ و ﴿ نُنْسِهَا ﴾ فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها . قال ابن عباس : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسَاهَا ﴾ يقول : ما تبدل من آية أو نتركها لا نبذلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود : ثبت خطها وبندل حكمها . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء : يعني الناسخ من المنسوخ . وقال أبو العالية نؤخرها ونرجئها . عن ابن عباس قال : خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله ﷻ : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسَاهَا ﴾ ^(٢) أي نؤخرها . وأما على قراءة : ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ فقال قتادة : كان الله ﷻ ينسي نبيه ﷺ ما يشاء ، وينسخ ما يشاء .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٨/١٢) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٤/٧) .

(٢) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو (انظر : زاد المسير ١/٢٧٧) .

وقال الحسن : إن نبيكم ﷺ قرأ قرآنًا ثم نسيه . وقال ابن عباس : كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل ، وينساه بالنهار ، فأنزل الله ﷻ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ . عن القاسم بن ربيعة قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال : قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرأ ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال : قال الله جل ثناؤه ﴿ سَتَرْنَا عَنْهُمْ كُنُوزَهُمْ فَلاَ يَخْفَى ﴾ ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . وعن ابن عباس قال : قال عمر عليّ أقضانا ، وأبي أقرؤنا ، وإنا لندع من قول أبي وذلك أن أبيًا يقول : لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ ، والله يقول : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين ، قال ابن عباس : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ يقول : خير لكم في المنفعة ، وأرفق بكم . وقال السدي : نأت بخير من الذي نسخته ، أو مثل الذي تركناه . وقال قتادة : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ، فيها نهْي .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة في أمثال أمره ، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا ، وامثال ما أمروا وترك ما عنه زجروا ، وفي هذا المقام رد عظيم ، وبيان بليغ ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً . قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمته الله : فتأويل الآية : ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيري ، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء ، إذ أشاء ، وأقر فيهما ما أشاء ، ثم قال : وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود ، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة ، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، لحيثهما بما جاء به من عند الله ، بتغيير ما غير الله من حكم التوراة ، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما ، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته ، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له أمرهم بما يشاء ونهيمهم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء ، من إقراره وأمره ونهيه .

قلت : الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ ، إنما هو الكفر والعناد ؛ فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى ؛ لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد ، مع أنه قد

(١) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨١) وأحمد في مسنده ١١٣/٥ .

نَعَمْ لَوْ جِئْتُ ، وَلَوْ وَجِئْتُ لَمَا اسْتَطَعْتُكُمْ » ثم قال : « دَرُؤْنِي مَا تَرَكْتُكُمْ » ^(١) الحديث . ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وعن البراء بن عازب قال : إن كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهدب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أي بل تريدون ، أو هي على بابها في الاستفهام ، وهو إنكاري ، وهو يعم المؤمنين والكافرين ، فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع ، قال ابن عباس : قال رافع بن حرملة ووهب بن زيد : يا محمد اتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه ، وفجر لنا أنها را تنبعك ونصدقك . فأنزل الله من قولهم : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ قال : قال رجل : يا رسول الله لو كانت كفارتنا ككفارة بني إسرائيل فقال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ لَا تَبْغِيهَا - ثَلَاثًا - مَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحَدَهُمُ الْخَطِيئَةُ وَجَدَهَا مَكْتُوبَةً عَلَى بَابِهِ وَكَفَّارَتَهَا ، فَإِنْ كَفَّرَهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الدُّنْيَا ، وَإِنْ لَمْ يَكْفُرْهَا كَانَتْ لَهُ خِزْيًا فِي الْآخِرَةِ ، فَمَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ^(٢) قال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وقال : « الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ » ^(٣) وقال : « مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكُتَبْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ امْتِنَالِهَا ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » ^(٤) فأنزل الله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ .

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والافتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى ﷺ تعنتًا وتكديتًا وعنادًا .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال . وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والافتراح عليهم بالأشئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر .

﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَغَارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا وَاصْطَفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَرَّبُوا لِلْكَسْبِ مِنْ حَبِيرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٣/٢) . (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٧/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) والترمذي في السنن (٢١٤) وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤/٢) والطبراني في الكبير (١٦١/١٢) .

الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضل نبيهم ،
ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ، ويأمرهم بإقامة
الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه ، عن ابن عباس قال : كان حيي بن أخطب
وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً ؛ إذ خصهم الله برسوله ﷺ وكانا جاهدين في ردّ
الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ ﴾
الآية . وقال الزهري في قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ قال : هو كعب بن
الأشرف . وقال عبد الله بن كعب عن أبيه : أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً ، وكان
يهجو النبي ﷺ ، وفيه أنزل الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاعْفُوا
وَاصْفَحُوا ﴾ وقال ابن عباس : إن رسولاً أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات ، ثم
يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً ، وكذلك قال الله
تعالى : ﴿ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مَّا بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ يقول : من بعد ما أضاء لهم
الحق لم يجهلوا منه شيئاً ، ولكن الحسد حملهم على الجحود فغيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة ،
وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم ، وما أنزل
من قبلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل وموعنته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ : من
قبل أنفسهم . وقال أبو العالية : ﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ : من بعد ما تبين أن محمداً رسول
الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غيرهم .

وقوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴾ نسخ ذلك قوله : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ صَبْرُكُمْ ﴾
فنسخ هذا عفوهم عن المشركين ، قال السدي : إنها منسوخة بآية السيف ، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله
تعالى : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴾ وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن
المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ^(١) . قال الله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى
يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى
أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَفَعَّلُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّمِّدُهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يحثهم
تعالى على الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى
يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴾ يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيراً أو شراً ، فإنه
سيجازي كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ :
هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر ، سراً أو
علانية ، فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزئهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلاً ، وهذا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٧) والهندي في كثر العمال (٣٧٢٧١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٧) والبيهقي في السنن (١٠/٩) .

الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعدًا ووعدًا وأمرًا وزجرًا ؛ وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مذخورًا لهم عنده ، حتى يشيهم عليه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَقْرَءُوا لَاسْمُكَ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُثُهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله : ﴿ بِصِيرٍ ﴾ فإنه مبصر ، صرف إلى بصير كما صرف مبدع إلى بديع ، ومؤلم إلى أليم ، والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ آمَانِيُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ ﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياتًا معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ﴿ تِلْكَ آمَانِيُهُمْ ﴾ وقال أبو العالية : أمني تمنوها على الله بغير حق . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فيما تدعونه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، وقال أبو العالية : من أخلص لله . وقال سعيد بن جبير : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ ﴾ : أخلص ﴿ وَجْهَهُ ﴾ قال : دينه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ ، فإن للعمل المتقبل شرطين ؛ أحدهما : أن يكون خالصًا لله وحده ، والآخر : أن يكون صوابًا موافقًا للشرعة ، فمتي كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَفْرَتًا فَهُوَ رَدٌّ » ^(١) فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِذَا مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً تَنْثُرًا ﴾ وأما إن كان العمل موافقًا للشرعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضًا مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين .

وقوله : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور ، وأمنهم مما يخافونه من الحذور ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه ، كما قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني في الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاوندهم ، عن ابن عباس قال : لما قدم أهل

(١) أخرجه مسلم في الأفضية (١٨) وأحمد في مسنده (١٨٠/٦) .

نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعمى والإنجيل ، وقال من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ قالوا : إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به ، أن يكفر اليهود بعمى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعمى ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله ، وكل يكفر بما في يد صاحبه . وقال مجاهد : قد كان أوائل اليهود والنصارى على شيء . وقال قتادة : بلى قد كانت أوائل النصارى على شيء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا وقال الربيع بن أنس : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، وهذا القول يقتضي أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه ، مع علمهم بخلاف ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل ، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد بالفاسد .

وقوله ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَتْلُونَ ﴾ يبين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول ، وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ لَا يَتْلُونَ ﴾ قتادة : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَتْلُونَ ﴾ قال : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أُم كانت قبل اليهود والنصارى ، وقبل التوراة والإنجيل . وقال السدي : فهم العرب قالوا : ليس محمد على شيء ، وقال الطبري : إنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى . وقوله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد . ويفصل بينهم بقضائه العدل ، الذي لا يجوز فيه ولا يظلم مثقال ذرة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِبِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين : أحدهما : هم النصارى . حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس .

القول الثاني : المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة ، حتى نحر هدية بذى طوى ، وهادنهم وقال لهم : « مَا كَانَ أَحَدٌ يَصُدُّ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ ، وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يَتْلُو قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فَلَا يَصُدُّهُ » فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آبائنا يوم بدر وفينا باق . وفي قوله : ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾ قال : إذ قطعوا من يعمرها بذكره ، ويأتيها للحج والعمرة . وقال ابن عباس : إن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس .

قلت : والذي يظهر والله أعلم ، القول الثاني ؛ لأن النصارى إذا منعت اليهود من الصلاة في بيت المقدس ، كان دينهم أقوم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك ؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، وأيضاً فإنه تعالى لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ، ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام ، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم فأى خراب لها أعظم من ذلك ، وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنما عمارتها بذكر الله فيها ، وإقامة شرعه فيها ، ورفعها عن الدنس والشرك .

وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ هذا خبر معناه الطلب ، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها ، إلا تحت الهدنة والجزية ، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في تسع أن ينادى برحاب منى : « أَلَا لَا يَحْجُّنَّ بَعْدَ الْقَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانٌ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَجَلٌ فَأَجَلُهُ إِلَى مُدَّتِهِ » ^(١) وهذا إذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتْمَانًا كَثِيرًا وَبِخْشٍ فَلَا يُقْرَبُوا إِلَّامَسْجِدَ الْحَرَامِ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ ، وقال بعضهم : ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين ، على حال التهيب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يطمشوا بهم ، فضلاً أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى : ما كان الحق والواجب إلا ذلك ، لولا ظلم الكفرة وغيرهم . وقيل : إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد ، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان ^(٢) ، وأن يجلي اليهود والنصارى ^(٣) منها والله الحمد والمنة ، وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد والحرام ، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا ؛ لأن الجزء من جنس العمل ، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام ، صدوا عنه ، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتنهوه ، من نصب الأصنام حوله ، ودعاء غير الله عنده ، والطواف به عرياً ، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

قلت : وهذا لا ينفي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية ، فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١/٤) .

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٦٢٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٠٨/٩) وأحمد في مسنده (١٩٦/١) .

بامتهان الصخرة التي كانت تصلي إليها اليهود ، عوقبوا شرعاً وقدراً بالذلة فيه إلا في أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس ، وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصارى ، كانت عقوبتهم أعظم ، والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا بخروج المهدي ، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله ، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، عن بشر بن أرطاة قال : كان رسول الله ﷺ يدعو « اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ » (١) .

﴿ وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمَهُ ﴾ .

وهذا - والله أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة ، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم ، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو مبعبة عشر شهراً ، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ، ولهذا يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ : عن ابن عباس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة . قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها ، فقال : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ وقال مجاهد : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها ، الكعبة . وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة ، وإنما أنزلها ليعلم نبيهم ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب ؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية ؛ لأن له تعالى المشرق والمغرب ، وأنه لا يخلو منه مكان ، قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم ، التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال . وفي قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذنا من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، في سفره وفي حال المسايقة وشدة الخوف . وعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (٢) . وعن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم ، وركبائاً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ .

مسألة : ولم يفرق الشافعي في المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى ، فالجميع عنه يجوز

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨١/٤) والحاكم في المستدرک (٥٩١/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤٤٢/٢ والطبراني في الكبير ٤٤٨/١٢ .

أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ، ممن جعل الملائكة بنات الله ، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم : إن لله ولداً فقال تعالى : ﴿ سُبْحَنَهُ ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿ بَلْ لَّمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ليس الأمر كما افترأوا ، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له وملك له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسين ، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ، ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالى : ﴿ يَبْغِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فقرر تعالى أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربية ، فكيف يكون له منها ولد ؟ وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَتْنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ ؛ فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدُرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ ؛ فَقَوْلُهُ : إِنَّ لِي وَلَدًا ، فَشُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا » (١) .

وقوله : ﴿ كُلُّ لَمْ يَنْبُتُونَ ﴾ قال ابن عباس : مصلون . وقال أبو مالك : مقرون له بالعبودية . وقال الربيع بن أنس : قائم يوم القيامة . وقال السدي : مطيعون يوم القيامة . وقال مجاهد : طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره ، وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت الطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقد روي ، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمَاتُهُمْ بِالْعُدْوِ وَالْأَسْمَالِ ﴾ . عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَبْغِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق . قال مجاهد والسدي : وهو مقتضى اللغة ، ومنه يقال للشيء المحدث بدعة ، والبدعة على قسمين : تارة تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » (٣) وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : نعمت البدعة هذه ، وقال ابن جرير : ﴿ يَبْغِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : مبدعها وإنما هو مفعول فصرف إلى فاعل ، كما صرف المؤلم إلى الألم ، ومعنى المبدع المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد ، قال : ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره ، وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً لم يتقدم فيه متقدم ، فإن العرب تسميه مبتدعاً .

قال ابن جرير : فمعنى الكلام : سبحانه الله أن يكون له ولد ، وهو مالك ما في السموات والأرض تشهد له جميعها بدالاتها عليه بالوحدانية ، وتقرب له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه ، وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال ، هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته .

(١) أخرجه النسائي في السنن (١١٢/٤) والطبراني في الكبير (٣٧٦/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (٣٢٠/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٤) والطبراني في الكبير (٢٤٦/١٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَمَعُوا أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يبين بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه ، فإنما يقول له : كن ؛ أي مرة واحدة ، فيكون ؛ أي فيوجد على وفق ما أراد .
ونبه بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهْتُمْ فَلَوْبُهِمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

عن ابن عباس قال : قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله ، كما تقول ، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ ^(١) . وحكى القرطبي ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ أي يخاطبنا بنبوتك يا محمد قلت : وهو ظاهر السياق . وقال السدي في تفسير هذه الآية : هذا قول كفار العرب ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ هم اليهود والنصارى ، ويؤيد هذا القول ، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب ، وعتوهم وعنادهم ، وسؤالهم ما لا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم .
وقوله تعالى : ﴿ تَشَبَهْتُمْ فَلَوْبُهِمْ ﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب ، قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى ، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل ، وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى ، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .
﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلْ عَنْ أَهْوَائِ الْبَحِيرِ ﴾ .

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « أَنْزَلْتُ عَلَيَّ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قَالَ : بَشِيرًا بِالْجَنَّةِ وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ » .

وقوله : ﴿ وَلَا تُسْتَلْ عَنْ أَهْوَائِ الْبَحِيرِ ﴾ قراءة أكثرهم (ولا تسأل) بضم التاء على الخبر ، وفي قراءة أبي بن كعب (وما تسأل) وقرأ آخرون (لا تسأل) بضم التاء على النهي ؛ أي لا تسأل عن حالهم ^(٢) . عن محمد بن كعب القرظي : قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ، لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبَوَايَ ؟ » فنزلت ﴿ وَلَا تُسْتَلْ عَنْ أَهْوَائِ الْبَحِيرِ ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله ﷻ ^(٣) . قال القرطبي : وهذا كما يقال : لا تسأل عن فلان أي قد بلغ فوق ما تحسب

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٧١٥/١ .

(٢) قرأ نافع (ولا تسأل) بفتح التاء والياقون بضمها (انظر : حجة القراءات ص ١١١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/١) .

وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به ، وأجينا عن قوله : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ » ^(١) . قلت : والحديث المروي في حياة أبويه عليه الصلاة والسلام ، ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها ، وإسناده ضعيف والله أعلم . وقد رد ابن جرير هذا القول المروي عن محمد بن كعب وغيره في ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه ، واختار القراءة الأولى ، وهذا الذي سلكه ههنا فيه نظر ؛ لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما ، فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما من أهل النار ، كما ثبت هذا في الصحيح ، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير ، والله أعلم .

وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ^(٢) .

﴿ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آفَؤَاهُمْ لَبِئْسَ الْأَلَىٰ ۚ لَئِنْ رَضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ لَيَقُولُنَّ بَلْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ الْبِرَّ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَتَقْبَلُنَّ مِنْهُ الْيُسْرَىٰ ۚ وَأَنْتُمْ الْكَافِرُونَ ۚ ﴾

قال ابن جرير : يعني قوله جل ثناؤه : ﴿ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ أي قل يا محمد : إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى ، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل . وقال قتادة : وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَهُ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ » ^(٣) ﴿ وَلَئِنْ آفَؤَاهُمْ لَبِئْسَ الْأَلَىٰ ۚ لَئِنْ رَضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ لَيَقُولُنَّ بَلْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ الْبِرَّ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَتَقْبَلُنَّ مِنْهُ الْيُسْرَىٰ ۚ وَأَنْتُمْ الْكَافِرُونَ ۚ ﴾

طرائق اليهود والنصارى ، بعدما علموا من القرآن والسنّة عياداً بالله من ذلك ، فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمرته . وقد استدلل كثير من الفقهاء بقوله : ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة ، فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار ، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا ؛ لأنهم كلهم ملة واحدة ، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه ، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك : إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ قال قتادة : هم اليهود والنصارى ، وقال : هم

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٧) وأحمد في مسنده (١١٩/٣) والبيهقي في السنن (١٩٠/٧) ، وأبو داود في السنن (٤٧١٨) .

(٢) أخرجه : البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٧) وأبو داود في السنن (٢٤٨٤) والترمذي في السنن (١٢٢٩) وأحمد في مسنده (٤٢٥/٤) .

أصحاب رسول الله ﷺ . قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على تأويله . وقال الحسن البصري : يعملون بحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .

وقوله : ﴿ أَزَلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ خبر عن ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكِتَابَ تَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الذِّكْرِ لَآكَلُوا مِنْ فَوْهِهِ وَفِي تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ الآية . أي إذا أقمتموها حق الإقامة ، وأمتتم بها حق الإيمان ، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته ، قادكم ذلك إلى الحق ، واتباع الخير في الدنيا والآخرة ، وفي الصحيح : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي ؛ إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » (١) .

﴿ يَبْتَغِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَضَّلْتُكِ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة ، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدنيوية ، ولا يحسدوا بني عثمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام ، وإن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد ، حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ، ولهذا قال : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أي : واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين ، الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها ، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين ، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم ؛ أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي قام بهن كلهن . وقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أي بشرائع وأوامره ونواه ، فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدريّة ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام : ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الذِّكْرُ وَأَنَّهَا سَوِيَّةٌ ﴾ وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْتَ كَلِمَتَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي كلماته الشرعية ، وهي إما خبر صدق ، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً ، ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي قام بهن ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أي جزاء على ما فعل ، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ، ويحتذى حذوه .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فروي عن ابن عباس : أن

الله ابتلاه بالمناسك ، وروي أيضًا : ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد ، في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس ، وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان وتنف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء . قلت : وقريب من هذا ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ : قَصُّ الشَّارِبِ ، وَإِغْفَاءُ اللَّحْيَةِ ، وَالشَّوَاكِ ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ ، وَتَنْفُ الْإِبطِ ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ ، وَاتِّقَاصُ الْمَاءِ ، وَنَيْسَبُ الْعَاشِرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمُضْمَضَةُ ^(١) » . قال وكيع : انتقاص الماء يعني الاستنجاء ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الْفِطْرَةُ خَمْسٌ : الْحِثَانُ ، وَالاسْتِحْدَادُ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ ، وَتَنْفُ الْإِبطِ » ^(٢) . وعن ابن عباس أنه كان يقول في تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَنْتَ إِبرَاهِيمَ رَبُّكَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ عشر ؛ ست في الإنسان وأربع في المشاعر ، فأما التي في الإنسان : حلق العانة ، وتنف الإبط ، والختان ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة ، والأربعة التي في المشاعر : الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار ، والإفاضة . وعن ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن ، فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاботه نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار ليجرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم ، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه ، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له : ﴿ أَتَيْتُمْ قَالًا أَنْتُمْ وَإِني أَمْلِكُكُمْ ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم . وقال قتادة : كان الحسن يقول : إي والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه ، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول ، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجرًا إلى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك ، وابتلاه بذبح ابنه ، والختان فصبر على ذلك . وعن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إبراهيم عليه السلام أول ما اختن ، وأول من ضاف الضيف ، وأول من قلم أظفاره ، وأول من قص الشارب ، وأول من شاب ، فلما رأى الشيب قال : يارب ما هذا ؟ قال : وقار ، قال : يارب زدني وقارًا . قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائر أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين ، إلا بحديث أو إجماع ، قال : ولم يصح في ذلك خبر ينقل الواحد ، ولا ينقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

وقوله : ﴿ قَالَ وَين دُرَيْتِي قَالَ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته ، فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم ، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي دُرَيْتِهِ أَثْبَوَةً وَالْكِتَابَ ﴾ فكل نبي أرسله الله ، وكل كتاب أنزله الله

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٦) وأبو داود في السنن (٥٣) وابن ماجه في السنن (٢٩٣) وأحمد في مسنده (١٣٧/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٧) ومسلم في الطهارة (٥٠) وأبو داود في السنن (٤١٩٨) والنسائي في السنن (١٤١/١) .

بعد إبراهيم ، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فقد اختلفوا في ذلك ، فقال مجاهد : إنه سيكون في ذريتك ظالمون . وقال أيضاً : لا يكون إمام ظالم ، وفي رواية : لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به . وقال : لا يكون إمام ظالم يقتدى به . قوله : ﴿ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِي ﴾ أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماماً يقتدى به ، وأما من كان ظالماً فلا ، ولا نعمة عين . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ : المراد به المشرك ، لا يكون إمام ظالم ، يقول : لا يكون إمام مشرك . وقال عطاء : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال : ومن ذريتي فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً ، قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره . وعن ابن عباس قال : ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه . وقال قتادة : لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش . وقال الضحاك : لا ينال طاعتي عدو لي بعصبي ، ولا أنحلها إلا وليا يطيعني . وعن علي ابن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قال : « لَا طَاعَةَ إِلَّا فِي الْمَعْرُوفِ » ^(١) .

واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً ، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل ﷺ أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكي : الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً . ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَةً مِّنَ الْآيَاتِ لِلنَّاسِ وَأَنَّا وَآتَيْنَاهُم مِّن مَّقَامٍ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

قال ابن عباس : لا يقضون منه وطراً ، يأتيونه ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه . وعن عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَةً مِّنَ الْآيَاتِ لِلنَّاسِ ﴾ قال : لا ينصرف عنه منصرف ، وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . وقال عطاء الخراساني ﴿ مَثَابَةُ لِّلنَّاسِ ﴾ أي مجمعا ﴿ وَأَنَّا ﴾ قال ابن عباس : أي أمنا للناس . ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت ، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا من كونه مثابة للناس ، أي جعله محللاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولا تقضي منه وطراً ، ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم ﷺ في قوله : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً رَّيْبَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً ، من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان أمناً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له ، كما وصف في سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَفَّةَ آيَةً لِّلْحَرَامِ قِتْلًا لِّلنَّاسِ ﴾ أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن ، وفي هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو ؟ فقال ابن عباس : مقام إبراهيم الحرم كله . وقال : أما مقام إبراهيم الذي ذكره هنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد ، ثم قال : ومقام إبراهيم ، يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله . ثم فسره لي عطاء فقال : التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فقلت : أفسره ابن عباس ؟ قال : لا ، ولكن قال : مقام إبراهيم الحج كله . قلت : أسمعت ذلك لهذا أجمع ؟

(١) أخرجه مسلم في الإمامة (٣٩) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٤) والبيهقي في السنن (١٥٦/٨) والحاكم في المستدرک (٤٤٣/٣) .

قال : نعم سمعته منه . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قال : الحجر مقام إبراهيم نبي الله ، قد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه . وقال السدي : المقام الحجر الذي وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه . وعن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبه النبي ﷺ بعض نساءه فدخلت عليهن ، فقلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرا منك ، حتى أتيت إحدى نساءه قالت : يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ ﴾ الآية (١) .

وعن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن ، فرمل ثلاثا ومشى أربعا ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين (٢) . ولما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ، ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه ، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا حتى تم جدران الكعبة ، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ، ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب في جاهليتها ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية :

وَمَوْطِئِي إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيَا غَيْرَ نَاعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا ، فعن أنس بن مالك قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخصم قدميه ، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم . وقال قتادة : إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئا ما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوق وانمحي . قلت : وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر بمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة ، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ، ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، ولما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه السلام أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَقْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ » (٣) وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليه السلام أجمعين . قال عطاء وغيره : أول من نقله عمر بن الخطاب عليه السلام . وقال مجاهد : أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب عليه السلام . وعن عائشة رضي الله عنها

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٣) ، والبيهقي في السنن (٨٨/٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٩) ، والبيهقي في شرح السنة (١٣٤/٧) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٠٥) ، والحاكم في المستدرک (٧٥/٣) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٥) ، وابن ماجه في السنن (٩٧) .

المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ﷺ ملتصقًا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب ﷺ . وقال سفيان بن عيينة إمام المكيين في زمانه : كان المقام من سقع البيت علي عهد رسول الله ﷺ فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ وبعد قوله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فرده عمر إليه . وقال سفيان : لا أدري كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله : وقال سفيان : لا أدري أكان لاصقًا أم لا ؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرنا والله أعلم .

﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِفِينَ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ ﴾ وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ بَأْتِيَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِيهِ الصُّعُورُ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكًا وَبْعَثْ عَلَيْنَا مِنْكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ .

قال الحسن البصري قوله : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ، ولا يصيبه من ذلك شيء . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : ما عهده ؟ قال : أمره . والظاهر أن هذا الحرف إنما عدي إلي ؛ لأنه في معنى تقدمنا وأوحينا . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِفِينَ ﴾ قال : من الأوثان . وقال مجاهد وسعيد بن جبیر : إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . وعن سعيد بن جبیر قال في قوله تعالى : ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ : يعني من أتاه من غربة ﴿ وَالْمُكَافِفِينَ ﴾ المقيمين فيه . وقال عطاء : من انتابه من الأمصار فأقام عنده ، وقال لنا ونحن مجاورون : أنتم من العاكفين . وعن ثابت قال : قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير : ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون ، قال : لا تفعل ، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال : هم العاكفون . قلت : وقد ثبت في الصحيح : أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب ^(١) . وأما قوله تعالى : ﴿ وَالرُّكَّعِ الشُّجُودِ ﴾ فقال ابن عباس : إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود .

قال ابن جرير رحمه الله : فمعنى الآية : وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين ، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك ، ثم أورد سؤالًا فقال : فإن قيل : فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه ، وأجاب بوجهين : أحدهما : أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى به كما قال عبد الرحمن بن زيد ﴿ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِي ﴾ قال : من الأصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها ، قلت : وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد ﷺ .

الجواب الثاني : أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له ، فينباه مطهرًا من الشرك والريب ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ أَفَمَنْ أَشْرَكَ بِمُنْكَرٍ عَلَىٰ قُوَىٰ رَبِّكَ أَفَوَ وَرِثَةِ سَعِيرٍ أَمْ مَنْ اشْتَسَّ بِبَيْكُمُ عَلَىٰ شَفَا جُرُئٍ هَارٍ ﴾ قال : فكذلك قوله : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِي ﴾ أي ابنياه على طهر من الشرك بي والريب ، كما قال السدي : ﴿ أَنَّ طَهَرَا بَيْتِي ﴾ ابنيا بيتي للطائفين ،

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٠) والنسائي في السنن (٧٢٢) .

وملخص هذا الجواب : أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له ، للطائفتين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود .

وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل ، الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك رحمته الله : الطواف به لأهل الأمصار أفضل ، وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقاً ، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام ، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه ، ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة : قيامها ، وركوعها ، وسجودها ، ولم يذكر العاكفين ؛ لأنه تقدم ﴿ سَوَّاهُ اللَّعْنُ فِيهِ وَالْبَاذِ ﴾ ، وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفتين والعاكفين ، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام ، وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحججه من أهل الكتابين اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك ، وللاعتكاف والصلاة عنده ، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك ، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى .

وتقدير الكلام إذاً : ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيِّمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي طهرا من الشرك والريب ، وابنياه خالصاً لله ، معقلاً للطائفتين والعاكفين والركع السجود . وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِأَنْ تُبْنَىٰ لَهُ » ^(١) .

وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة ؟ فقليل : الملائكة قبل آدم وقيل : آدم ، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب ، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردنا ، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر ، جاءوا به إلى رسول الله ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مِدَّنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيَّكَ ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيَّكَ ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِكَلَّةٍ ، وَإِنِّي أَذْغُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِكَلَّةٍ وَمِثْلُهُ مَعَهُ » ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر ^(٢) وعن رافع بن خديج قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ مَا يَتَنَ لَا بَيْتَهَا » ^(٣) . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة : « التمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني » فخرج بي أبو طلحة يردفني وراعه ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٧٦) وأحمد في مسنده (١٢٤/٢) والبيهقي في السنن (١٩٧/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٦) وأحمد في مسنده (١٤١/٤) والبيهقي في السنن (١٩٨/٥) .

وقال في الحديث : ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال : « هَذَا جَبَلٌ يُجَبَّتَانِ وَنُجَبَّةٌ » فلما أشرف على المدينة قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَخْرَمْتُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا ، مِثْلَ مَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهْمُ فِي مَذْهَبِهِمْ وَصَاعِهِمْ » ^(١) والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة ، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل ، وقيل : لأنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم .

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما ورد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُزْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَجْلُ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَجْلُ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُزْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُغْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ ، وَلَا يُلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا » فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم فقال : « إِلَّا الْإِذْخَرَ » ^(٢) . وعن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يَجْلُ لَامَرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَشْفِكَ بِهَا دَمًا ، وَلَا يُغْضَدُ بِهَا شَجَرَةٌ ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذُنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ » فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ، ولا فارًا بدم ، ولا فارًا بخربة ^(٣) .

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرّمها ؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها ، وتحريمه إياها ، وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية ، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره .

وقوله تعالى لإخبارًا عن الخليل أنه قال : ﴿ رَبِّيَ أَعْجَلَ هَذَا بَلَدًا ءَايَاتًا ﴾ أي من الخوف ، أي لا يرعب أهله ، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا . وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه . فعن جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَجْلُ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ » ^(٤) وقال في هذه السورة : ﴿ رَبِّيَ أَعْجَلَ هَذَا بَلَدًا ءَايَاتًا ﴾ أي اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا ، وناسب هذا ؛ لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَلَئِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ أَعْجَلَ هَذَا بَلَدًا ءَايَاتًا ﴾ وناسب هذا هناك ؛ لأنه - والله

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٣) والنسائي في السنن (٢٧٤/٨) وأحمد في مسنده (١٥٩/٣) والبيهقي في السنن (١٢٥/٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٥) والبيهقي في السنن (١٩٥/٥) والبخاري في شرح السنة (٢٩٤/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٤٦) وأحمد في مسنده (٣٨٥/٦) والبيهقي في السنن (٢١٢/٩) .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (١٥٥/٥) .

أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت ، واستقرار أهله به ، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال في آخر الدعاء : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَارِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَنَ كَفَرُ فَأَتَيْنَاهُ فِيلًا ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَعِيرُ ﴾ قال أبي بن كعب : هو قول الله تعالى . قال : وقرأ آخرون ﴿ وَنَ كَفَرُ فَأَتَيْنَاهُ فِيلًا ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَعِيرُ ﴾ : فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم ، وكان ابن عباس يقول : ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأتمعه قليلًا . وقال مجاهد : ومن كفر فأرزقه رزقًا قليلًا أيضًا ﴿ ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَعِيرُ ﴾ قال محمد بن إسحاق : لما عن إبراهيم الدعوة على من أبى الله أن يجعل له الولاية انقطاعًا إلى الله ومحبته ، وفراقًا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته ، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخير الله له بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَ كَفَرُ ﴾ فإني أرزق البر والفاجر وأتمعه قليلًا .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَصْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَعِيرُ ﴾ أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطننا عليه من ظلمها ، إلى عذاب النار ويس المصير ، ومعناه : أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفي الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَيُثْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْ » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فالقواعد جمع قاعدة ، وهي السارية والأساس ، يقول تعالى : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ، ورفعهما القواعد منه ، وهما قولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وقال بعض المفسرين : الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعي إسماعيل ، والصحيح أنهما كانا يرفقان .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء ، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها ، حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحه ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فأتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من وراءه يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال : إلى الله ، قالت : رضيت بالله قال : فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها ، حتى لما فني الماء قالت : لو ذهبت فنظرت لعلني أحس أحدًا ، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدًا فلم تحس أحدًا ، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة ، وفعلت ذلك أشواطًا حتى أتمت سبعًا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي فذهبت فنظرت ، فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت ، فلم تقرها نفسها فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلني أحس أحدًا فذهبت فصعدت الصفا ، فنظرت ونظرت فلم تحس أحدًا ، حتى أتمت سبعًا ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت فقالت : أعث إن كان عندك خير ، فإذا جبريل عليه السلام قال : فقال

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦) ومسلم في البر والصلة (١٦) والبيهقي في السنن (٩٤/٦) والترمذي في السنن (٣١١٠) .

بعقبه هكذا ، وغمز عقبه على الأرض ، قال : فانيثق الماء ، فدهشت أم إسماعيل ، فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم عليه السلام : « لَوْ تَرَكْتَهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا » قال : فجعلت تشرب من الماء ، ويدر لبنها على صبيها ، قال : فمر ناس من جرهم يبطن الوادي ، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك ، وقالوا : ما يكون الطير إلا على ماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء ، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا : يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك ؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فسلم فقال : أين إسماعيل ؟ قالت امرأته : ذهب يصيد ، قال : قولي له : إذا جاء : غير عتبة بابك ، فلما أخبرته قال : أنت ذاك فاذهي إلى أهلك ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم فقال : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته : ذهب يصيد ، فقالت : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ فقال : ما طعامكم وما شرابكم ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ، قال : فقال أبو القاسم عليه السلام : « بَرَكَتٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » . قال : ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام ، فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له ، فقال : يا إسماعيل إن ربك ﷻ أمرني أن أبني له بيتاً ، فقال : أطع ربك ﷻ ، قال : إنه قد أمرني أن تعيني عليه ، فقال : إذن أفعل - أو كما قال - قال : فقام فجعل إبراهيم يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قال : حتى ارتفع البناء ، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ^(١) .

وعن ابن عباس عليه السلام : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ قال : القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك . وعن عطاء قال : قال آدم : إني لا أسمع أصوات الملائكة ، قال بخطيئتك ، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لي بيتاً ، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بييتي الذي في السماء ، فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودي ، وكان ربه من حراء ، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم عليه السلام بعد .

وقال البخاري رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ الآية . القواعد أساسه واحدها قاعدة ، والقواعد من النساء واحدها قاعدة . عن عائشة زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَمْ تَرَى أَنَّ قَوْمَكَ حِينَ بَنَوْا الْبَيْتَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؟ » فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال : « لَوْلَا حَدَثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ » فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر ، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام ^(٢) . وعن عبد الله بن عمر عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُوا عَهْدَ بِجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ : بكفر - لَأَنْفَقْتُ كَثْرَ الْكَفَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجَرَ » ^(٣) .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٥) ومسلم في الحج (٤٠٥) وأحمد في مسنده (١٨٠/٦) ، والدارمي في السنن (٥٤/٢) .

ذِكْرُ بِنَاءِ قُرَيْشِ الْكَعْبَةِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ الْحَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَقَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِخَمْسِ سِنِينَ

وقد نقل معهم في الحجارة ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة : ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنان الكعبة ، وكانوا يهيمون بذلك ليسقفوها ، ويهايون هدمها ، وإنما كانت رضمًا فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة ، وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قريش يده ، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك ، وكان البحر قد رمى بسفينته إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبضي نجار ، فهياً لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتشرف على جدار الكعبة ، وكانت مما يهايون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فهاها ، فكانوا يهايونها ، فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنا لندرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رقيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية ، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام ابن وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيئاً ، لا يدخل فيها مهر بني ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحاق : والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، قال : ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة ، وكان من بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الخطيم ، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبعدكم في هدمها ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم ترع ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا انتهت الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً ، قال : فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضاً أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، يعني الحجر الأسود فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ،

فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريس كلهم قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : « هلم إلي ثوبًا » فأتى به فأخذ الركن يعني الحجر الأسود . فوضعه فيه بيده ، ثم قال : « لِنَأْخُذْ كُلَّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثُّوبِ » ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا » ففعلوا ، حتى إذا بلغوه موضعه وضعه هو بيده ﷺ ، ثم بنى عليه ، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين ، فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا .

قال ابن إسحاق : وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعًا ، وكانت تكسى القباطي ، ثم كسيت بعد البرود ، وأول من كساها الدياج الحجاج بن يوسف ^(١) . قلت : ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين : وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير ، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض ، وبنها على قواعد إبراهيم عليه السلام ، وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ملصقين بالأرض ، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ، ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك . عن عطاء قال : لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام ، فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير ، حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزيمهم أو يجيروهم على أهل الشام ، فلما صدر الناس قال : يا أيها الناس أشيروا علي في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها ، أو أصلح ما وهي منها ؟ قال ابن عباس : إنه قد خرق لي رأي فيها ، أرى أن تصلح ما وهي منها ، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه ، وأحجّارًا أسلم الناس عليها ، وبعث عليها النبي ﷺ ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده ، فكيف بيت ربكم ﷻ ؟ إني مستخير ربي ثلاثًا ثم عازم على أمري ، فلما مضت ثلاث أجمع رأيي على أن ينقضها ، فتحامها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء ، حتى صعد رجل فألقى منه حجارة ، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض ، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه ، وقال ابن الزبير : إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : إن النبي ﷺ قال : « لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثَ عَهْدِهِمْ بِكَفَرٍ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ الثَّقَةِ مَا يُقَوِّنِي عَلَى بَنَائِهِ ، لَكُنْتُ أَذْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحَجَرِ خَمْسَةَ أَذْرُعَ ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ » ^(٢) قال : فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر ، حتى أبدى له أسنًا ، فنظر الناس إليه فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا ، فلما زاد فيه استقصر ، فزاد في طوله عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه ، فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستحيزه بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍ نظر إليه العدول من أهل مكة ،

(١) انظر القصة في : السيرة النبوية لابن هشام : (٢٠٤ / ١ - ٢١١) .

(٢) سبق تخرجه .

فكتب إليه عبد الملك إنا لسنّا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أما ما زاده في طوله فأقره ، وأما ما زاده فيه من الحجر فردّه إلى بنائه ، وسد الباب الذي فتحه ، فنقضه وأعادّه إلى بنائه .

وقد كانت السنة إقراراً ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ؛ لأنه هو الذي وده رسول الله صلى الله عليه وآله ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام ، وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : وددنا أنا تركناه وما تولى ، وعن أبي قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يَا عَائِشَةُ لَوْلَا حَدَّثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ ، لَنَقَضْتُ الْكُفْبَةَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الْحَجَرِ ، فَإِنْ قَوْمَكَ قَصَرُوا فِي الْبِنَاءِ » فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فإني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا ، قال : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير .

ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله ، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير ، فقال له : ما لك يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها ، فترك ذلك الرشيد ، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخرّبها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « يُخْرَبُ الْكُفْبَةُ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتُهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا ، وَلَكَّانِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَصِيلَعُ أَفِيدَعُ ، يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِشْحَاتِهِ وَمِقْوَلِهِ » ^(١) - الفدع زيف بين القدم وعظم الساق وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لِيَحْجُرَ الْبَيْتُ وَلِيَعْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » ^(٢) .

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ قال ابن جرير : يعنينا بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحدا سواك ، ولا في العبادة غيرك . قوله : ﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي مخلصين لك ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ مخلصه ، وعن سلام بن أبي مطيع في هذه الآية : ﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ ﴾ قال : كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات . وقال عكرمة : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ قال الله : قد فعلت ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ قال الله : قد فعلت . وقال السدي : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ : يعنينا العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ؛ لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَ قَوْمٍ مَوْسَى أَنَّهُ يَهْدُونَ بِأَمْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ يَتْلُونَ ﴾ .

قلت : وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي ؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم ،

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٩٦) ومسلم في الفتن (٥٧) والنسائي في السنن (٢١٦/٥) والحاكم في المستدرک (٤٥٣/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤/٣) والحاكم في المستدرک (٤٥٣/٤) .

والسياق إنما هو في العرب ولهذا قال بعده : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ الآية .

والمراد بذلك محمد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً ، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له ، ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالُ لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقد ثبت عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ ، صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » (١) .

﴿ وَأَرْبَا مَنَاسِكًا ﴾ أخرجها لنا ، علمناها . وقال مجاهد : مذايحنا .

﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم ، أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أي من ذرية إبراهيم ، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأمين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن ، فعن العرباض بن سارية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٍ فِي طَيْبَتِهِ ، وَسَأَتُنْفِخُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ ، دَعْوَةَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَارَةَ عِيسَى بِي ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أُمَمَاتُ النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ » (٢) .

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام ، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً ، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام ، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَرَى وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ولهذا قال في هذا الحديث : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » .

وقوله : « وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ » (٣) قيل : كان مناماً رآته حين حملت به ، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم ، وكان ذلك توطئة وتخصيصاً للشام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم ، إذا نزل بدمشق بالمنازة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصحيحين « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ ،

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) بلفظ : « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ » والترمذي في السنن (١٣٧٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤١٨/٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٩/١) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٢٣/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) .

حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ ^(١) وفي صحيح البخاري : « وَهُمْ بِالشَّامِ » ^(٢) وعن أبي العالية في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْتِغْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ يعني أمة محمد ﷺ فقيل له : قد استجيب لك ، وهو كائن في آخر الزمان . وكذا قال السدي وقادة .

قوله تعالى : ﴿ وَبِعَلَّمُوهُ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يعني السنة . وقيل : الفهم في الدين ، ولا منافاة . ﴿ وَزَيَّنَّاهُ ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص . وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِذْ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى ردًا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله ، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الخنفاء ، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى ، فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه ، حتى تبرأ من أبيه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ولهذا وأمثاله قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدييره ، بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلًا ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته ، واتبع طرق الضلالة والغي ، فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أي ظلم أكبر من هذا ؟ قال أبو العالية وقادة : نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقًا ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أمره الله بالإخلاص له ، والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا . وقوله : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله ، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم من بعدهم ، وقد قرأ بعض السلف ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ بالنصب عطفًا على بنيه كأن إبراهيم يوصي بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك ، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح ، والظاهر والله أعلم أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة ؛ لأن البشارة وقعت بهما في قوله : ﴿ بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَثَةِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض ^(٣) ، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة . قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَبْنَاءَ وَالْكُتُبَ ﴾ وهذا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٢٢٩) وابن ماجه في السنن (٦) وأحمد في مسنده (٩٧/٤) . (٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٤١) .

(٣) قرأ ابن عامر وحزمة وحفص ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ بنصب الباء والباقون برفعها (انظر : تقريب النشر ص : ١٢٥) .

يقضي أنه وجد في حياته ، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة ، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بَيْتُ الْمَقْدِسِ » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » ^(١) الحديث . فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة ، وهذا مما أنكر على ابن حبان ، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين . وقوله : ﴿ يَبْنِيْٓ إِنَّ اللّٰهَ اضْطَلَقَ لَكُمْ اَلَّذِيْنَ فَلَا تَمُوْنُ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ﴾ أي أحسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويعث على ما مات عليه ، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ، ومن نوى صالحاً ثبت عليه ، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّىٰ مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْئَلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُوْنُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا بَاعٌ أَوْ ذِرَاعٌ ، فَيَسْئَلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » ^(٢) لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث ليعمل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس .

﴿ اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَآءَ اِذْ حَصَرَ يَعْقُوْبَ الْمَوْتُ اِذْ قَالَ لِاِسْنِيْهِ مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْۢ بَدِىْ قَالُوْٓا نَعْبُدُ اِلٰهَكَ وَاِلٰهَ اٰبَآئِكَ اِبْرٰهِيْمَ وَاِسْمٰعِيْلَ وَاِسْحٰقَ اِلٰهًا وَّاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُّسْلِمُوْنَ ۝ۚ تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُوْنَ عَنْهَا كَاُنُوْٓا يَمْلِكُوْنَ ۝ۛ﴾ .

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُوْنَ مِنْۢ بَدِىْ قَالُوْٓا نَعْبُدُ اِلٰهَكَ وَاِلٰهَ اٰبَآئِكَ اِبْرٰهِيْمَ وَاِسْمٰعِيْلَ وَاِسْحٰقَ ﴾ وهذا من باب التغليب ؛ لأن إسماعيل عمه ، والعرب تسمي العم أبا . وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة ، وقال مالك والشافعي وأحمد : في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة ، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف ، واختاره صاحباً أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، ولتقريرها موضع آخر . وقوله : ﴿ اِلٰهًا وَّاحِدًا ﴾ أي نوحده بالالهوية ، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ وَنَحْنُ لَكَ مُّسْلِمُوْنَ ﴾ أي مطيعون خاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم ، قال عليه السلام : « نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَآتٍ وَبَيْتًا وَاحِدًا » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أي مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ، ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسْأَلُوْنَ عَنْهَا كَاُنُوْٓا يَمْلِكُوْنَ ﴾ ولهذا جاء في الأثر : « مَنْ أَطْلَأَ بِهٖ عَمَلَهُ لَمْ يُشْرَعْ بِهٖ نَسَبُهُ » ^(٤) .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١ ، ٢) وأحمد في مسنده (١٥٧/٥) ، والنسائي في السنن (٣٢/٢) وابن ماجه في السنن (٧٥٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/٢) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٢/٢)

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد .. وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أي مستقيماً . وقال مجاهد : مخلصاً . وقال ابن عباس : حاججاً . وقال أبو العالية : الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته ، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً . وقال أبو قلابه : الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم . وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والحالات والعمات وما حرم الله ﷻ والختان .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَا إِبْرَاهِيمَ وَلِسَعِيدٍ وَالْحَقُّ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ وَرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ❶ أولئك هم الكافرون حقاً . عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ » ❷ وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية والأخرى بـ ﴿ آمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ❸ وقال قتادة : الأسباط بنو يعقوب ، اثنا عشر رجلاً ، ولد كل رجل منهم أمة من الناس ، فسموا الأسباط . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط في بني إسرائيل ، كالقبائل في بني إسماعيل ، وقال الزمخشري : الأسباط حفدة يعقوب ، ذراري أبنائه الاثني عشر . وقال البخاري : الأسباط قبائل بني إسرائيل ❹ . وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل ، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم ، قال القرطبي : وسموا الأسباط من السبط ، وهو التابع فهم جماعة . وقيل : أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر ، أي في الكثرة بمنزلة الشجر ، الواحدة سبطة . وعن ابن عباس قال : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة ، نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبي : والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ❺
﴿ سِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ سِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُمْ عِيدُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ يا أيها

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٦٢) والبيهقي في السنن (١٦٣/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٥/١) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (تفسير سورة الأعراف) .

المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفترقوا بين أحد منهم ﴿ فَعَدَّ اهْتَدَاءُ ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ وَلَئِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل ، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَبْتَكِيهِمْ اللَّهُ ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وَهُوَ السَّيِّئُ الْكَاسِرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : دين الله . وانتصاب ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ إما على الإغراء كقوله ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ أي الزموا ذلك ، وقال بعضهم : بدلاً من قوله : ﴿ يَلْبَسُهُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله : ﴿ مَأْمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ كقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ .

وقد ورد في حديث ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال : « إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ ؟ فَقَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ ، فَتَدَاهُ رَبُّهُ يَا مُوسَى سَأَلُوكَ هَلْ يَصْبُغُ رَبُّكَ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، أَنَا أَصْبُغُ الْأَلْوَانَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ وَالْأَلْوَانَ كُلَّهَا مِنْ صِبْغِي » وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (١) .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نَخْلُصْكُمْ ﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَنْتُمْ أَغْلَامُ أَلَمْ يَرِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَثُرَ شَهَادَةٌ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا قَعَمَلُونَ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى مرشدًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ أي تناظرونا في توحيد الله ، والإخلاص له ، والانقياد ، واتباع أوامره ، وترك زواجه ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم وما تعبدون ، وأنتم برآء منا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيقُونَ مِمَّا آفَعَلْتُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نَخْلُصْكُمْ ﴾ أي نحن برآء منكم ، كما أنتم برآء منا ، ﴿ وَنَحْنُ لَمْ نَخْلُصْكُمْ ﴾ أي في العبادة والتوجه ، ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم ، إما اليهودية وإما النصرانية فقال : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ يعني بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَثُرَ شَهَادَةٌ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين الإسلام ، وإن محمداً رسول الله ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية ، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله ، فكتبوا شهادة الله عندهم من ذلك ، وقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعد شديد ، أي أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيك عليه . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي قد مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وليس يعني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم ، حتى تكونوا متقادين مثلهم لأوامر الله ، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي

واحد فقد كفر بسائر الرسل ، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاوُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِنَّ مِرْئَتَهُ مُسْتَقِيمٌ ۚ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكَ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَتَكُمْ إِنَّكَ أَنَا اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ .

قال الزجاج : المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب ، وقال مجاهد : أخبار يهود ، وقال السدي : المنافقون ، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، وعن البراء قال : كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فقال رجال من المسلمين : ودنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ، فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَتَكُمْ ﴾ وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ﴿ مَا وَلَنَّهُمْ عَن قِبَلِهِمْ آلِي كَاوُوا عَلَيْهَا ﴾ فأنزل الله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى آخر الآية ^(١) .

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة ، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة ، وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور ، ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره ؟ على قولين ، وحكي عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام ، والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة ، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرا ، وكان يكثر الدعاء والابتهاال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر ، وقيل : الظهر ، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله ﷺ وقد صلى ركعتين من الظهر ، وذلك في مسجد بني سلعة ، فسمي مسجد القبلتين . وفي حديث نويلة بنت مسلم أنها جاءهم الخبر بذلك ، وهم في صلاة الظهر ، قالت : فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقاء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة ^(٢) . وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدم نزوله وإبلاغه : لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم . ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٥) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٣) ، والبيهقي في السنن (٣/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤٤/١) .

والكفرة من اليهود ارتياب وزيف عن الهدى وتخيط وشك ، وقالوا : ﴿ مَا وَلَنَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ أي قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ، فأنزل الله جوابهم في قوله : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ و ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ بَلْ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ أي الشأن كله في امثال أوامر الله ، فحيثما وجهنا توجهن ، فالطاعة في امثال أمره ، ولو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة ، فنحن عبيده ، وفي تصرفه ، وخدامه حيثما وجهنا توجهن ، وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمه عناية عظيمة ، إذ هداهم إلى قبة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له ، أشرف بيوت الله في الأرض ؛ إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لَإِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقد روي عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ ، يعني في أهل الكتاب : « إِنَّهُمْ لَا يَخْشُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَخْشُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَذَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هَذَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلَفَ الْإِمَامُ آمِينَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيار الأمم ، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل . والوسط ههنا الخيار والأجود ، كما يقال : قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا ، أي خيرها ، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه ، أي أشرفهم نسبًا ، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات ، وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها . ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع ، وأقوم المناهج ، وأوضح المذاهب . فعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « يُدْعَى نُوْحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيَقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَغْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، وَمَا أَتَانَا مِنْ أَحَدٍ ، فَيَقَالُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمِّي ، قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قَالَ : وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ ، فَتَدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ » (٢) .

وروي عن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفًا مسلمًا وكان ، وأثنوا عليه خيرًا ، فقال رسول الله ﷺ : « أَنْتَ بِمَا تَقُولُ » فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك ، فقال النبي ﷺ : « وَجَبَتْ » ، ثم شهد جنازة في بني حارثة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم : يا رسول الله بمس المرء كان ، إن كان لفظًا غليظًا فأنثوا عليه شرًا ، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم : « أَنْتَ بِالَّذِي تَقُولُ » ، فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله ﷺ : « وَجَبَتْ » قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٦) والهيتمي في مجمع الزوائد (١١٢/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) وأحمد في مسنده (٣٢/٣) .

ثم قرأ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ^(١) ، وعن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثني على صاحبها خيراً ، فقال : وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شر ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ : « أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » قال : فقلنا : وثلاثة ؟ قال : فقال : « وَثَلَاثَةٌ » قال : فقلنا : واثنان قال : « واثنان » ثم لم نسأله عن الواحد ^(٢) . وعن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه : قال : سمعت رسول الله ﷺ بالبنوة يقول : « يُوشِكُ أَنْ تَغْلَمُوا خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ » قالوا : بئ يا رسول الله ؟ قال : « بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ ، وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك جيشاً توجهت ، ﴿ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾ ، أي مرتداً عن دينه ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أي هذه الفعلة وهي صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس ، إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء ، وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك ، بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً ، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً ؛ ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك ، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب ، من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَكُمْ ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ، ما كان يضيع ثوابها عند الله . وفي الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَكُمْ ﴾ ^(٤) . وعن ابن عباس : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَكُمْ ﴾ أي بالقبلة الأولى ، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أي ليعطيكم أجرهما جميعاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَائِنِ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وقال الحسن البصري : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِسْمَكُمْ ﴾ أي ما كان الله ليعطي محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَائِنِ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيّاً من السبي أخذته فألقته بصدرها ، وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقته نديها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ » ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : « قَوْلَ اللَّهِ لَهُ أَزَحْمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا » ^(٥) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٢٣/١٠) والنسائي في السنن (٤٩/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢/١ ، ٣٠) . (٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٦) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٥١/٤) وأحمد في السنن (٣٠/١٠) والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .

(٥) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) والطبراني في الصغير (٩٨/١) .

﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىٰ سِتَّكَ قِبْلَةً رَضْنَهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ مَا وَلَّهُمْ مِنْ قِبَلِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وقال : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ . وروي عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ فَلَتَوَلَّىٰ سِتَّكَ قِبْلَةً رَضْنَهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب يوم به جبرائيل عليه السلام . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الْبَيْتُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْمَسْجِدِ ، وَالْمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْحَرَمِ ، وَالْحَرَمُ قِبْلَةٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي » (١) .

وقوله : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال المسابقة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئا في نفس الأمر ؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها .

مسألة : وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : بقوله : ﴿ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده ، لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافي كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلي في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضي : ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده ، كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ في الخضوع ، وأكد في الخشوع ، وقد ورد به الحديث ، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حال قعوده إلى حجره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس ، يعلمون أن الله تعالى سيوجهكم إليها ، بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته ، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا ، ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَوِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِتْلَكَ ﴿١﴾ وقوله : ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَالِيٍّ عَلَيْهِمْ﴾ لإخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بأرائهم وأهوائهم ، فهو أيضًا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهًا إلى بيت المقدس لكونها قبله اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطبًا للرسول والمراد به الأمة ﴿وَكَيْنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَدَأَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَئِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ ، كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير : «إِنَّكَ هَذَا» ؟ قال : نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : «أَمَّا إِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ» (١) . قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمّدًا كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه . قلت : وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي ليكتُمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مَوْلَاهُ فَاستَبِقُوا الْعَزَّازِ إِنَّ مَا تَكُونُوا يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . قال ابن عباس : ولكل وجهة هو موليها ، يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهذاكم أنتم أيها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وقال الحسن : أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة وقال : ﴿إِنَّ مَا تَكُونُوا يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

﴿وَمَنْ حَيْثُ حَزَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَمِنْ حَيْثُ حَزَجْتَ قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّهٗ يَفْعَلُ عَلَيْكُمْ مَا يُخَفِّرُونَ وَلَكِنَّهٗمُ اتَّخَذُوا

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ، فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام ، وقيل : بل هو منزل على أحوال ، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائبًا عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان ، وقال

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣/٤) وأبو داود في السنن (٤٤٩٥) والألباني في الصحيحة (٩٩٠) .

القرطبي : الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو في بقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار ، ورجح هذا الجواب القرطبي ، وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولاً : ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَقَوْلَيْتَكَ قِيلَةً رَضِنَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ لِيَتْلَمُوهُ أَنْتَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا يَتَعَمَلُونَ ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها . وقال في الأمر الثاني : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا يَتَعَمَلُونَ ﴾ فذكر أنه الحق من الله ، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرضيه . وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود ، الذين كانوا يتحجبون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبله إبراهيم عليه السلام ، إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبله اليهود إلى قبله إبراهيم التي هي أشرف ، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها . وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أي أهل الكتاب ؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ يعني مشركي قريش . ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم ، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه ، والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة ، فأطاع ربه تعالى في ذلك ، ثم صرفه إلى قبله إبراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً ، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر الله طرفه عين ، وأمته تبع له ، وقوله : ﴿ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعتين ، وأفردوا الخشية لي ، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوكُمْ فَوَلَّوْا عَلَى الْخُلُوعِ ﴾ أي لا تأثم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة ، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها ، ﴿ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون .

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبینات ، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ، ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول القراء ، فانتقلوا ببركة رسالته ، وعين سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجایا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علماً ، وأبرهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً ، وأصدقهم لهجة . وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ يعني بنعمة الله محمداً ﷺ ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره ، وقال : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال

له ربّه : تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ أَذْكُرْتُمْ ﴾ قال : اذكروني فيما افترضت عليكم ، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي . وعن سعيد بن جبير : اذكروني بطاعتي ، أذكركم بمغفرتي ، وعن ابن عباس قال : ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - أَوْ قَالَ : فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ - وَإِنْ ذَنُوتَ مِنِّي شَبِيرًا ذَنُوتُ مِنْكَ ذِرَاعًا ، وَإِنْ ذَنُوتَ مِنِّي ذِرَاعًا ذَنُوتُ مِنْكَ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتَكَ هَرْوَلَةً » (١) وقوله : ﴿ وَاسْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ أمر الله تعالى بشكره ، ووعد على شكره بمزيد الخير ، وعن أبي رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خمر ، لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ » (٢) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ .

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر ، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها ، كما جاء في الحديث « عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ » (٣) . وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْفَاسِقِينَ ﴾ وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى (٤) . والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثواباً ؛ لأنه المقصود وأما الصبر الثالث - وهو الصبر على المصائب والنوائب - فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعاييب ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الصبر في باين الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان ، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء الحديث أن لأرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قتاديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعه فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب ﷻ : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون (٥) .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِبَنَىٍّ مِّنَ اللَّغْوِ وَالْجُوعِ وَنَقِصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٨/٣) والمنذري في الترغيب (٤٠١/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٤) ، والمنذري في الترغيب (٤٤٥/٢) والهشبي في مجمع الزوائد (١٤٠/١٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد (٦٣) بنحوه . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) وأبو داود في السنن (١٣١٩) .

(٥) أخرجه : مسلم في الإمامة (١٢١) والمنذري في الترغيب والترهيب ٣٢٦/٢ .

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٥﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٦﴾ .
 أخبرنا تعالى أنه يتلى عباده ، أي يختبرهم ويمتحنهم ، فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ، ولهذا قال : ﴿ لِيَأْسَ الْخِرْعُ وَالْخَوْفُ ﴾ .
 وقال ههنا : ﴿ يَتَنَبَّؤُ مِنْ لَقُوفٍ وَالتَّجُوعِ ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ وَتَقْصِرُ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴾ أي ذهاب بعضها ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿ وَالتَّكْرُثِ ﴾ أي لا تغل الحدايق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجموع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، والأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، وفي هذا نظر .

ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أي تسلموا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي ثناء من الله عليهم . قال سعيد بن جبير : أي أمنة من العذاب ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ فهذا العدلان ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين ، وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولَ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اللَّهُمَّ أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ؛ إِلَّا أَجَزَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَاخْلُفْ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » ، قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لي خيرًا منه : رسول الله ﷺ ^(١) . وعن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة - يعني الخولاني - فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى ، قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ : يَا مَلِكُ الْمَوْتِ قَبِضْتُ وَلَدَ عَبْدِي ، قَبِضْتُ قُرَّةَ عَيْنِي وَثَمَرَةَ فُؤَادِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَمَا قَالَ ؟ قَالَ : حَيْدَكَ وَاسْتَرْجَعْتَ ، قَالَ : ابْنُوا لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمِيدِ » ^(٢) .
 ﴿ إِنَّ الْأَعْمَاءَ وَالْمَرَوَةَ مِنْ سَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .

عن عروة عن عائشة قالت : قلت : رأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَعْمَاءَ وَالْمَرَوَةَ مِنْ سَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أَلْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٩/٦) والنسري في الترغيب (٣٣٦/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٥/٤) .

فقال عائشة : بمسما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولئها عليه كانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَاءِ اللَّهِ فَمَن حَجَّ آلِبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ . ثم قد سئ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما ^(١) . وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله ، وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فزلت هذه الآية ^(٢) . قلت : ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانا بشرين فزنا داخل الكعبة ، فمسخا حجرتين ، فنصبتهما قرش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبداً ، ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفاء والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وَحَيْثُ يَنْبِيحُ الْأَشْعَرُونَ رِكَابَهُمْ لِمُقْضِي السَّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ

وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَاءِ اللَّهِ ﴾ ثم قال : « أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ » ^(٣) . وعن حبيبة بنت أبي نجرة قالت : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى ، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اشْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ » ^(٤) وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج ، كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل : إنه واجب وليس بركن ، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم ، وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل : بل مستحب ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَنَمَنَ نَطَعًا حَبْرًا ﴾ والقول الأول أرجح ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام طاف بينهما وقال : « لِنَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ » ^(٥) فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل والله أعلم . فبين تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي بما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج ، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤهما وزادهما ، حين تركهما إبراهيم ﷺ هنالك ، وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفذ ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله ﷻ ، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجللة مضطرة فقيرة إلى الله ﷻ ، حتى كشف الله كربتها ، وأنس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعَامُ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٥) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٩٣/٥) والدارمي في السنن (٤٦/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٠/٤) والبيهقي في شرح السنة (١٤١/٧) .

(٥) أخرجه مسلم في الحج (٣١٠) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٣) والبيهقي في السنن (١٣٠/٥) .

طعم ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ ، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى الله ﷻ لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يشبهه عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر ﷺ .

وقوله : ﴿ وَنَنْتَفِعْ خَيْرًا ﴾ قيل : زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك ، وقيل : يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة ، وقيل : المراد تطوع خيرًا في سائر العبادات . وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُذَكِّاتِ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّكَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ۚ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ لَعَنَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ لَهَبَ الْعَذَابِ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ .

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدي النافع للقلوب ، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد ﷺ ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، فهؤلاء بخلاف العلماء ؛ فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وقد ورد عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ ؛ أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ »^(١) . والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحدًا شيئاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُذَكِّاتِ ﴾ الآية . وعن البراء بن عازب قال : كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال : « إِنَّ الْكَافِرَ يُضْرَبُ ضَرْبَةً يَبِينُ عَيْنِيهِ يَسْمَعُهَا كُلُّ دَابَّةٍ غَيْرِ الثَّقَلَيْنِ ، فَتَلْعَنُهُ كُلُّ دَابَّةٍ سَمِعَتْ صَوْتَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴾ يعني دَوَابَّ الْأَرْضِ »^(٢) . وقال مجاهد : إذا أجدبت الأرض قالت البهائم : هذا من أجل عصاة بني آدم ، لعن الله عصاة بني آدم . وقد جاء في الحديث : إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر^(٣) ، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضًا ، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال أو الحال ، أو لو كان له عقل ويوم القيامة ، والله أعلم .

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا ﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه ، وأصلحوا أعمالهم ، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة ، إذا تاب إلى الله تاب الله عليه . وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه . ثم أخبر تعالى عن كفره واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٠١/١) والترمذي في السنن (٢٦٤٩) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٢/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٢) والمنذري في الترغيب (٩٤/١) .

وَالْمَلَكُوتَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٨﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴿١٥٩﴾ أَي فِي اللَّعْنَةِ التَّابِعَةِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ الْمَصَاحِبَةُ لَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي ﴿١٦٠﴾ لَا يَخْفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴿١٦١﴾ فِيهَا أَي لَا يَنْقُصُ عَمَّا هُمْ فِيهِ ﴿١٦٢﴾ وَلَا تُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٦٣﴾ أَي لَا يَغْيُرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَا يَفْتَرُ ، بَلْ هُوَ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ : إِنَّ الْكَافِرَ يَوْفُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَلْعَنُهُ اللَّهُ ، ثُمَّ تَلْعَنُهُ الْمَلَائِكَةُ ، ثُمَّ يَلْعَنُهُ النَّاسُ أَجْمَعُونَ .

فصل : لا خلاف في جواز لعن الكفار ، وقد كان عمر بن الخطاب ؓ ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره ، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن ؛ لأننا لا ندري بما يختم الله له . واستدل بعضهم بالآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكُوتِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف ، واستدل غيره بقوله ﷺ في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده ، فقال رجل : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تَلْعَنُهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » ^(١) فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن ، والله أعلم .

﴿ وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ .

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم . عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴾ وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾ وَ﴿ آتِ الْكَافِرِينَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ ^(٢) ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك ، مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْجَا بِدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها ، وكواكبها السيارة والثواب ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، ثم يتعاضدان ﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعيش الناس ، والارتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْجَا بِدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه وتارة تجمعها ، وتارة

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٢/٨) والهندي في كنز العمال (١٣٧٤٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٩٦) والترمذي في السنن (٢٤٧٨) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٥) .

تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة ، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي سائر بين السماء والأرض ، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه تعالى ﴿ لَا تَكْتَبُ لِقَوْمٍ يَقُولُونَ ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى .

عن ابن عباس قال : أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا : يا محمد ، إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، فنشتري به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال : « أَوْثِقُوا لِي لَيْثٍ دَعَوْتُ رَبِّي فَجَعَلَ لَكُمُ الصَّفَا ذَهَبًا ثَمُونِينَ يَبِي » فأوثقوا له ، فدعا ربه فأتاه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً ، على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين ، قال محمد ﷺ : « رَبِّ لَا تَلْ دَغْنِي وَدَغْنِي وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ أَلْتِي بَجَرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْبَغُ النَّاسَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا تَكْتَبُ لِقَوْمٍ يَقُولُونَ ﴾ ^(١) فهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ ^(٢) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ ^(٣) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَ اللَّهُ مَنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ .

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ، ولا ند له ، ولا شريك معه . عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له ، لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون في جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال : ﴿ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوَى الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ قال بعضهم : تقدير الكلام : لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً ، أي أن الحكم له وحده لا شريك له ، وأن جميع الأشياء تحت قهره وعلبته وسلطانه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ فلو يعلمون ما يعاينونه هنالك ، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم ، لانتهوا عما هم فيه من الضلال .

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم ، وتبري المتبعين من التابعين فقال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَهِكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِتْنَتًا يَبْدُونَ ﴾ والجن أيضاً تبرأ منهم ويتصلون من عبادتهم لهم ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لَّيْسَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَنَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ومسلم في الإيمان (١٤١) والنسائي في السنن (٨٩/٧) وأبو داود في السنن (٢٣١٠) .

فَقُلِ الْآمُرُ لِلَّهِ وَعَلَيْكُمْ وَعَدُ الْخَلْقِ وَوَعَدُكُمْ فَالْخَلْقُ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَكُونُوا مِنْ مُصْرِحِي مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِغَتِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٥﴾ .

وقوله : ﴿ وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أي عاينوا عذاب الله ، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً . وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمُ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم بل نوحدهم بالعبادة ، وهم كاذبون في هذا بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ لَعَنَهُمْ حَسَرَتْ عَلَيْهِمُ ﴾ أي تذهب وتضمحل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِخُرُوجِنِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿١٦٦﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسَّوَةِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه المستقل بالخلق ، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً ، أي مستطاباً في نفسه ، غير ضار للأبدان ولا للعقول ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي طرائقه ومساكنه فيما أضل أتباعه فيه ، من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها ، مما كان زينه لهم في جاهليتهم . كما في حديث عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ كُلَّ مَالٍ مَنَحْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ » وفيه : « وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُتَفَاءً ، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَاثَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَخَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أُخْلَقَتْ لَهُمْ » ^(١) وعن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فقال سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : « يَا سَعْدُ أَطْبَ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْذِفُ اللَّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَزْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتْ لَحْمُهُ مِنَ الشَّحَنِ وَالرَّبَا قَالَتْ أُولَى بِهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تنفير عنه وتحذير منه ، قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ قيل : كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان . وقال عكرمة : هي نزغات الشيطان . وقال أبو مجلز : هي النذور في المعاصي . وقال مسروق : أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل ، فاعتزل رجل من القوم ، فقال ابن مسعود : ناولوا صاحبكم ، فقال : لا أريده ، فقال : أصائم أنت ؟ قال : لا ، قال : فما شأنك ؟ قال : حرمت أن أكل ضرعاً أبداً ، فقال ابن مسعود : هذا من خطوات الشيطان ، فاطعم وكفر عن يمينك . وعن أبي رافع قال : غضبت أُمِّي يوماً على امرأتي ، فقالت : هي يومًا يهودية ويومًا نصرانية ، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأثيت عبد الله بن عمر ، فقال : إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفضه امرأة في المدينة ، وأثيت عاصمًا وابن عمر فقالا مثل ذلك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٤) والطبراني في الكبير (٣٦٢/١٧) .

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٧/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) .

مَيْتَتُهُ» ^(١) وحديث ابن عمر مرفوعاً «أَجِلُّ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ الشَّمَكُ وَالْجَرَادُ ، وَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ» ^(٢) .

مسألة : ولبن الميتة ويضبطها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره ؛ لأنه جزء منها ، وقال مالك في رواية : هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة ، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف ، والمشهور عندهم أنها نجسة ، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس ، فقال القرطبي في التفسير : ههنا يخالط اللبن منها يسير ، ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع . وعن سلمان رضي الله عنه : سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال : « الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ يَمَّا عَفَا عَنْهُ » ^(٣) وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير ، سواء ذكي أم مات حتف أنفه ، ويدخل شحمه في حكم لحمه ، إما تغليظاً ، أو أن اللحم يشمل ذلك ، أو بطريق القياس على رأي . وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله ، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك ، مما كانت الجاهلية ينحرون له . وعن الحسن البصري أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزواً ، فقال : لا تؤكل ؛ لأنها ذبحت لصنم . وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين ، فقالت : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه ، وكلوا من أشجارها .

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي في غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي في أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . وقال مجاهد : فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة ، أو خارجاً في معصية الله ، فله الرخصة ، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله ؛ فلا رخصة له ، وإن اضطر إليه . وعن ابن عباس : قال : ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ في الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ في أكله .

مسألة : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير ، بحيث لا قطع فيه ولا أذى ، فإنه لا يحل له أكل الميتة ، بل يأكل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال - ثم قال : وإذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك ، عن عباد بن شرحبيل العنزي قال : أصابتنا عاتماً مخصصة ، فأتيت المدينة ، فأتيت حائطاً فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته ، وجعلت منه في كسائي ، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل : « مَا أَطْعَمْتَهُ إِذْ كَانَ جَائِعًا وَلَا سَاعِيًا ، وَلَا عَلِمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا » فأمره فرد إليه ثوبه ، وأمر له بوسق طعام أو نصف وسق ^(٤) . وعن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال : « مَنْ أَصَابَ مِنْهُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ بِفِيهِ غَيْرَ مُتَخِذٍ حُبْنَةً فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ » ^(٥) وعن مسروق قال : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار ، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٨٣) والترمذي في السنن (٦٩) والنسائي في السنن (٥٠/١) والدارمي في السنن (٩١/٢) ومالك في الموطأ (٢٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٥٧/٩) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (١١٥/٤) والترمذي في السنن (١٧٢٦) وابن ماجه في السنن (٣٣٦٧) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٢٩٨) . (٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٢٨٩) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسَدُّونَ بِهِ مَسًّا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْكَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَلِئِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَينٍ﴾ .

يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم ، مما تشهد له بالرسالة والنبوة ، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم . وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم ، فخشوا - لعنهم الله - أن يظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك ، وهو نذر يسير فباعوا أنفسهم بذلك ، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النذر اليسير ، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات ، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه ، وصاروا عوناً له على قتالهم ، وباعوا بغضب على غضب ، وذمهم الله في كتابه في غير موضع ، فمن ذلك هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسَدُّونَ بِهِ مَسًّا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ، نازراً تأجج في بطونهم يوم القيامة ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرِبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرِي فِي بَطْنِهِ نَارُ جَهَنَّمَ » (١) .

وقوله : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا ، فاستحقوا الغضب فلا ينظر إليهم ﴿ولا يزكِّيهم﴾ أي يثني عليهم ويمدحهم ، بل يعذبهم عذاباً أليماً . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُشْتَكِرٌ » (٢) . ثم قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي اعتاضوا عن الهدى ، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه ، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عن الضلالة ، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿وَالْكَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب ، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة . وقوله تعالى : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل ، يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك ، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياداً بالله من ذلك . وقيل : معنى قوله : ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يَأْنِ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد ؛ لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً ، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره ، فخالفوه وكذبوه ، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم

(١) أخرجه مسلم في اللباس (١) والبيهقي في السنن (١٤٥/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٦) ومسلم في الإيمان (١٧١) والنسائي في السنن (٢٤٥/٧) وأحمد في مسنده (١٦٢/٥) .

إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته ، فاستهزأوا بآيات الله المنزلة على رسله ، فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَرَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

﴿ لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوعَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْزَّكَاةِ وَالْمُؤْتُونَ بِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَسَاءِ وَالْفَرْءِ وَبَيْنَ الْأَيْمِ الْأَيْمِ الَّذِينَ مَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة . جاء رجل إلى أبي ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوعَكُمْ ﴾ حتى فرغ منها ، فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عما سألتني عنه ، فقرأ عليه هذه الآية ، فأبى أن يرضى كما أبى أن يرضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : « الْمُؤْمِنُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً سَرَّهُتَهُ وَرَجَا نَوَابَهَا ، وَإِذَا عَمِلَ سَيِّئَةً أَخْرَجَتْهُ وَخَافَ عِقَابَهَا » (١) .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأُنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المِرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ ﷻ وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه . ولهذا قال : ﴿ لَيْسَ إِلَهَ أَنْ تُولُوا وَجُوعَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية . وقال ابن عباس في هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ، ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وقال الثوري : ﴿ وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ ءَمَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية قال : هذه أنواع البر كلها ، وصدق ﷻ فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله ، وأنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ وهو يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَىٰ آتَمًا عَلَىٰ حَبِيءٍ ﴾ أي أخرجوه وهو محب له ، راغب فيه . نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبيرة وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَّدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ ؛ تَأْمُلُ الْغِنَى ، وَتَخْشَى الْفَقْرَ » (٢) .

وقوله : ﴿ ذَوِي الْأَرْزَابِ ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ، فَهُمْ أَوْلَى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٩/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨) ومسلم في الزكاة (٩٢) وأحمد في مسنده (٤١٥/٢) والنسائي في السنن (٦٨/٥) .

النَّاسِ بِكَ وَيَبْرُكَ وَأَعْطَاكَ» ^(١) ، وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز . ﴿وَالْيَتَامَى﴾ هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ، وعن علي عن رسول الله ﷺ قال : «لَا يَتَمَّ بَعْدَ جَلَمٍ» ^(٢) . ﴿وَالنَّسَكِينَ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وحتلتهم ، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَافِ الَّذِي تَرُدُّهُ الثَّمَرَةُ وَالثَّغَرَتَانِ ، وَاللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يَقْطُرُ لَهُ فَيْتَصَدَّقُ عَلَيْهِ» ^(٣) ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته ، فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ، ويدخل في ذلك الضيف ، وعن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين . ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب ، فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما ورد عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها - قال : قال رسول الله ﷺ : «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» ^(٤) ﴿وَفِي أَرْقَابٍ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم . وعن فاطمة بنت قيس قالت : قال رسول الله ﷺ : «فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ» ثم قرأ : ﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوعَكُمْ فَقَدْ أَلْمَشْرِيقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله ﴿وَفِي أَرْقَابٍ﴾ ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها ، بركوعها وسجودها وطمأنيتها وخشوعها ، على الوجه الشرعي المرضي . وقوله : ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين ، إنما هو التطوع والبر والصلة .

وقوله تعالى : ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ كقوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث «أَيُّهُ الْمُنَافِقُ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ» ^(٦) وفي الحديث الآخر «وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» ^(٧) وقوله تعالى : ﴿وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالْفُرْسَاءِ وَبَيْنَ الْبَأْسِ﴾ أي في حال الفقر وهو اليأساء ، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿وَبَيْنَ الْبَأْسِ﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء ، وإنما نصب ﴿الصَّادِقِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته ، والله أعلم . وقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ سَدَقُوا﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم ؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤/٤) والترمذي في السنن (٦٥٨) وابن ماجه في السنن (١٨٤٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) ، والطبراني في الصغير (٩٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤/١) والنسائي في السنن (٨٥/٥) وابن خزيمة في صحيحه (٢٣٦٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/١) وأبو داود في السنن (١٦٦٥) والطبراني في الكبير (١٤١/٣) والألباني في الصحيحة (١٥٥/١) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧٢/١) والبخاري في التاريخ الكبير (٩٠/٣) .

(٦) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٢) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .

(٧) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٥) .

﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبَكُمْ الْقِصَاصِ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُتِيَ لَمْ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ فَإِنْ كَانَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَكُمْ تَنْتَفُونَ ۝﴾ .

يقول تعالى : كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون ، حركم بحركم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم بأنثاكم ، ولا تتجاوزوا وتعندوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم . وسبب ذلك قريظة والنضير ، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم ، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر ، وإذا قتل القرظي النضري قتل ، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي ، فأمر الله تعالى بالعدل في القصاص ، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغياً فقال تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ . وذكر في سبب نزولها عن سعيد بن جبيرة في قول الله تعالى : ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني إذا كان عمداً الحر بالحر ، وذلك أن حين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل ، فكان بينهم قتل وجراحات ، حتى قتلوا العبيد والنساء ، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا ، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في المدة والأموال ، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم ، والمرأة منا الرجل منهم ، فنزل فيهم : ﴿الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ . وقال ابن عباس في قوله : ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ، ولكن يقتلون الرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة ، فأمر الله ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد ، رجالهم ونسائهم في النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس ، وفيما دون النفس رجالهم ونسائهم .

مسألة : ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة ، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود ، وهو مروى عن علي بن مسعود وغيرهما . قال البخاري وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه : ويقتل السيد بعبد لعموم حديث الحسين عن سمرة : «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلَتْهُ ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعَتْهُ ، وَمَنْ خَصَصَهُ خَصَّتْهُ» ^(١) وخالفهم الجمهور فقالوا : لا يقتل الحر بالعبد ؛ لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية ، وإنما تجب فيه قيمته ؛ ولأنه لا يقاد بطرفه ، ففي النفس بطريق الأولى ، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ : «لَا يَقْتُلُ مُسْلِمٌ بَكَافِرٍ» ^(٢) ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا ، وأما أبو حنيفة : فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

مسألة : قال الحسن وعطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية ، وخالفهم الجمهور لآية المائدة ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : «الْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُوا دِمَائُهُمْ» ^(٣) وقال الليث : إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة .

مسألة : ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد : قال عمر في غلام قتل سبعة فقتلهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٥) والناثاني في السنن (٢١/٨) والترمذي في السنن (١٤١٤) والحاكم في المستدرک (٣٦٧/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٠٦) والترمذي في السنن (١٤١٢) وابن ماجه في السنن (٢٦٥٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٦٨٣) وأبو داود في السنن (٢٧٥١) والبيهقي في السنن (٢٩/٨) .

وقال : لو تمألا عليه أهل صنعاء لقتلهم ، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع . وحكي عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَنِئَ لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ فَمَنْ عَنِئَ لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد . وقال : يعني فمن ترك له من أخيه شيء ، يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم ، وذلك العفو ﴿ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يقول : فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ يعني من القاتل من غير ضرر ولا معك ، يعني المدافعة .

مسألة : قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد في أحد قوليه : ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل ، وقال الباقر : له أن يعفو عليها وإن لم يرض . مسألة : وزهد طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ يقول تعالى : إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو . وعن ابن عباس قال : كتب علي بنى إسرائيل القصاص في القتل ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْقُرُ بِالْخُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَنِئَ لَكُمْ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل ومن كان قبلكم ﴿ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ قال قتادة : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ، ولم تحل لأحد قبلهم ، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص ، وعفو ليس بينهم أورش ، وكان أهل الإنجيل ، إنما هو عفو أمروا به ، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش .

وقوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب من الله أليم موجه شديد . وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية . وعن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَصِيبَ بِقَتْلِ أَوْ خَبِلَ ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ ، وَإِمَّا أَنْ يَغْفُو ، وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَّةَ ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ ؛ فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَلَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا » (١) .

وقوله : ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ يقول تعالى : وفي شرع القصاص لكم ، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة ، وهي بقاء المهج وصونها ؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس . وفي الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل ، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل ﴿ يَتَأَوَّلِي الْأَنْبِيَاءَ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يقول : يا أولي العقول والأفهام والنهى ، لعلمكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُّوْسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١/٤) وابن ماجه في السنن (٢٦٢٣) والدارمي في السنن (١٨٨/٢) والدارقطني في السنن (٩٦/٣) .

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية الموارث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه ، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ، ولا تحمل منة الموصي ، ولهذا جاء عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِّوَارِثٍ » ^(١) وعن يونس بن عبيد قال : جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ فقال : نسخت هذه الآية . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرهما ، إلا وصية للأقربين ، فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين ، وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت .

والعجب من أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمه الله كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة ، وإنما هي مفسرة بآية الموارث ، ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ قال : وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء ، قال : ومنهم من قال : إنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث ، وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاووس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد . قلت : وبه قال أيضاً سعيد بن جبيرة والريعي بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء ، لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر ؛ لأن آية الموارث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية ؛ لأن الأقربين أعم من يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عين له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم أن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت ، فأما من يقول : إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث ، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع ، بل منهي عنه للحديث المتقدم « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَلَا وَصِيَّةَ لِّوَارِثٍ » فأية الميراث حكم مستقل ، ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات ، رفع بها حكم هذه بالكلية ، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث ؛ استثناءً بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا حَقَّ اغْرِيئُ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » قال ابن عمر : ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي ^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالا . ثم منهم من قال : الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالورثة ، ومنهم من قال : إنما يوصي إذا ترك مالا جليلاً ، ثم اختلفوا في مقداره ، قيل لعلي عليه السلام : إن رجلاً من قریش قد مات وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص ؟ قال : ليس بشيء إنما قال الله : ﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ . عن عروة أن علياً دخل على رجل من قومه يعوده فقال له : أوص ؟ فقال له علي : إنما قال الله : ﴿ إِنَّ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً ، فاتركه لولدك . وقال ابن عباس : من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧١٣) والترمذي في السنن (٢١٢٠) والنسائي في السنن (٢٤٧/٦) وأحمد في مسنده (٢٣٨/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٢) والنسائي في السنن (٢٣٩/٦) .

وقال طاووس : لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً . وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فما فوقها .
 وقوله : ﴿ يَأْمُرُوكَ ﴾ أي بالرفق والإحسان . وعن الحسن قوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَعَدَّكُمْ أَلَمَوْتُ ﴾ فقال : نعم الوصية ، حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر ، والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته ، من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال : يا رسول الله ، إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلاثي مالي ؟ قال : « لآ » ، قال : فبالشطر ؟ قال : « لآ » ، قال : فالثلث ؟ قال : « الثُلُثُ وَالثُلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَكْفُفُونَ النَّاسُ » ^(١) . وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الثُلُثُ ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سِمْعًا فَإِنَّا إِشْمُكَ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : فمن بدل الوصية وحرّفها فغيّر حكمها وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فَإِنَّا إِشْمُكَ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : وقع أجر الميت على الله ، وتعلق الإنم بالذين بدّلوا ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت ، وهو عليم بذلك ، وبما بدله الموصي إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ الجنف الخطأ ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها ، بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة ، كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محابة ، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها ، أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئاً غير عامد بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر ، أو متعمداً أثماً في ذلك ، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء ، وأشبه الأمور به ، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي ، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء ، ولهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك ، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ يَعْمَلُ أَهْلُ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى خَافَ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ يَعْمَلُ أَهْلُ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَيُعَدَّلُ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَمْدُونَهَا ﴾ الآية ^(٣) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعِصْيَا كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ آيَاتُ مَعْدُونَةٍ فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ تَرْبِيَةً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَمِدَّةٌ مِنْ آيَاتِهِ أُخْرِجَتْ مِنَ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ فِذِيَّةٌ طَعَامٌ وَسَكِينٌ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَإِنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة ، وأمرًا لإياهم بالصيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله ﷻ ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم ، فلهم فيه أسوة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض ، أكمل مما فعله أولئك ، ولهذا قال : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعِصْيَا كَمَا كُتِبَ

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ لَأَنِ الصَّوْمُ فِيهِ تَرْكِيَةٌ لِلْبَدَنِ ، وَتَضْيِيقٌ لِمَسَالِكِ الشَّيْطَانِ ، وَلِهَذَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ » ^(١) ثُمَّ يَبْدَأُ بِمَقْدَارِ الصَّوْمِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، لَفَلَا يَشُقُّ عَلَى النَّفْسِ ، فَتَضَعُفُ عَنْ حَمَلِهِ وَأَدَائِهِ ، بَلْ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ يَصُومُونَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِصَوْمِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَقَدْ رَوَى أَنَّ الصِّيَامَ كَانَ أَوَّلًا كَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا ، مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَشْرُوعًا مِنْ زَمَانِ نُوحٍ إِلَى أَنْ نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « صِيَامُ رَمَضَانَ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ » ^(٢) .

ثُمَّ يَبْدَأُ بِحُكْمِ الصِّيَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ رَيْبًا أَوْ عِلًّا سَفَرًا فَصِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أَيُّ الْمَرِيضِ وَالْمَسَافِرِ لَا يَصُومَانِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ عَلَيْهِمَا ، بَلْ يَفْطُرَانِ وَيَقْضِيَانِ بَعْدَهُ ذَلِكَ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَأَمَّا الصَّحِيحُ الْمُقِيمُ الَّذِي يُطِيقُ الصِّيَامَ ، فَقَدْ كَانَ مَخِيرًا بَيْنَ الصِّيَامِ وَبَيْنَ الْإِطْعَامِ ، إِنْ شَاءَ صَامَ ، وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مَسْكِينًا ، فَإِنْ أَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ مَسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ صَامَ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِطْعَامِ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمْ مِنَ السَّلَفِ : وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ : أُحِيلَتِ الصَّلَاةُ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ ، وَأُخِيلَ الصِّيَامُ ثَلَاثَةَ أَحْوَالٍ ، فَأَمَّا أَحْوَالُ الصَّلَاةِ : فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يَصِلِي سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ ﷻ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿ قَدْ رَأَى نَفْلُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَتَوَلَّى وَكَانَ قَبْلَهُ رَضْنَاهَا ﴾ الْآيَةَ ، فَوَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَى مَكَّةَ هَذَا حَوْلٍ ، قَالَ : وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ وَيُؤَذِّنُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى نَقْسُوا أَوْ كَادُوا يَنْقَسُونَ ، ثُمَّ إِنْ رَجَلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ بَنَ عَبْدِ رَبِّهِ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ وَلَوْ قُلْتُ : إِنِّي لَمْ أَكُنْ نَائِمًا لَصَدَقْتُ ، إِنِّي بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ رَأَيْتُ شَخْصًا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضِرَانِ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - مَثْنً - حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْأَذَانِ ، ثُمَّ أَهْمَلَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ مِثْلَ الَّذِي قَالَ : غَيْرَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي ذَلِكَ : قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ - مَرَّتَيْنِ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « عَلَّمَهَا بِلَالًا فَأَيُّوْذُنُ بِهَا » فَكَانَ بِلَالُ أَوَّلَ مَنْ أَذَّنَ بِهَا ، قَالَ : وَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ طَافَ بِي مِثْلَ الَّذِي طَافَ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ سَبَقَنِي ^(٣) . فَهَذَا هَذَا حَالَانِ ، قَالَ : وَكَانُوا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ وَقَدْ سَبَقَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَعِضُهَا فَكَانَ الرَّجُلُ يَشِيرُ إِلَى الرَّجُلِ إِذْنًا كَمْ صَلَوَاتِي ؟ فَيَقُولُ : وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ فَيُصَلِّيهِمَا ، ثُمَّ يَدْخُلُ مَعَ الْقَوْمِ فِي صَلَاتِهِمْ ، قَالَ : فَجَاءَ مَعَاذُ فَقَالَ : لَا أَجِدُهُ عَلَى حَالٍ أَبَدًا إِلَّا كُنْتُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَضَيْتُ مَا سَبَقَنِي : قَالَ : فَجَاءَ وَقَدْ سَبَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِيَعِضُهَا قَالَ : ثَبِتْ مَعَهُ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَامَ فَقَطَعَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّهُ قَدْ سَنَّ لَكُمْ مَعَاذًا ، فَهَكَذَا فَاصْنَعُوا » ^(٤) فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ . وَأَمَّا أَحْوَالُ الصِّيَامِ : فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٥) ومسلم في النكاح (١) وابن ماجه في السنن (١٨٤٥) وأحمد في مسنده (٤٢٤/١) .

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٧٨/٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٣٩١/١) والدارقطني في السنن (٢٤٢/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/٥) .

ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ، ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله ﷻ أنزل الآية الأخرى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حالان ، قال : وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له : صرمة كان يعمل صائماً حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح صائماً فراه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً فقال : « ما لي أراك قد جهدتَ جهداً شديداً ؟ » قال : يا رسول الله ، إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فمت فأصبحت حين أصبحت صائماً ، قال : وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأثنى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأمر الله ﷻ : ﴿ اجْعَلْ لَّكُم مِّنَ الصَّيَامِ رَفْعًا إِلَىٰ سَائِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ ءَاتُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ الْبَيْلِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كما قال معاذ ﷺ : كان في ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً ، وعن سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها . وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف ، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً .

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه ؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة ؟ فيه قولان للعلماء : أحدهما : لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه ؛ فلم يجب عليه فدية كالصبي ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وهو أحد قولي الشافعي ، والثاني : وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أي يتجشمون كما قاله ابن مسعود وغيره ، وهو اختيار البخاري فإنه قال : وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعدما كبر عائماً أو عامين عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر (٢) . وما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ، ففيهما خلاف كثير بين العلماء ، فمنهم من قال : يفطران ويفديان ويقضيان ، وقيل : يفديان فقط ولا قضاء ، وقيل : يجب القضاء بلا فدية ، وقيل : يفطران ولا فدية ولا قضاء ، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه ولله الحمد والمنة .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٧/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (باب ٢٥) .

يَكُمُ الْمُسَرَّ وَلْيُغْلِلُوا آيَةً وَلْيَكِيدُوا اللَّهَ عَنِ مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَكُمْ كُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء ، فعن وائلة يعني ابن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال : « أَنْزَلْتُ صُحُفَ إِبْرَاهِيمَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنْزَلْتُ التَّوْرَةَ لَيْسَتْ مَضْمِينِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَالْإِنْجِيلَ لِفَلَانَتْ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ » (١) . وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة ، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ . عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال : وقع في قلبي الشك : قول الله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ ثُبْرَكَةَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وقد أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس : إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر ، وفي ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيبا في الشهور والأيام . وعن ابن عباس قال : أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا ، فجعل في بيت العزة ، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس . وقوله : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقوه واتبعوه ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أي ودلائل وحجج بيّنة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال ، والرشد المخالف للغي ، ومفرقا بين الحق والباطل ، والحلال والحرام . وقد روي عن بعض السلف أنه كره أن يقال : إلا شهر رمضان ، ولا يقال : رمضان . وقوله : ﴿ فَتَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهَرُ فَلْيَصُمتْ ﴾ هذا لإيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، أي كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان ، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ معناه ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر أي في حالة السفر ، فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ، ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تختمه في حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم .

وهنا مسائل تتعلق بهذه الآية :

إحداها : أن من كان مقيما في أول الشهر ، ثم سافر في أثناءه ، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله : ﴿ فَتَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهَرُ فَلْيَصُمتْ ﴾ وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر . وهذا القول غريب نقله أبو محمد ابن حزم في كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين ، وفيما حكاه عنهم نظر ،

فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فصار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر .

الثانية : وجوب الإفطار في السفر لقوله تعالى : ﴿ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَتْيَاكِ أُخَرْتُ ﴾ والصحيح قول الجمهور إن الأمر في ذلك على التخيير ، وليس بحتم ؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم ^(١) . فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام ، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً فعن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد ، حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة ^(٢) .

الثالثة : الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم ، وقالت طائفة : بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر فقال : « مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ » ^(٣) . وقال : « عَلَيْكُمْ بِرُخْصَةِ اللَّهِ الَّتِي رَخَّصَ لَكُمْ » ^(٤) . وقالت طائفة : هما سواء ، لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال : يا رسول الله إني كثير الصيام أفأصوم في السفر ؟ فقال : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ » ^(٥) . وقيل : إن شق الصيام بالإفطار أفضل ، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال : « مَا هَذَا ؟ » قالوا : صائم ، فقال : « لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي الشَّعْرِ » ^(٦) ، فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه ، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما : من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة ^(٧) .

الرابعة : القضاء هل يجب متابعا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان : أحدهما : أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكي الأداء . والثاني : لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع ، وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان ؛ فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمِدَّةٌ مِّنْ أَتْيَاكِ أُخَرْتُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وعن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول : « إِنْ خَيْرٌ دِينَكُمْ أَيْسَرُهُ ، إِنْ خَيْرٌ دِينَكُمْ أَيْسَرُهُ » ^(٨) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بَشْرًا وَلَا تُتَّقِرَا ، وَيَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا ، وَتَطَوَّعًا وَلَا

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٨٨/٤) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٥٩/٣) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٠/٣) وعزاه للبخاري .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦١/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام (٩٢) والمنازل في الترغيب (١٣٣/٢) .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٢٤٣/٤) .

(٦) أخرجه النسائي في السنن (١٧٦/٤) وابن ماجه في السنن (١٦٦٤) والترمذي في السنن (٧١٠) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٨/٤) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٨/٤) والألباني في الصحيحة (١٦٣٥) .

تَحْتَلِفًا»^(١) وفي السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفَةِ السَّمْعَةِ »^(٢).

ومعنى قوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئَكُمْ ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار ، لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئَكُمْ ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم . وجاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات . قال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير ، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية ﴿ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئَكُمْ ﴾ ولِتُكْمِلُوا آلِدَئَكُمْ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ ﴾ حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا آلِدَئَكُمْ ﴾ وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم . وقوله : ﴿ وَلَمَّا كُمُتُمْ شَكَرْتُمْ ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده ، فلعلمكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك . ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

عن الحسن قال : سأل أصحاب رسول الله ﷺ : أين ربنا ؟ فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية ، وقال ابن جريج عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال الناس : لو نعلم أي ساعة ندعو ؟ فنزلت : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ وعن أبي موسى الأشعري قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرقاً ولا نعلو شرقاً ، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فعدنا منا فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِن كُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ غَنَّتِي رَاحِلَتِي ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »^(٣) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي »^(٤).

قلت : وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ وقوله لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ، ولا يشغله عنه شيء ، بل هو سميع الدعاء ، ففيه ترغيب في الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى . وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَسْتَجِيبُ أَنْ يَسْطِطَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدِيهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرْدُهُمَا خَائِطَتَيْنِ »^(٥) . وعن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٣٨) ومسلم في الجهاد (٧) وأحمد في مسنده (٤١٧/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢) وأبو داود في السنن (١٥٢٨) والبيهقي في السنن (١٨٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (١) وأحمد في مسنده (٢١٠/٣) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٥) والحاكم في المستدرک (٥٣٥/١) .

قَطِيعَةً رَّجِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْأُخْرَى ، وَإِمَّا أَنْ يَضْرِبَ عَنْهُ مِنَ الشَّوْءِ مِثْلَهَا » قالوا : إذن نكسر قال : « اللَّهُ أَكْثَرُ » ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « الْقُلُوبُ أَوْعِيَّةٌ ، وَتَغْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَغْضٍ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ أَهْيَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ » ^(٢) وعن أنس عن النبي ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ وَاحِدَةٌ لَكَ وَوَاحِدَةٌ لِي وَوَاحِدَةٌ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَأَمَّا الَّتِي لِي فَتَعْبُدُنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ أَوْ عَمَلٍ وَفَيْتُكَ ، وَأَمَّا الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَمِنْكَ الدُّعَاءُ وَعَلَيَّ الْإِجَابَةُ » ^(٣) .

وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام لإرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ » فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا ^(٤) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْعَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ : يَعْزِمُنِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » ^(٥) .

﴿ أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةٌ أَصْبَارٌ أَرَفْتُ إِلَى سَائِكُمْ هُنَّ لَيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْبَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَطِيطَ الْآبِئِضَ مِنَ الْخُطِيطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآتِلِ وَلَا تُبَيِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ يَلَكُ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة . والرفث هنا هو الجماع . وقوله : ﴿ هُنَّ لَيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَيَاسٌ لَهُنَّ ﴾ يعني هنَّ سكن لكم ، وأنتم سكن لهن ، وقال الربيع بن أنس : هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن ، وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه ، فناسب أن يرخص لهم في الجماعة في ليل رمضان ، لئلا يشق ذلك عليهم ويخرجوا .

وكان السبب في نزول هذه الآية ما ورد عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر ، لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً ، وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ، قالت : لا ولكن انطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته فلما رآته نائماً قالت : خيبة لك أمت ؟ فلما انتصف النهار

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨/٣) والحاكم في المستدرک (٤٩٣/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٢) والمنذري في الترغيب (٤٩١/٢) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٣٥٩٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٨٠/١) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٢٦) وابن ماجه في السنن (١٥٧٢) والبيهقي في السنن (٣٤٥/٣) .

غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿إِلَّٰهَ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيْتِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ يَسْأَلَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً .

وعن أبي هريرة في قول الله تعالى : ﴿إِلَّٰهَ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيْتِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ يَسْأَلَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ﴾ قال : كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا ، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء ، وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب ، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك ﴿إِلَّٰهَ لَكُمْ لَيْلَةَ الْبَيْتِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ يَسْأَلَكُمْ﴾ يعني الرفث مجامعة النساء ﴿مَنْ يَأْسَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَأْسَ لَهُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني تجمعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَأَلْفَنَ بَشِيرُكُمْ﴾ يعني جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ﴾ فكان ذلك عفواً من الله ورحمة (١) .

وقوله : ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو هريرة وابن عباس والضحاك وقطادة وغيرهم . يعني الولد . وقيل : يعني الجماع . وقيل : ليلة القدر .

وقوله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ آتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم ، إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وعبر عن ذلك بالخيوط الأبيض والأسود ، ورفع اللبس بقوله : ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ كما جاء في الحديث الذي روي عن سهل بن سعد : قال : أنزلت ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعد ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أما يعني الليل والنهار (٢) . وقال عدي بن حاتم : لما نزلت هذه الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال : «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِیضٌ ، إِنَّمَا ذَلِكَ بَيَاضُ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ» (٣) .

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور ، لأنه من باب الرخصة ، والأخذ بها محبوب ، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ، فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً» (٤) . وعن عمرو بن العاص ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنْ فَضَّلَ مَا يَتَنَزَّ صِيَامًا أَهْلَ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحُورِ» (٥) وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبهاً بالأكليين ، ويستحب تأخيرها إلى وقت انفجار

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٦٨) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (٣٣) وأبو داود في السنن (٢٣٤٩) والطبراني في الكبير (٣٩/١٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٢٣) ومسلم في الصيام (٤٥) والترمذي في السنن (٧٠٨) وابن ماجه في السنن (١٦٩٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٣٤٣) والنسائي في السنن (١٤٦/٤) ، وأحمد في مسنده (١٩٧/٤) والبيهقي في السنن (٢٣٦/٤) .

الفجر ، كما جاء عن أنس بن مالك عن يزيد بن ثابت ، قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة ، قال أنس : قلت لزيد : كم كان بين الأذان والضحى ؟ قال : قدر خمسين آية ^(١) . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَزَالُ أُمْتِي بِخَيْرٍ مَا عَجَلُوا الْإِفْطَارَ وَأَخَّرُوا السُّحُورَ » ^(٢) . وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغذاء المبارك . وعن حذيفة قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع ^(٣) . وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ لَجْنَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي قاربن انقضاء العدة فإما إمساك بمعروف أو ترك للفراق ، وهذا هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر ، حتى أن بعضهم ظن طلوعه ، وبعضهم لم يتحقق ذلك . وقد روي عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر .

وحكى ابن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها . قلت : وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه ، لخالفته نص القرآن في قوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْغَيْطُ الْأَيْسَرُ مِنَ الْغَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآيِلِ ﴾ . وقد ورد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَمْتَنِعُكُمْ أَذَانُ يَلَالٍ عَنْ سُحُورِكُمْ فَإِنَّهُ يُنَادِي بِلَيْلٍ ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤَذِّنُ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ » ^(٤) . وعن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « لَيْسَ الْفَجْرُ الْمُشْتَطِلُ فِي الْأَفْقِ ، وَلَكِنَّ الْمُغْرَضُ الْأَخْمَرُ » ^(٥) . وعن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « الْفَجْرُ فَجْرَانِ : فَالَّذِي كَأَنَّهُ ذَنْبُ السُّرْحَانِ لَا يُحَرِّمُ شَيْئاً ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمُشْتَطِلُ الَّذِي يَأْخُذُ الْأَفْقَ ، فَإِنَّهُ يُحِلُّ الصَّلَاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ » ^(٦) . وعن عطاء سمعت ابن عباس يقول : هما فجران ، فأما الذي يسطع في السماء ، فليس يحل ولا يحرم شيئاً ، ولكن الفجر الذي يستتير على رعوس الجبال هو الذي يحرم الشراب . وقال عطاء : فأما إذا سطع سطوعاً في السماء ، وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً فإنه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ، ولكن إذا انتشر على رعوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج .

مسألة : ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام ، يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه ، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً لما روي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ، ثم يغتسل ويصوم ^(٧) . وفي حديث أم سلمة : ثم لا يفطر ولا يقضي . وعن عائشة أن رجلاً قال : يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فَأَصُومُ » فقال : لست مثلنا يا رسول الله ؛ قد غفر الله لك ما تقدم

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٢١) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٥٣/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٥) . (٣) أخرجه : النسائي في السنن (١٤٢/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد (٧٢٤٧) ومسلم في الصيام (٣٥) وابن ماجه في السنن (١٦٩٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/٤) .

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٩١/١) والبيهقي في السنن (٣٧٧/٢) ، والدارقطني في السنن (٢٦٨/١) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٦) والنسائي في السنن (١٨٣/١) .

من ذنبك وما تأخر، فقال : « وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي » ^(١) . فأما الحديث الذي روي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ صَبَّحَ وَأَخَذْتُكُمْ جُنُثٌ فَلَا يَصُومُ يَوْمِيذٍ » ^(٢) فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو في الصحيحين عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي ﷺ ، فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا ، ومنهم من ذهب إليه ، ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنباً نائماً فلا عليه ، لحديث عائشة وأم سلمة ، أو مختاراً فلا صوم له ؛ لحديث أبي هريرة ، ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه ، وأما النفل فلا يضروه ، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة ، ولكن لا تاريخ معه . وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضاً ؛ إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ، ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز ، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها .

﴿ تَرَىٰ أَتَيْنَا الْقِيَامَ إِلَىٰ آتِلٍ ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً كما جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهُنَا ، وَادْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهُنَا ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ » ^(٣) . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَلُوا الْفِطْرَ » ^(٤) . ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو أن يصل يوماً بيوم آخر ، ولا يأكل بينهما شيئاً ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تُوَاصِلُوا » قالوا : يا رسول الله إنك تواصل قال : « فَإِنِّي لَسْتُ بِمِثْلِكُمْ إِنِّي آيْتُ مُطْعَمِي رَجِي وَيَشْقِيَنِي » قال : فلم ينتهوا عن الوصال ، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليتين ثم رأوا الهلال ، فقال : « لَوْ تَأَخَّرَ الْهِلَالُ لَرِذْتُكُمْ » كالمنكل لهم ^(٥) . فقد ثبت النهي عنه من غير وجه ، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان ، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً ، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي .

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر ، فله ذلك ، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تُوَاصِلُوا ، فَإِيَّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحْرِ » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله قال : « إِنِّي لَسْتُ بِكَهَيْبَتِكُمْ إِنِّي آيْتُ لِي مُطْعَمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقِي يَشْقِيَنِي » ^(٦) . وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم ، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة . ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد من باب الشفقة ، كما جاء في حديث عائشة رحمة لهم ، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه ؛ لأنهم كانوا يجدون قوة عليه ، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٧/٦ ، ٢٤٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) وأحمد في مسنده (٢٨/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) وأحمد في مسنده (٣٣١/٥) .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦١) وأحمد في مسنده (٥٧/٣ ، ١٧٠) .

(٦) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٧) .

أول ما يفطرون على السمن والصبر ، لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً . وقد روي عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ، ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم . وقال أبو العالية : إنما فرض الله الصيام بالنهار ، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُ ﴾ وَأَنْتُمْ عَنْكَوْنَ فِي الْمَسْجِدِ ﴿١﴾ عن ابن عباس هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان ، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً ، حتى يقضي اعتكافه . وقال الضحاك : كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُ ﴾ وَأَنْتُمْ عَنْكَوْنَ فِي الْمَسْجِدِ ﴿٢﴾ أي لا تقربوهن ما دمت عاكفين في المسجد ولا في غيره . وهذا هو الأمر المتفق عليه عند العلماء ، أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك ، من قضاء الغائط أو الأكل ، وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه ، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه . وللاعتكاف أحكام مفصلة منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ، ومنها ما هو مختلف فيه . وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام ولله الحمد والمنة ، ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم ، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم .

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتببيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام ، كما ثبت في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله ﷻ ، ثم اعتكف أزواجه من بعده ^(١) . وفي الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت لترجع إلى منزلها ، وكان ذلك ليلاً ، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها ، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة ، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، وفي رواية تواریا أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه ، فقال لهما ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُحَيٍّ » أي لا تسرعا ، واعلما أنها صفية بنت حيي أي زوجتي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! فقال ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا » أَوْ قَالَ : « شَرًّا » ^(٢) قال الشافعي رحمه الله : أراد ﷺ أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها لئلا يقع في محذور ، وهما كانا أتقى لله من أن يظن بالنبي ﷺ شيئاً . ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك ، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يذني إلي رأسه فأرجله وأنا حائض ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان ، قالت عائشة : ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة ^(٣) .

وقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٣) وأحمد في مسنده (١٤١/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥) وأحمد في مسنده (٣٢٧/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٤/٦) .

فيه وما حرمتنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه ، حدود الله أي شرعها الله وبينها بنفسه ﴿ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ أي لا تجاوزوها وتتعدوها . وكان الضيحاك ومقاتل يقولان في قوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي المباشرة في الاعتكاف . ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله ، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّارِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .
عن ابن عباس : هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكم ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه أثم أكل الحرام . وقد ورد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْخَرَى بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي لَهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ بَيْتِي قِطْعَةً مِنْ نَارٍ ، فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذْرِهَا » ^(١) فدللت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراما هو حرام ، ولا يحرم حلالا هو حلال ، وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّارِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه في كلامكم . قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراما ولا يحق لك باطلا ، وإنما يقضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود ، والقاضي بشر يخطئ ويصيب ، واعلموا أن من قضى له يباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة ، فيقضي على المبطل للمحقق بأجود مما قضى به للمبطل على الحق في الدنيا . ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهِمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

عن ابن عباس سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة فنزلت هذه الآية ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ يعلمون بها حل دينهم ، وعدة نسائهم ، ووقت حجهم . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « جَعَلَ اللَّهُ الْأَهْلَةَ مَوَاقِيتَ لِلنَّاسِ ، فَصُومُوا لِرُؤُوسِهِمْ ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤُوسِهِمْ ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَقَدْوْا ثَلَاثِينَ يَوْمًا » ^(٢) .
وقوله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهِمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ قال البخاري : عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهِمْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ ^(٣) وعن جابر كانت قریش تدعى الحرم ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ » قَالَ : رَأَيْتُكَ فَعَلْتَهُ كَمَا فَعَلْتَ فَقَالَ : « إِنِّي أَحْمَسُ » قال له : فَإِنْ دِينِي دِينُكَ ؟ فَأَنْزَلَ

(٢) أخرجه الدارقطني ١٦٣/٢ .

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٥٨) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن باب : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ ﴾ .

اللَّهُ ۖ وَلَيْسَ إِلَٰهٌ بَآءٌ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْإِلَٰهَ مِنْ أَفْوَءِهَا ۖ وَآتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ ﴿١﴾ .

وقوله : ﴿ ۖ وَآتُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ۚ ﴾ أي اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به ، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿ ۖ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ۚ ﴾ غدا إذا وقفتم بين يديه ، فيجازيكم على التمام والكمال .

﴿ ۖ وَتَلَبَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْقِلُونَكُمْ ۖ وَلَا تَسْخَرُوا مِنْ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۚ ﴾ ۖ وَاقْتُلُوا مَنْ يَفْسُدُكُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالَّذِينَ أَشَدُّ بِنَافِلَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ عِنْدَ الْكُسْفِ الرَّحْمَةَ حَتَّىٰ يَفْقِلُوا فِيهِ فَإِنْ تَنَلَّوْهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۚ فَإِنْ أُنْتَبِهُوا فَقَدْ غَفَرْنَا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ ﴾ ۖ وَتَلَبَّوْهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَبِهُوا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الْغُلَّيْلِ ۚ .

عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿ ۖ وَتَلَبَّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْقِلُونَكُمْ ۖ ﴾ قال : هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كف عنه ، حتى نزلت سورة براءة . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال : هذه منسوخة بقوله : ﴿ ۖ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ وَجَدِثُوهُمْ ۖ ﴾ وفي هذا نظر لأن قوله : ﴿ ۖ الَّذِينَ يَفْقِلُونَكُمْ ۖ ﴾ إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله ، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال : ﴿ ۖ وَتَلَبَّوْا الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ يَفْقِلُونَكُمْ ۖ ﴾ ولهذا قال في هذه الآية ﴿ ۖ وَاقْتُلُوا مَنْ يَفْسُدُكُمْ حَتَّىٰ تَفْقِلُوا ۚ ﴾ وأخرجهم من حيث أَخْرَجُوكُمْ ۚ أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم ، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصا .

وقوله : ﴿ ۖ وَلَا تَسْخَرُوا مِنْ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۚ ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي ، كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول ، وقتل النساء والصبيان والشيخوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة . كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم . ولهذا جاء عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغزوا في سبيل الله ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، اغزوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْتَلُوا وَلَا تَقْتُلُوا الْوَلِيدَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ » (٢) . وعن ربعي بن حراش قال : سمعت حذيفة يقول : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا واحد وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر ، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثالا ، وترك سائرهما قال : « إِنَّ قَوْمًا كَانُوا أَهْلَ ضَعْفٍ وَمَسْكَنَةٍ ، قَاتَلَهُمْ أَهْلُ تَجْرِيرٍ وَعَدَاوَةٍ ، فَأَظْهَرَ اللَّهُ أَهْلَ الضَّعْفِ عَلَيْهِمْ ، فَعَمَدُوا إِلَىٰ عُدُوهُمْ فَاسْتَعْمَلُوهُمْ وَسَطَطُوهُمْ فَأَسْحَطُوا اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » (٣) هذا حديث حسن الإسناد ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم ، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء . ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس ، وقتل الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله ، أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ، ولهذا قال : ﴿ ۖ وَالَّذِينَ أَشَدُّ بِنَافِلَةٍ ﴾ قال أبو مالك : أي ما أنتم مقبضون عليه أكبر من القتل . وقوله : ﴿ ۖ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمُ عِنْدَ الْكُسْفِ الرَّحْمَةَ ۖ ﴾ كما جاء في الصحيحين « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَمْ يَجَلْ إِلَّا سَاعَةً مِنْ

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٥ ، ٣٥٨) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/٥) .

نَهَارٍ، وَإِنَّمَا سَأَعْتِي هَذِهِ، حَرَامٌ بِحُزْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَجَرُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ إِذَنْ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ^(١) يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتل رجال منهم عند الخدمة، وقيل : صلحا لقوله : « مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ »^(٢).

وقوله : ﴿ حَتَّى يَنْتَلِيَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ أَكْثَرُ جَرَاءَ الْكَافِرِينَ ﴾ يقول تعالى : ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعا للصائل، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن الأهم من أحياء ثقيف والأحياش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ﴿ وَمَنْ أَلْزَمَ الْيَدِيبُ عُنْكَمُ وَيَدَيْكُمُ عَنْهُمْ يَغْنَمْ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَتَفَرَّكُمُ عَلَيْهِمْ ﴾.

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه، ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي شرك ﴿ وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، فعن أبي موسى الأشعري قال : سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(٣). وفي الصحيحين « أَمْرٌ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ »^(٤).

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ يقول تعالى : فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقاتل المؤمنين، فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين. وعن ابن عمر قال : أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالوا : ألم يقل الله : ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله. وعن نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عاما وتقيم عاما وتترك الجهاد في سبيل الله ﷻ، وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال : يا ابن أخي، بني الإسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قالوا : يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وَلَنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَتَلَاُ لَهَا بِسَبِيحٍ حَتَّى تَقِيَهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ قال : فعلنا على عهد رسوله ﷺ وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال : فما قولك في علي وعثمان ؟ قال : أتا عثمان ؟ فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكبرهتم أن يعفو عنه، وأما علي : فابن عم رسول الله ﷺ وخخته فأشار بيده فقال : هذا بيته حيث ترون.

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) وأحمد في مسنده (٢٥٩/١٣) والنسائي في السنن (٢٨٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٣٨/٢).

(٣) أخرجه البخاري في العلم (١٢٣) والنسائي في السنن (٣١٣٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٤).

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) وأحمد في مسنده (٣٧٧/٢).

﴿ أَتَنْهَرُونَ النَّاسَ بِالْحَرَامِ وَالْمَرْمُوتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عباس والضحاك والسدي وغيرهم : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة ، وحبس المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية ، هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية ﴿ أَتَنْهَرُونَ النَّاسَ بِالْحَرَامِ وَالْمَرْمُوتِ قِصَاصٌ ﴾ . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين ^(١) ، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين ، وعن ابن عباس أن قوله : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بأية القتال بالمدينة . وقد رد هذا القول ابن جرير ، وقال : بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء ، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمته الله . وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

قال حذيفة : نزلت في النفقة . وعن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقة ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر اجتماعنا معشر الأنصار تحبباً ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فارجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿ وَأَنِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد ^(٢) .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني أكننت ألقى بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿ فَتَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُلْ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ وإنما هذه في النفقة ، وقال بعد قوله : ﴿ لَا تَكُلْ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ : ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب ^(٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٢) .

(١) انظر البخاري في المغازي (٤٣٢٥) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره (٢٧٧/٢) .

وقال عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث : أنهم حاصروا دمشق ، فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل ، فعاب ذلك عليه المسلمون ، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص ، فأرسل إليه عمرو فرده ، وقال عمرو : قال الله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : ليس ذلك في القتال ، إنما هو في النفقة أن تمسك يديك عن النفقة في سبيل الله ، ولا تلق يديك إلى التهلكة . وعن الضحاك بن أبي جبير قال : كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم ، فأصابهم سنة فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله فزلت ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ وقال الحسن البصري : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : هو البخل . وعن النعمان بن بشير في قوله : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : أن يذنب الرجل الذنب فيقول : لا يغفر لي ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وعن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ قال : وذلك أن رجالاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة ، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ، ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشي . وقال لمن بيده فضل : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَأَتَيْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِلُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغَ الْمَدْيَنَ مُحِلِّينَ كَانَ مِنْكُمْ رَمِيضًا أَوْ بَدَأَ مِنْ رَأْسِهِ فِدْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أُنْتَمَ مِنْ تَمَنُّعٍ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَوْا إِذَا جَعَلْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَأَمَلِهِ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْمَكْرَاهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما . ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ ﴾ أي صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هي قولان للعلماء ، وعن علي أنه قال في هذه الآية : ﴿ وَأَتَيْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ قال : أن تحرم من ديرة أهلك ، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية : إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة ، وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت : لو حججت أو اعتمرت ، وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره . وقال مكحول : إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات . وعن الزهري قال : بلغنا أن عمر قال في قول الله : ﴿ وَأَتَيْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر ، وأن تعتمر في غير أشهر الحج ، إن الله تعالى يقول : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾ . وقال القاسم بن محمد : إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة ، فقليل له فالعمرة

في الحرم قال : كانوا يرونها تامة . وهذا القول فيه نظر ، لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة ، عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان ، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معا في ذي القعدة سنة عشر ، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ^(١) ، ولكن قال لأم هانئ : « عُمرَةٌ في رَمَضَانَ تَقْدِلُ حَجَّةَ مَعِي » ^(٢) وما ذاك إلا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه عليه الصلاة والسلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها .

﴿ وَأَتَيْنَا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ : أي أقيموا الحج والعمرة . وقال ابن عباس : من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر ، إذا رمى جمره العقبة وطاف بالبيت وبالصفاء والمروة فقد حل . وقال ابن عباس أيضا : الحج عرفه والعمرة الطواف ، وكذا روي عن إبراهيم بن علقمة أنه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وعن إبراهيم أنه قرأ (وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت) . وقرأ الشعبي ﴿ وَأَتَيْنَا الْحَجَّ الْعَمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ برفع العمرة ، وقال : ليست بواجبة . وروي عنه خلاف ذلك ، وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة ، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه : « مَنْ كَانَ مَعَهُ هَذِي فَأُيْهِلَ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ » ^(٣) وقال في الصحيح أيضا : « دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٤) .

والذي ورد في الصحيحين عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة فقال : كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق ، فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي ، ثم رفع رأسه فقال : « أَتَيْنَ السَّائِلُ » فقال : ها أنا ذا فقال : « أَمَّا الْجِبَةُ فَأَنْزِعْهَا ، وَأَمَّا الطَّيْبُ الَّذِي بِكَ فَأَغْسِلْهُ ، ثُمَّ مَا كُنْتَ صَانِعًا فِي حَجِّكَ فَاصْنَعْهُ فِي عُمْرَتِكَ » ^(٥) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ قَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي ، وكان سبعين بدنة ، وأن يحلقوا رؤوسهم ، وأن يتحللوا فلم يفعلوا انتظارًا للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ، ففعل الناس وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه ، فلذلك قال ﷺ : « رَجِمَ اللَّهُ الْحَاقِقِينَ » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة : « وَالْمُقْصِرِينَ » ^(٦) وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة ، وكانوا ألفا وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل : بل كانوا على طرف الحرم . ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره ؟ على قولين :

(١) أخرجه البخاري في المغازي (١٧٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٦٣٨) وأحمد في مسنده (١٧٧/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٣/١) والحاكم في المستدرک (٦١٩/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٨٩) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) والبيهقي في السنن (١٣٤/٥) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٣) .

أولهما عن ابن عباس : لا حصر إلا حصر العدو ، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء ، إنما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْتُمْ ﴾ فليس الأمن حصراً . والقول الثاني : أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك ، وعن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ كُسِرَ أَوْ وَجِعَ أَوْ عَرِجَ فَقَدْ حُلَّ ، وَعَلَيْهِ حِجَّةٌ أُخْرَى » ^(١) . قال : فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا : صدق وقال الثوري : الإحصار من كل شيء آذاه ، وثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت : يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال : « حُجِّي وَاشْتَرِطِي أَنْ مَحَلِّي خَيْثُ خَبَشْتَنِي » ^(٢) فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث ، وقد علق الإمام الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث .

وقوله : ﴿ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول : ﴿ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ شاة وهو مذهب الأئمة الأربعة . وقال ابن عباس : الهدى من الأزواج الثمانية ، من الإبل والبقر والمعز والضأن . وعن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر . قلت : والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديدية ، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة ، وإنما ذبحوا الإبل والبقر ، فعن جابر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة . وعن ابن عباس قال : بقدر يسارته . وقال : إن كان موسراً فمن الإبل ، وإلا فمن البقر ، وإلا فمن الغنم . وقال عروة عن أبيه : إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء ، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى أي مهما تيسر مما يسمى هدياً ، والهدى من بهيمة الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، وقد ثبت عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : أهدى النبي ﷺ مرة غنماً ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِلُوا ذُرْئَهُمْ حَتَّى يَسْلَمَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَإِنَّمَا الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ ﴾ وليس معطوفاً على قوله : ﴿ فَإِنْ أَحْبَبْتُمْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ كما زعمه ابن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديدية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقيوا وذبحوا هديهم خارج الحرم ، فأما في حالة الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلح ﴿ حَتَّى يَسْلَمَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً ، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعا ، كما ثبت عن حفصة أنها قالت : يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال : « إِنِّي لَبَذْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَذِيحِي فَلَا أَحِلُّ حَتَّى أَنْجِرَ » ^(٤) .

وقوله : ﴿ مَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدْيَةٌ مِنْ صِيَاءٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ عن كعب بن عجرة قال : أتى علي النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدري ، والقمل يتناثر على وجهي ، أو قال حاجبي ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٣) والبيهقي في السنن (٢٢٠/٥) والحاكم في المستدرک (٤٧٠/١) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٢/٥) وأحمد في مسنده (١٦٤/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٠١) والبيهقي في السنن (٢٣٢/٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٥٦٦) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٦) والبيهقي في السنن (١٣٤/٥) .

فقال : « يُؤْذِيكَ هَوَاهُ رَأْسِيكَ ؟ » قلت : نعم ، قال : « فَأَخْلِفْهُ وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، أَوْ أَطْعِمِ سِتَّةَ مَسَاكِينَ ، أَوْ انْشُرْ نَسِيكَ » قال أيوب : لا أدري بأيتهن بدأ ^(١) .

قلت : وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام ، إن شاء صام ، وإن شاء تصدق بقرق ، وهو ثلاثة أصبع لكل مسكين نصف صاع ، وهو مدآن ، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء ، أي ذلك فعل أجزأه ، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ فَيَذِيئُ بَيْنَ صِيَارٍ أَوْ مَدَقَةٍ أَوْ شُكٍّ ﴾ ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك ، أرشده إلى الأفضل ، فالأفضل فقال : انسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام ^(٢) ، فكل حسن في مقامه ولله الحمد والمنة .

سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية ﴿ فَيَذِيئُ بَيْنَ صِيَارٍ أَوْ مَدَقَةٍ أَوْ شُكٍّ ﴾ فأجاب بقول يحكم عليه طعام ، فإن كان عنده اشترى شاة ، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق ، وإلا صام لكل نصف صاع يومًا . قال إبراهيم : كذلك سمعت علقمة يذكر قال : لما قال لي سعيد بن جبير : من هذا ما أظرفه ؟ قال : قلت : هذا إبراهيم ، فقال : ما أظرفه كان يجالسنا ، قال : فذكرت ذلك لإبراهيم قال : فلما قلت يجالسنا انتفض منها . وعن الحسن قال : إذا كان بالحرم أذى من رأسه حلق ، وافتدى بأي هذه الثلاثة شاء ، والصيام عشرة أيام ، والصدقة على عشرة مساكين ، كل مسكين مكوكن مكوكنًا من تمر ومكوكنًا من بر ، والنسك شاة . وعن الحسن وعكرمة قالا : إطعام عشرة مساكين . وهذان القولان قولان غريبان فيهما نظر ، لأنه قد ثبت الستة في حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لا ستة ، أو إطعام ستة مساكين ، أو نسك شاة ، وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن ، وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن ، وعليه أجمع الفقهاء هناك ، بخلاف هذا والله أعلم .

وعن طاووس أنه كان يقول : ما كان من دم أو طعام فبمكة ، وما كان من صيام فحيث شاء . وعن أبي أسماء مولى ابن جعفر قال : حج عثمان بن عفان ومعه علي والحسين بن علي ، فارتحل عثمان ، قال أبو أسماء : وكنت مع ابن جعفر ، فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه ، قال : فقلت : أيها النائم ، فاستيقظ فإذا الحسين بن علي قال : فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال : فأرسل إلي علي ومعه أسماء بنت عميس قال : فمرضناه نحوًا من عشرين ليلة ، قال : قال علي للحسين : ما الذي تجد ؟ قال : فأومأ بيده إلى رأسه قال : فأمر به علي فحلق رأسه ، ثم دعا بيدته فحرها ، فإن كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة ، وإن كانت عن التحلل فواضح .

وقوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ مَنِ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك ، فمن كان منكم متمتعًا بالعمرة إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولًا ، فلما فرغ منها أحرم بالحج ، وهذا هو التمتع الخاص ، وهو المعروف في كلام الفقهاء ، والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح ، فإن من الرواة من يقول : تمتع رسول الله ﷺ وآخر يقول : قرن ، ولا خلاف أنه ساق هديًا ، وقال تعالى : ﴿ مَنِ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أي فليذبح ما قدر

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١٨٧/٥) والترمذي في السنن (٢٩٧٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١/٤) .

عليه من الهدى ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات (١) . وفي هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين قال : نزلت آية المتعة في كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ﷺ ، ثم لم ينزل قرآن يجرمها ، ولم ينه عنها حتى مات ، قال رجل برأيه ما شاء . قال البخاري : يقال إنه عمر (٢) وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ، ويقول : إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر ﷺ ينهى عنها محرماً لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين .

وقوله : ﴿ مَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسِيَّامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يقول تعالى : فمن لم يجد هدنياً فليصم ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك ، قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر ، أو من حين يحرم لقوله في الحج . ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال ، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين . وقال ابن عباس : إذا لم يجد هدنياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة ، فإذا كان يوم عرفة الثالث ، فقد تم صومه ، وسبعة إذا رجع إلى أهله ، وعن ابن عمر قال : يصوم يوماً قبل يوم التروية ، ويوم التروية ، ويوم عرفة . فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد ، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق ؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضاً : القديم منهما أنه يجوز له صيامها ، لقول عائشة وابن عمر : لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدى . وعن علي أنه كان يقول : من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق . وإنما قيل ذلك لعموم قوله : ﴿ فَيَسِيَّامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ﴾ والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق ، لما روي عنه ﷺ : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ أَكَلٍ وَشُرْبٍ وَذَكَرَ اللَّهُ ﷻ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : إذا رجعت إلى رحالكم ، ولهذا قال مجاهد : هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق ، الثاني : إذا رجعت إلى أوطانكم . عن سالم بن عمر قال : ﴿ مَنْ لَمْ يَجِدْ فَيَسِيَّامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ قال : إذا رجع إلى أهله . وحكى على ذلك أبو جعفر ابن جرير الإجماع . وعن ابن عمر قال : تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج . وأهدى ، فساق معه الهدى من ذي الخليفة فأهل بعمره ، ثم أهل بالحج ، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ ، وبدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج ، فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ، ومنهم من لم يهد ، فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس : « مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمَنْ شِئَ حُرْمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى ؛ فَلْيَطُفْ بِالْبَيْتِ ، وَبِالصُّفَا وَالْمَرْوَةِ ، وَلْيَقْصُرْ ، وَلْيُحْلِلْ ، ثُمَّ لِيَهْلِ بِالْحَجِّ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا ؛ فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ » (٤) .

وقوله : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قيل تأكيد ، كما تقول العرب : رأيت بعيني وسمعت بأذني ، وقيل : معنى ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ الأمر بإكمالها وإتمامها . وقيل : معنى ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ أي مجزئة عن الهدى . وعن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٦٧/١) والبيهقي في السنن (٣٥٣/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٥) والبيهقي في السنن (٣١٢/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٩١) والبيهقي في السنن (١٧٠/٥) وأحمد في مسنده (١٤٠/٢) والنسائي في السنن (٢٧٣٢) .

الحسن البصري في قوله : ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قال من الهدى .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قال ابن جرير : واختلف أهل التأويل فيمن عني بقوله : ﴿ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به ، وأنه لا متعة لهم ، فقال بعضهم : عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم . قال ابن عباس : هم أهل الحرم . وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة لا متعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم وادياً - أو قال : يجعل بينه وبين الحرم وادياً - ثم يهل بعمرة . وقال طاوس عن أبيه : المتعة للناس لا لأهل مكة ، من لم يكن أهله من الحرم . وكذا قول الله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وقال آخرون : هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت . وعن عطاء قال : من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع . وقال عطاء : عرفة ومزدلفة وعرة والرجيع . وقال الزهري : من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع . وفي رواية عنه : اليوم واليومين . واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي : أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة ؛ لأن من كان كذلك يعد حاضراً لا مسافراً ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره .

﴿ أَلَحَّجَّ أَشْهُرُ مَمْلُوكَتُكُمْ فَمَنْ وَفَّيْتُمْ فِيهِمْ أَلَحَّجَّ فَلَا رَفْثَ وَلَا شُؤكَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَبِيرٍ يَحْلِلْهُ اللَّهُ وَتَزَكُّوْذَرُ فَإِنَّ حَبَرَ الزَّادِ التَّفَوُّتُ وَاتَّقُوا يَتَأَوَّلِي الْأَلْبَسِ ﴾ .

اختلف أهل العربية في قوله : ﴿ أَلَحَّجَّ أَشْهُرُ مَمْلُوكَتُكُمْ ﴾ فقال بعضهم : تقديره الحج حج أشهر معلومات ، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها ، وإن كان ذاك صحيحاً ، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ وبأنه أحد النسكين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي ﷻ إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به ، وهل ينعقد عمرة ؟ فيه قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس وجابر ، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله ، والدليل عليه قوله : ﴿ أَلَحَّجَّ أَشْهُرُ مَمْلُوكَتُكُمْ ﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة ، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات ، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة ، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة . وقال الشافعي ﷻ : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج من أجل قول الله تعالى : ﴿ أَلَحَّجَّ أَشْهُرُ مَمْلُوكَتُكُمْ ﴾ وعن ابن عباس أنه قال : من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج . وقول الصحابي من السنة ، كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين .

وقوله : ﴿ أَشْهُرُ مَمْلُوكَتُكُمْ ﴾ عن ابن عمر قال : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة . قلت : وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله ، واختار هذا القول ابن جرير : قال : وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب ، كما تقول العرب رأيت العام ورأيت اليوم ، وإنما وقع

ذلك في بعض العام واليوم ﴿فَمَنْ مَّجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وإنما تعجل في يوم ونصف (١). وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم : هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله . وهو رواية عن ابن عمر أيضًا . وفائدة مذهب مالك : أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج ؛ فيكره الاعتماد في بقية ذي الحجة لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر . قال عبد الله : الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة . قال ابن جرير : وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة ، إنما هي للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى ، قال محمد بن سيرين : ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج . وقال ابن عون : سألت القاسم بن محمد عن العمرة في أشهر الحج فقال : كانوا لا يزونها تامة قلت : وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما أنهما كانا يحبان الاعتماد في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج ، والله أعلم . وقوله : ﴿فَمَنْ رَمَى فِيهِمْ مَلَجٌ﴾ أي أوجب بإحرامه حجًا ، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه . قال ابن جرير : أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام . وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَمَنْ رَمَى فِيهِمْ مَلَجٌ﴾ يقول : من أحرم بحج أو عمرة . وقال عطاء : الفرض الإحرام وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم . وروي عن ابن عباس أنه قال : ﴿فَمَنْ رَمَى فِيهِمْ مَلَجٌ﴾ فلا ينبغي أن يلي بالحج ، ثم يقيم بأرض . وقال طاووس والقاسم بن محمد : هو التلبية . وقوله : ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك ، وكذلك التكلم به بحضرة النساء . قال عبد الله بن عمر : الرفث إتيان النساء ، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم . وعن ابن عباس أنه كان يحدو وهو محرم وهو يقول :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا
إِنْ تَصَدَّقِ الطَّيْرُ نَبْكَ لَمِيسَا (٢)

قال أبو العالية : فقلت : تتكلم بالرفث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث ما قيل عند النساء . وقال عبد الله بن طاووس عن أبيه : سألت ابن عباس عن قول الله تعالى : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ قال : الرفث التعريض بذكر الجماع ، وهي العراة في كلام العرب وهو أدنى الرفث . وقال عطاء بن أبي رباح : الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش . وقال طاووس : هو أن يقول للمرأة : إذا حللت أصبتك . وقال ابن عباس : الرفث غشيان النساء ، والقبلة ، والغمز ، وأن تعرض لها بالفحش من الكلام . وقوله : ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هي المعاصي ، وكذا قال عطاء ومجاهد وغيرهما ، وقال ابن عمر : الفسوق ما أصيب من معاصي الله ، صيدًا أو غيره . وعن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم . وقال آخرون : الفسوق ههنا السباب ، ويتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح : «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقَالَ كُفْرٌ» (٣) ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الفسوق ههنا الذبح

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٥٣/٢) .

(٢) الهميس : الصوت الخفي الذي لا غور له في الكلام والوطء والأكل ، وليس : اسم ناقه .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) والنسائي في السنن (٤١٠٥) وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .

للأصنام ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ يَسْتَفْزِمُوا أَهْلَ غَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ . وقال الضحّاك : الفسوق التنازع بالألقاب . والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم ، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهياً عنه ، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد ، ولهذا قال : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وقال في الحرم : ﴿ وَمَنْ يَزِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُزُفَةً مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام ، من قتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الأظفار ونحو ذلك (١) ، وما ذكرناه أولى ، والله أعلم . وقد ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَزِفْهُ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فيه قولان : أحدهما : ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه ، وقد بيته الله أتم بيان ، ووضحه أكمل إيضاح . فالجدال في الحج : المراء في الحج . قال مالك : قال الله تعالى : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فالجدال في الحج - والله أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء : نحن أصوب ، ويقول هؤلاء : نحن أصوب . وقال القاسم بن محمد : الجدال في الحج أن يقول بعضهم الحج غذا ، ويقول بعضهم : الحج اليوم ، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال وهو قطع التنازع في مناسك الحج والله أعلم . والقول الثاني : أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة . فعن عبد الله بن مسعود قال : أن تماري صاحبك حتى تغضبه . وعن ابن عباس : المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك ، فنهى الله عن ذلك . وعن عكرمة : الجدال الغضب ، أن تغضب عليك مسلماً ، إلا أن تستعجب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه ، فلا بأس عليك إن شاء الله . قلت : ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً . والدليل على ذلك ما روي عن أسماء بنت أبي بكر قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ ، وجلست إلى جنب أبي ، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر ، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه ، فاطلع وليس معه بعيره فقال : أين بعيرك ؟ فقال : أضلته البارحة ، فقال أبو بكر : بعير واحد تضله ! فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول : « انظُرُوا إِلَى هَذَا الْحَرَمِ مَا يَصْنَعُ » (٣) . ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال : من تمام الحج ضرب الجمال ، ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر ؓ : « انظُرُوا إِلَى هَذَا الْحَرَمِ مَا يَصْنَعُ » كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَغْلِبَكُمْ اللَّهُ ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا ، حثهم على فعل الجميل ، وأخبرهم أنه عالم به ، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة .

قوله : ﴿ وَكَزَّوْذَرَا فَإِنَّ خَيْرَ إِزَادٍ النَّفْرَى ﴾ قال ابن عباس : كان أناس يخرجون من أهلهم ليست معهم أزودة ، يقولون : نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وعن عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فأنزل الله

(١) انظر تفسير الطبري (٣٦٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في المحصر (١٨١٩) وأحمد في مسنده (٤١٠/٢) والبيهقي في السنن (٢٦١/٥) والنسائي في السنن (٢٦٢٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٥٤/١) والنسائي في السنن (١٣٩٧) وأحمد في مسنده (٣٤٤/٦) .

﴿ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ ^(١) . وعن ابن عمر قال : كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زاداً آخر ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكحك . وعن سعيد بن جبير ﴿ وَكَرَّوْذُوا ﴾ قال الخشكناج والسويق .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ لما أمرهم بالزاد للتقوى في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي ، وهو الخشوع والطاعة والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع . قال عطاء الخراساني في قوله : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ يعني زاد الآخرة . وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا بَنَادُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يقول : واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمرى ، يا ذوي العقول والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الطَّاغُوتِ ﴾ .

عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو الحجاز أسواقاً في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج ^(٢) . ولبعضهم فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتجروا ، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله هذه الآية . وعن ابن عباس أيضاً قال : كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو الحجاز ، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية . وروي عن مجاهد عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج ، يقولون : أيام ذكر ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقال : لا حرج عليكم في الشراء والبيع ، قبل الإحرام وبعده . وعن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ في مواسم الحج . وعن أبي أمامة التميمي قال : قلت لابن عمر : إنا نكري فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون المعرف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم ؟ قال : قلنا : بلى ، فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني ، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ فدعاه النبي ﷺ فقال : « أَنْتُمْ مُحْجَجُونَ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ إنما صرف عرفات وإن كان علماً على مؤنث ؛ لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات ، سمي به بقعة معينة ، فروعي فيه الأصل فصرف . اختاره ابن جرير . وعرفة موضع الوقوف في الحج ، وهي عمدة أفعال الحج ، ولهذا روي عن عبد الرحمن بن يعمر الديلمي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْحَجُّ عَرَفَاتٌ - ثلاثاً - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ قَدَّ أَدْرَكَ ، وَأَيَّامٌ مِثْلُ ثَلَاثَةٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيَّامَ عَلَيْهِ » ^(٤) ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٢٨) وهو ضعيف . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٤٤٤) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٧٨/٢) وأحمد في مسنده (٣٠٩/٤) ، والبيهقي في السنن (١١٦/٥) .

طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ؛ لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : «لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» ^(١) وقال في هذا الحديث : «فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ فَقَدْ أَدْرَكَ» وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة ، واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضر بن حارثة بن لام الطائي قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله ، إني جئت من جبل طيئ أكلت راحلتي ، وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ قَوْفًا مَعَنَا حَتَّى نَذْفَعَ ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ ، وَقَضَى تَقَاتُّهُ» ^(٢) . قال علي بن أبي طالب : بعث الله جبريل ﷺ إلى إبراهيم ﷺ فحج به حتى إذا أتى عرفة قال : عرفت ، وكان قد أتاه مرة قبل ذلك ، فلذلك سميت عرفة . وعن عطاء قال : إنما سميت عرفة أن جبريل كان يري إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات . وتسمى عرفات المشعر الحرام والمشعر الأقصى وإلال على وزن هلال ، ويقال للجبل في وسطها جبل الرحمة ، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وَبِالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا قَصَدُوا لَهُ إِلَّا إِلَى تِلْكَ الشَّرَاجِ الْقَوَائِلِ

وعن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا ، فأخّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس . وعن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أُمَّا بَعْدُ - وَكَانَ إِذَا خَطَبَ خُطْبَةً قَالَ : أَمَّا بَعْدُ - فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ ، أَلَا وَإِنَّ أَهْلَ الشُّرْكِ وَالْأَوْثَانِ كَانُوا يَذْفُقُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، إِذَا كَانَتْ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا عِمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَذْفَعُ بَعْدَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، وَكَانُوا يَذْفُقُونَ مِنَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ بَعْدَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، إِذَا كَانَتْ الشَّمْسُ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ كَأَنَّهَا عِمَائِمُ الرِّجَالِ فِي وُجُوهِهَا ، وَإِنَّا نَذْفَعُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مُخَالَفًا هَذَيْنَا هَذَيْنِ أَهْلَ الشُّرْكِ» ^(٣) . وعن المعرور بن سويد قال : رأيت عمر رضي الله عنه حين دفع من عرفة كأنني أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يوضع ، وهو يقول : إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع . وفي حديث جابر بن عبد الله الذي قال فيه : فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس ، وبدت الصفرة قليلاً ، حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شق للقصواء الزمام ، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى : «أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ» ^(٤) كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبّره وهللّه ووحدّه ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، فدفع قبل أن تطلع الشمس . وعن أسامة بن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال : كان

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٢/١٧) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٢/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٧١) وأحمد في مسنده (٢٠١/٥) .

يسير العنق ، فإذا وجد فجوة نص (١) . والعنق هو انبساط السنير ، والنص فوقه .

وعن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام ، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلتنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام . وقال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها . وعن إبراهيم قال : رآهم ابن عمر يزدهمون على قرح ، فقال : على ما يزدهم هؤلاء ؟ كل ما ههنا مشعر . وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغيرهم أنهم قالوا : هو ما بين الجبلين .

قلت : والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم ، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ؛ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ، أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر ؛ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا ، والله أعلم . وعن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال : « كُلُّ عَرَفَاتٍ مُؤَقَّتٌ ، وَارْفَعُوا عَنْ عَرَفَاتٍ ، وَكُلُّ مُزْدَلِفَةٍ مُؤَقَّتٌ ، وَارْفَعُوا عَنْ مُحَسَّرٍ ، وَكُلُّ فِجَاجٍ مَكَّةَ مُنَحَّرٌ ، وَكُلُّ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ذَبْحٌ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَادْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُكُمْ ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان ، والإرشاد إلى مشاعر الحج ، على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِينَ ﴾ قيل : من قبل هذا الهدى ، وقبل القرآن ، وقبل الرسول ، والكل متقارب ومتلازم وصحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ثم ههنا لعطف خبر على خبر ، وترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام ، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات ، كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلا قريشاً ، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم ، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته . وعن عائشة قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الخمس (٣) ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ ﴾ (٤) ثم روى عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار (٥) ، فالله أعلم . قال : والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ، وفي رواية عند الإمام وقال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح (٦) .

وقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا

(١) أخرجه البيهقي في السنن (١١٩/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٨٢/٤) والحاكم في المستدرک (٤٦٠/١) والبيهقي في السنن (٢٩٥/٩) .

(٣) الخمس : هم قريش وخزاعة ، لنزولها مكة ومجاورتها قريش ، وهم كل من ولدت قريش من العرب وكنانة وجدلية ، قيل : وهم فهم وعدوان ، وكل من نزل لكل من قبائل العرب ، والأخمس التشديد في دينه الصلب .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٠) . (٥) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢١) .

(٦) انظر تفسير الطبري (٣٩٩/٢) .

ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً^(١) . وفي الحديث أنه ندب إلى التسيب والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين^(٢) . وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عباس بن مرداس السلمى في استغفاره ﷺ لأمنه عشية عرفة ، عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ بِعَفْوِكَ عَلَيَّ ، وَأَعُوذُ بِذَنبِي ، فَاعْفُزْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ . مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةِ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ قَالَهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ »^(٣) . وعن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي فقال : « قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاعْفُزْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »^(٤) والأحاديث في الاستغفار كثيرة .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ .
يأمر تعالى بذكره ، والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله : ﴿ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ ﴿ اختلّفوا في معناه فقال عطاء : هو كقول الصبي أبه أمه ، يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه ، فكذلك أنتم فالهجو بذكر الله بعد قضاء النسك . وقال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله ﷻ ، ولهذا كان انتصاب قوله : ﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ على التمييز ، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكركم ، وأوهنا لتحقيق الماثلة في الخبر كقوله : ﴿ فِيهِ كَلِمَاتٌ بَيِّنَاتٌ لِّأَشَدِّ قَسْوَةٍ ﴾ فليست ههنا للشك قطعاً ، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه .

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره ، فإنه مظنة الإجابة ، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال : ﴿ فَمِنْ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ أي من نصيب ولاحظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك . قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللَّهُمَّ اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً ، فأنزل الله فيهم ﴿ فَمِنْ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ فأنزل الله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٧٣/١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٣/١) والترمذی في السنن (٣٤/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) وأحمد في مسنده (٧ ، ٣/١) .

الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شر ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ، ودار رغبة ، وزوجة حسنة ، وزرق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا . وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة ، وتوابعه من الأمن من الفرع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من الناس فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن : من أعطي قلباً شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وجسدًا صابرًا ، فقد أوتي في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووفي عذاب النار . ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء ، فعن أنس ابن مالك : كان النبي ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » (١) وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، أو إذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه . وعن شداد يعني أبا طالوت قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم ، فقال : « اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » وتحذروا ساعة ، حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة : إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشق لكم الأمور ، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار ، فقد آتاكم الخير كله .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد صار مثل الفرج ، فقال له رسول الله ﷺ : « هَلْ تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِثَاءً ؟ » قَالَ : نَعَمْ . كنت أقول : اللَّهُمَّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعمله لي في الدنيا . فقال رسول الله ﷺ : « شُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - فَهَلَّا قُلْتَ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ » قال : « فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَّاهُ » (٢) . وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس قال : إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم ، أفبجزئ ذلك ، فقال : أنت من الذين قال الله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَجَلَّ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر . وقال عكرمة ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات ، الله أكبر الله أكبر . وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَيَوْمَ النَّحْرِ ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ ؛ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ » (٣) . وعن مسعود بن الحكم الزرقني عن أمه قالت : لكانني أنظر إلى عليّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول : يا أيها الناس إنها ليست بأيام صيام ، إنما هي أيام أكل وشرب وذكر الله . وعن ابن عباس : الأيام

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩) وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٣) والترمذي في السنن (٣٤٨٧) وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٩٨/٤) والحاكم في المستدرک (٤٣٤/١) .

المعدودات أيام التشريق أربعة أيام ؛ يوم النحر ، وثلاثة بعده . وروي عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وغيرهم مثل ذلك . وقال علي بن أبي طالب : هي ثلاثة أيام ويومان بعده ، اذبح في أيهن شئت ، وأفضلها أولها . والقول الأول هو المشهور ، وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال : ﴿ قَمَنَ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر .

ويتعلق بقوله : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ذكر الله على الأضاحي وقد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمته الله ، وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . ويتعلق به أيضًا الذكر المؤقت خلف الصلوات ، والمطلق في سائر الأحوال ، وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق ، وهو آخر النفر الآخر . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبه فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرًا . ويتعلق بذلك أيضًا التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق ، وقد جاء في الحديث : « إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله ﷻ » ^(١) . ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف قال : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ ^(٢) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُوَ لَهَا مُخْبِتٌ وَاللَّهُ لَا يُخِبُ الْفُسَادَ ^(٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهِهَ ^(٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ^(٥) . قال السدي : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ وأظهر الإسلام ، وفي باطنه خلاف ذلك . وعن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم ، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم ، وعن سعيد المقبري ، كان يذاكر محمد بن كعب القرظي فقال سعيد : إن في بعض الكتب : إن عبادًا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجتروا الدنيا بالدين ، قال الله تعالى : علي تجتروا وبني تغتروا ! وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران ، فقال محمد بن كعب : هذا في كتاب الله ، فقال سعيد : وأين هو من كتاب الله ؟ قال : قول الله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية ، فقال سعيد : قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية ، فقال محمد بن كعب : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد ^(٦) ، وهذا الذي قاله القرطبي حسن صحيح .

وأما قوله : ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ فقرأه ابن محيصن ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ ﴾ بفتح الياء وضم الجلالة ﴿ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل ، لكن الله يعلم من قلبه القبيح

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٩/٦) والحاكم في المستدرک (٤٥٩/١) والبيهقي في السنن (١٤٥/٥) .

(٢) تفسير القرطبي (١٤/٣ ، ١٥) .

وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ الآية . قال ابن عباس : معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسان ، وهذا المعنى صحيح .

وقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ الْخَصَّامُ ﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿ وَتُؤَدَّرُ بِهِ قَوْلًا لَدًّا ﴾ أي عوجا . وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويזור عن الحق ولا يستقيم معه ، بل يفترى ويفجر ، فعن عائشة ترفعه قال : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصْمُ » (١) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا رَبُّنَهَاكَ الثَّرْتَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ أي هو أعوج المقال سيئ الفعال فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة . والسعي ههنا هو القصد كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُودُوا لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَائِيهِمُ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي اقصدوا واعدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية : « إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ ، وَأَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ » (٢) فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث ، وهو محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد : إذا سعى في الأرض إفسادا منع الله القطر ، فهلك الحرث والنسل ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ أي لا يجب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْرِ ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعله ، وقيل له : اتق الله وانزع عن قولك وفعلك ، وارجع إلى الحق ، امتنع وأبى ، وأخذته الحمية والغضب بالإثم ، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام ﴿ فَصَسَبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ آلِهَةً ﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وجماعة : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل ، فخلص منهم وأعطاهم ماله ، فأنزل الله فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك ، فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية (٣) . ويروى أن رسول الله ﷺ قال له : « رَيْحُ الْبَيْعِ صُهَيْبٌ » (٤) ونزلت : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ وأما الأكرهون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله ، ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين أنكر عليه بعض الناس ، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلا هذه الآية ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٥٧) وأحمد في مسنده (٦٣/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٨/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٧/٢) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٨٩) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠٤/١) .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلَهِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ ۝٢٠٨ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾ .

يقول الله تعالى أمرا عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال ابن عباس في قوله : ﴿ اَدْخُلُوا فِي السِّلَهِ ۝٢٠٨ ﴾ : يعني الإسلام . وقال الربيع بن أنس : يعني الطاعة . وقال قتادة : المودة ، وقوله ﴿ كَآفَّةً ۝٢٠٩ ﴾ أي : جميعا . وقال مجاهد : أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

ومن المفسرين من يجعل قوله : ﴿ كَآفَّةً ۝٢٠٩ ﴾ حالا من الداخلين أي ادخلوا الإسلام كلكم ، والصحيح الأول ، وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهي كثيرة جدًا ، ما استطاعوا منها . وعن ابن عباس ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلَهِ كَآفَّةً ۝٢٠٨ ﴾ كذا قرأها بالنصب ^(١) ، يعني مؤمني أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة ، والشرائع التي أنزلت فيهم ، فقال الله : ﴿ اَدْخُلُوا فِي السِّلَهِ كَآفَّةً ۝٢٠٨ ﴾ يقول : ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ، ولا تدعوا منها شيئا ، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۝٢٠٩ ﴾ أي اعملوا بالطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوَةِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٠ ﴾ و ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٢١١ ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ ۝٢٠٨ ﴾ . قال مطرف : أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان ؟ وقوله : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ۝٢٠٩ ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج ، فاعلموا أن الله عزيز أي في انتقامه ، لا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، حكيم في أحكامه ، ونقضه وإبرامه .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالنَّارِ ۚ وَقَفَى الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٢١٢﴾ . يقول تعالى مهذبا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالنَّارِ ۚ ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَفَى الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٢١٢﴾ جاء في حديث الصور عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها ، حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال : « أَتَا لَهَا أَتَا لَهَا » فيذهب فيسجد لله تحت العرش ، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تشرق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار ﷻ في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من تسييحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميئ الخلائق ولا يموت ، سبحان قدوس رب الملائكة والروح ، سبحان قدوس سبحان

(١) قرأ اللذين وابن كثير والكسائي (في السلم) بفتح السين والباقون بكسرها (انظر : تقريب النشر ص : ٩٦) .

ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبدًا أبدًا^(١) .

وعن مجاهد: ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ قال: هو غير السحاب، ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا. وعن أبي العالية يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء.

﴿سَلِّ بِحَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَمَا أَتَيْنَاهُم مِّنْ أَمَلٍ يَّبْتَغُ وَفِي يَدَيْهِ نَجْمَةُ اللَّهِ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٣﴾ زَيْنُ الدِّينِ

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية يسه ، أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به ، كَيْدِهِ ، وعصاه ، وقلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المُنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدلالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله كفوّاً ، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ﴿ وَمَنْ يَبْذِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد ، والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة ، كما جاء في الحديث « ابْنُ آدَمَ أَنْفَقَ ، أَنْفَقَ عَلَيْكَ » ^(٢) . وقال النبي ﷺ : « أَنْفَقَ بِلَالًا وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا » ^(٣) . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ وفي الصحيح . « أَنَّ مَلَكََيْنِ يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ صَبِيحَةً كُلُّ يَوْمٍ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّفَقًا خَلْقًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّفِقًا خَلْقًا » ^(٤) وفي الحديث : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ ، وَمَا لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، وَمَا نَصَدَقْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » ^(٥) وقال النبي ﷺ : « الدُّنْيَا دَارٌ مِنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مِنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » ^(٦) .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٠﴾

وعن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، قال : وكذلك هي في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٦) .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣) والطبراني في الكبير (١٩٢/١٠) .

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (٥٧) وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤/٤) والحاكم في المستدرک (٥٣٤/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٧١/٦) .

فاختلفوا) . وعن أبي بن كعب أنه كان يقرأها (كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال قتادة في قوله : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ قال : كانوا على الهدى جميعاً فاختلّفوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ فكان أول من بعث نوحاً . وعن ابن عباس ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يقول : كانوا كفاراً ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصبح سنداً ومعنى ؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَدْمَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٍ بَيِّنَةً ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ عن أبي هريرة في قوله : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ الآية قال : قال النبي ﷺ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ ، يَبْدَأُ اللَّهُ أَهْلَهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَالْآنَ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، فَقَدْ لِيَ الْيَهُودُ وَتَبَعٌ غَدٍ لِلنَّصَارَى » (١) . وقال الربيع بن أنس في قوله : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الإخلاص لله ﷻ وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف ، واعتزلوا الاختلاف ، وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم ، وأنهم قد كذبوا رسلهم .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي يعلمه بهم وبما هداهم له ، قاله ابن جرير ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي من خلقه ﴿ لِمَا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي وله الحكمة والحجة البالغة . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللَّهُمَّ رَبِّ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تُهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٢) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبَاسَاءَ وَالْفَرَّاءَ وَزَلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا ، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ الْبَاسَاءَ وَالْفَرَّاءَ ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهم ﴿ الْبَاسَاءَ ﴾ الفقر ﴿ وَالْفَرَّاءَ ﴾ السقم ﴿ وَزَلُّوا ﴾ خوفوا من الأعداء زلزالاً شديداً ، وامتنحوا امتحاناً عظيماً .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٦) وأحمد في مسنده (٢٨٢/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٦/٦) والحاكم في المستدرک (٦٢٢/٣) .

وعن خباب بن الأرت قال : قلنا : يا رسول الله ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : « إِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوَضِّعُ الْمِشَارَ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخْلَصُ إِلَى قَدَمَيْهِ ، لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُخْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَعَظْمِهِ لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » ثم قال : « وَاللَّهِ لَيُنْتَعِزَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّابِثُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعِجِلُونَ » ^(١) وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابه عليهم السلام في يوم الأحزاب كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظَرُوا بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ . وَلَمَّا سَأَلَ مِرْقَلُ أَبِي سَفْيَانَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكَيْفَ كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ ؟ قَالَ : سَجَالًا يَدَالُ عَلَيْنَا وَنَدَالُ عَلَيْهِ ، قَالَ : كَذَلِكَ الرِّسْلُ تَبْتَلِي ثُمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۝ أَيَسْتَأْذِنُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ آيَا لَنَا نَقَرٌ أَلَّهِ قَرِيبٌ ۝ كَمَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ وَكَمَا تَكُونُ الشَّدَّةُ ، يَنْزِلُ مِنَ النَّصْرِ مِثْلُهَا وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ آيَا لَنَا نَقَرٌ أَلَّهِ قَرِيبٌ ۝ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ .

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية في نفقة التطوع . وقال السدي : نسختها الزكاة وفيه نظر . ومعنى الآية : يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عباس ومجاهد فيمن لهم تعالى ذلك فقال : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ ۝ أي اصرفوها في هذه الوجوه . كما جاء في الحديث « أَمْلَكَ وَأَبَاكَ ، وَأَخْتَكَ وَأَخَاكَ ، ثُمَّ أَذْنَاكَ أَذْنَاكَ » ^(٢) . وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال : هذه مواضع النفقة ، ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء ، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ .

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام . وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزاً أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغث أن يغث ، وإذا استنفر أن ينفر ، وإن لم يحتج إليه قعد . قلت : ولهذا ثبت في الصحيح : « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ ، مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً » ^(٣) . وقال عليه الصلاة والسلام يوم الفتح : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا » ^(٤) . وقوله : ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ۝ أي شديد عليكم ومشقة ، وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يجرح ، مع مشقة السفر ومجالد الأعداء . ثم قال تعالى :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٩/٤) والحاكم في المستدرک (٦١١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٤/٢) والحاكم في المستدرک (٧٩/٢) والبيهقي في السنن (٤٨/٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٥) وأحمد في مسنده (٢٢٦/١) .

﴿وَسَيَكُنْ أُنْتُمْ شُرَكَاءَ لَهُمْ وَهُمْ شُرَكَاءُ لَكُمْ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء ، والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذريتهم وأولادهم ﴿وَسَيَكُنْ أَنْ تُجِبُوا شَيْئًا وَمَوْشَرٌّ لَكُمْ﴾ وهذا عام في الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ثم قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَتَكَلَّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْفَرَارِ فَقَالَ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْأَحَرِّ وَإِلْخَارِجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يَفْعَلُونَكَ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَلَعُوا وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَبِمَتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٦﴾ إِنَّ أَلَدَّيْنِ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صباة إلى رسول الله ﷺ فحبسه ، فبعث إليهم مكانه عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال : « لا تُكْرِهَنَّ أَحَدًا عَلَى السَّيْرِ مَعَكَ مِنْ أَصْحَابِكَ » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، فخيرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان وبقي بقيةهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى ، فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﷻ ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْفَرَارِ فَقَالَ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ (١) الآية .

وقال ابن هشام في كتاب السيرة : وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رباب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً ، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بني عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم ، وعكاشة بن محصن أحد بني أسد بن خزيمه حليف لهم ، ومن بني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ، ومن بني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص ، ومن بني كعب عدي بن عامر بن ربيعة حليف لهم ، من غير ابن وائل وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بني تميم حليف لهم ، وخالد بن البكير أحد بني سعد بن ليث حليف لهم ، ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء ، فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه : « إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي فِي هَذَا فَاْمُضْ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةً يَكُنْ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ تَرْصُدُ بِهَا قُرَيْشًا ، وَتَعْلَمُ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ » ، فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد به قريشاً حتى آتية منهم بخبر ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه

منهم أحد ، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوقع الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة ، فمرت به غير لقريش تحمل زيتاً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي ، واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدف ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة ، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريئاً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه آمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم ، فرمى واقد ابن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأثر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعين والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، قال ابن إسحاق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه : إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس ، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغام ، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير ، وقسم سائرهما بين أصحابه . قال ابن إسحاق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ » فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ : أسقط أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ، فقال : من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان ، وقالت اليهود : تفاعلوا بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله ، عمرو عمرت الحرب ، والحضرمي حضرت الحرب ، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب ، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم ، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿ يَتْلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَيْفَ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُوا بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهل ﴿ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ وَلَا يَزَالُ يُقَاتِلُكُمْ حَتَّى يَرْدُكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا ﴾ أي ثم هم مقيمون على أحيث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين ، قال ابن إسحاق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر ، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة ، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، وبعث إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ : « لَا نَفْدِيكُمْوهُمَا حَتَّى يَقْدُمَ صَاحِبَانَا » يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، فإنما نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما تقتل صاحبكم ، فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن

إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً . قال ابن إسحاق : فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ إِلَـهَ لَأَكْبَرُ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤْتِيكَ بِرِجْوَى لَمْ يَحْضُرْ عَلَيْكَ فَذَرُوا هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤْتِيكَ بِرِجْوَى لَمْ يَحْضُرْ عَلَيْكَ ﴾ فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء .

قال ابن هشام : وهي أول غنime غنمها المسلمون ، وعمرو بن الحضرمي أول من قتل المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون ، قال ابن إسحاق : فقال أبو بكر الصديق ﷺ في غزوة عبد الله بن جحش ، ويقال : بل عبد الله بن جحش ، قالها حين قالت قريش : قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ففسكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه المال ، وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام : هي لعبد الله بن جحش :

تَعْدُونَ قَتْلًا فِي الْحَرَامِ عَظِيمَةً
صُدُّوْكُمْ عَمَّا يَقُولُ مُحَمَّدٌ
وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْ مَسْجِدِ اللَّهِ أَهْلُهُ
فَلِنَا وَإِنْ عَيَّرْتُمُونَا بِقَتْلِهِ
سَقَيْنَا مِنْ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ رِمَاحَنَا
دِمًا وَإِبْنُ عَبْدِ اللَّهِ عُثْمَانُ بَيْنَنَا
وَأَعْظَمَ مِنْهُ لَوْ يَرَى الرُّشْدَ رَاشِدٌ
وَكُفِّرَ بِهِ وَاللَّهُ رَأَى وَشَهِدُ
لِعَلَّا يَرَى لِلَّهِ فِي الْبَيْتِ سَاجِدُ
وَأَرْجَفَ بِالإِسْلَامِ بَاغٌ وَخَاسِدُ
بَنَخْلَةٍ لَمَّا أَوْقَدَ الْحَرْبَ وَاقِدُ
يُنَازِعُهُ غِلٌّ مِنَ الْقَدْرِ عَانِدُ ^(١)

﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْتَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَوْفُ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ^(٢) في الدنيا والآخرة ويستلوك عَنِ الْيَتَمَى قُلْ إِصْلَاحٌ لِمَنْ خَرِئَ وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِنْ تَوَكَّلْتُمْ وَاللَّهُ يَتَكَلَّمُ الْمُنْفِسِ مِنَ الْمُنْفِصِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ عَنْ اللَّهِ غَيْرٌ حَكِيمٌ .

عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يَأْتِيَنَّكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقم الصلاة نادى : أن لا يقرب الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا ^(٣) . فقله : ﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ : إنه كل ما خامر العقل وكذا الميسر : وهو القمار . وقوله : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدينية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيد بعض الأذهان ، ولذة الشدة المطربة ، التي فيها ، كما قال حسان بن ثابت في جاهليته :

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٥٢/٢ - ٢٥٦) والقد : شرك يقطع من الجلد ، وعاند : سائل بالدم لا يقطع .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٣/١) .

وَنَشْرِبُهَا فَتَشْرُكُنَا مُلُوكًا وَأَسَدًا لَا يُنْهِنُهُمَا اللَّقَاءُ (١)

وكذا بيعها والانتفاع بشعبها ، وما كان يقمسه بعضهم من اليسر فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرتة ومفسدته الراجحة ، لتعلقها بالعقل والدين ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَاشْرَبُوا مِنْ نَعْيِمِهِمَا ﴾ ولهذا كانت هذه الآية ممهلة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرحة بل معرضة ؛ ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه ، اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً ، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن هذه أول آية نزلت في الخمر ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر .

وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ﴾ قرئ بالنصب والرفع (٢) ، وكلاهما حسن متجه قريب ، عن ابن عباس ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ﴾ قال : ما يفضل عن أهلك ، وعن طاوس اليسير من كل شيء . وعن الحسن في الآية ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ ﴾ قال : ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس . ويدل على ذلك ما روي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلاهلك ، فإن فضل شيء عن أهلك فإني قرأتك ، فإن فضل عن ذي قرأتك شيء فهكذا وهكذا » (٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِيٍّ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ » (٤) ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة ، وقيل مبينة بآية الزكاة ، وهو أوجه .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ أَي كَمَا فَضَّلْ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيْنَهَا وَأَوْضَحَهَا ، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعدته وعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال ابن عباس : يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها . وعن قتادة : لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا ، وفي رواية عن قتادة : فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ ﴾ الآية . عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . قالت عائشة رضي الله عنها : لاني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة ، حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقوله : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ أي على حدة ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أي وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم

(١) في ديوان حسان بن ثابت وتفسير القرطبي (٥٧/٣) : « وأسدا ما ينهنا اللقاء » انظر : ديوان حسان بن ثابت ص : ١٩ (والنهضة : الكف والمنع .

(٢) قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ أبو عمرو بالرفع . انظر : تفسير القرطبي (٥٧/٣) ، (تقريب النشر ص ٩٦) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٧٨/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٦) والبيهقي في السنن (٤٧٠/٧) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

بشرابهم فلا بأس عليكم ؛ لأنهم إخوانكم في الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح . وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم ، ولكنه وسّع عليكم وخفف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بل جوز الأكل منه للفقير المعروف ، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ ۖ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَتَّى تَمُوتَ ۚ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَعَجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبُدُوا مُؤْمِنٌ حَتَّى مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَبَيِّنَ الْبَيِّنَاتِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ .

هذا تحريم من الله ﷻ على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . وهكذا قال مجاهد وعكرمة وغيرهم . وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية ، والمعنى قريب من الأول ، والله أعلم . فأما ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، وحرّم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله ﷻ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ فَقَدْ حِطَّ عَمَلُهُ ﴾ وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى هم أن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب ، فقال : لئن حلّ طلاقهن لقد حلّ نكاحهن ، ولكن أنترعهن منكم صغرة قمأة^(١) . فهو حديث غريب جداً ، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً . قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهّد الناس في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعاني . كما روي عن شقيق قال : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر : خلّ سبيلها ، فكتب إليه : أنترع أنها حرام فأخلي سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ، ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن .

وعن ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ وقال البخاري : وقال ابن عمر : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : ربها عيسى . وسئل أبو عبد الله بن حنبل عن قول الله : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ قال : مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام .

وقوله : ﴿ وَلَا أُمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَتَّى تَمُوتَ ۚ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا أَعَجَبَتْكُمْ ﴾ قال السدي : نزلت في عبد الله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ، ثم فرغ فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما فقال له : « مَا هِيَ ؟ » قال : تصوم وتصلّي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله فقال : « يَا أَبَا عُبَيْدٍ اللَّهُ هَذِهِ مُؤْمِنَةٌ » فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أمته ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم ، فأنزل الله ﴿ وَلَا أُمَةٌ

(١) الصغرة جمع صباغر وهو الراضي بالذل . والقما : الذليل الصاغر . والخبر ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٥١٣/٢) .

مُؤْمِنَةً حَرِّمَ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ ﴿١﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ حَرِّمٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ﴾ . وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال : « لَا تَنْكِحُوا النِّسَاءَ لِحُسْنِهِنَّ ، فَتَقْسَى حُسْنُهُنَّ أَنْ يُزْدِيَهُنَّ ، وَلَا تَنْكِحُوهُنَّ عَلَى أَمْوَالِهِنَّ فَتَقْسَى أَمْوَالُهُنَّ أَنْ تُطْفِئَهُنَّ ، وَانْكِحُوهُنَّ عَلَى الدِّينِ فَلَأَمَّةٌ سَوْدَاءُ جَزَاءُ ذَاتِ دِينٍ أَفْضَلُ » (١) . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِإِلَافَتِهَا وَلِحَسَبِهَا وَلِجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا ، فَأَظْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » (٢) . وقوله : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات ، ثم قال تعالى : ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ حَرِّمٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ﴾ أي ولرجل مؤمن ولو كان عبدا حبشيا خير من مشرك ، وإن كان رئيسا سريرا ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا ، واقتنائها ، وإثارتها على الدار الآخرة ، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي بشره وما أمر به ونهى عنه ﴿وَيَسِّرْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .

﴿وَسَلُّوا عَلَى الْمُجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزُّوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيزِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَقَهَّرْنَ فَأُذُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ يَشْتِمَ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْفُؤُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت ، فسأل أصحاب النبي ﷺ ، فأُنزل الله ﷻ ﴿وَسَلُّوا عَلَى الْمُجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزُّوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيزِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ : « اضْطَعُوا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود قالت : كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أنه قد وجد عليهما ، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاها ففرغا أن لم يجد عليهما (٣) .

فقله : ﴿فَأَعَزُّوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيزِ﴾ يعني الفرج لقوله : « اضْطَعُوا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . وعن بعض أزواج النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئا ألقى على فرجها ثوبا (٤) . وروي عن مسروق قال : قلت لعائشة : ما يحل للرجل من أمراته إذا كانت حائضا ؟ قالت : كل شيء إلا الجماع . وعن عائشة قالت : له ما فوق الإزار . قلت : ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض ، وكان يتكئ في حجرني وأنا حائض فيقرأ القرآن (٥) . فأما ما روي عن عائشة أنها قالت : كنت إذا حضت نزلت عن المئال على الحصى ، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدن منه حتى تطهر (٦) . فهو محمول على التنزه والاحتياط .

وقال آخرون : إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار ، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٨٠/٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٧) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣١١/١) وأحمد في مسنده (١٤٣/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧/٦ ، ١٥٧) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١) .

(٦) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) وأحمد في مسنده (٤٢٨/٢) .

الحارث الهلالية قالت : كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فأتزرت وهي حائض (١) . وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال : « مَا فَوْقَ الْإِزَارِ وَالتَّعْفُفُ عَنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ » (٢) . فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها ، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله ﷻ الذي أجمع العلماء على تحريمه ، وهو المباشرة في الفرج ، ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه ، وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا ؟ فيه قولان أحدهما : نعم لما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار (٣) . وللإمام أحمد أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب دينارًا ، فإن أصابها وقد أدير الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار (٤) . والقول الثاني وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور : أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله ﷻ ؛ لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث ، فإنه قد روي مرفوعًا وموقوفًا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ تفسير لقوله : ﴿ فَأَعَزُّوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجودًا ، ومفهومه حله إذا انقطع . قال أحمد بن حنبل فيما أملاه في الطاعة : وقوله : ﴿ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعَزُّوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ ﴾ الآية الطهر يدل على أن يقربها ، فلما قالت ميمونة وعائشة : كانت إحدانا إذا حاضت أتزرت ، ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره (٥) . دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع .

وقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال ، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ وليس له في ذلك مستند ؛ لأن هذا أمر بعد الحظر ، وفيه أقوال للعلماء الأصول منهم من يقول : إنه على الوجوب كالمطلق ، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم ، ومنهم من يقول : إنه للإباحة ، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر ، والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي فإن كان واجبًا فواجب كقوله : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْمُكْرُمَ فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ أو مباحًا فمباح كقوله : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ وعلى هذا تجتمع الأدلة ، وقد حكاه الغزالي وغيره فاختره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح ، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتييم إن تعذر ذلك عليها بشرطه ، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده ، إنها تحل بمجرد الانقطاع ، ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم . وقال ابن عباس ﴿ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ أي من الدم ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أي بالماء .

وقوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني الفرج . قال ابن عباس : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ يقول في الفرج ولا تعدوه إلى غيره ، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد اعتدى . وفيه دلالة حينئذ على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٦/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦/١) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٠/١) .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (١٩١/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٢/١) وأبو داود في السنن (٢١٦٩) .

تحريم الوطء في الدبر ، وقال عكرمة والضحاك : طاهرات غير حيض ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي المتزهرين عن الأقدار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأثى .

وقوله : ﴿ يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ ﴾ قال ابن عباس : الحث موضع الولد ﴿ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أي كيف شئتم مقابلة ومديرة في صمام واحد ، وعن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿ يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ^(١) . وعن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله نساؤنا ما نأتي منها وما نذر ؟ قال : « حَوْلُكَ ، اثْبِ حَوْلُكَ أُنَى شِئْتَ ، غَيْرَ أَنَّ لَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ ، وَلَا تَقْبَحَ ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ » ^(٢) .

عن عبد الله بن سابط قال : دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت : إني لسألك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك ، قالت : فلا تستح يا ابن أخي ، قال : عن إتيان النساء في أدبارهن ، قالت : حدثني أم سلمة أن الأنصار كانوا يُخْبِثُونَ النساء ، وكانت اليهود تقول : إنه من أحبب امرأته كان ولده أحول ، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار ، فأخْبِثُوهُنَّ فأبَت امرأة أن تطيع زوجها ، وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت : اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ فلما جاء رسول الله ﷺ استنحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت ، فسألته أم سلمة فقال : « ادْعِي الْأَنْصَارِيَّةَ » فدعتها فتلا عليها هذه الآية ﴿ يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ « صَمَامًا وَاجِدًا » ^(٣) قلت : روي عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها فقالت : إن زوجي يأتيني محببة ومستقبلة فكرهته ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « لَا تَأْسُ إِذَا كَانَ فِي صَمَامٍ وَاجِدٍ » ^(٤) .

عن ابن عباس قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هلكت ، قال : « مَا الَّذِي أَهْلَكَكَ ؟ » قال : حولت رحلي الباردة ، قال : فلم يرد عليه شيئا ، قال : فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا رَبَّكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ « أَقْبِلْ وَأَذِيزْ ، وَاتَّقِ الدُّبُرَ وَالْحَيْضَةَ » ^(٥) وعن ابن عباس قال : إن ابن عمر قال - والله يغفر له - أوهم ، وإنما كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب ، وكانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون كثيرا من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحا منكرا ، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرته عليه ، وقالت : إنما كنا نؤتي على حرف فاصنع ذلك ولما فاجتنبني ، فسرى أمرهما

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٢٨) والبيهقي في السنن (١٩٤/٧) والترمذي في السنن (٢٩٧٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٧٩) بنحوه ، والصمام ما أدخل في فم القارورة تسد به ، فسمي الفرج به لأنه موضع صمام .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦٢/١) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٠) وأحمد في مسنده (٢٩٧/١) والبيهقي في السنن (١٩٨/٧) .

فبلغ رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد ^(١) .

عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر : إنه قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال : كذبوا علي ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر ! إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾ فقال : يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : إنا كنا معشر قريش نحبي النساء ، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فأذاهن ، فكرهن ذلك وأعظمته ، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتى على جنوبهن فأنزل الله ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْ يَشْتُمَ﴾ . وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً ، وأنه لا يباح ولا يحل ، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم ، وعزا بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر ، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله ، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه ، فعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَحْيُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَشْتَجِي مِنَ الْحَقِّ ، لَا يَحِلُّ أَنْ تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي حُشُوشِهِنَّ » ^(٢) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً فِي الدُّبْرِ » ^(٣) . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال : « هِيَ اللُّوْطِيَّةُ الصُّغْرَى » ^(٤) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبْرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَقَهُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » ^(٥) .

وعن إسرائيل بن روح : سألت مالك بن أنس : ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن ، قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لا تَعْدُوا الفرج ، قلت : يا أبا عبد الله إنهم يقولون : إنك تقول ذلك ، قال : يكذبون علي ، يكذبون علي . فهذا هو الثابت عنه ، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة ، وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبيرة وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ، ومنهم من يطلق على فعله الكفر ، وهو مذهب جمهور العلماء . وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة ، حتى حكوه عن الإمام مالك ، وفي صحته نظر .

وعن عبد الرحمن بن القاسم قال : ما أدركت أحداً أفتدي به في ديني يشك أنه حلال - يعني وطء المرأة في دبرها - ثم قرأ ﴿يَسْأَلُكُمْ رَبُّ لَكُمْ﴾ ثم قال : فأبي شيء أئين من هذا ؟ . وعن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك ، ولكن في الأسانيد ضعف شديد ، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك والله أعلم . وقال الطحاوي : حكى لنا محمد

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٤/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٩٠٤) .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (١٩٧/٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٢) .

ابن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول : ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء ، والقياس أنه حلال ، وكان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك ؛ لأن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَقَدْ مَرَأَ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أي من فعل الطاعات من امثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُنْكَوُؤُونَ ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وَيُنِيرِ الْتَوْبِينَ ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . وعن ابن عباس ﴿ وَقَدْ مَرَأَ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ قال : تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، وقد ثبت في صحيح البخاري ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْنَا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَفْذَرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » (١) .

﴿ وَلَا تَجْمَعُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنْ تَبْزُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَنَاءِ فِي آيَاتِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتكم على تركها ، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالكفر . عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) وقال رسول الله ﷺ : « وَاللَّهِ لَأَنْ يَلْجَأَ أَحَدُكُمْ يَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ » (٣) وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ اسْتَلْجَعَ فِي أَهْلِهِ يَمِينٍ فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا ، لَيْسَ تُغْنِي الْكَفَّارَةُ » (٤) . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَجْمَعُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ ﴾ قال : لا تجعل عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير . وعن أبي موسى الأشعري ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَتَحَلَّلْتُهَا » (٥) . وثبت أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة : « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لَا تَشَأَلِ الْإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أَعْنَتْ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ » (٦) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَذَرُ وَلَا يَمِينٍ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ ، وَلَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا فِي قِطْعَةِ رَجَمٍ ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَدْعُهَا ، وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، فَإِنْ تَرَكَهَا كَفَّارَتُهَا » (٧) .

ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا : لا يمين في معصية ، ولا كفارة عليها .

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤١) وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٩٥) وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٥) والبيهقي في السنن (٣٢/١) وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٦) . (٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/٤) .

(٦) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٧) وأحمد في مسنده (٦٢/٥) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٢/٢) .

وقوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْنِيكُمْ ﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهي التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »^(١) فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألستهم قد ألقت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد ، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد ، لتكون هذه بهذه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الآية . وفي الآية الأخرى ﴿ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْنَ ﴾ . وعن عطاء : اللغو في اليمين قال : قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال : « اللَّغْوُ فِي الْيَمِينِ هُوَ كَلَامُ الرَّجُلِ فِي يَمِينِهِ كَلَّا وَاللَّهِ ، وَبَلَى وَاللَّهِ »^(٢) وعن عائشة في قوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْنِيكُمْ ﴾ قالت : هم القوم يتدارعون في الأمر فيقولون هذا : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله ، يتدارعون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم . وكانت عائشة تقول : إنما اللغو في المزاح والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، فذاك لا كفارة فيه ، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله . وعن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْنِيكُمْ ﴾ وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق ، فيكون على غير ما حلف عليه .

أقوال أخر : عن إبراهيم : هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه . وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل : أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا ، أخرجني الله من مالي إن لم آتكن غدا فهو هذا . وعن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وعن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك ، فذلك ما ليس عليك فيه كفارة . وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة ، فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَمِينُ عَلَيْكَ ، وَلَا نَذْرٌ فِي مَعْصِيَةِ الرَّبِّ ﷻ ، وَلَا فِي قَطِيعَةِ الرَّحِمِ ، وَلَا فِيمَا لَا تَمْلِكُ »^(٣) وقوله : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب . ﴿ وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ ﴾ أي غفور لعباده حلیم عليهم .

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . الإيلاء الحلف ، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر ، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة ، وهذا كما ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهرا فنزل لتسع وعشرين وقال : « الشُّهُرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ »^(٤) ، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر ، إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا لئلا يضر

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٤٨/١٠) .

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٠) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦٦/١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٧) وأحمد في مسنده (٢٥٨/١) .

بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿لَلَّذِينَ يُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم ، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإمام ، كما هو مذهب الجمهور ﴿تَرَبُّعُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ، ويطالب بالفيئة أو الطلاق ولهذا قال : ﴿فَإِنْ قَاءُوا﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين ، وقوله : ﴿فَإِنْ قَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء وهو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه ، ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، فَتَزَوَّجَهَا كَفَّارَتُهَا » ^(١) والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضًا في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله : ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر ، كقول الجمهور من المتأخرين ، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة ، ثم قيل : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية ، وقيل : إنها تطلق طلقة بائنة ، فكل من قال : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة ، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء ، إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها ، وهو قول الشافعي ، والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف ، فيطالب إما بهذا ، وإما بهذا ، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق . وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف ، فإما أن يطلق ، وإما أن يفيء . وعن سليمان بن يسار قال : أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولي . قال الشافعي : وأقل ذلك ثلاثة عشر ، ورواه الشافعي عن علي عليه السلام أنه يوقف المولي ، ثم قال : وهكذا نقول وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ ، وعن سهيل بن أبي صالح عن أبيه قال : سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته ، فكلهم يقول ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف ، فإن فاء وإلا طلق . قلت : وهو يروي عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس ، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم ، وهو اختيار ابن جرير أيضًا ، وهو قول الليث وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وأبي ثور وداد ، وكل هؤلاء قالوا : إن لم يفيء أزم بالطلاق ، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم ، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة ، وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة ، وهذا غريب جدًا .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر ، الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسْوَدَ جَانِبُهُ وَأَرْقَنِي أَنْ لَا حَلِيلَ الْأَعْبَةِ
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ إِنِّي أَرْاقِبُهُ لَحُرُّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْمَلْنَ مِنْ بَرِّهِمْ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْعُرْفِ وَالرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

هذا أمر من الله ﷻ للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء ، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ، ثم تتزوج إن شاءت ، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت ، فإنها تعتد عندهم بقراين ؛ لأنها على النصف من الحرية ، والقرء لا يتبعض فأكمل لها قرآن . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « طَلَاقُ الْأُمَةِ تَطْلِيقَتَانِ ، وَعَدَّتُهَا حَيْضَتَانِ » ^(١) . وقال بعض السلف : بل عدتها كعدة الحرية لعموم الآية ؛ ولأن هذا أمر جلي فكان الحرائر والإماء في هذا سواء ، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه . وعن أسماء ابنة يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة ، فأنزل الله ﷻ حين طلقت أسماء العدة للطلاق ، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعني ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ . وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو ؟ على قولين :

أحدهما : أن المراد بها الأطهار ، وعن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة ، فذكرت ذلك لعمرة ابنة عبد الرحمن فقال : صدق عروة ، وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا : إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ فقالت عائشة : صدقتم وتدرؤن ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار . وقال مالك : عن ابن شهاب سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول : ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك ، يريد قول عائشة . وقال مالك : عن نافع بن عبد الله بن عمر أنه كان يقول : إذا طلق الرجل امرأته ، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها . وقال مالك : وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبي بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقتادة والزهري وبقية الفقهاء السبعة ، وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور ، وهو رواية عن أحمد ، واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فَلَقُّوهُنَّ لِيَدْنِهِنَّ ﴾ أي في الأطهار ، ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ، ولهذا قال هؤلاء : إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطنع في الحيضة الثالثة ، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلثون يوماً ولحظتان ، واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى :

فَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَائِشٌ غَزْوَةٌ تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكَا

مُؤَرَّثَةً مَّالًا وَفِي الْأَصْغَرِ رِفْعَةً لِّمَا صَبَّاحَ فِيهَا مِنْ قُرْءٍ نِسَائِكَا (١)

يمدح أميرًا من أمراء العرب أثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها . والقول الثاني : أن المراد بالأقراء الحيض ، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة . زاد آخرون : وتغتسل منها ، وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يومًا ولحظة ، وعن علقمة قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاءته امرأة فقالت : إن زوجي فارقتي بواحدة أو اثنتين فجاءني وقد نزعت ثيابي ، وأغلقت بابي ، فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة ، قال : وأنا أرى ذلك . وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة وغيرهم قالوا : الأقراء : الحيض ، وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكى عنه الأثرم أنه قال : الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : الأقراء الحيض ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة وغيرهم ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن فاطمة بنت أبي حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها : « دَعِي الصَّلَاةَ أَيَّامَ أَقْرَائِكَ » (٢) فهذا لو صح لكان صريحًا في أن القراء هو الحيض .

وقال ابن جرير : أصل القراء في كلام العرب الوقت لحجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم ، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم ، وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركًا بين هذا وهذا ، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين والله أعلم . وهذا قول الأصمعي : إن القراء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء : العرب تسمي الحيض قرءًا وتسمي الطهر قرءًا وتسمي الطهر والحيض جميعًا قرءًا . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القراء يراد به الحيض ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ يَكُنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَنْفُسِهِنَّ ﴾ أي من حبل أو حيض . وقوله : ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق ، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن ؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البينة غالبًا على ذلك ، فرد الأمر إليهن ، وتوعدن فيه لثلاث يخبرن بغير الحق إما استعجالًا منها لانقضاء العدة ، أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد ، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان .

وقوله : ﴿ وَيُؤْتِيَنَّ أَحَقُّ بَرٍّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها ، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير ، وهذا في الرجعات ، فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن ، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول الآية ، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات ، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن ، وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير هل يكون مخصصًا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة ، فإن التمثيل

(١) الجاشم : الذي يتكلف الجهد والمشقة ، والعزم : الجد ، والعزاء : حسن الصبر عند فقد ما يفقد الإنسان (ديوان الأعشى ص : ١٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢/٦ ، ٢٦٢) .

بها غير مطلق لما ذكروه والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنْ يَتَّبِعُكَ بِالْعُرْفِ ﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف ، فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : « فَأَتَقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَخْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فَرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوْنَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » ^(١) وعن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا قال : « أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ ، وَلَا تَقْبِضَ ، وَلَا تَهْجُزَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ » ^(٢) . وقال وكيع : عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس قال : إني لأحب أن أتزين للمرأة ، كما أحب أن تزين لي المرأة ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنْ يَتَّبِعُكَ بِالْعُرْفِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي في الفضيلة في الخلق والمنزلة ، وطاعة الأمر ، والإنفاق ، والقيام بالمصالح ، والفضل في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز في انتقامه من عصاه وخالف أمره ، حكيم في أمره وشرعه وقدره . ﴿ أَلَطَّلَقَ مَرْثَاتٍ فِيمَا سَأَلَ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَشْرِيعٍ بِإِحْسَنِ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ^(٣) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ، ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة ، فقال : ﴿ أَلَطَّلَقَ مَرْثَاتٍ فِيمَا سَأَلَ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَشْرِيعٍ بِإِحْسَنِ ﴾ ، قال ابن عباس : وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك فقال : ﴿ أَلَطَّلَقَ مَرْثَاتٍ ﴾ الآية . وعن هشام عن أبيه قال : كان الرجل أحق برجعة امرأته ، وإن طلقها ما شاء ما دامت في العدة ، وإن رجلاً من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا أؤيك ولا أفارقك ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك ، فإذا دنا أجلك راجعتك ، ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ ﴿ أَلَطَّلَقَ مَرْثَاتٍ ﴾ قال : فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق ، وعن عائشة قالت : لم يكن للطلاق وقت ، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة ، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس ، فقال : والله لأثرتك لا أئماً ولا ذات زوج ، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها ، ففعل ذلك مراراً ، فأنزل الله ﷻ فيه : ﴿ أَلَطَّلَقَ مَرْثَاتٍ فِيمَا سَأَلَ بِمَعْرِفٍ أَوْ تَشْرِيعٍ بِإِحْسَنِ ﴾ فوقف الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة ، حتى تنكح زوجاً غيره . وهكذا روي عن قتادة مرسلاً ، وذكره السدي وابن زيد وابن جرير كذلك ، واختار أن هذا تفسير هذه الآية ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٣/٥) والبيهقي في السنن (٣٠٤/٧) .

(٢) تفسير الطبري (٦١٩/٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٠٥/٧) .

وقوله : ﴿ فَاِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَشْرِيعٌ بِاِغْتِنٍ ﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين ، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية ، بين أن تردّها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك ، وتطلق سراحها محسناً إليها ، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضارّها بها . وقال ابن عباس : إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتنق الله في ذلك ، أي في الثالثة ، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحبتها ، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً . وعن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة ؟ قال : ﴿ اِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَشْرِيعٌ بِاِغْتِنٍ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَاْخُذُوْا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئًا ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيّقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الصداق أو بيعه ، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها فقد قال تعالى : ﴿ اِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُوْهُ هِيَكَ رَيْبًا ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ، ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطهاها ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَاْخُذُوْا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئًا اِلَّا اَنْ يَخَافَا اَلَّا يَفِيْسَا حُدُوْدَ اللّٰهِ اِنْ خِفْتُمْ اَلَّا يَفِيْسَا حُدُوْدَ اللّٰهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِدِيْنٍ ﴾ الآية . فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه ، فقد روي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : « أَيْمَنَ امْرَأَةٌ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ ؛ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ » (٢) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « الْمُخْتَلَعَاتُ وَالْمُتَرَعَّاتُ هُنَّ الْمُتَافِقَاتُ » (٣) .
وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَسْأَلُ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ فِي غَيْرِ كُنْهٍ فَتَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » (٤) .

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَاْخُذُوْا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئًا اِلَّا اَنْ يَخَافَا اَلَّا يَفِيْسَا حُدُوْدَ اللّٰهِ ﴾ قالوا : فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل ، والأصل عدمه . ومن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاؤوس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور ، حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئاً وهو مضارّ لها وجب رده إليها ، وكان المطلق رجعيّاً ، قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه ، وذهب الشافعي ﷺ إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة . وقد ذكر ابن جرير ﷺ أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول .

وعن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضرها فانكسر بعضها ، فأنت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكه إليه ، فدعا رسول الله ﷺ ثابتاً فقال : « خُذْ بَعْضَ مَالِهَا وَفَارِقْهَا » قال : ويصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » قال : إني أصدقتها حديثين فهما بيدها ، فقال النبي ﷺ : « خُذْهُمَا وَفَارِقْهُمَا » ففعل (٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٧/٥) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٥٤) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٦٢١/٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٦/٧) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٢٨) .

وعن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله : ما أعيب عليه في خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ » قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ : « أَقْبِلِ الْحَدِيثَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً » ^(١) . والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم ، وذكر عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً ، فقال لها النبي ﷺ : « تَرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ ؟ » قالت : نعم ، فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد ^(٢) .

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفادها بأكثر مما أعطاهما ؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك ؛ لعموم قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَقْدَتَا بِذِهِ ﴾ فغن كثير مولى ابن سمرة أن عمرأتي بامرأة ناشز ، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ، ثم دعا بها فقال : كيف وجدت ، فقالت : ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني ، فقال لزوجها : اخلعها ولو من قرطها . وعن عبد الله ابن محمد بن عقيل أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته قالت : كان لي زوج يقل علي الخير إذا حضرني ، ويحرمني إذا غاب عني ، قالت : فكانت مني زلة يوماً فقلت له : أختلع منك بكل شيء أملكه ، قال : نعم ، قالت : ففعلت ، قالت : فخاصم عمي معاذ بن عفراء ، إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع ، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه ، أو قالت : ما دون عقاص الرأس ، ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها . وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير ، وقال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها ، جاز أن يأخذ منها ما أعطاهما ، ولا يجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز في القضاء . وإن كان الإضرار من جهته لم يجر أن يأخذ منها شيئاً ، فإن أخذ جاز في القضاء . وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاهما . وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب ، وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاهما . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها . قلت : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية ابن عباس في قصة ثابت بن قيس فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد . وبما روي عن عطاء ، أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما ، يعني المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَقْدَتَا بِذِهِ ﴾ أي من الذي أعطاهما لتقدم قوله : ﴿ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْنَكُم مِّنْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُعْطِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُعْطِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَقْدَتَا بِذِهِ ﴾ أي من ذلك .

فصل : قال الشافعي : اختلف أصحابنا في الخلع ، في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد ، يتزوجها إن شاء ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَلْطَلَقَ مَرَّتَيْنِ ﴾ قرأ إلى ﴿ أَنْ يَرَاجَعَا ﴾ قال الشافعي : كل شيء أجازة المال فليس بطلاق ، وروى غير الشافعي عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله فقال : رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : نعم ليس الخلع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤) ، وابن ماجه في السنن (٢٠٥٧) والدارقطني في السنن (٢٠٥٠/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٧٤) .

بطلاق ، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها ، والخلع فيما بين ذلك ، فليس الخلع بشيء ثم قرأ : ﴿الطَّلَاقُ مَرْثَاةٌ فَلْيَسَّكَتُ بِمَرْثَاةٍ أَوْ تَشْرِيحٍ يَبْرِئُهُ﴾ وقرأ : ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جِلْدَ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنه من أن الخلع ليس بطلاق ، وإنما هو فسخ ، وهو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وابن عمر ، وهو قول طاووس وعكرمة ، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وهو ظاهر الآية الكريمة . والقول الثاني في الخلع : إنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك . قال مالك : عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسلميين عن أم بكر الأسلمية ، أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان ابن عفان في ذلك فقال : تطليقة إلا أن تكون سميت شيئا ، فهو ما سميت . وقد روي نحوه عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء ، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتي والشافعي في الجديد ، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالعة بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة ، وإن نوى ثلاثا فثلاث . وللشافعي قول آخر في الخلع ، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق ، وعري عن البينة ، فليس هو بشيء بالكلية .

مسألة : وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض . وروي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والليث بن سعد وغيرهم ، قال الترمذي : وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات . والقول الثاني : أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها . وعن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها ، فأتى عمها عثمان رضي الله عنه فقال : تعتد بحيضة ، قال : وكان ابن عمر يقول : تعتد ثلاث حيض ، حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتي به ويقول : عثمان خيرنا وأعلمنا . واحتجوا لذلك بما رواه ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة .

عن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال : قلت لها : حديثني حديثك قالت : اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان ، فسألت عثمان ماذا علي من العدة ؟ قال : لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيض حيضة ، قالت : وإنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالية ، وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه .

مسألة : وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء ؛ لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء . وروي عن عبد الله بن أبي أوفى ومأهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا : إن رد إليها الذي أعطاهما جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها ، وهو اختيار أبي ثور رضي الله عنه . وقال سفيان الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق ؛ فهو فرقة ولا سبيل له عليها . وإن كان يسمى طلاقا ؛ فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة . وبه يقول داود بن علي الظاهري ، واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها في العدة ، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك ، كما لا يجوز لغيره ، وهو قول شاذ مردود .

مسألة : وهل له أن يقع عليها طلاقاً آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : ليس له ذلك ؛ لأنها قد ملكت نفسها ، وبانت منه . وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور .
والثاني : قال مالك : إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع ، وإن سكوت بينهما لم يقع . قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه .

والثالث : أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاووس وإبراهيم والزهري ، وروي ذلك عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء . قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما .

وقوله : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها ، كما ثبت في الحديث الصحيح : « إِنْ اللَّهَ حَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّتُوهَا ، وَحَرَّمَ مَحَارِمَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا » ^(١) . وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جميع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام ، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم ، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله : ﴿ أَلْطَلَّقُ مَرْثَاتٍ ﴾ ثم قال : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ويقولون ذلك بحديث محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ثم قال : « أُلِيعَبَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَنَا يَتَنَ أَظْهَرِكُمْ » حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ألا أقتله ؟ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلاقاً ثالثة ، بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ، ولو في ملك اليمين لم تحل للأول ؛ لأنه ليس بزواج ، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول . واشتهر بين كثير من الفقهاء أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر ، وعن ابن عمر عن النبي ﷺ في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع إلى الأول ؟ قال : « لا ؛ حَتَّى تَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا » ^(٣) .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها ، فتزوج رجلاً آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أتحل لزوجها الأول قال : « لا ، حَتَّى يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا » ^(٤) . وعن عائشة أيضاً قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت : إن رفاعة طلقني البتة ، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني ، وإنما عنده مثل الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها ، وخالد بن سعيد ابن العاص بالباب لم يؤذن له ، فقال : يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١١٥/٤) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٣٤٠١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٦) والنسائي في السنن (١٤٨/٦) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (١٤٦/٦) وأحمد في مسنده (٦٢/٢) .

فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم ، فقال رسول الله ﷺ : « كَأَنَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ ، لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَتَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ » ^(١) .

فصل : والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبا في المرأة قاصدا لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج ، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطأ مباحا ، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء ، أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف ، لم تحل للأول بهذا الوطء ، وكذا لو كان الزوج الثاني ذميا لم تحل للمسلم بنكاحه ؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده . واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر ، أن ينزل الزوج الثاني ، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام : « حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَتَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ » ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضا ، وليس المراد بالعسيلة المنى ؛ لما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا إِنَّ الْعُسَيْلَةَ الْجِمَاعُ » ^(٢) فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول ، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه ، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة .

ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ

عن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والمحلل والمحلل له ، وآكل الربا وموكله ^(٣) .

عن علي قال : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ، وموكله ، وشاهديه ، وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانع الصدقة ، والمحلل والمحلل له ^(٤) ، وكان ينهى عن النوح .

وعن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال : « لَا ، إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ ، لَا نِكَاحَ دُلْسَةٍ وَلَا اسْتِهْزَاءٍ بِكِتَابِ اللَّهِ ، ثُمَّ يَذُوقُ عُسَيْلَتَهَا » ^(٥) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف . قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ يَبَيِّنُهَا ﴾ أي يوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ . وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين ، وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ، ثم طلقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، أن يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث ، فلا أنه يهدم ما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٢/٦) والدارقطني في السنن (٢٥٢/٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٧٥٩ ، ٢٧٨٣) .

(٤) أخرجه مسلم في المساقاة (١٠٥) والنسائي في السنن (١٤٧/٨) وأحمد في مسنده (٨٣/١) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٩٩/٢) .

دونها بطريق الأولى والأحرى والله أعلم .

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّهِنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا وَادْكُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُمْطَرُ بِهِنَّ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

هذا أمر من الله ﷻ للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة ، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أي يجمعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف ، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ، ويخرجها من منزله بالتالي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة ، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق ، لتطول عليها العدة ، فنهاهم الله عن ذلك ، وتوعدهم عليه فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين فأتاه أبو موسى ، فقال : يا رسول الله أغضبت على الأشعرين ؟ فقال : « يَقُولُ أَحَدُكُمْ : قَدْ طَلَّقْتُ قَدْ رَاجَعْتُ ، لَيْسَ هَذَا طَلَاقُ الْمُشْلِمِينَ ، طَلَّقُوا الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ عِدَّتِهَا » ^(١) . وقال مسروق : هو الذي يطلق في غير كنهه ، ويضار أمرته بطلاقها وارتجاعها ، لتطول عليها العدة . وقال مقاتل بن حيان : هو الرجل يطلق ويقول : كنت لاعباً ، أو يعتق أو ينكح ويقول : كنت لاعباً ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ فالزم الله بذلك . وعن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ فالزمه رسول الله ﷺ الطلاق . وعن عبادة بن الصامت في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ قال : كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل : زوّجتك ابنتي ثم يقول : كنت لاعباً ، ويقول : قد أعتقت ويقول : كنت لاعباً ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنْخِذُوا بِآيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ قَالَهُنَّ لَاعِبًا أَوْ غَيْرَ لَاعِبٍ فَهُنَّ جَائِزَاتٌ عَلَيْهِ ؛ الطَّلَاقُ وَالْعَتَاقُ وَالنِّكَاحُ » ^(٢) ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ جَدُّهُنَّ جَدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جَدٌّ ، النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّوْجَعَةُ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَادْكُرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبيّنات إليكم ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة ﴿ يُمْطَرُ بِهِنَّ ﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذرّون ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية ، وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرْضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠١٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٨٦/١) وابن حجر في المطالب العالية (١٦٥٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١١٨٤) وأبو داود في السنن (٢١٩٤) والحاكم في المستدرک (١٩٧/٢) .

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٩١/٩).

قال رسول الله ﷺ : « لَا يُحْرَمُ مِنَ الرُّضَاعِ إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءُ فِي الثَّدْيِ ، وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ » ^(١) .
والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم ، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين ، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً ، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير ابن العوام وهي امرأة هشام بن عروة قلت : ومعنى قوله : « إِلَّا مَا كَانَ فِي الثَّدْيِ » أي في محال الرضاعة قبل الحولين ، كما جاء في الحديث الذي رواه البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ قال : « إِنَّ أُنْثَى مَاتَ فِي الثَّدْيِ ، إِنَّ لَهُ مُرَضِعًا فِي الْجَنَّةِ » ^(٢) ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام ذلك ؛ لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر ، فقال : « إِنَّ لَهُ مُرَضِعًا » يعني تكمل رضاعه . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُحْرَمُ مِنَ الرُّضَاعِ إِلَّا مَا كَانَ فِي الْحَوْلَيْنِ » ^(٣) قلت : وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ابن عباس مرفوعاً ورواه الدراوردي عن ابن عباس وزاد « وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ » وهذا أصح .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا رَضَاعَ بَعْدَ فَصَالٍ وَلَا يُتِمُّ بَعْدَ اخْتِلَامٍ » ^(٤) والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن عليّ وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور ، وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية ، وعنه أن مدته سنتان وشهران ، وفي رواية وثلاثة أشهر . وقال أبو حنيفة : سنتان وستة أشهر ، وقال زفر بن الهذيل : ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين ، وهذا رواية عن الأوزاعي . قال مالك : ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم ، لأنه قد صار بمنزلة الطعام . وهو رواية عن الأوزاعي . وقد روي عن عمر وعليّ أنهما قالاً : لا رضاع بعد فصال ، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أو لم يفطم ، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك ، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم ، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد ، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساها فترضعه ، وتحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً ، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة ، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ ورأين ذلك من الخصائص ، وهو قول الجمهور ، وحجة الجمهور ، وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَنْظِرُنْ مَنْ إِخْوَانُكَ ، فَإِنَّمَا الرُّضَاعَةُ مِنَ الْجَمَاعَةِ » ^(٥) وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع ، وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَيْتُكُمْ آلِيَّ أَنْزَعَكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَعَلَى الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانٌ وَبِالْأَعْرَابِ ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدن من غير إسراف ولا إقتار ، بحسب قدرته في

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١١٥٢) والبخاري في شرح السنة (٨٤/٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٠/٤) والحاكم في مستدركه (٣٨/٤) والألباني في الضعيفة (٢٢٠) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٤٦٢/٧) ومالك في الموطأ (الرضاع ٤ ، ١٠ ، ١٤) والدارقطني في السنن (١٧٤/٤) .

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٣١٩/٧) والطبراني في الصغير (٦٨/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٠٢) ومسلم في الرضاع (٣٢) والنسائي في السنن (١٠٢/٦) والدارقطني في السنن (١٥٨/٢) .

يساره وتوسطه وإقتاره ، قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله : ﴿ لَا تُضَاكِرْ وَالِدَةً يُولَدُهَا ﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتريته ، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً ، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك ، كما لا يحل له انتزاعه منها ل مجرد الضرر لها ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُ ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها .

وقوله : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ قيل : في عدم الضرر لقريبه . وقيل : عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدته الطفل ، والقيام بحقوقها ، وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره ، وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية ، والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ، ويرشح ذلك بحديث سمرة مرفوعاً « مَنْ مَلَكَ ذَا رَجِمَ مَحْرَمٌ عَتَقَ عَلَيْهِ » ^(١) وقد ذكر أن الرضاة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله ، وعن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَفَشَاخَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ، ورأيا في ذلك مصلحة له ، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه ، فلا جناح عليهما في ذلك ، فيؤخذ منه أن انفرد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي ، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر . قاله : الثوري وغيره : وهذا فيه احتياط للطفل ، والزام للنظر في أمره ، وهو من رحمة الله بعباده ، حيث حجج على الوالدين في تربية طفلهما ، وأرشدتهما إلى ما يصلحهما ويصلحه .

وقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَضَرُّعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو لعذرله فلا جناح عليهما في بذله ، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجزتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف ، قاله غير واحد . وقوله : ﴿ وَالْقَوْلُ اللَّهِ ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم . ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ، ومستندة في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وأن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة ، فمات عنها ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مراراً في ذلك فقال : أقول فيها برأبي فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأً فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً - وفي لفظ : لها صداق مثلها - لا وكس ولا شطط وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق ، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً - وفي رواية : فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٦٥) وأبو داود في السنن (٣٩٤٩) وأحمد في مسنده (٢٠/٥) والحاكم في المستدرک (٢١٤/٢) .

الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل ، فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿ وَأَزْلَنْتُ الْأَحْمَالِ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تترصد بأبعد الأجلين من الوضع ، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي لولا ما ثبت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته - فلما تелت من نفاسها ، تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر ، قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأثناني بأني قد حللت حين وضعت حملي ، وأمرني بالتزويج إن بدا لي (١) . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعني لما احتج عليه به ، قال : ويصحح ذلك عنه أن أصحابه أفنوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة ، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة ، شهران وخمس ليال على قول الجمهور ؛ لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد ، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة . ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية ؛ ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التي تستوي فيها الخليقة ، وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا لاحتمال اشتغال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجودًا كما جاء في حديث ابن مسعود : « إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْقَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُيَعَثُّ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » (٢) فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر ، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم . وقال الربيع بن أنس : قلت لأبي العالية : لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة ؟ قال : لأنه ينفخ فيه الروح . ومن ههنا ذهب الإمام أحمد في رواية عنه إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا ؛ لأنها صارت فراشًا كالحرائر ، وعن عمرو بن العاص أنه قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا : عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر . وقال طاووس وقتادة : عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصف عدة الحرة ، شهران وخمس ليال . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تعدد بثلاث حيض ، وهو قول علي وابن مسعود . وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه : عدتها حيضة . وبه يقول ابن عمر والشعبي والجمهور . وقال الليث : ولو مات وهي حائض أجزأتها . وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر . وقال الشافعي والجمهور : شهر وثلاثة أحب إليّ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ؛ لما ثبت عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ لَامْرَأَةٍ تَوُفِّيَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تَحْدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، إِلَّا

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (١٨٥٢) ومسلم في الطلاق (٥٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ومسلم في القدر (١) .

عَلَى زَوْجِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» ^(١) . وعن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال : « لا » كل ذلك يقول « لا » مرتين أو ثلاثا ثم قال : « إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَمُكُّ سَنَةً » ^(٢) ، قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ، ولبست شريابها ، ولم تمس طيباً ولا شياً حتى تمر بها سنة ، ثم تخرج فتعطي بكرة فترمي بها ، ثم تؤتي بدابة ، حمار أو شاة أو طير فتقتض به ، فقلما تفتض بشيء إلا مات . ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ الآية ، كما قاله ابن عباس وغيره ، وفي هذا نظر . والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك ، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً ، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً ، وهل يجب في عدة البائن ؟ فيه قولان . ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرّة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية . وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه : لا إحداد على الكافرة ، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك ، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ : « لا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تَحْدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، إِلَّا عَلَى زَوْجِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » قالوا : فجعله تعبدًا ، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري : الصغيرة بها لعدم التكليف ، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها ، ومحل تقرير ذلك في كتب الأحكام والفروع .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ آجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت عدتهن ، ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي على أوليائها ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن . قال ابن عباس : إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها ، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للتزويج ، فذلك المعروف . وقال مجاهد : النكاح الحلال الطيب .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَأْخِذُونَهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَمْرِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّسْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ التعريض أن يقول : إني أريد التزويج ، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف . وعن ابن عباس : هو أن يقول : إني أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن يسر لي امرأة صالحة . هكذا قال غير واحد من السلف والأئمة في التعريض : إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة . وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها ، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٣٤) ومسلم في الطلاق (٥٨) وأبو داود (٢٢٩٩) والنسائي في السنن (١٩٨/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١١٩٧) ومالك في الموطأ (٥٩٧) والبيهقي في السنن (٤٢٨/٧) .

مكتوم ، وقال لها : « فإذا حللت فأذني » ^(١) ، فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه ، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم .
 وقوله : ﴿ أَوْ أَكْتَنَتْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتن . ولهذا قال : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ ﴾ أي في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك . ثم قال : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ يعني الزنى ، واختاره ابن جرير : وقال ابن عباس : لا تقل لها : إني عاشق ، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ونحو هذا . وهو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره . وقال مجاهد : هو قول الرجل للمرأة : لا تفوتي بنفسك ، فإني ناكحك . وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره ، فنهى الله عن ذلك وقدم فيه ، وأحل الخطبة ، والقول بالمعروف . وقال ابن زيد : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ : هو أن يتزوجها في العدة سرا ، فإذا حلت أظهر ذلك ، وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ : يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إني فيك لراغب ونحو ذلك وقال محمد بن سيرين : قلت لعبيدة : ما معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ قال : يقول لوليها : لا تسبقني بها ، يعني لا تزوجها حتى تعلمني .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة . قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وقاتدة والثوري والضحاك وغيرهم : يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها ، فإنه يفرق بينهما ، وهل تحرم عليه أبداً ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه ، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأييد ، واحتج في ذلك بما روي أن عمر رضي الله عنه قال : أيما امرأة نكحت في عدتها ، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها ، فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ، وكان خاطباً من الخطاب . وإن كان دخل بها فرق بينهما ، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ، ثم اعتدت من الآخر ، ثم لم ينكحها أبداً . قالوا : ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بنقيض قصده ، فحرمت عليه على التأييد ، كالمقاتل يحرم الميراث . وقد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك . قال البيهقي : وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد ؛ لقول علي أنها تحل له . قلت : قال : ثم هو منقطع عن عمر ، وقد روى الثوري عن أشعث عن الشعبي عن مسروق ، أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها ، وجعلها يجتمعان .
 وقوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَخَذُّوهُ ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدتهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائذته ، فقال : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوهُنَّ لَكُمْ فَرِيضَةٌ وَمِمَّا يُوعَى عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُ مَا عَمِلْتُمْ قَدْ رُوِيَ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال الحسن البصري : المس

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان في هذا انكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال ابن عباس : متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة . وقال : إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب . وقال الشعبي : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب ، قال : وكان شريح يمتع بخمسائة . ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف ، ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعي في الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة ، وقال في القديم : لا أعرف في المتعة قدرًا إلا أنني أستحسن ثلاثين درهماً .

وقد اختلف العلماء أيضًا هل تجب المتعة لكل مطلقة ، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها : أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْتَمِرِينَ ﴾ وقد كن مفروضاَ لهن ، ومدخولاَ بهن . وهو أحد قولي الشافعي ، ومنهم من جعله الجديد الصحيح .

والقول الثاني : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس ، وإن كانت مفروضاَ لها ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَكَأً جَمِيلًا ﴾ وعن سعيد بن المسيب قال : نسخت هذه الآية التي في الأحزاب ، الآية التي في البقرة ، وقد روي عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالَا : تزوج رسول الله ﷺ أيممة بنت شرحبيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين .

والقول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ، ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة . وإنما المصابة التي لم يفرض لها ، ولم يدخل بها فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها . ومن العلماء من استحباها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَى الْمُؤْتَمِرِينَ الْقَدَرُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ الْقَدَرُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُقْتِرِينَ ﴾ ومن العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقاً . ﴿ فَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضُّهُنَّ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْمُوا أَلَّذِي يَدْرُهُ عُدَّةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفِعْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض ، إذا طلق الزوج قبل الدخول ، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها ، لاسيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم . وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مُجْتَمَعٌ عليه بين العلماء لا خلاف بينهم في ذلك ، فإنه متى كان قد سمي لها

صداقاً ، ثم فارقتها قبل دخوله بها ، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق ، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج ، إن لم يدخل بها ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وبه حكم الخلفاء الراشدون ، لكن قال الشافعي : عن ابن عباس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق لأن الله يقول : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ ، قال الشافعي : بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَتَقَوَّيَا ﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب عليه شيء .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَتَقَوَّيَا ﴾ قال : إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها .

وقوله : ﴿ أَوْ يَتَقَوَّيَا أَلَدَى يَدَيْهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ عن النبي ﷺ قال : « وَلِي عَقْدَةُ النِّكَاحِ الزَّوْجُ » ^(١)

وعن عيسى - يعني ابن عاصم - قال : سمعت شريحاً يقول : سألتني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح ؟ فقلت له : هو ولي المرأة ، فقال علي : لا ، بل هو الزوج ^(٢) . قلت : وهذا هو الجديد من قولي الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه ، والثوري وابن شبرمة والأوزاعي ، واختاره ابن جرير ، ومأخذ هذا القول ، أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج ، فإن بيده عقدها ، وإبرامها ، ونقضها وانهدامها ، وكما أنه لا يجوز أن يهب شيئاً من مال المولية للغير ، فكذلك في الصداق .

قال : والوجه الثاني عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال : ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه ^(٣) ، قال علقمة والزهري وغيرهما : أنه الولي ، وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم ، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه ، فله التصرف فيه بخلاف سائر ماله . وعن عكرمة : أذن الله في العفو وأمر به ، فأمرأة عفت جاز عفوها ، فإن شحت وضنت عفا وليها جاز عفو ، وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت شديدة ، وهو مروى عن شريح ، لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك ، وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله : ﴿ وَأَنْ تَتَقَوَّيَا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : خوطب به الرجال والنساء . وعن ابن عباس قال : أقربهما للتقوى الذي يعفو . وقال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثوري : الفضل ههنا أن تعفو المرأة عن شطرها ، أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنْسَوِ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي الإحسان ، وقال الضحاك وقتادة والسدي : المعروف ، يعني لا تهملوه ، بل استعملوه بينكم .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْزَكَاةِ وَأُتُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ، وحفظ حدودها ، وأدائها في أوقاتها ، فعن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلَاةُ فِي وَقْتِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قلت ثم أي ؟ قال : « بِرِّ الْوَالِدَيْنِ » قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ، ولو استزده لزادني ^(٤) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥١/٧) والدارقطني في السنن (٢٧٩/٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥١/٧) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٥٢/٧) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٢٦) والبيهقي في السنن (٢٣٢/١) وابن خزيمة في صحيحه (٣٢٧) .

وعن أم فروة - وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ - أنها سمعت رسول الله ﷺ ذكر الأعمال فقال : « إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَجُّيلُ الصَّلَاةِ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا » ^(١) . وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى . وقد اختلف السلف والخلف فيها ، أي صلاة هي ؟ .

فقيل : إنها الصبح حكاها مالك في الموطأ بلاغاً عن علي وابن عباس ، وعن أبي رجاء العطاردي قال : صليت خلف ابن عباس الفجر ففقت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين . وعن ابن عباس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة ، ففقت قبل الركوع ، وقال : هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ وعن أبي العالية قال : صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة ، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جانيبي : ما الصلاة الوسطى ؟ قال : هذه الصلاة . وعن جابر بن عبد الله قال : الصلاة الوسطى صلاة الصبح . وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجاً بقوله تعالى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح ، ومنهم من قال : هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر ، وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين ، وترد المغرب ، وقيل : لأنها بين صلاتي ليل جهريتين ، وصلاتي نهار سريتين . وقيل : إنها صلاة الظهر ، عن زهرة بن معبد قال : كنا جلوساً عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال : هي الظهر ، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير ^(٢) . وعن زيد بن ثابت قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها ، فنزلت : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ وقال : إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين ^(٣) ، وعن الزبير بن أنس رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون ، فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى ، فقال : هي العصر ، فقام إليه رجلان منهم فسألاه ، فقال : هي الظهر . ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال : هي الظهر ، وإن النبي ﷺ كان يصلي الظهر بالهجير ، فلا يكون وراءه إلا الصنف والصفان ، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم ، فأنزل الله ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ قال : فقال رسول الله ﷺ : « لَيْتَنِي بَرَّيْتُ رَجُلًا أَوْ لَأَخْرِقَنَّ يَوْمَهُمْ » ^(٤) . وقيل : إنها صلاة العصر قال الترمذي والبخاري رحمهما الله : وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم ، وهو قول جمهور التابعين ، وهو قول أكثر أهل الأثر ، وجمهور الناس . وحكاها عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم . وهو مذهب أحمد بن حنبل ، وهو الصحيح عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد ، واختاره ابن حبيب المالكي رحمهم الله . ذكر الدليل على ذلك ، عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « سَعَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ ، مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيُوتُوهُمْ نَارًا » ^(٥) ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء .

(١) أخرجه الدارقطني في السنن (٢٤٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٣/٥) ، والبيهقي في السنن (٤٣٤/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٤١١) والبخاري في شرح السنن (٢٣٦/٢) (٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٧٩٥)

(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٥٠٢) والنسائي في السنن (٢٦٣/١) وأحمد في مسنده (١٢٢/١)

وعن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » ^(١) وسماها لنا أنها صلاة العصر .

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئا ، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها ، وقوله ﷺ : « مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ » ^(٢) وحديث عن بريدة بن الحصيب عن النبي ﷺ قال : « بَكَّرُوا بِالصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْغَيْمِ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ » ^(٣) وعن أبي نضرة الغفاري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ في واد من أوديتهم يقال له : الحميص صلاة العصر فقال : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ عُرِضَتْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فَضَيَّعُوهَا ، أَلَا وَمَنْ صَلَاةً ضَعُفَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ، أَلَا وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى تَرَوْا الشَّاهِدَ » ^(٤) . وعن أبي يونس مولى عائشة قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفا قالت : إذا بلغت هذه الآية ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فاذني ، فلما بلغت أذنتها فأملت عليّ (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قالت : سمعتها من رسول الله ﷺ ^(٥) . وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة ، فدل ذلك على أنها غيرها . وأجيب عن ذلك بوجوه أحدها : أن هذا إن روي على أنه خبر فحديث علي أصبح وأصرح منه ، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة كما في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْأَنْبِيَاءَ وَلِقَسَّيْنِ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أو تكون لعطف الصفات ، لا لعطف الذوات كقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ .

وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مررت بأخيكَ وصاحبك ، ويكون صاحب هو الأخ نفسه . وأما إن روي على أنه قرآن ، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ، ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؓ في المصحف ، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم ، لا من السبعة ولا من غيرهم ، ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث ، فعن البراء بن عازب قال : نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله ثم نسخها الله ﷻ فَأَنْزَلَ ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فقال له زاهر - رجل كان مع شقيق - : أفهني العصر ؟ قال : قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله ﷻ ^(٦) . فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولعنائها إن كانت الواو دالة على المغايرة ، وإلا فلفظها فقط والله أعلم .

وقيل : إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب ، فعن ابن عباس قال : صلاة الوسطى المغرب ، وحكى هذا القول ابن جرير ، ووجه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية والثنائية أو بأنها وتر المفروضات ، وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٠) وأحمد في مسنده (٧٣/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٤/٢) والنسائي في السنن (٢٣٨/١) والدارمي في السنن (٢٨٠/١) والبيهقي في السنن (٤٤٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٥) وابن ماجه في السنن (٦٩٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٧/٦) والبيهقي في السنن (٤٥٢/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٥) والطبراني في الكبير (١٣١/٥) .

(٦) أخرجه البيهقي في السنن (٤٥٩/١) .

وقيل : إنها العشاء الأخيرة ، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور ، وقيل : هي واحدة من الخمس لا بعينها ، وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر .
وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر ، وإنها لإحدى الكبر ؛ إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقد عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر . وقيل : إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر ، وقيل : بل هي صلاة الجماعة ، وقيل : صلاة الجمعة ، وقيل : صلاة الخوف ، وقيل : بل صلاة عيد الفطر ، وقيل : بل صلاة الأضحى ، وقيل : الوتر ، وقيل : الضحى ، وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ، ولم يقع الإجماع على قول واحد ، بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن . وعن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا ، وشبك بين أصابعه . وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها ، وإنما المدار ومعتك النزاع في الصبح والعصر ، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَمَّؤْا لِلّٰهِ قٰنِتِيْنَ ﴾ أي خاشعين ذليين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها ، ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة ، اعتذر إليه بذلك وقال : « إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشَغْلًا » ^(١) وقال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة : « إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّشْيِيعُ وَالتَّكْبِيرُ وَذِكْرُ اللَّهِ » ^(٢) وعن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَتَوَمَّؤْا لِلّٰهِ قٰنِتِيْنَ ﴾ فأمرنا بالسكوت ^(٣) . وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة ، وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح قال : كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة ، وهو في الصلاة ، فبرد علينا ، قال : فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد علي ، فأخذني ما قرب وما بعد فلما سلم قال : « إِنِّي لَمْ أَرَدْ عَلَيْكَ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُخَدِّثُ مِنْ أَمْرِ مَا يَشَاءُ ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ » ^(٤) وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم ، فهاجر إلى المدينة . وهذه الآية ﴿ وَتَوَمَّؤْا لِلّٰهِ قٰنِتِيْنَ ﴾ مدنية بلا خلاف ، فقال قائلون : إنما أراد زيد بن أرقم بقوله : كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة : الإخبار عن جنس الكلام ، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم . وقال آخرون : إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها ، ويكون ذلك قد أبيض مرتين وحرم مرتين ، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم ، والأول أظهر والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ رِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ لما أمر

(١) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١١٩٩) ومسلم في المساجد (٣٤) وأبو داود في السنن (٩٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٤٤٨/٥) والبيهقي في السنن (٣٦٠/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٩٤٩) والنسائي في السنن (١٨١/١) وأحمد في مسنده (٣٦٨/٤) .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٥/١٠) وأبو عوانة في مسنده (١٣٩/٢) .

تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ، ذكر الحال الذي يشغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل ، وهي حال القتال والتحام الحرب فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أي فصلوا على أي حال رجالاً أو ركباناً ، يعني مستقبلتي القبلة وغير مستقبلتيها ، كما قال مالك عن نافع : أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم ، أو ركباناً مستقبلتي القبلة أو غير مستقبلتيها . قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ ^(١) ، عن ابن عمر قال : فإن كان خوف أشد من ذلك فصلوا راكباً أو قائماً تومئ إيماء . وعن جابر بن عبد الله قال : إذا كانت المسابقة فليومئ برأسه إيماء حيث كان وجهه ، فذلك قوله : ﴿ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ . وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان ، وعن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة ^(٢) . واختار هذا القول ابن جرير . وقال البخاري : (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو) وقال الأوزاعي : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء ، كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدروا على الإيماء ؛ أخرروا الصلاة حتى ينكشف القتال ، ويأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدروا ؛ صلوا ركعة وسجدة ، فإن لم يقدروا ؛ لا يجزيهم التكبير ، ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول . وقال أنس بن مالك : حضرت مناهضة (حصن تستر) عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال ، فلم يقدروا على الصلاة ، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار ، فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا . قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها ^(٣) . ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيرته ﷺ صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس ، لقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة : « لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِظَةَ » فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا ، وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة فلم يعنف واحداً من الفريقين ^(٤) ، وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول ، والجمهور على خلافه ، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء ، ووردت بها الأحاديث لم تكن مشروعة في غزوة الخندق ، وإنما شرعت بعد ذلك ، وقد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيدة وغيره . وأما مكحول والأوزاعي والبخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك ؛ لأن هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا ، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر ، وقد اشتهر ولم ينكر والله أعلم . وقوله : ﴿ فَإِذَا أَيْنَأْتُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم ، فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم ، وهذاكم للإيمان ، وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشكر والذكر .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْوَلَدِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ غَرِيبٌ حَكِيمٌ ﴾ وَلَمَّا طَلَقْتَ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٥) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٤٧) .

(٣) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (باب الصلاة عند مناهضة الحصون) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤١١٩) ومسلم في الجهاد (٦٩) والبيهقي في السنن (١١٩/١٠) .

عَلَى الْمَثُورِ ﴿٣٦﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ .

قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتي قبلها وهي قوله : ﴿ يَرْيَئِنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا ابن أخي لا أعير شيئاً منه من مكانه ^(١) . ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يومهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقفي ، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها ، فأثبتها حيث وجدتها . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنائها في الدار سنة ، فنسختها آية الموارث فجعل لها الثمن ، أو الربع مما ترك الزوج . ثم قال : وروي عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم أنها منسوخة . وروي عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ، ثم أنزل الله بعده : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْيَئِنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ فهذه عدة المتوفى عنها زوجها ، إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها . وقال : ﴿ وَلَهُنَّ الْرِجْلُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة . قلت : وروي عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث . وعن مجاهد ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ قال : كانت هذه للمعتدة ، تعدد عند أهل زوجها واجب ، فأنزل الله ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ﴾ قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية ، إن شاءت سكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت ، وهو قول الله : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالعدة كما هي واجب عليها . قال ابن عباس : نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها ، فتعدت حيث شاءت ، وهو قول الله تعالى : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ قال عطاء : إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها ، وإن شاءت خرجت لقول الله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ ﴾ قال عطاء . ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعدت حيث شاءت . ولا سكنى لها ^(٢) ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذي عول عليه مجاهد ، وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور ، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر ، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاية بالزوجات أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية ، وقيل : إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية ، وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية ، واختارها ابن جرير ، ولا يمتنع من ذلك لقوله : ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر ، أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فإنهن لا يمتنع من ذلك لقوله : ﴿ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ﴾ وهذا القول له اتجاه ، وفي

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٤٤) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٦) .

اللفظ مساعدة له ، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية ، وردّه آخرون منهم الشيخ أبو عمر ابن عبد البر . وقول عطاء ومن تابعه : على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم ، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركه الميت ، فهذا محل خلاف بين الأئمة ، وهما قولان للشافعي رحمته الله . وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما روي أن الفريضة بنت مالك بن سنان ، وهي أخت أبي سعيد الخدري رحمته الله جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا ، حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه ، قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » قالت : فانصرفت حتى إذا كانت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمري فنوديت له ، فقال : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي فقال : « امكثي في بَيْتِكَ حَتَّى يَتَلَعَّ الْكِتَابُ أَجَلَهُ » قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسلاني عن ذلك فأخبرته فتابعه وقضى به ^(١) .

وقوله : ﴿ وَالْمُطَلَّاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْقَرِ ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت ، وإن شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَالْمُطَلَّاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُنْقَرِ ﴾ وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة ، سواء كانت مفوضة ، أو مفروضا لها ، أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولا بها ، وهو قول عن الشافعي رحمته الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير ، وغيره من السلف ، واختاره ابن جرير ، ومن لم يوجبها مطلقا يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرُبُوهُنَّ لِهِنَّ قَرْيَةٌ مِّنْ قَرْيَةٍ أَوْ مَتَعْتُمُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْدَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم ، فلا تخصيص على المشهور المنصور والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أي في إحلاله وتحريمه ، وفروضة وحدوده ، فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضحه وفسره ، ولم يتركه مجملا في وقت احتياجكم إليه ﴿ لَمَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تفهمون وتتدبرون .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ وَتَلَاوُا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، وعنه : كانوا ثمانية آلاف ، وقال أبو صالح : تسعة آلاف ، وقال عن ابن عباس : أربعون ألفا ، وقال وهب بن منبه : كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وعن ابن عباس قال : كانوا أهل قرية يقال لها : ذاوردان . وقال سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذرعات . وعن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا لبعض حاجته

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٤٣٤/٧) والدارمي في السنن (١٦٨/٢) وابن حبان في صحيحه (١٣٣٢) .

فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تُقَدِّمُوا عَلَيْهِ » فحمد الله عمر ثم انصرف ^(١) . وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ : « إِنَّ هَذَا السَّقَمَ عَذِبٌ بِهِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا » قال : فرجع عمر من الشام ^(٢) . وقوله : ﴿ وَفَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ يُمْسِكَ عَلَيْكُمْ كَفًّا ﴾ أي كما أن الحذر لا يغني عن القدر ، وكذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم ، والرزق المقسوم ، مقدر مقنن ، لا يزداد فيه ولا ينقص منه . وروينا عن أمير الجيوش ، ومقدم العساكر ، وحامي حوزة الإسلام ، وسيف الله المسلول على أعدائه أبي سليمان خالد بن الوليد ؓ أنه قال وهو في سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء . يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلًا في الحرب ، ويتأسف على ذلك ، ويتألم أن يموت على فراشه .

وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع ، وفي حديث النزول أنه يقول تعالى : « مَنْ يُقْرِضْ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظُلُومٍ » ^(٣) . وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله وإن الله ﷻ يريد منا القرض ؟ قال : « نَعَمْ يَا أَبَا الدُّحْدَاحِ » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي ﷻ حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي ﷻ ^(٤) . وقوله : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ روى عمر وغيره من السلف هو النفقة في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، وقيل : هو التسييح والتعديس . وقوله : ﴿ فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ عن أبي عثمان النهدي قال : لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فقدم قبلي حاجًا ، قال : وقدمت بعده ، فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الْحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فما سمعت هذا الحديث ، قال : فتحملت أريد أن ألحقه ، فوجدته قد انطلق حاجًا ، فانطلقت إلى الحج أن ألقاه في هذا الحديث ، فلقيته لهذا فقلت : يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأترون عنك ؟ قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول : إن الله ﷻ يضاعف الحسنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ ، قال : يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ويقول : ﴿ فَمَا مَنَعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ الْحَسَنَةَ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ » ^(٥) . وعن

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٠٠) والبيهقي في السنن (٣٧٦/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٣/١) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢/٣) .

(٤) أخرجه البزار في مسنده (٩٤٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٤٤/٣) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) .

ابن عمر قال : لما نزلت ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْهِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفًا ﴾ إلى آخرها فقال رسول الله ﷺ : « رَبِّ زِدْ أَمْثَلِي » فنزلت : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ قَالَ : « رَبِّ زِدْ أَمْثَلِي » فنزلت ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

قال قتادة : هذا النبي هو يوشع بن نون . وقال ابن جرير : يعني ابن أفرام بن يوسف بن يعقوب ، وهذا القول بعيد ؛ لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل ، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به في القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم . وقال السدي : هو شمعون . وقال مجاهد : هو شمويل عليه السلام . وهو شمويل بن بالي بن علقمة بن ترخام بن اليهد بن بهرض بن علقمة بن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبي ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام . وقال وهب بن منبه وغيره : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وقيمهم على منهج التوراة ، إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسرُوا خلقًا كثيرًا ، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة ، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان ، وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ، فلم يزل بهم تهاديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب ، وأخذ التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلاها وقد قتل ، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًا لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله ﷻ أن يرزقها غلامًا ، فسمع الله لها ووهبها غلامًا فسمته شمويل ، أي سمع الله دعائي ، ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه ، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم ، وكان الملك أيضًا قد باد فيهم ، فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم ، والله عليهم بهم (٢) .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٢٩) والهيثم في مجمع الزوائد (١١٢/٣) .

(٢) هذا الأثر لم يرد به الكتاب أو السنة وأغلب الظن أنه من آثار بني إسرائيل .

يُؤْتِي مَلِكُكُمْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ .

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم ، فعين لهم طالوت ، وكان رجلاً من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ؛ لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن هذا من ذلك السبط ، فلهذا قالوا : ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿ وَخُذْ حَقَّ إِلَٰكِ مِنَّةً وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك ، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء ، وقيل دباغاً ، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة ، وقول معروف ، ثم قد أجابهم النبي قائلًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اختاره لكم من نبيكم ، والله أعلم به منكم ، يقول : لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي ، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَلْوَمِهِ وَالْجَسَدِ ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم ، وأنبل وأشكل منكم ، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها ، أي أتم علماً وقامة منكم ، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه ، ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُكُمْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُكُمْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه ، وحكمته ، ورأفته بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي هو واسع الفضل ، يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم ، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : معناه فيه وقار وجلالة . وقال قتادة : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ أي وقار . وقال الربيع : رحمة . وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه .

وقوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ عن ابن عباس قال : عصاه ورضاض الألواح . وقال أبو صالح : يعني عصا موسى وعصا هارون ، ولوحين من التوراة والمن . وقال عطية ابن سعد : عصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ورضاض الألواح .

وقوله : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ، وقال السدي : أصبح التابوت في دار طالوت فأمنوا بنبوة شمعون ، وأطاعوا طالوت . وقال الثوري عن بعض أشياخه : جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة ، وقيل : على بقرتين . وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا ، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلتهم تحت صنمهم الكبير ، فأصبح التابوت على رأس الصنم ، فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك ، فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيداً ، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به ، فأخرجوا التابوت من بلدهم ، فوضعوه في بعض القرى ، فأصاب أهلها داء في رقابهم ، فأمرتهم جارية

من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء ، فحملوه على بقرتين ، فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات ، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا ، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه ، فقيل : إنه تسلمه داود عليه السلام ، وإنه لما قام إليهما خجل من فرحه بذلك ، وقيل : شابان منهم ، فالله أعلم ، وقيل : كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها : أزوده .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم ﴾ أي على صدقي فيما جئتمكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي بالله واليوم الآخر .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فَتْنَةٍ فَلَئْسَ إِلَّا بِاللَّهِ يَإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ أي مختبركم بنهر . قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي فلا يصحبنى اليوم في هذا الوجه ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي فلا بأس عليه قال الله تعالى : ﴿ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روي ومن شرب منه لم يرو . وقال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً ، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، وتبقى معه أربعة آلاف ، وعن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة ، وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جازه معه إلا مؤمن ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم ، فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عُدَد . ولهذا قالوا : ﴿ كَمِ مِّنْ فَتْنَةٍ فَلَئْسَ إِلَّا بِاللَّهِ يَإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا مَكْرًا وَكَتَبْتَ أَدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ فَهَرَمُومُهُمْ يَإِذْنِ اللَّهِ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

أي لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت ، لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا مَكْرًا ﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ وَكَتَبْتَ أَدَامَنَا ﴾ أي في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ﴿ وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَهَرَمُومُهُمْ يَإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده رماه به ، فأصابه فقتله ، وكان طالوت

قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره فوفى له ، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ الذي كان بيد طالوت عليه السلام ﴿ وَالْمِكْمَةَ ﴾ أي النبوة بعد شمويل عليه السلام ﴿ وَعَلَّمَهُ سِمًا يَشَاءُ ﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به عليه السلام ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجعه داود ، لهلكوا . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ بِصَلَاحِ الرَّجُلِ الْمُشْلِمِ وَلَذَلِكَ وَوَلَدَ وَلَدِيهِ وَأَهْلَ دُونِيَّتِهِ وَدُونَاتِ حَوْلِهِ ، وَلَا يَزَالُونَ فِي حِفْظِ اللَّهِ ﷻ مَا دَامَ فِيهِمْ » ^(١) . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « الْأَبْدَالُ فِي أُمْنِي ثَلَاثُونَ ، بِهِمْ تُزَقُّونَ ، وَبِهِمْ تُنْمَطَّرُونَ ، وَبِهِمْ تُنْصَرَّوْنَ » ^(٢) قال قتادة : إني لأرجو أن يكون الحسن منهم .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي ذو من عليهم ورحمة بهم ، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا ، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم . ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض وقال : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ يعني موسى ومحمدًا ﷺ ، وكذلك آدم ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ .

فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فطمم بها وجه اليهودي فقال : أي خبيث ؟ وعلى محمد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ فاشتكى على المسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تُفْضِلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ النَّاسَ يُضْعَفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ ، فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَفَةِ الطُّورِ ؟ فَلَا تُفْضِلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ » ^(٣) فالجواب من وجوه أحدها : أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل ، وفي هذا نظر ، الثاني : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع ، الثالث : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند الخصام والتشاجر ، الرابع : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية ، الخامس :

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢٠/١) والجامع الصغير (ص : ١١٢) ونسبه للطبراني في الكبير .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٢/٥) والألباني في الضعيفة (٩٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١١) ومسلم في الفضائل (١٥٩) .

ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله ﷻ ، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به ، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحَلُّوا ﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ . ﴿ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا مِمَّا رَفَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكمهم ، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ، ولا يفادى بمال ولو بذله ، ولو جاء بملء الأرض ذهباً ، ولا تنفعه خلة أحد يعني صداقته ، بل نسابته ﴿ وَلَا شَفْعَةٌ ﴾ أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين . وقوله : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ مبتدأ محصور في خبره ، أي ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً . وعن عطاء بن دينار قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَمْ يَلَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله . عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله : « أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي ، قال : « لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المنذر ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفِيعَتَيْنِ تَقْدُسُ الْمَلَكُ عِنْدَ سَائِ الْعَرْشِ » (١) .

عن عمر بن عطاء أو مولى ابن الأسقع رجل صدق ، عن الأسقع البكري أنه سمعه يقول : إن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين فسأله إنسان : أي آية في القرآن أعظم ؟ فقال النبي ﷺ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ حتى انقضت الآية (٢) .

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا ، قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقممت فصليت ثم جلست ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله أو للإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » قال : قلت : يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خَيْرٌ مَوْضُوعٍ ، مَنْ شَاءَ أَقَلَّ ، وَمَنْ شَاءَ أَكْثَرَ » قال : قلت : يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فَوْضٌ مَجْزِي وَعِنْدَ اللَّهِ مَزِيدٌ » قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أَضْعَافٌ مُضَاعَفَةٌ » قلت :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٠٣) والطبراني في الكبير (١٤٣/٩) والمنذري في الترغيب (٤١٩/١) .

يا رسول الله فأيهما أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، أَوْسَرٌ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدَمُ » قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : « نَعَمْ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ » قلت : يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال : « ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَةُ عَشَرَ جَمًّا غَيْرًا » وقال مرة : « وَخَمْسَةَ عَشَرَ » قلت : يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيَةُ الْكُرْسِيِّ » ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلْحَى الْقَيُّومُ ﴾^(١)

وعن أبي هريرة قال : وكنتني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذه وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإنني محتاج وعلي عيالي ولي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال النبي ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قال : قلت : يا رسول الله شكّا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله ، قال : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُوذُ » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : « إِنَّهُ سَيَعُوذُ » فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام فأخذه ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإنني محتاج وعلي عيال لا أعود ، فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قلت : يا رسول الله شكّا حاجة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله قال : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُوذُ » فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذه ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود ، فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : وما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلْحَى الْقَيُّومُ ﴾ حتى تختتم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قلت : يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله ، قال : « مَا هِيَ ؟ » قال لي : إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلْحَى الْقَيُّومُ ﴾ وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تَخَاطَبُ مِنْ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ » قلت : لا ، قال : « ذَلِكَ شَيْطَانٌ »^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس ، فلقية رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني ؟ فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان ، فصارعه فصربه ، فقال : إني أراك ضئيلاً شخيئاً كأن ذراعيك ذارعا كلب ، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم ، أم أنت من بينهم ؟ فقال : إني بينهم لضليع ، فعاودني ، فصارعه فصربه الإنسي ، فقال : تقرأ آية الكرسي فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خبيخ كخبيخ الحمار ، فقبل لابن مسعود : أهو عمر ؟ فقال : من عسى أن يكون إلا عمر . قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم ، والخبيخ بالخاء المعجمة ، ويقال بالخاء المهملة الضراط . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وَسَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، وَفِيهَا آيَةُ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ : آيَةُ الْكُرْسِيِّ »^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٨٠) وأحمد في مسنده (٤٢٣/٥) والبيهقي في السنن (١٩٣/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٧٨) والبيهقي في مجمع الزوائد (١٩٥/٧) .

وعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ، و ﴿ اَللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ : « إِنَّ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ » ^(١) .
وعن أبي أمامة يرفعه قال : « اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي ثَلَاثِ : سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطِه » وقال هشام : وهو ابن عمار خطيب دمشق : أما البقرة ف ﴿ اَللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفي آل عمران ﴿ اَللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وفي طه : ﴿ وَنَعَتِ الْوُجُوهَ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ ^(٢) .
وقد ورد في فضلها أحاديث أخر تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدھا .

وهذه الآية مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عَشْرٍ جَمَلٍ مُشْتَمِلَةٍ : فقوله : ﴿ اَللّٰهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أي الحي في نفسه ، الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره . وكان عمر يقرأ القيام ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره ، وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا زهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ ﴾ أي لا تغلبه سنة ، وهي الوسن والنعاس ، ولهذا قال ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ لأنه أقوى من السنة ، وعن أبي موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنُوبُ لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُزِفُّ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، حِجَابُهُ الثُّورُ أَوْ الثَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَجَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » ^(٣) .
وقوله : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده ، وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه .

وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه ﷻ ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة « أتى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْبَرُ سَاجِدًا ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : ازْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعُ ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ ، قال : فَيُحْدِثُ لِي حَدًّا فَأَذِلُّهُمْ الْجَنَّةَ » ^(٤) .
وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء ، إلا بما أعلمه الله ﷻ وأطلعهم عليه . ويحتمل أن يكون المراد ، لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته ، إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ .

وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ عن ابن عباس قال : علمه . وقال ابن جرير : الكرسي موضع

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦١/٦) والترمذي في السنن (٣٤٧٨) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٠٥/١) والطبراني في الكبير (٢١٥/٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) وابن ماجه في السنن (١٩٥) وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤) .

(٤) ذكره السيوطي في جمع الجوامع (١) .

القدمين . وعن ابن عباس : لو أن السموات السبع ، والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة . وعن أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكَرْسِيِّ إِلَّا كَذَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي تَرَسٍ »^(١) . قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا الْكَرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْفَيْتٍ يَتَنَ ظَهْرَانِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ »^(٢) . وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين ، أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن ، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع ، وهو الفلك الأثير ، ويقال له الأطلس ، وقد رد ذلك عليهم آخرون ، وروي عن الحسن البصري ، أنه كان يقول : الكرسي هو العرش ، والصحيح أن الكرسي غير العرش ، والعرش أكبر منه ، كما دللت على ذلك الآثار والأخبار ، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك ، وعندني في صحته نظر والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَتَوَدُّ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يثقله ولا يكثره حفظ السموات والأرض ومن فيهما ، بل ذلك سهل عليه يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، ولا يغيب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة ، وهو الغني الحميد ، الفعّال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه ، فقوله : ﴿ وَهُوَ أَلَمُّ الْغُيُوبِ ﴾ كقوله : ﴿ الْكَبِيرُ الْمُنْتَعَالِ ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ أَرْشُدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورا ، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عائلا . وعن ابن عباس قال : كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزله الله ﷻ : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ أَرْشُدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ وعنه قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : الحصيني كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلا مسلما ، فقال للنبي ﷺ : ألا استكرهما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزله الله فيه ذلك . وعن أسبق قال : كنت في دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب ، فكان يعرض علي الإسلام فأبي فيقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ويقول : يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين ، وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه مخمولة على أهل الكتاب ، ومن دخل في دينهم قبل

النسخ والتبديل ، إذا بذلوا الجزية . وقال آخرون : بل هي منسوخة بآية القتال ، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام ، فإن أبا أحد منهم الدخول فيه ، ولم ينقد له أو يذلل الجزية ؛ قاتل حتى يقتل ، وهذا معنى الإكراه . وفي الصحيح : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ » ^(١) يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق ، والأغلال والقيود والأكبال ، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم ، فيكونون من أهل الجنة ، فأما الحديث الذي رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أُسْلِمَ » قال : إني أجدني كارها قال : « وَإِنْ كُنْتَ كَارِهَا » ^(٢) فإنه ثلاثي صحيح ، ولكن ليس من هذا القبيل ، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه ، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له ، بل هي كارهة ، فقال له : أسلم وإن كنت كارها ، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووجد الله فعبده وحده ، وشهد أن لا إله إلا هو ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي فقد ثبت في أمره ، واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم ، قال عمر رضي الله عنه : إن الحبث السحر ، والطاغوت الشيطان ، وإن الشجاعة والجلين غرائز تكون في الرجال ، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ، ويفر الجبان من أمه ، وإن كرم الرجل دينه ، وحسبه خلقه ، وإن كان فارسياً أو نبطياً . ومعنى قوله في الطاغوت : إنه الشيطان قوي جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

وقوله : ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوى شديدة ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ قال مجاهد : العروة الوثقى يعني الإيمان ، وقال السدي : هو الإسلام ، وقال سعيد بن جبير والضحاك : يعني لا إله إلا الله . وعن أنس بن مالك : القرآن . وعن سالم بن أبي الجعد قال : هو الحب في الله ، والبغض في الله ، وكل هذه الأقوال صحيحة ، ولا تنافي بينها . وقال معاذ بن جبل في قوله : ﴿ لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ دون دخول الجنة . وعن محمد بن قيس بن عبادة قال : كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت معه ، فحدثته ، فلما استأنس قلت له : إن القوم لما دخلت المسجد قالوا : كذا وكذا ، قال : سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لم : إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه : رأيت كأنني في روضة خضراء - قال ابن عون فذكر خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، وفي أعلاه عروة ، فقيل لي : اصعد عليه ، فقلت : لا أستطيع ، فجاءني منصف - قال ابن عون : هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد ، فصعدت حتى أخذت العروة ، فقال : استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ، فأثبت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٩/٣) .

رسول الله ﷺ قصصتها عليه فقال : « أَمَّا الزُّوْضَةُ فَرُوضَةُ الْإِسْلَامِ ، وَأَمَّا الْعَمُودُ فَعَمُودُ الْإِسْلَامِ ، وَأَمَّا الْغُرُوءُ فَهِيَ الْغُرُوءُ الْوُثْقَى ، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ » قال : وهو عبد الله بن سلام ^(١) .

﴿ اللَّهُ وَبِئْسَ الَّذِيكَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلَآءُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب ، إلى نور الحق الواضح الجملي المبين السهل المنير . وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان ، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ، ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ؛ لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة ، كما قال : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق ، وانتشار الباطل ، وتفرده وتشعبه .

عن أيوب بن خالد قال : يبعث أهل الأهواء - أو قال - أهل الفتن ، فمن كان هواه الإيمان كانت فتنه بيضاء مضيئة ، ومن كان هواه الكفر كانت فتنه سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ اللَّهُ وَبِئْسَ الَّذِيكَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلَآءُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَّ أَلَّذِى يُبْعِثُ قَالَ أَنَا أُخْبِى . وَأُئَتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، ويقال : نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، قال مجاهد : وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالؤمنان سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران نمروذ ويختصر . ومعنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي بقلبك يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أي وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملكه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِ ﴾ وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة ، إلا تجرته وطول مدته في الملك ، وذلك أنه يقال : إنه مكث أربعمئة سنة في ملكه ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلَكَ ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم : ﴿ رَبِّىَّ أَلَّذِى يُبْعِثُ وَيُيَبِّئُ ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ؛ لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال الحاج وهو النمروذ : ﴿ أَنَا أُخْبِى . وَأُئَتُ ﴾ وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وأمر بالعمو عن الآخر ، فلا يقتل ، فذلك معنى

الإحياء والإماتة . والظاهر ، والله أعلم أنه ما أراد هذا ؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ، ولا في معناه ؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ، كما اقتدى به فرعون في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالْحَقِّ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي ، وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته ، وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما ادعيت ، فأنت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام ، بهت أي أحرص فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي لا يلهيهم حجة ولا برهاناً ، بل حجبتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين ، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني ، انتقل من دليل إلى أوضح منه ، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه وليس كما قالوا ، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ، ويبين بطلان ما ادعاه غمروذ في الأول والثاني والله الحمد والمنة . وقد ذكر السدي ، أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وغمروذ بعد خروج إبراهيم من النار ، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم ، فجرت بينهما هذه المناظرة .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَازِكَ وَرَجَعْتَ إِلَى الْعِلَاقِ وَانْظُرْ إِلَى الْوِطَاقِ كَيْفَ تَنْشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

اختلفوا في هذا المار من هو ؟ فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال : هو عزيز ، وهذا القول هو المشهور . وقال عبد الله بن عبيد : هو إرميا بن حلقيا ، وقال وهب بن منبه : هو اسم الخضر عليه السلام . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بني إسرائيل ^(١) ، وأما القرية ، فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أي ليس فيها أحد ، من قولهم : خوت الدار تخوي خوياً .

وقوله : ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطة سقفوها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ قال : وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله ﷻ بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه ، فلما استقل سوياً ﴿ قَالَ ﴾ الله له أي بواسطة الملك : ﴿ كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال : وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ، فقال : ﴿ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ وذلك أنه كان معه

(١) كل ما قيل عن هذا الرجل لم يثبت والمرجح أنه من أخبار بني إسرائيل .

فيما ذكر عنب ، وتين ، وعصير ، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أتن ، ولا العنب نقص ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ جَمَادِكَ ﴾ أي كيف يحييه الله ﷻ وأنت تنظر ﴿ وَلَنْتَمَنَّكَ ءَايَةُ النَّاسِ ﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ الظَّأِرِ كَيْفَ تُنْشِرُهُمَا ﴾ أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض . وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ كَيْفَ تُنْشِرُهُمَا ﴾ بالزاي ، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرأ ﴿ تُنْشِرُهُمَا ﴾ أي نحيتها ^(١) قاله مجاهد : ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهُمَا لَحْمًا ﴾ وقال السدي وغيره : تفرقت عظام حماره حوله يمينا ويساراً ، فنظر إليها وهي تلوح من ياضها ، فبعث الله ريحاً ، فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحماً ، وعصياً ، وعروفاً ، وجلدًا ، وبعث الله ملكاً ، فنفع في منخري الحمار ، فنهق بإذن الله ﷻ ، وذلك كله بمرأى من العزيز ، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عياناً ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك ، وقرأ آخرون : ﴿ قَالَ أَعْلَمُ ﴾ على أنه أمر له بالعلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُمُنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الظَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَذْنَحَهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . ذكروا لسؤال إبراهيم ﷺ أسباباً منها : أنه لما قال لنمرود : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُمُنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فأما الحديث الذي رواه أبو سلمة قال : قال رسول الله ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ؛ إِذْ قَالَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ، قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » ^(٢) ، فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف .

وقوله : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الظَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي ، وإن كان لا طائل تحت تعيينها ؛ إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن . وقوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أي وقطعهن ، وقال ابن عباس : أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم أمره الله ﷻ أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله ﷻ ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم ﷺ ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿ وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع من شيء ، وما شاء كان بلا ممانع ؛ لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال : ونحن شبية - فقال أحدهما لصاحبه : أي آية في كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة ؟

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون (ننشزها) بالزاي المنقوطة والباقون بالراء (انظر : تقريب النشر من ٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٧) وأحمد في مسنده (٣٤٦/٢) وابن ماجه في السنن (٤٠٢٦) .

فقال عبد الله بن عمرو : قول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ الآية . فقال ابن عباس : أما إن كنت تقول هذا ، فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنحِي الْمَوْتِ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّطَمَئِنَ قَلْبِي ﴾ . ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْكَ سَنَعٌ رَبَّتْ سَنَعٌ سَنَائِلٌ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني في طاعة الله . وقال مكحول : يعني به الإنفاق في الجهاد ، من رباط الخيل ، وإعداد السلاح ، وغير ذلك ، وقال ابن عباس : الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْكَ سَنَعٌ رَبَّتْ سَنَعٌ سَنَائِلٌ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله ﷻ لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف . وعن عياض بن غطيف قال : دخلنا على أبي عبيدة نعوذ من شكوى أصابه بجنبه ، وامرأته تُحَيِّفُهُ قاعدة عند رأسه ، قلنا : كيف بات أبو عبيدة ؟ قالت : والله لقد بات بأجر ، قال أبو عبيدة : ما بت بأجر ، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه ، وقال : لا تسألوني عما قلت ؟ قالوا : ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَسَبْعُمِائَةٍ ، وَمَنْ أَنْفَقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ أَوْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ أَمَاطَ أَذَىٰ فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، وَالصُّومُ جُنَّةٌ مَا لَمْ يَخُوفْهَا ، وَمَنْ ابْتَلَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ ؛ فَهُوَ لَهُ حِطَّةٌ » ^(١) . وعن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقاة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ مَخْطُومَةٍ » ^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهُ جَعَلَ حَسَنَةَ ابْنِ آدَمَ إِلَىٰ عَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَّا الصُّومَ ، وَالصُّومُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ ، وَلِلصَّائِمِ فَوْحَتَانِ ، فَرَحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ ، وَفَرَحَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِخُلُوفِ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ » ^(٣) . وعن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَرْسَلَ بِتَقَىٰ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ ؛ فَلَهُ بِكُلِّ دَرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ دَرْهَمٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَمَنْ عَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَنْفَقَ فِي جِهَةِ ذَلِكَ ؛ فَلَهُ بِكُلِّ دَرْهَمٍ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ دَرْهَمٍ » ثم تلا هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ^(٤) . وقوله ههنا : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٦/١) والبيهقي في السنن (٣٧٤/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) والهيثم في مجمع الزوائد (١٧٩/٣) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٧٦١) والمنذري في الترغيب (٢٥٣/٢) .

فضله واسع كثير أكثر من خلقه ، عليهم بمن يستحق ومن لم يستحق ، سبحانه وبحمده .

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٢٦٢﴾ • قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ عِنْدَ حَلِيمٍ ﴿٢٦٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً تَلَوْنَهَا وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَحْلِلْهُ كَتَلٍ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ .

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات متًّا على من أعطوه ، فلا يمينون به على أحد ، ولا يمينون به لا بقول ولا فعل .

وقوله : ﴿ وَلَا أَدَى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان ، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها ، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ قَوْلُ مَعْرُوفٍ ﴾ أي من كلمة طيبة ، ودعاء لمسلم ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى ﴾ قال ابن فضيل : قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ صَدَقَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَوْلٍ مَغْرُوفٍ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ ﴾ قَوْلُ مَعْرُوفٍ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ عِنْدَ حَلِيمٍ ﴿٢٦٣﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم ، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنّ في الصدقة ، فعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : الْمَنَّاؤُ بِمَا أُعْطِيَ ، وَالْمُسْبِيلُ إِزَارَهُ ، وَالْمُنْتَفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْكَاذِبِ » (١) . عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌ ، وَلَا مَنَّاؤٌ ، وَلَا مُذْمَنٌ خَمَرٌ ، وَلَا مُكَذَّبٌ يَقْدَرُ » (٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنّ والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المنّ والأذى ، ثم قال تعالى : ﴿ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً تَلَوْنَهَا وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَحْلِلْهُ كَتَلٍ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٦٣٢٥) والعجلوني في كشف الخفاء (١٤٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢١٢) ومسلم في الإيمان (١٧١) والترمذي في السنن (١٢١١) وأحمد في مسنده (٤٨٠/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٣/٢) والألباني في الصحيحة (٦٧٣) .

صَفَوَانِ ﴿٢٦٤﴾ وهو جمع صفواته فمنهم من يقول : الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً وهو الصفا ، وهو الصخر الأملس ﴿٢٦٥﴾ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهَا وَابِلٌ ﴿٢٦٦﴾ وهو المطر الشديد ﴿٢٦٧﴾ فَزَكَّاهُ مَكْدَلًا ﴿٢٦٨﴾ أي فرك الوابل ذلك الصفوان صليداً ، أي أملس يابساً ، أي لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولهذا قال : ﴿٢٦٩﴾ لَا يَذَرُوكَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧٠﴾ .

﴿٢٧١﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِئَةً مَرْضَاتٍ اللَّهُ وَتَنَبِّئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْثَلَهَا ضِغْفَرٌ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٧٢﴾ .

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿٢٧٣﴾ وَتَنَبِّئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿٢٧٤﴾ أي وهم متحققون ومثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا في معنى الحديث : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه . قال الشعبي : ﴿٢٧٥﴾ وَتَنَبِّئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴿٢٧٦﴾ أي تصديقاً و يقيناً .

وقوله : ﴿٢٧٧﴾ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ ﴿٢٧٨﴾ أي كمثل بستان بربوة ، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض ، وزاد ابن عباس والضحاك : وتجري فيه الأنهار . قال ابن جرير رحمه الله : وفي الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات ، بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق ، وفتحها وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال : إنها لغة تميم ، وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس ^(١) .

وقوله : ﴿٢٧٩﴾ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴿٢٨٠﴾ وهو المطر الشديد كما تقدم فأتت ﴿٢٨١﴾ أَكْثَلَهَا ﴿٢٨٢﴾ أي ثمرتها ﴿٢٨٣﴾ ضِغْفَرٌ ﴿٢٨٤﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿٢٨٥﴾ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ ﴿٢٨٦﴾ وهو الرذاذ ، وهو اللين من المطر ، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تحمل أبداً ؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وإيّا ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يور أبداً ، بل يتقبله الله ويكثره وينمي كل عامل بحسبه ، ولهذا قال : ﴿٢٨٧﴾ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٨٨﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

﴿٢٨٩﴾ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّتٌ ضَعُفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٩٠﴾ .

عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت : ﴿٢٩١﴾ أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٌ ﴿٢٩٢﴾ ؟ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر ، فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس ﷺ : ضربت مثلاً بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله ^(٢) . وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ، ثم بعد ذلك

(١) قرأ ابن عامر وعاصم (رَبْوَةٍ) بفتح الراء هنا وفي سورة المؤمنون ، والباقون بضمها (انظر : تقريب النشر ص : ٩٨) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٣٨) .

السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إِنَّ الْحَيِّثَ لَا يَتِمُّوهُ الْحَيِّثَ » ^(١) والصحيح القول الأول . وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله : ﴿ يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَفَقُوا مِنْ طَبَعَتِ مَا كَسَبَتْهُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيِّثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ الآية قال : نزلت في الأنصار ، كان الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على جبل بين الأسطواناتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز ، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيِّثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ .

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لونين من التمر الجعور ، والحبيق ، وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها في الصدقة ، فنزلت ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيِّثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ ^(٢) . وعن عبد الله بن مغفل في هذه الآية ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيِّثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ قال : كسب المسلم لا يكون خبيثاً ، ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه . وعن عائشة قالت : أتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بضب فلم يأكله ولم ينه عنه ، قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين قال : « لَا تُطْعِمُوهُمْ بِمَاءٍ لَا تَأْكُلُونَ » فقلت : يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال : « لَا تُطْعِمُوهُمْ بِمَاءٍ لَا تَأْكُلُونَ » ^(٣) وعن البراء رضي الله عنه ﴿ وَلَسْتُمْ بِتَاجِيزٍ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ ﴾ يقول : لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه ؟ . وقال ابن عباس : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذه بحساب الجيد حتى تنقصوه . قال : فذلك قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تُنْفِقُوا فِيهِ ﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم ، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه ؟

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها ، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير ، وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه ، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم جواد ، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، من يقرض غير عديم ولا ظلوم ، وهو الحميد أي الحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمُةً يَأْتِيَنَّ آدَمَ ، وَلِلْمَلِكِ لَمُةً ، فَأَمَّا لَمُةُ الشَّيْطَانِ : فَإِبَاعَةُ الشَّرِّ ، وَتَكْذِيبُ الْحَقِّ ، وَأَمَّا لَمُةُ الْمَلِكِ : فَإِبَاعَةُ الْخَيْرِ وَتَصْديقُ الْحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فَلْيَتَوَكَّلْ مِنَ الشَّيْطَانِ » ثم قرأ ﴿ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ الآية ^(٤) . ومعنى قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْفَقْرِ ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإففاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/١) والحاكم في المستدرک (٤٤٧/٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٣١/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٣/٦) والبيهقي في السنن (٣٢٥/٩) والهيثم في مجمع الزوائد (١١٣/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨٨) .

الخلق ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَقْعَدَ تَرْفَعُهُ ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وَقَضَاءُ ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ عن ابن عباس : يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله . وزوي عن ابن عباس مرفوعاً : «الحكمة القرآن» يعني تفسيره ، قال ابن عباس : فإنه قد قرأه البر والفاجر . وعن مجاهد يعني بالحكمة الإصابت في القول . وعنه : ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن . وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله ، فإن خشية الله رأس كل حكمة . وعن ابن مسعود مرفوعاً : «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ» ^(١) . وقال إبراهيم النخعي : الحكمة الفهم . وقال أبو مالك : الحكمة الستة . قال مالك : وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله ، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله ، وبما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلًا في أمر الدنيا إذا نظر فيها ، وتجد آخر ضعيفًا في أمر دنياه عالمًا بأمر دينه بصيرًا به ، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا ، فالحكمة الفقه في دين الله . وقال السدي : الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة ، بل هي أعم منها وأعلها النبوة ، والرسالة أخص ، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء في بعض الأحاديث . فعن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَيْهِ فِي الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكاري إلا من له لب وعقل ، يعي به الخطاب ومعنى الكلام .

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ ثَقْفَةٍ أَوْ نَقْفَةٍ إِلَّا نُزِّلَ فِيكُمْ مِمَّا يَسْمَعُونَ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ ^(٣) إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنَ سَعْيَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات ، من النفقات والمندورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أي يوم القيامة ، ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفَقْرَةَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ؛ لأنه أبعد عن الرياء ، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة ، من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحثية . وقال رسول الله ﷺ : «الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ ، وَالْمُسِيرُ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِيرِ بِالصَّدَقَةِ» ^(٤) والأصل : أن الإسرار أفضل ؛ لهذه الآية لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال

(١) هذا من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس وهو حديث ضعيف ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٣٥٢/١) والهندي في كنز العمال (٥٨٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٨) وابن ماجه في السنن (٤٢٠٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (١٣٣٣) والترمذي في السنن (٢٩١٩) وأحمد في مسنده (١٥١/٤) والحاكم في المستدرک (٥٥٥/١) .

رسول الله ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ بَيْنَهُ » ^(١) وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدٌ ، فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَأَلْقَاهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ ، فَتَعَجَّبَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَلْقِ الْجِبَالِ فَقَالَتْ : يَا رَبُّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ الْجِبَالِ ؟ قَالَ : نَعَمْ الْحَدِيدُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْحَدِيدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ النَّارُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : نَعَمْ الْمَاءُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْمَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ الرِّيحُ ، قَالَتْ : يَا رَبُّ ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ابْنُ آدَمَ يَتَصَدَّقُ بَيْنَ يَمِينِهِ فِيخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ » ^(٢) وعن عامر الشعبي في قوله : ﴿ إِنْ بُنِدُوا أَلْمَدَنَتِ فَنِيصًا هَيَّ ﴾ وَإِنْ تُخَفُوا وَتُؤْتُوا أَلْفَقَرَةً فَهَوَّ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ قال : أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : « مَا خَلَفْتَ وَرِثَاكَ لِأَهْلِكَ يَا عُمَرُ ؟ » قال : خَلَفْتُ لَهُمْ نِصْفَ مَالِي ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَجَاءَ بِمَالِهِ كُلِّهِ يَكَادُ أَنْ يَخْفِيهِ مِنْ نَفْسِهِ ، حَتَّى دَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا خَلَفْتَ وَرِثَاكَ لِأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » فقال : عدة الله وعدة رسوله ، فبكى عمر رضي الله عنه وقال : يَا أَبَا بَكْرٍ وَاللَّهِ مَا اسْتَبَقْنَا إِلَى بَابِ خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا كُنْتُ سَابِقًا . وعن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانياتها ، يقال : بسبعين ضعفًا ، وجعل صدقة الفريضة علانياتها أفضل من سرها يقال : بخمسة وعشرين ضعفًا . وقوله : ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي بدل الصدقات ، ولا سيما إذا كانت سرًا ، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ، ويكفر عنكم السيئات . وقد قرئ ﴿ وَيُكَفِّرُ ﴾ بالجزم عطفًا على محل جواب الشرط ^(٣) وهو قوله : ﴿ فَنِيصًا هَيَّ ﴾ كقوله : ﴿ فَأَصْدَفَ وَأَكُنْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكُم عليه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ هُمْ يُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَغْنُونَ ضَرْبًا فِي الْأَنْزِبِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّقْوَى تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يَكِلِ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْهِمُ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْأَثَرِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين ، فسألوا فرخص لهم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ هُمْ يُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وعن ابن عباس

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في السنن (٢٣٩١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٤/٣) والترمذي في السنن (٣٣٦٩) .

(٣) قرأ ابن عامر وحفص (يكفر) بالياء والباقون بالنون ، وقرأ المديان وحزمة والكسائي وخلف بالجزم والباقون بالرفع انظر : تقريب النشر : ص (٩٨) .

إِلْحَاقًا فَقُلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي لِنَاقَةٍ : لَهَا خَيْرٌ مِنْ خَمْسِ أَوَاقٍ ، وَلِفِغْلَامِهِ نَاقَةٌ أُخْرَى فَهِيَ خَيْرٌ مِنْ خَمْسِ أَوَاقٍ ، فَارْجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْ (١) . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيَمَةُ أَوْقِيَّةٍ فَهُوَ مُلْحَقٌ » (٢) وَالْأَوْقِيَّةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُذُوشًا أَوْ كُذُوحًا فِي وَجْهِهِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا غِنَاهُ ؟ قَالَ : « خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ جَسَائِبَهَا مِنَ الذَّهَبِ » (٣) . قَوْلُهُ : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » أَيُّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرُ الْجَزَاءِ وَأَتَمُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ يَأْتِلُ وَالْتِهَارَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » هَذَا مَدْحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَالْأَحْوَالِ مِنْ سِرٍّ وَجَهْرٍ ، حَتَّى إِنْ انْفَقَ عَلَى الْأَهْلِ تَدَخَّلَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ حِينَ عَادَهُ مَرِيضًا عَامَ الْفَتْحِ ، وَفِي رِوَايَةِ عَامِ حِجَةِ الْوَدَاعِ « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدَتْ بِهَا دَرَجَةً وَرِفْقَةً ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ » (٤) ، وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً » (٥) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هُمُ الَّذِينَ يَعْلِفُونَ الْخَيْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَعَنْ ابْنِ جَبْرِ عَنْ أَبِيهِ : كَانَ لِعَلِيِّ أَرْبَعَةِ دَرَاهِمٍ فَأَنْفَقَ دِرْهَمًا لَيْلًا ، وَدِرْهَمًا نَهَارًا ، وَدِرْهَمًا سِرًّا ، وَدِرْهَمًا عَلَانِيَةً ، فَنَزَلَتْ « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ يَأْتِلُ وَالْتِهَارَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . وَقَوْلُهُ : « فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » أَيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوهُ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقَ اللَّهَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ النِّفَاقَاتِ ، الْمَخْرُجِينَ الزُّكُوتِ ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالْبَرِّ وَالصَّدَقَاتِ ، لَذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْقُرْبَاتِ ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ أَكْلَةِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا إِلَى بَعْثِهِمْ وَنَشُورِهِمْ فَقَالَ : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » أَيُّ لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَصْرُوعُ حَالِ صَرْعِهِ ، وَتَخَبُّطُ الشَّيْطَانِ لَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَكَلَ الرِّبَا يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنُونًا يَخْنَقُ . وَقِيلَ : لَا يَقُومُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١٣٨/٤) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي السُّنَنِ (٩٨/٥) وَالدَّارِقُطَنِيُّ (١١٨/٢) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي السُّنَنِ (٢٤/٧) وَابْنُ حِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ (٨٤٦) .

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي السُّنَنِ (١٨٤٠) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٤٤١/١) .

(٤) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي السُّنَنِ (٢١١٦) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١٧٩/١) .

(٥) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الزُّكَاةِ (٤٨) وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (١٢٢/٤) .

كَانَ يَقْرَأُ ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْعَظُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ يوم القيامة .
وعن ابن عباس قال : يقال يوم القيامة لأكل الربا : خذ سلاحك للحرب وقرأ : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْعَظُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وذلك حين يقوم من قبره ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ يُطَوْنُهُمْ كَالْبَيْبُوتِ فِيهَا الْحَيَاتُ تَجْرِي مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ أَكَلَةُ الرِّبَا » (١) .

وقوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه ، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع ؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع ، وإنما قالوا : ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي هو نظيره ، فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أي هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردّاً عليهم ، أي ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً ، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها ، وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل . ولهذا قال : ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة ؛ لقوله : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة : « وَكُلُّ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ ، وَأَوَّلُ رِبَا أَضْعَ رِبَا الْعَبَّاسِ » (٢) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية ، بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال سعيد بن جبير والسدي : فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم . وعن أم يونس بنت أبقع أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد بن أرقم : يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت : نعم ، قالت : فإني بعته عبداً إلى العطاء بشمانمائة ، فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة ، فقالت : بئس ما شريت وبئس ما اشتريت ، أبلغني زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب ، قالت : فقلت : أرايت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة ؟ قالت : نعم ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ وهذا الأثر مشهور ، وهو دليل لمن حرم مسألة العينة مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ولهذا قال : ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ . عن جابر قال : لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْعَظُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَذَرِ الْمُخَابِرَةَ فَلْيُؤَذَّنْ بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » (٣) وإنما حرمت المخابرة وهي المزاورة

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٨٧/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣٠٦/٦) والألباني في الصحيحة (٣٠) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٨٦/٢) والبيهقي في السنن (١٢٨/٦) والألباني في الضعيفة (٩٩٠) .

يبعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض ، والمحاقلة وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض ، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا ؛ لأنه لا يعلم التساوي بين الشئيين قبل الجفاف . ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المفضية إلى الربا ، والوسائل الموصلة إليه ، وتفاوت نظرم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم .

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم ، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه : الجدة والكلالة وأبواب من أبواب الربا - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا - والشرعية شاهدة بأن كل حرام ، فالوسيلة إليه مثله ؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ الْحَلَائِلَ يَتَرْنَ ، وَالْحَرَائِمَ يَتَرْنَ ، وَيَتَرْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، فَتَنْتَفَى الشُّبُهَاتُ ؛ اسْتَبْرَأْ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ ؛ وَقَعَ فِي الْحَرَائِمِ ، كَالرَّاعِي يَزْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَزْتَعَ فِيهِ » ^(١) وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « دَخَّ مَا يُرِيكَ إِلَيَّ مَا لَا يُرِيكَ » ^(٢) . وفي الحديث الآخر « الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ ، وَتَرَدَّدَتْ فِيهِ التُّفْسُ ، وَكَرِهْتُ أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » ^(٣) . وعن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم ، وأمركم بأشياء لا تصلح لكم ، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا ، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا ، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم . وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « الرُّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أَيْسَرُهَا أَنْ يَنْكَحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ ، وَإِنْ أَرَى الرُّبَا عَرَضَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمَ » ^(٤) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرُّبَا » قال : قيل له : الناس كلهم ؟ قال : « مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ » ^(٥) .

ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات . وعن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن فحرم التجارة في الخمر ^(٦) . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاغَوْهَا وَأَكَلُوا أَمْثَانَهَا » ^(٧) وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما عند لعن الحلل في تفسير قوله : ﴿ حَتَّى تَنْكَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ قوله ﷺ : « لَعَنَ اللَّهُ أَكْلَ الرُّبَا ، وَمُوكِلَهُ ، وَشَاهِدِيهِ ، وَكَاتِبِيهِ » ^(٨) قالوا : وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي ، ويكون داخله فاسداً ، فالاعتبار بمعناه لا بصورته ؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥١) ومسلم في المساقاة (١٠٧) وأحمد في مسنده (٢٦٩/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٨) وأحمد في مسنده (١٥٣/٣) والحاكم في المستدرک (٩٩/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨/٤) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٧/٢) وابن ماجه في السنن (٢٢٧٥) .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن (٢٧٥/٥) . (٦) أخرجه النسائي في السنن (٣٠٨/٧) .

(٧) أخرجه مسلم في المساقاة (٧٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٨٣) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/١) والطبراني في الكبير (١٨٤/٢) .

الأعمال بالنيات . وفي الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ^(١) وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً في إبطال التحليل تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل ، وقد كفى في ذلك وسقى فرحه الله ورضي عنه .

﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ^(٢) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿

يخبر تعالى أنه يحق الربا أي يذهب ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، قال ابن جرير في قوله : ﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ : وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل ^(٣) . عن فروخ مولى عثمان أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج من المسجد فرأى طعاماً منشوراً فقال : ما هذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا ، قال : بارك الله فيه وفيمن جلبه ، قيل : يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر ، قال : من احتكره ؟ قالوا : فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر ، فأرسل إليهما فقال : ما حملكما علي احتكار طعام المسلمين ؟ قال : يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع ، فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ اخْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْإِفْلَاسِ أَوْ الْجُدَامِ » فقال فروخ عند ذلك : أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود في طعام أبداً ، وأما مولى عمر فقال : إنما نشترى بأموالنا ونبيع . قال أبو يحيى : فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً ^(٤) .

وقوله : ﴿ وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ﴾ قرئ بضم الباء ، والتخفيف من ربا الشيء يربو وأرباه يريه ، أي كثره ونمّاه وينميه . وقرئ يربي بالضم والتشديد من التربية . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَذْلِ ثَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلَا يَقْبَلِ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِمِثْلِهِ ، ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجِبَلِ » ^(٥)

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي لا يحب كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة ، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح ، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم أثم بأكل أموال الناس بالباطل .

ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه ، في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَعُ اللَّهِ وَذَرَوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٦) فَإِنْ لَمْ تَقْلُوا فَأَذِّنُوا يُحَرِّبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبَسِّرْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ^(٧) وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُشْرِ فَنُظِرْهُ إِلَىٰ مُسَرَّرٍ وَآنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٣) وابن ماجه في السنن (٤١٤٣) وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/١) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١٥٥) وأحمد في مسنده (٢٢١/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣١/٢) والبيهقي في السنن (١٧٧/٤) .

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٨﴾ وَأَتُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ .
يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه ، ناهيًا لهم عما يقرَّبهم إلى سخطه ، ويبيدهم عن رضاه ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الإنذار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا ، وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذ منهم ، فتشاؤروا وقالت بنو المغيرة : لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية . فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿فَقَالُوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا ، فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ، ووعد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار . قال ابن عباس : ﴿فَأَذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وعن ابن عباس قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ثم قرأ ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وقال : فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه ، كان حقا على إمام المسلمين أن يستتيه ، فإن نزع وإلا ضرب عنقه . وعن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا ، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ، ولو كان على الناس إمام عادل لاستباحهم . فإن تابوا وإلا بضع فيهم السلاح . وقال قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجاء أين ما أتوا ، فياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا ، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فلا يلجئكم إلى معصيته فاقة .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَا تُنْفِكُوا رُءُوسَ أَمْوَالِكُمْ لَا تَحْلِلُوهَا﴾ أي بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضا ، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وعن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال : « أَلَا إِنَّ كُلَّ رَبَّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَحْلِلُوهَا وَلَا تُظْلَمُونَ ، وَأَوَّلُ رَبَّا مَوْضُوعٌ رَبَّا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ » (١) .

وقوله : ﴿وَلَا تَكُنْ دُونَ عُسْرٍ فَظَرَةٍ إِنْ مَسَّرَ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال : ﴿وَلَا تَكُنْ دُونَ عُسْرٍ فَظَرَةٍ إِنْ مَسَّرَ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي . ثم يندب إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال : ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن الدين . وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي بذلك : عن أبي أمامة أسعد بن زرار قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَرَّه أَنْ يُظِلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ فَلْيَسِّرْ عَلَى مُغْسِرٍ أَوْ لِيَضَعْ عَنْهُ » (٢) .

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُغْسِرًا ؛ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٢٤٦/٢) . (٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٨٣/١) والهيثم في مجمع الزوائد (١٣٤/٤) .

مِثْلَهُ صَدَقَّةٌ « قال : ثم سمعته يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » قلت : سمعتك يا رسول الله تقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » ثم سمعتك تقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » قال : « لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدِّينُ ، فَإِذَا حُلَّ الدِّينُ فَأَنْظَرُهُ ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » (١) .

وعن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله فقال : نعم ، هو في البيت يأكل خزيرة ، فناداه فقال : يا فلان اخرج فقد أخبرتك أنك ها هنا ، فخرج إليه ، فقال : ما يغيبك عني ؟ فقال : إني معسر وليس عندي شيء ، قال : الله إنك معسر ؟ قال : نعم ، فبكى أبو قتادة ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ ، أَوْ مَحَا عَنْهُ ؛ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وعن سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَعَانَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ غَارِيًا ، أَوْ غَارِيًا فِي غُصْنِيهِ ، أَوْ مُكَاتِبًا فِي رَقَبَتِهِ ؛ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » (٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ ، وَأَنْ تُكْشَفَ كَرْبَتُهُ ، فَلْيَفْرَجْ عَنْ مُعْسِرٍ » (٤) .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَأَخْرَهُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ » (٥) .

وعن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت قال : خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا ، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له معه ضمامة من صحف ، وعلى أبي اليسر بردة ومعارفي ، وعلى غلامه بردة ومعارفي ، فقال له أبي : يا عم إني أرى في وجهك سفة من غضب ؟ قال : أجل ، كان لي على فلان ابن فلان الراصي مال ، فأتيت أهله فسلمت فقلت : أثم هو ؟ قالوا : لا ، فخرج علي ابن له جفر ، فقلت : أين أبوك ؟ فقال : سمع صوتك فدخل أريكة أُمِّي ، فقلت : اخرج إلي فقد علمت أين أنت ، فخرج ، فقلت : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك ، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك ، وكنت صاحب رسول الله ﷺ وكنت والله معسرا ، قال : قلت : الله ؟ قال : الله . ثم قال : فأتى بصحيفته فمحاها بيده ، ثم قال : فإن وجدت قضاء فاقضني وإلا فأتت في حل ، فأشهد أبصر عينا ي هاتان - ووضع إصبعيه على عينيه - وسمع أذنا ي هاتان ، ووعاه قلبي - وأشار إلى نياط قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ؛ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ » (٦) .

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٠/٥) والحاكم في المستدرک (٢٩/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٨/٥) والدارمي في السنن (٢٦٢/٢) والبيهقي في شرح السنة (١٩٩/٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢١٧/٢) وأحمد في مسنده (٤٨٧/٣) والطبراني في الكبير (١٠٥/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٣/٤) .

(٦) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) والترمذي في السنن (١٣٠٦) .

والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته فقال : ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم . فعن سعيد بن جبير قال : آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ، وعن ابن عباس قال : آخر آية نزلت ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ فكان بين نزولها وموت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوما . قال ابن جريج : يقولون إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدئ يوم السبت ، ومات يوم الاثنين .

﴿ يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْمُورًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْتَبُوهُ وَلِكُتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيَّحَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَأَ هُوَ فَلْيُمْلَأْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ رِضْوَانٍ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَفِضَلَ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ بِإِحْدَاهُمَا فَتُكْتَبُ الشَّهَادَةُ وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَكُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ رُبَّمَا تَتَذَكَّرُونَ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ .

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم ، فعن ابن عباس أنه قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَوَّلَ مَنْ جَحَدَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَغْرِضُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَيْهِ ، فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا يَزْهَوُ فَقَالَ : أَيُّ رَبِّ مِنْ هَذَا ؟ قَالَ : هُوَ ابْنُكَ دَاوُدَ ، قَالَ : أَيُّ رَبِّ كَمْ غُمُّهُ ، قَالَ : سِتْرُونَ عَامًا ، قَالَ : رَبِّ زِدْ فِي غُمِّهِ ، قَالَ : لَا إِلَّا أَنْ أُزِيدَهُ مِنْ غُمِّكَ ، وَكَانَ غُمُّ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ فَوَازَاهُ أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، فَلَمَّا اخْتَصَرَ آدَمَ وَأَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ قَالَ : إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ غُمِّهِ أَرْبَعُونَ عَامًا ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ ، قَالَ : مَا فَعَلْتُ ، فَأَبْرَزَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ » (١) .

قوله : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْمُورًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْتَبُوهُ ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها ، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال : ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْمُورًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاصْتَبُوهُ ﴾ قال : أنزلت في السلم إلى أجل معلوم . وعنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ، ثم قرأ ﴿ يَأْتِيهَا الذِّكْرُ مَأْمُورًا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وعنه أيضًا قال : قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧١/١) والبيهقي في السنن (١٤٦/١٠) والطبراني في الكبير (٢١٤/١٨) .

أَسْلَفَ فَلْيَسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزَنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ (١) .

وقوله : ﴿ فَاسْكُتُوا ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثيق والحفظ ، فإن قيل : فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّا أُمَّةٌ أَمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْشُبُ » (٢) فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة ؟ فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً ؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس ، والسنة أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس ، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب ، كما ذهب إليه بعضهم . قال ابن جريج : من أذان فليكتب ، ومن اتباع فليشهد . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشي كان رجلاً صاحب كعباً ، فقال ذات يوم لأصحابه : هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : رجل باع يبعاً إلى أجل فلم يُشهد ولم يكتب ، فلما حل ماله جحده صاحبه ، فدعا ربه فلم يستجب له ؛ لأنه قد عصى ربه . وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم : كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله : ﴿ فَإِنْ أَرَيْنَ بِغُفْلَةٍ بَعْضَكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤْذِرُوا الَّذِي أَوْثَرْنَا أَمْنَتُهُ ﴾ والدليل على ذلك أيضاً الحديث الذي حكى عن شرع من قبلنا مقررًا في شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : اثنتي بشهداء أشهدهم ؟ قال : كفى بالله شهيداً ، قال : اثنتي بكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال : اللهم إنك قد علمت أنني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت : كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضي بذلك ، وإنني قد جهدت أن أجِدَ مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجِدَ مركباً ، وإنني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيؤه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرهما وجد المال والصحيفة ، ثم قَدِمَ الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار ، وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلي بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أنني لم أجِدَ مركباً قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بألفك راشداً (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْقَدْرِ ﴾ أي بالقسط والحق ، ولا يجر في كتابته على أحد ، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان ، وقوله : ﴿ وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم ، فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة ، وليكتب . وفي

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٢٧) والنسائي في السنن (٢٩٠/٧) والترمذي في السنن (١٣١١) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٥) وأبو داود في السنن (٣٣١٩) والنسائي في السنن (١٣٩/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٨/٢) والبيهقي في السنن (٧٦/٦) .

الحديث : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ الْحَيَمَةُ يَلْجَأَ مِنْ نَارٍ » ^(١) ، وقال مجاهد وعطاء : واجب على الكاتب أن يكتب . وقوله : ﴿ وَلَيَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أَلْحَتْ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيَسْئَلَنَّ اللَّهُ رَبُّهُ ﴾ أي وليلمل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين ، وليتق الله في ذلك ﴿ وَلَا يَخْشَى مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أي لا يكتف منه شيئا ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ محجورًا عليه ببذيره ونحوه ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أي صغيرًا أو مجنونًا ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْلِمَ هُوَ ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿ فَلْيَسْئَلِ وَلْيَرْجُ الْكَذِبَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ أمر بالاستشهاد مع الكتابة لزيادة التوثق ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ وهذا إما يكون في الأموال وما يقصد به المال ، وإما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يَا مَعْشَرَ النَّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » فقالت امرأة منهن جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : « تَكْثِرُونَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرُونَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُمْ » قالت : يا رسول الله ما نقصان العقل والدين ؟ قال : « أَمَّا نَقْصَانُ عَقْلِيهَا : فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نَقْصَانُ الْعَقْلِ ، وَتَمَكُّتُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي ، وَتَقْطِرُ فِي رَمَضَانَ ؛ فَهَذَا نَقْصَانُ الدِّينِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ مِنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود ، وهذا مقيد ، حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط ، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً . وقوله : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد ، وبهذا قرأ آخرون ، ﴿ فَتَذَكَّرَ ﴾ بالتشديد من التذكار ، ومن قال : إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد ، والصحيح الأول والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ قيل : معناه إذا دعوا لتحمل فعليهم الإجابة . ومن هنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية ، وهو مذهب الجمهور ، والمراد بقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ للاداء لحقيقة . قوله : ﴿ الشُّهَدَاءُ ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمل فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت ، وإلا فهو فرض كفاية . وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار ، وإذا شهدت فدعيت فأجب . وعن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَسْمَوْا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ﴾ هذا من تمام الإرشاد ، وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا ، فقال : ﴿ وَلَا تَسْمَوْا ﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان ، من القلة والكثرة إلى أجله .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الحيز (٣٠٤) ومسلم في الإيمان (١٣٢) والترمذي في السنن (٢٦١٣) وأحمد في مسنده (٦٦/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الأفضية (١٩) والترمذي في السنن (٢٢٩٥) والبيهقي في (١٥٦/١٠) .

للحق إذا كان مؤجلاً ، هو أقسط عند الله ، أي أعدل ﴿ وَأَقُومُوا لِلشَّهَادَةِ ﴾ أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ، ثم رآه تذكر به الشهادة ، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع غالباً ﴿ وَأَذِّنْ لَنَا تَرَائِبًا ﴾ وأقرب إلى عدم الرية ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه ، فيفصل بينكم بلا رية .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد ، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها .

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ عن سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل ، أو لم يكن فيه أجل ، فأشهدوا على حقكم على كل حال . وقال الشعبي والحسن : هذا الأمر منسوخ بقوله : ﴿ فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مِنْهُ مَنَّهُ ﴾ وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب ، لا على الوجوب ، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستبغته النبي ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبي ﷺ ابتاعه ، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال : إن كنت مهتاعاً هذا الفرس فابتعه ، وإلا بعته ، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي قال : « أَوْلَيْسَ قَدْ ابْتِغَيْتَهُ مِنْكَ ؟ » قال الأعرابي : لا والله ما بعتك ، فقال النبي ﷺ : « بَلْ قَدْ ابْتِغَيْتَهُ مِنْكَ » فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي : وبلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً ، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك ، قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعته ، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال : « بِمَ تَشْهَدُ ؟ » فقال : بتصديقك يا رسول الله ، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين ^(١) . وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « ثَلَاثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ : رَجُلٌ لَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطْلِقْهَا ، وَرَجُلٌ دَفَعَ مَالَ يَمِيمٍ قَبْلَ أَنْ يَتْلَعَ ، وَرَجُلٌ أَقْرَضَ رَجُلًا مَالًا فَلَمْ يُشْهِدْ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَصْرَكَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قيل : معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد ، فيكتب هذا خلاف ما يلى ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع ، أو يكتبها بالكلية . وقيل : معناه لا يضر بهما . وعن ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وَلَا يَصْرَكَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قال : يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان : إنا على حاجة ، فيقول : إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارهما . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَقَعُوا فَإِنَّهُ سُوءٌ بِكُمْ ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به ، أو فعلتم ما نهيتم عنه ، فإنه فسق كائن بكم ، أي لازم لكم ، لا تحيدون عنه ، ولا تنفكون عنه ، وقوله : ﴿ وَأَنْشِئُوا لِلَّهِ ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿ وَتَمْلِكُكُمْ اللَّهُ ﴾ كقولهم : ﴿ يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسُ اللَّهِ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِيَكُمْ كَفَالَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها ، فلا يخفى

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٠٢/٧) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٢/٢) والبيهقي في السنن (١٤٦/١٠) والألباني في الصحيحة (١٨٠٥) .

عليه شيء من الأشياء ، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَىٰ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مِنْهُ مَنَّهُ وَلْيُسْأَلْهُ رَبُّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أي مسافرين ، وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ يكتب لكم . قال ابن عباس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً ﴿ فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً ﴾ أي فليكن بدل الكتاب رهان مقبوضة ، أي في يد صاحب الحق . وقد استدل بقوله : ﴿ فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً ﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض ، كما هو مذهب الشافعي والجمهور ، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وذهب إليه طائفة ، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر ، وقد ثبت عن أنس : أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ، رهنها قوتاً لأهله ^(١) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَتَىٰ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مِنْهُ مَنَّهُ ﴾ عن أبي سعيد الخدري أنه قال : هذه نسخت ما قبلها . وقال الشعبي : إذا اتّمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله : ﴿ وَلْيُسْأَلْهُ رَبُّهُ ﴾ يعني المؤمن ، كما جاء عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « عَلَى الْيَدِ مَا أَخَذْتَ حَتَّى تُؤَدِّيهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أي لا تخفوا وتغلوها ولا تظهروها . قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر ، وكتمانها كذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ ﴾ قال السدي : يعني فاجر قلبه ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .
﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾ .

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر ، وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال : ﴿ يَعْلَمُ الْغَيْبُ وَخَفَى ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً ، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها ، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها ، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم . وعن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا : يا رسول الله ! كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » فلما أقر بها القوم ، وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله في

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢/٥) ، وأبو داود في السنن (٣٥٦١) ، والترمذي في السنن (١٢٦٦) .

أثرها : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِئْنَا أَوْ آخِظْنَا ﴾ (١).

وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ قال نسخها الآية التي بعدها . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ » (٢).

وعن أبي هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ : إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَفْعَلَ حَسَنَةً فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَفْعَلْ ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَثْنَالِهَا ، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَفْعَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَفْعَلْهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا » (٣) . وقال رسول الله ﷺ : « قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : رَبِّ وَذَلِكَ أَنَّ عَبْدَكَ يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ : ازْكُمُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَأَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَأَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جِرَآئِي » . وقال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِسْلَامَهُ فَإِنْ لَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ يَفْعَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَثْنَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ ﷻ » (٤) . وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ يَبَيِّنُ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَفْعَلْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » (٥) . وعن أبي هريرة قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : « وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » (٦).

وعن ابن عباس ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فإنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله : ﴿ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ يقول : يخبركم ، وأما أهل الشك والريب : فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب ، وهو قوله : ﴿ فَيَمُوتُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهو قوله : ﴿ وَلَكِنْ يُوَازِغُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي من الشك والنفاق . وعن الحسن البصري أنه قال : هي محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر ، وقد يحاسب ويعاقب ، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية عن صفوان ابن محرز قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا ابن عمر ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَذْنُو

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩) وأحمد في مسنده (٤١٢/٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٧١/٤) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٥/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٥) وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٨) وأحمد في مسنده (٣٦٠/١) .

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٩) .

الْمُؤْمِنِينَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، فَيَقْرُؤَهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَغْرَفُ مَرَّتَيْنِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُلَغَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، قَالَ : فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ - أَوْ كِتَابِهِ - بِيَمِينِهِ . وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ : فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُغُوسٍ الْأَشْهَادِ ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) . وعن زيد قال : سألت عائشة عن هذه الآية ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْشَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فقالت : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها ، فقالت : هذه مبايعة الله العبد ، وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها في يد كفه فيفتقدها ، فيفرع لها ، ثم يجدها في ضنبه . حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير .

﴿ ءَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِئْنَا أَوْ آخِظْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتْهُ » ^(٢) . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي » ^(٣) .

وعن عبد الله قال : لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة ، إليها ينتهي ما يخرج من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال : ﴿ إِذْ يَنْشِئُ الْبَدْرَ مَا يَشْعُنُ ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : وأعطني رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطني خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحّمات ^(٤) .

وعن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ : « أَقْرَأُ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَإِنِّي أُعْطِيْتُهُمَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ » ^(٥) .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ ثَلَاثَ : أُوتِيَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ تَبَّتْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ ، لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي ، وَلَا يُعْطَاهَا أَحَدٌ بَعْدِي » ^(٦) .

وعن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ﴿ ءَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، فَيَقْرُؤَهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ أَغْرَفُ مَرَّتَيْنِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُلَغَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، قَالَ : فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ - أَوْ كِتَابِهِ - بِيَمِينِهِ . وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ : فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُغُوسٍ الْأَشْهَادِ ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٩) والبيهقي في السنن (٢١/٣) وابن خزيمة في صحيحه (١١٤١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٥) والطبراني في الكبير (١٨٨/٣) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٢٣/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٧/٤) والهيثم في مجمع الزوائد (٣١٢/٦) .

(٦) أخرجه البيهقي في السنن (٢٣٣/١) .

رَبِّهِ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « حَقٌّ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ » ^(١) .

وقوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على الرسول ، ثم أخبر عن الجميع فقال : ﴿ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ فالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزل من السماء ، على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض يأذن الله ، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين ، وقوله : ﴿ وَكَأَلُوا سَيْمًا وَأَطَعْنَا ﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه ، وقمنا به وامتلنا العمل بمقتضاه ﴿ عُنُرَانِكَ رَبَّنَا ﴾ سؤال للمغفرة والرحمة والطف . وعن ابن عباس في قول الله : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ عُنُرَانِكَ رَبَّنَا ﴾ قال : قد غفرت لكم ﴿ وَإِلَيْكَ النَّصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب . وعن جابر قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَكَأَلُوا سَيْمًا وَأَطَعْنَا عُنُرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ النَّصِيرُ قال جبريل : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك ، فسل تعطه . فسأل ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِشْرًا وَلَا نَفْسَهَا ﴾ إلى آخر الآية .

وقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِشْرًا وَلَا نَفْسَهَا ﴾ أي لا يكلف أحدًا فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته بهم ، وإحسانه إليهم ، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشق منه الصحابة في قوله : ﴿ وَإِنْ تُبْذُلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْشَوْهُ يَعْصِيكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أي هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه ، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان . وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان . وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي من خير ﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي من شر ، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف .

ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة ، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ أي إن تركنا فرضًا على جهة النسيان ، أو فعلنا حرامًا كذلك ، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ ، وَالنَّسْيَانَ ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِسْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها ، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، التي بعث نبيك محمدًا ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به ، من الدين الحنيفي السهل السمح ، وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُعْثَقُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء ، لا تبتلنا بما لا

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٤٥) .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٨٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/٥) .

قبل لنا به ، وقد قال مكحول في قوله : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحِطِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ : العزبة والغلظة .
 وقوله : ﴿ وَاعْتُ عَنَّا ﴾ أي فيما بيننا وبينك ، مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا ﴾ أي فيما
 بيننا وبين عبادك ، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ أي فيما يستقبل ، فلا
 توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر . ولهذا قالوا : إن المذهب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو الله عنه
 فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم ، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره .
 وقوله : ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أي أنت ولينا وناصرنا ، وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وعليك
 التكلان ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك ﴿ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي الذين جحدوا دينك ،
 وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم ،
 واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » . وعن أبي إسحاق أن معاذًا رضي الله عنه كان
 إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال : آمين ^(١) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢١٨/٣) .

جَسَائِعُ النَّاسِ يَلْمِزُكَ رَبُّكَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلْعِمَاةَ .

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد . ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحكم محكمه على متشابهه عنده ، فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس . ولهذا قال تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وَأَخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ أي تحمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد . وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه ، فروي عن السلف عبارات كثيرة : فعن ابن عباس رضي الله عنه المحكمات ناسخة ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه ، وما يؤثر به ويعمل به . وعن ابن عباس أيضاً أنه قال : المحكمات قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَكَّلُوا أَوْ لَا تَمَكَّلُوا إِنَّا وَرَدُّكُمْ عَلَيْكُمْ لَا تَنْفِرُوا فِيهِ شَيْئاً ﴾ والآيات بعدها . وقوله تعالى ﴿ وَفَضَّلْنَا رِبَّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ إلى ثلاث آيات بعدها . روي أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا في هذه الآية ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ ﴾ فقال أبو فاختة : فوائح السور . وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام . وعن سعيد بن جبير : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب . وقال مقاتل بن حيان : لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن . وقيل في المتشابهات : المنسوخة ، والمقدم والمؤخر ، والأمثال فيه ، والأقسام ، وما يؤمن به ولا يعمل به . وقيل : هي الحروف المقطعة في أوائل السور . وعن مجاهد : المتشابهات يصدق بعضها بعضاً ، وهذا إما هو في تفسير قوله : ﴿ كَتَبْنَا مُتَشَبِهَاتٍ مَتَّانٍ ﴾ هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد ، والثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجار ، ونحو ذلك . وأما ها هنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم ، وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا ، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار رضي الله عنه حيث قال : ﴿ مِنْهُ أَيْتٌ تُحْكَمُ ﴾ فهن حجة الرب ، وعصمة العباد ، ودفع الخصوم الباطل ، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . قال : والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألا يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرفن عن الحق . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه . فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ؛ لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ آيَاتُهُ الْيَقِينَةُ ﴾ أي الإضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصراني بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألغاها إلى مريم وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَوْ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصراحة بأنه خلق من مخلوقات الله ، وعبد ورسول من رسل الله . وقوله تعالى : ﴿ وَآيَاتُهُ تَأْوِيلُ ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . وقال السدي : يتغون أن يعلموا ما يكون ، وما عواقب الأشياء من القرآن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابُ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَمِّتُ عَنْ أَفْئِدَةِ الْكِتَابِ وَأَنْتَ مَسْتَشْهِدٌ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فقال : « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيهِ ، فَهُمْ الَّذِينَ عَنِ اللَّهِ فَأَخَذُواهُمْ » ^(١) وعن أبي أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ قال : « هُمُ الْخَوَارِجُ » وفي قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ﴾ قال : « هُمُ الْخَوَارِجُ » ^(٢) . وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا ، حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين ، فكانهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجأوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم - وهو ذو الخويصرة بقر الله خاصرته - اعدل فإنك لم تعدل ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ خَبِثُ وَخَسِرْتُ ، إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ ، أَيَأْمَنْتُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمُنُونِي ؟ » فلما قفا الرجل ، استأذن عمر بن الخطاب ، في قتله فقال : « دَعُهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَفْضِيءٍ هَذَا أَنِي مِنْ جَنْبِهِ قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ ، وَقِرَاءَتَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِمْ ، يَمْزُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْزُقُ السَّهْمُ مِنَ الرُّومِيَّةِ ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ » ^(٣) . ثم كان ظهورهم أيام علي ابن أبي طالب ؑ ، وقتلهم بالنهروان ، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونجل كثيرة منتشرة ، ثم انبعثت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : « وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قالوا : وما هم يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْلَمْ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا ، ف قيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس ؓ أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : تفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله . وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ : أَنْ يَكْثُرَ لَهُمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُوا فَيَقْتُلُوا ، وَأَنْ يُفْتَحَ لَهُمُ الْكِتَابُ فَيَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ يَتَّبِعِي تَأْوِيلَهُ ﴿وَمَا يَسْلَمْ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ الآية . وَأَنْ يَزْدَادَ عَلَيْهِمْ فَيَضِيعُوهُ وَلَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ » ^(٥) . عن ابن العاص عن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ لِيَكْذِبْ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِهِ » ^(٦) . وعن طاوس قال : كان ابن عباس يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون : آمنا به . وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود : إِنْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ والراسخون في العلم يقولون : آمنا به . وكذا عن أبي بن كعب واختار ابن جرير هذا القول . ومنهم من يقف على قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا :

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٥) والطبراني في الكبير (٣٢٥/٨) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٣٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٤٢) وأحمد في مسنده (٣٥٥/٣) .

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (٢٥/١) والحاكم في المستدرک (٤٣٠/٤) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٢/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (١٢٨/١) .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٢) .

الخطاب بما لا يفهم بعيد . وعن ابن عباس أنه قال : أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله . وعن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به . وعن محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، ثم ردوا تأويل التشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدق بعضهم بعضاً ، فنفذت الحجة ، وظهر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال : « اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ » ^(١) . ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله : ﴿ هَٰذَا يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله ﷻ ، ويكون قوله : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مبتدأ و ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي بتفسيره ، فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ حالاً منهم ، وساغ هذا ، وأن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه .

وقوله لإخباراً عنهم أنهم يقولون : آمنا به أي المتشابه ، كل من عند ربنا أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له ؛ لأن الجميع من عند الله ، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر على وجهها أولو العقول السليمة ، والفهوم المستقيمة . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارأون فقال : « إِنَّمَا هَٰلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَٰذَا ، ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَغْضَهُ يَبْغِضُ ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ كِتَابُ اللَّهِ لِيُصَدَّقَ بَغْضُهُ بَغْضًا فَلَا تُكَذِّبُوا بَغْضَهُ يَبْغِضُ . فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ فَكَلِّمُوا إِلَىٰ عَالِمِهِ » ^(٢) . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، وَالْمَرءُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ - قالها ثلاثاً - مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَزِدُوا إِلَىٰ عَالِمِهِ » ^(٣) ويقال : الراسخون في العلم المتواضعون لله ، المتذللون لله في مرضاته ، لا يتعاضمون على من فوقهم ، ولا يحقرون من دونهم . ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ رَبَّنَا لَا تُفِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ ثبتت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ أَوْعَابُ ﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ، فقال : « لَيْسَ مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ يَتَيْنِ إِبْصَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، إِذَا

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد في مسنده (٣٢٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٥/٢) والبيهقي في شرح السنة (٢٦٠/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٤/٤) والألباني في الصحيحة (١٥٢٢) .

شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ ، وَإِذَا شَاءَ أَنْ يُرِيْعَهُ أَرَاغَهُ ، أَمَا تَسْمَعِي قَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي ، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا ، وَلَا تُرِغْ قُلُوبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي ، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » ^(٢) . وعن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق رضي الله عنه المغرب ، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأمر القرآن وسورتين من قصار المفصل ، وقرأ في الركعة الثالثة ، قال : فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه ، فسمعتة يقرأ بأمر القرآن وهذه الآية ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ الآية . وعن عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته فقال عمر لقيس : كيف أخبرتني عن أبي عبد الله ؟ فأخبره بما سمع أبا عبد الله ثانيا ، قال عمر : فما تركناها منذ سمعناها منه ، وإن كنت قبل ذلك لعلني غير ذلك ، فقال له رجل : على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك ؟ قال : كنت أقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلا بعمله ، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تُنْفِكُ عَنْهُمْ آموْلَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ آفَةِ رَبِّكَ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿ لَا تُنْفِكُ عَنْهُمْ آموْلَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ آفَةِ رَبِّكَ وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ أي حطبها الذي تسجر به ، وتوقد به ، فعن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت : بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى : « هَلْ بَلَغْتُ ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ » ثلاثا ، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : نعم ، ثم أصبح فقال رسول الله ﷺ : « لَيُظْهِرَنَّ الْإِسْلَامَ حَتَّى يَرُدَّ الْكُفْرَ إِلَى مَوَاطِنِهِ ، وَلَيُخَوِّضَنَّ رِجَالَ الْبَحَارِ بِالْإِسْلَامِ ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَعْلَمُونَ الْقُرْآنَ وَيَقْرَأُونَهُ ثُمَّ يَقُولُونَ : قَرَأْنَا وَعَلِمْنَا ، فَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا ، فَهَلْ فِي أَوْلَئِكَ مِنْ خَيْرٍ ؟ » قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : « أَوْلَئِكَ مِنْكُمْ وَهُمْ وَقُودُ النَّارِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس : كصنيع آل فرعون ، وقيل : كسنة آل فرعون ، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون ، والألفاظ متقاربة به . والدأب بالتسكين والتحريك أيضا ، كنهر ونهر ، هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة ، كما يقال : لا يزال هذا دأبي ودأبك . والمعنى في الآية : أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد ، بل يهلكون ويعذبون كما

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (١١٢/٣) والحاكم في المستدرک (٢٨٨/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٠٦١) والحاكم في المستدرک (٥٤٠/١) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥١/١٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١٣٠/١) .

كما تقول : عندي ألف وأنا محتاج إلى مثليها ، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف ، وعلى هذا فلا إشكال ، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين ، وهو أن يقال ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر : ﴿ وَإِذْ يَرْكُضُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِيْ أَهْيُتِكُمْ قَلِيْلًا مُّثَلِّضَةٌ فِيْ أَهْيِهِمْ يَقْضَى اللهُ أَمْرًا كَاتَ مَقْضُوْلًا ﴾ فالجواب أن هذا كان في حالة ، والآخر كان في حالة أخرى ، وعن عبد الله بن مسعود : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي تراه سبعين ؟ قال : أراه مائة ، قال : فأسرنا رجلاً منهم فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفاً ، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف ، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ﷻ ، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع ، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ﴿ يَقْضَى اللهُ أَمْرًا كَاتَ مَقْضُوْلًا ﴾ أي ليفرق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ﴿ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَنَبِيْرٌ لَّذِيْلٌ الْأَبْصَرِ ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله ، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيْنَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِئَصَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ قُلْ أَذُنْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِيْنَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيْرٌ بِالْعَمَالِ .

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا ، من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » ^(١) فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه ، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء ، وقوله ﷺ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَتْهُ ، وَإِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا » ^(٢) وقوله في الحديث الآخر : « حُبَّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطُّيْبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » ^(٣) . وقالت عائشة رضي الله عنها : لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل . وفي رواية : من الخيل إلا النساء ^(٤) .

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح ، كما ثبت في الحديث : « تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) وحب المال كذلك تارة يكون للفخر

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٤) والبخاري في شرح السنة (١١/٩) والترمذي في الترغيب والترهيب (٤١/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٩/٣) والنسائي في السنن (٦٢/٧) والحاكم في المستدرک (١٦٠/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧/٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٥٠) وابن ماجه في السنن (١٨٤٦) والحاكم في المستدرک (١٦٢/٢) .

والخيلاء ، والتكبر على الضعفاء ، والتجبر على الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام والقربات ، ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود شرعاً .

وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال ، وحاصلها أنه المال الجزيل . وقيل : ألف دينار ، وقيل : ألف ومائتا دينار ، وقيل : اثنا عشر ألفاً ، وقيل : أربعون ألفاً ، وقيل : ستون ألفاً ، وقيل : ثمانون ألفاً ، وقيل غير ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الْقَنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ ، كُلُّ أَوْقِيَّةٍ خَبَرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ^(١) وعن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ وَالْقَنْطَارِ الْمَنْطَرَةِ ﴾ ؟ قال : « الْقَنْطَارُ أَلْفَا أَوْقِيَّةٍ » ^(٢) .

وحب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها ، فهؤلاء يثابون ، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام ، فهذه على صاحبها وزر . وتارة للتعفف واقتناء نسلها ، ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر . وأما المسومة فعن ابن عباس ؓ : المسومة الراعية ، والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . وعن أبي ذر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدُّنَ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة . وعن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال : « خَيْرُ مَالٍ أَمْرِي لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْمُورَةٌ » ^(٤) المأبورة الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَتَكِّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الرائلة ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ أي حسن المرجع والثواب .

قال عمر بن الخطاب : لما نزلت ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ قلت : الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت ﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِمَخِيرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِمَخِيرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ ﴾ أي قل يا محمد للناس : أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة ، ثم أخبر عن ذلك فقال : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ماكنين فيها أبد الآباد ، لا ييغون عنها حولاً ﴿ وَآزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحیض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً . ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمِعْرَإٍ بِآلِمِكُمُ ﴾ أي يعطي كل ما يستحقه من العطاء .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٢) والحاكم في المستدرک (١٧٨/٢) وابن ماجه في السنن (٣٣٦٠) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٧٨/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٠/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٨/٣) والبيهقي في السنن (٦٤/١٠) والطبراني في الكبير (١٠٧/٧) .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُسْتَضِئِينَ بِالنُّورِ ۝ ﴾ .

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أي بك وبكتابتك وبرسولك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا ، فاعفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أي في قيامهم بالطاعات ، وتركهم المحرمات ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم ، بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة ﴿ وَالْمُسْتَضِئِينَ ﴾ والقنوت الطاعة والخضوع ﴿ وَالْمُسْتَضِئِينَ ﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقربات ، وسد الخلل ، ومواساة ذوي الحاجات ﴿ وَالْمُسْتَضِئِينَ بِالنُّورِ ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار . وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبيه : ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر . وثبت عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « يُنْزَلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ » ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ ، من أوله وأوسطه وآخره ، فانتهى وتره إلى السحر ^(٢) . وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . وعن حاطب قال : سمعت رجلاً في السحر في ناجية المسجد وهو يقول : يا رب أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا أَلْيَمٍ قَالُوا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَكِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُونَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُنْيَا أَسْلَمُوا فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ افْتَكُوا ذَلِكَ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِمِيزَانٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

شهد تعالى وكفى به شهيداً ، وهو أصدق الشاهدين ، وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وقرءاء إليه ، وهو الغني عما سواه . ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا أَلْيَمٍ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قَالُوا بِالْقِسْطِ ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يرام جنباه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وعن الزبير بن العوام قال : سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا أَلْيَمٍ قَالُوا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب . وعن غالب القطان

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) بلفظ « ينزل ربنا ، وأحمد في مسنده (٨١/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٣٥) .

قال : أتيت الكوفة في تجارة ، فنزلت قريباً من الأعمش ، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر ، قام فتهجد من الليل ، فمر بهذه الآية ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَنِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ إِنَّ الْأَذْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿ ثم قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة ، وهي لي عند الله وديعة ﴾ إِنَّ الْأَذْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿ قالها مراراً ، قلت : لقد سمع فيها شيئاً ، فغدوت إليها فودعته ثم قلت : يا أبا محمد ، إني سمعتك تردد هذه الآية ، قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني ، قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ، فأقمت سنة فكنت على بابه ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة ، قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يُجَاءُ بِصَاحِبِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَهْدٌ إِلَيَّ ، وَأَنَا أَحَقُّ مِنْ وَفَى بِالْعَهْدِ ، أَذْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَذْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ لإخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين ، حتى ختموا بمحمد ﷺ ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمقبول ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية . وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام : ﴿ إِنَّ الْأَذْيَبَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ وذكر أن ابن عباس قرأ ﴿ شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أن الدين عند الله الإسلام ﴿ بكسر إنه وفتح أن الدين عند الله الإسلام ، أي شهد هو والملائكة وأولو العلم من البشر ، بأن الدين عند الله الإسلام ، والجمهور قرأوها بالكسر على الخبر ، وكلا المعنيين صحيح ، ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم . ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعدما قامت عليهم الحجة ، بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الْأَذْيَبُ أَوْثَرًا أَلَكَنْتَ إِلَّا مِنْ بَدَمٍ مَا جَاءَهُمْ أَلَمْ يَأْتِ بَيِّنَاتٍ ﴾ أي بغي بعضهم على بعض ، فاختلّفوا في الحق بتحاسدهم وتباغضهم وتدابره ، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْذُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ، ويحاسبه على تكذيبه ، ويعاقبه على مخالفته كتابه . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجَبَكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعِي ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ﴿ وَمَنْ أَتَّبَعِي ﴾ أي على ديني ، يقول كمقالتني ، قال تعالى أمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه ، والدخول في شرعه وما بعثه الله به ، الكتابيين من الملتين والأمة من المشركين فقال تعالى : ﴿ وَكُلِّ لَذَيْنِ أَوْثَرًا أَلَكَنْتَ وَالْأُمِّيْنَ ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ أَهْتَكُوا وَارْتَوَلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ ﴾ أي والله عليه حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمِيزَانٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ، ممن يستحق الضلالة ، وهو

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٣٣٠/١) والسيوطي في الدر المنثور (١٢/٢) وابن عدي في الكامل (١٦٩٤/٥) .

الذي ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ . وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأمهم امتثالاً لأمر الله له بذلك . فمن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » (١) . وقال ﷺ : « بُعِثْتُ إِلَى الْأَخْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » (٢) . وقال : « كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَتُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، ويناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبي فدخل عليه وأبوه قاعدًا عند رأسه ، فقال له النبي ﷺ : « يَا فُلَانُ ، قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ » (٤) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَيِّنَةٌ لَّهُمْ بِغَدَابِ أَلَيْسَ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ . هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً ، التي بلغتهم إياها الرسل ، استكباراً عليهم ، وعناداً لهم ، وتعاضلاً على الحق ، واستكفافاً عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه ، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم ، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَقَتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ : « الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَفْطُ النَّاسِ » (٥) . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قتل بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره . ولهذا لما أن تكبروا عن الحق ، واستكبروا على الخلق ، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا ، والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى : ﴿فَبَيِّنَةٌ لَّهُمْ بِغَدَابِ أَلَيْسَ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ .

﴿أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْكِتَابَ يُدْعُونَ إِلَا كَتَبَ اللَّهُ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَسْمَعَكَ أَنْتَا إِلَّا نَاتِمَا مُقَدَّرُونَ وَعَزَّوْا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم اللذين بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيها من طاعة الله فيما أمرهم به فيها من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما وهذا في غاية ما يكون من ذمهم ، والتنويه به بذكرهم بالخالفة والعناد . ثم قال تعالى :

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٣) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٤٣٣/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) والترمذي في السنن (١٩٩٩) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أي إنما حملهم وجزأهم على مخالفة الحق افتراءهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يومًا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَنَرَاهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَقُولُونَ ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أيامًا معدودات ، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه ، ولم ينزل الله به سلطانًا . قال الله تعالى متهددًا لهم ومتوعدًا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله ، وكذبوا رسله ، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر ، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ، وحاكم عليهم ، ومجازيهم به . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .
﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغَيَبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ تُؤْتِي الْآيِلَ فِي الْفَهَارِ وَتُؤْتِي الْفَهَارَ فِي الْآيِلِ وَتُخْرِجُ الْغَيَبَ مِنَ الْغَيَبِ وَتُخْرِجُ الْغَيَبَ مِنَ الْغَيَبِ وَتُزِيلُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد معظمًا لربك ، وشاكراً له ، ومفوضاً إليه ، ومتوكلاً عليه ﴿ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ﴾ أي لك الملك كله ﴿ تُوْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ أي أنت المعطي ، وأنت المانع ، وأنت الذي ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة ؛ لأن الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن ، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله ، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ، ولا رسولاً من الرسل ، في العلم بالله وشريعته ، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية ، وكشفه له عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ما تعاقب الليل والنهار . ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ﴾ الآية . أي أنت المتصرف في خلقك ، الفاعل لما تريد ، كما ردّ تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٌ ﴾ قال الله ردّاً عليهم : ﴿ أَهَرَأَيْتُم مَّا رَمَتْ رَيْكُ ﴾ الآية . أي نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع ، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك ، وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَا أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وعن المأمون الخليفة أنه رأى في قصر بيلاد الروم مكتوباً بالحميرية ، فعرّب له ، فإذا هو : باسم الله ما اختلف الليل والنهار ، ولا دارت نجوم السماء في الفلك ، إلا بنقل الغيم عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك ، وملك ذي العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشترك .

وقوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي الْآيِلَ فِي الْفَهَارِ وَتُؤْتِي الْفَهَارَ فِي الْآيِلِ ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتريده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان . وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً . وقوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْغَيَبَ مِنَ الْغَيَبِ وَتُخْرِجُ الْغَيَبَ مِنَ الْغَيَبِ ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من

المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿وَتَزِدُّكَ مِّنْ فَسَادٍ جَسَدٍ﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه وتقدر على آخرين ، لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشقة . عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مِنْ فَسَادٍ﴾ وَتَزِدُّكَ مِّنْ فَسَادٍ وَتُزِيدُكَ مِّنْ فَسَادٍ وَتُزِيدُكَ مِّنْ فَسَادٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ » (١) .

﴿لَا يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُ مِنْهُنَّ نَجَسًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ .

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعده على ذلك فقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي ومن يرتكب نهى الله في هذا فقد برئ من الله . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُ مِنْهُنَّ نَجَسًا﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاھر لا بباطنه ونيته . قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل ، إنما التقية باللسان . وكذا قال أبو العالية وأبو الشعثاء . ويؤيد ما قالوه قول الله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية . قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي يحلركم نعمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ، ليجازي كل عامل بعمله . عن ميمون بن مهران قال : قام فينا معاذ فقال : يا بني أود إنني رسول رسول الله إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار .

﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُورِكُمْ أَوْ تَبْغُوا بِعَلْمِ اللَّهِ وَصَلِّكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ زَوْفٌ بِآلِبَادٍ﴾ .

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات ، وجميع ما في الأرض والسموات ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ، في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته ، لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يغضه منهم ، فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم ، فإنه يهمل ، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال بعد هذا : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، وودّ لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشیطانہ الذي كان مقروناً به في الدنيا ، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿يَلَيَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الظُّرُفَانِ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً :

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٤٧٨) وأبو داود في السنن (١٤٩٦) وابن ماجه في السنن (٣٨٥٥) .

﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُكُمْ﴾ أي يخوفكم عقابه . ثم قال ﷺ مرجعاً لعباده لئلا يئسوا من رحمته ، ويقنطوا من لطفه : ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ قال الحسن البصري : من رآفته بهم حذرهم نفسه . وقال غيره : أي رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم . ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ .

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع الحمدي ، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله . كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » ^(١) ولهذا قال : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء الحكماء : ليس الشأن أن تحب ؛ إنما الشأن أن تحب . وقال الحسن البصري وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته . ثم قال تعالى أمراً لكل أحد من خاص وعام ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه ، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس ، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه ، والدخول في طاعته ، واتباع شريعته . ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم ﷺ خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة . واصطفى نوحاً ﷺ وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً . وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائي قومه يدعوه إلى الله ليلاً ونهاراً ، سرّاً وجهاراً ، فلم يزداهم ذلك إلا فرازاً ، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ، لم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به . واصطفى آل إبراهيم ، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ ، وآل عمران ، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم ﷺ . وهو عمران بن ياشم بن ميثا بن حزقيا بن إبراهيم بن غرايا بن ناوش بن أجر بن بهوا بن نازم ابن مقاسط بن إيشا بن إياذ بن رخييم بن سليمان بن داود ﷺ ، فعيسى ﷺ من ذرية إبراهيم . ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الذَّكَرَ لَأَكْثَرُ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

(١) أخرجه مسلم في الأفضية (١٨) وأحمد في مسنده (١٨٠/٦) والدارقطني في السنن (٢٢٧/٤) .

امرأة عمران هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ : قال محمد بن إسحاق : وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يوماً طائراً يرق فرحه فاشتبهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً فاستجاب الله دعاءها ، فواقعها زوجها فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً أي خالصاً مفرغاً للعبادة لخدمة بيت المقدس ، فقالت : يا رب ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لدعائي ، العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكر أم أنثى ﴿ فَلَمَّا وَصَّيْنَاهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّيْتُهَا أَنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّيْتُ ﴾ قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم ، وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء ^(١) على أنه من قول الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكى مقرراً ، وبذلك ثبت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « وَلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ سَمَّيْتُهُ بِسْمِ أَبِي إِيزَاهِيمَ » ^(٢) . وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه وسماه عبد الله . ويروى : أن رجلاً قال : يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه ؟ قال : « سَمِّ ابْنَكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ » ^(٣) . وثبت في الصحيح أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنكه فذهل عنه ، فأمر به أبوه فرد إلى منزلهم ، فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس سماه المنذر . وعن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كُلُّ غُلَامٍ مَوْلُودٌ يَقِيقُهُ يُذَبِّحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْشُهُ » ^(٤) ، وروى ويديم . وهو أثبت وأحفظ والله أعلم .

وقوله لإخباراً عن أم مريم أنها قالت : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أي عوذتها بالله تعالى من شر الشيطان ، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام ، فاستجاب الله لها ذلك . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ ، إِلَّا مَرْيَمَ وَانْتَهَا » ثم يقول أبو هريرة أقرأوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ^(٥) ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْعِرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يخبر ربنا أنه قبلها من أمها نذيرة ، وأنه أنبتها نباتاً حسناً ، أي جعلها شكلاً مليحاً ، ومنظراً بهيجاً ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عبادته تتعلم منهم العلم والخير والدين ، فلماذا قال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية ، أي جعله كافلاً لها . قال ابن إسحاق : وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة . وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدد ، فكفل زكريا مريم لذلك ، ولا منافاة بين القولين والله أعلم . وإنما قدر الله كون زكريا كفلاً لسعادتها ، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً ، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما . وقيل زوج أختها كما ورد في الصحيح : « فَإِذَا يَبْتَخِي وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ » ^(٦) وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً ، فعلى هذا كانت في

(١) قرأ ابن عامر ويعقوب وأبو بكر ﴿ وَضَعْتُ ﴾ بإسكان العين وضم التاء ، والباقون يفتح العين وإسكان التاء (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٩٨) ومسلم في الفضائل (٦٢) وأبو داود في السنن (٣١٢٦) وأحمد في مسنده (١٩٤/٣) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٠٨/٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٥) وابن ماجه في السنن (٣١٦٥) والطبراني في الكبير (٢٤٣/٧) .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٤٨) ومسلم في الفضائل (١٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (١٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) .

حضانة خالتها . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت جمزة أن تكون في حضنة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال : « الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ » ^(١) ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال : ﴿ كَلَّمَكَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا أَلْيَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، وعن مجاهد ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ أي علمًا ، أو قال : صحفًا فيها علم . والأول أصح ، وفيه دلالة على كرامات الأولياء . وفي السنة لهذا نظائر كثيرة . فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قَالَ يَمُرُّمْ أَنَّى لَئِبَ هَذَا ﴾ أي يقول : من أين لك هذا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا ، فأتى فاطمة فقال : « يَا بُنَيَّةُ هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ أَكَلُهُ فَإِنِّي جَائِعٌ ؟ » قالت : لا والله بأبي أنت وأمي ، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها ، وقالت : والله لأؤثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنًا أو حسينًا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت : بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال : « هَلُمِّي يَا بُنَيَّةُ » قالت : فأتيتها بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا ، فلما نظرت إليها بهت ، وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيه ، وقدمته إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال : « مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا بُنَيَّةُ ؟ » قالت : يا أبت ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فحمد الله وقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكَ يَا بُنَيَّةُ شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ، فَإِنَّمَا كَانَتْ إِذَا رَزَقَهَا اللَّهُ شَيْئًا وَسُئِلَتْ عَنْهُ قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ، ثم أكل رسول الله ﷺ وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين ، وجميع أزواج النبي ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعًا قالت : وبقيت الجفنة كما هي ، قالت : فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرًا كثيرًا ^(٢) .

﴿ هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَدَاثَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذَنًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّسِيِّ وَالْإِنْشَاءِ ۝ » .

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، طمع حيثئذ في الولد وإن كان شيخًا كبيرًا قد وهن منه العظم ، واشتعل الرأس شيبًا ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيًا وقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ أي من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أي ولدا صالحا ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ قال تعالى : ﴿ فَدَاثَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْغُرَابِ ﴾ أي خاطبته الملائكة شفاها خطابا أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . قال قتادة وغيره : إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٨٠) والترمذي في السنن (١٩٠٤) والبيهقي في السنن (٦/٨) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٠/٢) .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي بعيسى ابن مريم . وقال الربيع بن أنس : هو أول من صدق بعيسى ابن مريم . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ قال : كان يحيى وعيسى ابني خالة ، وكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك ، فذلك تصديقه له في بطن أمه ، وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى ، وهو أكبر من عيسى عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ قال قتادة : سيِّداً في العلم والعبادة . وقال الضحاك : الحليم التقي . وقال سعيد بن المسيب : الفقيه العالم . وقال عكرمة : هو الذي لا يغلبه الغضب . وقال ابن زيد : الشريف . وقال مجاهد : هو الكريم على الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَحَصُورًا ﴾ قالوا : الذي لا يأتي النساء . وعن الربيع بن أنس قال : هو الذي لا يولد له ولا ماء له . وعن ابن عباس في الحصور : الذي لا ينزل الماء . وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللَّهَ بِذَنْبٍ يُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْحَمُهُ ، إِلَّا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ كَانَ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ » ثم أهوى النبي صلى الله عليه وآله إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال : « وكان ذكره مثل هذه القذاة ؟ » ^(١) .

وقد قال للقاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿ حَصُورًا ﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوباً أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، إنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها ، وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل : ليست له شهوة في النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى ، أو بكفاية من الله تعالى كيحيى عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا ، وهي درجة نبينا صلى الله عليه وآله الذي لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحسينهم ، وقيامه عليهم ، وإكسابه لهم ، وهدايته إياهم ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : « حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ » ^(٢) هذا لفظه . والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال ، وغشيانهم وإيلادهم ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب .

قوله : ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الْمَكِّيِّينَ ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته ، وهي أعلى من الأولى . فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ﴾ أي الملك ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّيَ مَا يَشَاءُ ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم ، لا يعجزه شيء ، ولا يتعاضمه أمر ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ﴾ أي علامة استبدل بها على وجود الولد مني ﴿ قَالَ مَائِكَتَ لَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح ، ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَالْبُكْرُ ﴾ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٤٤/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٨/٣) والحاكم في المستدرک (١٦٠/٢) والبيهقي في السنن (٧٨/٧) .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُومُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾ يَمْرُومُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمْنَاهُمْ إِلَهُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك ، أن الله قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانيا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَزَيْنَ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَخْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ ، وَأَزْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، وَلَمْ تَزْكَبْ مَرْيَمَ بِنْتُ عِمْرَانَ بَيْعِمَا قَطُّ » (١) . وعن علي بن أبي طالب ؓ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » (٢) . وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا ثَلَاثٌ ، مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيجَةُ ابْنَةُ خُوَيْلِدٍ ، وَفُضِّلَ عَائِشَةُ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثُّرَيْدِ عَلَى سَائِرِ الطُّعَامِ » (٣) .

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين ، بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة ، حيث خلق منها ولداً من غير أب فقال تعالى : ﴿ يَمْرُومُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع . عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال : « كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ الطَّاعَةُ » (٤) . وقال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها . والقنوت هو طول الركوع في الصلاة ، يعني امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ يَمْرُومُ أَقْنِي لِرَبِّكِ ﴾ قال الحسن : يعني اعبدني لربك ﴿ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أي كوني منهم .

ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جليلة الأمر : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي نقصه عليك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى ، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر . عن عكرمة قال : ثم خرجت بها يعني مريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليه السلام ، قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي أثنى ، ولا يدخل الكنيسة حائض ، وأنا لا أردّها إلى بيتي فقالوا : هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قربانا ، فقال زكريا : ادفعوها لي فإن خالتها تحتي فقالوا : لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة ، فقرعهم زكريا فكفلها .

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٨٢) وأحمد في مسنده (٣١٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٣/٧) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٢٤٣٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٦٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٦٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٧٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٥/٣) .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٥١ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا مِّنَ الْفَلِيلِ ٥٢ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥٣ .

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأنه سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون . ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك ، وسمي المسيح لكثرة سياحته . وقيل : لأنه كان مسيح القدمين لا أخصص لهما . وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات يرى بإذن الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا ، بما يوحيه الله إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به . وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَيْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه ﴿ وَمِنَ الْفَلِيلِ ﴾ أي في قوله وعمله له علم صحيح ، وعمل صالح . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا تَكَلَّمَ أَحَدٌ فِي صِغَرِهِ إِلَّا عِيسَى وَصَاحِبُ جُرْجِجٍ » (١) .

فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله ﷻ ، قالت في مناجاتها : ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ تقول : كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغيا حاشا لله ؟ فقال لها الملك عن الله ﷻ في جواب ذلك السؤال : ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء وصرح ههنا بقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ولم يقل يفعل كما في قصة زكريا ، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي فلا يتأخر شيئا ، يوجد غيب الأمر بلا مهلة .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٥٤ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الْفُلَيْنِ كَهَيْئَةِ الْطَّيْرِ فَاقْنَعُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيِّرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُرِيتُمُ الْأَكْثَمَ وَالْأَبْرَصَ وَأُمِّي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٥٥ وَمَعْسَدًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتُمْ شَيْئًا مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٦ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٥٧ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى ﷺ : إن الله يعلمه الكتاب والحكمة ، الظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة ، والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة ﴿ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ابن مريم ﷺ . وقد كان عيسى ﷺ يحفظ هذا وهذا . قوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ قائلا لهم : ﴿ أَنِّي

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨) والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) وأحمد في مسنده (٣٠٨/٢) .

قَدْ جَعَلْنَاكُمْ رِبَايَ رَيْنَ رَبِّكُمْ أَتَىٰ خَلْقُ لَكُمْ رَبِّكَ الطَّيْنُ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾ وكذلك كان يفعل ، يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله ﷻ ، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله ﴿وَأَرْسَلْنَا الْأَكْمَهَ﴾ ﴿٢﴾ قيل : إنه الذي يصير نهاراً ولا يصير ليلاً ، وقيل : بالعكس ، وقيل : الأعشى ، وقيل : الأعمش . وقيل : هو الذي يولد أعمى ، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة ، وأقوى في التحدي ﴿وَالْأَنْبَرِ﴾ ﴿٣﴾ معروف ﴿وَأَتَى الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿٤﴾ قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد . وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله ﷻ فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا أن كلام الرب ﷻ لا يشبه كلام الخلق أبداً . وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرَجُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له في بيته لعد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي في ذلك كله ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿٦﴾ أي مقررًا لها ومثبتاً ﴿وَلَا جِدْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، وانكشف لهم عن الغطاء في ذلك . ثم قال : ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٧﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴿٨﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْ أَنْصَارِيٍّ إِلَى اللَّهِ قَالَ أَلَمْ أَكُنْ مِنَ الْهَادِينَ﴾ نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون ﴿٩﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَرْسَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْمَكْرِيهِ .

يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر ، والاستمرار على الضلال قال : ﴿مَنْ أَنْصَارِيٍّ إِلَى اللَّهِ﴾ قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله . وقال سفيان الثوري : أي من أنصاري مع الله . وقول مجاهد أقرب . والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله ، كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر : «مَنْ رَجُلٌ يُؤْمِنُنِي حَتَّى أَتْلُغَ كَلَامَ رَبِّي ؛ فَإِنْ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَتْلُغَ كَلَامَ رَبِّي» (١) حتى وجد الأنصار فأوروه ونصروه ، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر ﷻ وأرضاهم . وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وأزروه ونصروه واتبعوا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٩٠) والحاكم في المستدرک (٢/٦١٣) .

ملوك اليونان يقال له : قسطنطين فدخل في دين النصرانية - قيل : حيلة ؛ ليفسده ، فإنه كان فيلسوفاً ، وقيل : جهلاً منه - إلا أنه بذل لهم دين المسيح وحرّفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة ، وأحلّ في زمانه لحم الخنزير ، وصلّوا له إلى المشرق ، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع ، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون ، وصار دين المسيح دين قسطنطين ، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد ، وبنى المدينة المنسوبة إليه ، واتبعه طائفة الملكية منهم ، وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيده الله عليهم ؛ لأنه أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله ، فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض ، إذ قد صدّقوا الرسول النبي الأمي العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الإطلاق ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، مما قد حرّفوا وبدّلوا ، ثم لو لم يكن شيء من ذلك ، لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين ، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم ﷻ في قوله : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلاَتُكِنَّ لَهُمْ دِينُهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيَسْلُبْهُمْ مِمَّا بَعْدَ حَوْفِهِمْ أَتَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ الآية . فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً ، سلبوا النصراني بلاد الشام ، وألجأوهم إلى الروم ، فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية ، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة . وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستغيثون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلاً لها ، ولا يرون بعدها نظيرها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ذُرِّيَّةَ كَفَرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَخْبَرُهُمْ إِنَّكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ نَخْلَفُونَ ﴾ ٥٥ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصراني ، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفيته أمره ، هو بما قاله تعالى ، وأوحاه إليك ، ونزله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مزية فيه ولا شك .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ هَادِثٍ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ٥٦ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ٥٧ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَمَّالُوا نَدْعُ أَنْبَاءَنَا وَنَبِّئُكُمْ وَنَسَاءَنَا وَنَسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ ٥٨ ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُكَ اللَّهُ ﴾

لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ .

يقول جل وعلا : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في قدرة الله ، حيث خلقه من غير أب ﴿ كَشَلِّ أَدَمَ ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب ، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى ، وإن جاز ادعاء البنية في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب ، فجاوز ذلك في آدم بالطريق الأولى . ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل ، فدعواهم في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً ، ولكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا بطلاناً وأظهر فساداً ، لكن الرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَلَنَجْكَفَنَّ آيَةَ النَّاسِ ﴾ وقال ههنا : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ مِنْ رَبِّكَ فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْقَوْلِ فَقُلْ تَقَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ ثُمَّ نَبْتَلِ ﴾ أي نلتعن ﴿ فَتَجْعَلْ لَّنَّكَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي منا ومنكم .

وكان سبب نزول هذه المباهلة في وفد فخران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من البنية والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم . كما ذكر ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره . وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى فخران ، ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس بن الحارث ، وزيد ، وقيس ، ويزيد ، وابناه وخويلد ، وعمرؤ ، وخالد ، وعبد الله ، ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه . والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم . وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه ، وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة . ولكن حملة ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الخبرات جيب وأردية ، في جمال رجال بني الحارث بن كعب قال : يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ : ما رأينا بعدهم وفذاً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « دَعُوهُمْ » فصلوا إلى المشرق . قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة ، والعاقب عبد المسيح ، والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين الملك ، مع اختلاف أمرهم ، يقولون : هو الله ، ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم : هو الله ؛ بأنه كان يحيي الموتى ويرئ الأكمه والأبرص والأسقام

ويخبر بالغيوب . ويخلق من الطين كهية الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ، وذلك كله بأمر الله . وليجعل الله آية للناس . ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله . ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون : لو كان واحدا ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقنا ، ولكنه هو وعيسى ومريم - تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا - وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ، فلما كلمه الخبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : « أَشْلِمَا » قالا : قد أسلمنا . قال : « إِنَّكُمَا لَمْ تُشْلِمَا ، فَأَشْلِمَا » قالا : بلى قد أسلمنا قبلك ، قال : « كَذَّبْتُمَا ، يَمْتَنِعُكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ ادْعَاؤُكُمَا لِلَّهِ وَلَدًا ، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبِ ، وَأَكْلُكُمَا الْخَنْزِيرِ » قالا : فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجيبهما ؟ فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها . ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال : قلما أتى رسول الله ﷺ الخير من الله ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ، ثم خلوا بالعاقب - وكان ذا رأيهم - فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبيا قط بقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أيتيم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبي ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : « أَتُونِي الْعَشِيَّةَ أَبْعَثْ مَعَكُمْ الْقَوِيَّ الْأَمِينَ » فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجرا ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يلتمس بصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه ، فقال : « اخْرِجْ مَعَهُمْ فَأَقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه . وعن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناهما فقال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناهما لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا إلا أمينا فقال : « لَا تَبْعَثْ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ » فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : « قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ » فلما قام قال رسول الله ﷺ : « هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ » ^(١) . وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل قبحه الله : إن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته قال : فقال : « لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ بِالْمَلَائِكَةِ عَيْنَانِ ، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَتُّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا وَلَوْ أَنَّ مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يَبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا مَالًا وَلَا أَهْلًا » ^(٢) . والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع ؛ لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٨٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٥٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٥٨) وأحمد في مسنده (٢٤٨/١) .

إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ، وهي في قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فإن تولوا ﴿ أي عن هذا إلى غيره ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبجمده ، ونعوذ به من حلول نقمته .

﴿ قَدْ يَأْكُلُ الْكَتَابَ تَمَلَّؤْا إِنَّ كَلِمَتَهُ سَوَّلَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَوُ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ قَدْ يَأْكُلُ الْكَتَابَ تَمَلَّؤْا إِنَّ كَلِمَتَهُ سَوَّلَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَوُ ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سَوَّلَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَوُ ﴾ أي عدل ونصف ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرهما بقوله : ﴿ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ لا وثنا ولا صليتا ولا صنفا ولا طاغوتا ولا نازا ولا شيئا ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وقال ابن جريج : يعني يطيع بعضنا بعضا في معصية الله . وقال عكرمة : يسجد بعضنا لبعض ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف ، وهذه الدعوة ، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم . وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن أبا سفيان إذ ذاك كان مشركا لم يسلم بعد ، وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح كما هو مصرح به في الحديث ، ولأنه لما سأله هل يغدر ؟ قال : فقلت : لا ، ونحن منه في مدة لا نلري ما هو صانع فيها ، قال : ولم يمكنني كلمة أزيد فيها شيئا سوى هذه ، والغرض أنه قال : ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى . أَمَّا بَعْدُ فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ ، وَأَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْإِثْمُ الْأَرِيسِيِّنَ ، وَ ﴾ يَأْكُلُ الْكَتَابَ تَمَلَّؤْا إِنَّ كَلِمَتَهُ سَوَّلَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَوُ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿ ١ ﴾ .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران . وقال الزهري : هم أول من بذل الجزية ، ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمد ابن إسحاق والزهري ؟ والجواب من وجوه :

أحدها : يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين ، مرة في الحديبية ومرة بعد الفتح .

الثاني : يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية ، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك ، ويكون قول ابن إسحاق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ لدلالة حديث أبي سفيان .
الثالث : يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وأن الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية ، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة ، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك ، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر ، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك .

الرابع : يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ، ثم أنزل القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى ، وفي عدم الصلاة على المنافقين ، وفي قوله : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَابِرِهِمْ نُصُلًا ﴾ وفي قوله : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْزَاقًا خَيْرًا مِنْكَ ﴾ الآية .

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَتَبَ لِمَ تُحَاجُّوهُ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَدْوَةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾
هَكَانَتْ هَذِهِ حَاجَّتُهُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوهُ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ .

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم . عن ابن عباس ؓ : اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديًا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَتَبَ لِمَ تُحَاجُّوهُ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية . أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديًا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيًا وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَكَانَتْ هَذِهِ حَاجَّتُهُ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوهُ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ الآية . هذا إنكار على من يحتاج فيما لا علم له به ، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليلاتها . ولهذا قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .
ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ أي متحنفًا عن الشرك ، قاصدًا إلى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبي يعني محمدًا ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلَايَةٌ مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ وَلِيَّيَ مِنْهُمْ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ » ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا^(١) . وقوله ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله .
 ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يتأهل الكتاب لم
 تَكْفُرُوا بِحَاثِيَةِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ﴾ الحق بالباطل وتكفون الحق وأنت تعلمون ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَآفِكُوا مَا جِئَكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا
 تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ
 بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿يَخْضُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيتهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على
 أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم مذكور بهم . ثم قال تعالى منكراً عليهم : ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ
 بِحَاثِيَةِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي تعلمون صدقها ، وتحققون حقها : ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُوتُ الْحَقَّ
 بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك
 وتحققونه ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَآفِكُوا مَا جِئَكُمْ بِهٖ
 لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن
 يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ،
 ليقول الجبهة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلأعهم على نقصة وعيب في دين المسلمين ولهذا
 قالوا : ﴿لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن ابن عباس : قالت طائفة من أهل الكتاب : إذا لقيتم أصحاب محمد أول
 النهار فآمنوا ، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سرهم وما عندكم إلا
 لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم . قال الله تعالى :
 ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده
 ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات ، وإن كنتم أيها
 اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله : ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم
 للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به ، أو يحاجوكم به عند
 ربكم ، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة ، وترتكب الحجة في الدنيا
 والآخرة . قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي
 المانع ، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم
 على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامة والحكمة البالغة : ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يَخْضُ
 بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحَدُّ ولا يوصف بما
 شرف به نبيكم محمداً ﷺ وعلى سائر الأنبياء ، وهذاكم به إلى أكمل الشرائع .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ يَفْطَرِ يُوَدِّعُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ يَدِينَا لَا يُؤَدِّعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ﴿٧٥﴾ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِطَارٍ ﴿٧٦﴾ أَيِ مِنَ الْمَالِ ﴿٧٦﴾ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ ﴿٧٦﴾ أَيِ وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأُولَى أَنْ يُؤَدَّهِ إِلَيْكَ ﴿٧٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴿٧٦﴾ أَيِ بِالْمَطَالَةِ وَالْمَلَاظِمَةِ وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعَهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أُولَى أَنْ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ . عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : إِنَّمَا سُمِّيَ بِالدِّينَارِ لِأَنَّهُ دِينَارٌ وَنَارٌ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ فَهُوَ دِينُهُ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ فَلَهُ النَّارُ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ : ائْتِنِي بِالشَّهَادَةِ أَشْهَدُهُمْ ، فَقَالَ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ : ائْتِنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ : كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا قَالَ : صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى . فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا لِيَقْدَمَ عَلَيْهِ فِي الْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشْبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ زَجَجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى يَهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسَلَفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلْتَنِي شَهِيدًا فَقُلْتَ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ، وَسَأَلْتَنِي كَفِيلًا فَقُلْتَ : كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَفَرَضِي بِكَ ، وَإِنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثَ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ ، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا ، فَرَمَى يَهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ لِيَنْظُرَ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ ، فَإِذَا بِالْخَشْبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا ، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ . ثُمَّ قَدَّمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسْلَفُ مِنْهُ فَأَتَاهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لَأَتِيكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتَ فِيهِ ، قَالَ : هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ ؟ قَالَ : أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا ؟ قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشْبَةِ ، فَانْصَرَفَ بِأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا ^(١) .

وقوله ﴿٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْتَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِينَ سَبِيلٌ ﴿٧٥﴾ أَيِ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى جَحْدِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأَمِينِ وَهُمْ الْعَرَبُ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَاهَا لَنَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٧٥﴾ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ أَيِ وَقَدْ اخْتَلَقُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَاسْتَفْكَوْهَا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَهْتٌ . عَنْ أَبِي صَعْصَعَةَ بْنِ يَزِيدٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ ، فَقَالَ : إِنَّا نَصِيبُ مِنَ الْغَزْوِ مِنْ أَمْوَالِ أَهْلِ الذِّمَّةِ الدَّجَاجَةِ وَالشَّاةِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَتَقُولُونَ : مَاذَا ؟ قَالَ : نَقُولُ : لَيْسَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ بَأْسٌ ، قَالَ : هَذَا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ : ﴿٧٥﴾ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِينَ سَبِيلٌ ﴿٧٥﴾ إِنَّهُمْ إِذَا أَدَوْا الْجِزْيَةَ لَمْ تَحُلْ لَكُمْ أَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِطَبِيبٍ أَنْفُسَهُمْ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : لَمَّا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ : ﴿٧٥﴾ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِينَ سَبِيلٌ ﴿٧٥﴾ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ : « كَذَبَ أَغْدَاءُ اللَّهِ ، مَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ ، إِلَّا الْأَمَانَةُ فَإِنَّهَا مُؤَدَّاةٌ إِلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ » ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿٧٦﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى ﴿٧٦﴾ أَيِ لَكِنْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، الَّذِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) والبيهقي في السنن (٧٦/٦) .

(٢) هذا الحديث مرسل لأن سعيد بن جبير تابعي ، ورواه الطبري في تفسيره (٤٣٢/٣) .

عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث ، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأمرهم بذلك ،
واتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَعِزُّهُمُ اللَّهُ وَيُغْنِيهِمْ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : إن الذين يخاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس ،
وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة
الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها
﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أي برحمة منه لهم يعني لا يكلمهم الله كلام لطف
بهم ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلى
النار ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة منها : عن عدي هو ابن
عميرة الكندي قال : خاصم رجل من كندة يقال له : امرؤ القيس بن عامر رجلاً من حضرموت إلى
رسول الله ﷺ في أرض ، فقاضى على الحضرمي بالبيئة ، فلم يكن له بيعة ، فقاضى على امرئ القيس
باليمين ، فقال الحضرمي : أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت ورب الكعبة أرضي ، فقال النبي
ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ ؛ لَقِمَى اللَّهُ عَنَّا وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ » قال
رجاء : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَعِزُّهُمُ اللَّهُ وَيُغْنِيهِمْ تَمَنَّا قَلِيلًا ﴾ فقال امرئ القيس : ماذا
لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : « الجنة » قال : فاشهد أنني قد تركتها له كلها ^(١) .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ
امْرِئٍ مُسْلِمٍ ؛ لَقِمَى اللَّهُ عَنَّا وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ » فقال الأشعث : في والله كان ذلك ، كان بيني وبين
رجل من اليهود أرض فجددني أرضي ، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ :
« أَلَمْ يَبَيِّنْ » قلت : لا ، فقال لليهودي : احلف . فقلت : يا رسول الله إذا يحلف فيذهب مالي
فأنزل الله ﷻ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَعِزُّهُمُ اللَّهُ وَيُغْنِيهِمْ تَمَنَّا قَلِيلًا ﴾ ^(٢) الآية .

وعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِبَادًا لَا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ » قيل : ومن أولئك يا رسول الله ؟ قال : « مُتَّبِعُونَ مِنْ وَالِدَيْهِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا ،
وَمُتَّبِعُونَ مِنْ وَلَدِهِ ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَكَفَرُوا بِغَفَّتِهِمْ وَتَوَبَّأُوا مِنْهُمْ » ^(٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا
يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ
الْعَصْرِ يَعْنِي كَاذِبًا ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَّى لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ » ^(٤) .
﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٥٩) وأحمد في مسنده (١٩٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤١٦) وأحمد في مسنده (٢١١/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣) . (٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٤٦) .

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله - أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهالة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقال مجاهد وغيره : ﴿ يَكُونُ أَلْسِنَتُهُم بِالْكِتَابِ ﴾ يحرفونه . وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيلون ، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله ، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله . وقال وهب بن منبه : إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى لم يغير منهما حرف ، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل ، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول . فإن عني وهب ما بأيديهم من ذلك ، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص . وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير ، وزيادات كثيرة ونقصان ، ووهم فاحش ، وهو من باب تفسير المعرب المعبر وفهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد . وأما إن عني كتب الله التي هي كتبه من عنده فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْكُفَّةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأخبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ قال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعوننا ؟ أو كما قال ، فقال رسول الله ﷺ : « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَأَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، مَا بِذَلِكَ بَعْثَنِي ، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي » أو كما قال ﷺ ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ إلى قوله ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) . فقوله ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس : اعبدوني من دون الله ، أي مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى . ولهذا قال الحسن البصري : لا ينبغي هذا المؤمن أن يأمر الناس بعبادته ، قال : وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً يعني أهل الكتاب ، كانوا يعبدون أبحارهم وورهبانهم . فالجهلة من الأبحار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ؛ فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه رسله الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه ، وبلغتهم إياه رسله الكرام . فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٤١/٣) .

أثم القيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوهم الحق ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيين ، قال ابن عباس وأبو رزين وغير واحد : أي حكماء علماء حلماء . وقال الحسن وغير واحد : فقهاء . وقال الضحاك في قوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيها ، ﴿ تُعْمَلُونَ ﴾ أي تفهمون معناه ، وقرئ ﴿ تُعْلَمُونَ ﴾ بالتشديد من التعليم ^(١) . ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تحفظون ألفاظه . ثم قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا اللَّاتِيكَةَ وَالنِّسْيَانَ أَرْبَابًا ﴾ أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر . والأنبياء يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ . ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ حَتِّبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٠﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمن به ولينصره ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته . ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ حَتِّبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أي لهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ميثاقى الشديد المؤكد ﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٠﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنه : ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لمن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمن به ولينصره ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لمن بعث محمداً وهم أحياء ليؤمن به ولينصره ^(٢) . وقال طائوس والحسن البصري وقادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً . وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفى ، بل يستلزمه ويقتضيه .

وعن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت : قلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسري عن النبي ﷺ وقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عليه السلام ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ ؛ إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْإِيمَانِ ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ » ^(٣) . فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، هو الإمام الأعظم

(١) قرأ ابن عامر والكوفيون (تُعْلَمُونَ) بضم التاء وفتح العين وكسر اللام مشددة ، والباقون بفتح التاء واللام وسكون العين (انظر : تقريب

النشر ص : ١٠١) .

(٢) أخرجه : أحمد في مسنده (٥٣٣/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٧/٣) .

الذي لو وجد في أي عصر وجد ، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب ﷻ لفصل القضاء بين عبادہ ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين ، حتى تنتهي النبوة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ أَفَعَدَّ دِينَ اللَّهِ يَجْعَلُونَ كَلَهُمْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ٨١ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ٨٢ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٨٣ .

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهاً ؛ فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم ، الذي لا يخالف ولا يمانع . وقد ورد في الصحيح « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُعَادُونَ إِلَى الْحَيْثُ فِي السَّلَاسِلِ » ^(١) ولكن المعنى الأول للآية أقوى . عن ابن عباس ﴿ كَلَهُمْ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال : حين أخذ الميثاق ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلًا بعمله .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يعني بالقرآن ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي من الصحف والوحي ﴿ وَالْأَسْبَاطَ ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم ﴿ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فالؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نَجِيءُ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصَّلَاةُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصَّدَقَةُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ ، فَيَقُولُ : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَتَقُولُ : يَا رَبِّ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ ، بِكَ الْيَوْمَ أَخُذُ ، وَبِكَ أُعْطِي » ^(٢) . قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٠) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٢) .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ .

عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزلت : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم . عن مجاهد قال : جاء الحارث ابن سويد فأسلم مع النبي ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه ، فأنزل الله فيه ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرا عليه ، فقال الحارث : إنك - والله ما علمت - لصدوق ، وإن رسول الله لأصدق منك ، وإن الله لأصدق الثلاثة قال : فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه (١) . فقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي في اللعنة ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهٖ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ .

يقول تعالى متوعدا ومهددا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرا ، أي استمر عليه إلى الممات ، ومخبرا بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات ﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهٖ ﴾ أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قرابة . كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدُّهْرِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (٢) . وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ ﴾ ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهٖ ﴾ فعطف ﴿ وَلَوْ ﴾

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٦٠/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٠٥/٢) وأحمد في مسنده (١٢٠/٦) .

أَفَتَدْعِي بِهِ؟ ﴿١﴾ على الأول فدل على أنه غيره ، وما ذكرناه أحسن من أن يقال إن الواو زائدة والله أعلم .
ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً . ولو افتدى نفسه من
الله بملء الأرض ذهباً بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها . عن أنس بن
مالك ، أن النبي ﷺ قال : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ
عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَيْدِكَ أَدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَيَّتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ » ^(١) . ولهذا قال : ﴿ أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ تَعْمِيرٍ ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه .
﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ .

عن عمرو بن ميمون ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ ﴾ قال : الجنة . وعن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر
الأنصار بالمدينة مالاً ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ
يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما نزلت ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ قال أبو
طلحة : يا رسول الله إن الله يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء ،
وإنها صدقة أرجو بها برها وذخراها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي
ﷺ : « بخ بخ ، ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح ، وَقَدْ سَمِعْتُ ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ » فقال
أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسما أبو طلحة في أقاربه وبني عمه ^(٢) . وفي الصحيحين أن عمر
قال : يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخير مما تأمرني به ؟ قال :
« خَيْسُ الْأَضَلِّ ، وَسَبِيلُ الثَّمَرَةِ » ^(٣) . وعن حمزة بن عبد الله بن عمر قال : قال عبد الله : حضرني
هذه الآية ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ ﴾ فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئاً أحب إلي من
جارية لي رومية فقلت : هي حرة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها .
﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ جَلًا لَيْسَ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا
بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(٤) فَمَنْ أَفَرَّغَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأَوَلَيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥﴾ قُلْ
صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ .

قال ابن عباس : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك
عنهن ، لا يعلمهن إلا نبي ، قال : « سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ وَمَا أَخَذَ يَغْفُوبُ
عَلَى بَنِيهِ ، لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ » قالوا : فذلك لك ، قالوا : أخبرنا
عن أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم لإسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف
يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأُمِّي في النوم ؟ ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم
العهد لئن أخبرهم ليتابعنه فقال : « أَنَشُدُّكُمْ بِالَّذِي أَنزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ
مَرِضٌ مَرَضًا شَدِيدًا وَطَالَ سَقَمُهُ ، فَتَدَرَّ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيَحْرِمَنَّ أَحَبَّ الطَّعَامِ

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٢) وأحمد في مسنده (١٢٧/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٨) ومسلم في الزكاة (٦٩٤٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٤/٢) . والبيهقي في السنن (١٦٢/٦) .

وَالشَّرَابِ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمُ الْإِبِلِ ، وَأَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ الْبَيِّنَاتُهَا » فقالوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ فقال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ » . وقال : « أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَيْضُ غَلِيظٌ ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ أَضْفَرُ رَقِيقٌ ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ، إِنْ عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِنْ عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ » قال : « وَأَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ ؟ » قالوا : اللهم نعم ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » قال : « وَإِنَّ وَلِيِّيَ جِبْرِيلَ ، وَلَمْ يَتَعَثَّ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ » قالوا : فعند ذلك نفارقت ، ولو كان وليك غيره لتابعتك ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قَدْ مَنَّ كَانَتْ عَذْوًا لِّجِبْرِيلَ ﴾ ^(١) الآية . وقوله : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ ﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت : ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان :

أحدهما : أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله : ﴿ لَنْ نَنَاقُوا آلَ اللَّهِ حَتَّى تَخُفُّوا مِمَّا خُبُونُ ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهي .

المناسبة الثانية : لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح ، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه ، وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه ، كيف خلقه الله بعذوته ومشيتته ، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ؛ فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله سبحانه قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التمري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة ، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه ، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنْزَلَ التَّوْرَةُ ﴾ أي كان حلالاً لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿ فَمَنْ أَنْزَلَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاطِلُونَ ﴾ أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائماً ، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد

هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ أي قل يا محمد : صدق الله فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا آيين ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي مَدَنِي رِيقًا مَكْرُومًا مَسْتَقِيمًا دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي يزعم كل من طائفتي النصراني واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ، ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أي وضع مباركًا ﴿ وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » قلت : ثم أي قال : « ثُمَّ حَيْثُ أَذْرَكَكَ الصَّلَاةُ فَضَلَّ فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ » ^(١) . وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ قال : كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله . وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقًا ، والصحيح قول علي رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور ، قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبارة ، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها . وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدهمون . قال قتادة : إن الله بك به الناس جميعًا فيصلح النساء أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها . وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : مكة من الفج إلى التنعيم ، وبكة من البيت إلى البطحاء . وقال المغيرة : بكة البيت والمسجد . وقال ميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة ، وما وراء ذلك مكة . وقال مقاتل بن حيان : بكة موضع البيت ، وما سوى ذلك مكة . وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، مكة ، وبكة ، والبيت العتيق . والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، والمأمون ، وأم رحم ، وأم القرى ، وصلاح ، والعرش ، على وزن بدر ، والقادس لأنها تطهر من الذنوب ؟ والمقدسة ، والناسة بالنون ، وبالباء أيضًا والبلسة ، والحاظمة ، والرأس ، وكوثاء ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة .

وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم ، وأن الله عظمه وشرفه ، ثم قال تعالى : ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران ، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل ، وقد كان ملتصقًا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه في إماراته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١) وأحمد في مسنده (١٥٠/٥) .

بعد الطواف ؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال : ﴿ وَأَخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ ﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِيهِ مَائَتٌ بَيِّنَةٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي فمنهم مقام إبراهيم والمشاعر . وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بيّنة . وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة .

وَمَوْطِئِيْ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ خَافِيَا غَيْرَ نَاعِلِ

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال : الحرم كله مقام إبراهيم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ يعني حرم مكة ، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم ، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاده البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ، فإذا خرج أخذ بذنبه ، وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطيد صيدها وتنفيه عن أوكاره ، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها ، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك . عن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتٌ ، وَإِذَا اسْتَفْرَضْتُمْ فَأَنْقِرُوا » ^(١) . وقال يوم فتح مكة : « إِنَّ هَذَا بِلَدَ حَرَمِهِ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؛ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَطْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُغْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنْقَرُ صَبْدُهُ ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْعُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم ، فقال : « إِلَّا الإذخر » ^(٢) . وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزرة بسوق مكة يقول : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل : بل هي قوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا لِنُحُجٍّ وَالْمَمَرَةِ قُدَّ ﴾ والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحُجُّ فَحُجُّوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِيتُ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ » ثم قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَكْرَةِ شَوَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ » ^(٤) . وعن سراقه بن مالك قال : يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال : « لَا . بَلَى لِلْأَبَدِ » وفي رواية « بَلَى لِلْأَبَدِ الْأَبَدِ » ^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٨٧) ومسلم في الحج (٤٤٥) وأحمد في مسنده (٣١٥/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٥/٤) والحاكم في المستدرک (٧/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢٩١/١) .

(٥) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٣٢٦/٤) .

وأما الاستطاعة فأقسام : تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه ، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام . عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : « الشعث التفل » فقام آخر قال : أي الحج أفضل يا رسول الله ؟ قال : « العجج والثجج » فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : « الزاد والزاجلة » ^(١) . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ - يعني الفريضة - فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَا يَذِرِي مَا يَغْرِضُ لَهُ » ^(٢) . وعنه في قوله تعالى : ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ قال : من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلاً . وعن عكرمة قال : السبيل الصحة . وعن ابن عباس قال : « الزاد والبيعير » .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر ، والله غني عنه . وعن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ قال اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله ﷻ : فأخصمهم فحجهم ، يعني فقال لهم النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ فَوَضَّ عَلَى الْمُشْلِمِينَ حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) . وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَلَكَ زَادًا وَزَاجِلَةً وَلَمْ يَحُجَّ بَيْتَ اللَّهِ ، فَلَا يَضُرُّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) وعن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد هممت أن أبعث رجلاً إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليه الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين .

﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاعتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما بشروا به ونوَّهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم ، وخاتم الأنبياء ، ورسول رب الأرض والسماء ، قد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك ، بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزئهم على ذلك ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . ﴾ ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ يُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

يحذّر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، وما منحهم من إرسال رسوله .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣١٤ / ١) .

(٤) أخرجه الترمذي في الحج (٨١٢) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣٣٠ / ٤) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤ / ٤) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَفَى تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالِ عَلَيْهِمْ مَا أَنْتَ اللَّهُ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ يعني أن الكفر بعيد منكم ، وحاشاكم منه ، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً ، وهو يتلوها عليكم ويلفها إليكم ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَمْنَمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي ومع هذا فلا اعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباحدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد وحصول المراد .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

عن عبد الله بن مسعود ﴿ أَنْفَعُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وروي عن أنس أنه قال : لا يبقى الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم والسدي وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَأَقْضُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَنْفَعُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ قال : لم تنسخ ، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه ، أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه ، فصياداً بالله من خلاف ذلك .

قال مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت ، وإن ابن عباس جالس معه محجن ، فقال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَعُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْبَسَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ ، فَكَيْفَ يَمُنُّ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ ؟! ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُخْرِجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَنْذِرْهُ مَيْتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » ^(٢) .
وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُخَيِّسُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ » ^(٣) . وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ قَالَ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَإِنْ ظَنَّنِي خَيْرًا فَلَهُ ، وَإِنْ ظَنَّنِي شَرًّا فَلَهُ » ^(٤) .

وعن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريضاً فجاءه النبي ﷺ يعودُه فوافقه في السوق فسلم عليه فقال له : « كَيْفَ أَنْتَ يَا فُلَانُ ؟ » قال : بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبي ، فقال

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٩٤/٢) وأحمد في مسنده (٣٠٨ ، ٣٠١/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) وأحمد في مسنده (١٩٢/٢) والبيهقي في السنن (١٦٩/٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨١) وأحمد في مسنده (٣٢٥/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦/٤) والمنذري في الترغيب (٤٧٧/٢) .

رسول الله ﷺ : « لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبٍ غَيْبٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو ، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ » ^(١) . وعن حكيم بن حزام قال : بايعت رسول الله ﷺ أن لا أخرج إلا قائماً ^(٢) ، قيل معناه : أن لا أموت إلا مسلماً ، وقيل : معناه أن لا أقتل إلا مقبلاً غير مدبر ، وهو يرجع إلى الأول . وقوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ قيل : ﴿ بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها ﴿ صُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذِّكْرُ أَيْنَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي بعهد وذمة ، وقيل : ﴿ بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ ﴾ يعني القرآن ، كما في حديث علي مرفوعاً في صفة القرآن : « هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والاتلاف ، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ اللَّهُ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَسْخَطَ لَكُمْ ثَلَاثًا : يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَقْبَلُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَقْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تُتَاصِحُوا مِنْ وَلَاءِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ . وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ » ^(٤) وقد ضمننت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا . وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار ، وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا يَمَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ إلى آخر الآية . وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ؛ فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية ، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وذحول ، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم . فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان . وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَمَ غنائم حنين فعتب من عتب منهم بما فضّل عليهم في القسمة بما أراه الله ، فخطبهم فقال : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ يَي ، وَكُتِّمُ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ يَي ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ يَي ؟ » فكلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمن ^(٥) . وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره : أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج ، وذلك أن رجلاً من اليهود مر بجلأ من الأوس والخزرج فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة ، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعث وتلك الحروب ، ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتباوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرية ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول : « أَبِذْعَوِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ؟ » وتلا عليهم هذه الآية ، فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٢/٣) .

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢/٨) .

(٣) أخرجه الدارمي في السنن (٤٣١/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الأفضية (٣) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٢) والبيهقي في السنن (١٦٣/٨) ومالك في الموطأ (٩٩٠) .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) والبيهقي في السنن (٣٣٩/٦) .

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَكَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٦﴾ .

يقول تعالى : ولكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأولئك هم المفلحون . قال الضجك : هم خاصة الصحابة ، وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء . والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدة لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَنْهَهِ يَدِيهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » (١) . وعن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَتَعَثَّ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَذَعْتُهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الآية ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمة الماضية في افتراقهم واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع قيام الحجة عليهم .

عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي ذِيهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِائَةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِائَةً - يعني الأهواء - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وهي الجماعة - وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ فِي أَمْنِي أَقْوَامَ تَتَجَارَى بِهِمُ الْأَهْوَاءُ ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ ، لَا يَتَّقِي مِنْهُ عِزُّهُ وَلَا مِفْضَلُ إِلَّا قَحْلَهُ » (٣) والله يا معشر العرب لمن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس ؓ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ قال الحسن البصري : وهم المنافقون ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعني الجنة ما كانوا فيها أبداً ، لا ييغون عنها حولا . وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية : عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق ، فقال أبو أمامة : كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه ، ثم قرأ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ إلى آخر الآية . قلت لأبي

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٧٣) والسنائي في السنن (١١١/٨) وأحمد في مسنده (٥٢/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٩) وأحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والطبراني في الكبير (١٨٠/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٢/٤) والحاكم في المستدرک (٢٢٨/١) .

أمامة : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : لو لم أسمعهُ إِلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً - حتى عدَّ سبعاً - ما حدثكموه (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكُمْ ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبيناته تنتلوها عليكم يا محمد ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور ؛ لأنه القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يَوْلُوكُمْ الْقَادِرَاتُ ثُمَّ لَا يَضُرُّونَ ﴾ (٢) ضَرَبَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ إِنْ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَيَأْتُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ عن أبي هريرة ؓ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : خير الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام . والمعنى : أنهم خير الأمم ، وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . عن درة بنت أبي لهب قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول الله : أي الناس خير ؟ قال : « خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَاهُمْ وَأَتْقَاهُمْ لِلَّهِ ، وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَوْصَلُهُمُ لِلرَّحِمِ » (٣) . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة . والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . وعن معاوية بن حيدة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ ﷻ » (٤) وهو حديث مشهور ، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه أشرف خلق الله ، وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم ، لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل . فالعمل على منهج الله وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيره مقامه . وعن علي بن أبي طالب ؓ يقول : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَتْ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ » قلنا : يا رسول الله ما هو ؟ قال : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ الْأَرْضِ ، وَسُمِّيَتْ أَحْمَدَ ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا ، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ » (٥) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : سمعت أبا الدرداء ؓ يقول : سمعت أبا القاسم ؓ وما سمعته يكتنيه قبلها ولا بعدها يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَا عِيسَى ابْنِي بَاعِثْ بَعْدَكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٠٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٢/٦) والبيهقي في مجمع الزوائد (٢٦٣/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٥) والحاكم في المستدرک (٨٤/٤) والطبراني في الكبير (٤٢٢/١٩) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٨/١) والبيهقي في السنن (٢١٣/١) .

يُجِيبُونَ حَمْدًا وَسُكُورًا ، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ اخْتَسَبُوا وَصَبَرُوا ، وَلَا جَلَمَ وَلَا عِلْمَ قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ هَذَا لَهُمْ وَلَا جَلَمَ وَلَا عِلْمَ ؟ قَالَ : أُعْطِيَهُمْ مِنْ جِلْنِي وَعِلْمِي » (١) .

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فقال عمر : يا رسول الله فهلا استردته ؟ فقال : « اسْتَرَدَّتهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » قال عمر : فهلا استردته قال : « قَدْ اسْتَرَدَّتهُ فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » قال عمر : فهلا استردته قال : « قَدْ اسْتَرَدَّتهُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا » وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه (٢) . وقال عبد الله : وبسط باعيه وحشا عبد الله ، وقال هاشم : وهذا من الله لا يدري ما عدده .

وعن ابن مسعود ؓ قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ثم غدونا إليه فقال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأَمِّيهَا ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يُرْوِي وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَصَابَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُ كَتَبَكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْجَبُونِي فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قِيلَ : هَذَا أَخُوكَ مُوسَى وَمَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقُلْتُ : فَأَيْنَ أُمَّتِي ؟ فَقِيلَ : انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ فَتَنْظُرُ فَإِذَا الصُّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ ، فَقِيلَ لِي : أَرْضَيْتَ فَقُلْتُ : رَضِيتُ يَا رَبِّ - قَالَ - فَقِيلَ لِي : إِنَّ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فقال النبي ﷺ : فِذَاكُمْ أَبِي وَأُمِّي إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا ، فَإِنْ قَصُرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الصُّرَابِ ، فَإِنْ قَصُرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأَفْقِ ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثُمَّ أَنَا سَائِلٌ بِتَهَاوُسُونَ » فقام عكاشة بن محصن فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم - أي من السبعين - فدعا له ، فقام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : « سَبَّكَ بِهَا عُكَّاشَةُ » قال : ثم تحدثنا قلنا : من ترون هؤلاء السبعين الألف ، قوم ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا حتى ماتوا ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « هُمْ الَّذِينَ لَا يَشْتَرِقُونَ ، وَلَا يَكْتُونُونَ ، وَلَا يَنْطَرِقُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (٣) .

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال : « لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ » (٤) قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ . إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادَ عَظِيمٍ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ، فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ . وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ فَتَنْظُرُ فَإِذَا سَوَادَ عَظِيمٍ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ فَإِذَا سَوَادَ عَظِيمٍ ، فَقِيلَ : لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ » ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا ، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « مَا الَّذِي تَحْضُونُ فِيهِ ؟ » فأخبروه فقال : « هُمْ الَّذِينَ لَا يَزُقُونَ وَلَا يَشْتَرِقُونَ ، وَلَا يَكْتُونُونَ ، وَلَا يَنْطَرِقُونَ ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٠/٦) والبيهقي في مجمع الزوائد (٦٧/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٥٦٩/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٧/١) والحاكم في المستدرک (٥٧٧/٤) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٨٤) والترمذي في السنن (٢٠٥٧) وابن ماجه في السنن (٣٥١٣) .

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم قال : «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ» (١).

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مَنْ أَمَّنَنِي أَرْبَعِينَ أَلْفَ» قال أبو بكر رضي الله عنه : زدنا يا رسول الله قال : «وَاللَّهِ هَكَذَا» قال عمر : حسبك يا أبا بكر ، فقال أبو بكر : دعني وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا ؟ قال عمر : إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد ، فقال النبي ﷺ : «صَدَقَ عُمَرُ» (٢).

وعن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أَمَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَبْعَثَنَّ مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ مِثْلَ اللَّيْلِ الْأَسْوَدِ ، زُمْرَةٌ جَمِيعُهَا يُحِيطُونَ الْأَرْضَ ، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ : لِمَ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ أَكْثَرُ مِمَّا جَاءَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ ؟» (٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ : «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟» فكبّرنا ، ثم قال : «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟» فكبّرنا ، ثم قال : «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (٤).

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبْعَ الْجَنَّةِ لَكُمْ وَلِسَائِرِ النَّاسِ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهَا ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا ؟» قالوا : ذاك أكثر ، قال : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ لَكُمْ» قالوا : ذاك أكثر ، فقال رسول الله ﷺ : «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةً صَفٌّ لَكُمْ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفًّا» (٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ ، يَبْدَأُ اللَّهُ أَوْثَارَهُمْ أَوْثَارَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأَوْثَانَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَذَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، غَدَا لِلْيَهُودِ ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» (٦).

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال : من سؤره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ الآية . ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأييدهم فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْتَوَكُّتُ وَأَكْرَمُ الْفَسِيقُونَ ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان . ثم قال تعالى مخبرًا عباده المؤمنين ومبشرًا لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧١/١) والبخاري في شرح السنة (١٣٥/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٣) والطبراني في الكبير (١٨٧/٨) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٣٧/٣) والسيوطي في جمع الجوامع (٤٢٥١) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/١) والطبراني في الكبير (٢٠٨/١٠) .

(٦) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٠) .

الملاحدين فقال تعالى : ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَذَى ثُمَّ لَا يُضْرَبُونَ﴾ هكذا وقع ؛ فإنهم يوم خير أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة وبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم بجملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿صُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَنْ مَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِحِيلٍ مِنْ اللَّهِ وَحِيلَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي أُرْزِمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا ، فلا يؤمنون ﴿إِلَّا بِحِيلٍ مِنْ اللَّهِ﴾ أي بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم ، وضرب الجزية عليهم ، والزامهم أحكام الملة ﴿وَحِيلَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أئنه واحد من المسلمين ولو امرأة ، وكذا عبد على أحد قولي العلماء ، قال ابن عباس ﴿إِلَّا بِحِيلٍ مِنْ اللَّهِ وَحِيلَ مِنَ النَّاسِ﴾ : أي يعهد من الله وعهد من الناس . وقوله : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أَلْزَمُوا ، فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿وَصُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي أَلْزَمُوا قدرًا وشرعًا . ولهذا قال : ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدًا متصلًا بذل الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله - وقبضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصي الله ، والاعتداء في شرع الله ، فعياذًا بالله من ذلك ، والله ﷻ المستعان . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار .

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ مَآثَةً أَلِيلٍ وَهُمْ يَسْتَجِدُونَ﴾ ١١٠ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١١١ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ١١٢ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١١٣ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ قال : لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ . ويؤيد هذا القول ما روي عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال : فنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ^(١) والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره ، وعن ابن عباس : أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم . أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) .

أسلموا . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَنْ أَمَلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبي الله ، فهي قائمة يعني مستقيمة ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ فَإِذَا دُاعُوا إِلَى الْآخِرِ يَأْتُوا بِهَا مَلْعُونُونَ ﴾ أي يقيمون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُمْ بِالْغَوْرِ وَالْمَعْرُوفِ وَيَهْتَدُونَ عَلَى الْمُنَارِ ﴾ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿ وَلَئِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعُوا لِآيَاتِهِ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْغَيْبِ ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿ لَنْ تَنفَعَهُمْ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراد بهم ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ثم ضرب مثلاً لما ينفعه الكفار في هذه الدار ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلٌ مَا يُلْفُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي برد شديد وقيل : برد وجليد ، وقيل : نار ، وهو يرجع إلى الأول فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار ﴿ أَصَابَتْ حَرَّتِ فَوْرٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْ ﴾ أي فأحرقتها ، يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد أن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته ، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه فكذلك الكفار يحرق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها ، كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل ، وعلى غير أساس ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مُعَقِلُونَ ﴿١١٣﴾ هَتَأْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ وَلَا يُجِيبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَصَاكُمْ عَلَيَكُمْ إِلَّا تَأْمِلُ مِنْ أَلْفَيْتُمْ قُلْ مَوْثُوا بِعَيْتِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٤﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تَصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقاتهم لا يألون المؤمنين خبلاً ، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم . وقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ ﴾ أي من غيركم أهل الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب ؓ : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين . ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استتالة على المسلمين ، وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسا ، فإذا حدثهم

بحديث لا يدرون ما هو أتوا الحسن - يعني البصري - فيفسر لهم ، قال : فحدث ذات يوم عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ، ولا تنقشوا في خواتيمكم عريثا » فلم يدروا ما هو ، فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسنا حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عريثا » فقال الحسن : أما قوله « لا تنقشوا في خواتيمكم عريثا » : محمد ﷺ ، وأما قوله : « لا تستضيئوا بنار المشركين » يقول : لا تستشيروا المشركين في أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك في كتاب الله ، ﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا بِطَانَةِ مَن دُونَكُمْ ﴾ ^(١) . هذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر « لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِيمِكُمْ عَرِيْثًا » أي بخط عربي لئلا يشابه نقش خاتم النبي ﷺ فإنه كان نقشه محمد رسول الله ؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم ، بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي سُودُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتت ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هَتَأْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ خِيَرَتُهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهرا ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة . عن ابن عباس ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أي بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . رواه ابن جرير ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلَيْكُمْ الْوَٰعِدَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ .

قال ابن مسعود والسدي والريعي بن أنس : الأنامل الأصابع . وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَٰلَمِي إِنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتُ السُّدُورِ ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ، ويغيطكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ، ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيطكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتُ السُّدُورِ ﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائرهم وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها . ثم قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَكْسِمُ حَسَنَةً نَّسُوءُهُمْ وَإِن تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَّفْرَحُوا بِهَا ﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أي جذب أو أدبيل عليهم الأعداء لما لله تعالى في ذلك من الحكمة - كما جرى يوم أحد - فرح المنافقون بذلك . قال الله تعالى مخاطبا للمؤمنين : ﴿ وَإِن تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ الآية . يرشدكم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٣) والبيهقي في السنن (٢٧/١٠) .

على الله ، الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة لهم إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .
ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَهْلِكَ ثُبُوءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ . وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ .
المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور . وعن الحسن البصري المراد بذلك يوم الأحزاب . وهو غريب لا يعول عليه . وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . قال قتادة : لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال . وقال عكرمة : يوم السبت للنصف من شوال . وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر ، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان قال أبناء من قتل ، ورؤساء من بقي لأبي سفيان : ارصد هذه الأموال لقتال محمد ، فأنفقوها في ذلك ، فجمعوا الجموع والأحايش ، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريتا من أحد ، تلقاء المدينة ، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة ، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك ابن عمرو ، واستشار رسول الله ﷺ الناس : أَيُخْرِجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُتُ بِالْمَدِينَةِ ، فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة ، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم ، فدخل رسول الله ﷺ فليس لأمرته وخرج إليهم ، وقد ندم بعضهم ، وقالوا : لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إن شئت أن نمكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مَا يَنْبَغِي لِيَنْبِي إِذَا لَبَسَ لَأْمَتُهُ أَنْ يَرْجَعَ حَتَّى يَخُكَّمَ اللَّهُ لَهُ » فسار ﷺ في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبي بثلاث الجيش مغضبًا لكونه لم يرجع إلى قوله ، وقال هو وأصحابه : لو نعلم اليوم قتالًا لاتبعناكم ، ولكننا لا نراكم تقاتلون . واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : « لَا يُقَاتِلُنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » .

وتهاى رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعائة من أصحابه ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف . والرماة يومئذ خمسون رجلًا فقال لهم : « انْفَضُّوا الْخَيْلَ عَنَّا ، وَلَا تُؤْتِيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ ، وَالزَّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتْ الثُّوبَةُ لَنَا أَوْ غَلِيَّتَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُنَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ » وظهر رسول الله ﷺ بين درعين ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار . وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وآخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين ، وتهيأت قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مائة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل ، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَهْلِكَ ثُبُوءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ ۝ أَي تَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ ،

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٦٤/٢ - ٧١) .

وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم .
وقد أورد ابن جرير ههنا سؤالاً حاصله : كيف تقولون إن النبي ﷺ خرج إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدًا لِلْقِتَالِ ﴾ الآية . ثم كان جوابه عنه أن غدوه ليومهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ قال عمر : سمعت جابر بن عبد الله يقول : فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ الآية . قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب - وقال سفيان مرة : وما يسرني - أنها لم تنزل لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ أي يوم بدر ، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه . هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم فارسان وسبعون بعيراً ، والباقيون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه . وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد ، والبيض ، والعدة الكاملة ، والخيول المسؤومة ، والحلي الزائد . فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه وتنزله ، وبفض وجه النبي وقبيله ، وأخزى الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ أي قليل عددكم ، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله ، لا بكثرة العدد والعدد . عن سماك قال : سمعت عياضاً الأشعري قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء ، أبو عبيدة وزيد بن أبي سفيان وابن حسنة وخالد بن الوليد ، وعياض - وليس عياض هذا الذي حدث سماكاً - قال : وقال عمر : إذا كان قتالاً فعليكم أبو عبيدة ، قال : فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت ، واستمددناه ، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني ، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً ، وأحصن جنداً ، لله ﷻ ، فاستنصروه ؛ فإن محمداً ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني . قال : فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ ، قال : وأصبنا أموالاً فتشاورنا ، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة . قال : وقال أبو عبيدة : من يراهنني ؟ فقال شاب : أنا إن لم تغضب ، قال : فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة ، يفران وهو خلفه على فرس أعرابي ^(٣) . وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف بغيرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له بدر بن النارين ، قال الشعبي : بدر بئر لرجل يسمى بدرًا . وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾ أي تقومون بطاعته .

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ دَرَجَتَكُمْ بِلِقَائِهِ مِنَ الْمَلَكِ مُزَلِّينَ ۖ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَتَذَكَّرُ لَكُمْ بِحَسَنَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَكِ مُسَوِّمِينَ ۖ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لَكُمْ وَلَظْفَيْنَ فُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَنِيزُ الْحَكِيمُ ۖ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا حَآيِينَ ۖ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۖ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ ﴾ .

(١) تفسير الطبري (٩٤/٤) . (٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٨) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩/١) .

اختلف المفسرون في هذا الوعد : هل كان يوم بدر أو يوم أُحُد ؟ على قولين :

أحدهما : أن قوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ ، واختاره ابن جرير . عن عامر - يعني الشعبي - : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين ، فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مُسَوِّينَ ﴾ قال : فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين ، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة . وقال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر : ﴿ إِذْ تَسْتَيْشِرُونَ رِبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَوْيَ مُيُدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي بالثلاثة آلاف فما فوقها لقوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ، ويتبعهم ألاف آخر مثلهم . وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ؛ فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو معروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر .

القول الثاني : إن هذا الوعد متعلق بقوله : ﴿ وَإِذْ عَدَّتْ مِنْ أَمَلِكِ ثُبُؤُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ لِلْقِتَالِ ﴾ وذلك يوم أُحُد ، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة آلاف ؛ لأن المسلمين فروا يومئذ ، زاد عكرمة ولا بالثلاثة آلاف لقوله تعالى : ﴿ بَلَّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد .

وقوله تعالى : ﴿ بَلَّغْ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ يعني تصبروا على مصابرة عدوكم ، وتقنوني وتطيعوا أمري . وقوله تعالى : ﴿ وَبِأَنفُسِكُمْ مِنْ قُوَّهِمْ هَذَا ﴾ أي من وجههم هذا . وقال عكرمة : من غضبهم هذا . وقال ابن عباس : من سفرهم هذا . وقوله تعالى : ﴿ يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّينَ ﴾ أي معلمين بالسيما . عن علي بن أبي طالب ؓ قال : كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض ، وكان سيماهم أيضاً في نواصي خيولهم ، وعن أبي هريرة ؓ في هذه الآية ﴿ مُسَوِّينَ ﴾ قال : بالعن الأحمر . وقال مجاهد : ﴿ مُسَوِّينَ ﴾ أي محذقة أعرافها ، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذنان الخيل . وقال قتادة وعكرمة : ﴿ مُسَوِّينَ ﴾ أي بسيما القتال . وقال مكحول : ﴿ مُسَوِّينَ ﴾ بالعمائم . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ مُسَوِّينَ ﴾ قال : « مُعَلِّمِينَ ، وَكَانَ سِيماً الْمَلَائِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ عَمَائِمَ سُوداً ، وَيَوْمَ خَنْدِئٍ عَمَائِمَ حُمْراً » ^(١) ، وعن ابن عباس قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر . وقال ابن عباس : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم ، ويوم حين عَمَائِمَ حمر ، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم ، وتطميناً لقلوبكم وتطميناً ، وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام .

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٤٦٩) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٦) .

ثم قال تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير ، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي ليهلك أمة ﴿ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُنَّ فَنَقْلُوا ﴾ أي يرجعوا ﴿ خَائِبِينَ ﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا . ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي بل الأمر كله إليّ ، وقال محمد بن إسحاق في قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ، ثم ذكر بقية الأقسام فقال : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي مما هم فيه من الكفر فيهدبهم بعد الضلالة ﴿ أَوْ يَعَذِّبَهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي يستحقون ذلك . عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا ، اللَّهُمَّ الْعَنِ الْحَارِثَ ابْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ الْعَنِ شَهِيلَ بْنِ عَمْرِو ، اللَّهُمَّ الْعَنِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّة » فنزلت هذه الآية ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فتنب عليهم كلهم ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال ، إذا قال : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ : « اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، وَعُثَيْشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَيْنًا كَسَيْنِي يُوسُفُ » ^(٢) . يجهر بذلك .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج في وجهه ، حتى سال الدم على وجهه فقال : « كَيْفَ يُفْلِحَ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ ؟ » فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية أي الجميع ملك له ، وأهلها عبيد بين يديه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٢٥ ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ١٢٦ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٢٧ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ١٢٨ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالنَّصِيطِ وَالْمُتَّقِينَ عَنِ النَّارِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٢٩ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ بَلَاءٌ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣٠ ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَنَّةٍ مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِمَا أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن تعاطي الربا ، وأكله أضغافًا مضاعفة ، كما كانوا يقولون : إذا حل أجل الدين إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفًا ^(٤) . وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٩) وأحمد في مسنده (٩٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٢) وأحمد في مسنده (٤٧٠/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٣) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥/٢) .

وفي الآخرة ، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها فقال تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۚ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارة إلى نيل القربات فقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين ، وقد قيل : إن في معنى قوله : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تنبيها على اتساع طولها ، كما قال في صفة فرش الجنة : ﴿ بَلَدَيْنَا مِنْ يَسْتَرْفِي ۚ ﴾ أي فما ظنك بالظواهر . وقيل : بل عرضها كطولها ؛ لأنها قبة فيه تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله ، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : « إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَمَا سَأَلُوهُ الْفِرْدَوْسُ ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَتَسْقُفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ » (١) . وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبي ﷺ : « شُبْحَانَ اللَّهِ ! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ » (٢) . وهذا يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وإن كنا لا نعلمه . وكذلك النار تكون حيث شاء الله ﷻ ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة . الثاني : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب ، فإن الليل يكون من الجانب الآخر ، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش ، وعرضها كما قال الله ﷻ : ﴿ كَمَرِضَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والنار في أسفل سافلين ، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض ، وبين وجود النار ، والله أعلم .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الَّذِينَ يُبْقِشُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أي في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال . والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى ، والإنفاق في مرضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراتهم وغيرهم بأنواع البر . وقوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عن أساء إليهم . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ ؛ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ ، وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ ؛ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ اعْتَذَرَ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ اللَّهِ عَذْرَهُ » (٣) . وعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ؛ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » (٤) . وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ، مَا لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ ، وَمَا لِيَارِثَكَ إِلَّا مَا أَخَّرْتَ » قال : وقال رسول الله ﷺ : « مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فَيَكُمُ ؟ » قلنا : الذي لا تصرعه الرجال ، قال : « لَا ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » . قال : وقال رسول الله ﷺ : « اتَّعَذُّونَ مَا الرُّقُوبُ ؟ » قلنا : الذي لا ولد له ، قال : « لَا ، وَلَكِنَّ الرُّقُوبَ الَّذِي لَا يَقْدُمُ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا » (٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/٢) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢) والمنذري في الترغيب (٥٢٥/٣) والألباني في الصحيحة (٦٠٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) وأحمد في مسنده (٣٨٢/١) والنسائي في السنن (٣٦١٢) .

وعن الأحنف بن قيس عن عم له : يقال له حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني ، وأقلل عليّ لعملي أعبه . فقال رسول الله ﷺ : « لَا تَغْضَبْ » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً ، كل ذلك يقول : « لَا تَغْضَبْ » ^(١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه : قال : كان يسقي على حوض له فجاء قوم فقالوا : إيكُم يورد على أبي ذر ويحسب شعرات من رأسه ؟ فقال رجل : أنا ، فجاء فأورد على الحوض فدقه ، وكان أبو ذر قائماً فجلس ، ثم اضطجع ، فقيل له : يا أبا ذر لم جلست ثم اضطجعت ؟ فقال : إن رسول الله قال لنا : « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَإِلَّا فَلْيُضْطَجِعْ » ^(٢) .

وعن وائل الصنعاني قال : كنا جلوساً عند عروة بن محمّد إذ دخل عليه رجل فكلّمه بكلام أغضبه ، فلما أن أغضبه قام ثم عاد إلينا وقد توضأ فقال : حدثني أبي عن جدي عطية هو ابن السعدي - وقد كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ » ^(٣) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَنْظَرَ مُغْسِيراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بَرْنَوَةٌ - ثلاثاً - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ، وَالشَّعِيدُ مَنْ وَفِيَ الْفِتْنِ ، وَمَا مِنْ جَزَعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَزَعَةٍ غَبِظَ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيْمَانًا » ^(٤) .

عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ؛ دَعَا اللَّهَ عَلَى رِغْوَسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ » ^(٥) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جَزَعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جَزَعَةٍ غَبِظَ كَظَمَهَا اتِّعَاءً وَجِهَ اللَّهُ » ^(٦) .

فقوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ أي لا يعلمون غضبهم في الناس ، بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله ﷻ . ثم قال تعالى : ﴿ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فهذا من مقامات الإحسان . وفي الحديث : « ثَلَاثٌ أَقْسَمُ عَلَيْهِنَّ : مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ » ^(٧) . وعن أبي ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرَفَ لَهُ الْبَنِيَانُ ، وَتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجَاتُ ، فَلْيَغْفِ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلْ مَنْ قَطَعَهُ » ^(٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي إذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٦١٥/٣) وأحمد في مسنده (٣٤/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٢/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٦/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٧/٣) والحاكم في المستدرک (٢٩/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/٣) وابن ماجه في السنن (٤١٨٦) والبيهقي في السنن (١٦١/٨) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٨٩) . (٧) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣١/٤) .

(٨) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٩٥/٢) .

صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إِنْ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَعِلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عِلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ ﷻ : عِلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عِلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ » ^(١)

وعن أبي هريرة قلنا : يا رسول الله إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ، فقال : « لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ بِأَكْمِهِمْ ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ . وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ؛ لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ » قلنا : يا رسول الله ، حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لَبِنَةٌ ذَهَبٌ ، وَلَبِنَةٌ فِضَّةٌ ، وَمِلَاطُهَا الْمِشْكُ الْأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ ، وَتَرَابُهَا الرُّغْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ ، وَيُخْلَدُ لَا يَمُوتُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ ، ثَلَاثَةٌ لَا تَرُدُّ دَعْوَتُهُمْ : الْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِي لَا أَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » ^(٢)

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة لما رواه علي رضي الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ - قَالَ مَسْعَرٌ : فَيَصْلِي ، وَقَالَ سَفِيَانٌ : ثُمَّ يُصَلِّي - رَكَعَتَيْنِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ ﷻ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » ^(٣) . وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ ثم قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(٤) . فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، عن سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية ، بكى . وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِسْتِغْفَارَ ، فَأَكْثِرُوا مِنْهُمَا ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ : أَهْلَكْتُ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ ، وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِسْتِغْفَارَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ أَهْلَكْتُكُمْ بِالْأَهْوَاءِ ، فَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » ^(٥) . وعن أبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) والبخاري في التوحيد (٧٥١٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٤/٢) والترمذي في السنن (٢٤٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١) وابن ماجه في السنن (١٣٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٤) ومسلم في الطهارة (٤) .

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٣٦) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٠٧/١٠) والحديث إسناده ضعيف .

سعيد عن النبي ﷺ قال : « قَالَ إِبْلِيسُ : يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا أَرَاكَ أَغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَرَاكَ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتُوبْ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُغْفِرْ لَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه ، عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال النبي ﷺ : « عَرَفَ الْحَقُّ لِأَهْلِهِ » (٢) . وقوله : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها ، ولو تكرّر منهم الذنب تابوا منه . عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَصْرُ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » (٣) .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير : ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي من تاب تاب الله عليه . عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال وهو على المنبر : « ارْجِعُوا تَزَكُّوا ، وَاغْفِرُوا لَكُمْ ، وَثَلِّ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ ، وَثَلِّ لِلْمُصْرِينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٤) . ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُ مَنَافِرَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات مغفرة من ربهم ﴿ وَجَنَّتْ تَحَرَّى مِنْ قَتْلِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿ خَلِيلِينَ فِيهَا ﴾ أي ما كثر فيها ﴿ وَنَسَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ يمدح تعالى الجنة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ وَلَا تَهْتُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ وَلِيُخَصِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ الْكُفْرَيْنَ ﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ يَكُونُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها ، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أي زاجر عن المحارم والمآثم . ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَهْتُوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جَرَحٌ ، وقتل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أي تدليل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة ، ولهذا قال تعالى :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٦/٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٥/٤) وأحمد في مسنده (٤٣٥/٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (١٥١٤) والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥/٢) .

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس : في مثل هذا لئرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني يقتلون في سبيله ويذلون مهجهم في مرضاته ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاقِلِينَ﴾ ﴿وَلَيَحْصَحَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب . وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . وقوله : ﴿وَيَمَتَّحَ الْكَافِرِينَ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا ، بغوا ويطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم .

ثم قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ، كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يُرَكَّبُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ الآية ، ولهذا قال ههنا : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو ، وتحترقون عليه ، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَتَمَتَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشَّيْطَانِ » (١) ولهذا قال تعالى : ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعني الموت شاهدتموه وقت حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال ، والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتحويل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالحسوس كما تحويل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَأْمَنُ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِتْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسِعْجَى اللَّهِ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِقَائِهِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسِعْجَى الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَأُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْقَادِرِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

لما انهزم من انهزم المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قميصة إلى المشركين فقال لهم : قتل محمداً ، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل وجوزوا عليه ذلك . كما قص الله عن كثير من الأنبياء ﷺ ، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عليه . قال ابن أبي نجيح عن أبيه : إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من

(١) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٣٧) ومسلم في الجهاد (١٩) .

الأنصار وهو يتشحط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمدًا ﷺ قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمدًا قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم فقتل ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف : ﴿ أَفَأَمِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أي رجعتم القهقري ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حيًا وميتًا . عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنع ، حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيَّم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ، ثم أكب عليه وقبلة وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . وعن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : اجلس يا عمر ، قال أبو بكر : أما بعد من كان يعبد محمدًا فإن الله مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ قال : فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها . وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعرقت حتى ما تقطني رجلاي ، وحتى هويت إلى الأرض ^(١) .

عن ابن عباس أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ ﴿ أَفَأَمِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلَاتُهَا ﴾ أي لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له ، ولهذا قال : ﴿ كَتَبْنَا مُوَجَّلَاتُهَا ﴾ وهذه الآية فيها تشجيع للجناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه . عن حبيب ابن ظبيان : قال : قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة ؟ - يعني دجلة - ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَّلَاتُهَا ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة ، فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدو قالوا : ديوان فهربوا .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ ﴾ قيل : معناه كم من نبي قتل وقتل معه ريشون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن

جرير فإنه قال : وأما الذين قرأوا ﴿ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَيْدٌ ﴾ ^(١) فإنهم قالوا : إنما عنى بالقتل النبي وبعض من معه من الريين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عن بقي من الريين ممن لم يقتل . قال : ومن قرأ ﴿ قَتَلَ ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم يكن لقول الله : ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ وجه معروف ؛ لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا ، ثم اختار قراءة من قرأ ﴿ قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَيْدٌ ﴾ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل ، فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم : ﴿ أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿ أَنْفَقْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وقيل : وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير . وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر فإنه قال : وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جماعات ، فما وهنوا بعد نباهم ، وما ضعفوا عن عدوهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم ، وذلك الصبر ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ فجعل قوله : ﴿ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَيْدٌ ﴾ حالاً . وقد نصر هذا القول السهيلي وبالحق فيه ، وله اتجاه لقوله : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمُ ﴾ الآية ^(٢) . وقرأ بعضهم ﴿ قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُونٌ كَيْدٌ ﴾ أي ألوف . وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : الريون الجموع الكثيرة . وقيل : أي علماء كثير . وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الريين هم الذين يعبدون الرب ﷻ . قال : ورد بعضهم عليه فقال : لو كان كذلك لقليل الرييون بفتح الراء . وقال ابن زيد : الريون الأتباع والرعية ، والريانيون الولاة ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ قال قتادة والريح بن أنس : ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ بقتل نباهم ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ يقول : فما ارتدوا عن نصرته ولا عن دينهم ، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ تخشعوا . وقال ابن زيد : وما ذلوا لعدوهم . وقال محمد بن إسحاق والسدي وقاتدة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نباهم ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لم يكن لهم هجير إلا ذلك ﴿ فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُلَاحِظُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ﴿ سَتُلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الْمُلُوكَ ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ إِذْ نَسَّوْنَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُشِلَتْهُمْ فَتَبَسَّوْا فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَمَّا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاسِكُمْ فَاتَّبِعْكُمُ عِمَّا يُبْمِرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) قرأ نافع وابن كثير والبصريان (قُتِلَ معه) بضم القاف وكسر التاء من غير ألف ، وقرأ الباقر (قَاتَلَ) بفتح القاف والتاء وألف بينهما

(٢) السيرة لابن هشام (١١٨ ، ١١٧/٣) .

(انظر : تقريب النشر ص : ١٠٢) .

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ؛ فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُكُمْ عَلَىٰ عَذَابِكُمْ فَتَسْقَلُوا خَسِيرِينَ ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه ، فقال تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ، والذلة لهم ، بسبب كفرهم وشركهم ، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال : ﴿ سَقَلُوا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَيَتَشَوَّيُ الْفَالِغِيُّ ﴾ . عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأُجِلَّتْ لِي الْعَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرِ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَرِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » ^(١) . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سَقَلُوا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ ﴾ قال : قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة ، فقال النبي ﷺ : « إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَصَابَ مِنْكُمْ طَرَفًا ، وَقَدْ رَجَعَ وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الرُّعْبَ » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَدَكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ قال ابن عباس : وعدهم الله النصر . وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رَبُّكُمْ رَبَّكُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ الْفَلَكِ مَزَلِينَ ﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّلْكُمْ رَبَّكُمْ بِخَسْفِ الْفَلَكِ مِنَ الْفَلَكِ مَسْوِينَ ﴾ أن ذلك كان يوم أحد ؛ لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ مَكَدَكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ ﴾ أي أول النهار ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم ﴾ أي تقتلونهم ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ قال ابن عباس : الفشل الجبن ﴿ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ﴾ كما وقع للرماة ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ وهو الظفر بهم ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع ، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم ، وقلة عدد المسلمين وعددهم . ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر ، أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَكَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به ، أفرد النبي ﷺ في تسعة ، سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش وهو عاشرهم ﷺ ، فلما أرهقوه قال : « رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا » قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل ، فلما أرهقوه أيضًا قال : « رَجِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا » فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا » فجاء أبو سفيان فقال : أعل هبل ، فقال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُ أَغْلَى وَأَجْلُ » فقالوا : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان :

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) وأحمد في مسنده (١٦١/٥) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٣/٢) .

لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ : « قُولُوا : اللَّهُ مُؤَلَّاتَا وَالْكَافِرُونَ لَا مُؤَلَّى لَهُمْ » فقال أبو سفيان : يوم يوم بدر ، فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نُسَاء ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة وفلان بفلان ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا سَوَاء : أَمَّا قَتَلْنَا فَأَخْيَاءُ يُرْزَقُونَ ، وَأَمَّا قَتَلَكُم فَبِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ » فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثله وإن كانت لعن غير ملائنا ، ما أمرت ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ، ولا ساءني ولا سرنني ، قال : فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبدته فلاكتها ، فلم تستطع أن تأكلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَكَلْتُ شَيْئًا ؟ » قالوا : لا ، قال : « مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حُمْزَةٍ فِي النَّارِ » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه ، وحيى برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى جىء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ، ثم رفع وترك حمزة ، حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة ^(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما كان يوم أُحُد هزم المشركون ، فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أي أبي قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله ﷻ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ مَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ وعن أنس بن مالك أن عمه - يعني أنس بن النضر - غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ ، لكن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد ، فلقني يوم أُحُد ، فهزم الناس فقال : اللهم إني أعوذ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقني سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد إني أجد ربح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه ، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ^(٣) . وعن عثمان بن موهب قال : جاء رجل حج البيت ، فرأى قوماً جلوساً فقال : من هؤلاء القعود ؟ قالوا : هؤلاء قريش ، قال : من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر ، فأتاه فقال : إني سائلك عن شيء فحدثني ، قال : سل ، قال : أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أُحُد ؟ قال : نعم ، قال : فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدا ؟ قال : نعم ، قال : فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدا ؟ قال : نعم ، فكبر ، فقال ابن عمر : تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه ، أما فراره يوم أُحُد : فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر : فإنه كان تحت بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة ، فقال له رسول الله ﷺ : « إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ يَمُنُّ شَهِدَ بَذَرًا وَسَهْمَهُ » ، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان : فلو كان أحد أعز بيطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث عثمان ، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى : « هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ » فضرب بها على يده فقال : « هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ ، اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون ، أي في

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٣/١) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٨) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٦) .

الجليل هارين من أعدائكم . وقرأ الحسن وقادة ﴿ إِذْ تَضَعُونَ ﴾ أي في الجبل ﴿ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ ﴾ أي وأنتم لا تكونون على أحد من الدهش والخوف والرجب ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة . قال السدي : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فhezموهم ، دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها ، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس « إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ » ^(١) فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إليهم فقال : ﴿ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ ﴾ . وقال عبد الله بن الزبيري : يذكر هزيمة المسلمين يوم أحد في قصيدته وهو مشرك بعد لم يسلم ، التي يقول في أولها :

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلْشَّرِّ مَدَى وَكَلَّا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبِلْ

إلى أن قال :

ثُمَّ خَفُوا عِنْدَ ذَاكُمْ رَقَصًا رَقَصَ الْخِفَانِ يَغْلُو فِي الْجَبَلِ
فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَأَعْتَدَلْ

الخفان : صغار النعم . وقد كان النبي ﷺ قد أفرد في اثني عشر رجلاً من أصحابه . عن البراء بن عازب ؓ قال : جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - عبد الله بن جبير قال : ووضعهم موضعاً وقال : « إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » قال : فhezموهم ، قال : فلقد والله رأيت النساء يشتدن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلخلن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أي قوم الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصين من الغنيمة ، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخرهم ، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً أصابوا منا سبعين ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين ، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً . قال أبو سفيان : أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ - ثلاثاً - قال : فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيئوه ، ثم قال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ أفي القوم ابن الخطاب ؟ ثم أقبل على أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم ، فما ملك عمر نفسه أن قال : كذبت والله يا عدو الله إن الذين عدت لأحياء كلهم ، وقد أبقى الله لك ما يسؤوك ، فقال : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، إنكم ستجدون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني . ثم أخذ يرتجز يقول : اعل هبل أعل هبل فقال رسول الله ﷺ : « أَلَا تُجِيبُونَهُ ؟ » قالوا : يا رسول الله ما نقول ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُ أَغْلَى وَأَجَلْ » قال : لنا العزى ولا عزى لكم . قال رسول الله ﷺ : « أَلَا تُجِيبُونَهُ ؟ » قالوا : يا رسول الله وما نقول ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ » ^(٢) .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١٧٨/١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٣) وأحمد في مسنده (٢٩٣/٤) .

وعن قيس بن أبي حازم قال : رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ - يعني يوم أحد (١)
وعن أبي عثمان النهدي قال : لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول
الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما (٢) . وقال سعد بن أبي وقاص : نثل لي رسول
الله ﷺ كنيته يوم أحد وقال : « اِزِمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » (٣) .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب
بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده - يعني جبريل وميكائيل ﷺ (٤) .

وعن عروة بن الزبير قال : كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله
ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال : « بَلْ أَنَا أَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فلما كان يوم أحد أقبل أبي في
الحديد مقننًا وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن
عمير أخو بني عبد الدار يقى رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير ، وأبصر رسول الله ﷺ
ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحرته فوقع إلى الأرض عن فرسه ،
ولم يخرج من طعنته دم ، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أجزعك ؟ إنما هو
خدش . فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « بَلْ أَنَا أَقْتُلُ أَيُّهَا » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا
الذي بي بأهل ذي الحجاز لما أتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ النَّعِيرِ ﴾ .

وعن ابن عباس قال : اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده في سبيل الله ، واشتد غضب
الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ (٥) . وقال ابن إسحاق : أصيبت رابعة رسول الله ﷺ ، وشج في
وجنته ، وكلمت شفته ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص . وعن سعد بن أبي وقاص قال : ما حرصت
على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان ما علمته لسيئ الخلق مبعوضًا في قومه ،
ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ : « اِشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دُمِيَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » (٦) .

عن أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة ، ثم أنشأ
يحدث قال : كنت أول من فاء يوم أحد ، فرأيت رجلًا يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه - وأراه قال :
حمية - فقلت : كن طلحة حيث فاتني ما فاتني ، فقلت : يكون رجلًا من قومي أحب إلي ، وبينني
وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطف المشي خطفًا لا أعرفه ،
فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فأنتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رابعته وشج في وجهه ، وقد
دخل في وجنته حلقتان من حلق الغفر ، فقال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمَا صَاحِبُكُمَا » يريد طلحة ، وقد
نزف فلم نلتفت إلى قوله ، قال : وذهبت لأنزع ذلك من وجهه ، فقال أبو عبيدة : أقسمت عليك
بحقي لما تركتني ، فتركته ، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ فأزم عليها بفيه فاستخرج
إحدى الحلقتين ، ووقعت ثنيته مع الحلقة ، وذهبت لأصنع ما صنع فقال : أقسمت عليك بحقي لما
تركنتي ، قال : ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة ، فكان أبو عبيدة من

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٠) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٤) .

(٦) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٣) .

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٦٣) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٥٩) .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٦) .

أحسن الناس هتماً ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار ، فإذا به يضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة ، وإذا قد قطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه (١) .

وعن عمر بن السائب أنه بلغه أن مالكا أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ يوم أخذ مص الجرح حتى أنفاه ولاح أبيض ، فقيل له : مجه فقال : لا والله لا أمجه أبداً ، ثم أدير يقاتل فقال النبي ﷺ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » فاستشهد (٢) . وقد ثبت عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال : جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه ﷺ ، فكانت فاطمة تغسل الدم ، وكان علي يسكب عليه الماء بالجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ، حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَأَكُمْ عَمَّا بِهِمْ ﴾ أي فجزاكم غمًا على غم كما تقول العرب : نزلت بيني فلان ، ونزلت على بني فلان . قال ابن عباس : الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل : قتل محمد ﷺ ، والثاني : حين علاهم المشركين فوق الجبل ، وقال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلُونَا » (٤) . وعن عبد الرحمن بن عوف : الغم الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قيل قُتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة ، وقال السدي : الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح ، والثاني بإشراف العدو عليهم . وقال محمد بن إسحاق : أي كربًا بعد كرب ، قتل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع في أنفسكم من قول : قتل نبيكم ، فكان ذلك متتابعًا عليكم غمًا بغم . قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : ﴿ فَأَنْبَأَكُمْ عَمَّا بِهِمْ ﴾ فأنابكم نعمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم ، وما أصابكم من القتل والجراح يومئذ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم ، وخلافكم أمر نبيكم ﷺ ، وغم ظنكم أن نبيكم قد قتل ، وميل العدو عليكم بعد فلوكم منهم . وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ من الجراح والقتل ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جل وعلا .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدُوِّ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاسًا يَفْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي يُبُوْتِكُمْ لَرَزَّ الْأَزْدِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِنْ مَضَّاجِعُهُمْ وَبَيَّنَّا لِلَّهِ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٥) إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر : ﴿ إِذْ يَغْشِيَكُمْ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾ الآية . عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس

(١) أخرجه : البيهقي في دلائل النبوة ٣/٣٦٣ ، والهندي في كنز العمال (٣٠٠٢٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٨٣/٤) . (٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٧٥) . (٤) أخرجه : أحمد في مسنده ١٧/٦ .

في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أخذ حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه . عن أبي طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أخذ ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي ، وأخذه ويسقط وأخذه ^(١) . قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم ، أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق ، ﴿ يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ أي إنما هم أهل شك وريب في الله ﷻ . هكذا رواه بهذه الزيادة ، كأنها من كلام قتادة رحمه الله وهو كما قال ؛ فإن الله ﷻ يقول : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدٍ عَظِيمٍ أَمَنَةً تُعَاسَى بِفَشَى طَائِفَتِكُمْ مِنْكُمْ ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله ﷻ سينصر وينجز له مأموله ، ولهذا قال : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يَطُوتُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأمله ، وهذا شأن أهل الريب والشك ؛ إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿ يَقُولُونَ ﴾ في تلك الحال ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ . عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيته مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقته في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا . فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا ﴾ لقول معتب .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي هذا قدر قدره الله ﷻ وحكم حتم لا محيد عنه ، لا مناص منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي مُدْرِكِكُمْ وَلَيَحْصَنَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي يغفر الذنب ، ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَكِنْ مُمْتٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝ .

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد ، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين

ماتوا في الأسفار والحروب ، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، فقال تعالى : ﴿ يَكْفُرُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أي عن إخوانهم ﴿ إِذَا مَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿ أَوْ كَانُوا عَزَى ﴾ أي كانوا في الغزو ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ﴾ أي في البلد ﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ أي ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم . ثم قال تعالى رداً عليهم : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتِمْ أَيُّ يَدِهِ الْخَلْقَ ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِمَشِئَتِهِ وَقَدَرِهِ ، وَلَا يَزَادُ فِي عَمْرٍ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ﴾ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء . وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله ، والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني . ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصره ومرجعه إلى الله ﷻ فيجزيه بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فقال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ مَتُّمٌ أَوْ قُتِلْتُمْ لِرَبِّ اللَّهِ تَحْسُرُونَ ﴾ .

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَعُوا مِنْ حَرْكٍ فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَشَاوَزَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) إن يضرركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكِلَ وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) أَلَمْ يَنْتَبِعْ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا أَوْلَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوعِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنَبِيِّ صَلَّيْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

يقول تعالى مخاطباً رسوله ممثلاً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته ، المتبعين لأمره التاركين لزوجره ، وأطاب لهم لفظه ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم ليتاً لولا رحمة الله بك وبهم . عن أبي أمامة الباهلي قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال : « يَا أَبَا أُمَامَةَ إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُلِينُ لَهُ قَلْبِي » (١) . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَعُوا مِنْ حَرْكٍ ﴾ والفظ الغليظ ، المراد به ههنا غليظ الكلام ، لقوله بعد ذلك : ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ أي لو كنت سيء الكلام ، قاسي القلب عليهم ، لا نفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم . كما قال عبد الله بن عمرو : إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَشَاوَزَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطبيخاً لقلوبهم ، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاؤهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : اذهب أنت وربك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٧/٥) والطبراني في الكبير (١٧٧/٨) والألباني في الصحيحة (١٠٩٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٢) .

فقاتلنا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون . وشاورهم أيضًا أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم . وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم . وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان ، سعد ابن معاذ وسعد بن عباد ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين : فقال له الصديق : إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين ، فأجابه إلى ما قال . وقال ﷺ في قصة الإفك : « أَشِيرُوا عَلَيَّ مَغْشَرِ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمِ أَبْنَاءِ أَهْلِي وَزَوْجُوهُمْ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ شَوْءٍ ، وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ ؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا » ^(١) واستشار عليًا وأسامه في فراق عائشة رضي الله عنها . فكان النبي ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ، وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبًا عليه أو من باب الندب تطييبًا لقلوبهم ؟ على قولين .

عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ قال : نزلت في أبي بكر وعمر ، وكانا حواربي رسول الله ﷺ ووزيره وأبوي المسلمين ، عن عبد الرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر : « لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُمَا » ^(٢) . وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُشِرْ عَلَيْهِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر ، وعزمت عليه ، فتوكل على الله فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَصْرِفْهُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ وهذه الآية كما تقدم من قوله : ﴿ وَمَا كَانِ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : ما ينبغي لنبي أن يخون . عن ابن عباس قال : فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول الله ﷺ أخذها ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانِ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ ﴾ أي يخون . وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا كَانِ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ ﴾ أي بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضها . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَمَا كَانِ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ ﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه ، فلا يبلغ أمته . وقرأ الحسن البصري وطاوس ومجاهد والضحاك : ﴿ وَمَا كَانِ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ ﴾ بضم الياء أي يخان ^(٤) . وقال قتادة والربيع بن أنس : نزلت هذه الآية يوم بدر ، وقد غل بعض أصحابه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُولْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَكَّلْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعد أكيد ، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضًا في أحاديث متعددة . عن أبي مالك الأشجعي عن النبي ﷺ قال : « أَغْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا ، فَإِذَا قَطَعَهُ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٦) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/٤) . (٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٦٤٧) .

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (يَقُولُ) بفتح الياء وضم الفين ، وقرأ الباقر (يَقُولُ) بضم الياء وفتح الفين (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٠/٤) .

وعن المستورد بن شداد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْرٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْرًا ، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا ، أَوْ لَيْسَ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ » ^(١) .

وعن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال : « مَا بَالُ الْعَامِلِ يَنْتَعِثُ عَلَى عَمَلٍ فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدَى لِي ؟ أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْتَظِرُ أَنْ يَهْدِيَ إِلَيْهِ أَمْ لَا ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْتِي أَحَدُكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا حُورٌ ، أَوْ شَاةٌ تَبْعُرُ » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ثلاثاً ^(٢) .

وعن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال : « أَتَدْرِي لِمَ بَعَثْتُ إِلَيْكَ ؟ لَا تُصَيِّبَنَّ شَيْئًا بِغَيْرِ إِذْنِي فَإِنَّهُ غُلُولٌ » ^(٣) . وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لَا أَلْفَيْتُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ ، لَا أَلْفَيْتُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ قَرْسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ ، لَا أَلْفَيْتُ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ ، فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنِنِي ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ » ^(٤) .

وعن عدي بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلًا فَكَتَمْنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قال : فقام رجل من الأنصار أسود - قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأنني أنظر إليه - فقال : يا رسول الله ، اقبل مني عملك ، قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : سمعتك تقول كذا وكذا ، قال : « وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الْآنَ ، مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى » ^(٥) .

وعن أبي رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ربما ذهب إلى بني عبد الأشهل ، فيتحدث معهم حتى ينحدر إلى المغرب ، قال أبو رافع : فبينما رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب ، إذ مر بالبقيع فقال : « أَفْ لَكَ ، أَفْ لَكَ » فلزق في درعي وتأخرت ، وظننت أنه يريدني ، فقال : « مَا لَكَ ؟ » قلت : أحدثت حديثاً يا رسول الله ؟ قال : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قال : أَقَفْتُ بِي ، قال : « لَا ، وَلَكِنْ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ بَعَثْتُهُ سَاعِيًا عَلَى آلِ فُلَانٍ ، فَعَلَّ نَجْمَةً ، فَدُرِعَ الْآنَ مِثْلَهُ مِنْ نَارٍ » ^(٦) .

وعن عباد بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : « مَا لِي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٤) ومسلم في الإمارة (٢٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٣٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧٣) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٤) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٦) .

فِيهِ إِلَّا مِثْلُ مَا لِأَحَدِكُمْ ، إِيَّاكُمْ وَالْعُلُولُ ؛ فَإِنَّ الْعُلُولَ خِزْيٌ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَدْوَا الْخَيْطَ وَالْخَيْطَ ، وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ ، فِي الْحَضَرِ وَالشَّغَرِ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، إِنَّهُ لَيُثَبِّتِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَمِّ ، وَأَقِيمُوا حُدُودَ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ^(١) .

وعن سالم بن عبد الله أنه كان مع مسلمة بن عبد الملك في أرض الروم فوجد في متاع رجل غلولا ، قال : فسأل سالم بن عبد الله فقال : حدثني أبي عبد الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ وَجَدْتُمْ فِي مَتَاعِهِ غُلُولًا فَأَخْرِقُوهُ - قال : وأحسبه قال : - وَاضْرِبُوهُ » قال : فأخرج متاعه في السوق ، فوجد فيه مصحفًا فسأل سلمًا ، فقال : بعه وتصدق بشمعه ^(٢) . وعن علي قال : الغال يجمع رحله فيحرق ، ويجلد دون حد المملوك ، ويحرم نصيبه . وخالفه أبو حنيفة ومالك والشافعي والجمهور ، فقالوا : لا يحرق متاع الغال ، بل يعز تعتزير مثله . وقد قال البخاري : وقد امتنع رسول الله ﷺ من الصلاة على الغال ، ولم يحرق متاعه ، والله أعلم . وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أيها الناس غلوا المصاحف ؛ فإنه من غل يأت بما غل يوم القيامة ، ونعم الغل المصحف ، يأتي به أحدكم يوم القيامة . وعن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم أمر بلالًا فينادي في الناس فيجيئون بغنائمهم ، يخمسه ويقسمه ، فجاء رجل يومًا بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا كان مما أصبناه من الغنيمة فقال : « أَسَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ؟ » ثلاثًا ، قال : نعم ، قال : « فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ ؟ » فاعتذر إليه فقال : « كَلَّا أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبَشَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبشَّ المصير . ثم قال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق : يعني أهل الخير وأهل الشر درجات . وقال أبو عبيدة والكسائي : منازل ، يعني متفاوتون في منازلهم ، درجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَبْدِئُ بِمَا يَشَاءُ ﴾ أي وسيوفهم إياها ، لا يظلمهم خيرًا ، ولا يزيدهم شرًا ، بل يجازي كل عامل بعمله .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي من جنسهم ليمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْتَونَ فِي الْآسَاقِ ﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَشَاءُ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ ﴾ يعني القرآن والسنة ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي لفى غي وجهل ظاهر جلبي بين لكل أحد .

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٥٤٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧١٣) وأحمد في مسنده (٢٢/١) .

﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْجِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِعَلَّكُمْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلِعَلَّكُمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَقَالُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَا أَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

يقول تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أُحُد من قتلى السبعين منهم ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ﴾ يعني يوم بدر ؛ فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأسروا سبعين أسيرًا ﴿ قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أُحُد من العام المقبل ، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ بأخذكم الفداء . عن علي قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين ، إما أن يقدموا فنضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم ، قال : فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر لهم ذلك فقالوا : يا رسول الله ، عشارنا وإخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس في ذلك ما نكره ؟ قال : فقتل منهم يوم أُحُد سبعون رجلاً ، عدة أسارى أهل بدر ^(١) . وقال محمد بن إسحاق وابن جرير والريعي بن أنس والسدي : ﴿ قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم ، يعني بذلك الرماة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْجِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم ، وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك ﴿ وَلِعَلَّكُمْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ وَلِعَلَّكُمْ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَقَالُوا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَنَّكُمْ ﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول ، الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال : ﴿ أَوْ ادْفَعُوا ﴾ يعني كثروا سواد المسلمين . وقيل : رابطوا . ففعلوا قائلين : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَنَّكُمْ ﴾ قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربًا لجنناكم ، ولكن لا تلقون قتالًا ﴿ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ ﴾ استدلو به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله : ﴿ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ يَا أَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني أنهم يقولون القول ، ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم هذا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَيْنَنَّكُمْ ﴾ فإنهم يتحققون أن جنودًا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة ، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين ، وأنه كائن بينهم قتال لا محالة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ .

ينهونني والنبى ﷺ لم ينه ، فقال النبى ﷺ : « لَا تَبْكِيه - أَوْ مَا تَبْكِيه - مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتَيْهَا حَتَّى رُفِعَ » (١) .

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ .

وعن جابر بن عبد الله قال : نظر إلي رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا ؟ » قلت : يا رسول الله ، استشهد أبي وترك دينًا وعيالًا ، قال : فقال : « أَلَا أَخْبِرُكَ ؟ مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كَيْفَاحَا » قال علي : والكفاح المواجهة . « قَالَ : سَلْنِي أُعْطِكَ ، قَالَ : أَشَأْلكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَأَقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، فَقَالَ الرَّبُّ ﷻ : إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي الْقَوْلُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ ، قَالَ : أَيُّ رَبِّ فَأَتْلِفَ مَنْ وَرَائِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ » الآية (٢) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ نَهْرٍ يَبَاقُ الْجَنَّةِ ، فِيهِ ثُبَّةٌ خَضْرَاءُ يُخْرَجُ إِلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً » (٣) . وكان الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ، ومنهم من يكون على هذا النهر يباب الجنة ، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغذى عليهم برزقهم هناك ويراح ، والله أعلم . وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثًا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجَعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ » (٤) قوله : « يعلق » أي يأكل ، وفي هذا الحديث : « إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ » وأما أرواح الشهداء ، فكما تقدم ، في حواصل طير خضر ، فهي كاللكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ؛ فإنها تطير بأنفسها ، فنسأل الله الكريم المنان أن يميّتنا على الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ فَرِحِينَ يَمَّا ءَاتَنَّهُمُ اللَّهُ ﴾ إلى آخر الآية ، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أحياء عند ربهم ، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم ، نسأل الله الجنة . وقال محمد بن إسحاق : ﴿ وَرَسَتِيْرُونَ ﴾ أي ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم . قال السدي : يؤتى الشهيد بكتاب فيه : يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا ، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم . قال سعيد بن جبيرة : لما دخلوا الجنة ، ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة ، فإذا شهدوا القتال ، باشروها بأنفسهم حتى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٣) والنسائي في السنن (١٨٤٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٠) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٦/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٠/٣) .

يستشهدوا فيصبيوا ما أصبنا من الخير ، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة ، وأخبرهم أي ربهم : أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم ، وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك ، فذلك قوله : ﴿ وَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية . وقد ثبت عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة ، وقت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوه ويلعنهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع : أن بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا ، فرضي عنا وأرضانا ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يَصِيعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال محمد بن إسحاق : استبشروا ، أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعد وجزيل الثواب . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم ، سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء ، وثواباً أعطاهم الله إياه ، إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين ، كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ؟ فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويرهبهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد ، سوى جابر بن عبد الله ، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإلتخا طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ . عن عكرمة قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردقم ، بسما صنعتهم ، ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين ، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد - أو بئر أبي عيينة الشك من سفيان - فقال المشركون : نرجع من قابل ، فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعد غزوة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق : كان يوم أحد يوم السبت النصف من شوال ، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو ، وأذن مؤذنه : أن لا يخرج من أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ، فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسول الله ، إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع ، وقال : « يَا بُنَيَّ لَا يَنْبَغِي لِي وَلَا لَكَ أَنْ تَتْرَكَ هَؤُلَاءِ النِّسَاءَ لَا رَجُلَ فِيهِنَّ ، وَلَكِنَّكَ بِالَّذِي أَوْثَرَكَ بِالْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِي فَتَخَلَّفَ عَلَى أَخَوَاتِكَ » فتخلفت عليهن ، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه ، وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبا للعدو ، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليطنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ^(٢) . وعن أبي السائب ، مولى عائشة بنت عثمان ، أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل ، كان قد شهد أحدًا قال : شهدنا أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخي رجعتا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو وقلت لأخي - أو قال لي - : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠١) .

(٢) السيرة لابن هشام (١٠٦/٣ ، ١٠٧) .

منه ، فكان إذا غلب حملته عقبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** الآية قلت لعروة : يا ابن أخي كان أبوك منهم ، الزبير وأبو بكر رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون ، خاف أن يرجعوا فقال : « مَنْ يَرْجِعْ فِي أَثَرِهِمْ » فانتدب منهم سبعون رجلاً ، فيهم أبو بكر والزبير . وكانت وقعة أُخذ في شِوَال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون بيدر الصغرى في كل سنة مرة ، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد ، وكان أصاب المؤمنين القرع ، واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، واشتد عليهم الذي أصابهم ، وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : « إِنَّمَا يَرْجِعُونَ الْآنَ فَيَأْتُونَ الْحَجَّ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مِثْلِهَا حَتَّى غَامَ مُقْبِلُ » فجاء الشيطان يخوف أوليائه فقال : إن الناس قد جمعوا لكم ، فأبى عليه الناس أن يتبعوه وقال : « إِنِّي ذَاهِبٌ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْنِي أَحَدٌ لَأُحْضِضُ النَّاسَ » فانتدب معه الصديق وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً ، فساروا في طلب أبي سفيان ، فطلبوه حتى بلغوا الصفراء فأُنزل الله تعالى : **﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾** فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة ، وقد مر به - كما حدثني عبد الله بن أبي بكر - معبد بن أبي معبد الخزاعي ، وكانت خزاعة مسلمهم ومشرکہم عبية نصح لرسول الله ﷺ بتهامة صفقتهم معه ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبد يومئذ كان مشركاً فقال : يا محمد ، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : أصبنا محمداً وأصحابه وقادتهم وأشرفهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ لنكرن على بقيتهم ، ثم لنفرغن منهم ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد وأصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فهم من الحق عليكم بشيء لم أر مثله قط ، قال : ويلك ما تقوله ؟ قال : والله ما أرى أن ترحل حتى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال : فإني أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم آياتاً من شعر ، قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرُودِ الْأَبَابِيلِ
عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ مَعَاذِلِ
لَمَّا سَمَوْا بِرَبِيسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
إِذَا تَغَطَّمَطَتِ الْبِطْحَاءُ بِالْخِلِ
لِكُلِّ ذِي إِزْبَةِ مِنْهُمْ وَمَغْفُولِ
وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقِيلِ

كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَضْوَابِ رَاحِلَتِي
تَزْدِي بِأَشَدِّ كِرَامٍ لَا تَنَابِلَةٍ
فَقُلْتُ أَغْدُو أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً
فَقُلْتُ وَنِلَ ابْنِ خَزْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ السَّيْلِ صَاحِبِيهِ
مِنْ جَيْشٍ أَحْمَدَ لَا وَخْشَ تَنَابِلَةٍ

عن قريش ، فيقولون : قد جمعوا لكم ، يكيدونهم بذلك يريدون أن يربوهم ، فيقول المؤمنون : حسبنا الله ونعم الوكيل ، حتى قدموا بدرًا فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد ، قال : قدم رجل من المشركين فأخبر أهل مكة بخيل محمد وقال :

قَدْ نَفَرْتُ مِنْ رِفْقَتِي مُحَمَّدٍ وَعَجْوَةٌ مِنْ يَثْرِبٍ كَالْعَنْجَدِ
فَهِيَ عَلَى دِينِ أَبِيهَا الْأَثَلَدِ قَدْ جَعَلَتْ مَاءَ قَدِيدٍ مَوْعِدِ
وماء ضجنان لها ضحى الغد (١)

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُوَفِّيهِمْ أَوَّلِيَاءَهُ ﴾ أي يخونكم أوليائه ويوهمكم أنهم ذوو بأس ، وذوو شدة ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إذ سؤل لكم وأوهمكم ، فلوكلوا علي ، والجاؤا إلي ؛ فإني كافيتكم وناصركم عليهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَا يَحْزَنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَكَلِّمُهُمْ لِزِدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَابُوا لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لِمُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لِمُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَحْلُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَبْرُثُ السَّخَنَاتِ وَالْأَرْضُ لِلَّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴾ .

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا يَحْزَنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس ، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزَنَكَ ذَلِكَ ﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة ﴿ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى مخبرًا عن ذلك إخبارًا مقررًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِالْإِيمَانِ ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أي ولكن يضرّون أنفسهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْزَنُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُكَلِّمُهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَكَلِّمُهُمْ لِزِدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ كقوله : ﴿ أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُثَدِّرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ شَايِعُ لِمُمْ فِي الْغَيْبِ بَلْ لَا يَتَعَرَّوْنَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أي لا بد أن يعقد شيئًا من المحنة ، يظهر فيه وليه ، ويفضح به عدوه ، ويعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به ستار المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد . وقال قتادة : ميز بينهم بالجهاد والهجرة . وقال السدي : قالوا : إن كان محمد صادقًا فليخبرنا

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٤١/١٤) والعنجد : حب الزبيب ، وقديد : موضع قرب مكة . وضجنان : جبل بناحية تهامة .

عمن يؤمن به منا ومن يكفر به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۚ أَيُّ حَتَّىٰ يَخْرُجَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ ، رَوَىٰ ذَلِكَ كُلُّهُ ابْنُ جُرَيْرٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ۚ أَيُّ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ ، لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ۚ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ أَيُّ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاتَّبِعُوا فِيهِمَا شَرَعَ لَكُمْ ۚ وَإِنْ تَوَيْتُمْ وَكُنْتُمْ أَكْثَرًا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لِّمَنْ بَلَّ هُوَ سَرًّا لَهُمْ ۚ أَيُّ لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنْ جَمَعَهُ الْمَالُ يَنْفَعُهُ بَلَّ هُوَ مُضِرٌّ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ ، وَرَبَّمَا كَانَ فِي دِينِهِ . ثُمَّ أَخْبَرَنَا بِمَالٍ أَمْرُ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ؛ مُثَلٌّ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعُ لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشَدْقِيهِ - ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ ، أَنَا كَنْزُكَ » ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لِّمَنْ بَلَّ هُوَ سَرًّا لَهُمْ ۚ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ (١) .

وعن عبد الله عن النبي ﷺ قال : مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعُ يُتَبَّعُهُ ، يَقْرَعُ مِنْهُ فَيَتَّبِعُهُ ، فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ ۚ ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ (٢) .

وعن ابن عباس : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ بَخِلُوا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ أَنْ يَبِينُوهَا ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ وَإِنْ دَخَلَ هَذَا فِي مَعْنَاهُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنْ هَذَا أَوَّلَىٰ بِالْدُخُولِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَيُّ فَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَإِنْ الْأُمُورُ كُلُّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَقَدِمُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۚ أَيُّ بِنَايَتِكُمْ وَضُمَائِكُمْ .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَسِيدِ ۝ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ الْبَلِغَتِ وَإِلَازِي قُلْتُمْ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۚ وَالْكِتَابِ الْأُمْنِيِّ ۚ .

عن ابن عباس : لما نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ قَالَتِ الْيَهُودُ : يَا مُحَمَّدُ : افْتَقِرْ رَبِّكَ فَسَأَلْ عِبَادَهُ الْقَرْضَ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۚ الْآيَةُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ بَيْتَ الْمَدْرَسَةِ فَوَجَدَ مِنْ يَهُودٍ نَاسًا كَثِيرَةً قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ : فَنَحَاصُ ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ ، وَمَعَهُ حَبِرٌ يُقَالُ لَهُ : أَشْجَعُ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : وَيْحَكَ يَا فَنَحَاصُ اتَّقِ اللَّهَ وَأَسْلَمْ ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَدْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَقَالَ فَنَحَاصُ :

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٣) وأحمد في مسنده (٣٥٥/٢) والنسائي في السنن (٢٤٨٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٩٨/٢) وابن ماجه في السنن (١٧٨٤) والنسائي في السنن (١١/٥) .

والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنه عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجدد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ الآية ^(١) . وقوله ﴿ سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ رَقَّتْ لَهُمُ الْآلِيَّةُ بِتَبَرٍ حَتَّى ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد أي يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ أَتَارُ ﴾ يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم ، أن لا يؤمنوا بالرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها . قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي فلم قابلتهم بالكذب والخالفة والمعاندة وقتلتهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم تتبعون الحق وتتقادون للرسل . ثم قال تعالى مسلماً لنبية محمد ﷺ ﴿ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل ، الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات ، وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ وهي الكتب المتلقة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أي الواضح الجلي . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْجَ عَنِ الْكَارِ وَأَذْجَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ ﴿ لَتُجْلَوْكُمْ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ أَوْفُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْكَ كَثِيراً قُلْ تَصَدَّقُوا وَتَقْتُلُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ ﴾ .

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحمة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخرها كما كان أولاً . وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ؛ فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم ، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها ، جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أي من حُتِبَ النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَوْضِعُ سَوِّطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴾ ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ^(١) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُخْرِجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؛ فَلْتَذِرْكَهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُجِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُتُورِ ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دينية فانية قليلة زائلة كما قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْوِيُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ وفي الحديث : « وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَفْعَسُ أَحَدُكُمْ لِمَضْبَعِهِ فِي الْيَوْمِ فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعْ إِلَيْهِ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي لابد أن يتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلاية زيد في البلاء ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلياً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين ، وأمرهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْزِ الْأُمُورِ ﴾ . عن أسامة بن زيد ، أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدية ، وأردف أسامة بن زيد ورائه يعود سعد بن عباد بن بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خُفِرَ عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ، ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله ﷻ وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتشاورون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي ﷺ : « يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ ؟ » يريد عبد الله بن أبي ، قال : كذا وكذا ، فقال سعد : يا رسول الله ، اعف عنه واصفح ؛ فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوجه فيعصبوه بالعصاة ، فلما أبي الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ . وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ الآية .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٠) وأحمد في مسنده (٣٣٩/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/٢) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٠٨) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَغَارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَاصْطَفُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۖ ﴾ الآية . وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدية الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا ^(١) . فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر فلا بد يؤذى ، فما له دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتََرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُغِضَ مَا يَشْكُرُونَ ۖ ﴾ لا تحسبن الذين يقرحون بما آتوا ويحيون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ^(٢) . ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ^(٣) .

هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة يبعثهم . وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم ، فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يذنبوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِّنْ نَّارٍ » ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحْيُونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا . وفي الصحيحين : « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِيسَ ثَوْبَيْنِ زُورٍ » ^(٥) .

وعن أبي سعيد الخدري : أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم بخلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحْيُونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الآية ^(٦) . قال أبو سعيد ورافع بن خديج وزيد بن ثابت : كنا عند مروان فقال : يا أبا سعيد أرأيت قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحْيُونَ أَنْ يَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ ونحن نفرح بما أتينا ونحب أن نحمد بما لم نفعل ؟ فقال أبو سعيد : إن هذا ليس من ذلك ، إنما ذاك أن ناساً من المنافقين يتخلفون إذا بعث رسول الله ﷺ بعثاً ، فإن كان فيهم نكبة فرحوا بتخلفهم ، وإن كان لهم نصر من الله وفتح حلفوا لهم ليرضوهم ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح ، فقال مروان : أين هذا من هذا ؟ فقال أبو سعيد : وهذا يعلم هذا ؟ فقال مروان : أكذلك يا زيد ؟ قال : نعم صدق أبو سعيد ، ثم قال أبو سعيد : وهذا يعلم ذاك - يعني

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٩٩/٢) وابن ماجه في السنن (٢٦٦) .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٢٦) وأحمد في مسنده (٣٤٥/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٧) .

رافع بن خديج - ولكنه يخشى إن أخبرك أن تنزع قلائصه في الصدقة ، فلما خرجوا قال زيد لأبي سعيد الخدري : ألا تحمدي علي ما شهدت لك ؟ فقال له أبو سعيد : شهدت الحق ، فقال زيد : أولا تحمدي علي ما شهدت الحق ؟ .

وعن ثابت بن قيس الأنصاري قال : يا رسول الله ، والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال : «لِمَ ؟» قال : نهى الله المرء أن يحب أن يحمى بما لم يفعل ، وأجديني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجديني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ : «أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا ، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا ، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟» فقال : بلى يا رسول الله ، فعاش حميدًا ، وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ يَمُوتُونَ مِنْ الْعَذَابِ ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد ، وبالياء على الإخبار عنهم ^(٢) ، أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، القدير الذي لا أقدر منه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَكَبَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ .

عن ابن عباس قال : أتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى ؟ قالوا : عصاه ويده يبضاء للناظرين . وأتوا النصراني فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يرى الأكمة والأبرص ويحيى الموتى . فأتوا النبي ﷺ فقالوا : ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ فليتفكروا فيها . وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبًا ، كان بمكة ومعنى الآية أن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ، من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرًا ، ويقصر الذي

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣١٠) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢١/٩)

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمر ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ بالغيب وضم الباء ، وقراء الباقون ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ ﴾ بالخطاب وفتح الباء (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٣) .

كان طويلاً وكل ذلك تقدير العزيز العليم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لَآئِنِ لَّاؤُلَىَّ الْآلَاءِ ﴾ أي العقول التامة الزكية ، التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يفقهون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَكَأَنِّ مِنْ مَّاءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمُرُوتٍ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ . عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ قَاعِدًا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبِكَ » (١) أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألستهم ﴿ وَتَنَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . وعن الحسن البصري أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك . وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوي لمن كان قلبه تذكرًا ، وصمته تفكرًا ، ونظره عبرًا . قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام لذكر الله ﷻ حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظر إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار ، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وكان يكي عند ذلك حتى يرفع صريخًا من بين أصحابه قد ذهب عقله . وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزلة فناداه فقال : يا راهب ، إن عندك كنزين من كنوز الدنيا ، لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال . وعن ابن عمر : أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ . وعن ابن عباس أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك ، واشرب في ثلثه ، ودع ثلثه الآخر تنفث للفكرة . وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة ؛ انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة . وقال بشر بن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمه الله تعالى لما عصوه . وعن عامر بن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكير . وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضعيفًا ، واتخذ المساجد بيتًا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد . وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عليه السلام أنه بكى يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال : فكرت في الدنيا

(١) أخرجه البخاري في تفسير الصلاة (١١١٧) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل ، فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية : ﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ إلى آخر السورة . ثم قال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا ، وَفِي سَمْعِي نُورًا ، وَفِي بَصَرِي نُورًا ، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا ، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا ، وَمِنْ يَمِينِي نُورًا ، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا ، وَمِنْ قُدْرِي نُورًا ، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) وهذا الدعاء ثابت .

وعن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : رُؤْيَا تَزْدَدُ حُجًّا ، فقال ابن عمر : ذرينا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ ، فبكّت وقالت : كل أمره كان عجبًا ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال : « ذَرِينِي أَتَعْبُدَ لِرَبِّي ﷻ » فقالت : فقلت : والله إني لأحب قربك ؛ ولاني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القرية فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « وَيَحْكُ يَا بِلَالُ ! وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ » ثم قال : « وَلَيْلَ لَمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » (٢) .

وعن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران كل ليلة (٣) . ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ جَارِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَافًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ .

يقول الله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي فأجابهم ربهم كما قال الشاعر :
وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ
قالت أم سلمة : يا رسول الله ، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء . فأنزل الله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ إلى آخر الآية (٤) . وقالت الأنصار : هي أول ظهينة قدمت علينا . عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ إلى آخرها . ومعنى الآية : أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم ، عقب ذلك بقاء التعقيب ، وقوله تعالى : ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ هذا تفسير للإجابة ؛ أي قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٨١) وأحمد في مسنده (٣٥٢/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١١/٢) . (٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٤/٢) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٠/٢) .

يُنَا بَعْضٌ ﴿١٩٥﴾ أَي جَمِيعِكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءٌ ﴿١٩٦﴾ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴿١٩٧﴾ أَي تَرَكُوا دَارَ الشَّرْكِ وَأَتُوا إِلَى دَارِ
الْإِيمَانِ ، وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخُلَانِ وَالْجِيرَانَ ﴿١٩٨﴾ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ ﴿١٩٩﴾ أَي ضَايَقَهُمُ الْمُشْرِكُونَ
بِالْأَذَى حَتَّى أَلْجَأُوهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿٢٠٠﴾ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي ﴿٢٠١﴾ أَي إِنَّمَا كَانَ
ذَنْبُهُمْ إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٠٢﴾ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَلَئِنْ
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٢٠٣﴾ وَفَعَلْنَا وَفَعَلْنَا ﴿٢٠٤﴾ وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَعْقُرُ جَوَادُهُ ، وَيَعْرِفُ
وَجْهَهُ بِدَمِهِ وَتَرَابِهِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدِيرٍ ، يُكْفِرُ اللَّهُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ثُمَّ قَالَ :
« كَيْفَ قُلْتَ ؟ » فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ ، فَقَالَ : « نَعَمْ . إِلَّا الَّذِي قَالَ لِي جَبْرِيلُ آيَةً » ^(١) . وَلِهَذَا قَالَ
تَعَالَى : ﴿٢٠٥﴾ لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٠٦﴾ أَي تَجْرِي فِي خِلَالِهَا
الْأَنْهَارُ ، مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسَنِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا
أُذُنَ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَقَوْلُهُ : ﴿٢٠٧﴾ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿٢٠٨﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيَدُلَّ
عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطِي إِلَّا جَزِيلًا كَثِيرًا .

وقوله تعالى : ﴿٢٠٩﴾ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿٢١٠﴾ أَي عِنْدَهُ حَسَنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمِلَ صَالِحًا . رَوَى أَنَّ
شَدَادَ بْنَ أَوْسٍ كَانَ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَتَهَمُوا اللَّهَ فِي قَضَائِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُبْغِي عَلَى مُؤْمِنٍ ، فَإِذَا
أَنْزَلَ بِأَحَدِكُمْ شَيْئًا مَّا يُحِبُّ فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ ، وَإِذَا أَنْزَلَ بِهِ شَيْئًا مَّا يَكْرَهُ فَلْيَصْبِرْ وَلْيَحْتَسِبْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ .

﴿٢١١﴾ لَا يَغْنَرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْيَلْدِ ﴿٢١٢﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَفْسُ إِلَهَادُ ﴿٢١٣﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا
رَبَّهُمْ لَمْ يَجْعَلْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ ﴿٢١٤﴾ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ .

يقول تعالى : لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ مَتَرَفُونَ فِيهِ مِنَ النِّعَةِ وَالْغِبْطَةِ وَالسَّرُورِ ، فَعَمَّا قَلِيلٍ
يُزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ ، وَيَصْبَحُونَ مَرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ، فَإِنَّمَا نَعِدُ لَهُمْ فِيهَا هَمٌّ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا ،
وَجَمِيعُ مَا هُمْ فِيهِ ﴿٢١٥﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَفْسُ إِلَهَادُ ﴿٢١٦﴾ وَهَذِهِ آيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٢١٧﴾ مَا يُجْدِلُ
فِي عَائِنَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْنَرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴿٢١٨﴾ وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكَافِرِ فِي الدُّنْيَا ، وَذَكَرَ أَنَّ
مَأْلَهُمْ إِلَى النَّارِ قَالَ بَعْدَهُ : ﴿٢١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يَجْعَلْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ ﴿٢٢٠﴾ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ ﴿٢٢١﴾ . عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - : مَا مِنْ
نَفْسٍ بَرَةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا الْمَوْتُ خَيْرٌ لِّهَا ، لَنْ كَانَ بَرًّا لَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿٢٢٢﴾ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
لِّلْآزِرِينَ . وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ ، وَمَا مِنْ كَافِرٍ إِلَّا
وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَصِدَّقْنِي فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿٢٢٣﴾ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ .

﴿٢٢٤﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشَتَّرُونَ بِعَائِنَةِ
اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢٥﴾ يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبَرُوا
وَصَابَرُوا وَرَاطِبُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٢٦﴾ .

(١) أخرجه النسائي في السنن (٣٤/٦) .

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ؛ أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، سواء كانوا يهوداً أو نصارى . وقد قال تعالى في سورة القصص : ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَئِنْ بَلَغْتَ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ۝ الْآيَةُ . وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبُ بِتِلْكَ حَقٌّ يَلَاذِقُهُ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۝ الْآيَةُ . وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً ، كما وجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أجباز اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُهُمْ ۝ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا فَجَنَّاتُ جَبَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۝ الْآيَةُ . وهكذا قال ههنا : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۝ الْآيَةُ .

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب ﷺ لما قرأ سورة ﴿ كَهَمَصَ ﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة ، وعنده البطارقة والقساوسة ، بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم . وثبت في الصحيحين : أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال : « إِنَّ أَحَا لَكُمْ بِالْحَبَشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لما مات النجاشي كنا نحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور . وعن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال : نزل بالنجاشي عدو من أرضهم ، فجاءه المهاجرون فقالوا : إنا نحب أن تخرج إليهم حتى نقاتل معك ، وترى جراتنا ونجزيك بما صنعت بنا ، فقال : لداء بنصر الله ﷻ خير من دواء بنصرة الناس ، قال : وفيه نزلت ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ۝ الْآيَةُ . وعن مجاهد : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب . وقال عباد بن منصور : سألت الحسن البصري عن قول الله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ۝ الْآيَةُ . قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ واتباعهم محمداً ﷺ . وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » فذكر منهم « رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبئه وآمن بي » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِكَائِدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم ، كما فعلته الطائفة المردولة منهم ، بل يذلون ذلك مجاناً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ قال مجاهد : سريع الحساب ، يعني سريع الإحصاء .

(١) أخرجه مسلم في الجناز (٦٦) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١١) والترمذي في السنن (١١١٦) .

وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الذِّبَرُ ﴾ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴿ قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم . وكذلك قال غير واحد من علماء السلف . وأما المراقبة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطِيئَاتِ وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ إِنْ بَاغَ الْوُضُوءُ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثُرَ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتَظَرُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » ^(١) . وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية ﴿ يَأْتِيهَا الذِّبَرُ ﴾ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴿ ؟ قلت : لا ، قال : أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرّون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها ، فعليهم أنزل ﴿ أَصْبِرُوا ﴾ أي على الصلوات الخمس ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أنفسكم وهواكم ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ في مساجدكم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

وقيل : المراد بالمراقبة ههنا مراقبة الغزو في نحو العدو ، وحفظ ثغور الإسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه ، فعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال : « رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا » ^(٣) . وعن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رِبَاطٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْقَتْلَانِ » ^(٤) .

وعن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ ، إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَثْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةُ الْقَبْرِ » ^(٥) . وقال عثمان وهو يخطب على منبره : إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حَرَسَ لَيْلَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا » ^(٦) .

وعن سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم ، بظعنهم ونعمهم وشياهم ، فتبسم النبي ﷺ وقال : « تِلْكَ غَنِيْمَةُ الْمُسْلِمِينَ عَدَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ثم قال : « مَنْ يَخْرُسُنَا اللَّيْلَةَ » قال أنس بن أبي

(١) أخرجه أحمد في مستنده (٣٠٣/٢) والبيهقي في السنن (٨٢/١) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠١/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في المجاهد والسير (٢٨٩٢) والترمذي في السنن (١٦٦٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مستنده (٤٤١/٥) والطبراني في الكبير (٣٢٧/٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مستنده (٢٠/٢) والحاكم في المستدرک (١٤٤/٢) والدرمي في السنن (٢١١/٢) .

(٦) أخرجه أحمد في مستنده (٦٥/١) والحاكم في المستدرک (٨١/٢) وابن ماجه في السنن (٢٧٧٠) .

مرثد : أنا يا رسول الله ، قال : «فَارْكَبْ » فركب فرسًا له ، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : «اسْتَقْبِلْ هَذَا الشَّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَغْلَاهُ ، وَلَا نَفْزَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّيْلَةَ » فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين فقال : «هَلْ أَحْسَنْتُمْ فَارِسَكُمْ ؟ » فقال رجل : يا رسول الله ، ما أحسنناه ، فنُوبُ بالصلاة ، فجعل النبي ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال : «أُبَشِّرُوا ! فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ » فجعلنا ننظر في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على النبي ﷺ فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني ، فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أرَ أحدًا ، فقال له رسول الله ﷺ : «هَلْ نَزَلَتِ اللَّيْلَةُ ؟ » قال : لا ، إلا مصليًا أو قاضي حاجة ، فقال له : «أَوْجِبْتَ ، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا » (١) .

وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «عَيْنَانِ لَا تَمْسَهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٢) .

وعن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ مُنْطَوِّعًا لَا بِأَجْرَةٍ سُلْطَانٍ ؛ لَمْ يَرِ النَّارَ بَعَثَتْهُ إِلَّا نَحْلَةُ الْقَسَمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿لَا يَنْكَرُ إِلَّا وَارِدَهَا﴾ » (٣) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تَعَسَّ عَيْدُ الدِّينَارِ وَعَيْدُ الدَّرْهَمِ وَعَيْدُ الْخَمِصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ؛ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ ، طَوْنِي لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعَانٍ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَشْعَثَ رَأْشُهُ ، مُغْبِرَةٌ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَبَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي الشَّاقَةِ كَانَ فِي الشَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ » (٤) .

وعن مالك بن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعًا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر ، أما بعد : فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجًا ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالى يقول : ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَاتَّبِعِ الشَّيْئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقِي حَسَنٍ» (٥) . ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة . عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله ﷻ : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتموني .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٨٤/٢) والبيهقي في السنن (١٤٩/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٦٣٩) والمنذري في الترغيب (٢٤٨/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٤٣٧/٣) والمنذري في الترغيب (٢٤٨/٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٤١٣٦) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٨٧) والحاكم في المستدرک (٥٤/١) .

سورة النساء

وآياتها ست وسبعون ومائة

عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وعنه قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : « لَا حَيْسَ » ^(١) وعن ابن مسعود قال : خمس آيات من النساء ، لهن أحب إلي من الدنيا جميعاً ﴿ إِنْ جَحَدْتُمْ مَا بُنُونُ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . وعنه قال : ثمانى آيات نزلت في سورة النساء خير لهذا الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، أولهن ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ دِيوَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ والثانية : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ والثالثة : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وِجْلَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء ، يعني في الخمسة الباقية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ومنبها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ وهي حواء عليه السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرأها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه . وفي الحديث الصحيح : « إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَغْلَاةٌ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ ثَقِيْمُهُن كَسَرَتْهُ ، وَإِنْ اسْتَفْتَعَتْ بِهَا اسْتَفْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ » ^(٢) . وقوله : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أي وذراً منهما أي من آدم وجواء رجالاً كثيراً ونساءً ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه . وقيل : واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن بزوجها وصلوها . وقرأ بعضهم ﴿ وَالْأَرْحَامَ ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في به أي تساءلون بالله وبالأرحام ^(٣) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . وفي الحديث : « اغْبِثِ اللَّهَ كَمَا تَكُنْ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ^(٤) وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب . ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد ، وأم واحدة ، ليعطف بعضهم على بعض ، ويحشهم على ضعفائهم ، وعن جرير بن عبد الله البجلي أن

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩/٣) . (٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٠) والبيهقي في السنن (٩٥/٧) .

(٣) قرأ حمزة و ﴿ الْأَرْحَامَ ﴾ بكسر الميم ، وقرأ الباقون بفتحها . (انظر : التقريب ص : ١٠٤) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٢/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤٠/٢) .

رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو الثمار أي من عريهم وفقهرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ خِصْمَ الْآيَةِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ثم حضهم على الصدقة فقال : « تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ » ^(١) وذكر تمام الحديث .

﴿ وَءَاثُوا إِلَيْنَا آمَوَالَكُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْحَقَّ بِالْكَذِبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْيَسَاءِ مَتْنٌ وَكُنْتُمْ وَرِثَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقُولُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقَكُمْ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ وَءَاثُوا الْيَسَاءَ صَدَقَتَيْنِ بَغْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَبْدَلُوا الْحَقَّ بِالْكَذِبِ ﴾ عن أبي صالح : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك . وقال سعيد بن جبير : لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم . يقول : لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام . وقال السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة . ويأخذ الدرهم الجيد ، ويطرح مكانه الزيف ، ويقول : درهم بدرهم . وقوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي إثماً عظيماً . عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ قال : إثماً كبيراً . وعن أنس بن مالك يقول : أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبي ﷺ : « إِنْ طَلَّقَ أُمَّ سَلِيمٍ لَحُوبٌ » فكف ^(٢) . والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه .

وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الْيَسَاءِ مَتْنٌ ﴾ أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها ، فليعدل إلى ما سواها من النساء ؛ فإنهن كثير ، ولم يضيق الله عليه . عن عائشة : أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها ، وكان لها عذق ، وكان يسكنها عليه ، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ أحسبه قال : كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله ^(٣) . وعن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ قالت : يا ابن أخي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنها أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي الْيَسَاءِ ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى : ﴿ وَرَغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنها أن ينكحوا من رغبوها في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن ، إذا كن قليلات المال والجمال ^(٤) .

وقوله : ﴿ مَتْنٌ وَكُنْتُمْ وَرِثَ ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٢/٢) والبيهقي في السنن (٣٠٧/٧) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٣) . (٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٧٤) .

ثلاثاً ، وإن شاء أربعاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مَتَنٌ وَذَلِكَ وَرِثٌ ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه . بخلاف قصر الرجال على أربع ، فمن هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء ؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة ، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره . قال الشافعي : وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة . وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء ، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة ، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع ، وقال بعضهم : بلا حصر ، وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح ، وأما إحدى عشرة كما قد جاء في بعض ألفاظ البخاري . وقد علقه البخاري ، وقد روي عن أنس أن رسول الله ﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة ، ودخل منهن بثلاث عشرة ، واجتمع عنده إحدى عشرة ، ومات عن تسع . وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة ، لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع . ولنذكر الأحاديث في ذلك .

عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة ، فقال له النبي ﷺ : « اخْتَرُ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » فلما كان في عهد عمر طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لا أظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك ففقدته في نفسك ، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً ، وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال ^(١) . فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن ، فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن ، دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال ، فإذا كان هذا في الدوام ، ففي الاستثنا بطريق الأولى والأحرى .

وعن عميرة الأسدي قال : أسلمت وعندي ثمان نسوة ، فذكرت للنبي ﷺ فقال : « اخْتَرُ مِنْهُنَّ أَرْبَعًا » ^(٢) . وقوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي إن خفتن من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ آلَا تَقُولُوا ﴾ قال بعضهم : ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم . قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَكُمُ أَيَّ فَقْرًا ﴾ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شِئْتُمْ وقال الشاعر :

فَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غَنَاءُ وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يُعِيلُ

وتقول العرب : عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . ولكن في هذا التفسير ههنا نظر ؛ فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر ، كذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً ، والصحيح قول الجمهور : ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ آلَا تَقُولُوا ﴾ أي لا تجوروا . عن عائشة عن النبي ﷺ : ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ آلَا تَقُولُوا ﴾ قال : « لا تجوروا » ^(٣) وقيل : لا تميلوا .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤/٢) والدارقطني في السنن (٢٧١/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٢٤١) والحاكم في المستدرک (١٩٢/٢) . (٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣٢٠/١٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ غَلَّةً ﴾ عن ابن عباس النحلة : المهر . وعن عائشة نحلة : فريضة . وقال ابن زيد : النحلة في كلام العرب الواجب ، يقول : لا تنكحها إلا بشيء واجب لها ، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصدوق واجب ، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق ، ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً ، وأن يكون طيب النفس بذلك ، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً ، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك ، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه ، فيأكله حلالاً طيباً ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَاءً مَرَاتًا ﴾ . عن أبي صالح : كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها ، فنهاهم الله عن ذلك ونزل ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ غَلَّةً ﴾ عن عبد الرحمن بن مالك السلماني قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ غَلَّةً ﴾ قالوا : يا رسول الله ، فما العلائق بينهم ؟ قال : « مَا تَرَاضَى عَلَيْهِ أَهْلُوهُنَّ » ^(١)

﴿ وَلَا تَوَدُّوا أَنْ تُنْفَعُوا أَمْوَالُكُمْ إِلَى جَلٍّ إِنَّ اللَّهَ لَكَرِيمٌ ﴾ وَأَزْوَاجُهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿ وَأَنْتُمْ أَلَيْسَ تَحَرَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ مَا اسْتَغْنَوْا فَإِنْ كَانُوا فَاقِدُوا أَمْوَالَهُمْ فَكُلُوا مِنْ مَالِ آبَائِكُمْ وَمِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَمَا تَعْلَمُونَ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

ينتهي سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ، أي تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها . ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام : فتارة يكون الحجر للصغر ، فإن الصغير مسلوب العبارة . وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين . وتارة للفلس ، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَوَدُّوا أَنْ تُنْفَعُوا أَمْوَالُكُمْ ﴾ قال : هم بنوك والنساء . وقال سعيد بن جبير : هم اليتامى . وعن أبي هريرة قال : هم الخدم ، وهم شياطين الإنس . وقوله : ﴿ وَأَزْوَاجُهُمْ فِيهَا وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس : لا تعد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فنعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤونتهم ورزقهم . وعن أبي موسى قال : ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سفيهاً وقد قال الله : ﴿ وَلَا تَوَدُّوا أَنْ تُنْفَعُوا أَمْوَالُكُمْ ﴾ ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه . وقال مجاهد : ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ يعني في البر والصلة . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ، ومن تحت الحجر بالفعل ، من الإنفاق في الكساي والأرزاق ، بالكلام الطيب ، وتحسين الأخلاق .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ أَلَيْسَ تَحَرَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾ يعني الحلم . قال الجمهور من العلماء : البلوغ في الغلام ، تارة يكون بالحلم ، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد . وعن علي قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « لَا يُنْمَ بَعْدَ اخْتِلَامٍ ، وَلَا صِمَاتٌ يَوْمٌ إِلَى اللَّيْلِ » ^(٢) . وعن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبي ﷺ قال : « رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ أَوْ يَشْتَكِلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيْقَ » ^(٣) . وأخذوا ذلك من

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٤/١٤) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٠/٦) والنسائي في السنن (١٥٦/٦) والحاكم في المستدرک (٢٨٩/٤) .

الحديث عن ابن عمر قال : عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ فَلَمْ يَجْزِنِي ، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَأُجَازَنِي . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ : إِنْ هَذَا الْفَرْقُ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ . وَاخْتَلَفُوا فِي نَبَاتِ الشَّعْرِ الْخَشَنِ حَوْلَ الْفَرْجِ ، وَهِيَ الشَّعْرَةُ ، هَلْ يَدُلُّ عَلَى بُلُوغٍ أَمْ لَا ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : يَفْرُقُ فِي الثَّلَاثِ بَيْنَ صَبِيَّانِ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لِحْتِمَالِ الْمَعَالِجَةِ ، وَبَيْنَ صَبِيَّانِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَيَكُونُ بُلُوغًا فِي حَقِّهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَجَّلُ بِهَا إِلَى ضَرْبِ الْحَزِيَّةِ عَلَيْهِ فَلَا يَمُالِحُهَا ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا بُلُوغٌ فِي الْجَمِيعِ ؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَبَلِيٌّ يَسْتَوِي فِيهِ النَّاسُ ، وَاحْتِمَالُ الْمَعَالِجَةِ بَعِيدٌ ، ثُمَّ قَدْ دَلَّتِ السَّنَةُ عَلَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَى عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ قَالَ : عَرَضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قَرِيطَةَ ، فَأَمَرْنَا مِنْ يَنْظُرُ مِنْ أَنْبَتٍ ، فَكَانَ مِنْ أَنْبَتِ قَتْلٍ ، وَمَنْ لَمْ يَنْبِتْ خَلِيٍّ سَبِيلَهُ ، فَكَانَتْ فِيمَنْ لَمْ يَنْبِتْ فَخْلِيٍّ سَبِيلِي . وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ كَانَ قَدْ حُكِمَ فِيهِمْ بِقَتْلِ الْمُقَاتِلَةِ وَسَبِيِّ الذَّرِيَّةِ . وَعَنْ عُمَرَ أَنَّ غُلَامًا ابْتَهَرَ جَارِيَةً فِي شَعْرِهِ ، فَقَالَ عُمَرُ : انْظُرُوا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَوْجَدْ أَنْبَتَ فِدْرًا عَنْهُ الْحَدُّ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : ابْتَهَرَهَا أَيُّ قَذْفِهَا ، وَالِابْتِهَارُ أَنْ يَقُولَ : فَعَلْتُ بِهَا وَهُوَ كَاذِبٌ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا هُوَ الْإِبْتِهَارُ .

وقوله ﷻ : ﴿ فَإِنْ مَاتَ سِتْمَ يَتِيمٍ مُتْرَكًا فَادْفِنُوهُ لِتَتِمَّ مَوْتُهُمْ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : يَعْنِي صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ ، وَحِفْظًا لِأَمْوَالِهِمْ . وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : إِذَا بَلَغَ الْغُلَامُ مُصْلَحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ انْفَكَ الْحَجَرُ عَنْهُ ، فَيَسْلَمُ إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدِهِ وَلِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ أَسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ ﴿ أَسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أَيُّ مَبَادِرَةٍ قَبْلَ بُلُوغِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَنْ كَانَتْ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ عَنْهُ وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا . وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : هُوَ عَلَيْهِ كَالْيَتِيمِ وَالدَّمُ ﴿ وَنَنْ كَانَتْ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ عَنْ عَائِشَةَ : نَزَلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ وَيُصْلِحُهُ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ . قَالَ الْفُقَهَاءُ : لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ أَقْلِ الْأُمْرَيْنِ أَجْرَةَ مِثْلِهِ أَوْ قَدَرِ حَاجَتِهِ . وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَرُدُّ إِذَا أَيْسَرَ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لَا ، لِأَنَّهُ أَكَلَ بِأَجْرَةِ عَمَلِهِ ، وَكَانَ فَقِيرًا ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ أَبَاحَتْ الْأَكْلَ مِنْ غَيْرِ بَدَلٍ . عَنْ عُمَرَ وَبْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : لَيْسَ لِي مَالٌ وَلِي يَتِيمٌ ؟ فَقَالَ : « كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبْتَدِرٍ وَلَا مُتَأَتِّلٍ مَالًا ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَّ مَالَكَ - أَوْ قَالَ - تُقْدِي مَالَكَ بِمَالِهِ » شَكَ حُسَيْنٌ ^(٢) . عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّا أَضْرَبُ يَتِيمِي ؟ قَالَ : « مِمَّا كُنْتُ ضَارِبًا مِنْهُ وَلَدَكَ ، غَيْرَ وَاقٍ مَالَكَ بِمَالِهِ ، وَلَا مُتَأَتِّلٍ مِنْهُ مَالًا » ^(٣) . وَعَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ : إِنْ فِي حَجَرِي أَيْتَامًا ، وَإِنْ لَهُمْ إِبِلًا وَلِي إِبِلٌ ، وَأَنَا أُمْنَعُ مِنْ إِبِلِي فَقَرَاءً ، فَمَاذَا يَحِلُّ مِنْ أَلْبَانِهَا فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ تَبْخِي ضَالَّتِهَا ، وَتَهْنَأُ جَرَبَاهَا ، وَتَلُوطُ حَوْضَهَا ، وَتَسْعَى عَلَيْهَا ، فَاشْرَبْ غَيْرَ مُضِرٍّ بِنَسْلِ ، وَلَا نَاهِكٍ فِي الْحَلْبِ .

والثَّانِي : نَعَمْ ، لِأَنَّ مَالَ الْيَتِيمِ عَلَى الْخَطَرِ ، وَإِنَّمَا أُبَيِّحُ لِلْحَاجَةِ ، فَيُرَدُّ بِدَلِهِ كَأَكْلِ مَالِ الْغَيْرِ لِلْمُضْطَرِّ عِنْدَ الْحَاجَةِ . عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرَّبٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ ^(٤) : إِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ هَذَا الْمَالِ مَنْزِلَةً وَالِي الْيَتِيمِ ، إِنْ اسْتَعْفَفْتَ اسْتَعْفَفْتُ ، وَإِنْ احْتَجَجْتَ اسْتَقْرَضْتُ ، فَإِذَا أَيْسَرْتَ قَضَيْتُ .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢٦٤/٨) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٥٨/٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٧٢) والنسائي في السنن (٢٥٦/٦) وابن ماجه في السنن (٢٧١٨) .

(٤) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٤٣٧/١٠) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٦٣/٨) .

عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَنْ كَانَ قَدِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قال : يعني القرض ، وعن مقسم عن ابن عباس ﴿ وَمَنْ كَانَ قَدِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قال : يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم . وقال عامر الشعبي : لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة ، فإن أكل منه قضاه .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم ، وإيناسكم الرشد منهم ، فحينئذ سلموا إليهم أموالهم ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿ فَاشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم ، لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه ، ثم قال : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَاسِبًا ﴾ أي وكفى بالله محاسبًا وشاهدًا ورقبًا على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم لأموالهم ، هل هي كاملة موفرة ، أو منقوصة مبخوسة مروج حسابها مدلس أمورها ؟ والله عالم بذلك كله . ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي ، لَا تَأْمُرُنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَكِلُنَّ مَالَ يَتِيمٍ » (١) .

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٨ وَلِيَحْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى خُلْفًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠ ﴾

قال سعيد بن جبيرة وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئًا ، فأنزل الله : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ الآية . أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى ، يستوون في أصل الورثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية ، أو ولاء ؛ فإنه لحمة كلحمة النسب .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ ﴾ الآية قيل : المراد : وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربي ممن ليس بوارث ﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجبًا في ابتداء الإسلام ، وقيل : يستحب ، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين . عن ابن عباس في الآية قال : هي محكمة وليست بمنسوخة . وعن مقسم عن ابن عباس قال : هي قائمة بعمل بها . وعن مجاهد قال : هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم . وقال ابن سيرين وسعيد بن جبيرة ومكحول وغيرهم : إنها واجبة . وعن ابن سيرين قال : ولي عبيدة وصية ، فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية ، فقال : لولا هذه الآية لكان هذا من مالي .

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم : يروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشة حية ، فلم يدع في الدار مسكينًا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه ، قال : وتلا ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَى ﴾ قال القاسم : فذكرت ذلك لابن عباس فقال : ما أصاب ، ليس ذلك له ، إنما ذلك إلى الوصية ، وإنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم .

ذكر من قال إن هذه الآية منسوخة بالكلية : عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ

أَقْسَمَ ﴿ قَالَ : مَنْسُوخَةٌ . وَعَنْهُ قَالَ : نَسَخْتُهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ﴾ يُؤَيِّدُكُمُ اللَّهُ فِي أَوَّلِكُمْ . وَعَنْهُ قَالَ : نَسَخْتُهَا آيَةَ المِيرَاثِ ، فَجَعَلَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَصِيبَهُ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَنِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا مَنْسُوخَةٌ ، قَبْلَ الْفَرَاغِ كَانَ مَا تَرَكَ الرَّجُلُ مِنْ مَالٍ أُعْطِيَ مِنْهُ الْيَتِيمَ وَالْفَقِيرَ وَالْمَسْكِينَ وَذَوِي الْقُرْبَى إِذَا حَضَرُوا الْقِسْمَةَ ، ثُمَّ نَسَخْتُهَا الْمَوَارِيثَ فَأَلْحَقَ اللَّهُ بِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَصَارَتِ الْوَصِيَّةُ مِنْ مَالِهِ يُوصِي بِهَا لِذَوِي قُرَابَتِهِ حَيْثُ شَاءَ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ ، نَسَخْتُهَا الْمَوَارِيثَ وَالْوَصِيَّةَ . وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَالْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَأَصْحَابِهِمْ ، وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جُرَيْرٍ هَهُنَا قَوْلًا غَرِيبًا جَدًّا وَحَاصِلُهُ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُ ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ أَيُّ وَإِذَا حَضَرَ قِسْمَةَ مَالِ الْوَصِيَّةِ أَوَّلُو قُرَابَةِ الْمَيِّتِ ﴿ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ السَّلَامَ ﴾ لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ إِذَا حَضَرُوا ﴿ قَوْلًا مَقْرُوفًا ﴾ هَذَا مَعْنَى مَا حَاوَلَهُ بَعْدَ طَوْلِ الْعِبَارَةِ وَالتَّكْرَارِ وَفِيهِ نَظَرٌ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ : هِيَ قِسْمَةُ الْمِيرَاثِ . وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا لَا عَلَى مَا سَلَكَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بَلِ الْمَعْنَى : أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقُرَابَةِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ قِسْمَةَ مَالٍ جَزِيلٍ ، فَإِنَّ أَنْفُسَهُمْ تَتَوَقَّعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا يَأْخُذُ ، وَهُمْ يَأْتِسُونَ لَا شَيْءَ يُعْطَوْنَهُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى - وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ - أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسْطِ يَكُونُ بَرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ ، وَجِبْرًا لِكُسْرِهِمْ . وَذُمُّ الَّذِينَ يَقُولُونَ الْمَالَ خَفِيَّةٌ خَشِيَّةٌ أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِمُ الْحَاوِجُ وَذَوُّ الْفَاقَةِ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴿ إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرَتِهِمْ مُمِيزِينَ ﴾ أَيُّ بَلِيلٍ . وَقَالَ : ﴿ فَاطْلُقُوا هُمُ يَتَخَفَتُونَ ﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَتْهُ الْيَمُّ عَلَيْكُمْ يَسْتَكِينُ ﴿ فِ ﴾ دَمَرُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَشْنَاءُ ﴿ فَمَنْ جَحَدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ عَاقِبَهُ فِي أَعَزِّ مَا يَمْلِكُهُ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « مَا خَالَطَتِ الصَّدَقَةُ مَالًا إِلَّا أَفْسَدَتْهُ » ^(١) أَيُّ مَنَعَهَا يَكُونُ سَبَبٌ مُحَقِّقٌ ذَلِكَ الْمَالَ بِالْكَلِيَّةِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْنَسَ الَّذِينَ تَوَكَّلُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هَذَا فِي الرَّجُلِ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ ، فَيَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بَوْرَثَهُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَيُوقِفَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ ، فَيَنْظُرُ لَوْرَثَتِهِ كَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَصْنَعَ بَوْرَثَهُ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ ، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ يَعُودُهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي ، أَفَأُصَدِّقُ بِثُلْثِي مَالِي ؟ قَالَ : « لَا » قَالَ : فَالْشُّطْرُ ؟ قَالَ : « لَا » قَالَ : فَالْثُلُثُ ؟ قَالَ : « الْثُلُثُ ، وَالْثُلُثُ كَثِيرٌ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » ^(٢) . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُوا مِنَ الثُّلْثِ إِلَى الرَّبْعِ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْثُلُثُ ، وَالْثُلُثُ كَثِيرٌ » . قَالَ الْفُقَهَاءُ إِنْ كَانَ وَرَثَةُ الْمَيِّتِ أَغْنِيَاءَ اسْتَحَبَّ لِلْمَيِّتِ أَنْ يَسْتَوْفِيَ فِي وَصِيَّتِهِ الثُّلْثَ ، وَإِنْ كَانُوا فُقَرَاءَ اسْتَحَبَّ أَنْ يَنْقُصَ الثُّلْثَ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْآيَةِ : فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ فِي مَبَاشَرَةِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوها إِمْرًاقًا وَبِدَارًا ﴾ أَيُّ كَمَا تَحِبُّ أَنْ تَعَامَلَ ذَرِيتُكَ مِنْ بَعْدِكَ ، فَعَامِلُ النَّاسِ فِي ذَرَارِيهِمْ إِذَا وَلِيْتَهُمْ .

ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أَيُّ إِذَا أَكَلُوا أَمْوَالَ الْيَتَامَى بِلَا سَبَبٍ ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ نَارًا تَتَأَجَّجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسُّخْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٣/١) ، والهيتمي في مجمع الزوائد (٦٤/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٤) وأحمد في مسنده (٢٢٣/١) .

الرَّبَا، وَأَكُلْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرُّخْفِ، وَقَذَفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ^(١). وقال السدي : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهيب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ، وأنفه ، وعينه ، يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أُحْرَجَ مَالُ الضَّعِيفَيْنِ : الْمَرْأَةِ ، وَالْيَتِيمِ » ^(٢) أي أوصيكم باجتنب مالهما .

﴿ يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ الْمُتَعَالَى الَّذِي وَلَدَّكُمْ لَكُمْ مَوْلًى يُؤْيِيكُمْ وَلَهُ يُرْفَعُ السُّبْحُ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لَهُ بَدْعًا كَمَا دَعَوْا إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَعَا إِلَى بَيْتِهِ يَهْدِيهِ وَإِنَّ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَلْإِسْلَامِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لَهُ بَدْعًا كَمَا دَعَوْا إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَعَا إِلَى بَيْتِهِ يَهْدِيهِ وَإِنَّ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَلْإِسْلَامِ ﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة ، هن آيات علم الفرائض ، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك ، ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك ، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة ، والحجاج بين الأئمة ، فموضعه كتب الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك ، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ : آيَةٌ مُحْكَمَةٌ ، أَوْ شَيْءٌ قَائِمَةٌ ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ » ^(٣) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلَّمُوهُ النَّاسَ ؛ فَإِنَّهُ يَنْصِفُ الْعِلْمَ ، وَهُوَ يُنْسَى ، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي » ^(٤) . قال ابن عيينة : إنما سمي الفرائض نصف العلم ؛ لأنه يتلى به الناس كلهم ، وعن جابر بن عبد الله قال : عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش علي فأفقت فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ . فنزلت ﴿ يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ الْمُتَعَالَى الَّذِي وَلَدَّكُمْ لَكُمْ مَوْلًى يُؤْيِيكُمْ وَلَهُ يُرْفَعُ السُّبْحُ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لَهُ بَدْعًا كَمَا دَعَوْا إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَعَا إِلَى بَيْتِهِ يَهْدِيهِ وَإِنَّ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَلْإِسْلَامِ ﴾ ^(٥) .

وعن جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً ، وإن عثمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال ، قال : فقال : « يَقْضِي اللَّهُ فِي ذَلِكَ » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « أُعْطِيَ ابْنَتَيْ سَعْدِ الثَّلَثَيْنِ ، وَأُمُهُمَا الثَّمَنُ ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ » ^(٦) . والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ؛ فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وإنما كان يورث كلاله ، ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعاً للبخاري فإنه ذكره ههنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية ، والله أعلم .

ف قوله تعالى : ﴿ يُؤْيِيكُمُ اللَّهُ فِي بَيْتِهِ الْمُتَعَالَى الَّذِي وَلَدَّكُمْ لَكُمْ مَوْلًى يُؤْيِيكُمْ وَلَهُ يُرْفَعُ السُّبْحُ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ لَهُ بَدْعًا كَمَا دَعَوْا إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَعَا إِلَى بَيْتِهِ يَهْدِيهِ وَإِنَّ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَلْإِسْلَامِ ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٨٥) والبيهقي في السنن (٢٠٨/٦) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٢٢/٤) والبيهقي في السنن (٢٠٨/٦) والدارمي في السنن (٧٣/١) .

(٥) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٢/٦) .

(٦) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٩١) وأحمد في مسنده (٣٥٢/٣) والحاكم في المستدرک (٣٣٤/٤) .

الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى . وقد استنبط بعض الأذكىاء من قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي ذُلِّكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، كما جاء في الحديث - وقد رأى امرأة من السبي ، فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته - فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ » ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « فوالله لئن أُرْحِمَ عِبَادِي مِنْ هَذِهِ يَوْلِدَهَا » ^(١) . وعن ابن عباس : كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع . وعن ابن عباس : قوله : ﴿ يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ فِي ذُلِّكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ ﴾ وذلك أنه لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يجوز الغنيمة ؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينساه ، أو نقول له فيغير فقالوا : يا رسول الله تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم ؟ ويعطى الصبي الميراث وليس يغني شيئا ، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية ، لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ قال بعض الناس : قوله : ﴿ فَوْقَ ﴾ زائدة وتقديره : فإن كن نساء اثنتين كما في قوله : ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْتَاكِ ﴾ وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك . فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه ، وهذا ممنوع ، ثم قوله : ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ لو كان المراد ما قالوه ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك ، وإنما استفيد كون الثلثين للبتنتين من حكم الأخنتين في الآية الأخيرة ، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى . وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدل الكتاب والسنة على ذلك ، وأيضا فإنه قال : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ فلو كان للبتنتين النصف لنص عليه أيضا ، فلما حكم به للواحدة على انفرادها ، دل على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْتِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشَّدَشُ ﴾ إلى آخره ، الأبوان لهما في الإرث أحوال :

أحدها : أن يجتمعا مع الأولاد ، فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب ، فيجمع له - والحالة هذه - بين الفرض والتعصيب .

الحال الثاني : أن ينفرد الأبوان بالميراث ، فيفرض للأب - والحالة هذه - الثلث ، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعف ما حصل للأب وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) والطبراني في الصغير (٩٨/١) .

أخذ الزوج النصف والزوجة الربع ، ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين ؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما . وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب ، فتأخذ ثلث الباقي وتأخذ الأب الباقي - ثلثه - هذا قول عمر وعثمان ، وأصح الروايتين عن علي ، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء .

والثاني : أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا وهو قول ابن عباس ، وروي عن علي ومعاذ بن جبل نحوه ، وبه يقول شريح وداود الظاهري ، واختاره أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان البصري في كتابه الإيجاز في علم الفرائض ، وهذا فيه نظر ، بل هو ضعيف ؛ لأن ظاهر الآية إنما هو ما إذا استبدا بجميع التركة ، وأما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض ويبقى الباقي كأنه جميع التركة فتأخذ ثلثه .

والقول الثالث : أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة خاصة ؛ فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر ، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة ، فيبقى خمسة للأب . وأما في مسألة الزوج ، فتأخذ ثلث الباقي لثلاث تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال ، فتكون المسألة من ستة : للزوج النصف ثلاثة ، وللأم ثلث الباقي بعد ذلك وهو سهم ، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان . ويحكى هذا عن ابن سيرين ، وهو مركب من القولين الأولين ، وهو ضعيف أيضاً ، والصحيح الأول والله أعلم .

والحال الثالث من أحوال الأبوين : وهو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم : فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور . وعن ابن عباس أنه دخل على عثمان فقال : إن الأخوين لا يرثان الأم عن الثلث . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لِلْإِخْوَةِ مِنْكُمْ إِخْوَانٌ فَلِأُولَئِكَ ثُلُثُ الْمِيرَاثِ ﴾ . وقال عثمان : لا أستطيع تغيير ما كان قبلي ، ومضى في الأمصار ، وتوارث به الناس . وفي صحة هذا الأثر نظر ، فإن شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس ، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به ، والمنقول عنهم خلافة ، وعن خارجة بن زيد عن أبيه أنه قال : الإخوان تسمى إخوة ، وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَ لِلْإِخْوَةِ مِنْكُمْ إِخْوَانٌ فَلِأُولَئِكَ ثُلُثُ الْمِيرَاثِ ﴾ أضربوا بالأم ولا يرثون ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ، ويحجبها ما فوق ذلك ، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ، ونفقته عليهم دون أمهم ، وهذا كلام حسن . لكن روي عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبه عن أمهم يكون لهم ، وعن ابن عباس قال : السدس الذي حجبه الإخوة لأم لهم إنما حجبا أمهم عنه ليكون لهم دون أبيهم ، ثم قال ابن جرير : وهذا قول مخالف لجميع الأمة ^(١) . وعن ابن عباس أنه قال : الكلاله من لا ولد له ولا والد .

وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِ يَوْمَئِذٍ أَوْ دَيْنٍ ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين

مقدم على الوصية ، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة . وعن علي بن أبي طالب قال : إنكم تقرأون ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه . وقوله : ﴿ مَا بَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا ﴾ أي إنما فرضنا للأباء والأبناء وساويينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي ، أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ، ولذا قال : ﴿ مَا بَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا ﴾ أي أن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه ، والله عليم حكيم ، الذي يضع الأشياء في محالها ويعطي كلًا ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُشُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاعَافٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم ، إذا متن عن غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية ، وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال : ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ ﴾ إلى آخره وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً ﴾ الكلاله مشتقة من الإكليل وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه ، عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن الكلاله فقال : أقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله ، وإن يكن خطأ ، فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : الكلاله من لا ولد له ولا والد ، فلما ولي عمر قال : إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأيي رآه ^(١) . وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم ، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد ، وورد فيه حديث مرفوع ، وقد روي عن ابن عباس ما يخالف ذلك ، وهو أنه من لا ولد له ، والصحيح عنه الأول ، ولعل الراوي ما فهم عنه ما أراد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ ﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٧٦/١٤) .

وقاص ، وكذا فسرهما أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه ﴿ فَلِكُلِّ وَاجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه : أحدها : أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم .

والثاني : أن ذكورهم وإناتهم في الميراث سواء .

والثالث : لا يرثون إلا إن كان ميتهم يرث كلاله ، فلا يرثون مع أب ولا جد ، ولا ولد ولا ولد ابن .

والرابع : أنهم لا يزدادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناتهم .

وعن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثى . قال الزهري : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ ﴾ . واختلف العلماء في المسألة المشتركة ، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور : للزوج النصف ، وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم . وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر ؛ فأعطى الزوج النصف والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم ، فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حملاً ألسنا من أم واحدة ؟ فشرك بينهم ، وصح التشريك عن عثمان وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وهو مذهب مالك والشافعي . وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبية . وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري ، وهو المشهور عن ابن عباس ، وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والإمام أحمد وداود بن علي الظاهري .

وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ وَصِيَّيْهِ يُوْصِي بَآؤَ ذَيْنِ غَيْرِ مُضَاكَرٍ ﴾ أي لتكن وصيته على العدل ، لا على الإضرار والجور والخياف ، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه . عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « الإضرار في الوصية من الكبائر » ^(١) . ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث هل هو صحيح أم لا ؟ على قولين : أحدهما : لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ اللَّهُ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ لِّوَارِثٍ » ^(٢) . وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة ، والقول القديم للشافعي رحمهم الله ، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار . وهو مذهب طاووس وعطاء والحسن وعمر بن عبد العزيز ، وهو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه ، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها . قال : وقال بعض الناس : لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » ^(٣) وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

(١) أخرجه الدارقطني في السنن (١٥١/٤) ، والهندي في كنز العمال (٤٦٠٦٩) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٤٧/٦) وأبو داود في السنن (٢٨٧٠) والترمذي في السنن (٢١٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة (٢٨) والترمذي في السنن (١٩٨٨) .

يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَيْهَا ﴿١٢﴾ فَلَمْ يَخْصْ وَارِثًا وَلَا غَيْرَهُ . فَمَتَى كَانَ الْإِقْرَارُ صَحِيحًا مُطَابِقًا لِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ جَرَى فِيهِ هَذَا الْخِلَافُ ، وَمَتَى كَانَ حِيلَةٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى زِيَادَةِ بَعْضِ الْوَرِثَةِ ، وَنَقْصَانِ بَعْضِهِمْ فَهُوَ حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ ، وَبِنَصِّ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣ ﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ .

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها . ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ أي لكونه غير ما حكم الله به ، وضاد الله في حكمه . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الرَّجُلُ لَيَفْعَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أَوْصَى وَخَافَ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ النَّارَ ، وَإِنْ الرَّجُلُ لَيَفْعَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً فَيَعْدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْأَةَ مِنْ نِسَائِكَ فَأَنْتَسِبُوا عَلَيْهِنَّ ذَرْبًا مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنْصِبُوا فِي أَلْبُسُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ١٥ ﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِفُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ١٦ ﴾ .

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست في بيت فلا تتمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَجْأَةَ ﴾ يعني الزنى ﴿ مِنْ نِسَائِكَ فَأَنْتَسِبُوا عَلَيْهِنَّ ذَرْبًا مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنْصِبُوا فِي أَلْبُسُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . قال ابن عباس ؓ : كان الحكم كذلك ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم . وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه ، فأنزل الله ﷻ عليه ذات يوم فلما سري عنه قال : « خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ ، وَالبِكْرُ بِالبِكْرِ ، الثَّيْبُ جُلْدٌ مِائَةً وَرَجْمٌ بِالْحِجَازَةِ ، وَالبِكْرُ جُلْدٌ مِائَةً ثُمَّ نَفْيٌ سَنَةً » (٢) . وعن ابن عباس قال : لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ : « لَا حَبْسَ بَعْدَ سُورَةِ النِّسَاءِ » (٣) . وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٠٧) وابن ماجه في السنن (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢٧٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الحدود (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) وأحمد في مسنده (٣١٧/٥) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (١٦٢/٦) والدارقطني في السنن (٦٦/٤) .

الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرحم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدل على أن الجلد ليس يحتم ، بل هو منسوخ على قولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا ﴾ أي والذان يفعلان الفاحشة فاذوهما . أي بالشتم والتعير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك حتى نسخ الله بالجلد أو الرجم . وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا . وقال السدي : نزلت في الفتیان من قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكتفي - وكأنه يريد اللواط . وقد روي عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَفْعَلُ عَمَلًا قَوْمَ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ^(١) . وقوله ﴿ فَلَمَّا تَابَا وَاصْلَحَا ﴾ أي أقبلوا ونزعا عما كانا عليه واصلحت أعمالهما وحسنت ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك ؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ وقد ثبت في الصحيحين « إِذَا زَنَتْ أُمَّةٌ أَحَدُكُمُ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا » ^(٢) أي لا يعبرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت . ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » ^(٣) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ أَكُنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

يقول ^(٤) : إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ، ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة . قال مجاهد وغير واحد : كل من عصي الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وعن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فأروا أن كل شيء عصي الله به فهو جهالة ، عمداً كان أو غيره . وعن مجاهد قال : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها . وعن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت . وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب ، وقال قتادة والسدي : ما دام في صحته ، وهو مروي عن ابن عباس . وقال الحسن البصري : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ ما لم يغرغر . وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب . وعن ابن عمر عن النبي ﷺ ، قال : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ » ^(٥) .

وعن عبد الله بن عمر يقول : من تاب قبل موته بعام تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه ، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه . فقلت : إنما قال الله : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ فقال : إنما أحدثك ما سمعته من رسول الله ﷺ ^(٦) .

وعن عبد الرحمن بن السلماني قال : اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٥٥/٤) والزيلعي في نصب الرأية (٣٤٠/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٤٠) والدارقطني في السنن (١٦٠/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢/٢) والترمذي في السنن (٣٥٣٧) والحاكم في المستدرک (٢٥٧/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٦/٢) .

اللَّهُ ﷻ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَوْمَ » فقال الآخر : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷻ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷻ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَنْصُفِ يَوْمَ » فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷻ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷻ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِضُخْوَةٍ » قال الرابع : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷻ ؟ قال : نعم ، قال : وأنا سمعت رسول الله ﷻ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْزِرْ بِنَفْسِهِ » (١) .

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « قَالَ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا أَزَالُ أَغْوِيهِمْ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » (٢) فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله ﷻ ، وهو يرجو الحياة فإنه توبته مقبولة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ، وأما متى وقع الإياس من الحياة ، وعاین الملك ، وخرجت الروح في الحلق ، وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم ، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم ، فلا توبة مقبولة حينئذ ، ولات حين مناص ، ولهذا قال : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَمَسُكُونَ السِّنَابَاتَ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْفَ ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ ﴾ الآيتين ، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَكُتَبُ لَكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا لَهَا لَئِنَّهَا لَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ، ولو بملء الأرض . قال ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس : نزلت في أهل الشرك . وعن أبي ذر أن رسول الله ﷻ قال : « إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ - أو يغفر لعبده - مَا لَمْ يَقَعْ الْحِجَابُ » قيل : وما وقوع الحجاب ؟ قال : « تَخْرُجُ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةً » (٣) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي موجعا شديدا مقيما . ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَمًا وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا سِتْنًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبْرًا كَثِيرًا ۝ وَلَنْ أَرْدَقُمْ أَسْتِنْدَالَ رَوْحَ مَكَاتٍ رَوْحٌ وَءَاتَيْتَهُنَّ إِحْدَثَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْبَتِنَا وَإِنَّمَا تُمْسِكُنَّ ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ » .

عن ابن عباس : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَمًا ﴾ قال : كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَمًا ﴾ وعن عكرمة عن ابن عباس قال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَمًا وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٥/٣) .

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤٦٧/٢) وذكره ابن حجر فتح الباري (٩٩/١١) والسيوطي في الدر المنثور (٧٧/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٤/٥) .

أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله تعالى عن ذلك ، أي نهى عن ذلك ^(١) . وعنه قال : كان الرجل إذا مات وترك جارية ، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرتها . وقال زيد بن أسلم في الآية : كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله ، وكان يعضلها حتى يرثها ، أو يزوجه من أراد ، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها ، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفقدي منه يعرض ما أعطاها ، فهى الله المؤمنين عن ذلك . وقال مجاهد : كان الرجل إذا توفي كان ابنه أحق بامرأته ينكحها إن شاء إذا لم يكن ابنها ، أو ينكحها من شاء ، أخاه أو ابن أخيه . وقال عكرمة : نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ؟ فأنزل الله هذه الآية ^(٢) .

قلت : فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية ، وما ذكره مجاهد ومن وافقه ، وكل ما كان فيه نوع من ذلك ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْضُوا زَيْنًا مِنْهُمَا شَيْءًا ﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقته أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك ، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والإضرار . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَقْضُوا زَيْنًا مِنْهُمَا شَيْءًا ﴾ يقول : ولا تقهروهن ﴿ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبته ، ولها عليه مهر ، فيضرها لتفتدي به . وعن ابن السلمي قال : نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية ، والأخرى في أمر الإسلام ، قال عبد الله بن المبارك : يعني قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ﴾ في الجاهلية ﴿ وَلَا تَقْضُوا زَيْنًا مِنْهُمَا شَيْءًا ﴾ في الإسلام . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَنَاحَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾ قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبي ، والحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة : يعني بذلك الزنى . يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها . وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الفاحشة المبينة : النشوز والعصيان . واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنى والعصيان والنشوز وبذاء اللسان ، وغير ذلك . يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها ، أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم ^(٣) . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ﴾ وَلَا تَقْضُوا زَيْنًا مِنْهُمَا شَيْءًا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَنَاحَةٍ مُبَيَّنَةٍ قال : وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فأحكم الله عن ذلك ، أي نهى عن ذلك .

قال عكرمة والحسن البصري : وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية ، ولكن نهى المسلمون عن فعله في الإسلام . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان العضل في قريش بمكة ، ينكح الرجل المرأة الشريفة فلعلها لا توافق فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه ، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد ، فإذا

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٤٠٥/١٤ ، ٤٠٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٧٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٩٠) .

جاء الخطاب ، فإن أعطته وأرضته أذن لها ، وألا عضلها . قال : فهذا قوله : ﴿ وَلَا تَقْضُوا دِيْنَكُمْ حَتَّىٰ تَبْذُرُوا مَتْرُوكَكُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَكَاتِبُكُمْ بِأَمْرٍ ﴾ أي طَبِيعُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُمْ ، وَحَسِّنُوا أَعْمَالَكُمْ وَهَيِّئْكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ كَمَا تَحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » ^(١) . وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويصالحك نساءه ، حتى أنه يسابق عائشة أم المؤمنين ﷺ يتودد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله ﷺ ، فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني ، فقال : « هَذِهِ يَتْلُكَ » ^(٢) . ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهم العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ^(٣) . وكان ينام مع المرأة من نساؤه في شعار واحد ، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار ^(٤) ، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك ﷺ . وقد قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُتُوهُ حَسَنَةٌ ﴾ وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام والله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا ﴾ أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكنهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة . كما قال ابن عباس في هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولذا ويكون في ذلك الولد خير كثير . وفي الحديث الصحيح : « لَا يَفْرُكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خَلْقًا ، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ » ^(٥)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا دِيْنََكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَدْ كَرِهْتُمُوهُنَّ وَتَوَسَّلُوا إِلَيْنَّ فَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها ، فلا يأخذ ما كان أصدق الأولى شيئا ولو كان قطارا من المال . وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل ، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك ، وكان يقول : ألا لا تغالوا في صداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نساؤه ، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية ، وإن كان الرجل ليتلى بصدقة امرأته ، حتى يكون لها عداوة في نفسه ، وحتى يقول : كلفت إليك علق القربة ^(٦) . وعن مسروق قال : ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال : أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء ، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك ؟ ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو إكرامة لم تسبقوهم إليها ، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم ، قال : ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم ؟ قال : نعم ، فقالت : أما سمعت ما

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٩٥) وابن ماجه في السنن (١٩٧٧) والدارمي في السنن (١٥٩/٢) والألباني في الصحيحة (٤٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/٦) وأبو داود في السنن (٢٥٨٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/٦) . (٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٢/٦) .

(٥) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١) وأحمد في مسنده (٣٢٩/٢) والبيهقي في السنن (٢٩٥/٧) .

(٦) أخرجه النسائي في السنن (١١٧/٦) .

زوجها قبله ، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة ؛ لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب ، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي يمقت الله عليه ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبس طريقًا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ويصير ماله فيقاً لبيت المال . كما روي عن البراء بن عازب قال : مرّ بي عمي الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له : أي عم أين بعثك النبي ؟ قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه ^(١) .

مسألة : وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو ملك أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية . فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضًا بذلك .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأَهْلُكُمْ أَلَيْسَ الْأَرْضُ لِلرِّضْعَةِ وَأُمُّهُنَّ نِسَابُكُمْ ذَرِّيَّتُكُمْ أَلَيْسَ فِي جُحُورِكُمْ مِّنْ نِّسَابِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ﴿ وَالنِّسَاءُ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِلَّكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَقْتُهُنَّ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر . فعن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبع نسبا وسبع صهرا ، وقرأ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ الآية . وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل ، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها ؛ لأنها ليست بنتا شرعية ، فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ فِي بَيْنِ أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرَّمْتُمْ حَظَّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع ، فكذلك لا تدخل في هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَأَهْلُكُمْ أَلَيْسَ الْأَرْضُ لِلرِّضْعَةِ وَأُمُّهُنَّ ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك . وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الرِّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلَادَةُ » ^(٢) وقال بعض الفقهاء : كل ما يحرم من النسب يحرم من الرضاة إلا أربع صور ، وقال بعضهم : ست صور هي مذكورة في كتب الفروع ، والتحقيق أنه لا يستثنى شيء من ذلك ؛ لأنه يوجد مثل بعضها في النسب ، وبعضها إنما يحرم من جهة الصهر ، فلا يرد على الحديث شيء أصلاً البتة ، ولله الحمد وبه الثقة .

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع ، لعموم هذه الآية . وهذا قول مالك ، ويروى عن ابن عمر ، وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات ؛ لما ثبت عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَلَا الْمَصَّتَانِ » ^(٣) . وفي لفظ آخر : « لَا

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٤٥٧) وأحمد في مسنده (٢٩٢/٤) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٠٣/٦) وأحمد في مسنده (١٧٨/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (١٧) وأبو داود في السنة (٢٠٦٣) والترمذي في السنن (١١٥٠) .

تُحْرَمُ الْإِمْلَاجَةُ وَلَا الْإِمْلَاجَتَانِ» ^(١) ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد وأبو ثور ، وهو مروي عن علي وعائشة وأم الفضل وابن الزبير . وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن « عَشْرَ رَضَعَاتٍ مُتَعَلِّمَاتٍ يُحْرَمْنَ » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى النبي ﷺ وهنَّ فيما يقرأ من القرآن ^(٢) . وفي حديث سهلة ابنة سهيل أن رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات ^(٣) . وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات ، وبهذا قال الشافعي وأصحابه . ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ وَلَدَهُنَّ حَوْلَيْ كَأَمَلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْصَبَ الرِّضَاعُ ﴾ . ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم ، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين ، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبيرة .

وقوله : ﴿ وَأَمْتُهُنَّ بِسَائِبِكُمْ ﴾ وَرَبِّبِكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ . أما أم المرأة ، فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها ، سواء دخل بها أو لم يدخل بها . وأما الربية وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمرها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال : ﴿ وَرَبِّبِكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ في تزويجهن ، فهذا خاص بالربائب وحدهن ، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ وعن علي رضي الله عنه في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أتزوج بأمرها ؟ قال : هي بمنزلة الربية ^(٤) . وعن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها ، فلا بأس أن يتزوج أمرها . وعن بكر بن كنانة أن أباه أنكحه امرأة بالطائف قال : فلم أجامعها حتى توفي عمي عن أمها ، وأمها ذات مال كثير ، فقال أبي : هل لك في أمها ؟ قال : فسألت ابن عباس وأخبرته ؟ فقال : انكح أمها ، وسألت ابن عمر فقال : لا تنكحها . فأخبرت أبي بما قال ، فكتب إلى معاوية فأخبره بما قال ، فكتب معاوية ، إني لا أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله ، وأنت وذاك ، والنساء سواها كثير . فلم يمه ولم يأذن لي ، فانصرف أبي عن أمها فلم ينكحها . وعن مجاهد قال : ﴿ وَأَمْتُهُنَّ بِسَائِبِكُمْ ﴾ وَرَبِّبِكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ . أراد بهما الدخول جميعاً . فهذا القول مروي عن علي وزيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ومجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس ، وقد توقف فيه معاوية . وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن الصابوني فيما نقله الرافعي عن العبادي . وعن ابن مسعود : أن رجلاً من بني كعخ من فزارة تزوج أمها فتزوجها وولدت له أولاداً ، ثم أتى ابن مسعود المدينة ، فسئل عن ذلك فأخبر أنها لا تحل له ، فلما رجع إلى الكوفة قال للرجل : إنها عليك حرام ففارقها . وجمهور العلماء على أن الربية لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم ، فإنها تحرم بمجرد العقد . وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها .

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (١٨) والنسائي في السنن (١٠٠/٦) والدارمي في السنن (١٥٧/٢) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٠٠/٦) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/٦) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره (٤٢٥/٤) .

وروي أنه قال : إنها مبهمة فكرها . وروي عن ابن مسعود وعمران بن حصين ومسروق وطاوس وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وابن سيرين وقتادة والزهري نحو ذلك . وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة ، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً ، قال ابن جريج : والصواب قول من قال : الأم من المبهمات ؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الرثائب . مع أن ذلك أيضاً إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه .

وأما قوله تعالى : ﴿ رَبِّيبُكُمْ أَلَيْكَ فِي مَجُورِكُمْ ﴾ فالجمهور على أن الريبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره . قالوا : وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له . عن أم حبيبة قالت : يا رسول الله ، انكح أختي بنت أبي سفيان ، قال : « أَوْ تَحْبِئُ ذَلِكَ ؟ » قالت : نعم لست بك بمخلية ، وأحب من شاركني في خير أختي . قال : « فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَجِلُّ لِي » قالت : فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال : « بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ ؟ » قالت : نعم . قال : « إِنَّهَا لَوْ لَمْ تُكُنْ رَبِيبِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي ، إِنَّهَا لِبَنْتُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ ، أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثَوْبِيَّةٌ ، فَلَا تَغْرِضُنِي عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ » ^(١) . فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة ، وحكم بالتحريم بذلك ، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف . وقد قيل بأنه لا تحرم الريبة إلا إذا كانت في حجر الرجل ، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم . وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال : كانت عندي امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لي فوجدت عليها ، فلقيني علي بن أبي طالب فقال : مالك ؟ قلت : توفيت المرأة ، فقال علي : لها ابنة ؟ قلت : نعم وهي بالطائف ، قال : كانت في حجرك ؟ قلت : لا هي بالطائف ، قال : فانكحها ، قلت : فأين قول الله : ﴿ رَبِّيبُكُمْ أَلَيْكَ فِي مَجُورِكُمْ ﴾ ؟ قال : إنها لم تكن في حجرك ، إنما ذلك إذا كانت في حجرك . وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه . وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك رحمته . واختاره ابن حزم وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين بن تيمية رحمته ، فاستشكله وتوقف في ذلك . وعن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توطأ إحداهما بعد الأخرى فقال عمر : ما أحب أن أجزهما جميعاً - يريد أن أطأهما جميعاً - بملك يميني ، وهذا منقطع . وعن قيس قال : قلت لابن عباس : أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له ؟ فقال : أحلتها آية وحرمتها آية ، ولم أكن لأفعله . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمته : لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبنتها من ملك اليمين ؛ لأن الله حرم ذلك في النكاح قال : ﴿ وَأَمْتُهُنَّ يَسَابِكُكُمْ رَبِّيبُكُمْ أَلَيْكَ فِي مَجُورِكُمْ يَنْ يَسَابِكُكُمْ ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح . إلا ما روي عن عمر وابن عباس ، وليس علي ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم . وروي عن قتادة : بنت الريبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل يبطون كثيرة ، ومعنى قوله : ﴿ أَلَيْكَ دَخَلْتُ بِهِنَّ ﴾ أي نكحتموهن . وقال عطاء : هو أن تهدي إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها . قلت : رأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها ؟ قال : هو سواء ، وحسبه قد حرم ذلك عليه ابنتها . وقال ابن جرير : وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ، بما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع .

وقوله تعالى : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات آبائكم الذين

ولدتهم من أصلابكم ، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية . وعن عطاء قال : كنا نحدث ، والله أعلم ، أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَحَلَائِلَ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ ونزلت : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ونزلت ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ وقال الحسن بن محمد : أن هؤلاء الآيات مبهمات ﴿ وَحَلَائِلَ أَبْنَائِكُمُ ﴾ ﴿ وَأَمْهَنَتْ نِسَابَكُمْ ﴾ ثم قال : وروي عن طاووس وإبراهيم والزهري ومكحول نحو ذلك . قلت : معنى مبهمات ؛ أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه ، فإن قيل : فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة ، كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعاً ، وليس من صلبه ؟ فالجواب من قوله ﷺ : « يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الآية . أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج ، وكذا في ملك اليمين ، إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لا مثنية فيما يستقبل ؛ لأنه استثنى مما سلف كما قال : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً . وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح ، ومن أسلم وتحت أختان خير ، فيمسك إحدهما ويطلق الأخرى لا محالة . وعن أبي خراش الرعيني قال : قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال : « إِذَا رَجَعْتَ فَطَلِّقِي إِحْدَاهُمَا » ^(٢) .

وعن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه ، فقال له ، يعني السائل : يقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ فقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : وبغيرك مما ملكت يمينك . وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة وغيرهم ، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك . ويروي أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما ؟ فقال عثمان : أحلتها آية وحرمتها آية ، وما كنت لأمنع ذلك ، فخرج من عنده فلقى رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله ذلك فقال : لو كان لي من الأمر شيء ، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجلعته نكالاً . وعن إياس بن عامر قال : سألت علي بن أبي طالب فقلت : لي أختين مما ملكت يميني واتخذت إحدهما سرية فولدت لي أولاداً ، ثم رغبت في الأخرى فما أصنع ؟ فقال علي ﷺ : تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى ، قلت : فإن ناساً يقولون : بل تزوجها ثم تطأ الأخرى ، فقال علي : أرأيت إن طلقها زوجها أو مات عنها أليس ترجع إليك ؟ لأن تعتقها أسلم لك ، ثم أخذ علي يدي فقال لي : إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله ﷻ من الحرائر إلا العدد . أو قال : إلا الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب . قلت : وقد روي عن علي عن عثمان . وعن ابن عباس قال : قال لي علي بن أبي طالب : حرمتها آية وأحلتها آية - يعني الأختين - قال ابن عباس : يحرم علي قرابتي منهن ، ولا يحرم قرابة بعضهن من بعض - يعني الإمام - وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين ، فلما جاء الإسلام أنزل الله ﷻ ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٩/١) والبيهقي في السنن (٤٥٢/٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٥٠) .

قَدْ سَلَفَ ﴿۝٢٣﴾ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴿۝٢٤﴾ يعني في النكاح . وعن ابن مسعود قال : يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد ، وقال أبو عمر : وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ، ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار والحجاز ولا العراق ولا ما وراءهما من المشرق ولا بالشام والمغرب . إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر ونفي القياس ، وقد ترك من يعمل ذلك ظاهراً ما اجتمعنا عليه ، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء ، كما لا يحل ذلك في النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء ، وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب ، وكذلك هو عند جمهورهم ، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي وحرمة عليكم من الأجنبية المحصنات وهن الزوجات ، إلا ما ملكت أيمانكم يعني إلا ما ملكتموهن بالسيبي فإنه يحل لكم وطؤهن ، إذا استبرأتموهن ، فإن الآية نزلت في ذلك .

عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبياً يوم أوطاس لهن أزواج من أهل الشرك ، فكان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا وتأنموا من غشيانهن قال : فنزلت هذه الآية في ذلك ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (١) .

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية . وعن إبراهيم أنه سئل عن الأمة تباع ولها زوج ؟ قال : كان عبد الله يقول : يبيعها طلاقها ويتلو هذه الآية ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ عن ابن عباس قال : طلاق الأمة ست : يبيعها طلاقها ، وعقها طلاقها ، وهبتها طلاقها ، وبرأتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها . وعن ابن المسيب قوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ قال : هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك ، فبيعها طلاقها . فهذا قول هؤلاء من السلف ، وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً ، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها ؛ لأن المشتري نائب عن البائع ، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذا المنفعة ، وباعها مسلوبة عنها ، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما ، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيب ، بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ (٢) ، وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ، ما خيرها النبي ﷺ ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح ، وأن المراد من الآية الميسيات فقط ، والله أعلم . وقد قيل : المراد بقوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ يعني العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهم بنكاح وشهود ومهور وولي ، واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً . وقال عمر وعبيدة : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ : ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت إيمانكم .

وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي هذا التحريم كتاب الله عليكم ، يعني الأربع فالزمو كتابه ، ولا

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠١٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٥٨) والنسائي في السنن (١٦٣/٦) .

تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . وقوله تعالى : ﴿ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أي : ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال . قاله عطاء . وقال عبيدة والسدي : ﴿ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ : ما دون الأربع ، وهذا بعيد والصحيح قول عطاء كما تقدم . وقال قتادة : ﴿ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ : يعني ما ملكت أيمانكم ، وهذه الآية التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين ، وقول من قال : أحلتها آية وحرمتها آية . وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَتَّخِذُوا بِأَمْوَالِكُمْ حُثُوعَيْنَ غَيْرَ مُسْتَفِيدِينَ ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي . ولهذا قال : ﴿ حُثُوعَيْنَ غَيْرَ مُسْتَفِيدِينَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي كما تستمعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك ، وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع ثم نسخ ، ثم أبيع ثم نسخ مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك . وقال آخرون : إنما أبيع مرة ثم نسخ ولم يبيع بعد ذلك . وقد روي عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، وكان ابن عباس وأبي بن كعب وسعيد بن جبير والسدي يقرأون (فما استمتعتم به منهن - إلى أجل مسمى - فآتوهن أجورهن فريضة) وقال مجاهد : نزلت في نكاح المتعة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك . والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ^(١) . ولهذا الحديث ألفاظ مقررة هي من كتاب الأحكام ، فمن سيرة بن معبد الجهني أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَذُنْتُ لَكُمْ فِي الْاِسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُحْلِلْ سَبِيلَهُ ، وَلَا تَأْخُذُوا بِمَا اتَّخُمُوهُنَّ شَيْئاً » ^(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَضْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى قال : لا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به وزيادة للجعل . قال السدي : إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى ، يعني الأجر الذي أعطها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما ، فقال : أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا ، فإن زاد قبل أن تستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَضْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ قال السدي : إذا انقضت المدة ، فليس له عليها سبيل ، وهي منة بريئة ، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها ، وليس بينهما ميراث ، فلا يرث واحد منهما صاحبه . ومن قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِنَ نَحْلَةً ﴾ الآية ، أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك . وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم الحضرمي أن رجلاً كانوا يفرضون المهر ، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال : ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ، يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ . وعن ابن عباس : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا رَزَضْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ والراضي أن يوفيه صداقها ثم يخيرها ، يعني في المقام أو الفراق . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٥/٣) والنسائي في السنن (٢٠٢/٧) والبيهقي في السنن (٢٠٤/٧) .

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (١٤٠/٢) والبيهقي في السنن (٢٠٣/٧) والألباني في الصحيحة (٣٨١) .

مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَنْتَ بِنَفْسِهِ قَلْبَتَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَدَايِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ اللَّهَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيروُا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَحِيمٌ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ أي سعة وقدرة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر العفاف المؤمنات . وعن ربيعة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قال : الطول الهوى ، يعني ينكح الأمة إذا كان هواه فيها . ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي فتروجا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون ، ولهذا قال : ﴿وَمِنْ فَتْيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ قال ابن عباس وغيره : فلينكح من إماء المؤمنين ، ثم اعترض بقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها ، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور . ثم قال : ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته ، لا تزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، ليس له أن يتزوج بغير إذنه . كما جاء في الحديث : « أَيْقَمَا عَبْدٌ تَزْوِجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ فَهُوَ غَايِرٌ »^(١) أي زان . فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها ، لما جاء في الحديث : « لَا تَزْوِجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ ، وَلَا الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزْوِجُ نَفْسَهَا »^(٢) وقوله تعالى : ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وادفعوا مهرهن بالمعروف ، أي عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئا استهانة بهن ، لكونهن إماء مملوكات . وقوله تعالى : ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أي عفاف عن الزني لا يتعاطينه ، ولهذا قال : ﴿غَيْرَ مُسَفِّحَتٍ﴾ وهن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة . وقوله تعالى : ﴿وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ قال ابن عباس : المسافحات هن الزواني المعلنات ، يعني : الزواني اللاتي لا يمنعن أحدا أرادهن بالفاحشة . وقال الحسن البصري : يعني الصديق . وقال الضحاك : ذات الخليل الواحد المقررة به ، نهى الله عن ذلك ، يعني تزويجها ما دامت كذلك .

وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَنْتَ بِنَفْسِهِ قَلْبَتَيْنِ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَدَايِ﴾ اختلف القراء في ﴿أُحْصِنَ﴾ فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله . وقرأ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم^(٣) . ثم قيل : معنى القراءتين واحد ، واختلفوا على قولين : أحدهما : أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام . وروي ذلك عن عبد الله بن مسعود وابن عمر وأنس وسعيد بن جبيرة وعطاء ، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع قال : وإنما قلنا ذلك استبدالا بالسنة وإجماع أكثر أهل العلم .

الثاني : وقيل : المراد به ههنا التزويج ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهم . ونقله أبو علي الطبري في كتابه الإيضاح عن الشافعي فيما رواه أبو الحكم بن عبد الحكم عنه . وقد روي عن مجاهد

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٧٨) . وأحمد في مسنده (٣٨٢/٣) . والدارمي في السنن (١٥٢/٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٨٢) . والدارقطني في السنن (٢٢٧/٣) .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ﴿أُحْصِنَ﴾ بفتح الهمزة والصاد ، والباقون ﴿أُحْصِنَ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد . (انظر :

تقريب النشر ص : ١٠٥) .

أنه قال : إحصان الأمة أن ينكحها الحر ، وإحصان العبد أن ينكح الحرة . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ ﴿ أَحْصَيْنَ ﴾ بضم الهمزة فمراده التزويج ، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسلام . اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره وقوّره ونصره . والأظهر والله أعلم أن المراد بالإحصان ههنا التزويج ؛ لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول ﷺ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَحْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ . والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله : ﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ ﴾ أي تزوجن كما فسرّه ابن عباس وغيره .

وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور ، وذلك أنهم يقولون : إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة ، سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكرًا ، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء . وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك :

الجواب الأول : فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم ، وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء ، فقدمنها على مفهوم الآية . فمن ذلك عن علي عليه السلام أنه خطب فقال : يا أيها الناس أقيموا الحد على إماءكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدّها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس ، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أَحْسَنْتَ ، اتْرُكْهَا حَتَّى تَتَمَآثَلَ » (١) .

الجواب الثاني : جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، فلا حد عليها ، وإنما تضرب تأديبًا . وهو المحكي عن ابن عباس عليه السلام ، وإليه ذهب طاووس وسعيد بن جبيرة وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي الظاهري في رواية عنه . وعمدتهم مفهوم الآية ، وهو من مفاهيم الشرط ، وهو حجة عند أكثرهم ، فقدم على العموم عندهم . وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، قال : « إِنْ زَنْتَ فَحُدِّيْهَا . ثُمَّ إِنْ زَنْتَ فَاجْلِدِيْهَا . ثُمَّ يَبْعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » (٢) قال ابن شهاب : لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة . قالوا : فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة ، وكما وقت في القرآن بنصف ما على المحصنات ، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك . وحديث أبي هريرة عنه أجوبة : أحدها : أن ذلك محمول على الأمة المزوجة جمعًا بينه وبين هذا الحديث .

الثاني : أن لفظة الحد في قوله : « فَلْيَقِمَنَّ عَلَيْهَا الْحَدُّ » مقحمة من بعض الرواة بدليل الجواب الثالث ، وهو أن هذا من حديث صحابين وذلك من رواية أبي هريرة فقط ، وما كان عن اثنين فهو أولى بالتقديم من رواية واحد . وأيضًا فقد رواه عباد بن تميم عن عمه ، وكان قد شهد بدرًا ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا زَنْتِ الْأُمَّةُ فَاجْلِدِيْهَا ، ثُمَّ إِذَا زَنْتِ فَاجْلِدِيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنْتِ فَاجْلِدِيْهَا ، ثُمَّ إِنْ زَنْتِ فَيَبْعُوهَا وَلَوْ بِضَفِيرٍ » (٣) .

الثالث : أنه لا يبعد أن بعض الرواة أطلق لفظ الحد في الحديث على الجلد ؛ لأنه لما كان الجلد اعتقد أنه حد ، أو أنه أطلق لفظة الحد على التأديب . كما أطلق الحد على ضرب من زنى من المرضى بعشكال نخل

(١) ذكره البغوي في شرح السنة (٣٠٤/١٠) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٤٧٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٤٠) والدارقطني في السنن (١٦٠/٣) .

فيه مائة شمراخ . وعلى جلد من زنى بأمة امرأته إذا أذنت له فيها مائة ، وإنما ذلك تعزير وتأديب عند من يراه كأحمد وغيره من السلف ، وإنما الحد الحقيقي هو جلد البكر مائة . ورجم الثيب أو اللائط والله أعلم . وعن سعيد بن جبير قال : لا تضرب الأمة إذا زنت ما لم تتزوج . وهذا إسناد صحيح عنه ، ومذهب غريب إن أراد أنها لا تضرب الأمة أصلاً لا حدًا ، وكأنه أخذ بمفهوم الآية ولم يبلغه الحديث ، وإن أراد أنها لا تضرب حدًا ، ولا ينفي ضربها تأديبًا ، فهو كقول ابن عباس رضي الله عنه ومن تبعه في ذلك ، والله أعلم .

والجواب الثالث : أن الآية دلت على أن الأمة المحصنة تحد نصف حد الحرة ، فأما قبل الإحصان فعمومات الكتاب والسنة شاملة لها في جلدتها مائة كقوله تعالى : ﴿ أَلْزَيْنَهُ وَالزَّانِيَ فَلْيُجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ وكحديث عبادة بن الصامت : « خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الْبَكْرُ بِالْبَكْرِ جُلْدٌ مِائَةٌ وَتَغْرِيبٌ عَامٌ ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جُلْدٌ مِائَةٌ وَرَجْمُهُمَا بِالْحِجَارَةِ » ^(١) ، وغير ذلك من الأحاديث وهذا القول هو المشهور عن داود بن علي الظاهري وهو في غاية الضعف ؛ لأن الله تعالى إذا كان أمر بجلد المحصنة من الإماء بنصف ما على الحرة من العذاب ، وهو خمسون جلدة ، فكيف يكون حكمها قبل الإحصان أشد منه بعد الإحصان ؟ وقاعدة الشريعة في ذلك عكس ما قال ، وهذا الشارع عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ، فقال : اجلدوها ولم يقل مائة ، فلو كان حكمها كما زعم داود لوجب بيان ذلك لهم ؛ لأنهم إنما سألوا عن ذلك لعدم بيان حكم جلد المائة بعد الإحصان في الإماء ، ولأما الفائدة في قولهم ولم تحصن لعدم الفرق بينهما لو لم تكن الآية نزلت ، لكن لما علموا أحد الحكمين سألوا عن الآخر فيئنه لهم .

الجواب الرابع : عن مفهوم الآية جواب أبي ثور ، وهو أغرب من قول داود من وجوه ، وذلك أنه يقول : فإذا أحصن فإن عليهن نصف ما على المحصنات الزوجات الرجم وهو لا ينصف ، فيجب أن ترجم الأمة المحصنة إذا زنت ، وأما قبل الإحصان فيجب جلدتها خمسين فأخطأ في فهم الآية وخالف الجمهور في الحكم ، بل قد قال أبو عبد الله الشافعي رحمته الله : ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنى ؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، والألف واللام في المحصنات للعهد ، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرة ، وقوله : ﴿ يَنْصَفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تبغيضه ، وهو الجلد لا الرجم والله أعلم . وقد روي أن صفية كانت قد زنت برجل من المحسن فولدت غلامًا فادعاه الزاني ، فاخصما إلى عثمان ، فرفعهما إلى علي بن أبي طالب ، فقال علي : أقضي فيهما بقضاء رسول الله ﷺ : الولد للفراس ، وللعاهر الحجر ، وجلدهما خمسين خمسين ^(٢) . وقيل : بل المراد من المفهوم التنبيه بالأعلى على الأدنى ، أي أن الإماء على النصف من الحرائر في الحد ، وإن كن محصنات ، وليس عليهن رجم أصلاً ، لا قبل النكاح ولا بعده ، وإنما عليهن الجلد في الحالين بالسنة . وذكر هذا عن الشافعي ، وقد ذكر البيهقي في كتاب السنن والآثار عنه

(١) أخرجه مسلم في الحدود (١٢) وأبو داود في السنن (٤٤١٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦/٤ ، ١٨٧) .

وهو بعيد من لفظ الآية لأننا إنما استفدنا تنصيف الحد من الآية ؛ لا من سواها ، فكيف يفهم منها التنصيف فيما عداها ؟ وقال : بل أريد بأنها في حال الإحصان لا يقيم الحد عليها إلا الإمام ، ولا يجوز لسيدها إقامة الحد عليها والحالة هذه ، وهو قول في مذهب أحمد رحمته الله ، فأما قبل الإحصان فله ذلك ، والحد في كلا الموضعين نصف حد الحرة ، وهذا أيضًا بعيد لأنه ليس في الآية ما يدل عليه ، ولولا هذه ، لم ندر ما حكم الإمام في التنصيف ، ولوجب دخولهن في عموم الآية في تكميل الحد مائة ، أو رجمهن كما ثبت في الدليل عليه ، وقد تقدم عن علي أنه قال : أيها الناس أقيموا الحد على أرقائكم من أحصن منهم ومن لم يحصن ، وعموم الأحاديث المتقدمة ليس فيها تفصيل بين الزوجة وغيرها لحديث أبي هريرة الذي احتج به الجمهور « إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدِكُمْ فَتَبَيَّنْ زَنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يَتْرَبْ عَلَيْهَا » . ملخص الآية أنها إذا زنت أقوال :

أحدها : تجلد خمسين قبل الإحصان وبعده ، وهل تنفى فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تنفى عنه ، والثاني : لا تنفى عنه مطلقًا ، والثالث : أنها تنفى نصف سنة وهو نصف نفى الحرة ، وهذا الخلاف في مذهب الشافعي . وأما أبو حنيفة فعنده أن النفي تعزير ليس من تمام الحد ، وإنما هو رأي الإمام إن شاء فعله وإن شاء تركه في حق الرجال والنساء . وعند مالك أن النفي إنما هو على الرجال وأما النساء فلا ؛ لأن ذلك مضاد لصيانتهم ، وما ورد شيء من النفي في الرجال ولا النساء . نعم حديث عبادة وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفي عام وإقامة الحد عليه ، وذلك مخصوص بالمعنى ، وهو أن المقصود من النفي الصون ، وذلك مفقود في نفى النساء ، والله أعلم . والثاني : أن الأمة إذا زنت تجلد خمسين بعد الإحصان ، وتضرب تأديتًا غير محدود بعدد محصور ، وقد تقدم ما رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها لا تضرب قبل الإحصان ، وإن أراد نفية فيكون مذهبًا بالتأويل وإلا فهو كالقول الثاني .

القول الآخر : أنها تجلد قبل الإحصان مائة ، وبعده خمسين كما هو المشهور عن داود ، وهو أضعف الأقوال . أنها تجلد قبل الإحصان خمسين وترجم بعده ، وهو قول أبي ثور ، وهو ضعيف أيضًا . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ حَاشَى أَلَمَتْ مِنْكُمْ ﴾ أي إنما يباح نكاح الإمام بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كله ، فله حيث يشاء أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنى ، فهو خير له ؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ، إلا أن يكون الزوج غريبًا فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي ، ولهذا قال : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء في جواز النكاح الإمام ، على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ، ومن خوف العنت ، لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد ، ولما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن . وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين فقالوا : متى لم يكن الرجل مزوجًا بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتيبة أيضًا ، سواء كان واجدًا لطول حرة أم لا ، وسواء خاف العنت أم لا ، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي العفائف

وهو يعلم الحرائر والإماء ، وهذه الآية عامة ، وهذه أيضًا ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِّيبَكُمْ سُنَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٣١ ﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ٣٢ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ٣٣ .

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم ، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ﴿ وَيُذْهِبُ عَنْكُمُ رِّيبَكُمْ سُنَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ، واتباع شرائعها التي يحبها ويرضاها ﴿ وَيَتُوبُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي من الإثم والمحارم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله . وقوله : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلًا عظيمًا ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه ، وما يقدره لكم ، ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، وضعف عزمه وهيمته . ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ أي في أمر النساء . قال موسى الكليم عليه السلام لنبيينا محمد عليه السلام ليلة الإسراء حين مرَّ عليه راجعًا من عند سدة المنتهى فقال له : ماذا فرض عليكم ؟ فقال : « أَمَرَنِي بِخَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ » فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك ففجزوا ، وإن أمتك أضعف أسماعًا وأبصارًا وقلوبًا ، فرجع فوضع عشرًا ، ثم رجع إلى موسى ، فلم يزل كذلك حتى بقيت خمسًا ^(١) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْعَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٣٤ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٥ إِنْ تَجَدَّبْتُمْ كَبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا ٣٦ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا ، عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول : إن رضيت أخذته وإلا رددت معه درهمًا ، قال : هو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ وعن عبد الله في الآية قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْعَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ قرئ تجارة بالرفع وبالنصب ^(٢) ، وهو استثناء منقطع ، كأنه يقول : لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها ، وتسببوا بها في تحصيل الأموال . ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول ؛ لأنه يدل على التراضي نصًا ، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد ، وخالف الجمهور في ذلك مالك وأبو ثور وأبو حنيفة

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٤٩) والترمذي في السنن بنحوه (٢١٣) .

(٢) قرأ الكوفيون ﴿ بَيْعَةً ﴾ بالنصب والبالون بالرفع (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

وأحمد ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً ، فصحبوا بيع المعاطاة مطلقاً ، ومنهم من قال : يصح في المحقرات وفيما يعده الناس بيعاً ، وهو احتياط نظر من محققي المذهب ، وقال مجاهد : ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَحَكُّرَةً عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحد أحدًا . ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » ^(١) وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام ، بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها ، كما هو المشهور عن مالك رحمته الله ، وصحبوا بيع المعاطاة مطلقاً وهو قول في مذهب الشافعي ، ومنهم من قال : يصح بيع المعاطاة في المحقرات ، فيما يعده الناس بيعاً ، وهو اختيار طائفة من الأصحاب ، كما هو متفق عليه .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي بارتكاب محارم الله ، وتعاطي معاصيه ، وأكل أموالكم بالباطل ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال : لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل ، قال : احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيمنت ، ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح ، قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ مُجْنُبٌ ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، إنني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فتيمنت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً ^(٢) . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحِدِيدَةٍ ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فَشَيْئُهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا » ^(٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظَلَمًا ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه ، ظالماً في تعاطيه ، أي علماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿ فَسَوْفَ نُضِلُّهُ نَارًا ﴾ الآية . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْتَبِئُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الآية أي إذا اجتمعتم كبائر الآثام التي نهيتكم عنها كفرنا عنكم صفائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنة ، ولهذا قال : ﴿ وَدَخَلْكُمْ مُدْخَلَكُمُ الْكَرِيمِ ﴾ عن أنس رفعه قال : لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا ﷺ ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال ، أن تجاوز لنا عما دون الكبائر يقول الله : ﴿ إِنْ تَحْتَبِئُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الآية . وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة ، منها : عن سلمان الفارسي : قال لي النبي ﷺ : « أَتُنْذِرِي مَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؟ » قلت : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم ، قال : « لَكِنْ أَذْهَبِي مَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ ؛ لَا يَبْطِئُ الرَّجُلُ فَيُحْسِنُ طَهْرَهُ ، ثُمَّ يَأْتِي الْجُمُعَةَ فَيَنْصِتُ حَتَّى يَقْضِيَ الْإِمَامُ صَلَاتَهُ ؛

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٢) ومسلم في البيوع (٤٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٤) والحاكم في المستدرک (١٧٧/١) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٥) والترمذي في السنن (٢٠٤٤) .

إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لَهُ مَا يَنْتَهَا وَيَتَرَنَ الْجُمُعَةِ الْمُبْلَغَةَ مَا اجْتَنِبْتَ الْمَقْتَلَةَ ^(١) . وعن أبي هريرة وأبي سعيد يقولان : خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » ثلاث مرات ثم أكب ، فأكب كل رجل منا يكي ، لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى ، فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال : « مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ ، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ السَّبْعَ ، إِلَّا فُحِّشَ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ : ادْخُلْ بِسَلَامٍ » ^(٢) .

تفسير هذه السبع : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشُّرُكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَالسُّخْرُ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْحَصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » ^(٣) . فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن ، إلا عند من يقول بفهوم القلب ، وهو ضعيف عند عدم القرينة ، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم ، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع ، فمن ذلك عن عمير بن قتادة رضي الله عنه أنه حدثه - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُصَلِّينَ ، مَنْ يُقِمُّ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ يَرَى أَنَّ عَلَيْهِ حَقًّا ، وَيُعْطِي زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا ، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا » . ثم إن رجلاً سأله ، فقال : يا رسول الله ، ما الكبائر ؟ فقال : « يَشْعُ : الشُّرُكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَفِرَارُ يَوْمِ الرَّحْفِ ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَقَذْفُ الْحَصَنَةِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاسْتِخْلَافُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قَبْلَكُمْ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ لَا يَعْمَلْ هَؤُلَاءِ الْكِبَائِرَ ، وَيُقِيمِ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَارِ مَصَانِفِهَا مِنْ ذَهَبٍ » ^(٤) .

وعن أبي أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَبْدَ اللَّهِ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، وَاجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ ؛ فَلَهُ الْجَنَّةُ - أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ - » فسأله رجل : ما الكبائر ؟ فقال : « الشُّرُكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُسْلِمَةٍ ، وَالْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ » ^(٥) .

وعن أبي بكر قال : قال النبي ﷺ : « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ » قلنا : بلى ، يا رسول الله . قال : « الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » - وكان متكئاً فجلس - فقال : « أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » فما زال يكررها ، حتى قلنا ليته سكت ^(٦) .

حديث فيه ذكر قتل الولد : عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ - وفي رواية أكبر ؟ - قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا

(٢) أخرجه النسائي في السنن : (٨/٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٩/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٩/٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/٥) والهيثم في مجمع الزوائد (٢١٦/٥) .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٦) ومسلم في الإيمان (١٤٣) .

يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « مِنْ أَكْثَرِ الْكِبَايِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالَّذِيهِ » قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقَتْلُهُ كُفْرٌ » (٢) .

حديث في الجمع بين الصلاتين من غير عذر : عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ صَلَاتَيْنِ مِنْ غَيْرِ عَذْرِ فَقَدْ أَتَى بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْكِبَايِرِ » (٣) . والغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر ، تقديمًا أو تأخيرًا ، وكذا المغرب والعشاء كالجمع بسبب شرعي ، فمن تعاطاه بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكبًا كبيرة ، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية ؟!

ذَكَرَ أَقْوَالُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ

عن الحسن أن ناسًا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله ﷻ أمر أن يعمل بها لا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك ، فقدم وقدموا معه فلقي عمر ﷺ ، فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا ، قال : أياذن قدمت ؟ قال : فلا أدري كيف رد عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناسًا لقوني بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله ﷻ أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك في ذلك . قال : فاجمعهم لي ، قال : فجمعتهم له ، - قال ابن عون : أظنه قال : في بهو - فأخذ أدناهم رجلًا فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم ، قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال : اللهم لا ، قال : ولو قال : نعم لخصمه . قال : فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، فقال : ثكلت عمر أمه ، أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ؟ قال : وتلا ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَايِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية . ثم قال : هل علم أهل المدينة - أو قال : هل علم أحد بما قدمتم - قالوا : لا ، قال : لو علموا لوعظت بكم . عن علي ﷺ قال : الكبائر : الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، والفرار من الزحف ، والتعرب بعد الهجرة ، والسحر ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا ، وفراق الجماعة ، ونكت الصفقة . عن ابن مسعود قال : أكبر الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها ، ثم تلا : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَايِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية . عن بريدة قال : أكبر الكبائر الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، ومنع فضول الماء بعد الري ، ومنع طروق الفحل إلا بجعل .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْتَنِعُهُ ابْنُ السَّبِيلِ » (٤) وعن معاوية بن قره قال : أتيت أنس بن مالك . فكان فيما يحدثنا قال : لم أر مثل الذي أتانا عن ربنا ، ثم لم يخرج له عن

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢١٦/٢٠

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٨٨) والحاكم في المستدرک (٢٧٥/١)

(٤) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٥٨)

كل أهل ومال ، ثم سكنت هنيئة ثم قال : والله لما كلفنا من ذلك أنه تجاوز لنا عما دون الكبائر وتلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ﴾ الآية .

أقوال ابن عباس في ذلك : عن طاوس قال : ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا : فهي سبع : فقال : هي أكثر من سبع وسبع ، قال : فلا أدري كم قالها من مرة . وعن طاوس ، قال : قلت لابن عباس : ما السبع الكبائر ؟ قال : هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع . وعن سعيد بن جبير : أن رجلاً قال لابن عباس : كم الكبائر سبع ؟ قال : هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار . وعن ابن عباس في قوله : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال : الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب . وعن أبي الوليد قال : سألت ابن عباس عن الكبائر قال : كل شيء عصي الله به ، فهو كبيرة .

أقوال التابعين : عن ابن عون عن محمد قال : سألت عبيدة عن الكبائر فقال : الإشراف بالله ، وقتل النفس التي حرم الله بغير حقها ، والفرار يوم الزحف ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والبهتان ، قال : ويقولون : أعراية بعد هجرة ، قال ابن عون : فقلت لمحمد : فالسحر ؟ قال : إن البهتان يجمع شراً كثيراً . وعن عبيد بن عمير ، قال : الكبائر سبع ليس منهن كبيرة إلا وفيها آية من كتاب الله ، الإشراف بالله منهن ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ﴾ الآية . ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ الآية ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ، والفرار من الزحف ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحْمًا﴾ الآية . والتعرب بعد الهجرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وقيل المؤمن ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لِّهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ الآية . عن عطاء بن أبي رباح قال : الكبائر سبع : قتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، ورمي المحصنة ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف . وعن مغيرة قال : كان يقال : شتم أبي بكر وعمر عليهما السلام من الكبائر . قلت : وقد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سب الصحابة ، وهو رواية عن مالك بن أنس عليه السلام . وقال محمد بن سيرين : ما أظن أحداً يغض أباً بكر وعمر وهو يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال زيد بن أسلم في قول الله تعالى : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ : من الكبائر : الشرك بالله ، والكفر بآيات الله ورسوله ، والسحر ، وقتل الأولاد ، ومن دعى لله ولداً أو صاحبة ، ومثل ذلك من الأعمال والقول الذي لا يصلح معه عمل ، وأما كل ذنب يصلح معه دين ، ويقبل معه عمل ؛ فإن الله يغفر السيئات بالحسنات . وعن قتادة ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية : إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر .

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة ، فمن قائل : هي ما عليه حد في الشرع ، ومنهم من قال : هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة ، وقيل غير ذلك . ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه : أحدها : أنها المعصية الموجبة للحد . والثاني : أنها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة ، وهذا أكثر ما يوجد لهم ، وإلى الأول أميل ، لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفسير الكبائر . والثالث : قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره : كل جريمة تنبئ بقلّة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة ؛ فهي مبطلّة للعدالة . والرابع : ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة كل

فعل نص الكتاب على تحريمه ، وكل معصية توجب في جنسها حدًا من قتل أو غيره . وترك كل فريضة مأمور بها على الفور ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين ، هذا ما ذكره على سبيل الضبط . ثم قال : وفصل القاضي الروياني فقال : الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق ، والزنى ، واللواط ، وشرب الخمر ، والسرقه ، وأخذ المال غصبًا ، والقذف ، وزاد في الشامل على السبع المذكورة : شهادة الزور ، أضاف إليها صاحب العدة : أكل الربا ، والإفطار في رمضان بلا عذر ، واليمين الفاجرة ، وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن ، وتقديم الصلاة على وقتها ، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق ، والكذب على رسول الله ﷺ عمدًا ، وسب أصحابه ، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، ويقال : الوقعة في أهل العلم ، وحملة القرآن ، وما يعد من الكبائر : الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة . ثم قال الرافعي : وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال قلت : وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات ؛ منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي الذي بلغ نحوًا من سبعين كبيرة ، وإذا قيل : إن الكبيرة ما توعده عليها الشارع بالنار بخصوصها ، كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك ، اجتمع منه شيء كثير ، وإذا قيل : كل ما نهى الله عنه فكثير جدًا والله أعلم .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ .

قالت أم سلمة : يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو ، ولنا نصف الميراث ، فأُنزل الله : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (١) . وعن ابن عباس في الآية قال : أتت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، وشهادة امرأتين برجل ، ونحن في العمل هكذا ، إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة ، فأُنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ الآية . فإنه عدلي مني ، وأنا صنعته . وقال السدي في الآية : إن رجالًا قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ، كما لنا في السهام سهمان ، وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء ، فإنا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا . فأبى الله ذلك ولكن قال لهم : سلوني من فضلي ، قال : ليس بعرض الدنيا (٢) .

وقال ابن عباس في الآية : ولا يتمنى الرجل فيقول : ليت لو أن لي مال فلان وأهله ، فنهى الله عن ذلك ، ولكن يسأل الله من فضله . يرد على هذا ما ثبت في الصحيح : «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكِهِ فِي الْحَقِّ ، فَيَقُولُ رَجُلٌ : لَوْ أَنَّ لِي مِثْلُ مَا لِفُلَانٍ لَعَمِلْتُ مِثْلَهُ ، فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ» (٣) فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية ، وذلك أن الحديث حض على تمنّي مثل نعمة هذا ، والآية نهت عن تمنّي عين نعمة هذا ، يقول : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٢٢) والحاكم في المستدرک (٣٠٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٩)

(٣) تفسير الطبري (٦٦/٥ ، ٦٧)

في الأمور الدنيوية ، وكذا الدينية لحديث أم سلمة وابن عباس ، ثم قال : ﴿لِرَجَالٍ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي كل له جزء على عمله بحسبه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقيل : المراد بذلك في الميراث ؛ أي كل يرث بحسبه . ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم ، فقال : ﴿وَسَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لا تمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض ، فإن هذا أمر محتوم ، أي أن التمني لا يجدي شيئاً ، ولكن سلوني من فضلي أعطكم ، فإني كريم وهاب . وقد روي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سَلُّوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ ، وَإِنْ أَحَبَّ عِبَادُ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يُحِبُّ الْفَرَجَ » ^(١) . ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا ، فيعطيه منها ، وبمن يستحق الفقر فيفقره . وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها ، وبمن يستحق الخذلان فيخلذه عن تعاطي الخير وأسبابه . ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم في قوله : ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ أي ورثة . وعن ابن عباس في رواية : عصبه . قال ابن جرير : والعرب تسمي ابن العم مولى .

قال : ويعني بقوله : ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ من تركه والديه وأقربيه من الميراث ، فتأويل الكلام : ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه مما ترك والده وأقربوه من ميراثهم له . وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة ، أنتم وهم فأتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة ، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقدات ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك ، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ، ولا ينسوا بعد نزول هذه الآية معاهدة . عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ قال : ورثة . ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه ، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوْلًى﴾ نسخت ، ثم قال : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ، ويوصي له .

وعن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال : « شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيِّبِينَ وَأَنَا غُلَامٌ مَعَ عُمُومَتِي ، فَمَا أَحِبُّ أَنْ لِي حُمْرُ النَّعَمِ وَأَنَا أَكُفَّةٌ » ^(٢) . وعن قيس بن عاصم أنه سأل النبي ﷺ عن الحلف فقال : « مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ » ^(٣) . وعن داود بن الحصين قال : كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها موسى بن سعد وكان يتيمًا في حجر أبي بكر فقرأت عليها ﴿وَالَّذِينَ - عَاقَدْتَ - أَيْمَنُكُمْ﴾ فقالت : لا ولكن ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ قالت : إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه ، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف أمر الله أن يورثه نصيبه . وهذا قول غريب ، والصحيح الأول ،

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٧١) والطبراني في الكبير (١٢٥٠/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٠/١) والألباني في الصحيحة (١٩٠٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٩/١) والطبراني في الكبير (٣٣٧/١٨) .

وأن هذا كان في ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف ثم نسخ ، وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعهود والعقود ، والحلف الذي كانوا قد تعاقده قبل ذلك . وفي حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة : « لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً » (١) وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم ، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أي ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه ، وهم يرثونه دون سائر الناس ، كما ثبت عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « الْحَقُّوْا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا بَقِيَ فَلَأُولَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ » (٢) أي اقسمو الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض ، فما بقي بعد ذلك فأعطوه للعصبة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ أي قبل نزول هذه الآية ﴿ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ أي من الميراث ، فأبما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له . وقد قيل : إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الحلف الماضي أيضاً فلا توارث به . عن ابن عباس ﴿ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ قال : من النصرة والنصيحة والرفادة ، ويوصى له وقد ذهب الميراث . وقال ابن عباس : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ قال : كان الرجل يعاقد الرجل أبهما مات ورثه الآخر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ يقول : إلا أن توصوا لهم بوصية فهي لهم جائزة من ثلث المال ، وهذا هو المعروف ، وهكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَعْلَمُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ وقال سعيد بن جبير : فأتوهم نصيبهم أي من الميراث ، قال : وعاقده أبو بكر مولى فورثه . عن ابن المسيب : نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبنون رجالاً غير أبنائهم يورثونهم ، فأنزل الله فيهم ، فجعل لهم نصيباً في الوصية ، ورد الميراث إلى الموالي في ذي الرحم والعصبة ، وأبى الله أن يكون للمدعين ميراث ممن ادعاهم وتبناهم ، ولكن جعل لهم نصيباً من الوصية . وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ أي من النصرة والنصيحة والمعونة ، لا أن المراد فأتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة ، ولا أن ذلك كان حكماً ثم نسخ ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط ، فهي محكمة لا منسوخة وهذا الذي قاله فيه نظر ، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعاونة ، ومنه ما كان على الإرث ، كما حكاه غير واحد من السلف ، وكما قال ابن عباس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه ، حتى نسخ ذلك ، فكيف يقولون : إن هذه الآية محكمة ، غير منسوخة ، والله أعلم .

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْمُكَلِّفَاتُ فَإِنْ كُنَّ خَفِضْتُ لِلاَّتِي بِالنِّسَاءِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعُظُوهُنَّ وَأَفْجُرُوهُنَّ فِي الْمَصَاجِعِ وَأُخْرُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا كَبِيْرًا .

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٦٣٧) ومسلم في الفرائض (٣٢٢) .

يقول تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي الرجل قيم على المرأة ، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤديها إذا اعوجت ﴿يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء ، والرجل خير من المرأة ، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ» ^(١) وكذا منصب القضاء وغير ذلك . ﴿وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي : من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهم في كتابه وستة نبيته ﷺ ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه ، وله الفضل عليها والإفضال ، فناسب أن يكون قيما عليها كما قال الله تعالى : ﴿وَالرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ ذَرِمَةٌ﴾ الآية .

وعن ابن عباس : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يعني أمراء عليهن ، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . عن علي قال : أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له ، فقالت : يا رسول الله ، إن زوجها فلان ابن فلان الأنصاري ، وإنه ضربها فأثر في وجهها فقال رسول الله ﷺ : «لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ» فأنزل الله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي في الأدب فقال رسول الله ﷺ : «أَرَأَيْتُمْ أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ غَيْرَهُ» ^(٢) . وقال الشعبي في هذه الآية ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَّا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ قال : الصداق الذي أعطاه ، ألا ترى أنه لو قذفها لاعتها ، ولو قذفته جلدت .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي من النساء ﴿فَنَسِيتَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حَفِظْتُ لِّلْغَيْبِ﴾ وقال السدي وغيره : أي تحفظ زوجها في غيبته ، في نفسها وماله . وقوله : ﴿يَمَّا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي المحفوظ من حفظه الله . وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ : «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَفِظَتْهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَهَا ، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الْأَبْوَابِ شِئْتَ» ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ شُرُوكَ﴾ أي : والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والنشوز : هو الارتفاع ، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها ، التاركة لأمره ، المعرضة عنه ، المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرّم عليها معصيته ، لما له عليها من الفضل والإفضال ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لَوْ كُنْتُ امْرَأًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرِتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا» ^(٤) . وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» ^(٥) ولهذا قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ شُرُوكَ فَعِظُوهُمْ﴾ وقوله : ﴿وَأَفْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ﴾ قال ابن عباس : الهجر هو أن لا يجامعها ويصاحبها على فراشها ، ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد ، وزاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة وابن عباس في

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٩٩) والترمذي في السنن (٢٢٦٢) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥١/٢) والهندي في كنز العمال (٤٣٢٧) .

(٣) هذا الحديث من الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس وهو ضعيف ، وقد ذكره العجلوني في كشف الخفايا (٩٦/١) والمنذري في الترغيب (٥٢/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (١١٥٩) والحاكم في المستدرک (١٨٧/٢) .

(٥) أخرجه مسلم في التكاثر (١٢٢) وأبو داود في السنن (٢١٤١) .

رواية : ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها ، وقال ابن عباس : يعظها فإن هي قبلت ، وإلا هجرها في المضجع ، ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها ، وذلك عليها شديد . وقال مجاهد والشعبي وإبراهيم ومحمد بن كعب ومقسم وقتادة : الهجر هو أن لا يضاجمها . وعن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ وَلَا تُقْبِحَ ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ » ^(١) .

وقوله : ﴿ وَأَضْرِبُوهُنَّ ﴾ أي إذا لم يردعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلکم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح . كما ثبت عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : « وَأَتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَاثٌ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوْطِئَنَّ فُؤُوسَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهَنَّ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » ^(٢) . وكذا قال ابن عباس وغير واحد : ضرباً غير مبرح . قال الحسن البصري : يعني غير مؤثر ، قال الفقهاء : هو أن لا يكسر فيها عضواً ، ولا يؤثر فيها شيئاً . وقال ابن عباس : يهجرها في المضجع ، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح ، ولا تكسر لها عظماً ، فإن أقبلت ، وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية . وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذئاب قال : قال النبي ﷺ : « لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ » فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : ذُتت النساء على أزواجهن ، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْتَكِينَ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ ، لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَلَمَكُمُ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها ، مما أباحه الله له منها ، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ولا هجرانها . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب ، فإن العلي الكبير وليهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْصُرُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُّوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَبِيراً ﴾ .

ذكر الحال الأول ، وهو إذا كان النفور والنشوز من الزوجة . ثم ذكر الحال الثاني ، وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْصُرُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وقال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم ، فإن تعاقم أمرهما وطالت خصومتهم ، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا ، فينظرا في أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق ، وتشوف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُّوفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ عن ابن عباس : أمر الله ﷻ أن يعيشوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل ، ورجلاً مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء ؟ فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته ، وقصروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٧/٤) . (٢) أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والبيهقي في السنن (٨/٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٤٦) والحاكم في المستدرک (١٨٨/٢) .

زوجها ، ومنعوها النفقة . فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا ، فأمرهما جائز ، فإن رأيا أن يجمعا ، فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما ، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرص ، ولا يرث الكاره الراضي . وعن ابن عباس قال : بعث أنا ومعاوية حكيمين - قال معمر : بلغني أن عثمان بعثهما - وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعا جمعتما ، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا . وعن أبي مليكة أن عقيل بن أبي طالب تزوج فاطمة بنت عتبة بن ربيعة فقالت : تصير إلي وأنفق عليك ، فكان إذا دخل عليها قالت : أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فقال : على يسارك في النار إذا دخلت ، فشدت عليها ثيابها ، فجاءت عثمان فذكرت له ذلك فضحك ، فأرسل ابن عباس ومعاوية فقال ابن عباس : لأفرق بينهما ، فقال معاوية : ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف ، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا . وقد أجمع العلماء على أن الحكيمين لهما الجمع والتفرقة ، حتى قال إبراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا ، وهو رواية عن مالك . وقال الحسن البصري : الحكمان يحكمان في الجمع لا في التفرقة ، وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور ودادود ، ومأخذهم قوله تعالى : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يذكر التفريق ، وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف .

وقد اختلف الأئمة في الحكيمين هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وإن لم يرص الزوجان ؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين ؟ على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى : ﴿ قَابَعْتُوَا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلَيْهَا ﴾ فسامهما حكيمين ، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه ، وهذا ظاهر الآية . والجديد من مذهب الشافعي ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، الثاني منهما ، لقول علي عليه السلام للزوج حين قال : أما الفرقة فلا ، قال : كذبت حتى تقربا أقرت به ، قالوا : فلو كانا حكيمين لما افتقر إلى إقرار الزوج والله أعلم . قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكيمين إذا اختلف قولهما ، فلا عبرة بقول الآخر ، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان ، واختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة ، ثم حكى عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضا من غير توكيل .

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه هو الخالق الوازق النعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحده ، ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَنْ يُعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » ، ثم قال : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » ^(١) . ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين ، ثم عطف على الإحسان إليهما بالإحسان إلى القربات من الرجال والنساء ، كما جاء في الحديث : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصِلَّةٌ » ^(٢) ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٦٥٨) وابن ماجه في السنن (١٨٤٤) وأحمد في مسنده (٢١٤/٤) .

قال تعالى : ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ، ومن ينفق عليهم ، فأمر الله بالإحسان إليهم ، والحنو عليهم ، ثم قال : ﴿وَالسَّكِينِ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم ، وتزول به ضرورتهم . وقوله : ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْبُحْبُ﴾ قال ابن عباس : ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ : يعني الذي بينك وبينه قرابة ، ﴿وَالْجَارِ الْبُحْبُ﴾ : الذي ليس بينك وبينه قرابة . وقال نوف البكالي : اليهودي والنصراني ، وعن علي وابن مسعود ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ : يعني المرأة ، وقال مجاهد : يعني الرفيق في السفر . وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار ، منها :

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُؤْتِيهِ »^(١) .
عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لَصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لْجَارِهِ »^(٢) .
وعن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَشْبَعُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ »^(٣) .

وعن المقداد بن الأسود يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « مَا تَقُولُونَ فِي الرَّثِي ؟ » قالوا : حرام حرمة الله ورسوله ، وهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ : « لِأَنَّ يَزْنِي الرَّجُلُ بِعَشْرٍ نِسْوَةٍ أُيْسِرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ » قال : « مَا تَقُولُونَ فِي الشَّرْقَةِ ؟ » قالوا : حرمة الله ورسوله ، فهي حرام إلى يوم القيامة . قال : « لِأَنَّ يَشْرِقُ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ آثِيَابٍ أُيْسِرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَشْرِقَ مِنْ جَارِهِ »^(٤) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « الْجِيرَانُ ثَلَاثَةٌ ، جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاجِدٌ ، وَهُوَ أَذْنَى الْجِيرَانِ حَقًّا . وَجَارٌ لَهُ حَقَّانِ ، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِيرَانِ حَقًّا . فَأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاجِدٌ : فَجَارٌ مُشْرِكٌ لَا رَحِمَ لَهُ ، لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ . وَأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقَّانِ : فَجَارٌ مُسْلِمٌ لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ ، وَحَقُّ الْجَوَارِ . وَأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ : فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ لَهُ حَقُّ الْجَوَارِ ، وَحَقُّ الْإِسْلَامِ ، وَحَقُّ الرَّحِمِ »^(٥) .
وعن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت : إن لي جارين ، فألى أيهما أهدي ؟ قال : « إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا »^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ عن علي وابن مسعود قالا : هي المرأة . وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة : هو الرفيق في السفر . وقال سعيد بن جبير : هو الرفيق الصالح . وقال زيد بن أسلم : هو جلسك في الحضر ، ورفيقتك في السفر . وأما ﴿أَبْنِ السَّكِينِ﴾ فعن ابن عباس : هو الضيف ، وقال مجاهد : هو الذي يمر عليك مجتازًا في السفر ، وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء . وقوله تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وصية بالأرقاء ؛ لأن الرفيق ضعيف الحيلة ، أسير في

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٥) ومسلم في البر والصلة (١٤٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٩٤٤) والحاكم في المستدرک (٤٤٣/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥٥/١) والحاكم في المستدرک (١٦٧/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٨/٦) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/٥) والألباني في إرواء الغليل (٤٠٣/٣) .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٠) وأحمد في مسنده (٢٣٩/٦) والحاكم في المستدرک (١٦٧/٤) .

أيدي الناس ، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول : « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فجعل يردها حتى ما يفيض بها لسانه ^(١) ، وعن المقدم بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ » ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم فإن رسول الله ﷺ قال : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَخْسِفَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُمْ » ^(٣) . وعنه أيضًا عن النبي ﷺ قال : « إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُغْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لَقْمَةً أَوْ لَقْمَتَيْنِ ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ وَلِيُّ حِرَّةٍ وَعِلَاجُهُ » ^(٤) . وعن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « هُمْ إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ ؛ فَلْيُطْعِمْهُ يَمًّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ يَمًّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِيبُوهُمْ » ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ أي مختالاً في نفسه ، معجباً متكبراً فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض . قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا ﴾ يعني متكبراً ﴿ فَخُورًا ﴾ يعني بعد ما أعطي وهو لا يشكر الله تعالى ، يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك . وعن أبي رجاء الهروي قال : لا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً وتلا : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ الآية . ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيّاً وتلا : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَصْلَهِ جَبَارًا شَقِيًّا ﴾ . وقال مطرف : كان يلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه فلقيته ، فقلت : يا أبا ذر : بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ثَلَاثَةً وَيُبْغِضُ ثَلَاثَةً » قال أجل : فلا أcha لك ، أكذب على خليلي ؟ ثلاثاً قلت : من الثلاثة الذين يبغض الله ؟ قال : المختال الفخور ، أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل ؟ ثم قرأ الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ^(٦) . وعن رجل من بني الهجيم قال : قلت : يا رسول الله أوصني ، قال : « إِيَّاكَ وَإِسْبَالُ الْإِزَارِ ، فَإِنَّ إِسْبَالُ الْإِزَارِ مِنَ الْخِيَلَةِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخِيَلَةَ » ^(٧) .

﴿ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ^(٨) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ^(٩) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ^(١٠) . يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣١١/٦) والحاكم في المستدرک (٥٧/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/٤) والبيهقي في السنن (١٢٩/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٤٠) .

(٤) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧) وأحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٨) والبيهقي في السنن (٧/٨) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٥) والحاكم في المستدرک (٨٩/٢) والبيهقي في السنن (١٦٠/٩) .

(٧) أخرجه البيهقي في السنن (٢٣٦/١٠) والألباني في الصحيحة (١١٠٩) .

ملكت أيمانكم من الأرقاء ، ولا يدفعون حق الله فيها ، ويأمرون الناس بالبخل أيضًا ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالْقِطْعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَثُرُوا مَّا آتَيْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فالبخل جحودٌ لنعمة الله ولا تظهر عليه . ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله ولهذا توعدهم بقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخل يستر نعمة الله عليه ويكتسبها ويجحدُها ، فهو كافر لنعم الله عليه . وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يُظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ » (٢) . وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود يظهرون العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكماتهم ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ولا شك أن الآية محتملة لذلك ، والظاهر أن السياق في البخل بالمال ، وإن كان البخل بالعلم داخلًا في ذلك بطريق الأولى ، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء ، وكذلك الآية التي بعدها وهي قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُبْفِقُونَ آمُومًا رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ فإنه ذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء ، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرام ، ولا يريدون بذلك وجه الله ، في الحديث : أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان ، هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه ؟ فقال : « لَا ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية ، أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح ، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان ، فإنه سؤل لهم وأملى لهم ، وقارنهم فحسن لهم القبائح ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ ولهذا قال الشاعر (٤) :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَفْتَدِي

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ الآية ، أي : وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله ، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها . وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم ، فيوفقه ويلهمه رشده ، ويقضه لعمل صالح يرضى به عنه ، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي ، الذي من طرد عن بابه ، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، عيادًا بالله من ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرًّا وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَعْزِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهَمُّ الْآرْضِ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

يقوله تعالى مخبرًا أنه لا يظلم أحدًا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٥/٢) والحاكم في المستدرک (١١/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٤/٣) والطبراني في الكبير (١٣٥/١٨) والألباني في الصحيحة (١٢٩٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٠/٦) والحاكم في المستدرک (٤٠٥/٢) .

(٤) هو عدی بن زید والبيت في جمهرة أشعار العرب ص : ١٧٩ .

يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفَعُ الْكَافِرِينَ الْقِسْطَ ﴾ الآية . وقال عبد الله ابن مسعود : يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة ، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين : هذا فلان ابن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ، ثم قرأ : ﴿ فَلَا أَنْصَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فيغفر الله من حقه ما يشاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً ، فينصب للناس فيقول : اتوا إلى الناس حقوقهم ، فيقول : يا رب فنيت الدنيا من أين أوتيتهم حقوقهم ؟ فيقول : خذوا من أعماله الصالحة ، فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته ، فإن كان ولياً لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا ﴾ وإن كان عبداً شقيفاً قال الملك : رب فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول : خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثم صكوا له صكاً إلى النار . وعبد الله بن عمر قال : نزلت هذه الآية في الأعراب ﴿ مَنْ جَاءَهُ الْحَسَنَةُ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَاءَهَا ﴾ قال رجل : فما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : ما هو أفضل من ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا ﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولا يخرج من النار أبداً . وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال : يا رسول الله ، إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء ؟ قال : « نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » ^(١) وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار ، بدليل ما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً ، يَثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقُ فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ » ^(٢) . وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقادة والضحاك في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة ^(٣) ، نسأل الله رضاه والجنة .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا يَحْشَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة ، وشدة أمره وشأنه : فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة شهيد ، يعني الأنبياء ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالشَّهَادَةِ ﴾ الآية . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أَقْرَأُ عَلَيْكَ » فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نَعَمْ ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا يَحْشَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فقال : « حَشِيَّتُكَ الْآنَ » فإذا عيناه تذرفان ^(٤) . وعن عبد الله هو ابن مسعود في هذه الآية : قال : قال رسول الله ﷺ : « شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَإِذَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ » ^(٥) . وأما ما

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٥٧) وأحمد في مسنده (٢٠٦/١) .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٦) وأحمد في مسنده (١٢٥/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٧) .

(٥) ذكره الطبري في تفسيره (١٣٠/٥) .

ذكره أبو عبد الله القرطبي في التذكرة حيث قال : باب ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته : عن سعيد بن المسيب يقول : ليس من يوم إلا يعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة وعشية ، فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم ، فلذلك يشهد عليهم ، يقول الله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فإنه أثر وفيه انقطاع ، فإن فيه رجلًا مبهمًا لم يسم ، وهو من كلام سعيد ابن المسيب ولم يرفعه ، وقد قبله القرطبي فقال بعد إيراده : قد تقدم أن الأعمال تعرض على الله كل يوم اثنين وخميس ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، قال : ولا تعارض فإنه يحتمل أنه يخص نبينا بما يعرض عليه كل يوم ، ويوم الجمعة مع الأنبياء عليه وعليهم أفضل السلام .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ أي : لو انشقت وبلعتهم ، مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ . وقوله ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ، ولا يكتُمون منه شيئًا . وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أشياء تختلف علي في القرآن ، قال : ما هو ؟ أشك في القرآن ؟ قال : ليس هو بالشك ولكن اختلاف ، قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك ، قال : أسمع الله يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَتَنَّاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فقد كنتموا ! فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَتَنَّاهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ، ويغفر الذنوب ولا يتعاطمه ذنب أن يغفره ، ولا يغفر شركًا جحد المشركون فقالوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ رجاء أن يغفر لهم فخنم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك ﴿ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَقُولُوا مَا قُلْنَا وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَنْفَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهُقًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب إلا أن يكون مجتازًا من باب إلى باب من غير مكث ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية . فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقُوا لِقَاءً لِّبَسُوا وَأَلْبَسُوا وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ الشيطان فاجتنبوا لعلكم تفلحوا ﴿ إلى قوله تعالى : ﴿ فَهَذَا أَنْتُمْ تُنْهَوْنَ ﴾ فقال عمر : انتهينا انتهينا ^(١) . وعن سعد قال : نزلت في أربع آيات : صنع رجل من الأنصار طعاما ، فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ثم افتخرنا ، فرفع رجل لحي بعير ففرز بها أنف سعد فكان سعد مغرور الأنف ، وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى ﴾ الآية ^(٢) .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠١ ، ٣٢٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٩ / ١) .

وعن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة ، فقدموا فلاناً قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، فأنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(١) وعن قتادة : كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ، ثم نسخ بتحريم الخمر . وقال الضحاك في الآية : لم يعن بها سكر الخمر ، وإنما عني بها سكر النوم . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ثم قال ابن جرير : والصواب أن المراد سكر الشراب ، قال : ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب ؛ لأن ذاك في حكم المجنون ، وإنما خوطب بالنهي الشمل الذي يفهم التكليف ، وهذا حاصل ما قاله^(٢) . وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له ، فإن الفهم شرط التكليف . وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية ، لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار ، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً والله أعلم . وعلى هذا فيكون كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام ، والمداومة على الطاعة لأجل ذلك وقوله : ﴿حَقَّ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران إنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن الخمر فيه تخليط في القراءة ، وعدم تدبره وخشوعه فيها . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيُتَصَرَّفْ وَلْيَتَمَّ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ »^(٣) .

وقوله : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ قال : لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب ، إلا عابري سبيل ، قال : تمر به مراً ولا تجلس . ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد ، ويجوز له المرور ، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه ، إلا أن بعضهم قال : يحرم مرورهما لاحتمال التلويت . ومنهم من قال : إن أمنت كل واحدة منهما التلويت في حال المرور جاز لها المرور ، وإلا فلا . وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « ناوليني الحفرة من المسجد » فقلت : إني حائض ، فقال : « إِنَّ خِيضَتَكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ »^(٤) ، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد ، والنفساء في معناها والله أعلم . وروي عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَا أَجِلُّ الْمَسْجِدَ لِجَائِضٍ وَلَا جُنُبٍ »^(٥) .

وعن علي : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ قال : لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة ، فلا يجبد الماء فيصلي حتى يجبد الماء ، وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّبِيُّ الطَّيِّبُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ ، وَإِنْ لَمْ تَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حَبَبٍ ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ فَأَمْسُهُ بِشَرَّتِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ »^(٦) ثم قال ابن جرير ، بعد حكايته القولين : والأولى قول من قال : ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي : إلا مجتازي

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٢٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٢/٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٣٢) والبيهقي في السنن (٤٤٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٠/٥) .

(٥) تفسير الطبري (٣٤/٥) .

(٦) أخرجه مسلم في الحيز (١١) وأبو داود في السنن (٢٦١) .

طريق فيه ، وذلك أنه قد يئس حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَهًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ إِلَى آخِرِهِ فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنْ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَا جُنْبٌ إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ لو كان معنيًا به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَهًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ معنى مفهوم ، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية : يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا تقربوها أيضًا جنبًا حتى تغتسلوا إلا عابري سبيل . قال : والعاير السبيل المجتاز مرًا وقطعًا ، يقال منه : عبرت بهذا الطريق فأنا أعبره عبرًا وعبورًا ، ومنه يقال : عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه ، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار : هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار ^(١) ، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور ، وهو الظاهر من الآية ، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها ، وعند الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة ، وهي الجنابة المباحة للصلاة ولحلها أيضًا والله أعلم .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله بطريقة . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روي بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك . فعن عطاء بن يسار قال : رأيت رجالًا من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَهًى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى نِسَاءٍ فَلَمْ يجدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء ، ومن العلماء من جَوَّز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية . والسفر معزوف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . وقوله : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ ﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض ، كنى بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر . وأما قوله : ﴿ أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى نِسَاءٍ ﴾ فقرأ لمستم ولمستم ^(٢) ، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين :

أحدهما : أن ذلك كناية عن الجماع لقوله : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْنَ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوْ لَنَسْتُمْ إِلَى نِسَاءٍ ﴾ قال : الجماع . وعن سعيد بن جبيرة قال : ذكروا للمس فقال ناس من الموالي : ليس بالجماع ، وقال ناس من العرب : للمس الجماع ، قال : فلقيت ابن عباس فقلت له : إن ناسًا من الموالي والعرب اختلفوا في للمس ، فقالت الموالي : ليس بالجماع ، وقالت العرب : الجماع ، قال : فمن أي الفريقين كنت ؟ قلت : كنت من الموالي ، قال : غلب فريق الموالي . إن للمس والمس والمباشرة : الجماع ، ولكن الله يكتفي ما شاء بما شاء .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو غيرها من أعضاء الإنسان ، وأوجب الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئًا من جسدها مفضيًا إليه ^(٣) . وعن

(١) تفسير الطبري (١٣٩/٥) .

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ لَنَسْتُمْ ﴾ بغير ألف ، والباقون بالألف (انظر : تقريب النشر ص : ١٠٥) .

(٣) تفسير الطبري (١٤٠/٥) .

عبد الله بن مسعود قال : اللبس ما دون الجماع . وعنه قال : القبلة من المس ، وفيها الوضوء . وعنه قال : يتوضأ الرجل من المباشرة ومن اللبس بيده ومن القبلة ، وكان يقول في هذه الآية ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ هو الغمز . وعن نافع أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة ويرى فيها الوضوء ، ويقول : هي من اللباس . قلت : وروى عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول : قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة ، فمن قُبِلَ امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء . وروى الدارقطني في سننه عن عمر مثل ذلك . ولكن رويناه عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ ، فالرواية عنه مختلفة ، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب ، والله أعلم . والقول بوجوب الوضوء من المس ، وهو قول الشافعي وأصحابه ومالك ، والمشهور عن أحمد بن حنبل ، قال : ناصروه . وقد قرئ في هذه الآية : لامستم ولمستم ، واللبس يطلق في الشرع على الجنس باليد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ زَوَّجْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَانٍ فَلَسَوْا بِأَبْدِيهِمْ ﴾ أي جسوه ، وقال ﷺ لما عز حين أقروا بالزنى يعرض له بالرجوع عن الإقرار : « لَعَلَّكَ قَبِلْتَ ، أَوْ لَمَسْتَ » ^(١) وفي الحديث الصحيح « وَالْيَدُ زَنَاهَا اللَّغْسُ » ^(٢) .

واستأنسوا أيضًا بحديث معاذ قال : إن رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال : يا رسول الله ما تقول في رجل لقي امرأة لا يعرفها وليس يأتي الرجل من امرأته شيئاً إلا أتاه منها ، غير أنه لم يجامعها ؟ قال : فأنزله الله ﷻ هذه الآية ﴿ وَاقْبِرْ الصَّكَّةَ فَذَرْهَا لَهَا وَكَفَى بَهَا عِتْلًا ﴾ قال : فقال له رسول الله ﷺ : « تَوَضَّأُ ثُمَّ صَلَّ » قال معاذ : فقلت : يا رسول الله ، أله خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : « بَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ عَامَّةٌ » ^(٣) . ثم قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عني الله بقوله : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ الجماع دون غيره من معاني اللبس ، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قُبِلَ بعض نساءه ثم صلى ولم يتوضأ . فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ ^(٤) . وعن حبيب عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قُبِلَ بعض نساءه ثم خرج إلى الصلاة ، ولم يتوضأ ، قلت : من هي إلا أنت ؟ فضحكت ^(٥) . وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ، ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءاً ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء ، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حيثئذ التيمم . وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع ، كما هو مقرر في موضعه ، كما في حديث عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معترلاً لم يصل مع القوم فقال : « يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ ؟ أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُثْلِمٍ ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، ولكن أصابني جنابة ولا ماء . قال : « عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ » ^(٧) ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فالتيمم في اللغة هو المقصد . تقول العرب : تيممك الله يحفظه ، أي قصدك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/١) والحاكم في المستدر (٣٦١/٤)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٩/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٤/٥)

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن (٥٠٣) وأحمد في مسنده (٦٢/٦) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (١٧٩) . (٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٦/٢)

(٧) أخرجه مسلم في المساجد (٣١٢) والطبراني في الكبير (١٣٨/١٨)

والصعيد قيل : هو كل ما صعد على وجه الأرض ، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات ، وهو قول مالك . وقيل : ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة ، وهذا مذهب أبي حنيفة ، وقيل : هو التراب فقط ، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَصَبَّحْ صَبِيحًا زَلَّاقًا ﴾ أي ترابًا أملس طيبًا ، وبما ثبت عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « فَضَّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ : مَجِئَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجِئَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجِئَتْ ثُرْبَتُهَا لَنَا ظُهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ » ^(١) قالوا : فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه .

والطيب ههنا قيل الحلال . وقيل : الذي ليس بنجس . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ ظُهُورُ الْمُسْلِمِ إِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ ، فَإِذَا وَجَدَهُ فَلْيَمْسُهُ بِشِرْتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ » ^(٢) . وقوله : ﴿ فَأَمْسُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع . ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال :

أحدها : وهو مذهب الشافعي في الجديد أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين ؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقها على ما يبلغ المنكبين ، وعلى ما يبلغ المرفقين ، كما في آية الوضوء ، ويطلق ويراد به ما يبلغ الكفين كما في آية السرقة ﴿ فَأَقْصَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ قالوا : وحصل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية ، وعن أبي جهيم قال : رأيت رسول الله ﷺ يقول فسلمت عليه فلم يرد علي السلام حتى فرغ ، ثم قام إلى الحائط فضرب يديه عليه فمسح بهما وجهه ، ثم ضرب يديه على الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين ، ثم رَدَّ ^(٣) .

القول الثاني : أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين ، وهو قول الشافعي في القديم . والثالث : أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة . عن عبد الرحمن بن أبيزى عن أبيه أن رجلاً أتى عمر فقال : إني أجنب فلم أجد ماء ؟ فقال عمر : لا تُصَلِّ ، قال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء ، فأما أنت فلم تصل . وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ » وضرب النبي ﷺ يده الأرض ثم نفخ فيها ، ومسح بها وجهه وكفيه ^(٤) . وعن عمار أن رسول الله ﷺ قال : « ضَرْبَةُ لِلْوَجْهِ وَالْكَفَيْنِ » ^(٥) .

وقال في المائدة : ﴿ فَأَمْسُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴾ فقد استدل بذلك الشافعي على أنه لا بد في التيمم أن يكون بتراب طاهر ، له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء ، كما روى الشافعي بإسناده المتقدم عن ابن الصمة أنه مر بالنبي ﷺ وهو يقول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى قام إلى جدار فحته بعضًا كانت معه ، فضرب يده عليه فمسح بها وجهه وذراعيه .

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٤) والبيهقي في السنن (٢٢٣/١) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٢٠/١) والدارقطني في السنن (١٨٦/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣١) . (٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٢) والنسائي في السنن (١٧٠/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٣/٤) .

وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ فلهذا أباح التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ، والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون ، ولهذا كانت هذه الأمة مخصصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم ، كما ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرَّغَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ » وفي لفظ : « فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشُّفَاعَةَ ، وَكَانَ يُنْعَثُ النَّبِيُّ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » ^(١) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَاَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَاَيْدِيكُمْ اِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُوْرًا ﴾ أي : ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة عليكم ورخصة لكم ، وذلك أن هذه الآية جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضًا أو عادماً للماء ، فإن الله ﻻ قد أرخص في التيمم والحالة هذه رحمة بعباده ، ورأفة بهم ، وتوسعة عليهم ولله الحمد والمنة .

ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّيْمُمِ

ولما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائة ، ويانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر ، والخمر إنما حرم بعد أخذ ييسير في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير ، وأما المائة فإنها من آخر ما نزل ولا سيما صدرها ، فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة .

عن عائشة قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء ! فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذتي قد نام ، فقال : حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعن يده في خاصرتي ، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذتي ، فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح ، فأنزل الله آية التيمم فتييمموا ، فقال أسيد بن الحضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت : فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحت ^(٢) .

وعن الأسلع بن شريك قال : كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ فأصابني جنابة في ليلة باردة ، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة ، فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله ﷺ وأنا جنب ، وخشيت أن أغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض ، فأمرت رجلاً من الأنصار فرجلها ، ثم رضفت أحجاراً فأسخت بها ماء واغتسلت ، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه فقال : « يَا أَسْلَعُ مَا لِي أَرَى رَخْلَكَ قَدْ تَغَيَّرَتْ ؟ » قلت : يا رسول الله لم أرحلها ، رحلها رجل من الأنصار ، قال : « وَلَمْ ؟ » قلت : إني أصابني جنابة فخشيت القر على نفسي ، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجاراً فأسخت بها ماء فاغتسلت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُوا

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤) .

(١) سبق تخريجه .

الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴿٤٤﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْكِرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَقِيلُوا السَّيْلَ﴾ (٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٦) ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشتركون بالضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَقِيلُوا السَّيْلَ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون ، وتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره . ثم قال تعالى : ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ من في هذا لبيان الجنس ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله ﷻ قصداً منهم وإفراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي : سمعنا ما قلته يا محمد ، ولا نطيعك فيه ، هكذا فسره مجاهد وابن زيد ، وهو المراد ، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم ، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة ، وقولهم : ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أي : اسمع ما نقول لا سمعت . وقال مجاهد والحسن : واسمع غير مقبول منك . قال ابن جرير : والاول أصح ، وهو كما قال : وهذا استهزاء منهم واستهتار ، عليهم لعنة الله ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ﴾ أي : يوهمون أنهم يقولون : راعنا سمعتك بقولهم : راعنا ، وإنما يريدون الرعونة بسببهم النبي ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَتَوَلَّوْا أَنْظِرْنَا﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه : ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ﴾ يعني : بسببهم النبي ﷺ ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير ، مبعدة منه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعا .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

يقول تعالى أمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم ، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله : ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارَهَا﴾ قال بعضهم : معناه : ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ فطمسها هو ردها إلى الأدبار ، وجعل أبصارهم من ورائهم ، ويحتمل أن يكون المراد ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ فلا نبقي لها سمعاً ولا بصراً ولا أنفاً ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار . وقال العوفي عن ابن عباس : وطمسها أن تسمى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ

أَذْبَارَهَا ﴿٤٧﴾ يقول : نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم ، فيمشون القهقري ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه . وهذا أبلغ في العقوبة والنكال ، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ، ورجوعهم عن الحجّة البيضاء إلى سبيل الضلالة ، يهرعون ويمشون القهقري على أذبارهم ، وهذا كما قاله بعضهم في قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْقِبِهِمْ أَغْلَالًا فَيمَي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَصُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَكًّا ﴿٤٩﴾ الآية ، أي هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى . قال مجاهد : ﴿ مَن قَبِلَ أَنْ تَطْمِسَ وُجُوهًا ﴾ يقول : عن صراط الحق ﴿ فَزَرَدَهَا عَلَى أَذْبَارِهَا ﴾ أي في الضلال قال السدي : ﴿ فَزَرَدَهَا عَلَى أَذْبَارِهَا ﴾ فمنعها عن الحق ، قال : نرجعها كفارًا ، ونردهم قردة . قال أبو زيد : فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز .

وقوله : ﴿ أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَهْبَابَ السَّبْتِ ﴾ يعني : الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطلياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير ، وسيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف ، وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي : إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه ﴿ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : من الذنوب ﴿ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أي : من عباده ، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة منها :

عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدَّيَّانُ عِنْدَ اللَّهِ ثَلَاثَةٌ ، دِيَّوَانٌ لَا يَغْبُتُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا ، وَدِيَّوَانٌ لَا يَشْرِكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَدِيَّوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ . فَأَمَّا الدِّيَّوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ : فَالشِّرْكَ بِاللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُ مَن يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ وَأَمَّا الدِّيَّوَانُ الَّذِي لَا يَغْبُتُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا : فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ، مِنْ صَوْمِ يَوْمِ تَرَكَهُ أَوْ صَلَاةٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ ، وَأَمَّا الدِّيَّوَانُ الَّذِي لَا يَشْرِكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا : فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْقَصَاصُ لَا مَحَالَةَ » (١) .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « الظلم ثلاثة : ظَلَمَ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ ، وَظَلَمَ يَغْفِرُهُ اللَّهُ ، وَظَلَمَ لَا يَشْرِكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا : فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ : فَالشِّرْكَ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرُهُ اللَّهُ : فَظُلْمُ الْعِبَادِ لِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَشْرِكُهُ : فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَكُونَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ » (٢) .

وعن أبي إدريس قال : سمعت معاوية يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا ، أَوْ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » (٣) .

وعن أبي ذر قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة عشاء ، ونحن ننظر إلى أحد فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ قُلْتُ : لِيَبِك يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي أَحَدًا ذَاكَ عِنْدِي ذَهَبًا أُمْسِي ثَالِثَةً وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ - يعني لدين - إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا » فحشا عن يمينه ، وعن يساره ، وبين يديه ، قال : ثم مشينا ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمُ الْأَقْلَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٠/٦) والألباني في الصحيحة (١٩٢٧) .

(٢) ذكره الألباني في الصحيحة (١٩٢٧) والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٤١/١٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٦) .

هكذا وهكذا» فحشا عن يمينه ، ومن بين يديه ، وعن يساره ، قال : ثم مشينا ، فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتَيْكَ » قال : فانطلق حتى توارى عني ، قال : فسمعت لغطا فقلت : لعل رسول الله ﷺ عرض له ، قال : فهمت أن أتبعه ، قال : فذكرت قوله : لا تبرح حتى آتيك ، فانتظرت حتى جاء فذكرت له الذي سمعت فقال : « ذَاكَ جَبْرِيلُ أَنَا نِي ، فَقَالَ : مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » قلت : وإن زني وإن سرق ؟ قال : « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ » ^(١) .

وعن أبي رهم عن أبي أيوب الأنصاري قال : إن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم ، فقال لهم : « إِنَّ رِئُوسَكُمْ ﷺ خَيْرُنِي بَيْنَ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ غَفْوًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَبَيْنَ الْحَبِيبَةِ عِنْدَهُ لِأُمَّتِي » فقال له بعض أصحابه : يا رسول الله ، أيعبأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبر فقال : « إِنَّ رِئُوسِي زَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا وَالْحَبِيبَةُ عِنْدَهُ » قال أبو رهم : يا أبا أيوب وما تظن خبيثة رسول الله ﷺ ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا : وما أنت وخبيثة رسول الله ﷺ ؟! فقال أبو أيوب : دعوا الرجل عنكم ، أخبركم عن خبيثة رسول الله ﷺ كما أظن ، بل كالمستيقن ، إن خبيثة رسول الله ﷺ أن يقول : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ مُصَدِّقًا لِسَانَهُ قَلْبُهُ ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(٢) .

وعن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما تركت حاجة ولا ذا حاجة إلا قد آتيت ؟ قال : « أَلَيْسَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » ثلاث مرات ، قال : نعم ، قال : « فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ » ^(٣) .

وعن ضمضم بن جوش اليمامي قال : قال لي أبو هريرة : يا يمامي ، لا تقولن لرجل : لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الجنة أبداً . فقلت : يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب ، قال : لا تقلها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ ، وَكَانَ الْآخَرُ مُشْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَا مَتَّاعِيَيْنِ ، وَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لَا يَزَالُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ : يَا هَذَا أَقْصِرْ ، فَيَقُولُ : خَلْنِي وَرَّيْ ، أُنْبِئْتُ عَلِيَّ رَقِيبًا ؟ إِلَى أَنْ رَأَاهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ فَقَالَ لَهُ : وَيَحْكَ أَقْصِرْ ، قَالَ : خَلْنِي وَرَّيْ ، أُنْبِئْتُ عَلِيَّ رَقِيبًا ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، أَوْ لَا يَدْخُلُكَ الْجَنَّةَ أَبَدًا ، قَالَ : فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا وَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وَقَالَ لِلْآخَرِ : أَكُنْتَ عَالِمًا ، أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَي قَادِرًا ؟ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » ^(٤) .

وعن ابن عمر قال : كنا أصحاب النبي ﷺ لا نشك في قاتل النفس ، وأكل مال اليتيم ، وقاذف المحصنات وشاهد الزور حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فأمسك أصحاب النبي ﷺ عن الشهادة . وعن عبد الله بن عمر أنه قال : لما نزلت ﴿ قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية . قام رجل فقال : والشرك بالله يا نبي الله ؟

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٣٢) وأحمد في مسنده (١٥٢/٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/٥) .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (٩٣/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٨٣/١٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٢) .

فكره ذلك رسول الله ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ وهذه الآية التي في سورة تنزيل مشروطة بالتوبة ، فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ، ولهذا قال : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ أي بشرط التوبة ، ولو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه ، ولا يصح ذلك ؛ لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك ، وحكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء ، أي وإن لم يتب صاحبه ، فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وثبت عن ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » ^(١)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُلْظَمُونَ فِتْنًا ﴾ انظر كيف يَغْفِرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْفَتُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَّجْدَ لَمْ تَصِيرًا . قال الحسن وقتادة : نزلت هذه الآية وهي قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وفي قولهم : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى ﴾ ، وقال مجاهد : كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم ، ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا : إن أبناءنا توفوا وهم لنا قرية ، ويشفعون لنا ويزكونا ، فأنزل الله على محمد ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ الآية ، وعن عكرمة عن ابن عباس قل : كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم ، ويقربون قربانهم ، ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب ، وكذبوا ، قال الله : إني لا أظهر ذا ذنب بآخر لا ذنب له ، وأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ . وقيل : نزلت في ذم التماح والتركية . وعن المقداد بن الأسود قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب ^(٢) . وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يشني على رجل فقال : « وَيَحْكُ قَطَعْتَ غُتْقَ صَاحِبِكَ » ثم قال : « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسَبُهُ كَذًّا ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا » ^(٣) .

وعن معبد الجهني قال : كان معاوية قلما كان يحدث عن النبي ﷺ ، قال : وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ يقول : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خُلُوْ خَصِرٌ ، فَمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ يَبَارِكْ فِيهِ ، وَإِلَّا كُفَّ وَالتَّمَادُحُ فَإِنَّهُ الذَّبِيحُ » ^(٤) . وعن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقي الرجل ليس يملك له ضرًا ولا نفعًا فيقول له : إنك والله كيت وكيت ، فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله ، ثم قرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ الآية .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٧٥٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٦٨) وأحمد في مسنده (٩٤/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦١) ومسلم في الزهد (٦٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٩٣/٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿بَلِ اللَّهِ يَرْكُزُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله ﷻ ؛ لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ، ثم قال تعالى : ﴿وَلَا يَطْلُبُونَ قَبِيلًا﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل . وعن ابن عباس أيضًا : هو ما فلتت بين أصابعك ، وكلا القولين متقارب .

وقوله : ﴿أَنْتُمْ كَيْفَ يَنْتَظِرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ﴾ أي في تركيتهم أنفسهم ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَنًى﴾ وقولهم : ﴿لَنْ تَسَنَّا الْكَافِرَ إِلَّا أَنْيَاثًا مَقْدُودَةً﴾ واتكالمهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ الآية . ثم قال : ﴿وَكُنْ بِهَذَا إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهرًا . وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْفَاظُهُمْ﴾ أما الجبت : فقال عمر بن الخطاب : الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وقال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد وغيرهم : الجبت الشيطان ، وفي رواية عن ابن عباس : الشرك . وعنه : الأصنام . وعن ابن عباس أيضًا : الجبت حيي بن أخطب . وعن مجاهد : الجبت كعب بن الأشرف . وقال الجوهري في كتابه الصحاح : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك . قال : وليس هذا من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء في كلمة واحدة ، من غير حرف ذو لقي ، وقال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض ، والجبت قال الحسن : رنة الشيطان . وعن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت فقال : هم كهان تنزل عليهم الشياطين . وقال مجاهد : الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه ، وهو صاحب أمرهم . وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله ﷻ .

وقوله : ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي : يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . وعن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد ؟ فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنوبر قطع أرحامنا ، واتبه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً ، فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ الآية . وعن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وخطفان وبني قريظة حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وأبوراغ والربيع بن أبي الحقيق وأبو عامر ووحوح بن عامر وهودة بن قيس ، فأما وحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه ، فأنزل الله ﷻ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله ﷻ : ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مَثَلًا عَظِيمًا﴾ وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم ، وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب ، حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتْنَةَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ .

﴿ أَمْ لَمْ نَنْصِبْ لَكُمْ نَصِيبًا مِمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿ ٥٤ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ نَنْصِبْ لَكُمْ نَصِيبًا ﴾ وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك ، ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ، أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحدًا من الناس ، ولا سيما محمدًا ﷺ شيئًا ، ولا ما يملأ النقيير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم ، مع أنه لا يتصور نفاذه ، وإنما هو من بخلكم وشحكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أي بخيلًا ثم قال : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ الآية ، قال : نحن الناس دون الناس قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب ، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك ، ومع هذا ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ أي كفر به ، وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم أي من بني إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل ؟ وقال مجاهد : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ ، فالكفرة منهم أشد تكذيبًا لك ، وأبعد عما جنتهم به من الهدى ، والحق المبين ، ولهذا قال متوعدًا لهم : ﴿ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِيَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴾ ٥٥ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَندخلهم ظلًا ظليلًا .

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ أي ندخلهم نارًا دخولًا يحيط بجميع أجزائهم وأجزاءهم . ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال : ﴿ كَمَا نُصْلِيَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها أيضًا أمثال القراطيس ، وقال يحيى بن يزيد الحضرمي : يجعل للكافر مائة جلد ، بين كل جلدتين لون من العذاب . عن الحسن قوله : ﴿ كَمَا نُصْلِيَتْ جُلُودُهُمْ ﴾ الآية قال : تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة ، وعن ابن عمر قال : تلا رجل عند عمر هذه الآية : ﴿ كَمَا نُصْلِيَتْ جُلُودُهُمْ ﴾ الآية ، قال فقال عمر : أعدما علي وثم كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عندي تفسير هذه الآية ، قرأتها قبل الإسلام ، قال : فقال : هاتها يا كعب ، فإن جئت بها كما سمعت من رسول الله ﷺ صدقتك ، وإلا لم أنظر إليها ، فقال : إني قرأتها قبل الإسلام كلمات نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها في الساعة الواحدة : عشرين ومائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ .

وقال الربيع بن أنس : مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وسنه سبعون ذراعاً ، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها . وقد وردت في الحديث ما هو أبغ من هذا ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « يَعْظُمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ حَتَّى إِنْ يَسَّ شَحْمَةُ أُذُنٍ أَحَدِهِمْ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ ، وَإِنْ غَلِظَ جِلْدُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعاً ، وَإِنْ ضَرَسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ » ^(١) . وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا يغفون عنها حولاً . وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي : من الحيض والنفاس والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة كما قال ابن عباس : مطهرة من الأقدار والأذى . وقال مجاهد : مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمنى والولد . وقال قتادة : مطهرة من الأذى والمآثم ولا حيض ولا كلف . وقوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أي ظللاً عميقاً كثيراً طيباً أنيقاً ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا : شَجَرَةُ الْخُلْدِ » ^(٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

يخبر الله تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . وفي الحديث عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ امْتَمَنَكَ ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » ^(٣) ، وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه ، لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض ، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله ﷻ بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة ، كما ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الْقَرْنَائِ » ^(٤) . وعن عبد الله بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة ، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قُتِلَ في سبيل الله فيقال : أَدِّ أَمَانَتَكَ ، فيقول : فأني أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقه ، قال : فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين . قال زاذان : فأنت البراء ، فحدثه ، فقال : صدق أخي ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . وعن ابن عباس في الآية قال : هي مبهمة للبر والفاجر . وقال محمد ابن الحنفية : هي عامة للبر والفاجر . وقال أبو العالية : الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه . قال أي بن كعب : من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها . وقال الربيع بن أنس : هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس . وقال ابن عباس : يدخل فيه وعظ السلطان النساء ، يعني يوم العيد .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/٢) والعجلوني في كشف الحفاء (٤٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨١) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦ ، ٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٣٤) والترمذي في السنن (١٢٦٤) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٠) والترمذي في السنن (٢٤٢٠) .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، واسم أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأما عمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد ، وقتل يومئذ كافراً ، وإنما نهنا على هذا النسب ؛ لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا ، وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه ، عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس ، خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ، ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد ، قال ابن إسحاق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وخذهُ لا شريك له ، صدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَخَذَهُ ، أَلَا كُلُّ مَأْتِرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، إِلَّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ ، وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ » وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ؟ » فدعي له ، فقال له : « هَاكَ مِفْتَاحُكَ يَا عُثْمَانُ ، الْيَوْمَ يَوْمَ وَقَاءٍ وَبَرٍّ » ^(١) .

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك ، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا ، فحكمها عام ، ولهذا قال ابن عباس ومحمد ابن الحنفية : هي للبر والفاجر ، أي هي أمر لكل أحد .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قال ابن أسلم وغيره : إن هذه الآية ، إنما نزلت في الأمراء - يعني الحكام بين الناس - وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْحَاكِمِ مَا لَمْ يَجُزْ ، فَإِذَا جَارَ وَكَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ » ^(٢) وفي الأثر : « عَدْلُ يَوْمِ كَيْبَادَةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ بِمَا يَعْلَمُ بِهِ ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي سميعاً لأقوالكم ، بصيراً بأفعالكم . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .

عن ابن عباس ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ قال : نزلت : في عبد الله بن حذافة بن قيس ابن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ^(٣) . وعن علي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي خطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٣١٢) .

(١) السيرة لابن هشام (٥٤/٤ ، ٥٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٤) .

عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَغْزُوفِ » ^(١) . وعن عبد الله بن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ » ^(٢) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا . وَإِنْ أُمِرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زِينَةً » ^(٣) .

وعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَشْوِشُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ » قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : « أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ وَالْأَوَّلِ ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ » ^(٤) . وعن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْعًا فَكْرَهُ فَلْيَضِرْ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شَيْئًا فَيَمُوتُ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » ^(٥) . وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » ^(٦) . وعن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة ، والناس حوله مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً ، فمنا من يصلح خبائه ، ومنا من يتفضل ، ومنا من هو في جشره ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنْ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَجَعَلَتْ عَافِيَتَهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيَصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ ، وَأُمُورٌ يُتَكَبَّرُونَهَا ، وَنَجْمَةٌ فَتَنٌ يَزِفُّ بِغَضَبِهَا بَعْضًا ، وَنَجْمَةٌ الْفِتْنَةُ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ مَهْلِكَتِي ، ثُمَّ تَتَكَشَّفُ وَنَجْمَةٌ الْفِتْنَةُ يَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُخْرَجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْيَأْتِ مِيتَتَهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ، وَمَنْ بَاتَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً فَوَادِهِ فَلْيَطِيعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَارِعُهُ فَاضْرِبُوا عُتُقَ الْآخِرِ » قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله ، أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه يديه وقال : سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، ويقتل بعضنا بعضاً والله تعالى يقول : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ قال : فسكت ساعة ثم قال : أطعه في طاعة الله ، واعصه في معصية الله ^(٧) . والأحاديث في هذا كثيرة . وعن السدي في قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ قال : بعث رسول الله ﷺ سرية

(١) أخرجه البخاري أخبار الأحاد (٧٢٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري الأحكام (٧١٤٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) .

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥) ومسلم في الإمامة (٤٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٣) ومسلم في الإمامة (٥٥) .

(٦) أخرجه مسلم في الإمامة (٤٦) والنسائي في السنن (١٥٣/٧) .

(٧) أخرجه مسلم في الإمامة (٥٨) .

عليها خالد بن الوليد وفيها عمار بن ياسر ، فساروا قبل القوم الذين يريدون ، فلما بلغوا قريتا منهم عرسوا وأتاهم ذو العينتين فأخبرهم ، فأصبحوا وقد هربوا غير رجل أمر أهله فجمعوا متاعهم ، ثم أقبل يمشي في ظلمة الليل حتى أتى عسكر خالد فسأل عن عمار بن ياسر فأثاه فقال : يا أبا اليقظان إني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وإن قومي لما سمعوا بكم هربوا ، ولاني بقيت ، فهل إسلامي نافعي غداً وإلا هربت ؟ قال عمار : بل هو ينفعك فأقم ، فأقام ، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد أحداً غير الرجل فأخذه وأخذ ماله ، فبلغ عماراً الخبير فأتى خالداً فقال : خل عن الرجل فإنه قد أسلم وإنه في أمان مني ، فقال خالد : وفيما أنت تجير ؟ فاستبأ وارتفعا إلى النبي ﷺ فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية على أمير ، فاستبأ عند رسول الله ﷺ فقال خالد : يا رسول الله أترك هذا العبد الأجدع يسبني ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا خَالِدُ لَا تَسُبَّ عُمَارًا فَإِنَّهُ مِنْ سَبِّ عُمَارًا يَسُبُّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسُبَّ عُمَارًا يَسُبُّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَلْعَنَ عُمَارًا لَعَنَهُ اللَّهُ ، فغضب عمار فقام ، فتبعه خالد فأخذ بثوبه فاعتذر إليه ، فرضي عنه ، فأنزل الله ﷻ قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

وعن ابن عباس : ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ يعني أهل الفقه والدين ، والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم . وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي » (٢) فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أي : اتبعوا كتابه ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي خذوا بسنته ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ أي : فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ، وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال : « لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ » (٣) . وقوله : ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : أي إلى كتاب الله وسنة رسوله . وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة ، فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي : ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي : التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ رَزَقْنَاهُمْ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ بَيْنِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَمُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٦ فَكَفَىٰ إِذَا أَصَابْتُمُ مُصِيبَةً يَحْلِفُونَ قُلْ أَتُحِبُّونَ اللَّهَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا حُسْنًا وَتَوْفِيقًا ٧ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٨ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٩٠/٣) والطبرانی في الكبير (١٣٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (٣٣) وابن ماجه في السنن (٢٨٥٩) وأحمد في مسنده (٩٣/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٩) وأحمد في مسنده (٤٢٧/٤) .

هذا إنكار من الله ﷻ على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمّد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف . وقيل : في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام ، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك ، والآية أعم من ذلك كله ، فإنها دأمة لمن عدلوا عن الكتاب والسنة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا . ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾ إلى آخرها . وقوله : ﴿ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوكَ ﴾ أي : يعرضون عنك إعراضا كالمستكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آِبَاتِنَا ﴾ . وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ الآية .

ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتُمُ مِصْرِيَّةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أي : يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك ، إلا الإحسان والتوفيق أي المداراة والمصانعة ، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة ، وعن ابن عباس قال : كان أبو برة الأسلمي كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية فاكثف به يا محمّد فيهم ، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿ وَعَظْمُهُمْ ﴾ أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةُ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ فلا ورّيك لا يؤثرت حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيّت ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أي : فرضت طاعته على من أرسله إليهم ، وقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال مجاهد : أي لا يطيع أحد إلا بإذني ، يعني لا يطيعه إلا من وقفته لذلك ، وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ الآية ، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان ، أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال : ﴿ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ وقد ذكر جماعة ، منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتاب الشامل ، الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالسا عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

الرَّسُولُ لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَجِيمًا ﴿٦٤﴾ وقد جئتكم مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي . ثم أنشأ يقول :
يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالْقَاعِ أَغْظَمُهُ قَطَابٌ مِنْ طَيِّبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكْمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِئُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالْكَرَمُ
ثم انصرف الأعرابي ، فغلقتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : « يَا عَتِي الْحَقِّ الْأَعْرَابِي
فَبَشِّرْهُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ » .

وقوله ﴿ ٦٤ ﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴿٦٥﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا قال : ﴿ ٦٥ ﴾ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٦﴾ أي إذا حكموك بطيعونكم في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . وعن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرّة ، فقال النبي ﷺ : « اسقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ » فقال الأنصاري : يا رسول الله أن كان ابن عمك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسقِ يا زُبَيْرُ ثُمَّ اخْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَذْرِ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ » فاسترجع النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿ ٦٦ ﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴿٦٧﴾ الآية (١) .

﴿ ٦٧ ﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ﴿٦٨﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا آجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٩﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٧١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٢﴾ .

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه ؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ٦٧ ﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٦٨﴾ الآية . وعن الأعمش قال : لما نزلت ﴿ ٦٧ ﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٦٩﴾ الآية ، قال أناس من أصحاب النبي ﷺ : لو فعل ربنا لفعلنا ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لِلْإِيمَانِ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِ أَهْلِهِ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي » (٢) . وقال السدي : افتخر ثابت ابن قيس بن شماس ورجل من اليهود ، فقال اليهودي : والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا ، فقال ثابت : والله لو كتب علينا ﴿ ٦٨ ﴾ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿٦٩﴾ لفعلنا ، فأنزل الله هذا الآية . وعن عامر بن عبد الله ابن الزبير قال : لما نزلت ﴿ ٦٧ ﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴿٧٠﴾ قال رسول الله ﷺ : « لَوْ نَزَلَتْ لَكَانَ ابْنُ أُمِّ عَجِبٍ مِنْهُمْ » (٣) . ولهذا قال تعالى : ﴿ ٦٧ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴿٧١﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿ ٦٨ ﴾ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٧٢﴾ أي

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٢) وأبو داود في السنن (٣٦٣٧) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨١/٢) .

من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿ وَأَشَدَّ تَنْبِيْهًا ﴾ قال السدي : أي وأشدَّ تصديقًا ﴿ وَإِذَا لَا يَنْتَهُم مِّنْ لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يعني الجنة ﴿ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أي في الدنيا والآخرة .
ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله ، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله ﷻ يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقًا للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم . ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ . وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرَ يَسِّنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحدة شديدة فسمعته يقول : « مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » فعلمت أنه خير ^(١) .
ذَكَرَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون ، فقال له النبي ﷺ : « يَا فُلَانُ مَا لِي أَرَاكَ مَحْزُونًا ؟ » فقال : يا نبي الله ، شيء فكرت فيه ، فقال : « مَا هُوَ ؟ » قال : نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً ، فاتاه جبريل بهذه الآية ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ﴾ الآية ، فبعث النبي ﷺ فبشره ^(٢) .

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ فأثبته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سَلْ » ، فقلت : يا رسول الله ، أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : « أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ » قلت : هو ذاك ، قال : « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » ^(٣) . وعن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ آيَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ^(٤) . وعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الثَّابِتُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ » ^(٥) .

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ، ولما يلحق بهم . فقال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث ^(٦) . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاوُنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَرَاوُنَ الْكَوْكَبُ الدَّرِّيُّ الْعَايِرُ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَقَاضِلِ مَا بَيْنَهُمْ » قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بَلَى ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، رِجَالٌ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٦) وأحمد في مسنده (٢٦٩/٦) وابن ماجه في السنن (١٦٢٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٢٥/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٦) والبيهقي في السنن (١٦٩/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (١٢٠٩) والدارمي في السنن (٢٤٧/٢) .

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٥) .

أي سخر لنا من عندك وليًا وناصرًا . عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين ^(١) . ثم قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هيّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا ظُلْمُ لِمَنْ فِيهَا﴾ آيِنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ آلَمُوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ يَدْعُونَ لَمَنْ تَصْنَعُونَ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٧٥﴾ أَيُنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ آلَمُوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ يَدْعُونَ لَمَنْ تَصْنَعُونَ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٧٥﴾ أَيُنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ آلَمُوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ يَدْعُونَ لَمَنْ تَصْنَعُونَ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٧٥﴾ أَيُنَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ آلَمُوتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ يَدْعُونَ لَمَنْ تَصْنَعُونَ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٧٥﴾

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيْتَةٍ فَرَأَيْتُمْ أَنَّهَا مِنَ الْمَوْتِ وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ فَالَ الْغَوْرِ لَا يَبْكَدُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٦﴾ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَرَأَيْتُمْ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ وَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنْ لِلَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ، وإن لم تكن ذات النصب ، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين ، والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها : قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام ، وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ، فهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم داراً ومنعة وأنصاراً ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودون جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى ، فإن فيه سفك الدماء ، ويؤثم الأولاد ، وتأيم النساء . عن ابن عباس ، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال : «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم» فلما حوِّله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية ^(٢) . وعن السدي : لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة ، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال ، فلما فرض عليهم القتال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَهُ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت . قال الله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وقال مجاهد : إن هذه الآية نزلت في اليهود ، وقوله : ﴿قُلْ مَنْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه ﴿وَلَا تُلْظَمُونَ فَيَلًا﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء ، وهذه تسلية لهم عن الدنيا ، وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد . وعن هشام قال : قرأ الحسن : ﴿قُلْ مَنْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ قال : رحم الله عبداً صاحبها على حسب ذلك ، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه . وقال ابن معين كان أبو مصهر ينشد :

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ
فِي الدُّنْيَا رَجَالًا فَإِنَّهَا
مِنْ اللَّهِ فِي دَارِ الْمَقَامِ نَصِيبُ
مَتَاعٍ قَلِيلٍ وَالزُّوَالُ قَرِيبُ

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٧) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٣/٦) والحاكم في المستدرک (٦٦/٢) .

وقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَا تَكْوِيْنًا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْحٍ مُّشِيْدَةٍ ﴾ أي : أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ، ولا ينجو منه أحد منكم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الآية ، والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجيه من ذلك شيء ، سواء جاهد أو لم يجاهد ، فإن له أجلاً محتوماً ، ومقاماً مقسوماً . كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه : لقد شهدت كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، فلا نامت أعين الجناء . وقوله : ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رَيْحٍ مُّشِيْدَةٍ ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل : هي بروج في السماء ، وهو ضعيف ، والصحيح أنها المنية أي : لا يغني حذر وتحصن من الموت . كما قال زهير بن أبي سلمى :
وَمَنْ هَابَ أَشْبَابَ الْمَنَآيَا يَمْلِكُنَّ وَلَوْ رَامَ أَشْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ

ثم قيل : المشيدة : هي المشيدة كما قال : ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ ، وقيل : بل بينهما فرق ، وهو أن المشيدة بالتشديد هي المطولة ، وبالتخفيف هي الزينة بالشيد ، وهو الجص .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ حَسَنَةً ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك ﴿ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً ﴾ أي قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد ، أو نتاج أو غير ذلك ﴿ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ : أي من قبلك ، ويسبب أتباعنا لك واقتدائنا بدينك ، كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَآ إِلَهَ إِلَّا هَٰذَا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً يَلْعَنُوا بِمُؤْمِنٍ وَنَّ مَعَهُ ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً ، وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ . وقال السدي : ﴿ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ حَسَنَةً ﴾ والحسنة الخصب تنتج مواشيهم وخيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان ، قالوا : ﴿ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً ﴾ ، والسيفة الجذب والضرر في أموالهم تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا : هذه من عندك ، يقولون : بتزكنا ديننا وأتباعنا محمد أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر . وعن ابن عباس : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ : أي الحسنة والسيفة . ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم ﴿ فَإِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَفِي الْقَوْمِ لَآ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أي فمن قبيلك ، ومن عملك أنت أي بذنبك ، وقال قتادة : عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال : وذكر لنا أن النبي ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ ، وَلَا نَصَبٌ حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » ^(١) . وقال أبو صالح : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أي بذنبك ، وأنا الذي قدرتها عليك . وعن مطرف بن عبد الله قال : ما تريدون من القدر ؟ أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء ؟ ﴿ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُبَيِّنْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي من نفسك ، والله ما وكلوا إلى القدر ، وقد أمروا وإليه يصيرون ، وهذا كلام متين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضاً ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٠) والترمذي في السنن (٩٦٥) .

ولبسطة موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أي تبليغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي على أنه أرسلك ، وهو شهيد أيضًا بينك وبينهم ، وعالم بما تبليغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفرًا وعنادًا .

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ ، بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي » ^(١) . وقوله : ﴿ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أي ما عليك منه ، إن عليك إلا

البلاغ ، فمن اتبعك سبيلًا ونجى ، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء ، كما جاء في الحديث : « مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّهُ لَا يُضِلُّهُ إِلَّا نَفْسُهُ » ^(٢) . وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرُونَ الموافقة والطاعة ﴿ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ، ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد ، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم ، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه ، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزئهم على ذلك . وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تأخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخف منهم أيضًا ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي كفى به وليًا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظُّونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يقول تعالى أمرًا لهم بتدبر القرآن ، ونهايتهم عن الإعراض عنه ، وعن تفهم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ، ومخيرًا لهم ، أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ولا تعارض ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حق من حق . ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَرَأَيْتُمْ كَلِمَاتٍ أَتَتْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي لو كان مفتعلًا مختلفًا ، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ﴾ أي اضطرابًا وتضادًا كثيرًا ، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله ، كما قال تعالى - مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا - : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ أي محكمه ومتشابهه حق ، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا ، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) ومسلم في الإمارة (٣٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢١٥/٣) .

فغفروا ، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين . عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مَهْلًا يَا قَوْمُ بِهَذَا أَهْلَكِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، إِنَّمَا نَزَلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَأَعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ » ^(١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما فقال : « إِنَّمَا هَلَكِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ » ^(٢)

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذْكُوا بِهِ ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخير بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة . فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ » ^(٣) . وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : « يَفْسُ مَطِيئَةِ الرَّجُلِ زَعْمُوهُ » ^(٤) وفي الصحيح : « مَنْ حَدَّثَ بِخَبَرٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ » ^(٥) . ومعنى يستنبطونه : أي يستخرجونه من معادنه ، يقال : استنبط الرجل العين : إذا حفرها واستخرجها من قعرها . وقوله : ﴿ لَا تَتَّبِعُوا السَّيِّئِينَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، عن ابن عباس : يعني المؤمنين ، وعن قتادة : يعني كلكم . ﴿ فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ ^(٦) مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ^(٧) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِحِجَّةٍ فَعَجُوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ^(٨) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا .

يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ بأن يياشر القتال بنفسه ، ومن نكل عنه فلا عليه منه ، ولهذا قال : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ عن أبي إسحاق قال : قلت للبراء : الرجل يحمل على المشركين ، أهو من ألقى يده إلى التهلكة ؟ قال : لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال : ﴿ فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ إنما ذلك في النفقة . وعن البراء قال : لما نزلت على النبي ﷺ : ﴿ فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية ، قال لأصحابه : « قَدْ أَمَرَنِي رَبِّي بِالْقِتَالِ فَقَاتِلُوا » ^(٩) . وقوله : ﴿ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عليه ، فقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » قالوا :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨١/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٩٢) والحاكم في المستدرک (١١٢/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١٩/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٥/٤) والبيهقي في شرح السنة (٢٦٦/١١) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٨٧/٢) .

يا رسول الله أفلا نبشّر الناس بذلك ؟ فقال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَتَنَ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا يَتَنَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَسْأَلُوهُ الْفَزْدَوْسُ ؛ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » ^(١) . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا ؛ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » قال : فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علي يا رسول الله ، ففعل . ثم قال رسول الله ﷺ : « وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ مَا يَتَنُ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا يَتَنُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبث همهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابتهم . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكِيلًا ﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير ، كان له نصيب من ذلك . ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونسيه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « اشفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ » ^(٣) وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض . وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِيًا ﴾ أي حفيظًا . وقال مجاهد : شهيدًا . وفي رواية عنه : حسيبًا . وقال سعيد بن جبيرة وابن زيد : قديرا . وقال الضحاک : المقيت : الرزاق . وعن عبد الله بن رواحة وسأله رجل عن قول الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِيًا ﴾ قال : مقيت : لكل إنسان بقدر عمله .

وقوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلم ؛ فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة . وعن سلمان الفارسي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : « وَعَلَيْكَ » فقال له الرجل : يا نبي الله ، بأني أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلمّا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي . فقال : « إِنَّكَ لَمْ تَدْعُ لَنَا شَيْئًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ فَرَدَدْنَاهَا عَلَيْكَ » ^(٤) . وعن عمران بن حصين ، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم يا رسول الله ، فردّ عليه ثم جلس فقال : « عَشْرُ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله ، فردّ عليه ثم جلس فقال : « عِشْرُونَ » ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فردّ عليه ، ثم جلس فقال : « ثَلَاثُونَ » ^(٥) .

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٦) والنسائي في السنن (١٩/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٧) والنسائي في السنن (٧٨/٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨١٤) والطبراني في الكبير (٦١١٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/٤) .

وعن ابن عباس قال : من سلم عليك من خلق الله فارد عليه ، وإن كان مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ وقال قتادة ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ يعني للمسلمين ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ يعني لأهل الذمة . وهذا التزويل فيه نظر . كما تقدم في الحديث من أن المراد بأن يرد بأحسن مما حياته به ، فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام رد عليه مثل ما قال ، فأما أهل الذمة فلا يبدؤون بالسلام ولا يزدون ، بل يرد عليهم بما ثبت عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَإِنَّمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقُلْ : وَعَلَيْكُمْ » ^(١) . وعن الحسن البصري قال : السلام تطوُّع والرَّد فريضة . وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أن الرَّد واجب على من سلم عليه ، فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ وقد جاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابُّتُمْ ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بتوحيده وتفرد به بالإلهية لجميع المخلوقات ، وتضمن قسماً لقوله : ﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهذه اللام موطئة للقسام ، فقوله : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَدُّ مِنْ اللَّهِ حَيًّا ﴾ أي لا أحد أضدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعيده ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ^(٣) ودواؤهم لو تكفروا كما كفروا فتكفروا سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم وأقتلوه حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ^(٤) إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثق أو جاءكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقبلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقتلوكم وألفوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ^(٥) ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتن أركسوا فيها فإن لم يعزّلوكم ولتفوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم وأقتلوه حيث تقتلوه وأولئككم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً .

يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المناققين على قولين ، واختلف في سبب ذلك ، فقال عبد الله بن يزيد عن زيد بن ثابت : أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد ، فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين ، فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا ، هم المؤمنون ، فأمر الله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةً ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا طَيْعَةٌ ، وَإِنَّهَا تُنْفِي الْحَبْثَ كَمَا يُنْفِي الْكِبْرُ حَبْثَ الْحَدِيدِ » ^(٦) . وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش ، رجع بثلاثمائة ، وبقي النبي ﷺ في سبعمائة . وعن ابن عباس : نزلت في قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام ، وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس ، وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت ففة من

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٤) والترمذي في السنن (٢٦٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٩٠) وأحمد في مسنده (١٨٧/٥) .

المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم ، وقالت ففة أخرى من المؤمنين : سبحان الله - أو كما قالوا - أتقتلون قومًا قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به ، من أجل أنهم لم يهاجروا ، ولم يتركوا ديارهم نستحل دماءهم وأموالهم ؟ فكانوا كذلك ففتن والرسول عندهم لا ينهى واحدًا من الفريقين عن شيء ، فنزلت : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي آلِ النَّفِثِينَ فِتْنَيْنِ ﴾ . وقال زيد بن أسلم عن ابن لسعد بن معاذ : إنها نزلت في تناول الأوس والخزرج في شأن عبد الله بن أبي حين استعذر منه رسول الله ﷺ على المنبر في قضية الإفك ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي ردّهم وأوقعهم في الخطأ . قال ابن عباس : ﴿ أَرْكَسَهُمْ ﴾ أي أوقعهم . وقال قتادة : أهلكهم . وقال السدي : أضلهم . وقوله : ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ، واتباعهم الباطل ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه .

وقوله : ﴿ وَذُؤَاوُ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ أي هم يوثون لكم الضلالة لتستوا أنتم وإياهم فيها ، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ أُولِيَّةَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا أُولِيَّ الْأَلْبَانِ يُكْفِرُونَ ﴾ أي تركوا الهجرة ، وقال السدي : أظهرها كفرهم . ﴿ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ ذَرْئًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك ، ثم استثنى الله من هؤلاء فقال : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ بَيْنَةٌ ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحجروا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم . عن سراقه بن مالك المدلجي ، قال : لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأُخذ أسلم من حولهم ، قال سراقه : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج ، فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه ، فقال النبي ﷺ : « دَعُوهُ ، مَا تُرِيدُ ؟ » قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي ، وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخشن قلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال : « اذْهَبْ مَعَهُ فَأَفْعَلْ مَا يُرِيدُ » . فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، فأنزل الله : ﴿ وَذُؤَاوُ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَنَجِدُوا مِنْهُمْ أُولِيَّةَ ﴾ ^(١) فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم ، وهذا أنسب لسياق الكلام . وفي صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية ؛ فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم ^(٢) . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : نسخها قوله : ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ أَوْ جَاءَتْكُمْ حَصَرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستنئين من الأمر بقتالهم ، وهم الذين يجيئون إلى المصاف ، وهم حصرة صدورهم : أي ضيقة صدورهم ، مبغضين أن يقتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضًا أن يقتلوا قومهم معكم ، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلُوكُمْ ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم . ﴿ فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ أَلَسْتُمْ ﴾ أي المسألة ﴿ فَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أي فليس لكم أن تقتلوا ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال ، وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٨٠) .

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٣٤١) .

وقوله : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ الآية ، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك ، فإن هؤلاء قوم مناققون يظهرن للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمايتهم وأموالهم وذرائعهم ، ويصانعون الكفار في الباطن ، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ الآية . وقال ههنا : ﴿ كُلُّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴾ أي انهمكوا فيها . وقال السدي : الفتنة ههنا : الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد ، أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش ، فيرتكسون في الأوثان يتغنون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا ، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ لَمْ يَتَّزِلْكُوا وَتَلَقَّوْا إِلَيْنَا السَّلَامَ ﴾ المهادنة والصلح ﴿ وَيَكُونُوا أَدْبَارَهُمْ ﴾ أي عن القتال ﴿ فَحُدُّوهُمْ ﴾ أمراء ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿ وَأَوَّلِيْكُمْ جَمَلًا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ أي بينا واضحا .

﴿ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّتْرٌ فَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٥ ﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا .

يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، فعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثٌ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالْيَبْتُ بِالزَّانِي ، وَالنَّارُكَ لِذِيهِ الْمَقَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ » ^(١) ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . وقوله : ﴿ إِلَّا خَطَاً ﴾ قالوا : هو استثناء منقطع ، واختلف في سبب نزول هذه الآية ، فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل لأمه - وهي أسماء بنت مخزوم - وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام ، وهو الحارث بن يزيد الغامدي ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أبي الدرداء ؛ لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان ، حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه ، فقال كلمته ، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال : إنما قالها متعوداً ، فقال له : « هَلْ شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ ؟ » وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء .

وقوله : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما : الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ ، ومن شروطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة . وحكى ابن جرير عن ابن عباس والشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري أنهم قالوا : لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان ، وروي عن قتادة قال في مصحف أبي : فتحري رقبة مؤمنة لا يجزئ فيها صبي ، واختار ابن جرير أنه إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ وإلا فلا ،

(١) أخرجه البخاري في الدييات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (٢٥) .

والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صَحَّ عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً . وعن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال : يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة ، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « أَتَشْهَدِينَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَتَشْهَدِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَتُؤْمِنِينَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ الْمَوْتِ ؟ » قالت : نعم ، قال : « أَعْتَقْتُهَا » ^(١) وقوله : ﴿ وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم ، وهذه الدية إنما تجب أحياناً . وعن ابن مسعود قال : قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة ، وعشرين حقة . وقيل : تجب أرباعاً . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله ، قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة ، وهو أكثر من حديث الخاصة . وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث ، فمن ذلك ما ثبت عن أبي هريرة قال : اقتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاخصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة - عبد أو أمة - وقضى بدية المرأة على عاقلتها ^(٢) ، وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية ، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد . وعن عبد الله بن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبياناً صبياناً ، فجعل خالد يقتلهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَزْبَأُ إِلَيْكَ بِمَا صَنَعَ خَالِدٌ » . وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب ^(٣) ، وهذا الحديث منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال . وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهلها إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُمْ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ أي إذا كان القاتل مؤمناً ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَبْلٌ ﴾ الآية ، أي فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة ، أو هدنة ، فلهم دية قتلهم ، فإن كان مؤمناً فدية كاملة وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ، وقيل : ثلثها ، كما هو مفصل في كتاب الأحكام . ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة . ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين . وقوله : ﴿ تَوْبَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار ؟ على قولين :

أحدهما : نعم ، كما هو منصوب عليه في كفارة الظهار ، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥١/٣) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤٣/٨) وأحمد في مسنده (٣٨٤/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٨٩) .

تهديد وتخويف وتحذير ، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص .

والقول الثاني : لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة .

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ الآية ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله ، حيث يقول في سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الآية .

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً ، فمن ذلك : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «أَوَّلُ مَا يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ» ^(١) . وفي حديث آخر : «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» ^(٢) . وفي الحديث الآخر : «مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» ^(٣) . وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً . وعن ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحلت إلى ابن عباس فسأله عنها فقال : نزلت هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء . وقال في هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى آخرها قال : نزلت في أهل الشرك . وعنه أن رجلاً أتى إليه فقال : أرأيت رجلاً قتل رجلاً عمداً ؟ فقال : ﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ حَكِيمًا فِيهَا ﴾ الآية ، قال : لقد نزلت من آخر ما نزل ، ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي بعد رسول الله ﷺ . قال : أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ثَكَلَتْهُ أُمُّهُ ، رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ يَمِينِهِ أَوْ بَيْسَارِهِ - أَوْ آخِذًا رَأْسَهُ يَمِينِهِ أَوْ بَشِمَالِهِ - تَشْحُبُ أَوْدَاجَهُ دَمًا مِنْ قَبْلِ الْعَرْشِ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلْتَنِي » ^(٤) . وفي الباب أحاديث كثيرة ، منها : عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : «يَجِيءُ الْمُقْتُولُ مُتَعَلِّقًا بِقَاتِلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا رَأْسَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى فَيَقُولُ : يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلْتَنِي ؟ فَيَقُولُ : قَتَلْتَهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ ، فَيَقُولُ : فَإِنَّهَا لِي ، قَالَ : وَيَجِيءُ آخَرٌ مُتَعَلِّقًا بِقَاتِلِهِ فَيَقُولُ : رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلْتَنِي ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : قَتَلْتَهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ ؟ قَالَ : فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَهُ ، بُوْ يَأْتِيهِ ، قَالَ : فَيَهْوِي فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا» ^(٥) .

وعن أم الدرداء قالت : سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ، أَوْ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» ^(٦) وعن حميد قال : أتاني أبو العالية أنا وصاحب لي فقال لنا : هلمّا فأتنا أشب سنّا مني ، وأوعى للحديث مني ، فانطلق بنا إلى بشر بن عاصم فقال له أبو العالية : حدث هؤلاء حديثك فقال : حدثنا عقبه بن مالك الليثي قال :

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦١٩) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٦٢٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٠/١) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٨٤/٧) وأحمد في مسنده (٣٦٧/٥) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٥) .

بعث رسول الله ﷺ سرية فأغارت على قوم ، فشدد مع القوم رجل فأتبعه رجل من السرية شاهراً سيفه ، فقال الشاذ من القوم : إني مسلم ، فلم ينظر فيما قال ، قال : فضربه فقتله ، فمني الحديث إلى رسول الله ﷺ فقال فيه قولاً شديداً ، فبلغ القاتل ، فبينما رسول الله ﷺ يخطب إذ قال القاتل : والله ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل ، قال : فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعن من قبله من الناس ، وأخذ في خطبته ، ثم قال أيضاً : يا رسول الله ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل ، فأعرض عنه وعن من قبله من الناس ، وأخذ في خطبته ، ثم لم يصبر حتى قال الثالثة ، والله يا رسول الله ما قال الذي قال إلا تعوداً من القتل ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ تعرف المساءة في وجهه فقال : « إِنَّ اللَّهَ أُنَى عَلَى مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا ثَلَاثًا » ^(١) والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله ﷻ ، فإن تاب وأناب ، وخشع وخضع ، وعمل عملاً صالحاً ، بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته ؛ وأرضاه عن ظلامته قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ الآية ، وهذا خبر لا يجوز نسخه ، وحمله على المشركين ، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، ويحتاج حمله إلى دليل ، والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَمُودِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ الآية ، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك ، كل من تاب من أي ذلك ؛ تاب الله عليه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ، ثم سأل عالماً : هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه فمات في الطريق ، فقبضته ملائكة الرحمة ... كما ذكرناه غير مرة ، وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى ؛ لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبياً بالحنيفية السمحة . فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَشَلَّ مُؤْمِنًا تَتَعَدَّ ﴾ الآية . فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه ، ولكن لا يصح معنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه ، وكذا كل وعيد على ذنب ، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قول أصحاب الموازنة والإحباط ، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد .

وبتقدير دخول القاتل في النار ، إما على قول ابن عباس ، ومن وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به ، فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود ، هو المكث الطويل ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : « أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنِي مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ » ^(٢) . وأما حديث معاوية : « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا ، أَوِ الرَّجُلُ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » ^(٣) فعسى للترجي ، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لانتفى وقوع ذلك في أحدهما ، وهو القتل لما ذكرنا من

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٩٨) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٨/٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٤) والطبراني في الكبير (٣٦٥/١٩) .

الأدلة . وأما من مات كافراً ؛ فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة ، فإنه حق من حقوق الآدميين ، وهي لا تسقط بالتوبة ، ولكن لا بد من ردها إليهم ، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه ، والمغضوب منه ، والمقدوف ، وسائر حقوق الآدميين ، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة ، ولكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة ، فإن تمذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة ، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها ، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة ، أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم . ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَ قِيلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ الآية ، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً . ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة ، أو صيام شهرين متتابعين ، أو إطعام ، على أحد القولين ، كما تقدم في كفارة الخطأ على قولين : فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ ، فلأن تجب عليه في العمد أولى ، فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس ، واعتذروا بقضاء الصلاة المتروكة عمداً ، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ . وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر ، فلا كفارة فيه ، وكذا اليمين الغموس ، ولا سبيل إلى الفرق بين هاتين الصورتين ، وبين الصلاة المتروكة عمداً ، فإنهم يقولون بوجوب قضائها إذا تركت عمداً ، وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه واثلة بن الأسقع قال : أتني النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا : إن صاحبنا لنا قد أوجب ، قال : « فَلْيَغْتِقْ رَقَبَةً يَفْدِي اللَّهُ بِكُلِّ غَضَبٍ مِنْهَا غَضَبًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ » ^(١) . ﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبَّسُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلَقَى إِلَيْكُمْ ءَسَلَّمَ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبَتُّنُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَوَنَدَ اللَّهُ مَكَانَهُ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

عن ابن عباس قال : مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم ، فقالوا : لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إلى آخرها ^(٢) .

وأما قصة محلم بن جثامة : فعن القعقاع بن عبد الله بن أبي حذرر رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي ومحلم بن جثامة بن قيس ، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له ، معه متبع له ووطب من لبن ، فلما مر بنا سلم علينا ، فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتيعه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا : ﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ خَيْرًا ﴾ ^(٣) .

وعن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجدوهم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤١/٢) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (١١/٦) .

قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله : إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد ، فقال : « ادعوا لي المقداد ، يا مقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بـلا إله إلا الله عداً ؟ » قال : فأنزل الله : ﴿ يَأْتِيَنَّكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيِّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آفَقَ إِلَيْكُمْ أَسَلَكُمُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ للمقداد : « كَانَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ يُخْفِي إِيمَانَهُ مَعَ قَوْمٍ كُفَّارٍ فَأَظْهَرَ إِيمَانَهُ فَقَتَلَتْهُ ، وَكَذَلِكَ كُنْتَ تُخْفِي إِيمَانَكَ بِمَكَّةَ قَبْلُ » ^(١) .

وقوله : ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان ، وتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية ، لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه . وهذا مذهب سعيد بن جبير قال في قوله : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ تخفون إيمانكم في المشركين . وفي رواية : تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه ، وهذا اختيار ابن جرير . وقال ﴿ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي تاب عليكم ، فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل وما لقي من رسول الله ﷺ فيه . وقوله : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ تأكيد لما تقدم . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَائِدِينَ دَرَجَةً وَكَأَنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَتَيْنِ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وعن البراء قال : لما نزلت ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال النبي ﷺ : « ادْعُ فُلَانًا » ، فجاءه ومعه الدواة واللوح والكف ، فقال : « اكْتُبْ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم ، فقال : يا رسول الله أنا ضريح ، فنزلت مكانها ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) .

وعن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس أخبره : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر ^(٣) . ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم : إنا أعميان يا رسول الله ، فهل لنا رخصة ؟ فنزلت ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهو لاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَائِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَتَيْنِ ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر ^(٤) . فقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ كان مطلقاً ، فلما

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣١/١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٤) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٣٢) .

نزل بوحى سريع ﴿عَبْدُ أُولَى الْقَصْرِ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعدار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرضى عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدین ، قال ابن عباس : غير أولي الضرر ، وكذا ينبغي أن يكون ، كما ثبت عن حميد بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ » . قَالُوا : وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « نَعَمْ ؛ حَبَسَهُمُ الْغَدْرُ » ^(١) . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

يَا زَاجِلِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُشُومًا وَسِرْنَا نَحْنُ أَزْوَاحًا
إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى غُدْرٍ وَعَنْ قَدْرِ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى غُدْرٍ فَقَدْ رَاحَا

وقوله : ﴿وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل . وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين ، بل هو فرض على الكفاية . قال تعالى : ﴿وَقَضَى اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات ، في غرف الجنات العاليات ، ومغفرة الذنوب والزلات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحساناً منه وتكريماً ولهذا قال : ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِائَةٌ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » ^(٢) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فَلَهُ أَجْرُهُ دَرَجَةً » فقال رجل : يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : « أَمَا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِعَتَبَةٍ أَمْكُ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مِائَةٌ عَامٌ » ^(٣) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِمْ قَالُوا لِمَ كُنْتُمْ كَانُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ^(٤) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَبَلًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٥) وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاحًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

قال محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود : قطع على أهل المدينة بعث فاكثبت فيه ، فلقبت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي ، قال : أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله ، أو يضرب عنقه فيقتل ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِمْ﴾ ^(٤) وعن ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم ، قال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها فاستغفروا لهم ، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَ ظَالِمٍ لِنَفْسِهِمْ﴾ الآية . قال : فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم ، قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم التقية ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَمَنْ آتَاكَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَأَمْسِكْ إِلَيْهِ﴾ الآية . قال عكرمة : نزلت

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) والترمذي في السنن (٢٥٣٠) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٥/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٩٦) .

هذه الآية في شباب من قريش كانوا تكلموا بالإسلام بمكة ، منهم علي بن أمية بن خلف وأبو قيس بن الوليد ابن المغيرة وأبو منصور بن الحجاج والحارث بن زمة . قال الضحاك : نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة ، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فبعض أصيب ، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكناً من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع . وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِيَةً أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي بترك الهجرة ﴿ قَالُوا يَمَ كُنْتُمْ ﴾ أي لم مكتسب ما هنا وتركتم الهجرة ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي لا تقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ الآية . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ » ^(١) . وقال السدي : لما أسير العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ للعباس : « أفد نفسك وإبن أخيك » فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلك ، ونشهد شهادتك ؟ قال : « يَا عَبَّاسُ إِنَّكُمْ خَاصَمْتُمْ فَخَصَصْتُمْ » ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾ الآية ^(٢) ، وقوله : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ ﴾ إلى آخر الآية ، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ يعني طريقاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة ، وعسى من الله موجبة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فعن أبي هريرة قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال : « سَمِعَ اللَّهُ لِيْنَ حِمْدَهُ » ، ثم قال قبل أن يسجد : « اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِينِينَ كَسِينِي يُوسُفَ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبِذْهُ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حينما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه . والمرامع مصدر ، تقول العرب : راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة .

وقال ابن عباس : المزاغم : التحول من أرض إلى أرض . وقال مجاهد : ﴿ مُرْعَاً كَثِيراً ﴾ يعني مُتَرَحِّضاً عَمَّا يَكْرَهُ ، وقال سفيان بن عيينة : يعني بروجاً . والظاهر والله أعلم أنه المانع الذي يتخلص به ويرامع به الأعداء . وقوله : ﴿ وَسَعَةً ﴾ يعني الرزق . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُفْقُ فَقَدْ رَفَعَ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي ومن يخرج من منزله بيته الهجرة ، فمات في أثناء الطريق ، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر . وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » ^(٤) . وهذا عام في

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٧٨٧) والبخاري في شرح السنة (٣٧٤/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/١) . (٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٢) .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) .

الهجرة وفي جميع الأعمال . ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ، ثم أكمل بذلك العابد المائة ، ثم سأل عالماً هل له من توبة ؟ وقال له : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه . فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال هؤلاء : إنه جاء تائباً ، وقال هؤلاء : إنه لم يصل بعد ، فأمرُوا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه ، وهذه أن تبعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير ، فقبضته ملائكة الرحمة ^(١) . وعن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ - ثُمَّ قَالَ : وَأَيْنَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَخَرَّ عَنْ دَائِيهِ فَمَاتَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، أَوْ لَدَعَتْهُ دَائِيهِ فَمَاتَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، أَوْ مَاتَ خَتَفَ أَنْفِهِ ؛ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ - يَغْنِي بِخَتَفِ أَنْفِهِ عَلَى فِرَاشِهِ وَاللَّهُ إِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مَا سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَمَنْ قُتِلَ قَفْصاً ؛ فَقَدْ اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ » ^(٢) .

وعن ضمرة بن العيص الزرقى الذي كان مصاب البصر وكان بمكة فلما نزلت ﴿ إِلَّا السُّفَهَاءُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِلَّةً ﴾ فقلت : إني لغني ، وإني لذو حيلة ، فتجهّز يريد النبي ﷺ فأدركه الموت بالتنعيم ، فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُتُّ ﴾ الآية . وعن أبي مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنْ اللَّهُ قَالَ : مَنْ اتَّخَذَ خَارِجاً فِي سَبِيلِي ، غَارِياً ابْتِعَاءً وَخِجْهِي ، وَتَضِيدِي وَعِدِي ، وَإِيمَاناً يُرْسِلُنِي فَهُوَ فِي ضَمَانِ عَلَى اللَّهِ ، إِمَّا أَنْ يَتَوَفَّاهُ بِالْجَيْشِ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ فِي ضَمَانِ اللَّهِ ، وَإِنْ طَالَبَ عَبْدًا فَتَعَصَّه حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ ، وَنَالَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فَمَاتَ ، أَوْ قُتِلَ ، أَوْ رَفَصَتْهُ قَرْشُهُ ، أَوْ بَعِيرُهُ ، أَوْ لَدَعَتْهُ هَامَةٌ ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَيِّ حَتَفٍ شَاءَ اللَّهُ ، فَهُوَ شَهِيدٌ » ^(٣) .

﴿ وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي سافرتُم في البلاد . وقوله : ﴿ فَلْيَسْ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ أي تخفّفوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرابعة ثنائية ، كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك ، فمن قائل : لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد ، أو حج ، أو عمرة ، أو طلب علم ، أو زيارة ، أو غير ذلك ؛ لظاهر قوله : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . ومن قائل : لا يشترط سفر القرية . بل لا بد أن يكون مباحاً لقوله : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ الآية . كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره ، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . ومن قائل : يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق ، وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر ، وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعموم الآية ، وخالفهم الجمهور .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٢/٣) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٦/٤) . (٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢٠/٣) .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فقد يكون هذا مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عاظم ، أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة ، فلا مفهوم له كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَكُمْ عَلَى إِلَهٍ إِنْ أَرَدَنْتُمْ مَحْصَنًا ﴾ .

عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وقد أمن الناس ، فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبت مما عجبت منه ، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « صِدْقَةٌ تَصَدِّقُ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَأَقْبَلُوا صَدَقَتَهُ » ^(١) . وعن ابن عباس قال : صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين . وعن يحيى بن أبي إسحاق قال : سمعت أنسا يقول : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة ، فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة ، قلت : أقمت بمكة شيئا ؟ قال : أقمنا بها عشرا ^(٢) . وعن عبد الرحمن بن يزيد يقول : صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بنى أربع ركعات ، فقبل في ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فاسترجع ، ثم قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى ركعتين ، وصليت مع أبي بكر بنى ركعتين ، وصليت مع عمر بن الخطاب بنى ركعتين ، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان ^(٣) .

فهذه الأحاديث دالة صريحا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ، ولهذا قال من قال من العلماء : إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية ، وهو قول مجاهد والضحاك والسدي ، واعتضدوا أيضا بما رواه الإمام مالك ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر ^(٤) . فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما روي عن عمر رضي الله عنه قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان ، تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ^(٥) . وعن عبد الله بن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة ، فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها ، فكذلك يصلي في السفر ^(٦) . فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنه ، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ، ولكن زيد في صلاة الحضر ، فلما استقر ذلك صح أن يقال : إن فرض صلاة الحضر كما قاله ابن عباس والله أعلم . لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان ، وأنها تامة غير مقصورة ، كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه .

وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية . ولهذا قال بعدها : ﴿ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ الآية ، فيبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته ، ولهذا لما عقد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٠ / ١) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٩٦٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧ / ١) .

(٤) أخرجه البخاري في تصدير الصلاة (١٠٨١) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (٢٢٥ / ١) .

(٦) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٤٧) .

البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرَّيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ ^(١) وعن الضحاك في قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ قال : ذاك عند القتال ، يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه . وقال : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر فهي تمام التقصير ، لا يحل إلا أن يخاف الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة ، فالتقصير ركعة . وقال مجاهد : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا ، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم وسجودهم ، وقيامهم مقاً جميعاً ، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأثقالهم .

وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر : إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف ، ولا نجد قصر صلاة المسافر ؟ فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به ^(٢) . فقد سمي صلاة الخوف مقصورة ، وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر . وأقره ابن عمر على ذلك ، واحتج على قصر الصلاة بفعل الشارع لا بنص القرآن . وأصرح من هذا ما رواه شعبة بن سماك الحنفي قال : سألت ابن عمر عن صلاة السفر : فقال : ركعتان تمام غير قصر ، إنما القصر في صلاة المخافة ، فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال : يصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلّي بهم ركعة ، فيكون للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْلَبُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

صلاة الخوف أنواع كثيرة ، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون في غير صوبها . والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرון على الجماعة ، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة . ومن العلماء من قال : يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم ، وبه قال أحمد بن حنبل قال المنذري في الحواشي : وبه قال عطاء وجابر والحسن ومجاهد والحكم وقتادة وحمام ، وإليه ذهب طائفة والضحاك . وقد حكى عن محمد بن نصر المروزي ، أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف ، وإليه ذهب ابن حزم أيضاً . وقال إسحاق بن راهويه : أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة تومئ بها إيماء ، فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة فلعلة أراد ركعة واحدة ، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه . وبه قال جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وكعب وغير واحد من الصحابة ، والسدي ، ورواه ابن جرير ، ولكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة كما هو مذهب إسحاق بن راهويه ، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت

(١) صحيح البخاري (كتاب صلاة الخوف) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٣٦/٣) .

المكي حتى قال : فإن لم يقدر على التكبير ، فلا يتركها في نفسه يعني بالنية .

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر ، فصلاهما بعد الغروب ، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء ، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش : « لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ » فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق ، فقال منهم قائلون : لم يرد منا رسول الله ﷺ إِلَّا تعجيل المسير ، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق . وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب ، ولم يعتف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين ^(١) . وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة ، ويتبين أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر ، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً ، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد من الطائفة الملعونة اليهود ، وأما الجمهور فقالوا : هذا كله منسوخ بصلاة الخوف ، فإنها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . قال الأوزاعي : إن كان تهياً للفتح ولم يقدرُوا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه ، فإن لم يقدرُوا على الإيماء أخرُوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين ، فإن لم يقدرُوا صلوا ركعة وسجدة ، فإن لم يقدرُوا فلا يجزيهم التكبير ، ويؤخرونها حتى يأمنوا . وبه قال مكحول ، وقال أنس بن مالك : حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر ، واشتد اشتعال القتال فلم يقدرُوا على الصلاة ، فلم نصل إِلَّا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا ، قال أنس : وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . انتهى ما ذكره ، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب ، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إِلَّا في بني قريظة وكأنه كالخيار لذلك والله أعلم . ولن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى وأصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً ، ولكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب ، ولم ينقل أنه أنكر عليهم ، ولا أحد من الصحابة والله أعلم . قال هؤلاء : وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق ؛ لأن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق في قول جمهور علماء السير والمغازي ، وممن نصَّ على ذلك محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي ومحمد بن سعد كاتبه وخليفة بن الحياض وغيرهم . وقال البخاري وغيره : كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبي موسى وما قدم إِلَّا في خيبر ^(٢) والله أعلم . والعجب كل العجب أن المزني وأبا يوسف القاضي وإبراهيم بن إسماعيل بن عليّة ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها عليه الصلاة والسلام الصلاة يوم الخندق ، وهذا غريب جداً ، وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف ، وحمل تأخير الصلاة يومئذ على ما قاله مكحول والأوزاعي أقوى وأقرب ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف ، وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة - كما دل عليه الحديث - فرادى ورجالاً وركباً ، مستقبلين القبلة وغير مستقبلين ، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد ، وما أحسن ما استدلل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة ، فلولا أنها واجبة ما ساء

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف (٩٤٦) .

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب (٣٢) .

ذلك . وأما من استدلل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة فإنه استدلال ضعيف ، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ قالوا : فنحن لا ندفع زكائنا بعده ﷺ إلى أحد ، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه ، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته - أي دعاؤه سكن لنا - ومع هذا رد عليهم الصحابة وأبوهم عليهم هذا الاستدلال ، وأجبروهم على أداء الزكاة ، وقاتلوا من منعها منهم .

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها : عن أبي عياش الزرقني قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غزوتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ قال : فحضرت ، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال : فصنفا خلفه صفين قال : ثم ركع فركعنا جميعاً ، ثم رفع فرفعنا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا . جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ، ثم سلم عليهم ، ثم انصرف . قال : فصلاها رسول الله ﷺ مرتين ؛ مرة بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم ^(١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة ، فجاء رجل منهم يقال له : غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله » فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ فقال : « وَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » قال : كن خير آخذ ، قال : « أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ ؟ » قال : لا ، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلني سبيله ، فقال : جئتكم من عند خير الناس ، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف ، فكان الناس طائفتين ، طائفة بإزاء العدو ، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا ، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو ، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين ، فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين ^(٢) . وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف ، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية ، وهو أحد قولَي الشافعي ، ويدل عليه قول الله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ أي بحيث تكونوا على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيْمَا وَقَعْتُمْ وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَوْفُوتًا ۖ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٢٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٦) .

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا بعد غيرها ، ولكن ها هنا أكد ، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرام : ﴿ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ تَقْسِمًا ﴾ وإن كان هذا منهيا عنه في غيرها ، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ ﴾ أي في سائر أحوالكم . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَمَلْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي فإذا أمنتُم ، وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي فأتوموها وأقيموها ، كما أمرتم بحدودها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، وجميع شؤونها . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ قال ابن عباس : أي مفروضا ، وقال أيضا : إن للصلاة وقتا كوقت الحج . وقال ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج . وقال زيد بن أسلم : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ قال : منجمًا ؛ كلما مضى نجم جاء نجم ، يعني كلما مضى وقت جاء وقت . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَى ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم ، بل جددوا فيهم ، وقتلواهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل ، كذلك يحصل لهم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم ، من الجراح والآلام ، ولكن أنتم ترجون من الله المشوبة والبصر والتأييد ، كما وعدكم إياه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئا من ذلك ، فأنتم أولى بالجهاد منهم ، وأشد رغبة فيه ، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية ، وهو الحمود على كل حال .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْغَافِلِينَ حَاصِمًا ۝١٠٣ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٤ وَلَا تَجِدُ عَنِ الدِّينِ يُخْتَلَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ۝١٠٥ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُنْشِئُونَ مَا لَا يُرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٦ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٧ ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا لرسول الله محمد ﷺ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي هو حق من الله ، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه . وقوله : ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية ، وبما ثبت عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما قد درست ليس عندهما بيعة ، فقال : رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ الثَّارِ يَأْتِي بِهَا انْظَامًا فِي غُتْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » : فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي ، فقال رسول الله ﷺ : « أُمَّا إِذَا قُلْتُمَا فَاذْهَبَا فَاقْتَسِمَا ، ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ بَيْنَكُمَا ، ثُمَّ اسْتَهِمَا ، ثُمَّ لِيُخْلِلْ كُلُّ مِّنْكُمَا صَاحِبَهُ » (١) .

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ومسلم في الأفضية (٤) .

وعن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال : كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ينحله لبعض العرب ، ثم يقول : قال فلان : كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث ، أو كما قال الرجل ، وقالوا : ابن أبيرق قالها ، قالوا : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقه في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار ، فقدمت ضافطة من الشام من الدرملك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرملك فجعله في مشربة له ، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف ، فُعدي عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا ، قال : فتحسبنا في الدار وسألنا فقبل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوفدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم . قال : وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ؛ رجلاً منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع لبيد اختط سيفه وقال : أنا أسرق !؟ والله ليخالطنكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة !!! قالوا : إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها ، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها ، فقال لي عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، قال قتادة : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه ، فقال النبي ﷺ : « سَأْمُرُ فِي ذَلِكَ » فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له : أسيد بن عروة فكلّموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا : يا رسول الله : إن قتادة بن النعمان وعمه عمداً إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت ، قال قتادة : فأتيت النبي ﷺ فكلّمته فقال : « عَمَدْتُ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذَكَرَ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاةٌ تَزِمُهُمْ بِالْشَّرْقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ » قال : فرجعت ولوددت أنني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ فقال : الله المستعان ، فلم نلبث أن نزل القرآن ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ يعني بني أبيرق ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وَلَا تَجِدُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنْفُسَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ رَجِيمًا ﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّمَا بُيِّنَّا ﴾ . قوله للبيد : ﴿ وَلَا تَقْضُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَوَفَّيْنَاهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فلما نزل القرآن أتني رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة ، فقال قتادة : لما أتيت عمي بالسلاح ، وكان شيخاً قد عمي أو عشي - الشك من أبي عيسى في الجاهلية - وكنت أرى إسلامه مدخولاً ، فلما أتيت بالسلاح قال : يا ابن أخي هي في سبيل الله ، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً ، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين ، فنزل على سلافة

بنت سعد بن سمية ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُتَاقِ الرُّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٠٥ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعيدًا ﴿ فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها حسان بن ثابت بأبيات من شعر ، فأخذت رحله فوضعت على رأسها ، ثم خرجت به فرمته في الأبطح ، ثم قالت : أهديت لي شعر حسان ١؟ ما كنت تأتيني بخير ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ الآية ، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم ، ويجاهرون الله بها مع أنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ مَهْمُكُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ تهديد لهم ووعد ، ثم قال تعالى : ﴿ هَئَانَتْ هَوَالَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية ، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر ، وهم متعبدون بذلك ، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويح دعواهم ؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلًا ، ولهذا قال : ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ . ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٦ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٧ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِينًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١٠٨ ﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١٠٩ ﴾ .

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان . فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ عن ابن عباس : أنه قال في هذه الآية : أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه ، وسعة رحمته ، ومغفرته ، فمن أذنب ذنبا ، صغيرا كان أو كبيرا ﴿ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . وقال عبد الله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنبا ، أصبح قد كسب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئا قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد أتى الله بني إسرائيل خيرا ، فقال عبد الله ﷺ : ما آتاكم الله خير مما آتاهم ، جعل الماء لكم طهورا ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . عن حبيب بن أبي ثابت قال : جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فجرت فحبلت ، فلما ولدت قتلت ولدها ، قال عبد الله بن مغفل : لها النار ، فانصرفت وهي تبكي ، فدعاها ، ثم قال : ما أرى أملك إلا أحد أمرين ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ قال : فمسحت عينها ثم مضت . قال علي ؓ : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئا نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه . وحديثي أبو بكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذَلِكَ الذَّنْبِ ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » وقرأ هاتين الآيتين ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ

سَوَاءٌ أَوْ يَظْلِمَ نَفْسُهُ ﴿١﴾ الْآيَةُ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿٣﴾ الْآيَةُ (١) .

وقوله : ﴿٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴿٣﴾ الْآيَةُ ، يعني أنه لا يغني أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿٢﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣﴾ أي من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك . ثم قال : ﴿٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بِيَدِهِ بَرِيئًا ﴿٣﴾ الْآيَةُ ، يعني كما اتهم بنو أريق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل كما تقدم في الحديث ، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون ، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة ، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ ، ثم هذا التفرع ، وهذا التويخ عامٌ فيهم وفي غيرهم ممن اتَّصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم ، فعليه مثل عقوبتهم . وقوله : ﴿٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴿٣﴾ وعن قتادة بن النعمان ، وذكر قصة بني أريق فأنزل الله ﴿٢﴾ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴿٣﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه ، يعني بذلك لما أثنوا على بني أريق ، ولأما قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فضل القضية وجلاها لرسول الله ﷺ ، ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة ، وهي السنة ﴿٢﴾ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴿٣﴾ أي قبل نزول ذلك عليك ولهذا قال : ﴿٢﴾ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿٣﴾ .

﴿٢﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٤﴾ .

يقول تعالى : ﴿٢﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴿٣﴾ يعني كلام الناس ﴿٢﴾ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴿٣﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك ، وعن محمد بن يزيد بن حنيس قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوذه ، فدخل علينا سعد بن حسان ، فقال له الثوري : الحديث الذي كنت حدثني عن أم صالح ردده علي فقال : حدثني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كَلَامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ ، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ ﷻ ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ » فقال سفيان : أو ما سمعت الله في كتابه يقول : ﴿٢﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴿٣﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول : ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَهِيمَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول في كتابه : ﴿٢﴾ وَالنَّصِرَ ﴿٣﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٤﴾ الخ فهو هذا بعينه (٢) . وعن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُضْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيُنْجِي خَيْرًا ، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » وقالت : لم أسمع به يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها . قال : وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ (٣) . وعن أم الدرداء قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨ / ١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤١٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ومسلم في البر والصلة (١٠١) .

بِأَفْضَلٍ مَنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ ، وَالصَّلَاةِ ، وَالصَّدَقَةِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ » قال : « وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » ^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ أي مخلصاً في ذلك ، محتسباً ثواب ذلك عند الله ﷻ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شقٍّ ، والشرع في شقٍّ ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له ، وقوله : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع ، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريعاً لهم وتعظيماً لنبيهم ، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب أحاديث الأصول ، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها ، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروّي والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، وكان بعضهم قد استشكل ذلك ، فاستبعد الدلالة منها على ذلك ، ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله : ﴿ تُولَّيْهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزيهها له استدراجاً له كما قال تعالى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ هَذَا الَّذِي كَذَّبْتَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْكُمُونَ ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة ، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ لَنُخْشِرَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُؤَذِّبُهُمْ ﴾ الآية .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ^(٢) إن يدعوت من دونه إلا إنشأ وإن يدعوت إلا سيطناً مريداً ^(٣) لعنه الله وقال لا نخدّن من عبادك نصيباً مفروضاً ^(٤) ولاضلنهم ولامينهم ولامرنهم فليكن ما أذاك الأنعم ولامرنهم فليعبرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خساراً مبيناً ^(٥) يعدهم ويمينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ^(٦) أولئك ماؤنهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ^(٧) والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدّق من الله قبيلاً .

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ الآية . وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة . عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى ، وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه ، وخسرهما في الدنيا والآخرة ، وفاته سعادة الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا نَفْسَهُ ﴾ وعن عائشة رضي الله عنها : إن يدعون من دونه إلا إنشأ ^(٨) قالت : أوثاناً . وعن الضحاك في الآية : قال المشركون للملائكة : بنات الله ، وإنما نعبدنهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أرباباً وصوروهن جوارى فحكموا وقلدوا ، وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبدن يعنون الملائكة ، وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٠٩) وأحمد في مسنده (٤٤٤/٦) .

الرَّحْمَنِ إِنَّنَا ﴿١﴾ الآية . وقال : ﴿ وَسَمِعُوا مِنِّي وَلَيْسَ لِي حِسَابٌ ﴾ الآيتين . وعن ابن عباس ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِي إِلَّا إِنْنَا ﴾ قال : يعني موتى . وقال الحسن : الإناث : كل شيء ميت ليس فيه روح ، إما خشبة يابسة ، وإما حجر يابس . وقوله : ﴿ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا مَسْطَكًا مَرِيدًا ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَعَثَ إِدَامَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ الآية . وقال تعالى إخبارًا عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادَّعوا عبادتهم في الدنيا : ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً مَعَكُمْ كُفَرْتُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره ﴿ وَقَالَ لَا تَجِدَنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيًّا مَقْرُوصًا ﴾ أي معيَّنًا مقدَّرًا معلومًا . قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . ﴿ وَلَا أُصَلِّتَهُمْ ﴾ أي عن الحق ﴿ وَلَا يُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأمانى ، وأمرهم بالتسوية والتأخير ، وأغروهم من أنفسهم . قوله : ﴿ وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيَعْبُدُوا مَا آتَاكُمُ الْأَنْفُسُ ﴾ : يعني تشويقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ﴿ وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيَعْبُدُوا خَلْقَ اللَّهِ ﴾ . قال ابن عباس : يعني بذلك خصي الدواب . وقد ورد في حديث النهي عن ذلك ، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : يعني بذلك الوشم ، وفي صحيح مسلم : النهي عن الوشم في الوجه ^(١) ، وفي لفظ : لعن الله من فعل ذلك ^(٢) ، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنصصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ﷻ . ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله ﷻ يعني قوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(٣) . وقال ابن عباس في رواية عنه ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي والحسن وغيرهم في قوله : ﴿ وَلَا أَمُرُهُمْ فَلْيَعْبُدُوا خَلْقَ اللَّهِ ﴾ : يعني دين الله ﷻ ، وهذا كقوله : ﴿ فَأَقْرَرْتَهُ وَجَعَلَ اللَّيْلَ كَخَيْفٍ فَطَرَتْ أُنْثَى فطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ على قول من جعل ذلك أمرًا ، أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجْسِسَانِهِ ، كَمَا تَلِدُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُجَدُّونَ بِهَا مِنْ جَذَعَاءَ ؟ » ^(٤) . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفاتها .

وقوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى في ذلك ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما قال تعالى مخبرًا عن إبليس يوم المعاد : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ لَنَفِيٍّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومثاهم ﴿ مَا وَدَّعْتُمْ جَهَنَّمَ ﴾ أي مصيرهم

(١) أخرجه مسلم في اللباس (١٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٧/٣) والحاكم في المستدرک (٢٩٠/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٩٥٣١) ومسلم في اللباس (١٢٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأبو داود في السنن (٤٧١٤) .

ومآلهم يوم القيامة ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ، ولا خلاص ، ولا مناص . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي صدقت قلوبهم ، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاعوا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أي هذا وعد من الله ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكدته بالمصدر الدال على تحقيق الخبر ، وهو قوله : ﴿ حَقًّا ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً أي خبراً ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : « إِنْ أَصْدَقَ الْحَدِيثَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَدَّنَاتُهَا ، وَكُلُّ مُخَدَّنَةٍ بِذَعَةٍ ، وَكُلُّ بِذَعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ » (١) .

﴿ لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا يُصِيرَ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَطْلُمُونَ فِيهَا ﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا .

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله ؛ فأنزل الله ﴿ لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ الآية . ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان . وقال مجاهد : قالت العرب : لن نبعث ولن نعذب ، وقالت اليهود والنصارى : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا ﴾ وقالوا : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُورَاتٍ ﴾ والمعنى في هذه الآية : أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وفر في القلوب وصدقه الأعمال ، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال : إنه هو على الحق شمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان . ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ، ولهذا قال بعده : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ .

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة ، فعن أبي بكر بن أبي زهير قال : أخبرت أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ﴿ لَيْسَ بِإِيمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به ؟ فقال النبي ﷺ : « غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ، أَلَسْتَ تُصَيِّتُكَ الْأَوْءَاءُ ؟ ! » قال : بلى ، قال : « فَهُوَ بِمَا تُحْزَنُونَ بِهِ » (٢) . قال عبد الله بن عمر : انظروا المكان الذي فيه عبد الله بن الزبير مصلوباً ،

(١) أخرجه النسائي في السنن (١٨٨/٣) وأحمد في مسنده (٣١٠/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١/١) والحاكم في المستدرک (٧٤/٣) .

فلا تموتن عليه ، قال : فسها الغلام فإذا عبد الله بن عمر ينظر إلى ابن الزبير ، فقال : يغفر الله لك ثلاثاً ، أما والله ما علمتك إلا صوّاماً قوّاماً وصّالاً للرحم ، أما والله إني لأرجو مع مساوئ ما أصبت أن لا يعذبك الله بعدها ، قال : ثم التفت إليّ فقال : سمعت أبا بكر الصديق يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا فِي الدُّنْيَا يُجْزَ بِهِ » ^(١) . وعن ابن عمر يحدث عن أبي بكر الصديق قال : كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَا أَقْرَبُكَ آيَةٌ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : فأقرأنها فلا أعلم أنني قد وجدت انفصاماً في ظهري حتى تمطّيت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وأينما لم يعمل سوءاً ؟ وأنا لمجرئون بكل سوء عملناه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَصْحَابُكَ الْمُؤْمِنُونَ : فَإِنَّكُمْ تُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ لَيْسَ لَكُمْ دُنُوبٌ ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ : فَيَجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٢) .

وعن علي بن زيد عن ابنته سألت أنها سألته عن هذه الآية ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقالت : ما سألتني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ ، سألت رسول الله ﷺ فقال : « يَا عَائِشَةُ هَذِهِ مُبَايَعَةُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْحُمَى وَالنَّكْبَةِ وَالشُّوْكَ ، حَتَّى الْبَضَاعَةِ ، فَيَضَعُهَا فِي كُمِّهِ فَيَفْرُغَ لَهَا فَيَجِدَهَا فِي جَبِّهِ ، حَتَّى إِنْ الْمُؤْمِنُ لَيُخْرِجَ مِنْ دُنُوبِهِ كَمَا أَنَّ الذَّهَبَ يُخْرِجُ مِنَ الْكَبِيرِ » ^(٣) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : لما نزلت ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ شق ذلك على المسلمين ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « سَدُّوا وَقَارِئُوا ، فَإِنْ فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ ، حَتَّى الشُّوْكَ يُشَاكُهَا وَالنَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا » ^(٤) . وعن أبي سعيد وأبي هريرة أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الِهِمُّ يَهْمُهُ إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سَيِّئَاتِهِ » ^(٥) .

وعن الحسن ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ قال : الكافر ثم قرأ : ﴿ وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴾ . وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبیر أنهما فسرا السوء ههنا بالشرك أيضاً . وقوله : ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ قال ابن عباس : إلا أن يتوب فيتوب الله عليه . والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدّم من الأحاديث ، وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية ، لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ حقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له ، وإما في الآخرة والعياذ بالله من ذلك ، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة ، والصفح والعفو والمسامحة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكرانهم وإناتهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير ، وهو النقرة التي تظهر في ظهر نواة التمرة . وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٦/١) والحاكم في المستدرک (٧٥٣/٣) . (٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٣٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٩٥/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) والترمذي في السنن (٢١٤١) ومسلم في صفات المنافقين (٧٨) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٢) والبخاري في المرض (٥٦٤١) وأحمد في مسنده (١٨٠/٣) .

وهذا التقير ، وهما في نواة التمرة ، والقطمير وهو اللقافة التي على نواة التمرة ، والثلاثة في القرآن .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي أخلص العمل لربه ﷻ ، فعمل إيماناً واحتساباً ﴿ وَهُوَ تَحِيَّيْنٌ ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متابعاً للشرعية ، فيصيح ظاهره بالمطاعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمن فقد الإخلاص كان منافقاً ، وهم الذين يراعون الناس ، ومن فقد المطاعة كان ضالاً جاهلاً ، ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿ الَّذِينَ تَقَبَّلَ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَتَى النَّاسَ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ الآية . والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً ، أي تارك له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليته ، لا يصد عنه صاذاً ، ولا يرده عنه راد .

وقوله : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ؛ لأنه إمام يقتدى به ، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلقة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ، كما وصفه به في قوله : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ . قال كثير من علماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، وفى كل مقام من مقامات العباد ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير ، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه ﷻ ، لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها . ولهذا روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : « أَمَا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ : فَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ » (١) . وعن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج ، حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجب إن الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً ، وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم وقال : « قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَتَعْجَبُكُمْ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ ، وَمُوسَى كَلِيمُهُ ، وَعِيسَى رُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ ، وَأَدَمُ اصْطِفَاةُ اللَّهِ ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ : أَلَا وَإِنِّي حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ سَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشْفَعٍ وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحْرَكُ حَلَقَةُ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ وَيُدْخِلُهَا وَمَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ ، وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ » (٢) . وعن إسحاق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجع ، حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء ، وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ ، أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء (٣) .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلق ، وهو المتصرف في

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٦) ومسلم في فضائل الصحابة (٢ - ٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٦١٦) والدارمي في السنن (٢٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٤) ، والنسائي في السنن (١٣/٣) .

جميع ذلك ، لا راءاً لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل ، لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِي شَيْءً وَنَحِيطًا ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عبادته ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ قالت عائشة : تَوَوَّهْنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْمِنِينَ مِنْ أَوْلَادِنِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا .

﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركه في ماله حتى في العلق ، فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوجه رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها ، فنزلت هذه الآية ^(١) . وعنها أيضًا قالت : وقول الله ﷻ : ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنها أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن ^(٢) . والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله ﷻ ، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر ، فنها الله ﷻ أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركه في ماله الذي بينه وبينها . وقال في قوله : ﴿ وَالْمُسْتَضْمِنِينَ مِنْ أَوْلَادِنِ ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ، وذلك قوله : ﴿ لَا تَوَوَّهْنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ فنهاي الله عن ذلك ، وبين لكل ذي سهم سهمه ، فقال : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ صغيراً أو كبيراً ، وقال سعيد بن جبيرة في قوله : ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثرت بها . وقوله : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ تهيجاً على فعل الخيرات ، وامثالاً للأوامر ، وأن الله ﷻ عالم بجميع ذلك وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه .

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَهِلْمِهَا شُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَمْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝ وَإِنْ يَنْفَرَا بَيْنَ اللَّهِ كُفْلًا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا .

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً من حال الزوجين : تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفاقه معها ، وتارة في حال فراقه لها . فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها ، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه ، من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه ، وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَا

(٢) أخرجه مسلم في التفسير (٦) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٠) .

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴿١٢٨﴾ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴿١٢٩﴾ أي من الفراق . وقوله : ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق ، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها ، فصالحته على أن يسكها وترك يومها لعائشة ، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك .

عن ابن عباس قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ، ففعل ، ونزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ أَمْرَأُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الآية . قال ابن عباس : فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز ^(١) . وعن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت له : يا ابن أختي : كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا ، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا ، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها ، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسئت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ : يا رسول الله يومي هذا لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله ﷺ ، قالت عائشة : ففي ذلك أنزل الله : ﴿وَإِنْ أَمْرَأُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ ^(٢) .

وعن ابن سيرين قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فسأله عن آية فكرهه فضره بالدرة ، فسأله آخر عن هذه الآية ﴿وَإِنْ أَمْرَأُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ ثم قال : مثل هذا فاسألوا ، ثم قال : هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سئها ، فيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها ، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز . وعن خالد بن عرعة قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله ﷻ : ﴿وَإِنْ أَمْرَأُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ قال علي : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عينها عنها من دماستها ، أو كبرها ، أو سوء خلقها ، أو قذوها ؛ فتكره فراقه ، فإن وضعت له من مهرها شيئا حل له ، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج ^(٣) . وكذا فسرها ابن عباس وعبيدة السلماني ومجاهد ابن جبير والشعبي ، وسعيد بن جبيرة وعطاء ، وعطية العوفي ومكحول والحسن والحكم بن عتبة وقتادة وغير واحد من السلف والأئمة ، ولا أعلم في ذلك خلافاً أن المراد بهذه الآية هذا ، والله أعلم .

وقال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار إن السنة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله ﷻ فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته في قوله : ﴿وَإِنْ أَمْرَأُ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا أَوْ إِعْرَاصًا﴾ إلى تمام الآيتين ، أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها ، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القسم من ماله ونفسه ، صلح له ذلك ، وكان صلحها عليه ، كذلك ذكر سعيد بن المسيب وسليمان الصلح الذي قال الله ﷻ : ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري - وكان من أصحاب النبي ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وآثر عليها الشابة ، فناشدته الطلاق ، فطلقها تطليقة ثم أمهلها ، حتى إذا كادت تحمل راجعها ، ثم عاد فآثر عليها الشابة ، فناشدته الطلاق فقال لها : ما شئت إنما بقيت لك تطليقة واحدة ، فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة ، وإن شئت فارقتك ؟ فقالت : لا بل أستقر على الأثرة فأمسكها على ذلك ، فكان ذلك صلحهما ، ولم ير رافع عليه إثما حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما آثر به عليها .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٠) . (٢) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣٥) والحاكم في المستدرک (١٨٩/٢) .

(٣) تفسير الطبري (٤١٣/٥ ، ٤١٤) .

وقوله : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ قال ابن عباس : يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفراق ، خير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها ، والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج ، وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها ، بل تركها من جملة نساؤه ، وفعله ذلك لتأشئ به أمته في مشروعية ذلك وجوازه ، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ بل الطلاق بغيبض إليه ﷺ ، ولهذا جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ » ^(١) . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ قَاتِلَ اللَّهِ فَاتَّخِذُوا اللَّهَ كَأَن تَحْمِلُونَهُمْ جَإِزًا ﴾ وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهم ، وتقسّموا لهم أسوة أمثالهم ، فإن الله عالم بذلك ، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساوا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة ، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع ، وعن ابن أبي مليكة قال : نزلت هذه الآية ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدُلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ في عائشة ، يعني أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها ، كما جاء في الحديث ؛ فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نساؤه فيعدل ، ثم يقول : « اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ ، فَلَا تُلْغِنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ » يعني القلب ^(٢) . وقوله : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهم فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فَتَذَرُوهَا كَالْمَمْلُوقَةِ ﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة . قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضحاك والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وآخرون : معناه : لا ذات زوج ولا مطلقة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا ؛ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَيقَيْهِ سَاقِطٌ » ^(٣) . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم ، وقسمتم بالعدل فيما تملكون ، واتقيتم الله في جميع الأحوال ؛ غفر الله لكم ما كان في ميل إلى بعض النساء دون بعض . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَفْرَقَا يَحْزِنَ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ . وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ وهذه هي الحالة الثالثة ، وهي حالة الفراق ، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه ، بأن يعوضه الله من هو خير له منها ، ويعوضها عنه بما هو خير لها منه ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المن ، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ وَإِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَوَنَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢١٠٨) وأبو داود في السنن (٢١٧٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١١٤٠) وأبو داود في السنن (٢١٣٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٣٣) ، الدارمي في السنن (١٤٣/٢) .

مِنْ قَلْبِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴿١٣١﴾ أَي وَصِيَّاكُمْ بِمَا وَصِيَانَهُمْ بِهِ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ
 قَالَ : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية . كما قال تعالى إِنْخَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ
 لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ فَكْفُرُوا وَلَوْ أَنَّكُمْ كُفَرْتُمْ بِاللَّهِ وَاللَّهُ عَنِ
 حَيْثُ ﴾ أَي غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَي مَحْمُودٌ فِي جَمِيعِ مَا يَقْدَرُهُ وَيُشْرَعُهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَي هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ وَكَأَنَّ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرٌ ﴿ أَي هُوَ قَادِرٌ عَلَى
 إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بِغَيْرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ ، قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَا أَهْوَنُ الْعِبَادَةِ عَلَى اللَّهِ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ ،
 وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ أَي وَمَا هُوَ عَلَيْهِ بِمَمْتَنِعٍ .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أَي يَا مَنْ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الدُّنْيَا ،
 اعْلَمْ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَعْطَاكَ وَأَغْنَاكَ وَأَقْنَاكَ ، وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ
 جَرِيرٍ أَنَّ الْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ أَي مِنَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ لِأَجْلِ
 ذَلِكَ ﴿ فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وَهُوَ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَغَانِمِ وَغَيْرِهَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ . وَقَوْلُهُ :
 ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ أَي وَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَهُوَ مَا أُذْخِرَ لَهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ
 الْآيَةَ مَعْنَاهَا ظَاهِرٌ ، وَأَمَّا تَفْسِيرُهَا الْآيَةَ الْأُولَى بِهَذَا فَفِيهِ نَظَرٌ ، فَإِنْ قَوْلُهُ : ﴿ فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾
 ظَاهِرٌ فِي حَصُولِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَي يَبْدُو هَذَا وَهَذَا ، فَلَا يَقْتَصِرُنَّ قَاصِرُ الْهِمَّةِ عَلَى السَّعْيِ لِلدُّنْيَا
 فَقَطْ ، بَلْ لَتَكُنْ هِمَّتُهُ سَامِيَةً إِلَى نَيْلِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنْ مَرَجَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى الَّذِي
 بِيَدِهِ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الَّذِي قَدْ قَسَمَ السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
 وَعَدَلَ بَيْنَهُمْ فِيمَا عَلِمَهُ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا وَمَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أَوْ كُفْرًا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ أَي بِالْعَدْلِ ، فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، وَلَا
 تَأْخُذَهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَلَا يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ صَارْفٌ ، وَأَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَاوِدِينَ
 مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَرَافِقِينَ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ ﴾ أَي أَدْوَاهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فَحَيْثُ
 تَكُونُ صَحِيحَةٌ عَادِلَةٌ حَقًّا ، خَالِيَةٌ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّكْتِمَانِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أَي
 أَشْهَدُ الْحَقَّ وَلَوْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقُّ فِيهِ وَلَوْ عَادَتْ مُضَرَّتُهُ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ
 سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرْجًا وَمَخْرَجًا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ أَي وَإِنْ كَانَتْ
 الشَّهَادَةُ عَلَى وَالِدِكَ وَقَرَابَتِكَ فَلَا تَرَاعَهُمْ فِيهَا ، بَلْ أَشْهَدُ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَادَ ضَرَرُهَا عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَاكِمٌ
 عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أَوْ كُفْرًا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أَي
 اللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا ، بَلْ هُوَ أَوْلَى بِهِمَا مِنْكَ . وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أَي
 فَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ الْهَوَى وَالْعَصِيَّةُ وَبَغْضُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أَمْرِكُمْ وَشُؤْنِكُمْ ، بَلْ الزَّمُوا الْعَدْلَ
 عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ لَمَّا بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُصُ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ ثَمَارَهُمْ

وزرورهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي ، ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي لإياه ، وبغضي لكم ، على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ نَزَرْتُمْ ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف : ﴿ تَلَوُّا ﴾ أي تحمفوا الشهادة وتغيروها ، واللي هو التحريف وتعمد الكذب . والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، وقال النبي ﷺ : « خَيْرُ الشَّهَادَةِ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » ^(١) ولهذا توعدهم الله بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَمْلُونُ حَيًّا ﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِآلِهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانها ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيت والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي بصّرنا ، وزدنا هدى ، وثبتنا عليه ، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْشَأُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن : ﴿ نَزَّلَ ﴾ لأنه نزل مفردا منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ؛ لهذا قال تعالى : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ^(١) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَنُوكَ عَنْهُمْ أَلْفَوْهُوَ عِنْدَهُمْ أَلْفَوْهُوَ فَإِنَّ أَلْفَوْهُ لَوَ جَمِيعًا ﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَلْفَوْهُ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ يَنْتَهَبُ عَنْهُمُ اللَّهُ جَمِيعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ، ثم رجع عنه ثم عاد فيه ، ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا ولا طريقا إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَدَّادُوا كُفْرًا ﴾ قال : تبادوا على كفرهم حتى ماتوا . وعن علي ؓ أنه قال : يُسْتَابِ الْمُرْتَدُّ ثَلَاثًا ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ ثم قال : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم ، إذا خلوا بهم : إنا نحن معكم إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة . قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين : ﴿ أَلْيَنُوكَ عَنْهُمْ أَلْفَوْهُوَ فَإِنَّ أَلْفَوْهُ لَوَ جَمِيعًا ﴾ ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ، ولن

جعلها له ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ ، والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله ، والإقبال على عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث الذي روي عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ قال : « مَنْ اِتَّسَبَ إِلَى تَشَعُّعِ آبَاءِ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَفَخَرًا فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا نِتْلُهُمْ ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ بها ، وأقررتهم على ذلك ، فقد شاركتهم في الذي هم فيه . فلهذا قال تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا نِتْلُهُمْ ﴾ في المآثم كما جاء في الحديث : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَخْلُسُ عَلَى مَا يَدَّارُ عَلَيْهَا الْخُفَرُ » (٢) . والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكة : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَآثِنٍ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ الآية . قال مقاتل بن حيان ، حين نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام يعني نسخ قوله : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا نِتْلُهُمْ ﴾ لقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ جِثَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزلال .

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذُوا عَلَيْنَكُمْ وَنَسَمَعَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ قَالَهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يترَبَّصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملتهم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ ﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أي يتوَدَّدون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة ﴿ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذُوا عَلَيْنَكُمْ وَنَسَمَعَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ ﴾ أي ساعدناكم في الباطن ، وما ألواناهم خبالاً وتخديلاً حتى انتصرتهم عليهم . وقال السدي : ﴿ تَسْتَحِذُوا عَلَيْنَكُمْ ﴾ : نغلب عليكم ، وهذا أيضاً توَدَّد منهم إليهم ؛ فإنهم كانوا يصنعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم . قال تعالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ ﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة ، فلا تغفروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا لما له في ذلك من الحكمة ، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور . وقوله : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . عن سبيع الكندي قال : جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . فقال علي عليه السلام : أذنه أذنه ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وعن ابن عباس ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي حجة . ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أي في الدنيا بأن يسלטوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية ، وإن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨٠١) .

حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية ، وعلى هذا يكون رؤا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى : ﴿ قَتَلْنَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُدْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ تَذِيبِينَ ﴾ وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافرين ، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا يَهْدِي اللَّهُ لَكُمْ سَبِيلًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ لا شك أن الله لا يخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم ، كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرا ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده ، كما أخبره تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْهَتُهُمُ اللَّهُ جِمْمَا يَبْتَلِغُونَ لَكُمْ كَمَا يَبْلُغُونَ لَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقِنَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُونَا نَقْتِسَبَ مِنْ فُرْقَتِكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَقْسُ الْمُتَصِيبُ ﴾ وقد ورد في الحديث : « مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ » ^(١) . وقوله : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا ﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ؛ إذا قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ولا خشية ، ولا يعقلون معناها . كما روي عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة ، شديد الفرح ؛ فإنه يناجي الله ، وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا ﴾ . فقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا ﴾ هذه صفة ظواهرهم .

ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة فقال : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ أي لا إخلاص لهم ، ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة . ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يؤرون فيها غالبا ، كصلاة العشاء في وقت العتمة ، وصلاة الصبح في وقت الغلس ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَّ بِالصَّلَاةِ فَتَنَامَ ، ثُمَّ أَمُرَّ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ أَطْلُقَ مَعِيَ بِرَجَالٍ وَمَعَهُمْ حَزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ يَتُوتَهُمْ بِالنَّارِ » ^(٢) . وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو ، فَلَيْتَ اسْتِهَانَةً اسْتِهَانََ بِهَا رَبُّهُ ﷻ » ^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) والترمذي في السنن (١٠٩٧) وأحمد في مسنده (٤٥/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٣) وأحمد في مسنده (٢٤٢/٢) . (٣) أخرجه البيهقي في السنن (٢٩٠/٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعمّا يراد بهم من الخير معرضون . وقد روي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ يَمِينَ قَرْنِي الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَتَقَرَّ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » (١) .

وقوله : ﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا ، بل ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين ، ومنهم من يعتربه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك ﴿ كَلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَشْرًا فِيهِ وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ الآية . وقال مجاهد ﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ ﴿ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ يعني اليهود . عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ ، تُعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً ، وَلَا تَذَرِي أَيُّهُمَا تَتَّبِعُ » (٢) .

وعن قتادة ﴿ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ يقول : ليسوا بمؤمنين مخلصين ، ولا مشركين مصرحين بالشرك ، قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر ، كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر ، فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر : أن هلم إلي فإني أخشى عليك ، وناداه المؤمن أن هلم إلي فإن عندي وعندني يحظى له ما عنده ، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى أذى ففرقه ، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك . قال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ نَاعِيَةٍ بَيْنَ غَنَمَيْنِ رَأَتْ غَنَمًا عَلَى نَشْرٍ فَأَتَتْهَا وَشَامَتْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ ، ثُمَّ رَأَتْ غَنَمًا عَلَى نَشْرٍ فَأَتَتْهَا فَشَامَتْهَا فَلَمْ تَعْرِفْ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَجِدْ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ فإنه ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَهُ ﴾ والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم مما هم فيه ؛ فإنه تعالى لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا إِلَهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ١٥ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٦ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٧ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٨ ﴾ .

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ، ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ نُفَقَةً وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَتَّخِذُكُمْ أَيُّ يُحَذِّرُكُمْ عِقَابِهِ فِي ارتكابكم نهيهم ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا إِلَهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم . وعن ابن عباس قوله : ﴿ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ قال :

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٩٥) والترمذي في السنن (١٦٠) .

(٢ ، ٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (١٧) بلفظ : « مثل المنافقين كمثل الشاة بين الغنمين .. » والنسائي في السنن (٢٢٤ / ٨) .

كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْكُفَّيْنِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ . قال ابن عباس : ﴿ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ : أي في أسفل النار ، وقال غيره : النار دركات ، كما أن الجنة درجات ، وعن أبي هريرة : ﴿ إِنَّ الْكُفَّيْنِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ قال : الدرك الأسفل : بيوت لها أبواب تطبق عليهم ، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم . وعن عبد الله بن مسعود : ﴿ إِنَّ الْكُفَّيْنِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ قال : في توابيت من نار تطبق عليهم ، أي مغلقة مغلقة . ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه ، وقبل ندمه إذا أخلص في توبته ، وأصلح عمله ، واعتصم بربه في جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاتَّعَمَّصُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص ، فبنفعهم العمل الصالح وإن قل . وعن معاذ بن جبل : أن رسول الله ﷺ قال : « أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ » ^(١) ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي في زمرة يوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال تعالى : مخبراً عن غناه عما سواه ، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم ، فقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ أي أصلحتم العمل وأتمتم بالله ورسوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أي من شكر شكر له ، ومن آمن قلبه به ، علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء . ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ^(٢) إِنْ بُدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوَى فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا .

عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ وإن صبر فهو خير له . وعن عائشة قالت : سرق لها شيء فجعلت تدعو عليه ، فقال النبي ﷺ : « لَا تَسْبِخِي عَنْهُ » ^(٣) . وقال الحسن البصري : لا يدعو على ، وليقل : اللهم أعني عليه ، واستخرج حقي منه . وفي رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه . وقال عبد الكريم بن مالك الجزري : في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتري عليه لقوله : ﴿ وَلَكِنْ أَنْتُمْ بَدَّ عَلَيْنِهِمْ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ . وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الْمُشْتَبَانِ مَا قَالَا : فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَغْتَدِ الْمُظْلُومُ » ^(٤) . وعن مجاهد في قوله : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ قال : ضاف رجل رجلاً لم يؤد إليه حق ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلاناً فلم يؤد إليّ حق ضيافتي ، قال : فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته . وعن عتبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول الله إنك تبعنا فننزل بقوم فلا يُقرونا ، فما ترى في ذلك ؟ فقال : « إِذَا نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَأَقْبَلُوا مِنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ » ^(٥) .

وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إن لي جارا يؤذيني ، فقال له : « أَخْرِجْ مَتَاعَكَ فَصَعِّهْ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٦/٤) والمنذري في الترغيب (٥٤/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٨١) وأبو داود في السنن (٤٨٩٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٤) .

عَلَى الطَّرِيقِ » فَأَخَذَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ فطرحه على الطريق ، فكل من مر به قال : ما لك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللَّهُمَّ العنه اللهم اخزه ، قال : فقال الرجل : ارجع إلى منزلك والله لا أؤذك أبداً^(١) .
وقوله : ﴿ إِنْ يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُنَفِّوْهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتهم عمن أساء إليكم ، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث الصحيح : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ »^(٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾^(٣) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .
يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فأمنوا ببعض الأنبياء ، وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصية . فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والجوس يقال : إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء ، فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته للحسد أو العصية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً ، إنما هو عن غرض وهوى وعصية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي في الإيمان ﴿ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي طريقاً ومسلكاً .

ثم أخبر تعالى عنهم فقال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به ؛ لأنه ليس شرعياً ؛ إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، ومن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه ، أو نظروا حق النظر في نبوته . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه ، وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته ، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿ وَشَرِيتَ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِعَصْيِ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٦٥/٤) . (٢) أخرجه الترمذی في السنن (٢٠٢٩) والطبرانی في الكبير (٤٠٥/١١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبي بعثه الله ، كما قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل ، والثواب الجليل ، والعطاء الجميل ، فقال : ﴿ أُولَئِكَ سَوْفَ يُجْزَوْنَهُمْ ﴾ على ما آمنوا بالله ورسوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي لذنوبهم أي إن كان لبعضهم ذنوب .

﴿ يَسْتَلِكْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَازِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ فَأَلْبَنَتْ عَلَيْهِمْ فَفَعَلُوا عَن ذَلِكَ وَمَا آتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ٥٠ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّهُمْ ادْخُلُوا الْآبَابَ مُجَذَّاتٍ ٥١ وَفَلْنَا لَهُمْ لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثْقَلًا غَلِيظًا ٥٢ ﴾ .
وقال محمد بن كعب القرظي والسدي وقادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة . قال ابن جريج : سأله أن ينزل عليهم صحفا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعت والعدا والكفر والإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة سبحان : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَجُورَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴾ والآيات . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم ، وعتوهم وعنادهم ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ فَأَلْبَنَتْ ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ في بلاد مصر ، وما كان من إهلاك عدوهم فرعون وجميع جنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيرا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ الآية . ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطه في سورة الأعراف وفي سورة طه بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله ﷻ ، ثم لما رجع وكان ما كان جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده ، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، ثم أحياهم الله ﷻ . وقال الله تعالى : ﴿ فَعَقَوْا عَنْ ذَلِكَ وَمَا آتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ لَّهُمْ ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى ﷺ ، رفع الله على رؤوسهم جبلا ، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم ، ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْآبَابَ مُجَذَّاتٍ ﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل ، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجدًا ، وهم يقولون حطة ، أي اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، حتى تهنا في التيه أربعين سنة ، فدخلوا يرحفون على أستاذهم وهم يقولون : حنطة في شعرة ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَقْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعا لهم ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِثْقَلًا غَلِيظًا ﴾ أي شديدا فخالفوا وعصوا وتمحلوا على ارتكاب ما حرم الله ﷻ .

﴿ فَمَا نَقِضِهِمْ مِّثْقَلَهُمْ ذِكْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَلِيلٌ مِّنَ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكْفُرْهُمْ فَمَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٥٣ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بَثُّنَا عَظِيمًا ٥٤ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنَّ شَيْءًا لَّمْ يَكُنْ لِّلَّذِينَ ائْتَمَلُوا فِيهِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٥٥ ﴾

الظُّلَىٰ وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٥﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٧﴾ .

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله - أي حججه وبراهينه - والمعجزات التي شاهدها على يد الأنبياء ﷺ . قوله : ﴿ وَقَالُوا الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جمًّا غفيرًا من الأنبياء ﷺ . وقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقادة وغير واحد : أي في غطاء ، وهذا كقول المشركين ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ ﴾ الآية . وقيل : معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم ، أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته . فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول ؛ لأنها في غلف وفي أكنة ، قال الله : بل هي مطبوع عليها بكفرهم . وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان ، وقلة الإيمان ﴿ وَبَكَفَرِهِمْ ﴾ وقولهم على مريم بنت مريم عظيمًا ﴿ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يعني أنهم رموها بالزنا . وكذلك قال السدي وجوير ومحمد بن إسحاق وغير واحد وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم ، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم : وهي حائض ، فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء . وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يرى بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصوّر من الطين طائرًا ، ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهد طيرانه بإذن الله ﷻ ، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه وخالفوه ، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبي الله عيسى ﷺ لا يسكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه ﷺ ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلًا مشركًا من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان - وأنها إليه أن في بيت المقدس رجلًا يقتل الناس ، ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه ، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه عن الناس ، فلما وصل الكتاب امثل والي بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ﷺ ، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر ، وقيل : سبعة عشر نفرًا ، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحاصروه هنالك ، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يلقي عليه شبي هو رفيقي في الجنة ، فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية وثالثة ، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو ، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى ﷺ سنة من النوم ، فزفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال

الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ إِنِّي مُنَوِّدُكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ الآية ، فلما رُفِعَ خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتيجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم ، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، ويقال : إنه خاطبها ، والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين المطلع على السرائر والضمائر ، الذي يعلم السرّ في السموات والأرض ، العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي رأوا شبهه فظنّوه إياه . ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اتَّخَفُوا فِيهِ لَبِئْسَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ يعني بذلك من ادّعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمه إليهم من جهال النصارى ، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو ، بل شاكين متوهمين ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا ﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام جناحه ولا يضام من لاذ بيبابه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم .

عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحوارئين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي ، قال : ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ؟ فقام شاب من أحدثهم سناً ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال : هو أنت ذاك ، فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، واقتربوا ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوا ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعني قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم ﷺ .

ذكر من قال ذلك : عن ابن عباس ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال : قبل موت عيسى ابن مريم ﷺ . وقال أبو مالك : ذلك عند نزول عيسى ، وقبل موت عيسى ابن مريم ﷺ ، لا يبقى أحد من

أهل الكتاب إلا آمن به . وعن ابن عباس ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعني اليهود خاصة . وقال الحسن البصري : يعني النجاشي وأصحابه . وعن الحسن قال : قبل موت عيسى ، والله إنه لحق الآن عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون . وعن جويرية بن بشير ، قال : سمعت رجلاً قال للحسن : يا أبا سعيد قول الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال : قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى وهو باعته قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر . وهذا القول هو الحق ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع . قال ابن جرير ، وقال آخرون : يعني بذلك ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ بعيسى قبل موت صاحب الكتاب .

ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل ؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه . وعن مجاهد : كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته ، قبل موت صاحب الكتاب . وعن ابن عباس قال : لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ولو عجل عليه بالسلاح . وقال : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ﷺ ، وإن ضرب بالسيف تكلم به ، قال : وإن هوى تكلم به وهو يهودي . فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس ، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمد بن سيرين . وعن الحسن قال : لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت ، وهذا يحتمل أن يكون مراد الحسن ما تقدم عنه ، ويحتمل أن يكون مراده ما أراد هؤلاء .

وقال ابن جرير ، وقال آخرون : معنى ذلك : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت صاحب الكتاب .

قال عكرمة : لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ ، وقوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ .

ثم قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول ، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى ﷺ إلا آمن به قبل موت عيسى ﷺ . ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ؛ لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حي ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريباً فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف . فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم . ولهذا قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أي قبل موت عيسى ﷺ الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أي بأعمالهم التي شاهدوها منهم قبل رفعه إلى السماء ، وبعد نزوله إلى الأرض . فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع ، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلاً به فيؤمن به ،

ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له إذا كان قد شاهد الملك ، كما قال تعالى في أول هذه السورة : ﴿ وَلَيْسَ الْتَوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ ۚ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ ضَعْفٍ مَا احتج به ابن جرير في ردِّ هذا القول حيث قال : ولو كان المراد بهذه الآية هذا لكان كل من آمن بمحمد ﷺ أو بالمسيح من كفر بهما يكون على دينهما ، وحيث لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه ، لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته ، فهذا ليس بجديد ؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً ، ألا ترى قول ابن عباس : ولو تردى من شاطئ أو ضرب بالسيف أو افترسه سبع فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى ، فالإيمان به في هذه الحال ليس بنافع ، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه والله أعلم . ومن تأمل هذا جيداً وأمعن النظر اتضح له أنه هو الواقع ، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا ، بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء ، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه ، وتصادمت وتعاكست وتناقضت وخلت عن الحق ، ففرط هؤلاء اليهود ، وأفرط هؤلاء النصارى ، تنقصه اليهود بما رموه به وأمه من العظام ، وأطراه النصارى بحيث ادَّعوا فيه ما ليس فيه ، فرفعه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً ، وتنزه وتقدس لا إله إلا هو .

ذَكَرَ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةَ فِي نَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

إِلَى الْأَرْضِ مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكُنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ ، وَيَصْطَعُ الْجُزْيَةَ ، وَيَقْبِضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝ ﴾ (١)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ يَكُونُ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ !؟ » (٢)

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَابٍ ، أَهْمَاهُمُ شَيْءٌ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنِّي أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ تَنَبَّى وَيَتَّبِعُهُ ، وَإِنَّهُ نَارِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَعْرِفُوهُ ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقَطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ ، فَيَذُقُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخَنَازِيرَ ، وَيَصْطَعُ الْجُزْيَةَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلَ كُلَّهُ إِلَّا الْإِسْلَامَ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدُّجَالَ ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَزْهَقَ الْأَسْوَدُ مَعَ الْإِبِلِ ، وَالنَّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَيَلْعَبُ الصَّبِيَّانِ بِالْحَيَاتِ لَا تَضُرُّهُمُ ، فَيَمُوتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَتَوَفَى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ » (٣)

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٦/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٢) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَقْرُمُ السَّاعَةَ حَتَّى تَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ يَدَابِقَ ، فَيَخْرُجَ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْا مِنَّا نَقَاتِلَهُمْ ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لَا وَاللَّهِ لَا نَحْلِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيَقَاتِلُوهُمْ فَيَهْزِمُ ثُلُثٌ لَا يَثُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثٌ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيُفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يَفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينَيَّةَ ، فَيَبْنِيانِ هُنَّ يَمْسُمُونَ الْعَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سِيُوفَهُمْ بِالزُّيُوتِ إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ : إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِكُمْ فَيَخْرُجُونَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ ، فَيَبْنِيانِ هُنَّ يَمْسُمُونَ لِقِتَالِ يُسُورِ الصُّفُوفِ ، إِذْ أَمِمْتِ الصَّلَاةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيُؤَمِّمُهُمْ ، فَإِذَا رَأَاهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي خُرُوبِهِ » (١) .

وعن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : « لَقِيتُ لَيْلَةَ أُشْرِي بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَتَذَكَّرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ : لَا عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى مُوسَى فَقَالَ : لَا عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِيسَى فَقَالَ : أَمَّا وَجِبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷺ أَنَّ الدُّجَالَ خَارِجٌ وَتَعْمِي قَضِيَّتَانِ ، فَإِذَا رَأَيْتَا ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ ، قَالَ : فَيَهْلِكُهُ اللَّهُ إِذَا رَأَيْتَا ، حَتَّى إِنَّ الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ يَقُولُ : يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَمَالَ فَاقْتُلْهُ ، قَالَ : فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ بِأَجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَطُورُونَ بِلَادَهُمْ ، فَلَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ ، وَلَا يَمْوُونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ ، قَالَ : ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ يَسْكُونُهُمْ فَأَدْعُو اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَيَهْلِكُهُمْ وَيُمِيتُهُمْ ، حَتَّى تَنْجُو الْأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ ، وَيُنْزِلُ اللَّهُ الْمَطَرَ فَيَجْتَرِفَ أَجْسَادَهُمْ حَتَّى يَقْذِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ ، فَفِيمَا عَهْدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷺ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمِثْمِ لَا يَذَرِي أَهْلَهَا مَتَى تُفَاجِئُهُمْ بِوَلَادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا » (٢) .

وعن أبي نضرة قال : أتينا عثمان بن أبي العاص في يوم الجمعة لنعرض عليه مصحفًا لنا على مصحفه ، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا ، ثم أتينا بطيب فطبخنا ، ثم جئنا المسجد فجلسنا إلى رجل فحدثنا عن الدجال ، ثم جاء عثمان بن أبي العاص فقمنا إليه فجلسنا فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةُ أَمْصَارٍ : مِصْرٌ يَمْلَأُ الْبَحْرَيْنِ ، وَمِصْرٌ بِالْحِيرَةِ ، وَمِصْرٌ بِالشَّامِ ، فَفَرَعَ النَّاسُ ثَلَاثَ فَرَغَاتٍ ، فَيَخْرُجُ الدُّجَالُ فِي أَغْرَاضِ النَّاسِ فَيَهْزِمُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ ، فَأَوَّلُ مِصْرٍ يَرِدُهُ الْمِصْرُ الَّذِي يَمْلَأُ الْبَحْرَيْنِ ، فَيَصِيرُ أَهْلُهَا ثَلَاثَ فِرَقٍ : فِرْقَةٌ تَقُولُ نَقِيمُ نَشَامِهِ نَنْظُرُ مَا هُوَ ، وَفِرْقَةٌ تَلْحَقُ بِالْأَغْرَابِ ، وَفِرْقَةٌ تَلْحَقُ بِالْمِصْرِ الَّذِي يَلِيهِمْ . وَمَعَ الدُّجَالِ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ التَّيْجَانُ ، وَأَكْثَرُ مَنْ مَعَهُ الْيَهُودُ وَالنَّسَاءُ ، وَيَنْحَارُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَقَبَةِ أَفِيقٍ فَيَنْعَثُونَ سَرْحًا لَهُمْ فَيَصَابُ سَرْحُهُمْ ، فَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيُصِيبُهُمْ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى إِنْ أَخَذَهُمْ لِيَخْرِقَ وَتَرَ قَوْسِيهِ فَيَأْكُلُهُ ، فَيَبْنِيانِ هُنَّ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنَ الشَّجَرِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَاكُمْ الْعَوْتُ - ثَلَاثًا - فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنْ هَذَا

(١) أخرجه مسلم في الفتن (٣٤) والحاكم في المستدرک (٤٨٢/٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٥/١) وابن ماجه في السنن (٤٠٨١) .

لَصُوتُ رَجُلٍ شَبَّانٍ ، وَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَيَقُولُ لَهُ أَمِيرُهُمْ ، يَا رُوحَ اللَّهِ تَقَدَّمْ صَلِّ ، فَيَقُولُ : هَذِهِ الْأُمَّةُ أَمْرَاءُ ، بَغَضُهُمْ عَلَيَّ بَغِضَ ، فَيَتَقَدَّمُ أَمِيرُهُمْ فَيُصَلِّي ، حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ أَخَذَ عِيسَى حَزْبَتَهُ فَيَذْهَبُ نَحْوَ الدُّجَالِ ، فَإِذَا رَأَى الدُّجَالَ ذَابَ كَمَا يُذَابُ الرِّصَاصُ ، فَيَضَعُ حَزْبَتَهُ يَسْرَ تَتَدَوَّرُهُ فَيَقْتُلُهُ وَيَهْرُمُ أَصْحَابَهُ ، فَلَيْسَ يَوْمَئِذٍ شَيْءٌ يُؤَارِي مِنْهُمْ أَحَدًا ، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ تَقُولُ : يَا مُؤْمِنُ هَذَا كَايِرٌ ، وَيَقُولُ الْحَجَرُ : يَا مُؤْمِنُ هَذَا كَايِرٌ ^(١) .

وعن النّوّاس بن سَمْعَانَ قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدُّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّحْلِ ، فَلَمَّا رَحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : « مَا سَأَلْتُمْ ؟ ! » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدُّجَالَ غَدَاةً فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّحْلِ ، قَالَ : « غَيْرُ الدُّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُمْ دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَيْسَتْ فِيكُمْ فَأَمْرُؤُ حَاجِبُ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ . إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ ، عَيْنُهُ طَافِيَةٌ ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبِيدِ الْعُرَى ابْنِ قَطْنٍ ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاحِ شُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَةٍ يَسْرَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاتٌ يَمِينًا وَعَاتٌ شِمَالًا ، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاتَّبِعُوا » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا لَيْسَ فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ : « أَرْبَعُونَ يَوْمًا ، يَوْمٌ كَسَنَةٌ ، وَيَوْمٌ كَشْهَرٌ ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَتْهُ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ ؟ قَالَ : « لَا ، افْتَدُوا لَهُ قَدْرَهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ ؟ قَالَ : « كَالْعَيْنِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْتُرُ السَّمَاءُ قُطْمِطِرٌ ، وَالْأَرْضُ قَتْنِبٌ ، فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرَى وَأَسْبَغَتْ ضُرُوعًا وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ . ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُضْطَحُونَ مُمَجِّلِينَ لَيْسَ بِأَيِّدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ . وَيَمْرُؤٌ بِالْحَزْبَةِ يَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكَ فَتَتْبِعُهُ كُنُوزُهَا كَتَبَاعِيَسِبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُتَمَلِّقًا سَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةً الْغَرَضُ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبِلُ وَيَهْلُلُ وَجْهَهُ وَيَضْحَكُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِي دِمَشْقَ يَسْرَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرٌ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ كَجَمَانِ اللَّوْلُو ، وَلَا يَجِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرَفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَذْرِكُهُ (يَبَابُ لُد) فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عليه السلام قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، فَيَنْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى عِيسَى أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَذَانٍ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرَّزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمْرُؤُ أَوْلَهُمْ عَلَى بُحَيْرَةٍ طَبْرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمْرُؤُ آخِرُهُمْ يَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةَ مَاءٍ ، وَيَخْضَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثُّورِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَزْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُضْطَحُونَ فَرَسَى كَمَوْتَ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ يَهْطِلُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ

شِيرٍ إِلَّا مَلَأَ زَهْمُهُمْ وَنَتْنَهُمْ ، فَيَرْعَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَغْنَقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنْ مِنْهُ يَتٌّ وَلَا وَتْرٌ ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَبْرُكَهَا كَالزَّلْفَةِ . ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ : أَخْرِجِي ثَمْرَكَ وَرُذْيَ بَرَكَتِكَ ، فَيَوْمِئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرِّمَانَةِ ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقُحْفِهَا ، وَيُبَارِكُ اللَّهُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَيْئَامَ مِنَ النَّاسِ ، فَيَبْتِنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِيهِمْ ، فَيَقْبِضُ اللَّهُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَتَقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمْرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ » ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذي تحدث به : تقول إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله - أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما - لقد هممت أن لا أحدث أحدًا شيئًا أبدًا ، إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرًا عظيمًا : يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال : قال رسول الله ﷺ : « يَخْرُجُ الدُّجَالُ فِي أُمْنِي فَيَمُوتُكَ أَرْبَعِينَ - لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَيْنَ مَسْعُودٍ ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمُوتُكَ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ - أَوْ إِمَانٍ - إِلَّا قَبِضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ » قال : سمعتها من رسول الله ﷺ : « فَيَتَقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِيفَةِ الطَّيْرِ وَأَخْلَامِ السُّبَاعِ ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَمْتَلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارُ رِزْقِهِمْ ، حَسَنَ عَيْشِهِمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّبْرِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَبًا وَرَفَعَ لَبًا ، قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ ، قَالَ : فَيَضَعُ وَيَضَعُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ : يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ طَلٌّ ، أَوْ قَالَ : الظل - نعمان الشاك - فَتَنْبُثُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . ثُمَّ يُقَالُ : أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴿ وَفَوْقَهُمْ لَاهُتُمْ مَسْغُولُونَ ﴾ ثُمَّ يُقَالُ : أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ ، فَيَقَالُ : مِنْ كَمِّ ؟ فَيَقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتَسْعُونَ ، قَالَ : فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » ^(٢) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالْدُّخَانُ ، وَالْدَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالْدُّجَالُ ، وَثَلَاثَةُ خُشُوفٍ : خَشَفٌ بِالشَّرْقِ ، وَخَشَفٌ بِالمَغْرِبِ ، وَخَشَفٌ بِخَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَشُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ بَيِّتٍ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » ^(٣) .

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه بالشام ، بل

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والترمذي في السنن (٢٢٤٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٦) والحاكم في المستدرک (٥٥٠/٤) وأحمد في مسنده (١٦٦/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) .

بدمشق عند المنارة الشرقية ، وأن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ، وقد بنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى وأربعين وسبعمئة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة ، عوضًا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ، وكان أكثر عمارتها من أموالهم ، وقويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، فلا يقبل إلا الإسلام وهذا إخبار من النبي صلى الله عليه وآله بذلك ، وتقدير وتشريع وتسويغ له على ذلك في ذلك الزمان ، حيث تتزاح عللهم ، وترتفع شبههم من أنفسهم ، ولهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعين لعيسى عليه السلام وعلي يديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَإِلَٰهِيٍّ يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ الآية ، وهذه الآية كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكَلِمَةٌ ﴾ وقرئ ﴿ لَعَلَّمْ ﴾ بالتحريك أي أماره ودليل على اقتراب الساعة ، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه ، كما ثبت في الحديث : إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء ^(١) . ويعتد الله في أيامه بأجوج ومأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه ، وقد قال تعالى : ﴿ حَقٌّ لِّذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ٥ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿ الآية .

صِفَةُ عِيسَى عليه السلام

روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لَيْلَةُ أُسْرِي بِي لَيْقِيَتْ مُوسَى » قال : فنعته فإذا رجل أحسنه قال : « مُضْطَرَبٌ رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةَ » قال : « وَلَقِيَتْ عِيسَى » فنعته النبي صلى الله عليه وآله فقال : « رُبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيْمَاسٍ » يعني الحمام « وَرَأَيْتُ إِِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ » ^(٢) . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصُّدْرِ . وَأَمَّا مُوسَى فَأَدْمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الرُّطْ » ^(٣) . وعن سالم عن أبيه قال : لا والله ما قال النبي صلى الله عليه وآله لعيسى أحمر ولكن قال : « يَتَنَمَّا أَنَا نَائِمٌ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبِطُ الشَّعْرِ ، يَنْهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطَفُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يُهْرَقُ رَأْسُهُ مَاءً - قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : ابْنُ مَرْيَمَ فَذَهَبَتْ أَلْتَفْتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ ، جَعْدُ الرَّأْسِ ، أَغْوَزَ عَيْنَيْهِ لِيَعْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ عَيْنَةُ طَائِفَةٍ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الدَّجَالُ وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا - ابْنُ قَطَنِ - » قال الزهري : رجل من خزاعة هلك في الجاهلية ^(٤) . هذه كلها ألفاظ البخاري رحمته الله ، وقد تقدم في حديث أبي هريرة أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون . وفي حديث عبد الله بن عمر أنه يمكث سبع سنين ، فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله ، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثين سنة في الصحيح ، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة أنهم على صورة آدم ، وميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة . وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٠١/٤) والطبراني في الكبير (١٥٣/١١) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٤) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٨) وأحمد في مسنده (٢٩٦/١) .

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤١) .

ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه عن بعض السلف أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته فإله أعلم .
وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْفِتْنَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴾ يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله ، وأقر
بعبودية الله ﷻ .

﴿ فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُحِلَّت لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا
عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة ، حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم .
عن عمرو قال : قرأ ابن عباس : طيبات كانت أحلت لهم ، وهذا التحريم قد يكون قدرًا ، بمعنى أنه تعالى
قيضهم لأن تأولوا في كتابهم وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم ، فحرموها على أنفسهم تشديداً منهم
على أنفسهم وتضييقاً وتنطعاً . ويحتمل أن يكون شرعياً بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت
حلالاً لهم قبل ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ .
مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً من
قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها ، ثم إنه تعالى حرم أشياء
كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَثِيرًا مِنْ دُونِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لَكُمُ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنكَرَ
حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ أَلْحَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَلْظِ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيدُونَ ﴾
أي إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغْيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم
عليه ، ولهذا قال : ﴿ فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتِ أُحِلَّت لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أي
صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق ، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا
كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقاً من الأنبياء ، وكذبوا عيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله : ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه ، واحتالوا
عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ أي الثابتون في الدين لهم
قدم راسخة في العلم النافع . ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال ابن عباس : أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسد بن سعية وأسد بن
عبيد الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمدًا ﷺ .

وقوله : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة ، وكذا هو في مصحف أبي
ابن كعب ، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود - والمقيمون الصلاة - قال : والصحيح
قراءة الجميع ، رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب ، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم :
هو منصوب على المدح كما جاء في قوله : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ بِهَدْيِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَرِيحِ الْبَأْسِ ﴾ قال : وهذا سائغ في كلام العرب كما قال الشاعر :

لَا يَتَغَدَّنُ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُو أَسَدُ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجَزَرِ

النَّازِلِينَ بِكُلِّ مَغْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَرْبِ

وقال آخرون : هو مخفوض عطفًا على قوله : ﴿يَا أَنْزِلْ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزِلَ مِنْ بَيْنِكَ﴾ يعني وبالمقيمين الصلاة ، وكأنه يقول : وبإقامة الصلاة ، أي يعترفون بوجودها وكتابتها عليهم . أو أن المراد بالمقيمين الصلاة : الملائكة ، وهذا اختيار ابن جرير يعني ، يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة ، وفي هذا نظر والله أعلم . وقوله : ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال ويحتمل زكاة النفوس ، ويحتمل الأمرين والله أعلم . ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلا الله ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها . وقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة .

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

عن ابن عباس قال : قال سكن وعدي بن زيد : يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات (١) . وهي رد عليهم لما سألوا النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء قال الله تعالى : ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ ثم ذكر فضائحتهم ومعائبهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء ، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود ﷺ .

وقوله : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي من قبل هذه الآية ، يعني في السور المكية وغيرها ، وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمد ﷺ . وقوله : ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي خلقًا آخرين لم يذكروا في القرآن وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء ﷺ قال : دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده ، فجلست إليه فقلت : يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة قال : « الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ فَاسْتَكْثِرُوا أَوْ اسْتَقِلُّوا » قال : قلت : يا رسول الله فأني الأعمال أفضل ؟ قال : « إِيْمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ » قلت : يا رسول الله فأني المؤمنين أفضل ؟ قال : « أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » ، قلت : يا رسول الله ، فأني المسلمين أسلم ؟ قال :

« مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » قلت : يا رسول الله فأني الهجرة أفضل ؟ قال : « مَنْ هَجَرَ الشَّيْئَاتِ » قلت : يا رسول الله أي الصلاة أفضل ؟ قال : « طُولُ الْقُتُوبِ » فقلت : يا رسول الله فأني الصيام أفضل ؟ قال : « فَرَضُ مُجَزِيٍّ وَعِنْدَ اللَّهِ أضعافٌ كَثِيرَةٌ » قلت : يا رسول الله فأني الجهاد أفضل ؟ قال : « مَنْ عَفَرَ جَوَادُهُ وَأَهْرَيْقَ دَمُهُ » قلت : يا رسول الله ، فأني الرقاب أفضل ؟ قال : « أَغْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا » قلت : يا رسول الله ، فأني الصدقة أفضل ؟ قال : « جُهْدٌ مِنْ مُقِلٍّ ، وَسِرٌّ إِلَى فَقِيرٍ » قلت : يا رسول الله ، فأني آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آيَةُ الْكُرْسِيِّ » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ وَمَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ » قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : « مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا » قال : قلت : يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال : « ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ جَمٌّ غَفِيرٌ كَثِيرٌ طَيِّبٌ » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال : « آدَمُ » قلت : أنبي مرسل ؟ قال : « نَعَمْ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَسَوَّاهُ قَبِيلًا » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبَعَةُ سِرِّيَانِيُونَ : آدَمُ وَشِيثٌ وَخُنُوحٌ وَهُوَ إِدْرِيسُ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِقَلَمٍ - وَنُوحٌ ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ : هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيَّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ ، وَأَوَّلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى ، وَآخِرُهُمْ عِيسَى ، وَأَوَّلُ الرُّسُلِ آدَمُ ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ » قال : قلت : يا رسول الله كم كتاب أنزله الله ؟ قال : « مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةٌ كُتُبٌ ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى شِيثَ خَمْسِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى خُنُوحَ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً ، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشَرَ صَحَائِفَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى مِنْ قَبْلِ التَّوْرَةِ عَشَرَ صَحَائِفَ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ » قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كَانَتْ كُلُّهَا يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسْلُطُ الْمُبْتَلَى الْمَعْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لَتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتُرَدَّ عَنِّي دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ فَإِنِّي لَا أُرَدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ ، وَكَانَ فِيهَا أَثْنَالٌ ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ ، سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَسَاعَةٌ يُفَكِّرُ فِي صُنْعِ اللَّهِ ، وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِجَانِبِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ . وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ طَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثَ : تَزُودَ لِمَعَادٍ ، أَوْ مَزَمَةَ لِمَعَاشٍ ، أَوْ لَذَّةً فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ ، مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ ، حَافِظًا لِسَانِهِ ، وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قُلْ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَغْنِيهِ » قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كَانَتْ عِبرًا كُلُّهَا ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرُحُ ، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبُهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ عَدَا ثُمَّ هُوَ لَا يَعْمَلُ » قال : قلت يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى وما أنزل الله عليك ؟ قال : « نَعَمْ اقْرَأْ يَا أَبَا ذَرٍّ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وَذَكَرَ اسْمَهُ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَنَّى ﴿ إِنَّ هَذَا لَنِي السُّحُوفِ الْأَوَّلُ ﴾ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿ قال : قلت : يا رسول الله فأوصني قال : « أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ أَمْرِكَ » ، قال : قلت : يا رسول الله زدني قال : « عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ ذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ وَنُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ » قال : قلت : يا رسول الله زدني ، قال : « إِنَّكَ وَكَثْرَةُ الصُّلَحِ ، فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَذْهَبُ بِنُورِ الْوَجْهِ » قلت : يا رسول الله زدني قال : « عَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةٌ أُمْنِي » قلت : زدني ، قال : « عَلَيْكَ بِالصُّمْتِ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ ، فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَعَوْنٌ لَكَ

عَلَى أَمْرِ دِينِكَ » قلت : زدني قال : « انْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ تَحْتَكَ وَلَا تَنْظُرْ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ لَكَ أَنْ لَا تَزْدِرِي نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ » قلت : زدني ، قال : « أَخْيِبِ الْمَسَاكِينَ وَجَالِسَهُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدِرِي نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ » قلت : زدني ، قال : « صِلْ قُرَابَتَكَ وَإِنْ قَطَعُوكَ » قلت : زدني ، قال : « قُلِ الْحَقُّ وَإِنْ كَانَ مُرًا » قلت : زدني ، قال : « لَا تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً » قلت : زدني قال : « يُؤْذِكُ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَلَا تَجِدَ عَلَيْهِمْ فِيمَا تُحِبُّ ، وَكَفَى بِكَ عَيْبًا أَنْ تَعْرِفَ مِنَ النَّاسِ مَا تَجْهَلُ مِنْ نَفْسِكَ ، أَوْ تَجِدَ عَلَيْهِمْ فِيمَا تُحِبُّ » ثم ضرب يده صدره فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالْتَّذِيرِ ، وَلَا وَرَعَ كَالْكَفِّ ، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخَلْقِ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وهذا تشریف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم . وعن عبد الجبار بن عبد الله قال : جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً يقرأ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) فقال أبو بكر : ما قرأ هذه إلا كافر ، قرأت على الأعمش وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش عليه السلام على من قرأ كذلك لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه . وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه ، كما رويانه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) - نصب لفظ الجلالة - فقال له : يا ابن اللخناء كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقوله : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أي يشيرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله : ﴿ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَةً بَعْدَ أَرْسُلِ رَسُولٍ ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة ، ويؤن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُغْرَضَ ﴾ عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَذْخُ مِنَ اللَّهِ ﷻ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعَذْرُ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » (٢) .

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ﴾ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَخْشَفُ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ يَكَايُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ أَرْسُولٌ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ إلى آخر السياق إثبات نبوته ﷺ والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي

(١) ذكره أحمد بن حنبل من هذا السياق (٢٦٥/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٤) ومسلم في التوبة (٣٣ ، ٣٤) .

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ولهذا قال : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ ﴾ ، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان ، وما يحبّه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب ، إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وعن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل - ثم يقرأ قوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ﴾ . قوله : ﴿ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك ، مع شهادة الله تعالى بذلك ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق ، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والافتداء به ، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه وبعدوا منه بعدًا عظيمًا شاسعًا . ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه ، بأنه لا يغفر لهم ﴿ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴾ أي سبيلًا إلى الخير ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ أي قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله ﷻ ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم . ثم قال : ﴿ وَإِنْ تَكَفَّرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حَكِيمًا ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَغْلِبْكُمْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء ، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه . بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فآذعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه : سواء كان حقًا أو باطلاً ، أو ضلالًا أو رشادًا ، أو صحيحًا أو كذبًا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُفُقَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية . عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » ^(١) . وعن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس عليكم بقولكم ، ولا يستهويكم الشيطان : أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ » ^(٢) .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٣/٣) والألباني في الصحيحة (١٠٩٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وتنزهه وتقدس وتوحد في سؤده وكبريائه وعظمته ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، قال له : كن ، فكان ، ورسول من رسله ، وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذنه عز وجل ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها ، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه ؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها : كن ، فكان ، والروح التي أرسل بها جبريل . قال الله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّا صِدْقُهُ كَمَا يَكْلَانِ أَطْعَامُ ﴾ ، وقال تعالى إخباراً عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ الآية . وقال قتادة : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ هو كقوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وقال شاذ بن يحيى في قول الله : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ قال : ليس الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله : ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أي أعلمها بها كما زعمه في قوله : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ بَيِّنُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أي يقلبك بكلمة منه ، ويجعل ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام .

وعن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالتَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ » ^(١) . فقوله في الآية والحديث : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِجَمًا مِنْهُ ﴾ أي من خلقه ومن عنده ، وليست « من » للتبعيض كما تقول النصراني عليهم لعائن الله المتابعة ، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ، وقد قال مجاهد في قوله : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أي ورسول منه ، وقال غيره : ومحبة منه ، والأظهر الأول ، وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾ وكما روي في الحديث : « فَأَدْخُلْ عَلَى رَبِّي فِي ذَارِهِ » ^(٢) أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد .

وقوله : ﴿ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا ولد له ولا صاحبة ، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقد إلهها ، ومنهم من يعتقد شريكاً ، ومنهم من يعتقد ولداً ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة .

(٢) أخرجه البخاري في الكفالة (٢٢٩٧) .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥) .

ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً .
ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق - بترك الإسكندرية - في حدود سنة أربع مائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم - وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة - وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافًا لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزيد من ألفين أسقفًا ، فكانوا أحزابًا كثيرة ، كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر ، وقد توافقوا على مقالة ، فأخذها الملك ونصرها وأيدها ، وكان فيلسوفًا ذاهية ، ومحقق ما عداها من الأقوال ، وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس ، ووضعوا لهم كتبًا وقوانين ، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها ، وأتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم إنهم اجتمعوا مجمعًا ثانيًا فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعًا ثالثًا فحدث فيهم النسطورية ، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح ، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدوا أو ما اتحدوا ، أو امتزجوا أو حل فيه ، على ثلاث مقالات ، وكل منهم يكفر الفرق الأخرى ، ونحن نكفر الثلاثة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أي يكن خيرًا لكم ، ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد ؟ .

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَخِرْهُمُ إِنِّي جَمِيعًا ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .
عن ابن عباس قوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ ﴾ لن يستكبر . ﴿ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وليس له في ذلك دلالة ؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح ، لأن الاستنكاف هو الامتناع ، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح ؛ فلهذا قال : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل . وقيل : إنما ذكروا لأنهم اتَّخَذُوا آلِهَةً مع الله ، كما اتَّخَذَ الْمَسِيحُ ، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه ، ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَخِرْهُمُ إِنِّي جَمِيعًا ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف . ولهذا قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي فيعطيه من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أي امتنعوا عن طاعة الله وعبادته ، واستكبروا عن ذلك ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِيلِينَ ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأُزِّلْنَا بِالنَّارِ لَكُمُ نُورًا مُبِينًا ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّنَا وَقَضَىٰ وَهَيْدِهِمْ إِلَيْنَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزية للشبهة ، ولهذا قال : ﴿ وَأُزِّلْنَا بِالنَّارِ لَكُمُ نُورًا مُبِينًا ﴾ أي ضياء واضحاً على الحق وهو القرآن ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّنَا وَقَضَىٰ وَهَيْدِهِمْ إِلَيْنَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات . فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « الْقُرْآنُ صِرَاطُ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَحَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ » (١) .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ إِن كَانَتَا نَتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ ۚ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ ﴾ .

عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء ، قال : آخر سورة نزلت : براءة ، وآخر آية نزلت : يستفتونك (٢) . وعن جابر بن عبد الله قال : دخل علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا مريض لا أعقل ، قال : فتوضأ ثم صب علي - أو قال : صبوا عليه - ففعلت ، فقلت : إنه لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض (٣) . والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلالة : من لا ولد له كما دلّت عليه هذه الآية ﴿ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه : الجد ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا (٤) . وعن معدان بن أبي طلحة قال : قال عمر بن الخطاب : ما سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء أكثر مما سألت عن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : « يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ » (٥) .

وكان المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ، ولما أرشده النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى تفهّمها فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن معناها ، ولهذا قال : فلأن أكون سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٨٨) ومسلم في التفسير (٣٢) .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٠٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩٨/٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٢) .

عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم . قال قتادة : وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته :
 ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية
 أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة
 والأخوات من الأب والأم ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى
 ببعض في كتاب الله مما جرت الرحمة من العصبية ^(١) .

ذكر الكلام على معناها : وبالله المستعان وعليه التكلان : قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادُوا هَلَكَ ﴾ أي
 مات . وقوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاله انتفاء الوالد ، بل
 يكفي في وجود الكلاله انتفاء الولد ، وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد
 صحيح إليه ^(٢) ، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا
 والد ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وَلَكِنْ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفٌ مَّا تَرَكَ ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه
 يحجبها بالإجماع ، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن
 الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد ، بل ليس لها ميراث بالكيفية . فعن زيد بن ثابت أنه سئل
 عن زوج وأخت لأب وأم ، فأعطى الزوج النصف ، والأخت النصف ، فكلّم في ذلك فقال :
 حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك ^(٣) . وعن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت
 ترك بنتاً وأختاً : إنه لا شيء للأخت لقوله : ﴿ إِنْ أَرَادُوا هَلَكَ لَيْسَ لَكَ وَلَدٌ وَلَكِنْ أَخْتٌ فَلَهَا نِصْفٌ مَّا تَرَكَ ﴾
 قال : فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولدًا فلا شيء للأخت . وخالفهما الجمهور ، فقالوا في هذه المسألة :
 للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية ، وهذه الآية
 نصّت أن يفرض لها في هذه الصورة ، وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه الأسود قال : قضى فينا معاذ
 ابن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت ، والنصف للأخت . ثم قال سليمان : قضى فينا
 ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ ^(٤) . وعن هزيل بن شرحبيل قال : سئل أبو موسى الأشعري
 عن ابنة وابنة ابن وأخت ؟ فقال : للابنة النصف ، وللأخت النصف ، وأتوا ابن مسعود فاستأبني ،
 فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذا وما أنت من المهتدين ، أقضي فيها
 بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت ، فأتينا
 أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم ^(٥) .

وقوله : ﴿ وَمَوْ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله وليس لها
 ولد ، أي ولا والد ؛ لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف
 إليه فرضه كزوج أو أخ من أم ، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ
 قال : « أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا ، فَمَا أَبَقَتِ الْفَرَائِضُ فَلأُولَى رَجُلٍ ذَكَرَ » ^(٦) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣١/٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٨/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٣٥) ومسلم في الفرائض (٢) .

(٥) تفسير الطبري (٥٤/٦) .

(٦) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٤١) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ بِمَا تَرَكَ ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلاله أختان فرض لهما الثلثان ، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين ، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَئِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين وقوله : ﴿ بَيْنَهُنَّ أَصْحَابُ الْمَقَرِّ ﴾ أي يفرض لكم فراضه ، ويحد لكم حدوده ، ويوضح لكم شرائعه . وقوله : ﴿ أَنْ تَضَلُّوا ﴾ أي لتلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها ، وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى .

عن حذيفة قال : نزلت آية الكلاله على النبي ﷺ وهو في مسير له ، فوقف النبي ﷺ وإذا هو بحذيفة وإذا رأس ناقة حذيفة عند ردف راحلة النبي ﷺ ، فلما إياه ، فنظر حذيفة فإذا عمر ﷺ فلما إياه ، فلما كان في خلافة عمر نظر عمر في الكلاله ، فدعا حذيفة فسأله عنها فقال حذيفة : لقد لقانيها رسول الله ﷺ فلقيتكها كما لقاني رسول الله ﷺ ، والله إني لصادق والله لا أزيدك على ذلك شيئا أبداً ^(١) . وعن سعيد بن المسيب أن عمر سأل رسول الله ﷺ كيف تورث الكلاله ؟ قال : فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ الآية ، قال : فكان عمر لم يفهم ، فقال لحفصة : إذا رأيت من رسول الله ﷺ طيب نفس فسليه عنها ، فرأت منه طيب نفس ، فسألته عنها ، فقال : « أَبُوكَ ذَكَرَ لَكَ هَذَا ؟ مَا أَرَى أَبَاكَ يَفْعَلُهَا » قال : فكان عمر يقول : ما أراني أعلمها ، وقد قال رسول الله ﷺ ما قال ^(٢) .

وعن عمر بن الخطاب قال : لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلي من حمر النعم : من الخليفة بعده ؟ وعن قوم قالوا : نُقِرَ بالزكاة في أموالنا ولا نُؤَدِّيها إليك أيحل قتالهم ؟ وعن الكلاله ^(٣) . وعن ابن عباس قال : كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب قال : اختلفت أنا وأبو بكر في الكلاله ، والقول ما قلت ، قال : وذكر أن عمر شرك بين الإخوة للأُم والأب ، وبين الإخوة للأُم في الثلث إذا اجتمعوا ، وخالفه أبو بكر ﷺ . وعن سعيد بن المسيب أن عمر كتب في الجد والكلاله كتاباً ، فمكث يستخير الله يقول : اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه ، حتى إذا طعن دعا بكتاب فمحي ولم يدر أحد ما كتب فيه ، فقال : إني كنت كتبت كتاباً في الجد والكلاله ، وكنت أستخير الله فيه ، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه ^(٤) . وقد روي عن عمر ﷺ أنه قال : إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر ، وكان أبو بكر ﷺ يقول : هو ما عدا الولد والوالد . وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدل عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله : ﴿ بَيْنَهُنَّ أَصْحَابُ الْمَقَرِّ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْهِ ﴾ والله أعلم .

(١) تفسير الطبري (٥٥/٦ - ٥٦) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٤٩/٢) والهندي في كنز العمال (٣٠٦٨٨) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٠٣/٢) . (٤) تفسير الطبري (٥٧/٦) .

سورة المائدة

عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة ^(١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله ، فنزل عنها ^(٢) . وعن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لي : يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ^(٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ظَنُّوا بِالْعُقُودِ أُحْلَتْ لَكُمْ بِسْمَةِ الْأَنْصَارِ إِلَّا مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ عَنِ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ظَنُّوا لَمْ يَحْلُوا شَعْبَهُمُ اللَّهُ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَتْلَ وَلَا آيَاتِ اللَّهِ الْحُرْمَ يَنْتَقُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَاؤُكُمْ أَنْ صَدَدْتُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَمَتَّوُوا عَلَى الْإِزْرِ وَالْقَوَاعِ وَلَا تَمَازُوا عَلَى الْإِمْنِ وَالْمَدَنِيَّاتِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ عَنْ مَعْنٍ وَعُوفٍ أَوْ أَحَدُهُمَا أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ : اعهِدْ إِلَيَّ ، فَقَالَ : إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ظَنُّوا ۝ ﴾ فَأَرْعَاهَا سَمْعَكَ ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ بِأَمْرِ بِهِ ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ . وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا لِعُمَرَوِ بْنِ حَزْمٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ يَفْقَهُ أَهْلَهَا وَيُعَلِّمُهُمُ السُّنَّةَ ، وَيَأْخُذُ بِصِدْقَاتِهِمْ ، فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا وَعَهْدًا وَأَمْرَهُ فِيهِ بِأَمْرِهُ فَكَتَبَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ظَنُّوا ۝ ﴾ عَهْدٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِعُمَرَوِ بْنِ حَزْمٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۝ ^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ قال ابن عباس : يعني بالعقود العهود . والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ ظَنُّوا ۝ ﴾ : يعني اليهود ، يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض ، وما حد في القرآن كله ، ولا تغدروا ، ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْتَقِضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَدَلٍ يَتَّقُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُؤْتَلَ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ سُوهُ النَّارِ ﴾ وقال الضحاك : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ قال : ما أحل الله وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب ، أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض ، من الحلال والحرام . وقال زيد بن أسلم : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ قال : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقد استدلل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ قال : فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ، ويقتضي نفي خيار المجلس ، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك ، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور ، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٥/٦) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٨٨/٦) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٥٣/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٤٥/٨) .

عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » ^(١) وفي لفظ آخر للبخاري : « إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا » ^(٢) وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود .

وقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ ﴾ هي الإبل والبقر والغنم ، قاله قتادة وغير واحد . قال ابن جرير : وكذلك هو عند العرب . وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت ، وقد ورد في ذلك حديث في السنن عن أبي سعيد قال : قلنا : يا رسول الله نحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كُلُّوهُ إِنْ شِئْتُمْ فَإِنَّ ذَكَاتَهُ ذَكَاةُ أُمِّهِ » ^(٣) . وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : « ذَكَاةُ الْجَنِينِ ذَكَاةُ أُمِّهِ » ^(٤) .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يَتَنَبَّأُ عَلَيْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير . وقال قتادة : يعني بذلك الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه ، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ يعني منها ، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا يَتَنَبَّأُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال .

وقوله تعالى : ﴿ عِدَّةٌ مِّنْهُنَّ لِكُلِّ فَصِيحَةٍ مِّنْهُنَّ وَنَسَاءٌ مِّنْهُنَّ لِكُلِّ فَصِيحَةٍ مِّنْهُنَّ وَنَسَاءٌ مِّنْهُنَّ لِكُلِّ فَصِيحَةٍ مِّنْهُنَّ ﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال ، والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر ، فاستثنى من الإنسي ما تقدم ، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام . وقيل : المراد أحللتنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد ، وهو حرام لقوله : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَاكِفَاتِ اللَّهِ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي أباحنا تناول الميتة للمضطر ، بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد ، وهكذا هنا ، أي كما أحللتنا الأنعام في جميع الأحوال ، فحرموا الصيد في حال الإحرام ، فإن الله قد حكم بهذا ، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِحِكْمٍ مَا يُرِيدُ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعْيَكُمْ أَلْفًا ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك مناسك الحج . وقال مجاهد : الصفا والمروة ، والهدي والبدن من شعائر الله . وقيل : شعائر الله محارمه ، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَشْهَرِ الْحَرَامَ ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال ، وتأكيده اجتناب المحارم ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ الآية . وعن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَامٌ ، ثَلَاثُ مَثَوَالِياتٍ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٤) ومسلم في البيوع (٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٢) ومسلم في البيوع (٤٥) والإمام أحمد في مسنده (١١٩/٢) .

(٣) أخرجه أحمد مسنده (٣١/٣) وابن ماجه في السنن (٣١٩٩) وأبو داود في السنن (٢٨٢٧) .

(٤) أخرجه أحمد مسنده (٣٩/٣) .

الحِجَّةِ وَالْحَرَمِ ، وَرَجَبُ مُضَرِّ الَّذِي يَتَنَزَّلُ فِيهِ جَمَادَى وَشَعْبَانَ ، ^(١) وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْحَرَامَ ﴾ : يعني لا تستحلوا القتال فيه . وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ ، وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إِذَا أَسْلَخَ الْإِبْرَاطُ لِحْظَهُ فِئْتَانُ يَنْتَهِيَانِ إِلَيْنَا أَفْئِدَتُهُنَّ مُحَذَّرَةٌ مِنْ أَنْ يَقُولَا إِنْ كُنَّا الْحَرَامَ عَلَيْهِمَا سَعَىٰ فَكَذَّبُوا وَلَئِنَّهُمَا لَبِغَاؤَانِ ﴾ . وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَنَاسِكَ الْكَلْبَةِ ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أغنائها لتمييز به عما عذاها من الأنعام ، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريد بها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لما حجَّ رسول الله ﷺ بات بذي الخليفة وهو وادي العقيق ، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً ، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلده وأهل للحج والعمرة ، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ شُكْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَىٰ الْقُلُوبِ ﴾ وقال بعض السلف : إعظامها استحسانها واستسمانها . قال علي بن أبي طالب : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ^(٢) . وقال مقاتل بن حيان : قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَنَاسِكَ الْكَلْبَةِ ﴾ فلا تستحلوها ، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : نسخ من هذه السورة آيتان ، آية القلائد ، وقوله : ﴿ فَإِنْ جَاءَكَ فَاعْحَمَّ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَنَاسِكَ الْكَلْبَةِ ﴾ يعني لا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً ، وكذا من قصده طالباً فضل الله ، وراغباً في رضوانه ، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . قال مجاهد وعطاء في قوله : ﴿ يَنْتَهِيَانِ إِلَيْنَا أَفْئِدَتُهُنَّ مُحَذَّرَةٌ مِنْ أَنْ يَقُولَا إِنْ كُنَّا الْحَرَامَ عَلَيْهِمَا سَعَىٰ فَكَذَّبُوا وَلَئِنَّهُمَا لَبِغَاؤَانِ ﴾ يعني بذلك التجارة ، وهذا كما تقدم في قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ قال ابن عباس : يترضون الله بحجهم . وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في الحطيم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَنَاسِكَ الْكَلْبَةِ ﴾ . وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان ، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس ، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الشَّرِكَاتِ يَحْسِبُوا أَلَّا يَفْقَهُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَكَذَا ﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمر الصديق على الحجيج علناً ، وأمره أن ينادي على سبيل النياحة عن رسول الله ﷺ ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ^(٣)

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٦٢) ومسلم في القسامة (٢٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٥/١) وأبو داود في السنن (٢٨٠٤) وابن ماجه في السنن (٣١٤٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٦٩) ومسلم في الحج (٤٣٥) .

وقال ابن عباس : قوله ﴿ وَلَا تَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ يعني من توجه قبل البيت الحرام ، فكان المؤمنون والمشركون يحجون ، فهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر ، ثم أنزل الله بعدها ﴿ إِنَّمَا الشُّرُكُوتَ يَجُزُّ فَلَا يَبْرُؤُوا السَّبْعَ الْحَرَامَ بَدَّ عَلَيْهِمْ هَكَذَا ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَقْمَرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾ فنفى المشركين من المسجد الحرام . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَلَا تَقْلَبُوا وَلَا تَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد ، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت ، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت ، فسخها قوله : ﴿ فَأَقْلَبُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَبَدَتْهُمْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد ، وهذا أمر بعد الحظر ، وقوله : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ مَبْدُوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام - وذلك عام الحديبية - على أن تعتدوا حكم الله فيهم ، فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد . وهذه الآية كما سيأتي من قوله : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ . وعن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فمرّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب النبي ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فأنزل الله هذه الآية . والشناَن هو البغض قاله ابن عباس وغيره ، وهو مصدر من شنأته أشنؤه شناً بالتحرريك . وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَازُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالْتَقُوا وَلَا تَمَازُوا عَلَى الْإِلَهِ وَالْمَدْرَيْنِ ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل ، والتعاون على المآثم والحارم . قال ابن جرير : الإثم : ترك ما أمر الله بفعله ، والعدوان مجاوزة ما حدّ الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » قبل : يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : « تَحْجِزُهُ وَتَنْتَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَذَاكَ نَصْرُهُ » ^(١) . وعن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَضِيرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْزَا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَضِيرُ عَلَى أَذَاهُمْ » ^(٢) وفي الحديث : « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » ^(٣) . وفي الصحيح : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْإِجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ أَتْبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً . وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ أَتْبَعَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً » ^(٤) .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أِهْلَ لِبَعْرِ اللَّهِ يَدُ وَالْمَنْخَفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمَرْدِيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) وأحمد في مسنده (٩٩/٣ ، ٢٠١) والترمذي في السنن (٢٢٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٥/٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٣٢) والبيهقي في السنن (٨٩/١٠) .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣٠/٦) والهيثم في مجمع الزوائد (١٦٦/١) .

(٤) أخرجه مسلم في العلم (١٦) وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) والترمذي في السنن (٢٦٧٤) .

السَّعْبُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْكَىٰ ذَلِكُمْ فَمَنْ لَّمْ يَأْتِ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ مِنَ الدَّمِ حَرَّمَ ذَكَاءَ الْبَيْتِ وَيَمَازِجُ الشَّحْمِ وَالشَّحْمِ مِزَاجُ الدَّمِ وَالْحَبَّ السَّلِيمَ ذَلِكُمْ يَذُكَّرُ عَنْكُمْ فِي الْيَوْمِ ۚ

يخبر تعالى عباده خبيراً متصمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن ، فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله ﷻ ، ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال : «هُوَ الطَّهْرُ مَأْوُهُ ، الْحَلْ مَبِيتُهُ» ^(١) . وقوله : ﴿وَالدَّمَ﴾ يعني به المسفوح كقوله ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ قال عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال : كلوه ، فقالوا : إنه دم ، فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وعن عائشة قالت : إنما نهى عن الدم السافح . وقد قال رسول الله ﷺ : «أَجِلٌ لَنَا مَيِّتَانِ وَدَمَانِ فَأَمَّا الْمَيِّتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجَزَاءُ ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ» ^(٢) وعن أبي أمامة - وهو صدي بن عجلان - قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأتيتهم فبينما نحن كذلك إذا جاؤوا بقصعة من دم ، فاجتمعوا عليها يأكلونها ، فقالوا : هلم يا صدي فكل ، قال : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم ، فأقبلوا عليه قالوا : وما ذاك فتلوت عليهم هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَانُ الدَّامِ﴾ الآية . وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

وَأِيَّاكَ وَالْمَيِّتَاتِ لَا تَقْرَبْنَهَا وَلَا تَأْخُذَنَّ عَظْمًا حَدِيدًا فَتَقْصِدَا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه فيفصد به بغيره أو حيواناً من أي صنف كان ، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشر به ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة .

وقوله : ﴿وَلَكُمْ الْخَنزِيرُ﴾ يعني إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا ، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله : ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه ، وهذا بعيد من حيث اللغة ، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد . وفي الصحيح عنه ﷺ قال : «مَنْ لَعِبَ بِالْثَوْدِ شِيرٍ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخَنزِيرِ وَدَمِهِ» ^(٣) فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللبس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به ، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْحَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخَنزِيرِ وَالْأَصْنَامِ» فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٧/٢ ، ٣٦٧) ومالك في الموطأ (٢٢/١) ، وأبو داود في السنن (٢٢/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) وابن ماجه في السنن (٣٣١/٤) . (٣) أخرجه مسلم في الشرح (١٠) .

السفن ، وتدهن بها الجلود ، ويستصبح بها الناس فقال : « لَا ، هُوَ حَرَامٌ » ^(١) .

وقوله : ﴿ وَنَا أَهْلَ بَيْتِ اللَّهِ بِهٖ ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام ؛ لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم ، فمتى عدل بها عن ذلك ، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع .

وقوله : ﴿ وَالتَّخَنُّفُ ﴾ وهي التي تموت بالخنق ، إما قصداً ، وإما اتفاقاً ، بأن تتخبل في وثاقها فتموت به ، فهي حرام . وأما ﴿ الْمَوْذُوءُ ﴾ : فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ، كما قال ابن عباس وغير واحد : هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقدها فتموت . قال قتادة : أهل الجاهلية يضربونها بالعصي ، حتى إذا ماتت أكلوها . وفي الصحيح أن عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله : إنني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ، قال : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَ بَعْرَضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ » ^(٢) ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالزرق ونحوه بحده فأحلّه ، وما أصاب بعرضه فجعله وقيداً لم يحله ، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء ، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه على قولين ، هما قولان للشافعي رحمته الله : أحدهما لا يحل كما في السهم والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد والثاني : أنه يحل ، لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل ، فدل على إباحة ما ذكرناه ؛ لأنه قد دخل في العموم . وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى ، فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه أو صدمه هل يحل أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا آسَكَنَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعي رحمته الله ، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي قلت : وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر ، فإنه قال في كلا الموضعين : يحتمل معنيين ، ثم وجه كلاً منهما فحمل ذلك الأصحاب منه ، فأطلقوا في المسألة قولين عنه ، اللهم إلا أنه في بحثه للقول بالحل رشحه قليلاً ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به .

والقول الثاني : أن ذلك لا يحل ، وهو أحد القولين عن الشافعي رحمته الله ؛ وذلك لحديث رافع بن خديج قلت : يا رسول الله ، إنا لاقو العدو غداً ، وليس معنا مدى أفنديج بالقصب ؟ قال : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ » الحديث بتمامه ^(٣)

وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل ، وإن لم يجرحه ، بل صدمه أو قتله فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالاً .

فإن قيل : فلم لا فصل في حكم الكلب ، فقال : ما ذكرتم إن جرحه فهو حلال ، وإن لم يجرحه فهو حرام ؟ فالجواب أن ذلك نادر ، لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معاً ، وأما اصطدامه هو

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٦) ومسلم في المساقاة (٧١) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد (١) والبيهقي في السنن (٢٣٥/٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٣) ومسلم في الأضاحي (٢٠) .

والصيد فنادر ، وكذا قتله إياه بثقله فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره ، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وأما السهم والمعراض فتارة يخطئ لسنوء رمي راميه أو للهو أو لنحو ذلك ، بل خطؤه أكثر من إصابته ، فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً والله أعلم . ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد ، فقال : « يُلْغُ أَكْلُ فَلَا تَأْكُلُ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسُكَ عَلَى نَفْسِي » ^(١) ، وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين ، فقالوا : لا يحل ما أكل عنه الكلب ، حكى ذلك عن أبي هريرة وابن عباس وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحبه وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه ، وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس أن الصيد يؤكل وإن أكل معه الكلب ، حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم : يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة ، وإلى ذلك ذهب الشافعي في قوله بإسناد جيد قوي ، عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب : « إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ ، فَكُلْ وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ ، وَكُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ يَدُكَ » ^(٢) .

فأما الجوارح من الطيور ، فنص الشافعي على أنها كالكلب ، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور ، ولا يحرم عند الآخرين ، واختار الزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه للطيور والجوارح ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد ، قالوا : لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه ، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك ، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير .

وأما ﴿ الْمَرْدِيَّةُ ﴾ فهي التي تقع من شاق أو موضع عال فتموت بذلك ، فلا تحل قال ابن عباس : المتردية التي تسقط من جبل ، وقال قتادة : هي التي تردى في بئر .

وأما ﴿ النَّطِيحَةُ ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها ، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها ، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي منطوحة ، وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث ، فيقولون : عين كحيل وكف خضيب ، ولا يقولون : كف خضيبية ولا عين كحيلة ، وأما هذه فقال بعض النحاة : إنما استعمل فيها تاء التأنيث ؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء ، كما في قولهم طريقة طويلة ، وقال بعضهم : إنما أتت بقاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب ؛ لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب ، فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام ، وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحتها فلا تحل بالإجماع ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك ، فحرم الله ذلك على المؤمنين . وقوله : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله : ﴿ وَالْمَنْخَنَةُ وَالْمُوقُوذَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ : إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي ، وعن

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٧٦) ومسلم في الصيد (٣ ، ٢) وأحمد في مسنده (٢٥٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد (٣) وأحمد في مسنده (٢٥٦/٤) والطبراني في الكبير (١٧/١٧) .

علي في الآية قال : إن مصعت بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل . وعن علي أيضاً قال : إذا أدركت ذكاة الموقودة والمتردة والنطيحة وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها ، وهكذا روي عن طاوس والحسن وقادة أن الذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد ابن حنبل . قال ابن وهب : سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أوعاؤها ، فقال مالك : لا أرى أن تذكى ، أي شيء يذكى منها ؟ وسئل مالك عن الضبع يعدو على الكبش فيدق ظهره ، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل ؟ فقال : إن كان قد بلغ السحر فلا أرى أن يؤكل ، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً ، هذا مذهب مالك رحمته الله ، وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمته الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية والله أعلم .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال : قلت : يا رسول الله إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مدى أفندي بالقصبة ؟ فقال : « مَا أَنْتُمْ بِالدِّمِّ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ لَيْسَ بِالسِّنِّ وَالظُّفْرِ . وَسَأُخَذُكُمْ عَنْ ذَلِكَ أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمَدَى الْحَبَشَةِ » ^(١) ، وروي عن عمر موقوفاً وهو أصح : « أَلَا إِنَّ الذَّكَاءَ فِي الْحَلْقِ وَاللِّبَةِ وَلَا تَعْمَلُوا الْأَنْفُسَ أَنْ تَزْهَقَ » ^(٢) وفي الحديث عن أبي العشاء الدارمي عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق ؟ فقال : « لَوْ طَعَنْتَ فِي فَخْذِهَا لَأَجْزَأَ عَنْكَ » ^(٣) . وهو حديث صحيح ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة .

وقوله : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ ﴾ قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة ، قال ابن جريج : وهي ثلاثمائة وستون نصباً ، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب ، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا ؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ أي حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام ، واحداها زلم ، وقد تفتح الزاي فيقال : زلم ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك ، وهي عبارة عن قدام ثلاثة على أحدها مكتوب : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث : غفل ليس عليه شيء . ومن الناس من قال : مكتوب على الواحد أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله أو النهي تركه وإن طلع الفارغ أعاد . والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام . وعن ابن عباس . ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ قال : والأزلام قدام كانوا يستقسمون بها في الأمور ، وذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أعظم أصنام قريش صنم

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٣) ومسلم في الأضاحي (٢٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٧٨/٩) والألباني في إرواء الغليل (١٧٦/٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٨٢٥) والترمذي في السنن (١٤٨١) .

كان يقال له : هبل منصوب على بحر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه ، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم ، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه ، وقد ورد أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام فقال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا » ^(١) . وروي أن سراقه بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبى بكر وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين ، قال : فاستقسمت بالأزلام هل أضرمهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره لا تضرهم ، قال : فعصيت الأزلام واتبعتهم ، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة كل ذلك يخرج الذي يكره لا تضرهم ، وكان كذلك وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك ^(٢) . ﴿ ذَلِكُمْ فَسْقٌ ﴾ أي تعاطيه فسق وغى وضلالة وجهالة وشرك ، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه بأن يعبدوه ثم يسألوه في الأمر الذي يريدونه ، كما روي عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول : « إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، فَاصْرِفْني عَنْهُ وَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ » ^(٣) .

وقوله : ﴿ الْيَوْمَ نَبِّسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ قال ابن عباس : يعني يسوسا أن يراجعوا دينهم . وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان ، وعلى هذا المعنى قد ورد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَبْسُ أَنْ يَغْبِثَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ بِالتَّخْرِيشِ يَبْسُهُمْ » ^(٤) ويحتمل أن يكون المراد أنهم يسوسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ، ولهذا قال تعالى أمرا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، ولا يخافوا أحدا إلا الله فقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ أي : لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم ، واخشوني أنصركم عليهم وأؤيدكم وأظفركم بهم وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرّمه ، ولا دين إلا ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأوامر

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٤/١) والبيهقي في السنن (١٥٨/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٤ ، ١٧٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٢) وأحمد في مسنده (٣٤٤/٣) وأبو داود في السنن (١٥٣٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٤/٣) والهندي في كثر العمال (١٢٤٦) والسيوطي في الدر المنثور (٢٥٧/٢) .

والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى : ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أي فرضوه أنتم لأنفسكم ، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال ابن عباس : قوله : ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً . وقال السدي : نزلت هذه الآية يوم عرفة ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام .

وقال ابن جرير : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً . وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر ، فقال له النبي ﷺ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، فقال : « صَدَقْتَ » ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت : « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيْبًا وَسَيَعُوْدُ غَرِيْبًا فَطُورُنِي لِلْغُرَبَاءِ »^(١) وعن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأي آية ؟ قال : قوله : ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ فقال عمر : والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة في يوم الجمعة^(٢) . ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً ، فقال عمر : إنني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة . قال سفيان : وأشك كان يوم الجمعة أم لا ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الآية^(٣) . قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه ، فقال عمر : أي آية يا كعب ؟ فقال : ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فقال عمر : قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه ، والمكان الذي أنزلت فيه ، نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد .

وقال عمار - وهو مولى بني هاشم - أن ابن عباس قرأ ﴿ آيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ فقال يهودي : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً ، فقال ابن عباس : فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين ، يوم عيد ويوم الجمعة .

وقوله : ﴿ فَمَنْ أَضَلُّ فِي مَخْصَمَةٍ عَيْرٍ مُّجَافٍ لِإِثْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك ، فله تناوله والله غفور رحيم له ؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويغفر له ، وعن ابن عمر مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ »^(٤) ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان ، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ،

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/١) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٠٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٢) والبيهقي في السنن (١٤٠/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٦٢/٣) .

وقد يكون مندوبًا ، وقد يكون مباحًا بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرق ، أو له أن يشبع ، أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال : كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيدًا وهو محرم ، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء ، أو ذلك الطعام ويضمن بدله ، على قولين هما قولان للشافعي رحمته الله . وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعامًا ، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ، بل متى اضطُر إلى ذلك جاز له ، وقد قال حسان بن عطية : عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا يا رسول الله : إنا بآرض تصيبنا بها الخمصة فمضى تحل لنا بها الميتة ؟ فقال : « إِذَا لَمْ تَضْطَبِحُوا ، وَلَمْ تَغْتَبِقُوا ، وَلَمْ تَحْتَفِقُوا بِهَا بَقْلًا فَشَأْنُكُمْ بِهَا » ^(١) . وقال ابن جرير : يروى هذا الحرف يعني قوله « أَوْ تَحْتَفِقُوا » على أربعة أوجه : تحفوا بالهمزة ، وتحفوا : بتخفيف الياء والحاء ، وتحفوا بتشديد ، وتحفوا بالحاء وبالتخفيف ، ويحتمل الهمز كذا رواه في التفسير .

قال النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ما يحل لنا من الميتة ، قال : « مَا طَعَامُكُمْ ؟ » قلنا : نصطبح ونغتبق ^(٢) . وقال أبو نعيم : فسره لي عتبة : قذح غدوة وقذح عشية قال : ذاك وأني الجوع ، وأحل لهم الميتة على هذه الحال . وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئًا لا يكفيهم فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم ، وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسد الرق ، والله أعلم .

وعن جابر عن سمرة أن رجلًا نزل الحرة ومعه أهله وولده ، فقال له رجل : إن ناقتي ضلت فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدها ولم يجد صاحبها . فرضت فقالت له امرأته : انحرها فأني فنفت ، فقالت له امرأته : اسلخها حتى تقدد شحمها ولحمها فأكله ، قال : لا ، حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فأتاه فسأله فقال : « هَلْ عِنْدَكَ غَنَى يُغْنِيكَ ؟ » قال : لا ، قال : « فَكُلُوهَا » قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك ^(٣) . وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها والله أعلم .

وقوله : ﴿ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ ﴾ أي متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له ، وسكت عن الآخر كما قال في سورة البقرة : ﴿ فَمَنْ أَضَلَّ عَنِ بَإِغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد استدل بهذه الآية من يقول : بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر لأن الرخص لا تنال بالمعاصي والله أعلم .

﴿ يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُجِلَ لَمْ يَكُنْ أَجِلٌ لَكُمْ أَلَيْسَتْ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ لِغُلَامَتَيْنِ مِمَّا عَلَّمْتُمْ اللَّهَ كَلَّوْا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَأَتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ ﴾ قال بعدها : ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُجِلَ لَمْ يَكُنْ أَجِلٌ لَكُمْ أَلَيْسَتْ ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . فعن سعيد بن جبيرة أن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين ، سألا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٨/٥) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٩) والحاكم في المستدرک (١٢٥/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨١٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨١٦) .

رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ ﴾ قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ ﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة . وعن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير فما أدرت فهو لك ، وإلا فلا تطعمه ، قلت : والمحكي عن الجمهور أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب ؛ لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق ، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم ، واختاره ابن جرير واحتج في ذلك بما رواه عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : « مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَكُلْ » ^(١) .

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود لأنه عنده مما يجب قتله ، ولا يحل اقتناؤه لما روي عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْحِمَارُ وَالْمَرْأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ » فقلت : ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ فقال : « الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ » ^(٢) . وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال : « مَا بَالُهُمْ وَيَبَالُ الْكِلَابِ اقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بِهِيمٍ » ^(٣) وعن سلمى أم رافع عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فسكت ، فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ ﴾ الآية ، فقال النبي ﷺ : « إِذَا أُرْسِلَ الرَّجُلُ كَلْبُهُ وَسَمِيَ فَأَمْسَكَ عَلَيْهِ فَلْيَأْكُلْ مَا لَمْ يَأْكُلْ » ^(٤) .

وقوله : ﴿ مُكَلِّينَ ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ عَلَّمْتُمْ ﴾ فيكون حالاً من الفاعل ، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو الجوارح ، أي وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكليات للصيد وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجراح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخلايه وظفيره أنه لا يحل له كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء ، ولهذا قال : ﴿ تَلْبِثُونَهُنَّ بِمَا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا أشلاه استشلى ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ فمتى كان الجراح معلماً وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حل الصيد وإن قتله بالإجماع . وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت في الصحيحين : عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله إنني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله ، فقال : « إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ » قلت :

(١) أخرجه الدرر في السنن (٨٩/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧/٦) والهندي في كتر العمال (٤٠٠١١) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) والنسائي في السنن (٣٣٧) .

(٤) أخرجه مسلم في الصيد (٣) وأحمد في مسنده (٣٧٩/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٥٩/٢) .

وإن قتلن ؟ قال : « وَإِنْ قَتَلْنَ ، مَا لَمْ يَشْرِكْنَهَا كُلِّبَ لَيْسَ مِنْهَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا سَمِعْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسْمَعْ عَلَى غَيْرِهِ » قلت له : فإني أرمي بالمعروض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَزَقْ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَهُ بِعَرَضٍ فَإِنَّهُ وَقِيدٌ فَلَا تَأْكُلْهُ »^(١) وفي لفظ لهما « إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَأَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَذْرِكْهُ حَيًّا فَاذْبَحْهُ وَإِنْ أَذْرِكْهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذَكَاتَهُ^(٢) » وفي رواية لهما : « فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ »^(٣) .

ذكر الآثار بذلك

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين ، فقال النبي ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ لَكَفَاكُمْ فَإِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ »^(٤) .

وعن أبي حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ، وإنا حضرنا معه طعامًا فجاءت جارية كأنما تدفع ، فذهبت تضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ يدها ، وجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله ﷺ يده فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ يَدَهَا ، وَجَاءَ بِهِذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ فَأَخَذْتُ يَدَهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ يَدُهُ فِي يَدِي مَعَ يَدَيْهِمَا »^(٥) .

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : لَا مَيْتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ ، وَإِذَا دَخَلَ وَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : أَذْرَكْتُمُ الْمَيْتَ ، فَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ أَذْرَكْتُمُ الْمَيْتَ وَالْعَشَاءَ »^(٦) .

وعن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل وما نشبع ، قال : « فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَقَرِّوِينَ . اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ »^(٧) .

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالنَّكَاحُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِهِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات ، قال بعده : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، فقال : ﴿ وَطَعَامُ

(١) أخرجه البخاري في الذبايح (٥٤٨٧) ومسلم في الصيد (١٠) والبيهقي في السنن (٢٣٥/٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الذبايح (٥٤٨٤) ومسلم في الصيد (٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٨/٤) والطبراني في الكبير (٧٤/١٧) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٣/٦) وابن ماجه في السنن (٣٢٦٤) والبيهقي في السنن (٢٧٦/٧) .

(٥) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٢) وأحمد في مسنده (٣٨٢/٥) وأبو داود في السنن (٣٧٦٦) .

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٣) وأحمد في مسنده (٣٨٣/٣) وأبو داود في السنن (٣٧٦٥) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (٥٠١/٣) وأبو داود في السنن (٣٧٦٤) وابن ماجه في السنن (٣٢٨٦) .

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يعني ذبائحهم . وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء : إن ذبائحهم حلال للمسلمين ؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عنه تعالى وتقدس . وقد روي عن عبد الله بن مغفل قال : أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته وقلت : لا أعطي اليوم من هذا أحدًا ، والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم . فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر . واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم ، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله لقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ قالوا : وهذا ليس من طعامهم واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث ، وفي ذلك نظر لأنه قضية عين ويحتمل أن يكون شحمًا يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوهما والله أعلم .

وقد ورد أن أهل خير أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية ، وقد سما ذراعها ، وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه ، وأثر ذلك في ثانيا رسول الله ﷺ وفي أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات ، فقتل اليهودية التي سمّتها ^(١) وكان اسمها زينب ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألها هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أضافه يهودي على خبز شعير وأهالة سنخة يعني ودكًا زنجًا ^(٢) ، وعن مكحول قال : أنزل الله ﷻ ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا تَذْكُرُ أَنَّهُ لَسُّهُ ﴾ ثم نسخه الرب ﷻ ورحم المسلمين فقال : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُكُمْ مِنْ لَدُنْكُمْ ﴾ أي : ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، وليس هذا إخبارًا عن الحكم عندهم اللهم إلا أن يكون خبرًا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها ، والأول أظهر في المعنى أي : ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبي ﷺ بذلك ، فأما الحديث الذي فيه : « لَا تَضَحَبْ إِلَّا مُؤَمِّنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا » ^(٣) فمحمول على النذب والاستحباب والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفاف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل : أراد بالحصنات الحرائر دون الإماء ، حكاه ابن جرير عن مجاهد وإنما قال مجاهد : المحصنات الحرائر ، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه ، ويحتمل أن يكون أراد بالحرّة العفيفة كما قال في الرواية الأخرى عنه ، وهو قول الجمهور ههنا والأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٥٠٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/٣) والدارمي في السنن (١٠٣/٢) والهندي في كنز العمال (٢٤٧٨٥) .

بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل « حشفاً نوسوء كيلة »، والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنى ، كما قال تعالى في الآية للأخرى : ﴿ مَحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُتَخَذَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ ﴾ ، ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة ، حكاه ابن جرير ، وقيل : المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات ، وهو مذهب الشافعي ، وقيل : المراد بذلك الذميات دون الحريات ؛ لقوله : ﴿ فَتِلْكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية . وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ، ويقول : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يَقُولَ اللَّهُ تَزَوَّجْنَا بِهَا ﴾ الآية . ونزلت هذه الآية ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يَقُولَ اللَّهُ تَزَوَّجْنَا بِهَا ﴾ الآية . ونزلت الآية التي بعدها ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب ، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ، ولم يروا بذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يَقُولَ اللَّهُ تَزَوَّجْنَا بِهَا ﴾ الآية . إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها ، وإلا فلا معارضة بينها وبينها ؛ لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْمُشْرِكِينَ مُغْفَيْنَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِذَا تَوَاتَوْا فِي الْحَرْبِ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ قَوْمٌ مُشْرِكُونَ ﴾ أي مهوورهن ، أي كما هن محصنات عفائف ، فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس .

وقوله : ﴿ مَحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُتَخَذَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ ﴾ فكما شرط الإحصان في النساء وهي العفة عن الزنى ، كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً ، ولهذا قال : غير مسافحين وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عن مجرماتهم ، ولا متخذين أخدان أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن كما تقدم في سورة النساء سواء ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله إلى أنه لا يصبح نكاح المرأة البغي حتى تتوب ، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف ، وكذلك لا يصبح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقبل عما هو فيه من الزنى لهذه الآية ، وللحديث : (لا يَنْكِحُ الزَّانِي الْمَجْلُودَ إِلَّا مِثْلَهُ) ^(١) . قال عمر بن الخطاب : لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة ، فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْلُظْوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَانْسِبُوا إِلَى يَرْؤُوكُمْ وَأَرْسُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبِيِّنَ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قال كثيرون من السلف في قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ يعني وأنتم محدثون ، وقال آخرون : إذا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٤/٢) وأبو داود في السنن (٢٠٥٢) والهندي في كنز العمال (٤٤٦٩٧) .

قمتم من النوم إلى الصلاة وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهر ندب ، وقد قيل إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ . وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله قال : « إِنِّي عَمَدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ » ^(١) .

وعن الفضل بن المبشر قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد ، فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين ، فقلت : أبا عبد الله أشيء تصنعه برأيك ؟ قال : بل رأيت النبي ﷺ يصنعه ، فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه .

وعن ابن سيرين أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة ، وقال عكرمة : كان علي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ الآية .

وقال أنس : توضأ عمر بن الخطاب وضوءا فيه تجوز خفيفا ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث . وعن عمرو بن عامر الأنصاري ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث ^(٢) ، وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ عَلَى طَهْرٍ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ » ^(٣) .

وقد قال قوم : إن هذه الآية نزلت إعلاما من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ؛ وذلك لأنه ﷺ كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ . وعن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ، ونسلم عليه فلا يرد علينا ، حتى نزلت آية الرخصة : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى : ﴿ إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ على وجوب النية في الوضوء ؛ لأن تقدير الكلام ﴿ إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ لها كما تقول العرب : إذا رأيت الأمير فقم أي له . وقد ثبت في الصحيحين حديث : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » ^(٤) ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه ، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال : « لَا وَضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » ^(٥) . ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم لما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَدْخُلْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا فَإِنْ أَحَدُكُمْ لَا يَذِرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ » ^(٦) . وحدد الوجه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٨/٥) والسيوطي في الدر المنثور (٢٦١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٤) وأحمد في مسنده (١٣٢/٣) وأبو داود في السنن (١٧١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٦٢) والترمذي في السنن (٥٩ ، ٦١) وابن ماجه في السنن (٥١٢) .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) ومسلم في الإمامة (١٥٥) وأحمد في مسنده (٢٥/١) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٥) وأبو داود في السنن (١٠٢) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٢٨/١) .

(٦) أخرجه مسلم في الطهارة (٨٧) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢ ، ٤٥٥) وأبو داود في السنن (١٠٥) .

عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصلع ولا بالغم - إلى منتهى اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً . وفي المسترسل من اللحية يستحب إفاضة الماء عليها وتخليها . وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه ، يخلل به لحيته وقال : « هَكَذَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي » ^(١) وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق ، فاختلف الأئمة في ذلك : هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمهما الله ، أو مستحبان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك لما ثبت في الحديث عن رفاعه بن رافع الزرقي أن النبي ﷺ قال للمسيء صلاته : « تَوَضَّأَ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ » ^(٢) ، أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة ، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْشِقْ » ^(٣) وفي رواية : « إِذَا تَوَضَّأَ أَخَذَ كُمْ فَلْيَجْعَلْ فِي مَنَحَرَيْهِ مِنَ الْمَاءِ ثُمَّ لِيَسْتَنْشِقْ » ^(٤) والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق .

وعن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا - يعني أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه - ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ . وقوله : ﴿ وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْفَرِاقِ ﴾ أي مع المرافق ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْكُ أَمْوَالِكُمْ إِنَّكُمْ كَانَ حُومًا كَبِيرًا ﴾ .

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه ، لما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أُمِنْتَ يُذْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ » ^(٥) وعن أبي هريرة أيضاً قال : سمعت خليلي ﷺ يقول : « تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ » ^(٦) . وقوله : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق وهو الأظهر ، أو للتبعض وفيه نظر على قولين ، ومن الأصوليين من قال : هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة ، وقد ورد عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم كان من أصحاب النبي ﷺ : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم ، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ، فغسل يديه مرتين ثم مضمض واستنشق ثلاثاً وغسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجله . وهذا دلالة لمن ذهب إلى

(١) أخرجه أبو داود في السنن (١٤٥) والبيهقي في السنن (٥٤/١) والهندي في كبر العمال (١٧٨٣٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٨٦١) وذكره الزيلعي في نصب الرأية (٣٦٧/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٢) وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦١) ومسلم في الطهارة (٢٢) ومالك في الموطأ (١٩) .

(٥) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٦) ومسلم في الطهارة (٣٥) .

(٦) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) وأحمد في مسنده (٣٧١/٢) والبيهقي في السنن (٥٧/١) .

وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه ، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال : تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه ، فغسل ذراعيه ومسح بनावيته ، وعلى العمامة وعلى خفيه . فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه يكمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك ، وأنه يقع عن الموقع ، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة ، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاختصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة والله أعلم . ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً كما هو المشهور من مذهب الشافعي ، وإنما يستحب مسحاً واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين ، فعن حمران بن أبان قال : رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما ثم تغمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم قال : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَخْذُلُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » ^(١) . وعن عثمان في صفة الوضوء : ومسح برأسه مرة واحدة .

وقوله : ﴿ وَأَرْطَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قرئ ﴿ وَأَرْطَكُمْ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ فَأَغْسِلُوا وَجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . وعن ابن عباس أنه قرأها ﴿ وَأَرْطَكُمْ ﴾ يقول : رجعت إلى الغسل ، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف ^(٢) ، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور ، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك ؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب . ومنهم من قال : لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظر عن النظر وأدخل المسح بين الغسلين دل ذلك على إرادة الترتيب ، وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ ﴿ وَأَرْجِلِكُمْ ﴾ بالخفض ، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . وقد روي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح .

وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام ، كما في قول العرب : (جحر ضب خرب) وكقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَنَدٌ خَضِرٌ لَّا يَبْهَتُونَ ﴾ وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ ، ومنهم من قال : هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان ، قاله أبو عبد الله

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٩) ومسلم في الطهارة (١٢) وأحمد في مسنده (٥٩/١) .

(٢) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وحفص والكسائي بالنصب والباقون بالجر (انظر تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

الشافعي رحمته الله ، ومنهم من قال : هي دالة على مسح الرجلين ، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة ، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها ، فمن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في راحة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ، ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ، ثم قام فشرب فضله وهو قائم ، ثم قال : إن ناساً يكرهون الشرب قائماً وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ، وقال : « هَذَا وَضُوءٌ مَنْ لَمْ يُحْدِثْ » ^(١) .

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل ، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً ، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية فلم يحقق مذهبه في ذلك فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء ؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك فأوجب دلوكهما ليذهب ما عليهما ، ولكنه عبر عن ذلك بالمسح فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما ، فحكاه من حكاه كذلك ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور ، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل ، سواء تقدمه أو تأخر عليه ؛ لاندراج فيه ، وإنما أراد الرجل ما ذكرته والله أعلم . ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله : ﴿ وَأَرْجِلَيْكُمْ ﴾ خفصاً على المسح وهو كذلك ونصباً على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه .

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غسل الرجلين في وضوئه ، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً على اختلاف رواياتهم ، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فغسل قدميه ثم قال : « هَذَا وَضُوءٌ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ الصَّلَاةَ إِلَّا بِهِ » ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنأدى بأعلى صوته : « أَشْبِعُوا الْوُضُوءَ ، وَنِيلَ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ » ^(٣) ، وعن عبد الله بن الحارث بن حرز أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وَنِيلَ لِلْأَعْقَابِ وَتُطَوَّنِ الْأَقْدَامُ مِنَ النَّارِ » ^(٤) وعن أبي إسحاق أنه سمع سعيد بن أبي كرب أو شعيب بن أبي كرب قال : سمعت جابر بن عبد الله وهو على جبل يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وَنِيلَ لِلْقَرَايِبِ مِنَ النَّارِ » ^(٥) .

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧٥/١) وابن خزيمة في صحيحه (١٦) .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٩/١) وذكره ابن حجر في فتح الباري (٢٣٣/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٥) ومسلم في الطهارة (٢٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٩١/٤) والترمذي في سننه (٤١) .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٦٩/٣) .

وروي عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أخبرني عن الوضوء فقال : « أَشْبَغُ الْوُضُوءَ وَخَلَّلَ يَمِينَ الْأَصَابِعِ ، وَبَالَغَ فِي الْاسْتِنْشَاقِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا » ^(١) .

وعن عمرو بن عبسة قال : قلت : يا رسول الله أخبرني عن الوضوء ؟ قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَقْرُبُ وَضُوءَهُ ثُمَّ يَتَمَضَّمُ وَيَسْتَنْشِقُ وَيَنْتَبِذُ إِلَّا خَرَتْ خَطَايَاهُ مِنْ فِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ مَعَ الْمَاءِ حِينَ يَنْتَبِذُ ، ثُمَّ يَغْسِلُ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمَوْقِفَيْنِ إِلَّا خَرَتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَتَامِلِهِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَتْ خَطَايَا قَدَمَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ مَعَ الْمَاءِ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ، ثُمَّ يَزَكِّي رِكَعَتَيْنِ ، إِلَّا خَرَجَ مِنْ دُثْرِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » قال أبو أمامة : يا عمرو انظر ما تقول سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، أعطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ فقال عمرو بن عبسة : يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إِلَّا مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك ^(٢) . ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين ، فدلكهما ، إنما أراد غسلًا خفيفًا وهما في النعلين ، ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين .

وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه ، ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها ، توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين . وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن لم يصح إسناده ، ثم الثابت عنه خلافه وليس كما زعموه ، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة . عن جرير بن عبد الله البجلي قال : أنا أسلمت بعد نزول المائدة ، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت ^(٣) . وعن همام قال : بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل : تفعل هذا ؟ فقال : نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه . قال الأعمش : قال إبراهيم : فكان يعجبهم هذا الحديث ؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة ^(٤) .

وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير ، مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط في موضعه ، وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند ، بل بجهل وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ^(٥) كما ثبت في الصحيحين

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٥) والترمذي في سننه (٧٨٨) وابن ماجه في سننه (٤٤٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٩٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٤٥٥/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٩٣/٤) . (٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٢) .

(٥) انظر صحيح مسلم في الطهارة (٨٥) وفيه أن رسول الله ﷺ جعل مدة المسح ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويوماً وليلة للمقيم .

عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها^(١) ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر ولله الحمد ، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبيين اللذين في القدمين ، فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب ؛ وعند الجمهور أن الكعبيين هما العظمان الناتقان عند مفصل الساق والقدم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم ، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي لعلمكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة ، وقد وردت الستة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة ، كما روي عن عقبة بن عامر قال : كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي ، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس فأدركت من قوله : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُخَيِّسُ وُضُوْعَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا يَقْلِبُهُ وَوَجْهَهُ إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » قال : قلت : ما أجود هذه فإذا قائل بين يدي يقول : التي قبلها أجود منها ، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه ، فقال : إني قد رأيتك جئت آنفاً ، قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُطِيلُغ - أَوْ فَيَسِغُ - الْوُضُوْعَ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ »^(٢)

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذِّرَىٰ وَانْقَرَضُوا إِلَيْهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَوْا اللَّهَ إِنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٧ ﴾ يَتَأْتِيهَا الذِّبَرُ ؕ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ؕ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ١٩ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ٢٠ ﴾ يَتَأْتِيهَا الذِّبَرُ ؕ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطَلُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتهم ومناصرتهم ومؤازرتهم ، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذِّرَىٰ وَانْقَرَضُوا إِلَيْهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا : يايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ،

(١) أخرجه البخاري في الذبايح (٥٥٢٣) وأحمد في مسنده (٧٩/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٤/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) .

وقيل : هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه ، رواه ابن عباس . وقيل : هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ والقول الأول أظهر ، وهو المحكي عن ابن عباس ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله ﷻ لا لأجل الناس والسمعة ، وكونوا ﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل لا بالجور ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان ابن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلاً ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أَكُلَ وَلَدِكَ نَحْلَتَ مِثْلَهُ ؟ » قال : لا ، فقال : « اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ » ، وقال : « إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَىٰ جَوْرِ » قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْزِيَنكُمُ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً ، ولهذا قال : ﴿ اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه كما في نظائره من القرآن وغيره ، وقوله : ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ من باب استعمال أفعال التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وكقول بعض الصحابييات لعمر : أنت أفض وأغلظ من رسول الله ﷺ (٢) ، ثم قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده ، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل ، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم ، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَسْتَعْطُوا لِيَايَنَكُمْ اِيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس في العشاء يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله ، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال : من يمنك مني ؟ قال : « الله ﷻ » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً : من يمنك مني ؟ والنبي ﷺ يقول : « الله » ، قال فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه (٣) . وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا . ويذكر أن قوماً

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٦) ومسلم في الهبات (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٤) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٢) والإمام أحمد في مسنده (١٧١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٥/٣ ، ٣٩٠) .

من العزب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ ، فأرسلوا هذا الأعرابي وتأول ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية . وقصة هذا الأعرابي وهو غوث بن الحارث ثابتة في الصحيح ^(١) ، وقال العوفي : عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوه ، فأوحى الله إليهم بشأنهم فلم يأث الطعام ، وأمر أصحابه فأتوه ^(٢) . وقال مجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي لما جاءهم يستعينهم في دية العمارين ، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك ، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده ، أن يلقي تلك الرحي من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فنزل الله في ذلك هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغلبوا إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم . ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ عُشْرَ نَبِيَّاتٍ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ جَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ لَمَنْهُمْ لَحْمُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَلْفَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا ظِلَالُ يَهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَبِالنَّبِيِّ الَّذِينَ آمَنُوا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَوَدَّةٌ بَيْنَهُمْ اللَّهُ يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى ، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم ، وطرذاً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم التام والتمتع بالصالح ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمْ عُشْرَ نَبِيَّاتٍ ﴾ يعني حرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتاباه ، وقد ذكر ابن عباس أن هذا كان لما توجه موسى الطيلى لقتال الجبابرة ، فأمر بأن يقيم بقية من كل سبط نقيب .

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ، ثلاثة من الأوس وهم : أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة وزفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله : وأبو الهيثم بن التيهان ، وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وزافع بن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عباد وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمر بن

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦٦/٢) .

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

خنيس ﷺ ، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين ولوا المعاقلة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة . وعن مسروق قال : كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن هل سألتكم رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألتني منها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال : « اثْنَا عَشَرَ كَيْدَةَ نَقَبَاءَ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ » ^(١) . وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي ، فسألت أي ماذا قال النبي ﷺ ؟ قال : « كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ » ^(٢) ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل قد وجد أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره ، فذكر أنه يواطئ اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا ؛ فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة ، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أي : بحفظي وكلاعتي ونصري ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ أي : صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وَعَزَّزْتُمُوهُمْ ﴾ أي : نصرتموهم وأزعموهم على الحق ﴿ وَأَقْرَضْتُمُوهُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لَا كُفْرًا عَنْكُمْ سِنَائِكُمْ ﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أواخذكم بها ﴿ وَلَدَخَلْنَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود . وقوله : ﴿ تَمَنَّ كُفْرًا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي : فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده ، وشذبه وجحدته وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال . ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال : ﴿ فِيمَا نَقَبْنَاهُمْ يَبْتَغِيهِمْ لَمَنَّهُمْ ﴾ أي : فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبًا مَيِّسًا ﴾ أي : فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿ يَمْزُقُونَ إِلْحَامَهُ عَنْ مَوَاطِئِهِ ﴾ أي : فسدت فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل عياداً بالله من ذلك ﴿ وَاسْتَوْحَظُوا بِمَا دُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي : وتركوا العمل به رغبة عنه ، ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنٍ مِنْهُمْ ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك ، وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تماثلهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿ فَاعْتَفِ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر ، كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٨/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة (٦) وأحمد في مسنده (٩٩/٥ ، ١٠٠) .

أن يهديهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك ، وقال قتادة : هذه الآية ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾ منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَبِالَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أي : ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام ، وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرتة وموازرتة واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكُفُّوا عَنَّا ذِكْرًا بِمَا فَآخَرْنَا بَيْنَهُمُ الْوَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ﴾ أي : فآلقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، ثم قال تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبهوا من الكذب على الله وعلى رسوله ، وما نسبوه إلى الرب ﷻ وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة ولداً ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ يَتَّخِذِ الْكَتِبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة : أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكنايهم ، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى : ﴿ يَتَّخِذِ الْكَتِبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أي : يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه واقرؤوا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه ، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب . قوله : ﴿ يَتَّخِذِ الْكَتِبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ فكان الرجم مما أخفوه ^(١) ، ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ أي : طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبن المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَ قُلْ فَلِمَ

يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ أي : لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ، ثم قال : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : جميع الموجودات ملكه وخلقها وهو القادر على ما يشاء ، لا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ﴾ أي : نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا ، ونقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم - يعني ربي وربكم - ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوا في عيسى عليه السلام ، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده ، ولهذا قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه . قال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ أي : لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه ، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه ، فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ وهذا الذي قاله حسن ، وله شاهد عن أنس قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابني ، ابني ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه تلتقي ولدها في النار ، قال : فحفظهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « لَا وَاللَّهِ مَا يُلْقِي حَبِيبِي فِي النَّارِ » ^(١) . ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي : لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : هو فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع والمآب إليه ؛ فيحكم في عبادته بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور . وعن ابن عباس قال : وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أصاب وبحر بن عمرو وشاس بن عدي ، فكلموه وكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته ، فقالوا : ما نخوفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ، فأنزّل الله فيهم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ ﴾ إلى آخر الآية ^(٢) . أما قولهم : نحن أبناء الله ، فإنهم قالوا : إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكري من الولد فيدخلهم النار فيكونون فيها أربعين ليلة ، حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ، ثم ينادي مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل ، فأخرجوهم فذلك قولهم : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤/٣) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٨٣/١٠) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٢٤/٦) .

﴿ يَأْتِيهِمُ الْكِتَابُ فَدَّ جَاءَكُمْ رَسُولًا يَنْبِئُكُمْ عَنْ فِتْنَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى : بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده. ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ، ولهذا قال : ﴿ عَنْ فِتْنَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أي : بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم ، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي فقال أبو عثمان النهدي وقادة في رواية عنه : كانت ستمائة سنة ، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي وعن قتادة خمسمائة وستون سنة ، وقال الضحاك : أربعمائة وبضع وثلاثون سنة ، والمشهور هو القول الأول وهو أنها ستمائة سنة ، ومنهم من يقول : ستمائة وعشرون سنة ، ولا منافاة بينهما ، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية والآخر أراد قمرية ، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين ، ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف : ﴿ وَابْتَئُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ أي : قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب .

وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم ، آخر أنبياء بني إسرائيل ، وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق ، كما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِإِنِّ مَرْيَمَ لَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ » ^(١) . وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له : خالد بن سنان كما حكاه القاضي وغيره .

وعن عياض بن حماد المجاشعي ﷺ أن النبي ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبته : « وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ بِمَا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي خُنْفَاءَ كُلُّهُمْ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَصْلَبَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَزَبَهُمْ وَعَجَبَهُمْ ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يُغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقَرُّوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ يَا رَبِّ : إِذَنْ يَتْلَعُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً ، فَقَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ ، وَاغْزِهِمْ نَغْرَكَ ، وَأَتَّفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَتَنْتَقِ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا يَبْعَثُ خَمْسَةَ أَمْثَالِهِ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَصَدِّقٌ ، وَرَجُلٌ رَجِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُوَّةٍ وَمُسْلِمٌ ، وَرَجُلٌ غَفِيفٌ فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ ، وَأَهْلُ الثَّارِ خَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا دِينَ لَهُ ، وَالَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ أَوْ تَبَعًا - سَكَ يَحْيَى - لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْحَائِثُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُضْبَحُ وَلَا يُنْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » . وذكر البخيل أو الكذاب والشنظير الفاحش ^(٢) . والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله : « وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ وَعَجَبَهُمْ وَعَزَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ، وفي لفظ مسلم « من أهل الكتاب » وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ ،

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٤) ومسلم بنحوه في الجنة (٦٣) .

فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشرعة الغراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أي : لئلا تحتجوا وتقولوا : يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر فقد جاءكم بشير ونذير ، يعني محمداً ﷺ ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال ابن جرير : معناه إني قادر على عقاب من عصاني وثواب من أطاعني . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّرُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يُقَوِّرُ أَذْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿ قَالُوا يَمْوَسَّى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ قَالَ دَاخِلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَذْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ قَالُوا يَمْوَسَّى إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَهْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَتَنْتَلِهَا إِنَّا هُنَا مُعْذِرُونَ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّرُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ أي : كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده ، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم ﷺ ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسول على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم ﷺ وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ قال : الخادم والمرأة والبيت ، ﴿ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ ، وعن ابن عباس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً ، وقال السدي في قوله : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله .

وقد ورد في الحديث « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِنًا فِي سِرِّهِ ، عِنْدَهُ قُوْثٌ يَوْمِيهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا » (١) وقوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَقِيعَ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَلِلْكَافِرِ وَالْكَافِرَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالصَّافِرِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُجْرِمِينَ وَبَيْنَهُمْ أُولَئِكَ يَنْفَرُونَ بَعْدَ إِذْ أَخَذُوا مِنَ اللَّهِ عَهْدَ أَنَّهُمُ ابْنُ آدَمَ خُلَافَةٌ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَالْيُسُفَ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ وَقَدْ آتَيْنَا نُوْحًا كُلًّا مِمَّا شَاءَ وَبَعَثْنَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَشْرَفَ مِنْهُمْ وَأَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَكْمَلَ شَرِيعَةً وَأَقْوَمَ مِنْهَا جَا وَأَكْرَمَ نَبِيًّا وَأَعْظَمَ مُلُوكًا وَأَغْزَرَ أَرْزَاقًا وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَأَوْسَعَ مَمْلَكَةً وَأَدْوَمَ عَزًّا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ . ﴿ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني أمة محمد ﷺ والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه ، وهو محمول على عالمي زمانهم . ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى ﷺ لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس

﴿يَقْوَرُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي المطهرة ، وعن ابن عباس قال : هي الطور وما حوله ، وكذا قال مجاهد وغير واحد ، وروى سفيان الثوري عن ابن عباس قال : هي أريحاء ، وفي هذا نظر لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس .
وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي كَتَبْتُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي : التي وعدكموها الله على لسان أيكم إسرائيل أنه وراثته من آمن منكم ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَى آذَانِكُمْ﴾ أي : ولا تنكلوها عن الجهاد ﴿فَنَنْقِلُوهَا خَيْرِينَ﴾ قَالُوا يَمْوَسَّى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿أي : اعتدروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قَوْمًا جَبَّارِينَ ذَوِي خَلْقٍ هَائِلَةٍ وَقَوِي شَدِيدَةٍ ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مَقَاوِمِهِمْ وَلَا مَصَالَتِهِمْ وَلَا يُمْكِنُنَا الدَّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلْنَاهَا وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثون ذراعًا وثلاث ذراع تحمير الحساب ، وهذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ فِرَازًا ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ» (١) .

وقوله تعالى : ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أي : فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ (٢) أي : ممن لهم مهابة وموضع من الناس ، ويقال : إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة . ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَلَى اللَّهِ فَتَوَلَّوْا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي : إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ، ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم فلم ينفع ذاك فيهم شيئًا ﴿قَالُوا يَمْوَسَّى إِنَّا لَنَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء . وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب ، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول الله ﷺ يقول : «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ» وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار ؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ ، فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٦) وأحمد في مسنده (٢٥١/١) .

(٢) نُسبت هذه القراءة إلى ابن عباس ، كذا في البحر المحيط (٤٥٥/٤) .

غذاً ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .
فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونسطه ذلك (١) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ ، قالوا : إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك .

وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام . وقال داعياً عليهم : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي : ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله ويجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿ فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : يعني اقض بيني وبينهم . وكذا قال الضحاك : اقض بيننا وبينهم وافتح بيننا وبينهم ، وقال غيره : افرق افضل بيننا وبينهم كما قال الشاعر :
يَا رَبِّ فَافَرِّقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي أَشَدُّ مَا فَرَّقْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية ، قال : لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة ، فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه ، وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ، ويقال لها : قبة الزمان . وعن سعيد بن جبير ، سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية ، قال : فتاهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن هنا قال بعض المفسرين في قوله : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا وقف تام ، وقوله : ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ منصوب بقوله : ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقي منهم ويسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصدهم بهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيقت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي . فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله يوشع ابن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً وهم يقولون : حطة ، أي :

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٨٣) .

حط عنا ذنوبنا فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة .
 وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ تسلياً لموسى عليه السلام عنهم أي : لا تأسف ولا تحزن
 عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان
 فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهم فيما أمروهم به من الجهاد ، فضغفت
 أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه
 وصفيه من خلقه في ذلك الزمان ، وهو يدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا مع ما شاهدوا من فعل
 الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والفرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقر به أعينهم وما
 بالمعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر ، لا توازي عشر المعشار
 في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، واقتضوا فضيحة لا يغطيها
 الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى
 الله وأعداؤه ، ويقولون مع ذلك : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقيح الله وجوههم التي مسخ منها
 الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، وبقضي لهم فيها بتأييد الخلود ، وقد
 فعل وله الحمد من جميع الوجوه .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ
 إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُنَّاءَ بِنِيبٍ وَإِنِّي لَأَخِيتُكَ وَكَفَى بَيْنَهُمَا نَارًا وَكَفَى بِالْظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ فَطَوَعَتْ لِمُتَسَمَّرٍ
 قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٤﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
 يُورِثُكَ أَصْغَرُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور ،
 وهما قاييل وهايل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من
 النعمة ، وتقتل القربان الذي أخلص فيه لله ﷻ ، فجاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ،
 وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين ، فقال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾
 أي : اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقرودة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر
 ابني آدم وهما هايل وقاييل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي :
 على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، كقوله
 تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن
 الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل
 بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هايل دميمة وأخت
 قاييل وضيفة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً فمن تقبل منه فزى له
 فتقبل من هايل ولم يتقبل من قاييل فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه .

ذكر أقوال المفسرين ههنا

عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية . فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : هابيل وقايل ، وكان قايل صاحب زرع وكان هابيل صاحب زرع ، وكان قايل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قايل فأبى عليه ، وقال : هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها ، فأمره أبوه أن يزوجه هابيل فأبى ، وأنهما قربا قربانا إلى الله ﷻ أيهما أحق بالجارية ، وكان آدم ﷺ قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليهما . قال الله ﷻ : هل تعلم أن لي بيتا في الأرض ؟ قال : اللهم لا ، قال : إن لي بيتا في مكة فأت ، فقال آدم للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقايل : فقال : نعم ، تذهب وترجع وتجد أهللك كما يسرك ، فلما انطلق آدم قربا قربانا ، وكان قايل يفخر عليه فقال : أنا أحق بها منك ، هي أختي وأنا أكبر منك ، وأنا وصي والدي ، فلما قربا قربا هابيل جذعة سمينة وقرب قايل حزمة سنبل ، فوجد فيها سنبله عظيمة ففركها وأكلها ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قايل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال هابيل : إنما يتقبل الله من المتقين .

وروى العوفي عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا لو قربنا قربانا ، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا وكان الآخر حراثا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرع ، فجاءت النار فنزلت بينهما ، فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد علي ، فلا والله لا ينظر الناس إلي وأنت خير مني ، فقال : لأقتلنك فقال له أخوه : ما ذنبي إنما يتقبل الله من المتقين . فهذا الأثر يقتضي أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ في امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، وهو ظاهر القرآن ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه ، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل ، وأن الذي قرب الطعام هو قايل ، وأنه تقبل من هابيل شاته حتى قال ابن عباس وغيره : إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب والله أعلم ، ولم يتقبل من قايل . كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف .

ومعنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : ممن اتقى الله في فعله ذلك ، وقال أبو الدرداء : لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وقوله : ﴿ بَيْنَ بَسَطَ إِلَهِ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ﴾ إني أخاف الله رب المتقين يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَهِ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ﴾ أي : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا

وأنت سواء في الخطيئة ﴿إِنَّ أَخَاكَ أَلَسَّ بِكَ﴾ أي : من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب ، قال عبد الله بن عمرو : وإيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التجرع ، يعني الورع . ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إِذَا تَوَاجَعَا الْمُسْلِمَانِ بِسَيِّئَتَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » ^(١) . وعن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي » قال : أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقتلني فقال : « كُنْ كَأَبْنِ آدَمَ » ^(٢) .

وعن أبي ذر قال : ركب النبي ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « تَعَفَّفْ » قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتُ شَدِيدٌ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْعَبْدِ يَعْنِي الْقَبْرِ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « إِصْبِرْ » قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَعْنِي حَتَّى تَفْرُقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنَ الدَّمَاءِ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم قال : « اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ » قال : فإن لم أنزل قال : « فَأَبِ مَنِ أَنْتَ مِنْهُمْ فَكُنْ مِنْهُمْ » قال : فأخذ سلاحي قال : « فَإِذَا تُشَارِكُهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ وَلَكِنْ إِذَا خَشِيتَ أَنْ يَزِدَّكَ شُعَاعُ الشَّيْفِ فَالْتَوِ طَرَفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ كَمَا يَتَوَّعُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمُكَ » ^(٣) . وقوله : ﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَكُونْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَٰلِٰسِينَ﴾ قال ابن عباس والسدي في قوله : ﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي : إياي قتلتي وإياي الذي عليك قبل ذلك . قاله ابن جرير . وقال آخرون : يعني بذلك : إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي ، وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطًا ، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه ، يعني ما رواه سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ قال بقتلك إياي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ قال : بما كان منك قبل ذلك ، وروى عن مجاهد ﴿إِنَّ أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يقول : إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي .

قلت : وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول ، ويذكرون في ذلك حديثًا لا أصل له « مَا تَرَكَ الْقَاتِلُ عَلَى الْمَقْتُولِ مِنْ ذَنْبٍ » . قد روى الحافظ أبو بكر البرقاني حديثًا يشبه هذا ولكن ليس به : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « قَتْلُ الصَّبْرِ لَا يَمُوتُ بِذَنْبٍ إِلَّا مَحَاهُ » ^(٤) وهذا بهذا لا يصح ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه ، فأما أن تحمل على القاتل فلا ، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب ، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته ، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل ، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨٣) ومسلم في الفتن (١٤) وأبو داود (٤٢٦٨) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٣) وأحمد في مسنده (١٨٥/١) والسيوطي في الدر المنثور (٢٧٤/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩/٥) . (٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٦/٦) .

كلها ، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم . وأما ابن جرير فقال : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن تأويله إنني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْثُغَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ وأما معنى ﴿ وَإِثْمِكَ ﴾ فهو إثمه يعني قتله ، وذلك كمعصية الله ﷻ في أعمال سواه ، وإنما قلنا : ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه ، وأن الله ﷻ أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه ، وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركب قتيله . هذا لفظه ، ثم أورد على هذا سؤالاً حاصله كيف أراد هاييل أن يكون على أخيه قاييل إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرم ، وأجاب بما حاصله أن هاييل أخبر عن نفسه بأن لا يقاتل أخاه إن قاتله ، بل يكف عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه ، قلت : وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ ، وزجراً له لو انزجر ، ولهذا قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْثُغَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ أي : تتحمل إثمى وإثمك ﴿ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ ذَلِكَ جَزَاءُ الْفَٰلِٰئِينَ ﴾ وقال ابن عباس : خوؤه بالنار فلم ينته ولم ينزجر . وقوله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ أي : فحسنت وسوّلت له نفسه وشجعت على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر ، أنه قتله بحديدة في يده . وقال السدي : عن ابن عباس وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ، فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فطلبه ليقترله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال ، فأثاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة وأي خسارة أعظم من هذه . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُخْبِرَ كَيْفَ يُوْرَى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَلِّيْكَ أَخَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ قال السدي : لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن ، فبعث الله غرابين أخوين فاقترلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حتى عليه ، فلما رآه قال : ﴿ يُؤَلِّيْكَ أَخَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَاءَ أَخِي ﴾ وقال ابن عباس : جاء غراب إلى غراب ميت فحشى عليه من التراب حتى واره ، فقال الذي قتل أخاه : ﴿ يُؤَلِّيْكَ أَخَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَاءَ أَخِي ﴾ وقال الضحّاك عن ابن عباس : مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرأهما يحثان فقال : ﴿ أَخَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ ﴾ فدفن أخاه .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ قال الحسن البصري : علاه الله بندامة بعد ندامة بعد خسران فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن ، وكما نطق به الحديث في قوله : « إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا لِأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » وهذا ظاهر جلي ولكن قال ابن جرير : عن الحسن - هو البصري - قال : كان الرجلان اللذان في القرآن

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٥) ومسلم في القسامة (٢٧) .

اللذان قال الله : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه وإنما كان القربان من بني إسرائيل ، وكان آدم أول من مات . وهذا غريب جداً وفي إسناده نظر . وعن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ ابْنَيْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَرَبَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلًا فُحْذُوا بِالْخَيْرِ مِنْهُمَا » (١) .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا رُشْدًا يَلَيِّنُ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٢) . إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أي : شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي : من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ عن أبي هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت : لا ، قال : فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً ، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور . قال : فانصرفت ولم أقاتل . وقال ابن عباس : هو كما قال الله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرماً لله ، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً ، يعني أنه من حرم قتلها إلا بحق حيي الناس منه ومن أحياها أي : كف عن قتلها . وقال العوفي : عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ : من قتل نفساً واحدة حرماً لله فهو مثل من قتل الناس جميعاً ، وقال عكرمة والعوفي عن ابن عباس : من قتل نبياً أو إماماً عدل فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً . وعن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله اجعلني على شيء أعيش به ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا حَمْزَةُ نَفْسٌ تُحِبُّهَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسٌ تُبْغِيهَا » قال : بل نفس أحبيها ، قال : « عَلَيْكَ بِتَقْسِمْكَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا رُشْدًا يَلَيِّنُ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَثَ فِي الْأَرْضِ لَمْسِرُوتٌ ﴾ وهذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم ، بعد علمهم بها كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود ، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذ وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه وودوا من قتلوه ، قوله : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧٥/٢) والهندي في كتر العمال (٤٣٠٢٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/٢) والمنذري في الترهيب (١٥٩/٣) وذكره الهندي في كتر العمال (٤٣١٤٨) .

الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴿٣٢﴾ الآية . المحاربة هي المضادة والمخالفة وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف : منهم سعيد بن المسيب : إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَوْلُكَ سَبِيحًا فِي الْأَرْضِ يُغْفَرُ فِيهَا وَهِيَكَ الْحَرَّةُ وَاللَّسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ ﴿٣٣﴾ ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين ، كما ورد عن عكرمة والحسن البصري قالا : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ - إِلَى - أَنْتَ اللَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٣٤﴾ نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض ، أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب . وعن ابن عباس ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ ﴿٣٥﴾ نزلت في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه ^(١) ، وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس في الآية قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ^(٢)

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ، كما روي من حديث أبي قلابة - عن أنس بن مالك أن نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِيَا فِي إِلَيْهِ فَتَقْصِيصُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا » فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوها من أبوالها وألبانها ، فصحوا فقتلوا الراعي وطردهوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم ، فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا ^(٣) . وعن أنس بن مالك أن ناسا من عرينة قدموا المدينة فاجتووها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ، ففعلوا ، فصحوا ، فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي وساقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم ، فجيء بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمرت أعينهم وألقاهم في الحرة ، قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا ، ونزلت : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية .

عن جرير ، قال : قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين ، فأمر بهم رسول الله ﷺ ، فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح ، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم ، قال جرير : فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم ، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمل أعينهم ، فجعلوا

(١) أخرجه أبو داود في سنن (٤٣٧٢) . (٢) ذكره الطبري في تفسير (٢٧٩/٦)

(٣) أخرجه مسلم في القسام (١٠) وأحمد في مسند (١٨٦/٣) والنسائي في سنن (٤٠٢٤)

يقولون : الماء ، ورسول الله ﷺ يقول : النار ، حتى هلكوا ، قال : وكره الله ﷻ سسل الأعين ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إلى آخر الآية ^(١) . هذا حديث غريب ، وفي إسناده الربذي وهو ضعيف ، وفي إسناده فائدة وهو ذكر أمير هذه السرية وهو جرير بن عبد الله البجلي . وأما قوله : فكره الله سمل الأعين فأنزل الله هذه الآية ، فإنه منكر ، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء ، فكان ما فعل بهم قصاصاً والله أعلم . وعن أبي هريرة قال : قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلاً ، فأمرهم النبي ﷺ إلى لقاحه ، فشرّبوا منها حتى صحوا ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها ، فطلبوا ، فأتي بهم النبي ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمّر أعينهم . قال أبو هريرة : ففيهم نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فترك النبي ﷺ سمر الأعين بعد .

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم ، فقال بعضهم : هو منسوخ بهذه الآية وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله ﴿ عَنَّا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ ومنهم من قال : هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة ، وهذا القول فيه نظر ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ ، وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، قال محمد بن سيرين : وفيه نظر فإن قصته متأخرة . وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها فإنه أسلم بعد نزول المائدة ، ومنهم من قال : لم يسمل النبي ﷺ أعينهم وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فيمن حكم المحاربين ، وهذا القول أيضاً فيه نظر فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سسل ، وفي رواية سمر أعينهم . وقال الوليد بن مسلم : ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبي ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا ، فقال : سمعت محمد بن عجلان يقول : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك ، وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفي ولم يسمل بعدهم غيرهم ، قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو - يعني الأوزاعي - فأذكر أن يكون نزلت معاتبة ، وقال : بل كانت عقوبة أولئك نفر بأعيانهم ، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم . ورفع عنهم السمل ، ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله : ﴿ وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل ، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه : إن هذه محاربة ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تكون المحاربة إلا في الطرقات فأما في الأمصار فلا ؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيبه ويعينه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس في الآية : من شهّر السلاح في فئة الإسلام ، وأخاف السبيل ، ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، وكذا قال سعيد بن المسيّب ومجاهد وعطاء والحسن البصري ، ومستند هذا القول أن ظاهر ﴿ أَوْ ﴾ للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في كفارة الفدية : ﴿ فَن كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ

تَأْسِيَهُ فَيَذِيئُهُ بَيْنَ صَيَارٍ أَوْ مَدَقَةٍ أَوْ مَقْلٍ ﴿١﴾ وهذه كلها على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية ، وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال كما قال ابن عباس في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة ، واختلفوا هل يصلب حيًا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو يقتله برمح أو نحوه ، أو يقتل أولًا ثم يصلب تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين ، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده ، في ذلك كله خلاف محرر في موضعه وبالله الثقة وعليه التكلان ، ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام ، قال أنس : فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب ، فقال : من سرق مالا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقطعه ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه (١) .

وأما قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قال بعضهم : هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام (٢) . وقال آخرون : هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر أو يخرج من السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية ، وقال الشعبي : ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله ، وقال عطاء الخراساني : ينفي من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير : أنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام . وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا السجن ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم ، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا ، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا يؤيد قول من قال : إنها نزلت في المشركين ، فأما أهل الإسلام ، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزن ولا نقتل أولادنا ولا يعرضه بعضنا بعضًا ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب ، فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه (٣) . وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَعُوقِبَ بِهِ فَاللَّهُ أَغْدَلُ مِنْ أَنْ يُنْتَجَى عُقُوبَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ ، وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ » (٤) . وقال ابن جرير في قوله : ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ، ففي الآخرة مع الجزاء الذي

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢٨٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٤٣) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٢٩٥/٦) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٩/١) .

جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا عذاب عظيم ، يعني عذاب جهنم ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أما على قول من قال : إنها في أهل الشرك فظاهر ، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتم القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع وعليه عمل الصحابة ، كما قال الشعبي : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة ، وكان قد أفسد في الأرض وحارب فكلّم رجلاً من قريش ، منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد الله بن جعفر ، فكلّموا عليّاً فيه فلم يؤمنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلقه في داره ، ثم أتى عليّاً فقال : يا أمير المؤمنين رأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فقرأ حتى بلغ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ ﴾ قال : فكتب له أماناً .

قال الليث : حدثني موسى بن إسحاق المدني وهو الأمير عندنا ، أن عليّاً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال ، فطلبه الأئمة والعامّة ، فامتنع ، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائباً ، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُمُ الْمُغْفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ فوقف عليه فقال : يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه ، فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السحر ، فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ ، فصلّى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أعمار أصحابه ، فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه ، فقال : لا سبيل لكم علي ، جئت تائباً من قبل أن تقدروا علي ، فقال أبو هريرة : صدق ، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية ، فقال : هذا علي جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فتك من ذلك كله ، قال : وخرج عليّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر ، فلقوا الروم ، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر ، فمالت به وبهم فغرقوا جميعاً .

﴿ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ٣٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَ مَعَكُمْ لَيَفْتَنَهُمْ رَبُّكَ بِمِثْلِ نِعْمَتِهِ لِيُعْلِمَ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا لِقَاؤُهُ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف من المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال سفيان الثوري : عن ابن عباس أي القرية . وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الثَّامَّةُ ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَابْتَعْتُهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتُهُ ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤) وأحمد في مسنده (٣٥٤/٣) والنسائي في سننه (٦٨٠) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنزَلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » ^(١) .

وقوله : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء ، من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبتهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ، ولا تحول ، ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم ، لا يئأس ، ويحيى لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه . ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا كَفَرُوا بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ يُقَاتِلُونَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ، ما تقبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ، ولهذا قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : موجع ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد ، فيردوهم إلى أسفلها ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : شَرٌّ مَضْجَع ، فَيَقَالُ : هَلْ تَقْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتَ ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ » ^(٢)

قال يزيد الفقير : جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث ، فحدث أن ناسًا يخرجون من النار قال : وأنا يومئذ أنكر ذلك ، ففضبت وقلت : ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد ، تزعمون أن الله يخرج ناسًا من النار والله يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ الآية ، فانتهرني أصحابه وكان أحلمهم ، فقال : دعوا الرجل إنما ذلك للكفار ، فقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّا كَفَرُوا بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ يُقَاتِلُونَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قد جمعته ، قال : أليس الله يقول : ﴿ وَمِنْ أَتْلِيلٍ فَتَهَاجَدُ بِهِمْ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ فهو ذلك المقام ، فإن الله تعالى يحبس أقوامًا بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٠) وأبو داود في السنن (٥٢٣) والترمذي في السنن (٣٦١٤)

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٢)

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكَلَّافَ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٣٨ ﴾ فَنَ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٩ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤٠ .

يقول تعالى حاكماً وأمرًا بقطع يد السارق والسارقة وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام وزيدت شروط آخر ، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح . وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً ، لعموم هذه الآية ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، وقد سئل ابن عباس في قوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ : أخاص أم عام ؟ فقال : بل عام . وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل غير ذلك فالله أعلم . وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ يَشْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ ، وَيَشْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ » ^(١) وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة ، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة ، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع ، واحتج في ذلك بما روي عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ^(٢) ثمنه ثلاثة دراهم . وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم ^(٣) ، وهو أحب ما سمعت في ذلك قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر ، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم ، وللشافعية في اعتبار ربع دينار ، والله أعلم . وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، والحجة في ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « تَقْطَعُ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا » ^(٤) قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما سواه . قالوا : وحديث ثمن المجن ، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا ؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً فهي ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق ، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه في روايته عنه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في روايته عنه إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي ، فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه قطع عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « اقْطَعُوا

(٢) المجن : هو اسم لما يستجن به أي يستتر .

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣) ومسلم في الحدود (٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٧) ومسلم في الحدود (٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٩) ومسلم في الحدود (٤) .

فِي رُبْعِ دِينَارٍ وَلَا تَقْطَعُوا فِيْمَا هُوَ أَذْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ «^(١) وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثني عشر درهماً ، فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر وكذا سفيان الثوري رحمهم الله فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة ، واحتجوا بأن ثمن الجبن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روي عن ابن عباس قال : كان ثمن الجبن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم ، فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن الجبن ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة : « يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدُهُ »^(٢) بأجوبة أحدها : أنه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر ؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ . والثاني : أنه مؤول ببيضة الحديد ، وحبل السفن . والثالث : أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير ، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة . وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله وقلة عقله فقال :

يد بخمسين مئتين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم ، وقد أجابه الناس في ذلك فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أنه قال : لما كانت أمينة كانت ثمينه ، فلما خانت هانت ، ومنهم من قال : هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة ؛ فإنه في باب الجنایات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار ؛ لئلا يجنى عليها ، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار ؛ لئلا يتسارع الناس في سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب ؛ ولهذا قال : ﴿ جَزَاءُ يَمَّا كَسَبَا تَكَلَّافَ مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿ تَكَلَّافَ مِنْ اللَّهِ ﴾ أي : تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي : في انتقامه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : في أمره ونهيه وشرعه وقدره . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي : من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردّها إليهم أو بدلها عند الجمهور ، وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها ، وقد روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال : « ما إخاله سرق » ، فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذْهَبُوا بِهِ فَاقْطَعُوهُ ثُمَّ احْسِبُوهُ ثُمَّ اثْنُونِي بِهِ » فقطع فأُتِيَ به ،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٨٠/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٣) ومسلم في الحدود (٧) .

فقال : « تَبَّ إِلَى اللَّهِ » فقال : تبت إلى الله ، فقال : « تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ » ^(١) . وعن عائشة ، أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فخلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ » فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول الله ، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأتى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ فَأَمَّا أَهْلُكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت ، وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ^(٢) ، ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : هو المالك لجميع ذلك الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه وهو الفعال لما يريد ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَمِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَتَمُونَ لِلْكَذِبِ سَتَمُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَدَلِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٥١ سَتَمُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٥٢ وَكَيْفَ يُحْكِمُ اللَّهُ عَلَى النَّفْسِ فِيهَا حُكْمَ اللَّهِ ثُمَّ يَتُوكَ مِنْ بَدَلِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ٥٣ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبِيُّونَ وَالْأَنْجَارُ بِمَا اسْتَحِفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشَوْا وَلَا تَتَّبِعُوا بِإِتَابِي تَمَنَّا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآيات الكريمة في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ ﴿ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَمِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : أظهروا الإيمان بالستهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء كلهم ﴿ سَتَمُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أي : مستجيبون له منفعلون عنه ﴿ سَتَمُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أي : يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد ، وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام ، وينهون إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَدَلِ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي : يتأولونه على غير تأويله ويدلونه من بعدما عقلوه ، وهم يعلمون ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلًا ، وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد ، فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ، والصحيح أنها

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (١٠٢/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧١/٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٩) .

نزلت في اليهوديين اللذين زنيا ، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر بجرم من أحصن منهم ، فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والإركاب على حمار مقلوين ، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك ، وقد وردت الأحاديث بذلك . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ ؟ » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام : كذبتهم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقبها الحجارة ^(١) . وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى ؟ » قالوا : نسؤد وجوههما ونحممهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما ، قال : ﴿ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال : فجاءوا بها فقرؤوها ، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده ، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجمهما ، فلقد رأيته يقبها من الحجارة بنفسه ^(٢) .

وعن جابر بن عبد الله ، قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً عن ذلك ، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، فسألوه عن ذلك فقال : « أُرْسِلُوا إِلَيَّ أَغْلَمَ رَجُلَيْنِ فِيكُمْ » فجاءوا برجل أعور يقال له : ابن صوريا ، وآخر فقال لهما النبي ﷺ : « أَتَنْتُمَا أَغْلَمُ مِنْ قَبْلِكُمَا » فقالا : قد دعانا قومنا لذلك ، فقال النبي ﷺ لهما : « أَلَيْسَ عِنْدَكُمَا التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ » قالا : بلى ، فقال النبي ﷺ : « فَأُيْشِدْكُمْ بِالَّذِي فَتَقَّ الْبَحْرُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَظَلَّلَ عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَأَنزَلَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ » فقال أحدهما للآخر : ما نشدت بمثله قط ، ثم قالا : نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية والتقبيل زنية ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يديء ويعيد ، كما يدخل الميل في المكحلة ، فقد وجب الرجم ، فقال النبي ﷺ : « هُوَ ذَاكَ » فأمر به فرجم فنزلت ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ^(٣) ، ولهذا قالوا : ﴿ إِنْ أُوَيْشَرَ هَذَا ﴾ أي : الجلد والتحميم ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أي : اقبلوه ﴿ وَإِنْ لَرَّ تَوَّاهُ فَاحْذَرُوهُ ﴾ أي : من قبوله واتباعه . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَرَّ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَطَّهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٥٠ سَمِعُوا لِلْكَذِبِ ﴾ أي : الباطل

(١) أخرجه البخاري في المحاريين من أهل الكفر (٦٨١٩) ومسلم في الحدود (٢٦) ومالك في الموطأ (٨١٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٤٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الحدود (٢٦) .

﴿ أَكْتَلُونَ لِلشَّحْوِ ﴾ أي : الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد ، أي : ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه ، وأنى يستجيب له ، ثم قال لنبيه : ﴿ فَإِنْ جَاءَكَ ﴾ أي : يتحاكمون إليك ﴿ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا ﴾ أي : فلا عليك أن لا تحكم بينهم ؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : هي منسوخة بقوله : ﴿ وَأَنْ أَمَحْكُم بَيْنَهُمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم ، فقال : ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ﴿ وَالرَّسُولُونَ وَالْأَنْبَاءُ ﴾ أي : وكذلك الرابانيون منهم - وهم العلماء العباد - والأخبار ، وهم العلماء ﴿ يَمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أي : بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهره ويعملوا به ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا ﴾ أي : لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي شَيْئًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما .

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات :

عن ابن عباس قال : إن الله أنزل ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ يَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ و ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ النَّاسِغُونَ ﴾ قال ابن عباس : أنزلها الله في الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتييل قتلته العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتييل قتلته الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً ، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة أن ابعتوا لنا بمائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان في حين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم ، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيك ، فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيرة فقالت : والله ما محمد بمعطيك منكم ضيف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم ، فدرسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيهم إن أعطاكم ما تريدون حكمتهم وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه ، فدرسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبرهم رسول الله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ النَّاسِغُونَ ﴾ ففهمم والله أنزل ولما هم عنى ^(١) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤٦/١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال البراء بن عازب اليمان وابن عباس وغيرهم . نزلت في أهل الكتاب زاد الحسن البصري : وهي علينا واجبة ، وعن إبراهيم قال : نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها .

﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه ، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً ، ويقيدون النضري من القرطي ، ولا يقيدون القرطي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطالحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ، ولهذا قال هناك : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً ، وقال ههنا : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضاً . وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأها : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ﴾ نصب النفس ورفع العين^(١) ، وقد استدلل كثير ممن ذهب في الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقررًا ولم ينسخ ، كما هو المشهور عن الجمهور .

وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل المرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم « أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ »^(٢) وفي الحديث الآخر : « الْمُشْلِيُّونَ تَكَافَأَ دِمَاؤُهُمْ »^(٣) وهذا قول جمهور العلماء ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل ، ورواية عن أحمد : أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، بل تجب ديتها ، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحر بالعبد ، وقد خالفه الجمهور فيهما ، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ »^(٤) أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ولا يقتلون حرًا بعبد ، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح ، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ قال ابن عباس : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم - رجالهم ونسأؤهم - إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، ويستوي فيه

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ونافع وعاصم وحزمة ﴿ وَالْعَيْنَ ﴾ بالنصب ، وقرأ الكسائي ﴿ وَالْعَيْنُ ﴾ بالرفع (انظر : حجة القراءات ص ٢٢٥) والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٢١٥/٣) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٤٨٥٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢٧٥١) وابن ماجه في السنن (١٦٨٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٩/٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩/١) وأبو داود في السنن (١٥٦) والترمذي في السنن (١٤١٢ ، ١٤١٣) .

العبيد - رجالهم ونساؤهم - فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس .

قاعدة مهمة : الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل ، بل في عظم ، فقال مالك رحمته الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ؛ لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحبه : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن ، وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي ، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وقد احتج أبو حنيفة رحمته الله بحديث الربيع ابنة النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن ، وحديث الربيع لا حجة فيه ؛ لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية ، وجائز أن تكون سقطت من غير كسر ، فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع ، وتمموا الدلالة مما رواه جارية بن ظفر الحنفي أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها ، فاستعدى النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بالدية ، فقال : يا رسول الله أريد القصاص ، فقال : « خذ الدية بارك الله لك فيها » ولم يقض له بالقصاص^(١) ، ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه ، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له ، والدليل على ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أقدني فقال : « حَتَّى تَبْرَأَ » ثم جاء إليه فقال : أقدني ، فأقاده ، فقال : يا رسول الله عرجت ، فقال : « قَدْ نَهَيْتُكَ فَعَصَيْتَنِي ، فَأَتَيْتَكَ اللَّهُ وَبَطَلَ عَرَجُكَ » ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه^(٢) .

مسألة : فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة : تجب الدية في مال المقتص ، وقال عامر والشعبي وعطاء وطاووس والزهري والثوري : تجب الدية على عاقلة المقتص له ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البستي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَصَّدَكَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ قال ابن عباس : فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب ، وعن ابن عباس : فمن تصدق به فهو كفارة للجراح وأجر المجروح على الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : وروي عن خيشمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليهِ وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك .

وعن أبي السفر قال : دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصاري إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَابُ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَيَهْبُهُ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهِ خَطِيئَةٌ » فقال الأنصاري : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سمعته أذناي

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٦٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٧/٢) .

ووعاه قلبي ، فخلى سبيل القرشي . فقال معاوية : مروا له بمال ^(١) . وعن الحر بن أبي هريرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : « مَنْ أَصِيبَ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ فَتَرَكَهُ لِلَّهِ كَانَ كَفَّارَةً لَهُ » ^(٢) . وقوله : ﴿ وَنَ لَّ يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ عن طاوس وعطاء أنهما قالَا : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمَائِنَهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّ يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

يقول تعالى : ﴿ وَقَفَيْنَا ﴾ أي : أتبعنا على آثارهم يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أي : مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿ وَمَائِنَهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أي : هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أي : متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح : أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ وَلَأَجِدَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء : أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة . وقوله تعالى : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أي : زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ قرئ ﴿ وليحكم أهل الإنجيل ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي ، أي : وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم وقرئ ﴿ وليحكم ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر ^(٤) أي : ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه وما فيه البشارة ببعثة محمد ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد ، ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَنْ لَّ يَحْكُمُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : الخارجون عن طاعة ربهم المائلون إلى الباطل التاركون للحق وهذه الآية نزلت في النصارى وهو ظاهر من السياق .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾ ^(٥) وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ دُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ ^(٦) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ، ومدحها ، وأثنى عليها ، وأمر باتباعها ، حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الإنجيل ، ومدحه ، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه ، شرع في ذكر القرآن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٨/٦) والهندي في كنز العمال (٦٨٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٦/٣) .

(٣) قرأ حمزة ﴿ وليحكم ﴾ بكسر اللام ونصب الميم والباقون بإسكانها (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧)

العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي : من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله كما قال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِذُلِّكَانِ سُجَّدًا ﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿ أي : إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد عليه الصلاة والسلام لمفعولاً ، أي : لكائنا لا محالة ولا بد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمُهَيِّئَا عَلَيْهِ ﴾ عن ابن عباس : أي : مؤتمناً عليه . قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله . وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، وعن ابن عباس ﴿ وَمُهَيِّئَا ﴾ أي : شهيداً . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فللهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فأما ما حكاه مجاهد أنهم قالوا في قوله : ﴿ وَمُهَيِّئَا عَلَيْهِ ﴾ يعني : محمداً ﷺ أمين على القرآن ؛ فإنه صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر ، وفي تنزيله عليه من حيث العرية أيضاً نظر ، وبالجمله فالصحيح الأول . وقوله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : فاحكم يا محمد بين الناس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتايهم ، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك .

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي : آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أي : لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ﴾ سبيلاً ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ قال : وسنة ، وكذا روي عن ابن عباس ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سبيلاً وسنة . فتفسير قوله : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس ، والله أعلم . ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام ، المتفقة في التوحيد .

كما ثبت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ » ^(١) يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمه كل كتاب أنزله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَتَذَكَّرُوا اللَّهَ وَيَحْذَرُوا الظُّلُمَوتَ ﴾ الآية ، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس ، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى في ذلك من

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣) ومسلم في الفضائل (١٤٥) وأحمد في مسنده (٤٠٦/٢)

الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، وقيل : المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ، ومعناه : لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعةً ومنهاجاً ، أي : هو لكم كلكم تقتدون به ، وحذف الضمير المنصوب في قوله : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أي جعلناه - يعني القرآن - شرعةً ومنهاجاً ، أي : سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة ، وسنةً ، أي : طريقاً ومسلكاً واضحاً بيّناً ، هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ، والصحيح القول الأول ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وهم أمة واحدة ولكن هذا خطابٌ لجميع الأمم ، وإخبارٌ عن قدرته تعالى العظيمة ، التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشرعة واحدة لا ينسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعةً على حدة ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً عليه السلام ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبةً وجعله خاتم الأنبياء كلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ ﴾ أي : أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله ، وقال عبد الله بن كثير : ﴿ فِي مَا آتَيْتُكُمْ ﴾ يعني من الكتاب .

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال : ﴿ فَاسْتَقِمْ وَالْجَنَّةَ ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ، ثم قال تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزى الصادقين بصدقهم ، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة ، وقال الضحاك : ﴿ فَاسْتَقِمْ وَالْجَنَّةَ ﴾ يعني أمة محمد عليه السلام ، والأول أظهر .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ يَأْتِ اللَّهَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه ، ثم قال : ﴿ وَاحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أي : واحذر أعدائك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفره خونة ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي : عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم ، أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أي : إن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ ﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء ، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التار عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياستق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ؛ من اليهودية

والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير .

قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ﴾ أي : يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ اللَّهُ ﷻ مَنْ يَتَّبِعِي فِي الْإِسْلَامِ شُئْنَهُ الْجَاهِلِيَّةِ » ، وَطَالِبَ دِمِّ أَفْرِيءٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُرِيقَ دَمَهُ » (١) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّيْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ أَخْبَرُ فَقَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَذِيبِكَ ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ءَاسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِتْمَنًا كَمْ حَطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّيْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ الآية . وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب ، قال : كل ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّيْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : شك وريب ونفاق ، ﴿ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي : يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿ يَقُولُونَ نَحْنُ أَخْبَرُ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أي : يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم آياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك . عند ذلك قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ ﴾ يعني القضاء والفصل ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿ فَيُصْبِحُوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ من الموالاته نادمين ، أي : على ما كان منهم مما لم يحد عنهم شيئاً ولا دفع عنهم محذوراً ، بل كان عين الفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين ، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون ، فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ءَاسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِتْمَنًا كَمْ حَطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴾ وقد اختلف القراء في هذا الحرف ، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ﴾ ثم منهم من رفع ويقول على الابتداء ، ومنهم من نصب عطفاً على قوله : ﴿ فَسَقَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ (٢) فتقديره أن يأتي وأن يقول ، وقرأ أهل المدينة : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بغير واو ، وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٨٢) .

(٢) قرأ المدنيان وابن كثير وابن عامر ﴿ يقول ﴾ بغير واو ، والباقون ﴿ يقول ﴾ بالواو ، وقرأ البصريان بنصب اللام ﴿ ويقول ﴾ والباقون بالرفع (تقريب النشر ص : ١٠٧)

ابن جرير ، قال ابن جريج عن مجاهد : ﴿ فَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ تقديره حينئذ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد : أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأوي إليه وأتصر معه ، فأنزل الله ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ . وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ، فسألوه ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي أنه الذبيح . وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما قال عطية بن سعد : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي : « يَا أَبَا الْحُبَابِ مَا بَخَلْتُ بِه مِنْ وَلَايَةِ يَهُودٍ عَلَى عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ » قال : قد قبلت ، فأنزل الله ﷻ ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ الآيتين ^(١) .

وعن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم ، وقال : يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار ولايتهم ، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ^(٢) . وعن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوذه ، فقال له النبي ﷺ : « قَدْ كُنْتُ أَنتَ هَاكَ عَنْ حُبِّ يَهُودَ » فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات ^(٣) .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْرٍ جُحُودٍ وَيُخَيِّبُهُمْ أَوْلِيَاءُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ أي : بمتنع ولا صعب . وقال تعالى ههنا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ أي : يرجع عن الحق إلى الباطل . وقال الحسن البصري : نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْرٍ جُحُودٍ وَيُخَيِّبُهُمْ أَوْلِيَاءُ ﴾ قال رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْرٍ كُنْدَةٍ ثُمَّ مِنَ السَّكُونِ . وعن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْرٍ

(١ ، ٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣٧٢/٦) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١/٥) وأبو داود في السنن (٣٠٩٤) والحاكم في المستدرک (٣٤١/١) .

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴿١﴾ قال : « هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ثُمَّ مِنْ كِنْدَةَ ثُمَّ مِنْ الشُّكُونِ ثُمَّ مِنْ نُجَيْبٍ » (١)
 وقوله تعالى ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه ، متعززا على خصمه وعدوه كما قال تعالى : ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه . وقوله ﷺ : ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي : لا يرددهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يرددهم عن ذلك راد ، ولا يصددهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عذل عاذل . وعن أبي ذر قال : أمرني خليلي ﷺ بسبع ؛ أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحدا شيئا ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرءا ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهم من كنز تحت العرش (٢) . وعن أبي ذر ﷺ قال : بايعني رسول الله ﷺ خمسا واثقني سبعا ، وأشهد الله على أنني لا أخاف في الله لومة لائم . قال أبو ذر : فدعاني رسول الله ﷺ ، فقال : « هَلْ لَكَ إِلَيَّ تَبَعَةٌ وَلَكَ الْجَنَّةُ ؟ » قلت : نعم وبسطت يدي ، فقال النبي ﷺ وهو يشترط علي : « أَنْ لَا تَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا » قلت : نعم قال : « وَلَا سَوْطَكَ وَإِنْ سَقَطَ مِنْكَ » يعني تنزل إليه فتأخذه (٣) .
 وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَخْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ فِيهِ مَقَالٌ فَلَا يَقُولُ فِيهِ ، فَيَقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكُونَ قُلْتَ فِي كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ ، فَيَقُولُ : إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخَافَ » (٤) . وثبت في الصحيح « مَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ » قالوا : وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال : « يَتَحَمَّلُ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا يُطِيقُ » (٥) ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي : من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي : واسع الفضل بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : ليس اليهود بأوليائكم بل ولا يتكلم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي : المؤمنون المتصفون بهذه الصفات ، من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، وهي له وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله : ﴿وَهُمْ ذِكْرٌ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله : ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي : في حال ركوعهم ، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ؛ لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثرًا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩٢/٢)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٥)

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢/٥)

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/٣ ، ٤٧) وابن ماجه في السنن (٤٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٩٠/١٠)

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٥/٥) وابن ماجه في السنن (٤٠٦)

وعن عقبة بن حكيم في قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال : هم المؤمنون . وقال مجاهد : نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راع ، وقال ابن عباس : نزلت في علي بن أبي طالب . ثم روي عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ نزلت في المؤمنين وعلي بن أبي طالب أولهم . وقد تقدم : أن الآية نزلت في عبادة بن الصامت ؓ حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ولهذا قال بعدا هذا ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح في الدنيا والآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

هذا تنفير من موالة أعداء الإسلام وأهله من الكنايين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وآخرى ، يتخذونها هزوا يستهزئون بها ، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافَرَ ﴾ من ههنا لبيان الجنس كقوله : ﴿ فَاتَّخِذُوا آلَ زَيْدٍ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقرأ بعضهم والكفار بالخفض عطفاً ، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ^(١) تقديره : ولا الكفار أولياء أي : لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء ، والمراد بالكفار ههنا المشركون ، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا) وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا ، وقوله : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ أي : وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الأبواب ﴿ اتَّخَذُوا ﴾ أيضا ﴿ هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص أي ضراط ، حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضى التأذين أقبل ، فإذا ثوب للصلاة أدبر ، فإذا قضى الثوب أقبل - حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر ، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدين قبل السلام ^(٢) ، وقال الزهري : قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِمَّا إِيَّلَ أَنَا بِإِلَهِكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ٥٨ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَّدُنْهُ اللَّهُ وَعَظِيبٌ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْعَوْنَ وَالْغَارِيزَ وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ أَوْلِيَاءَ شَرِّ مَكَانًا وَأَصْلَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ٥٩ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَمَعَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِدْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ٦٠ وَرَبِّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسِرُّونَ فِي الْإِنْتِزَاعِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثِلَهُمُ الْسُّخْتَى لَيْسَ مَا كَانُوا يَمْعِلُونَ ٦١ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّزِيئَةُ وَالْأَحْبَابُ عَنْ

(١) قرأ البصريان والكسائي ﴿ والكفار أولياء ﴾ بخفض الراء وهم على أصلها في الإمالة والباقر والنصب (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري في السهو (١٢٣١) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨٣) وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) .

قَوْلِهِ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب : ﴿ هَلْ تَقْبَلُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : هل لكم علينا مطعون أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة ، فيكون الاستثناء منقطعا كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَقْنَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ وفي الحديث : « مَا يَتَّقُمُ ابْنُ جَبِيلٍ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ » (١) . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : وآمنا بأن أكثركم فاسقون ، أي خارجون عن الطريق المستقيم .

ثم قال : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أي : أبعد من رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أي : غضبا لا يرضى بعده أبداً ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وعن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى مما مسح الله ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا - أَوْ قَالَ لَمْ يَمْسَخْ قَوْمًا - فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً وَلَا عَقِبًا وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ » (٢) . وعن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى من نسل اليهود ، فقال : « لَا ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَلْعَنْ قَوْمًا قَطُّ فَيَمْسَخَهُمْ فَكَانَ لَهُمْ نَسْلٌ ، وَلَكِنْ هَذَا خَلْقٌ كَانَ ، فَلَمَّا غَضِبَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ فَمَسَخَهُمْ ، جَعَلَهُمْ مِثْلَهُمْ » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ قرئ ﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ على أنه فعل ماض ، والطاغوت منصوب به ، أي : وجعل منهم من عبد الطاغوت ، وقرئ ﴿ عَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدام الطاغوت أي خدامه وعبيده ، وقرئ ﴿ عُبِدَ الطَّاغُوتَ ﴾ على أنه جمع لجمع عبد وعبيد وعبد مثل ثمار وثمر . وحكي عن أبي جعفر أنه كان يقرأها و ﴿ عُبِدَ الطَّاغُوتَ ﴾ على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ، ثم استبعد معناها (٤) ، والظاهر أنه لا بعد في ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم ، أي : وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه ، وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ، ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ أي : مما تظنون بنا ﴿ وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله ﷺ : ﴿ أَضْحَبُ الْحَبَشَةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ وَقَدْ دَخَلُوا ﴾ أي : عندك يا محمد ﴿ بِالْكَثْرِ ﴾ أي : مستصحبين الكفر في قلوبهم ، ثم خرجوا وهو كامن فيها ، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ، ولهذا قال : ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِدْ ﴾ فخصهم به دون غيرهم . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَغْلَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ أي : عالم بسر أئمرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (٢٤٦٨) ومسلم في الزكاة (١١٠٠) وأحمد في مسنده (٣٢٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في القدر (٣٣) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٥/١ ، ٣٩٦) .

(٤) قرأ حمزة ﴿ وعبد ﴾ بضم الباء ، والطاغوت بالخفض ، والباقون بالفتح والنصب (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٧) .

أظهروا خلقه خلاف ذلك ، وتزينوا بما ليس فيهم ، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء . وقوله : ﴿ وَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِنِّ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ ﴾ أي : يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل ، ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ ﴾ أي : لبس العمل كان عملهم وبس الاعتداء اعتداؤهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِنِّ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ يعني هلا كان ينهاتهم الربانيون والأخبار عنهم عن تعاطي ذلك ؟ والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأخبار هم العلماء فقط ، وعن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿ لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الرِّبَايُونُ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِنِّ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ قال : كذا قرأ^(١) . وعن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَكُونُ يَتَنَ أَظْهَرُهُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُ وَأَمْتَعُ وَلَمْ يَغْيُرُوا ؛ إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعَذَابٍ »^(٢) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَآلَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْيَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَتَاتِيمُ وَلَأَخْلَصْنَاهُمْ حَتَّى الْغَيْمِ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه تعالى عن قولهم علواً كبيراً ، بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قال ابن عباس ﴿ مَغْلُولَةٌ ﴾ أي : بخيلة ، وقال ابن عباس : لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون بخيل ، يعني أمسك ما عنده بخلاً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وقرأ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ : يعني أنه ينهى عن البخل وعن التبذير وهو زيادة الإنفاق في غير محله ، وعبر عن البخل بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله ، وقال عكرمة : إنها نزلت في فحاص اليهودي عليه لعنة الله ، وقد تقدم أنه الذي قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فأنزل الله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ وقد رد الله ﷻ عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واتفقوه ، فقال : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، ﴿ وَهَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْذُلَّةُ ﴾ الآية . ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أي : بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٤٠٣/٦ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٣/٤) .

أحوالنا ، كما قال : ﴿ وَءَاتَيْنَاكَ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتَهُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ والآيات في هذا كثيرة . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يُغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْبُضْ مَا فِي يَمِينِهِ » قَالَ : « وَعَرَّضُهُ عَلَى الْمَاءِ وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ - أَوْ الْقَبْضُ - يَرْفَعُ وَيُخْفِضُ » . وَقَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ » ^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَذَرِيكَ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أَتَزَلُ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ظَنَيْنَا وَكُفَرًا ﴾ أي : يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نعمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعا ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً ، وهو المبالغة والمجازة للحد في الأشياء ، وكفراً أي : تكذيباً . وقوله تعالى : ﴿ وَآلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقه بعضهم في بعض دائماً ؛ لأنهم لا يجتمعون على حق ، وقد خالفوك وكذبوك ، وقال إبراهيم النخعي : وآلقينا بينهم العداوة والبغضاء ، قال : الخصومات والجدال في الدين .

وقوله : ﴿ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَفْقَامًا اللَّهُ ﴾ أي : كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها ، أبطلها الله ورد كيدهم عليهم وحاق مكرهم السيئ بهم ﴿ وَبَسَّوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ، والله لا يحب من هذه صفته . ثم قال جلّ وعلا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أي : لو أنهم آمنوا بالله ورسوله ، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لَكُنَّا عَنْهُمْ سِتَاتٍمٌ وَلَا كَلِمَتٌ جَنَّتِ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : لأزلنا عنهم الحذور وألناهم المقصود ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو القرآن ﴿ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أي : لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض ، وعن ابن عباس ﴿ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مدراراً ﴿ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يعني يخرج من الأرض بركاتها ، وقال بعضهم : معناه ﴿ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء .

عن جبير بن نفير أن رسول الله ﷺ قال : « يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ » فقال زياد بن لبيد : يا رسول الله وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال : « ثِكَلَتْ أُمُكُ يَا ابْنَ لَبِيدِ ! إِنَّ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقِهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ حِينَ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ ؟ » ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَلَمٌ مَا يَمْلِكُونَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٩) ومسلم في الزكاة (٣٦) وأحمد في مسنده (٢١٣/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٠/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٢٩٧/٢) .

يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَقْدِرُونَ ﴿١﴾ وكقوله عن اتباع عيسى : ﴿ فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ الآية فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة ، وفوق ذلك رتبة السابقين كما في قوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الآية ، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، كلهم يدخلون الجنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة وأمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم القيام ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية : عن مسروق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية ^(١) . وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ ^(٢) . وعن هارون بن عترة عن أبيه قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال له : إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يده رسول الله ﷺ للناس ، فقال ابن عباس : ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » ^(٣) . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ » قالوا : يوم حرام قال : « أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ » قالوا : بلد حرام قال : « فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ » قالوا : شهر حرام قال : « فَإِنَّ أَمْوَالَكُمْ وَدِمَاءَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا » ثم أعادها مراراً ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ » مراراً ، فقال : يقول ابن عباس : والله لو صبية إلى ربه ﷻ ، ثم قال : « أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » ^(٤) وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به ، فما بلغت رسالته أي : وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع . عن ابن عباس : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته ، قال مجاهد : لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال : « يا رب كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي » فنزلت ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٥) .

(٢) أخرجه البخاري التوحيد (٧٤٢٠) ومسلم في الإيمان (٢٨٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (١٩) وأحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٩) .

(٥) ذكره الطبري في تفسيره ٤١٥/٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي : بلغ أنت رسالتني ، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ، ومظفرك بهم ، فلا تخف ، ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيكَ ، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ ، كما روي أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه ، قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ، قال : « لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يُحْرَسُنِي اللَّيْلَةَ » قالت : فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح ، فقال : « مَنْ هَذَا ؟ » فقال : أنا سعد بن مالك فقال : « مَا جَاءَ بِكَ ؟ » قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه ^(١) . وعن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ قالت : فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنَا اللَّهُ ﷻ » ^(٢) .

والصحيح أن هذه الآية مدنية ، بل هي من أواخر ما نزل بها ، والله أعلم ، ومن عصمة الله لرسوله ، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً ، ثم قبض الله له الأنصار ، فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة ، فلما صار إليها منعه من الأحمر والأسود ، وكلما هم أحد المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما سمَّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخبير أعلمه الله به وحماه منه .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

﴿ قُلْ يَتْلُفُ أَلِكُتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيزِدَكُمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقُونَ وَالصَّادِقَاتُ مِنَ ءَامَرَتِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد : ﴿ يَتْلُفُ أَلِكُتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أي : من الدين ﴿ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ، أي : حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الإيمان بمحمد والأمر باتباعه ﷺ والإيمان ببعثه والافتداء بشريعته ، وقوله : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن العظيم ، وقوله : ﴿ وَلَئِيزِدَكُمُ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : فلا تحزن عليهم ، ولا يهينك ذلك منهم ، ثم قال :

(١) أخرجه البخاري في التمني (٧٢٣١) ومسلم في فضائل الصحابة (٤٠) وأحمد في مسنده (١٤١/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٩) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم مسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع ، والصابغون طائفة من النصارى والجوس ليس لهم دين . وقال سعيد بن جبير : من اليهود والنصارى . وقال قتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى غير القبلة ، ويقرأون الزبور ، وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل ، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت عملاً صالحاً ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشرعية المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا .

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ٦٩ ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ .

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ، ولهذا قال تعالى : ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ٦٩ ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي : وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا ، فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه ، ثم تاب الله عليهم أي : مما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ أي : بعد ذلك ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي : مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اتَّبِعُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ٧٠ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٧١ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٧٢ ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْأَلْبَتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَفْ يُوَفَّكَوْكَ﴾ .

قال تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ممن قال منهم : بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً ، هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال : إني عبد الله ، ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله ، بل قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَاتَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ إلى أن قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ اتَّبِعُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي : فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ أي : فقد أوجب له النار وحرّم عليه الجنة ، وفي الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس : إن الجنة لا يدخلها إلا نفس

مسلمة ، وفي لفظ مؤمنة ^(١) .

وقوله : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال أبو صخر : هو قول اليهود : عزير ابن الله ؛ وقول النصارى : المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى والصحيح أنها نزلت في النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد : ثم اختلفوا في ذلك ، فقيل : المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافا متباينا ليس هذا موضع بسطه ، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاثة كافرة . وقال السدي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدي : هي كقوله تعالى في آخر السورة : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ لِمَنْ مَرِيَمَ إِنَّ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّقِيُونِي وَأُنْمِئِ لِمَنْ يَكْفُرُ بِاللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ الآية وهذا القول هو الأظهر والله أعلم . قال الله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي : ليس متعددا بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ، ثم قال تعالى متوعدا لهم ومتهددا : ﴿وَأَن لَّهُ يَنْتَهُوْا عَمَّا يُقُولُونَ﴾ أي : من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِالزُّهْدِ كَفَرُوا بِتَنْهَعِ عَذَابُ إِلَهٍ﴾ أي : في الآخرة من الأغلال والنكال ، ثم قال : ﴿أَنَّا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ شَفِيعٌ لِّحَمْدِهِ﴾ وهذا من كرمه تعالى ، وجوده ، ولطفه ، ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

وقوله تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي : له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، كما قال : ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وقوله : ﴿وَأَمَّا صِدْقُهُ﴾ أي : مؤمنة به مصدقة له وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى ، استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُولَنَا أَنِ مَوْتٌ أَهْلُ الْقُرَى﴾ وهذا معنى النبوة ، والذي عليه الجمهور أن الله لم يعث نبيا إلا من الرجال قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ . وقوله تعالى ﴿كَأَنَّا يَكْفُرُ بِالْقُرْآنِ﴾ أي : يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُرِّئَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي : نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّ يُؤْتَكُرُونَ﴾ أي : ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ؟ وبأي قول يتمسكون ؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون ؟ .

﴿قُلْ أَتُحِبُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي يَدَيْكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا قَدْ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٨) وأحمد في مسنده (٣/١) وابن ماجه في السنن (١٧٢٠) .

وَصَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٦﴾ .

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأوثان ، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية فقال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصراني وغيرهم ﴿ أَتَشْكُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي : لا يقدر على دفع ضرر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء ، فلم عدلتهم عنه إلى عبادة جماد ، لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يعلم شيئًا ، ولا يملك ضررًا ، ولا نفعًا لغيره ، ولا لنفسه ، ثم قال : ﴿ قُلْ يَتَاهِدِ الْكَاتِبُ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي : لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تخرجه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتهم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء ، فجعلتموه إلهًا من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا ﴿ وَأَصَلُّوا كَثِيرًا وَصَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي : وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ كانوا لا يتناهون عن منكبر فعلهم لئس ما كانوا يفعلون ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ مَا قَدَّمْتَهُمْ لَخُذْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خِلْدُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ وكو كانوا يؤمنون بالله واليومئذ وما أنزل إليهم ما أخذواهم أولياء ولكن كثر منكم فاسقون ﴿٧٩﴾ .

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل ، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه ، فقال تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكبر فعلهم لئس ما كانوا يفعلون ﴾ أي : كان لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المأثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يؤكب مثل الذي ارتكبه ، فقال : ﴿ لئس ما كانوا يفعلون ﴾ عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ » - قال يزيد : وأحسبه قال - « فِي أَسْوَاقِهِمْ ، وَوَأَكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ « وكان رسول الله ﷺ متكئًا ، فجلس فقال : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا » ^(١) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ ، فَيَقُولُ : يَا هَذَا أَتَيْتُ اللَّهَ وَدَعَيْتُ مَا تَصْنَعُ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْعِدِّ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيئَهُ وَقَعِيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ، ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ » ثم قال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَنَسِفُونَ ﴾ ثم قال : « كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ، أَوْ تَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١) والترمذي في السنن (٣٠٤٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٣٣٦) .

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ، ولذكر منها ما يناسب هذا المقام :
عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْتُلَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْتَهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
أَوْ لَيُوشِكُنَّ اللَّهُ أَنْ يَتَعَثَّ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ » ^(١) . وعن أبي
سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَلْيُسَارِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ تَكْرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : يعني بذلك المنافقين
وقوله : ﴿ لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرن وتركهم موالاة المؤمنين التي
أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ
سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ، ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ يعني يوم
القيامة ، عن الأعمش بإسناده ذكره قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُشْلِيعِينَ إِنَّا كُمْ وَالزُّنَى فَإِنْ فِيهِ سِتٌّ خِصَالٌ ، ثَلَاثًا
فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثًا فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا : فَإِنَّهُ يَذْهَبُ الْبَهَاءُ ، وَيُورِثُ الْفَقْرَ ، وَيُنْقُصُ الْعُمْرَ ، وَأَمَّا
الَّتِي فِي الْآخِرَةِ : فَإِنَّهُ يُوجِبُ سَخَطَ الرَّبِّ ، وَشَوْءَ الْحِسَابِ ، وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ » ثم تلا رسول الله ﷺ :
﴿ لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَكَرَّ
كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَهُهُمَ آيَاتِهِ ﴾ أي : لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول
والقرآن ، لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه
﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُوا ﴾ أي : خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَعْتَدُكَ ذَلِكَ بِأَنْ مِنْهُمْ قِسِيَسَاتٍ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْكَرُونَ ﴾ ^(٤) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى
الرَّسُولِ رَأَوْا عَيْنَهُمْ قَيْضٌ مِنَ الدَّمَعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامِنَّا فَاتَّكَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ^(٥) وَمَا لَنَا لَا
نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْلُعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ ^(٦) فَأَنذَرَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا
كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي
فأخبروه ^(٨) . قال السدي : فهاجر النجاشي فمات بالطريق ، وهذا من أفراد السدي ، فإن النجاشي
مات وهو ملك الحبشة ، وصلى عليه النبي ﷺ يوم مات وأخبر به أصحابه ، وأخبر أنه مات بأرض
الحبشة . ثم اختلف في عدة هذا الوفد ، ف قيل : اثنا عشرة : سبعة قساوسة وخمسة رهايين ، وقيل
بالعكس ، وقيل : خمسون ، وقيل : بضع وستون ، وقيل : سبعون رجلاً ، فالله أعلم . وقال عطاء بن
أبي رباح : هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين ، وقال قتادة :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) والترمذي في السنن (٢١٦٩) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٠/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) وأحمد في مسنده (٢٠/٣) والترمذي في السنن (٢١٧٣) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠٢/٢) . (٤) ذكره الطبري في تفسيره ٤/٧ .

هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلغنموا ، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .
 فقله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهنة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ﴾ أي : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهج إنجيله ، فهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرفقة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنَةٌ ﴾ وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً في ملتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي : يوجد فيهم القسيسون ، وهم خطباؤهم وعلمائهم واحدهم قسيس وقس أيضا ، وقد يجمع على قسوس ، والرهبان جمع راهب وهو العابد ، مشتق من الرهبة وهي الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهايين ، مثل قربان وقرايين وجرذان وجرادين ، وقد يجمع على رهابنة .

وعن سلمان في قول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ ﴾ فقال : دع القسيس في البيع والحرب ، أقراني رسول الله ﷺ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ ﴾ . عن جاثمة بن رثاب قال : سمعت سلمان وسئل عن قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ ﴾ فقال : هم الرهبان الذين هم في الصوامع والحرب ، فدعوهم فيها ، قال سلمان : وقرأت على النبي ﷺ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ ﴾ فأقراني : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ ﴾ فقله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنَهُمْ وَرَحِمَاءَهُمْ ﴾ وأنهم لا يستكبرون ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف ، فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَكَعَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ ﴾ أي : مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به ، وقد روي عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَكَعَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . وروي عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : مع محمد ﷺ وأمته ، هم الشاهدون يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ ، ولرسل أنهم قد بلغوا (١) . وعنه أيضا في قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَكَعَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِّنَ الدَّمْعِ ﴾ قال : لإنهم كرايين - يعني فلاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ لَعَلَّكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى أَرْضِكُمْ انْتَقَلْتُمْ إِلَى دِينِكُمْ ﴾ فقالوا : لن نتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من

قولهم (١) : ﴿ وَمَا كُنَّا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ﴾ الآية . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولذا ينزل عليهم قالوا آمنا به . والله الحق من ربنا إنا كنا من قبله مشركين ﴿ إلى قوله ﴾ لا تبغى الجنهين ﴿ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان ، ثم أخبر عن حال الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : جحدوا بها وخالفوا ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي : هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَبِيبَ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَمَسُّوا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَمَدِّدِينَ ﴾ وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَبِيبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ بِهِ مُؤْمِنُوتَكُمْ .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسبح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا نعم ، فقال النبي ﷺ : « لِكَيْتِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَتَأَمُّ وَأَتَكْبَحُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ أَخَذَ بِشَتِي فَهُوَ مِنِّي ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِشَتِي فَلَيْسَ مِنِّي » (٢) . وعن ابن عباس أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت علي اللحم ، فنزلت ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَبِيبَ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (٣) .

وفي صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا ، وفيه وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلا أو ملبسا أو شيئا ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضا ، ولقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَبِيبَ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلا أو مشربا أو ملبسا أو شيئا من الأشياء ، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاما له بما التزمه ، كما أفق بذلك ابن عباس ، وكما في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَدِّ حُزْمٍ مَا أَمَلَ اللَّهُ لَكُمْ تَبْنِي مَرَضَاتِ أَنْزِلِكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴾ ثم قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ الآية ، وكذلك ها هنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير والله أعلم وعن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٥/١٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٨/٧) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٤) .

ابن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الْذِي أَنشَدَ بِهِ مِيثُوثٌ ﴾ . وقال ابن جريج : عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ ﴾ يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاص ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّ لَأَنْفُسِكُمْ حَقًّا ، وَإِنَّ لَأَعْيُنِكُمْ حَقًّا ، صُومُوا وَأَقِطُوا وَنَامُوا ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ شَيْئًا » فقالوا : اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت ^(١) .

﴿ وَلَا تَسْتَدُوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه : لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، ويحتمل أن يكون المراد : كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الآية فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط ، ولهذا قال : ﴿ لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِّينَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَكُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أي : في حال كونه حلالاً طيباً ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه ﴿ الْذِي أَنشَدَ بِهِ مِيثُوثٌ ﴾ .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِآلِفَتِهِمْ فِي آيَاتِنَا وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْهُنَّ لِطَعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْفَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مَنْ لَمْ يَجِدْ قِصَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ آيَاتِنَا إِذَا خَلَقْتُمْ وَاحْفَظُوا آيَاتِنَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة ، وإنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله . وهذا مذهب الشافعي ، وقيل : هو في الهزل ، وقيل : في المعصية ، وقيل : على غلبة الظن ، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ، وقيل : في اليمين في الغضب ، وقيل : في النسيان ، وقيل : هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك ، واستدلوا بقوله : ﴿ لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ أي : بما صممت عليه منها وقصدتموها ﴿ فَكَفَّرتُمْهُنَّ لِطَعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ يعني محاويج من الفقراء ، ومن لا يجد ما يكفيه . وقوله : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم ، وقال عطاء الخراساني : من أمثل ما تطعمون أهليكم ، وعن ابن عباس قال : كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون ، وبعضهم قوتاً فيه سعة ، فقال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أي : من الخبز

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٩/٧) والسيوطي في الدر المنثور (٣٠٨/٢) . والمسوح : جمع مشح ، وهو كساء شعر يلبسه الرهبان .

والزيت ، وعن ابن عمر قال : الخبز والسمن والخبز واللبن ، والخبز والزيت والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ يَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعُمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أي : في القلة والكثرة ، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم ، فعن علي عليه السلام قال : يتغذ بهم ويعيشهم . وقال الحسن ومحمد ابن سيرين : يكفي أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا ولحمًا ، زاد الحسن : فإن لم يجد ، فخبزًا وسمنًا ولبنًا ، فإن لم يجد ، فخبزًا وزيتًا وخلًا حتى يشبعوا . وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما ، فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان ، وقال أبو حنيفة : نصف صاع بر ، وصاع مما عداه ، وعن ابن عباس قال : كفر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصاع من تمر وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر .

وقال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي صلى الله عليه وسلم لكل مسكين ولم يتعرض للأدم ، واحتج بأمر النبي صلى الله عليه وسلم للذي جامع في رمضان ، بأن يطعم ستين مسكينًا من مكتل يسع خمسة عشر صاعًا ، لكل واحد منهم مد .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال الشافعي رحمته الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك ، واختلف أصحابه في القننسة هل تجزئ أم لا ؟ على وجهين : فمنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجًا بما روي عن محمد بن الزبير عن أبيه قال : سألت عمران بن الحصين عن قوله : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال : لو أن وفدًا قدموا على أميركم ، فكساهم قننسة قننسة ، قننسة قد كسوا ، والصحيح عدم الإجزاء ، وقال مالك وأحمد بن حنبل : لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلًا أو امرأة كل بحسبه والله أعلم ، وعن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت ، وقال مجاهد : يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلا الثبان ، وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك : ثوب ثوب ، وعن إبراهيم النخعي أيضًا : ثوب جامع كالمحففة والرداء ، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعًا . وعن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ قال : « عَبَاءَةٌ لِكُلِّ مِسْكِينٍ » ^(١) .

وقوله : ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة ، وقال الشافعي وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَيْسَ اللَّهُ » قالت : في السماء قال : « مَنْ أَنَا » قالت : رسول الله قال : « أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » ^(٢) فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٣/٧)

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) وأحمد في مسنده (٢٩١/٢) ومالك في الموطأ (٧٧٧) .

الحادث أجزأ عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاثة كفر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ . وروى عن سعيد بن جبيرة والحسن البصري أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام ، وقال ابن جرير حاكيا عن بعض متأخري متفقهة زمانه : أنه جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين . واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع ، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق ؟ قولان : أحدهما : لا يجب ، وهذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان ، وهو قول مالك لإطلاق قوله : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة كما في قضاء رمضان ؛ لقوله : ﴿ فَصِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع ، كما هو قول الحنفية والحنابلة ؛ لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرؤونها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) . وقال إبراهيم في قراءة عبد الله بن مسعود : (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) متتابعات ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ لِمَن كَانَ إِذَا حَلَكَ ﴾ أي : هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ قال ابن جرير : معناه لا تركوها بغير تكفير ﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ أي : يوضحها ويفسرها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاسْتَذِرُوا إِنَّا تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْبَيِّنُ ﴿٥٦﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر والقمار ، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : الشطرنج من الميسر . وعن عطاء ومجاهد وطاوس قال سفيان : أو اثنين منهم قالوا : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز . وعن ابن عمر قال : الميسر هو القمار ، وعن ابن عباس قال : الميسر هو القمار ، كانوا يتقمارون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة ، وقال سعيد بن المسيب : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين .

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالزَّوْدِ شِيرٍ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمٍ خَنِزِيرٍ وَدَمِهِ » ^(١) وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالزَّوْدِ فَقَدْ غَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ^(٢) وعن محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول : أخبرني ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ ؟ فقال عبد الرحمن سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله

(١) أخرجه مسلم في الشعر (١٠) وأحمد في مسنده (٣٥٢/٥) وأبو داود في السنن (٤٩٣٩) وابن ماجه في السنن (٣٧٦٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٤/٤) وأبو داود في السنن (٤٩٣٨) وابن ماجه في السنن (٣٧٨٢) .

﴿يَقُولُ : « مَثَلُ الَّذِي يَلْعَبُ بِالْزُرِّ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي مَثَلُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِالْقَمِيحِ وَدَمِ الْخِزِيرِ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي » ﴾ (١) .

وأما الشطر نج فقد قال عبد الله بن عمر : إنه شتر من النرد ، وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ، ونص على تحريره مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى ، وأما الأنصاب ، فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضا : هي قدام كانوا يستقسمون بها . وقوله تعالى : ﴿يَجُسَّ بِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ : قال ابن عباس : أي مسخط من عمل الشيطان ، وقال سعيد بن جبير : إثم . وقال زيد بن أسلم : أي شر من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَبَوْهُ﴾ الضمير عائذ على الرجس أي : تركوه ﴿لَمَلَكُمُ تَلْحُوتُونَ﴾ وهذا ترغيب ، ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَسَدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

ذكر الأحاديث الواردة في تحريم الخمر : عن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألو رسول الله ﷺ عنهما ، فأنزل الله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية ، فقال الناس : ما حرمه علينا إنما قال : ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ وكانوا يشربون الخمر ، حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا لَكُمُ الْبَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ يَجُسَّ بِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبَوْهُ لَمَلَكُمُ تَلْحُوتُونَ﴾ قالوا : انتهينا ربنا ، وقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان ، فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إلى آخر الآية ، فقال النبي ﷺ : ﴿لَوْ جُزِمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ﴾ (٢) .

وعن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في البقرة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ إذا قال : حي علي الصلاة نادى : لا يقرب الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا (٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٧٠/٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢١٥/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٢/٢) والبيهقي في مجمع الزوائد (٥١/٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٧٠) والنسائي في السنن (٢٨٦/٨) .

وعن عبد الرحمن بن وعلة قال : سألت ابن عباس عن بيع الخمر ، فقال : كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو من دوس ، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا فُلَانُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا ؟ » فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها ، فقال رسول الله ﷺ : « يَا فُلَانُ بِمَاذَا أَتَرْتَهُ ؟ » فقال : أمرته أن يبيعها ، قال : « إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ يَبْعَهَا » فأمر بها ، فأفرغت في البطحاء ^(١) .

وعن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرا من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آت من المسلمين فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حرمت ؟ فقالوا : حتى ننظر ونسأل ، فقالوا : يا أنس اسكب ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها وما هي إلا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلَيْبَسُوا مَقْعَدَهُ مِنْ جَهَنَّمَ » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْكُوبَةَ وَالْغُبَيْرَاءَ وَكُلَّ مُشْكِرٍ حَرَامٌ » ^(٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ أَوْجِهٍ ، لُعِنَتِ الْخَمْرُ بِعَيْنِهَا ، وَشَارِبِهَا ، وَسَاقِيهَا ، وَبَائِعِهَا ، وَمُبْتَاعِهَا ، وَعَاصِرِهَا ، وَمُقْتَصِرِهَا ، وَحَامِلِهَا ، وَالْحَمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَآكِلُ ثَمَرِهَا » ^(٤) .

وعن ثابت أن يزيد الخولاني أنه كان له عم يبيع الخمر وكان يتصدق ، قال : فنهته عنها فلم ينته ، فقدمت المدينة ، فلقيت ابن عباس ، فسألته عن الخمر وثمانها ، فقال : هي حرام وثمانها حرام ، ثم قال ابن عباس ﷺ : يا معشر أمة محمد إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ونبي بعد نبيكم لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولعمري لهو أشد عليكم . قال ثابت : فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر ، فقال : سأخبرك عن الخمر : إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد ، فبينما هو محتب على حبوته ، ثم قال : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرِ شَيْءٌ فَلْيَأْتِنَا بِهَا » فجعلوا يأتونه ، فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « اجْمَعُوهُ بِبَيْعٍ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ آذُنُونِي » ففعلوا ، ثم آذنه ، فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكئ علي ، فلحقنا أبو بكر ﷺ ، فأخبرني رسول الله ﷺ فجعلني عن شماله وجعل أبا بكر في مكاني ، ثم لحقنا عمر بن الخطاب ﷺ ، فأخبرني وجعله عن يساره ، فمشى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس : « اتَّعَرِفُونْ هَذِهِ ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله هذه الخمر قال : « صَدَقْتُمْ » ثم قال : « فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْخَمْرَ ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُقْتَصِرَهَا ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْحَمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَبَائِعَهَا ، وَمُسْتَرِيَهَا ، وَآكِلُ ثَمَرِهَا » ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٠/١) والدارمي في السنن (١١٤/٢ ، ١١٥) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧١/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/٢) .

دعا بسكين فقال : « اشْحَذُوهَا » ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الرقاق ، قال : فقال الناس : في هذه الرقاق منفعة ، فقال : « أَجَلٌ وَلَكِنِّي إِنَّمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ غَضَبًا لِلَّهِ فَكَانَ لِي فِيهَا مِنْ سَخِطِهِ » فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال : « لا » . قال ابن وهب : وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث ^(١) .

وعن عمرو بن جابر قال : صبح أناس غداة أخذ الخمر فقتلوا من يومهم جميعًا شهداء ، وذلك قبل تحريمها ^(٢) .

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كُلُّ مُحْخَمٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ مُشْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ مُشْكِرًا ؛ بِخَسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ غَادَ الرَّابِعَةَ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ » قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ ، وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لَا يَعْرِفُ حِلَالَهُ مِنْ حَرَامِهِ ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ » ^(٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ مُشْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ مُشْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَمَاتَ وَهُوَ يُذَمِّئُهَا وَلَمْ يَثْبُثْ مِنْهَا ؛ لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ » ^(٤) . وقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ ، وَالْمُذْمَرُ الْخَمْرَ ، وَالْمُتَأَنِّ بِمَا أُعْطِيَ » ^(٥) .

وعن عثمان بن عفان يقول : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة ، فدخل معها ، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقتة دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيفة عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأسًا ، فقال : زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه ^(٦) . وعن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : لما نزلت ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ﴾ فقال النبي ﷺ : « قِيلَ لِي : أَنْتَ مِنْهُمْ » ^(٧) . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَهَاتَانِ الْكَفَتَانِ الْمُؤَسَّوْمَتَانِ اللَّتَانِ تَزْجُرَانِ زَجْرًا ؛ فَإِنَّهُمَا مَيْسِرُ الْعَجَمِ » ^(٨) .

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٨٦/٨ ، ٢٨٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٦٨٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٦/٢) والترمذي في السنن (١٨٦١) .

(٥) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٨٨/٨) . (٦) أخرجه البيهقي في الكبرى (٢٨٧/٨ ، ٢٨٨) .

(٧) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٩) والحاكم في المستدرک (١٤٣/٤) .

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِعَلَّهِ اللَّهُ مِنْ يَحَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعِدًّا فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعْمِ بِحَكْمٍ بِهِ ذُو عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بَلَغَ الْكُفْرَ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٩٥

عن ابن عباس قوله : ﴿لَبِئْسَ لَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وضعفه ، يتلى الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم ، فنهاهم الله عن أن يقربوه ، وقال مجاهد : ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني كبارها ، وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون ﴿لِعَلَّهِ اللَّهُ مَنْ يَحَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني أنه تعالى يتلهم بالصيد يغشاهم في رحالهم ، يتمكنون من أخذه بأيدي الرماح سراً وجهراً لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره جهره ، وقوله ها هنا : ﴿فَمَنْ أَعَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال السدي وغيره : يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي : لمخالفته أمر الله وشرعه ، ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه ، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ، ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : «خمس فواسيق يقتلن في الحل والحرم : الغراب والحيدة والعقرب والفأرة والكلب العقور» ^(١) وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن مجتأخ : الغراب والحيدة والعقرب والفأرة والكلب العقور» ^(٢) . ومن العلماء كمالك ، وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسيب والنمر والفهد ؛ لأنها أشد ضرراً منه ، فالله أعلم . وقال : زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها ، واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال : «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبَكَ بِالشَّامِ» ^(٣) فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا : فإن قتل ما عداهن فداء كالضبيع والثعلب والوبر ونحو ذلك ، قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي ، وقال الشافعي : يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغار وكبارها ، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل ، وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب بري ، فإن قتل غيرهما فداء ، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه ، وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حيي ، وقال زفر بن الهذيل : يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه ، وقال بعض الناس : المراد بالغراب ها هنا الأبقع ، وهو الذي في بطنه وظهره بياض ، دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ، لما روي عن عائشة عن النبي ﷺ قال : «خمس يقتلهن المحرم :

(١) أخرجه مسلم في الحج (٦٨) وأحمد في مسنده (٩٧/٦) والنسائي في سننه (٢٨٨١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٧٦) ومالك في الموطأ (٣٥٦) . (٣) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤) .

الْحَيَّةَ وَالْفَأْرَةَ وَالْحِدَاةَ وَالْغُرَابَ الْأَبْقَعَ وَالْكَلْبَ الْعَقُورَ^(١) والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك ؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه ، وقال مالك رحمته الله : لا يقتل الحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه ، وقال مجاهد بن جبر وطائفة : لا يقتله بل يرميه ، ويروى مثله عن علي .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَرْجَاءً يُثَلَّ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ المراد بالمتعبد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه ، فأما المتعبد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذلك أمره أعظم من أن يكفر ، وقد بطل إحرامه ، والذي عليه الجمهور أن العائد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه ، وقال الزهري : دل الكتاب على العائد وجرت السنة على الناسي ، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعبد وعلى تأثيمه بقوله : ﴿ لِيَذُوقَ وَعَلَىٰ أُمُورِهِ عَقَابَ اللَّهِ عَمَّا سَلَكَ وَمَنْ عَادَ فَنَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي صلى الله عليه وسلم وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دل الكتاب عليه في العمد ، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعبد مأثوم والمخطئ غير ملوم . وقوله تعالى : ﴿ فَرْجَاءً يُثَلَّ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ قرأ بعضهم بالإضافة ، وقرأ آخرون بعطفها ﴿ فَرْجَاءً يُثَلَّ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ ﴿ فَرْجَاءً يُثَلَّ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ وفي قوله : ﴿ فَرْجَاءً يُثَلَّ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله الحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافاً لأبي حنيفة رحمته الله ، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي ، قال : وهو مخير ، إن شاء تصدق بثمانه وإن شاء اشترى به هدياً ، والذي حكم به الصحابة في المثل الأولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببذنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الأحكام ، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً ؛ فقد حكم ابن عباس فيه بثمانه يحمل إلى مكة . وقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل ، هل يجوز أن يكون أحد الحكيمين على قولين : أحدهما : لا ، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك ، والثاني : نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد ، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة ، وعن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر ، فقال : قتلت صبيداً وأنا محرم فما ترى علي من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده : ما ترى فيها ؟ قال : فقال الأعرابي : أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : ﴿ فَرْجَاءً يُثَلَّ مَا قَتَلَ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به ، فيبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابياً جاهلاً ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعارض منسوباً إلى العلم ، فقد روي عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجاً فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلتنا فتنماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنع لنا ظبي أو برح ، فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه فركب وودعه ميتاً ، قال : فعظمنا عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣) وأبو داود في سننه (١٨٤٨) .

(٢) قرأ الكوفيون ﴿ فَرْجَاءً ﴾ بالتثنية (مثل ما) برفع اللام والياقون بغير تنوين والخفض (تقرب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .

حتى أتينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقص عليه القصة ، فقال : وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة يعني عبد الرحمن بن عوف ، فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل ، فقال : أعمداً قتلته أم خطأ ؟ فقال الرجل : لقد تعمدت رميه وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحهما وتصدق بلحمها واستبق إهابها ، قال : فقمنا من عنده فقلت لصاحبي : أيها الرجل عظم شعائر الله فما دري أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذلك يعني أن يجزئ عنك ، قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ فبلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرة ، قال : فعلا صاحبي ضرباً بالدره . أقتلت في الحرم وسفهت في الحكم ، قال : ثم أقبل علي فقلت : يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم شيئاً يحرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر إني أراك شاب السن فسيح الصدر يمين اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما الله ، واختلفوا هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه الحرم ، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل وإن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكتفي بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين : فقال الشافعي وأحمد : يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعاً مقررًا لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين ، وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَدٌ الْكَعْبَةِ ﴾ أي : واصلاً إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة .

وقوله : ﴿ أَوْ كَثْرَةُ طَعَامٍ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ مَبَآئِمًا ﴾ أي : إذا لم يجد الحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر « أو » بأنها للتخيير ، والقول الآخر أنها على الترتيب ، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماة وإبراهيم ، وقال الشافعي : يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ، ثم يشتري به طعاماً فيتصدق به ، فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير وقال أبو حنيفة وأصحابه : يطعم كل مسكين مدين وهو قول مجاهد ، وقال أحمد : مد من حنطة أو مدان من غيره ، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير ؛ صام عن إطعام كل مسكين يوماً ، وقال ابن جرير : وقال آخرون : يصوم مكان كل صاع يوماً كما في جزاء المترفة بالخلق ونحوه ، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة أصع ، واختلفوا في مكان هذا الإطعام ، فقال الشافعي : مكانه الحرم ، وهو قول عطاء ، وقال مالك : يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه ، وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم وإن شاء أطعم في غيره .

ذكر أقوال السلف في هذا المقام : عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ فَبَرَاءٌ يَنْبَغُ مَا قُتِلَ مِنْ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا بِبَلْغِ الْكُتُبَةِ أَوْ كَثَرَةِ طَعَامِ مَسْكِينٍ أَوْ هَذَا ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إذا أصاب الحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن لم يجد نظركم ثمنه ثم قوم ثمنه طعاماً ، فصام مكان كل نصف صاع يوماً ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ كَثَرَةُ طَعَامِ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ قال : إنما أريد بالطعام والصيام ، فإنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه ، عن ابن عباس ﴿ هَذَا بِبَلْغِ الْكُتُبَةِ أَوْ كَثَرَةُ طَعَامِ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ إذا قتل الحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل إيلاً أو نحوه فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً ، ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ قالوا : إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى . رواه ابن جرير وكذا روي ابن جريج عن مجاهد وأساط عن السدي أنها على الترتيب . وفي رواية الضحاك وإبراهيم النخعي : هي على الخيار . وهي رواية الليث عن مجاهد عن ابن عباس ، وقوله : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ أي : أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿ عَنَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَكْتَ ﴾ أي : في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله ولم يرتكب المعصية ، ثم قال : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ أي : ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ قال ابن جريج : قلت لعطاء : ما ﴿ عَنَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَكْتَ ﴾ ؟ قال : عما كان في الجاهلية قال : قلت : وما ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ قال : ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة ، قال : قلت : فهل في العود من حد تعلمه ؟ قال : لا ، قال : قلت : فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله ﷻ ، ولكن يفندى ، رواه ابن جرير . وقيل : معناه فينتقم الله منه بالكفارة ، قاله سعيد بن جبير وعطاء : ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل الحرم الصيد وجب الجزاء ، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد ، وقال ابن عباس : من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كما قتله ، فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له : ينتقم الله منك ، كما قال الله ﷻ . ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يقول عز ذكره : والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام من انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ؛ لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره له العزة والمنعة . وقوله : ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

﴿ أَيْلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلنَّاسِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ تَخْشَوْنَ ﴾ ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَتَابَ الْبَيِّنَاتِ الْكَرَامَ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ وَالشَّهَرِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى وَالْقَلْبَ ذَلِكَ لِيَسْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ مَعَهُ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ ﴾ ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَيْلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾ : يعني ما يصطاد منه طرياً ﴿ وَطَعَامُهُ ﴾

ما يتزود منه مليحاً يابساً ، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذ منه حيّاً ﴿وَلَعَلَّاهُمْ﴾ ما لفظه ميتاً ، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري ؓ وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري . وعن ابن عباس قال : خطب أبو بكر الناس فقال : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ﴾ وطياعه ما قذف . وقال سعيد بن المسيب : طعمه ما لفظه حيّاً أو حسر عنه فمات ، وعن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال : إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة أفأكلها ؟ فقال : لا تأكلوها ، فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فاتى هذه الآية ﴿وَلَعَلَّاهُمْ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَلْآيَةُ﴾ فقال : اذهب فقل له : فليأكله فإنه طعمه . وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعمه ما مات فيه . وقوله ﴿مَتَّعًا لَكُمْ وَلَلْآيَةُ﴾ أي : منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلَلْآيَةُ﴾ وهم جمع سيار قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر والسفر ، وقال غيره : الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر ، وطعمه ما مات فيه ، أو اصطيد منه وملح ، وقد يكون زاداً للمسافرين والناتين عن البحر .

وقد استدلل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة وبما روي عن جابر بن عبد الله ، قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق ، فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله ، فكان مزودي تمر ، قال : فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلا تمر ، فقال : فقد وجدنا فقدناها حين فنيتم ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه ذلك الجيش ثمانين عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتها فلم تصبهما ^(١) .

وقد روي عن أبي هريرة قال : كنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة ، فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربهن بعضنا وسيطانا فنقتلن ، فسقط في أيدينا فقلنا : ما نصنع ونحن محرمون ، فسألنا رسول الله ﷺ فقال : «لَا تَأْسَ بِصَيْدِ الْبَحْرِ» ^(٢) . وقد روى الشافعي عن سعيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئاً وقد تقدم عن الصديق أنه قال : طعمه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها لما روي عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي ، أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع ^(٣) . وعن عبد الله بن عمرو ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع ، وقال : نقيقتها تسبيح ^(٤) . وقال آخرون : يؤكل من صيد البحر السمك ولا يؤكل الضفدع ، واختلفوا فيما سواهما فقيل : يؤكل سائر ذلك ، وقيل : لا يؤكل ،

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٣) وأحمد في مسنده (٣٠٦/٣) ومالك في الموطأ (٩٣٠/٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٦/٢) وابن ماجه في سننه (٣٢٢٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٣/٣) وأبو داود في سننه (٥٢٦٩) .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/١٤١ .

وقيل : ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر ، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل ، وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمته الله تعالى ، وقال أبو حنيفة رحمته الله تعالى : لا يؤكل ما ملئت في البحر ، كما لا يؤكل ما مات في البر ، لعموم قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَانُ الْبُحْرِ ﴾ . وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث : « هُوَ الطَّهْوَرُ مَاؤُهُ الْحُلُ مَيْتُهُ » ^(١) . وروي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أَجَلْتُ لَنَا مَيْتَتَيْنِ وَدَمَانٍ ؛ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ : فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ ؛ وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبْدُ وَالطَّحَالُ » ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُسِّنَ حُرْمًا ﴾ أي : في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متممداً أثم وغرم ، أو مخطئاً غرم وحرّم عليه أكله ؛ لأنه في حقه كالميتة ، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحليين عند مالك والشافعي في أحد قوليّه ، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم ، فإن أكله أو شقياً منه فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء أحدهما : نعم ، عن عطاء قال : إن ذبحه ثم أكله فكفارتان ، وإليه ذهب طائفة . والثاني : لا جزاء عليه في أكله ، نص عليه مالك بن أنس وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد ، فإنما عليه حد واحد ، وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل ، وقال أبو ثور : إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه ، وحلال أكل ذلك الصيد ، إلا أنني أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول الله ﷺ : « صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدَّ لَكُمْ » ^(٣) وهذا الحديث سيأتي بيانه ، وقوله بإباحته للقاتل غريب ، وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عن تقدم ، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون ؛ لهذا الحديث ، والله أعلم .

وأما إذا صاد حلال صيداً ، فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا ، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام . وعن أبي هريرة ، أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أيأكله المحرم ؟ قال : فأفاتههم بأكله ، ثم لقي عمر بن الخطاب ، فأخبره بما كان من أمره ، فقال : لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك ، وقال آخرون : لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقاً لعموم هذه الآية الكريمة ، وعن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم وقال : هي مبهمة ، يعني قوله : ﴿ وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُسِّنَ حُرْمًا ﴾ وعن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال ، وبه قال طاوس وجابر بن زيد ، وإليه ذهب الثوري وإسحاق بن راهويه . وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب ، عن سعيد بن المسيب : أن علياً كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال ، وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور : إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله ، لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦١/٢) والحاكم في المستدرک (١٠٠/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٤ ، ٣ ، ١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩٧/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٤/١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٣) وأبو داود في سننه (١٨٥١) .

﴿ حَمَارًا وَحْشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بُوْدَانٍ ، فَرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ : « إِنَّا لَمْ نَزِدْهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ » ، قَالُوا : فَوَجْهَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَنَّ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا صَادَهُ مِنْ أَجَلِهِ فَرَدَهُ لَذَلِكَ ^(١) . فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ بِالْأَصْطِيْدِ ؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْأَكْلُ مِنْهُ ، لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ حِينَ صَادَ حَمَارٌ وَحْشٌ وَكَانَ حَلَالًا لَمْ يَحْرَمْ ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُحْرَمِينَ ، فَوَقَفُوا فِي أَكْلِهِ ، ثُمَّ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « هَلْ كَانَ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا أَوْ أَغَانَ فِي قَتْلِهَا ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَكُلُوا » وَأَكَلَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٢) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : وقال قتبية في حديثه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صَيْدُ الْبَرِّ لَكُمْ حَلَالٌ - قَالَ سَعِيدٌ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ - مَا لَمْ تَصِيدُوهُ أَوْ يُصَدِّ لَكُمْ » ^(٣) .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاذْكُوا اللَّهَ يَتَأَذَى الْأَلْبَابُ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ ﴾^(٤) يَتَأَذَى الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَشْكُلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْكُومٌ وَإِنْ تَشْكُلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾^(٥) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾ أي : يا أيها الإنسان ﴿ كَثْرَةُ الْخَيْثِ ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء في الحديث « مَا قُلٌّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى » ^(٤) . وعن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، فقال النبي ﷺ : « قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَةَ خَيْرٍ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ » ^(٥) ﴿ فَاذْكُوا اللَّهَ يَتَأَذَى الْأَلْبَابُ ﴾ أي : يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ يَتَأَذَى الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَشْكُلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْكُومٌ ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور بما ساءتهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يُلْغَنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا ، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ » ^(٦) . وعن أنس بن مالك ، قال : خطب رسول الله خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لَوْ تَعْلَمُوا مَا أَغْلَمُ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم حين ، فقال رجل : من أبي ؟ قال : « فَلَانٌ » . فنزلت هذه الآية ﴿ لَا تَشْكُلُوا عَنْ أَشْيَاءَ ﴾ ^(٧) . وعن قتادة في قوله : ﴿ يَتَأَذَى الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَشْكُلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْكُومٌ ﴾ قال : إن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم ، فصعد المنبر فقال : « لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْتَهِي لَكُمْ » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر

(١) أخرجه مسلم في الحج (٥٠) ومالك في الموطأ (٣٥٣) . (٢) أخرجه أبو داود في سننه (١٨٥١) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٢/٣) والترمذي في سننه (٨٤٦) والنسائي في سننه (٢٨٢٧) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢٥/٢) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/١٠) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦١/٣) .

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٦) وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) والحاكم في المستدرک (٥٧٩/٤) .

قد حضر ، ففعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلا وجدت كلاً لأفا رأسه في ثوبه يكي ، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله من أي ؟ قال : «أَبُوكَ حُذَافَةُ» قال : ثم قام عمر أو قال : فأنشأ عمر فقال : رضينا بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولًا عائدًا بالله ، أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن ، قال : وقال رسول الله ﷺ : «لَمْ أَرْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ ، صُورَتْ لِي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَاطِطِ» ^(١) .

وعن علي قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قالوا : يا رسول الله أفني كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفني كل عام ؟ فسكت ، قال : ثم قالوا : أفني كل عام ؟ فقال : «لَا ، وَلَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ الآية ^(٢) ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ» فقال رجل : أفني كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال : «مَنْ السَّائِلُ ؟» فقال : فلان ، فقال : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ ، وَلَوْ وَجِبَتْ عَلَيْكُم مَّا أَطَقْتُمُوهُ ، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهُ لَكَفَرْتُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ حتى ختم الآية ^(٣) وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عنها وتركها ، وما أحسن الحديث الذي روي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «لَا يُلْغَنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْعًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرِجَ إِلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ثم قال : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي : عما كان منكم قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ وقيل : المراد بقوله : ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ﴾ أي : لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق ، وقد ورد في الحديث : «أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جَزْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ فَحَرِّمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» ^(٥) ولكن إذا نزل القرآن بها مجاملة ، فسألتهم عن بيانها بينت لكم حيثئذ لاحتياجكم إليها ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي : ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه ، فاسكتوا أنتم كما سكت عنها ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ذُرُونِي مَا تَرَكَتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» ^(٦) وفي الحديث أيضًا : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَضَ قَرَائِصَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَغْتَدُّوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ

(١) أخرجه : البخاري في الدعوات (٦٣٦٢) ومسلم في الفضائل (١٣٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١٣/١) وابن ماجه في سننه (٢٨٨٤) وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢٩٤/٢) .

(٣) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٨٢/٢) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦/١) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣٢ ، ١٣٣) وأحمد في مسنده (١٧٩/١) وأبو داود في سننه (٤٦١٠) .

(٦) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٢٤٧/٢) وابن ماجه في سننه (٢) .

عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا ^(١) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أي : قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين أي بسببها ، أي : بينت لهم فلم ينتفعوا بها ؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا ذِئْبَةٍ وَلَا حَافِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ^(٣) .

عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « رَأَيْتُ عَمْرُو بْنُ غَامِرٍ الْخَزَاعِيَّ يَجُرُّ قُضْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِيبَ ^(١) » والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تشنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المحدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأغفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي .

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إِنْ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِيبَ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ أَبُو خُزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ غَامِرٍ ، وَإِنِّي رَأَيْتُهُ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ فِي النَّارِ » ^(٢) . فعمر هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم ، وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَبْرِ وَالْحَبْرِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك . فأما البحيرة فقال ابن عباس رضي الله عنه : هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا آذانها ، فقالوا : هذه بحيرة . وأما السائبة : فقال مجاهد : هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها ، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم ، وقال محمد بن إسحاق : السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر ، سبيت ، فلم تركب ، ولم يجز وبرها ، ولم يحلب لبنها إلا لضييف . وقال أبو روق : السائبة : كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها ، فجعلها للطواغيت ، فما ولدت من شيء كان لها ، وقال السدي : كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيئاً من ماله للأوثان ، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٢٢/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٣/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٥١) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٦/١) .

وأما الوصيلة : فقال ابن عباس : هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع ، فإن كان ذكراً وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحيوهما ، وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا . عن سعيد بن المسيب ﴿ وَلَا وَصِيلَةٌ ﴾ قال : فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى ، ثم نثت بأنثى فسموها الوصيلة ، ويقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر فكانوا يجدعونها لطواغيتهم ، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رحمته الله تعالى ، وقال محمد بن إسحاق : الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشرين أنثى في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة ، وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث ، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها ، وأما الحامي : فقال ابن عباس : كان الرجل إذا لقح فحله عشراً قيل : حام فاتركوه ، وعنه أيضاً : وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده ، قالوا : حمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئاً ، ولا يجزون له وبراً ، ولا يمنعونه من حمى رعي ، ومن حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه ، وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : أما الحام : فمن الإبل ، كان يضرب في الإبل ، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه ، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي : ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قرية ، ولكن المشركون افتروا ذلك ، وجعلوه شرعاً لهم وقرية يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أي : إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ، قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أي : لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً .

﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى آمروا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم ، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً . قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به . فقول تعالى : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ نصب على الإغراء ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً . عن قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُتَكَبِّرَ وَلَا يُعْزِزُونَهُ يُوشِكُ اللَّهُ أَنْ يُعْزِمَهُمْ بِعِقَابِهِ » قال : وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب

الإيمان^(١) . وعن أبي أمية الشعباني ، قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ مِّنْ صَدَقَاتِكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بَلْ أَتَيْتُمُوهَا بِالْمَقْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًا مُّطَاعًا ، وَهَوًى مُّتَّبِعًا ، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً ، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ ، وَدَعِ الْعَوَامَ ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرِ فِيهِمْ مِثْلُ الْقَائِضِ عَلَى الْجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ » قال عبد الله بن المبارك : وزاد غير عتبة قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : « بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ »^(٢) .

وعن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَعْزُبُ عَنْكُمْ مِّنْ صَدَقَاتِكُمْ ﴾ الآية قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه ، فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ، فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجئ تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه أي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه أي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه أي قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ ييسر ، ومنه أي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه أي تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة ، ومنه أي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمرُوا وانهاؤا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض ، فأمرُوا ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرِفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحَتْكُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَدَلِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتَ بِهِ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا تَكْفُرْ شَهَادَةُ اللَّهِ إِنَّهُ إِذَا لَمِنَ الْأَثَوِينَ ﴿١٠٥﴾ فَإِنْ عُدَّ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدْتُمَا وَمَا أَكْذَبْتُمَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ أَدْفَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَحْفَاقُوا أَنْ تَرُدَّ آبْنُ بَعْدَ آيَتِنَاهُمْ وَأَنْتُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل : إنه منسوخ ، رواه العوفي عن ابن عباس وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم : إنها منسوخة ، وقال آخرون وهم الأكثرون : فيما قاله ابن جرير ، بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان ، فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ هذا هو الخبر لقوله : شهادة بينكم ، فقيل : تقديره شهادة اثنين ، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان ، وقوله تعالى : ﴿ ذَوَا عَدْلٍ ﴾ وصف الاثنين بأن يكون عدلين ، وقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي : من المسلمين ، قاله الجمهور ، وعن ابن عباس ؓ قال : من المسلمين ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي : من أهل الموصي ، وقوله : ﴿ أَوْ آخَرَانِ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١) وابن ماجه في سننه (٤٠٠٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٠٥٨) وأبو داود في سننه (٤٣٤١) وابن ماجه في سننه (٤٠١٤) .

مِنْ غَيْرِكُمْ ﴿١٠٦﴾ قال ابن عباس : من غير المسلمين ، يعني أهل الكتاب ، ﴿ يَنْكُم ﴾ أن المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ههنا ﴿ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي : من غير قبيلة الموصي ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتَ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : سافرت ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةً لِّلْمَوْتِ ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ، كما صرح بذلك شريح القاضي ، قال ابن جرير : لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر ، ولا تجوز في سفر إلا في الوصية ، وروي نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله تعالى ، وهذه المسألة من أفرادها ، وخالفه الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً .

وقال ابن جرير : اختلف في قوله : ﴿ شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين :

أحدهما : أن يوصي إليهما . سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية ، قال : هذا رجل سافر ومعه مال فأدركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين . والقول الثاني : إنهما يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية الكريمة ، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاية والشهادة ، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء .

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين ، قال : لأننا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد ، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم أن يكون جاريًا على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره ، فإذا قامت قرينة الرية حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَلَاكَةِ ﴾ قال ابن عباس : يعني صلاة العصر ، وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين ، وقال السدي عن ابن عباس : يعني صلاة أهل دينهما ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أي : فيحلفان بالله ﴿ إِنْ أَرَبْتُمْ ﴾ أي : إن ظهرت لكم منهما رية أنهما خانا أو غلا ، فيحلفان حينئذ بالله ﴿ لَا نَشْرِي بِهِ ﴾ أي : بأيماننا ﴿ ثَمَنًا ﴾ أي : لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أي : ولو كان المشهود عليه قريبًا لنا لا نحايه ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ ﴾ وأضافها إلى الله تشريقًا لها وتعظيمًا لأمرها وقال بعضهم : ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ مجرورًا على القسم رواها ابن جرير عن عامر الشعبي ، وحكي عن بعضهم أنه قرأها ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ ﴾ والقراءة الأولى هي المشهورة ^(١) ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ ﴾ أي : إن فعلنا شيئًا من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عُرِ عَا أَنْتُمْ اسْتَحَقَّ إِثْمًا ﴾ أي : فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين ، أنهما خانا أو غلا شيئًا من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك ﴿ فَءَاخِرَانِ يُؤْمِنَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايْنِ ﴾ هذه قراءة الجمهور ﴿ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايْنِ ﴾ وروي عن علي وأبي الحسن البصري أنهم قرؤوها ﴿ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَانِ ﴾ وعن علي

(١) قرأ عامة قراء الأمصار بإضافة الشهادة إلى الله وخفض اسم الله وقرأ بعضهم ﴿ شهادة الله ﴾ الطبري في تفسيره الآية ١٠٧ .

ابن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قرأ ﴿ مِنْ الَّذِينَ اسْتَقَوْ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس ﴿ مِنْ الَّذِينَ اسْتَقَوْ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(١) فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك : أي : متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح خيانتهم فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَنَشْهَدَنَّ أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهَا ﴾ أي : لقولنا : إنهما خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وَمَا أَغْدَيْنَا ﴾ أي : فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْفُلُكَيْنِ ﴾ أي : إن كنا قد كذبا عليهما وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما ، والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل ، فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية ﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمَا إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمَا الْمَوْتُ ﴾ قال : برئ الناس منها غيري وغير عدي ابن بداء ، كانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له : بديل بن أبي مريم بتجارة ، معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن ييلغا ما ترك أهله ، قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام ، فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره ، قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف ، فنزلت ﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمَا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَنَشْهَدَنَّ أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِيهَا ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا ، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء ^(٢) .

ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما روي عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال : فقدما الكوفة ، فأتيا الأشعري - يعني أبا موسى الأشعري ﷺ - فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وأنها لوصية الرجل وتركته ، قال : فأمضى شهادتهما . فقلوه هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، الظاهر والله أعلم أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري ﷺ كان سنة تسع من الهجرة ، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرا يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ، والله أعلم .

وقال أسباط : عن السدي في الآية ﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمَا إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمَا الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ ائْتَانِ دَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ﴾ قال : هذا في الوصية عند الموت ، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وما

(١) قرأ حمزة ويعقوب وخلف وأبو بكر (الأولين) بالجمع والباقون (الأوليان) على التثنية (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١٠٨) .

(٢) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٥٩) .

عليه ، قال : هذا في الحضر ﴿ أَوْ الْخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ في السفر ﴿ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةً أَلْوَيْتُ ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين ، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصي إليهما ، ويدفع إليهما ميراثه ، فيقبلان به ، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوهما ، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان ، فذلك قوله تعالى : ﴿ تَحْيِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْأَصْلَوةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرْتَبْتُمْ ﴾ قال عبد الله بن عباس ؓ : كأني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ، ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما ، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر ، فقلت : إنهما لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما ، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما ، فيحلفان بالله لا نشترى به ثمنًا قليلًا ولو كان ذا قرى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين ، أن صاحبهم لهذا أوصى وأن هذه لتركته ، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا : إنكما إن كنتمما أو ختمتما فضحككما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما ، فإذا قال لهما ذلك : ﴿ ذَلِكَ أَدَقُّ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا ﴾ .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلًا ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبوا في شهادتهما ، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عُدَّ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبوا ﴿ فَتَاخَرَانِ يَتَوَكَّانِ مَقَامَهُمَا ﴾ يقول : من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرين وتجز شهادة الأولياء ، ثم قال ﴿ وَأَتَوُوا اللَّهَ ﴾ أي : في جمع أموركم ﴿ وَاسْتَمِعُوا ﴾ أي : وأطيعوا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُتُوبِ ﴾ .

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَوَرَيْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقول الرسل : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم ..

وقال السدي : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول ، فلما سئلوا قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم . عن ابن جريج في قوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ أي : ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم ؟ قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُتُوبِ ﴾ . وعن ابن عباس ؓ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُتُوبِ ﴾ يقولون للرب ﷻ : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا . رواه ابن جرير ، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ، ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب ﷻ ، أي : لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجابنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل

شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك ﴿ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴾ .
 ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذْ آتَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَتَرَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لَآلِيْنَتَهُمْ يَبْلَغْنَهُمْ فَفَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٩﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَسُولِيْ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُّسْلِمُونَ ﴾ .

يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجزاه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات ، فقال : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أي : في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلني إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ ﴾ حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبته الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿ إِذْ آتَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتك نبيا داعيا إلى الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيرا ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ، ودعوت إلى عبادتي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي : تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك ، وضمن ﴿ تُكَلِّمُ ﴾ تدعو لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ، وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي : الخط والفهم ﴿ وَالتَّوْرَةَ ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ، وقد يرد لفظ التوراة في الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك ، وقوله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ أي : تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ، ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أي : فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك ، فتكون طيرا ذا روح تطير بإذن الله وخلقه .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ الْأَكْشَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ أي : تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ، وقد قال أبو الهذيل : كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي يَبْدُو الْمَوْتَى ﴾ وفي الثانية ﴿ اَللّٰهُمَّ تَنْزِيلُ السَّجْدَةِ ﴾ ، فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم ، يا خفي ، يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد ، وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة آخر : يا حي ، يا قيوم ، يا الله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم يا رب ، وهذا أثر عظيم جدا . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لَآلِيْنَتَهُمْ يَبْلَغْنَهُمْ فَفَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جتتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم ، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر ، وسعوا في قتلك وصلبك ، فنجيتك منهم ورفعتك إليّ وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم ، وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتحان واقعا يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمدا عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْهَارُونَ أَنْ آمِنُوا بِ وَرَسُولِي ﴾ وهذا أيضًا من الامتنان عليه ، عليه الصلاة والسلام بأن جعل له أصحابًا وأنصارًا . ثم قيل : إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَ مُوسَى أَنْ أَنذِرِ الْفِرْعَوْنَ وَآلَهُ وَمَنْ هُوَ بِهَذَا صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الآية وهو وحي إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ اتَّقِ يَوْمَ تُزْجَى السَّجُودُ ﴾ الآية وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْهَارُونَ أَنْ آمِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا ، قال الحسن البصري : ألهمهم الله ﷻ ذلك ، وقال السدي : قذف في قلوبهم ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطة فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا : ﴿ آمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ الْهَارُونَ لِيَعْقِبِي ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْلَمَ قُلُوبَنَا وَتَقْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال : سورة المائدة ، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة ، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل ، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين ، فالله أعلم . فقوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْهَارُونَ ﴾ وهم أتباع عيسى ﷺ ﴿ لِيَعْقِبِي ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ (١) أي : هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقدهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون بها ويتقون بها على العبادة ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : فأجابهم المسيح ﷺ قائلاً لهم : اتقوا الله ولا تسألوا هذا ، ففساه أن يكون فتنة لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وَنَقْلَمَ قُلُوبَنَا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿ وَتَقْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي : ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي : ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يعني يوماً نصلي فيه ، وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم ، وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولن بعدنا ، وقيل : كافية لأولنا وآخرنا ﴿ وَآيَةً مِنْكَ ﴾ أي : دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك لدعوتي فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أي : من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ ﴾ أي : فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : من

(١) قرأ الكسائي (تستطيع) بالخطاب (ربك) بالنصب والباقون بالرفع والغيب (انظر تقريب النشر في القرايات العشر ص ١٠٨) .

عالمي زمانكم كقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ وقد روي عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون (١) .

ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحوارين

عن ابن عباس ، أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ، ثم تسألوه فيعطيكُم ما سألتُم ؟ فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ، ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطلعنا حين نفرغ طعاماً ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْطَعِ قُلُوبَنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا وَكُنُوزَنَا عَلَيْهَا مِنَ الشَّهِيدِينَ ﴾ ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . وعن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لعد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير » (٢) .

وهذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية . وقال قائلون : إنها لم تنزل ، فروي عن مجاهد في قوله : ﴿ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . وعن مجاهد ، قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم وعن الحسن أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل . وعن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما توفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم ، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى ﴿ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : ووعده الله ووعده حق وصدق ، وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلَّت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم ، وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، وحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرأها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من البواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ، ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود ﷺ فأنه أعلم .

وعن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك قال : « وَتَفْعَلُونَ ؟ » قالوا : نعم ، قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت ففتح لهم باب التوبة والرحمة . قال : « بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » (١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۗ ﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۗ ﴿١١٦﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَنْفِرْ لَهُمْ فَانْكَرْتُ الْغُرُوبَ الْحَكِيمُ ۗ .

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله : ﴿ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتفرغ على رؤوس الأشهاد ، وقال السدي : هذا الخطاب والجواب في الدنيا ، وصوبه ابن جرير قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء ، واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين أحدهما : أن الكلام بلفظ الماضي . والثاني : قوله : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ ﴾ ﴿ وَإِنْ تَنْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذا الدليلان فيهما نظر ؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت ، ومعنى قوله : ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ ﴾ الآية ، التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات ، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم ، أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتبريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما روي عن أبي هريرة قال : يلقي عيسى حجته ولقاءه الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ إلى آخر الآية (٢) . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ أي : إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ، فإنه لا يخفى عليك شيء ، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال : ﴿ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۗ ﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۗ ﴿١١٦﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَنْفِرْ لَهُمْ فَانْكَرْتُ الْغُرُوبَ الْحَكِيمُ ۗ . أي : ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿ إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي : هذا هو الذي قلت لهم . وقوله : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي : كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۗ ﴾ . عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ بِحَقِّ حِفَاةٍ غُرَاةٍ غُرُولًا ﴾ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ﴾ ﴿ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، فَأَقُولُ : أَصْحَابِي ،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٥٣/١) والطبرانی في الكبير (١٥٢/١٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٢) .

فَيَقَالُ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَخَذْتُوا بِغَدِّكَ ، فَأَقُولُ : كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْكَرِيمَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ١) إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهَيِّئُوا لَهُمْ فِتْنَةً فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ فَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَأَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فَيَقَالُ : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ ٢)

وقوله : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهَيِّئُوا لَهُمْ فِتْنَةً فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ فَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَأَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ﷻ ، فإنه الفعل لما يشاء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله ندا ، وصاحبه ، وولدا ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبا عجيب .

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهَيِّئُوا لَهُمْ فِتْنَةً فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ فَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَأَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا » ٢) .

وعن جسرة بنت دجاجة أنها انطلقت معمرة فانتهدت إلى الربذة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلّى بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلّفهم انصرف إلى رحله ، فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلي ، فبحث فبحث خلفه ، فأومأ إليّ يمينه ، فقامت عن يمينه ، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله ، فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه وتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو ، وقام بآية من القرآن يرددها حتى وصل الغداة ، فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سلّم ما أراد إلى ما صنع البارحة ، فقال ابن مسعود بيده : لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ ، فقلت : بأبي وأمي قمت بآية من القرآن ومعك القرآن ، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال : « دَعَوْتُ لِأُمَّتِي » قلت : فماذا أجبت أو ماذا رد عليك ؟ قال : « أَجَبْتُ بِالَّذِي لَوْ أُطْلِعَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ طَلَعَهُ تَرَكُوا الصَّلَاةَ » قلت : أفلا أبشر الناس ؟ قال : « بَلَى » فانطلقت متعنا قريتا من قذفة بحجر ، فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات ، فناداه أن : « ارجع » فرجع ، وتلك الآية : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهَيِّئُوا لَهُمْ فِتْنَةً فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ فَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَأَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٣) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهَيِّئُوا لَهُمْ فِتْنَةً فَإِنَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ فَإِنَّمَا يَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَأَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه فقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي » وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما ييكه فأتاه جبريل فأسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمك ولا نسوءك ٤) .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٥) ومسلم في الحجة (٥٨) والترمذي في السنن (٣١٦٧) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٥) . (٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٠/٥ .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) والبيهقي في السنن (٢٠٥/٧) .

عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ .

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنباه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه ﷻ ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قال الضحاك : عن ابن عباس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لَمْ يَجْنُ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي : ماكين فيها لا يحولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنْ رَبِّكَ أَعْظَمُ ﴾ عن أنس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ فيه : « ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ ﷻ فَيَقُولُ سَلُونِي أُعْطِيَكُمْ - قَالَ - فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا فَيَقُولُ : رِضَايَ أَحْلُكُمْ دَارِي وَأَنَا لَكُمْ كَرَامَتِي فَسَلُونِي أُعْطِيَكُمْ ، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا ، قَالَ : فَيُشْهِدُهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ ﷻ » (١) .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى : ﴿ لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ السَّاجِدُونَ ﴾ وكما قال : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ، ولا عدل ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا إله غيره ولا رب سواه . وعن عبد الله ابن عمر قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة (٢) .

(١) ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥١/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٠٦٣) والحاكم في المستدرک (٣١١/٢) .

الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿١﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين : - تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا - بأنه في كل مكان ، حيث حملوا الآية على ذلك ، فالأصح من الأقوال : أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض أي : يعبد و يوحده و يقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغبًا ورهبًا ، إلّا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ أي : هو إله من في السماء وإله من في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خبرًا أو حالًا . والقول الثاني : أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهر ، فيكون قوله : ﴿ يَعْلَمُ ﴾ متعلقًا بقوله : ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، ويعلم ما تكسبون .

والقول الثالث : أن قوله : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي : جميع أعمالكم خيرها وشرها . ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَذَكَّرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكَرُّ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَاقًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ۝ .

يقول تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين : أنهم كلما أتتهم من آية أي - دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام - فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها ، قال الله تعالى : ﴿ فَذَكَّرُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدن غبه وليذوقن وبالَه ، ثم قال تعالى واعظًا لهم ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا واستلاءً في الأرض وعمارة لها فقال : ﴿ أَمْ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكَرُّ ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ، ولهذا قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَاقًا ﴾ أي : شيئًا بعد شيء ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ أي : أكثرنا عليهم أقطار السماء وينابيع الأرض ، أي : استدراجًا وإملاءً لهم ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ أي : فذهب الأولون كأمس الذاهب ، وجعلناهم أحاديث ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ أي : جيلًا آخر لنختبرهم ، فعللوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم ، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى كَثَبٍ فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا أَلَّيْنِ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ۝ وَلَقَدْ أَسْنَهَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالْأَلْبَانِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ قُلْ سِيرُوا

فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٦﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهاتهم ومنازعتهم فيه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلْيَسَوْهُ بِيَدَيْهِمْ ﴾ أي : عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ﴿ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ ﴾ ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا بَلْ عَن قَوْمٍ مُّشْجَرُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أي : ليكون معه نذيراً قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّفُتِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ أي : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال الله تعالى : ﴿ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكُوتَ إِلَّا بِالنَّحْيِ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرُونَ ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيشُونَ ﴾ أي : ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً ، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً ، لكان على هيئة الرجل ليتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ لَمَلَكُنَا مَلَكُوتٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم بعضاً وليمكن بعضهم أن يتنفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنبَأَهُمْ بِأَنبَاءِهِمْ ﴾ عن ابن عباس في الآية يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل ؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿ وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيشُونَ ﴾ أي : ولخلطنا عليهم ما يخلطون ، وقال الوالبي عنه ، ولشبهنا عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلِ بْنِ قَبِيلِكَ فَكَانَ بِالَّذِينَ سَجَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : فكروا في أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوه ، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

﴿ قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَكُم مَّا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ النَّاسِ قَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُعْلِمُ وَلَا يُغْنَعُهُ قُلْ إِنِّي أَخَشِئْتُ أَنَّ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ مَنْ يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمُهُ فَقَدْ رَجَعَهُ وَذَلِكَ الْقَوْمُ الْأَمِيُّنَ ﴿ ١٧ ﴾ .

يخبر تعالى : أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة ، كما ثبت عن أبي هريرة ؓ قال : قال النبي ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبْ غَضَبِي » ^(١) . وقوله : ﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمع عباده ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه ، أي : لا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون ، فهم في ريبهم يترددون ، وفي

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٠/٢) وابن ماجه في سننه (٤٢٩٥) .

رواية « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَازْجُو أَنْ أَتُكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً » (١). وقوله : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَمَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي : كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتديره ، لا إله إلا هو ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بركاتهم وضمائرهم وسرائرهم ، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم : ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا وَبَدَّلَ قَائِلًا فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿ وَهُوَ يُطِيعُ وَلَا يُطَعُّ ﴾ أي : وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الآية وقرأ بعضهم هاهنا ﴿ وَهُوَ يُطِيعُ وَلَا يُطَعُّ ﴾ أي : لا يأكل ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قضاء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه ، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال : « الحمد لله الذي يطعمني ولا يطعمني ، ومن عطينا فهذانا وأطعمنا وسقانا من الشراب ، وكسنا من الغزي ، وكل بلاء حسن أبلانا . الحمد لله غير مؤدع ربي ولا مكفي ولا مكفور ولا مستغنى عنه . الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسنا من الغزي ، وهذا من الضلال ، وبصرتنا من العمى ، وفصلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً ، الحمد لله رب العالمين » (٢) . ﴿ قُلْ إِنِّي أَرْتُهُ أَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدُّ ﴾ أي : من هذه الأمة ﴿ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ مَنْ يُصِرْ عَنْهُ ﴾ أي العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ ﴾ يعني فقد رحمه الله ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَنْ رُحِنَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ والفوز حصول الربح ونفي الخسارة .

﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَصِيرَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿ قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لِلشَّاهِدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخَرْتُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكْتَبَ يَعْرِفُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَصِيرَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَسْأَلْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مَا يَقْضِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمَسُّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ الآية . وفي الصحيح : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتَ ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي : هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت

(١) أخرجه الترمذي في مسنده (٢٤٤٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/٤) ، والحاكم في المستدرک (٥٤٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٣٧) ، وأحمد في مسنده (٩٣/٤) ، ٩٥ ، والترمذي في مسنده (٢٢٩) .

عظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في جميع أفعاله ﴿ لَنَنبِئَنَّ ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلا من يستحق ولا يمنع إلا من يستحق ، ثم قال : ﴿ قُلْ أَنتُمْ أَكْبَرُ شَيْئًا ﴾ أي : من أعظم الأشياء شهادة ﴿ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : هو العالم بما جتكم به وما أنتم قائلون لي ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ مَنَّا الْقُرْآنَ لِإِذْخِرْكَ بِهِ وَمَنَّا بَلَّغٌ ﴾ أي : وهو نذير لكل من بلغه ، قال محمد بن كعب في قوله : ﴿ وَمَنَّا بَلَّغٌ ﴾ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ ، وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ لِإِذْخِرْكَ بِهِ وَمَنَّا بَلَّغٌ ﴾ . قال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذي أنذر .

وقوله : ﴿ آيَتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أيها المشركون ﴿ أَنتَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِلَٰهِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جتتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ونعته وصفته وبلده ومهاجرة وصفة أمته ، ولهذا قال بعده : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : خسروا كل الخسارة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه ، ثم قال : ﴿ وَمَنَّا أَظْلَمُ مِمَّنِ اتَّخَذَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أي : لا أظلم ممن تقول على الله ، فادعى أن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْفَٰلِغُونَ ﴾ أي : لا يفلح هذا ولا هذا ، لا المفترى ولا المكذب .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَامًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ رَزَعُومٌ ۝ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ أَظْهَرَ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَمَنْ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَٰذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا مَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ بُعْدُكَ يُقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَامًا ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنناد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلًا لهم : ﴿ إِنِّي سُرَّوْكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ رَزَعُومٌ ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ رَزَعُومُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي : حجتهم . وعن ابن جريج عن ابن عباس : أي قيلهم ، ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال ابن جرير : والصواب ، ثم لم يكن قيلهم عند فتننا إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . وعن ابن عباس قال : أتاه رجل فقال : يا ابن عباس سمعت الله يقول : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ . قال : أما قوله : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلتنجد فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتُمون الله حديثاً . فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن

شيء إلا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه . ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ كقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴾ ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُذُّبًا يَلْعَنُوا ﴾ أي : يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي : أعطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي : صمماً عن السماع النافع لهم . وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُذُّبًا يَلْعَنُوا ﴾ أي : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها ، فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُخَدِّدُونَكَ ﴾ أي : يحاجونك وينظرونك في الحق بالباطل ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ في معنى ينهون عنه قولان ؛ أحدهما : أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي : ويعدونهم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع . قال ابن عباس : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يردون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به . وقال محمد ابن الحنفية : كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ وينهون عنه . والقول الثاني : قال : نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤدي ، وقال محمد بن كعب القرظي : أي ينهون الناس عن قتله . وقوله : ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي : يتباعدون منه ﴿ وَإِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا يشعرون .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى الْآثَرِ فَاقُولُوا بَلَيْنَاتُ نَرُّدُّ وَلَا تُكْذِبُ يَتَابِعُ رَيْبًا وَكَفُورًا ﴾ ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُفْعَلُونَ ﴾ ﴿ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى رَيْبِهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال ، فعند ذلك قالوا : ﴿ بَلَيْنَاتُ نَرُّدُّ وَلَا تُكْذِبُ يَتَابِعُ رَيْبًا وَكَفُورًا ﴾ ﴿ الْكَاذِبِينَ ﴾ يمتنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُفْعَلُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : بل ظهر لهم حيثما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة كما قال قبله يسير ﴿ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبراً عن فرعون وقومه ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ ظُلُمًا غُلَامًا ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويظنون الكفر ، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه السور مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة

مكية وهي العنكبوت ، فقال : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ وعلى هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعانقون العذاب ، فظهر لهم حيث لا غيب ما كانوا يظنون من الكفر والنفاق والشقاق ، والله أعلم . وأما معنى الإضراب في قوله : ﴿ بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَظُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا برغبة ومحبة في الإيمان بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان ، ثم قال مخبراً عنهم : إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والخالفة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : في قولهم : ﴿ يَلْتَمِسْنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبْ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ﴿ وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، أي : لعادوا لما نهوا عنه ، ولقالوا : ﴿ إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ أي : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ، ثم لا معاد بعدها ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أي : أوقفوا بين يديه ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ ؟ أي : أليس هذا المعاد بحق وليس يبطل كما كنتم تظنون ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بما كنتم تكذبون به ، فذوقوا اليوم مسه ﴿ أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا ﴾ أي : قد خسر الذين كذبوا بآيات الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يحسرننا على ما قَرَرْنَا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴾ وما الحيرة الدنيا إلا ليمٌ ولهم وللدار الآخرة خيرٌ للذين يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلفائه ، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ؛ ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا فِيهَا ﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة ، أي : في أمرها ، وقوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴾ أي : يحملون ، وقال قتادة : يعملون ، وعن أبي مرزوق قال : يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها وأنته ريحاً ، فيقول : من أنت ، فيقول : أو ما تعرفني ؟ فيقول : لا والله إلا أن الله قبح وجهك ، وأنتن ريحك ، فيقول : أنا عمك الخبيث ، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه ، فطالما ركبتي في الدنيا ، هلم أركبك ، فهو قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ﴾ الآية ، وقال السدي : ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون متنن الريح وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره ، فإذا رآه قال : ما أقبح وجهك ، قال : كذلك كان عمك قبيحاً ، قال : ما أنتن ريحك ، قال : كذلك كان عمك منتناً ، قال : ما أذنس ثيابك ، قال : فيقول : إن عمك كان دنساً ، قال له : من أنت ؟ قال : عمك ، قال : فيكون معه في قبره ، فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملني ، قال : فيركب على ظهره ، فيسوقه حتى يدخله النار ، فذلك قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبِئْسَ وَلَهُمْ ﴾ أي : إنما غالبها كذلك ﴿ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ

مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ ۖ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَنْفِخَ نَفْقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَيِّنَاتٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَسْمَعُهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ .

يقول تعالى مسلينا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ أي : قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، كقوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴾ أي : لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴾ أي : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثوري : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴾ ^(١) وقال أبو صالح وقتادة : يعلمون أنك رسول الله ويجحدون ، وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر ، فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء به ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم ، لئلا يفتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية ، جاء كل منهم ظنا أنه صاحبه لا يجيئان لما سبق من اليهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ففلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا ، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب . من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ ﴾ أي : التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين ، كما قال : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَحْمَدَ أَنَا وَرَسُولٌ إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ نَبِيِّ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ أي : من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ

عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴿٣٣﴾ أَي : إِنْ كَانَ شَقُّ عَلَيْكَ إِعْرَاضَهُمْ عَنْكَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِيَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٥﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : النَّفَقُ السَّرْبُ ، فَذَهَبَ فِيهِ ، فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةً ، أَوْ تَجْعَلُ لَكَ سُلَمًا فِي السَّمَاءِ ، فَتَصْعَدُ فِيهِ ، فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةً أَفْضَلَ مِمَّا أَتَيْتَهُمْ بِهِ فَا فَعَلَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿٣٦﴾ وَكَوَّ شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعِهِمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِئِينَ ﴿٣٧﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿٣٨﴾ وَكَوَّ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمْنٍ مَنَ فِي الْأَرْضِ كَلِمَةً بَيِّنَةً ﴿٣٩﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿٣٤﴾ وَكَوَّ شَاءَ اللَّهُ لَجَمْعِهِمْ عَلَى الْهُدَى ﴿٣٥﴾ قَالَ : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَحْرِصُ أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ وَيَتَابِعُوهُ عَلَى الْهُدَى ، فَأَخْبِرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ قَدْ سَبَقَ لَهُ مِنَ اللَّهِ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿٣٦﴾ إِنَّا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمُونَ ﴿٣٧﴾ أَي : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِدَعَائِكَ يَا مُحَمَّدٌ مَنْ يَسْمَعُ الْكَلَامَ وَيَعِيهِ وَيَفْهَمُهُ .

قَوْلُهُ : ﴿٣٨﴾ وَاللَّوَقَّ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ الْكَفَارَ ؛ لِأَنَّهُمْ مَوْتَى الْقُلُوبِ ، فَشَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِأَمْوَاتِ الْأَجْسَادِ ، فَقَالَ : ﴿٣٨﴾ وَاللَّوَقَّ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ بِهِمْ وَالْإِزْدِرَاءِ عَلَيْهِمْ .

﴿٣٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا عَنْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ يَسْمِ اللَّهِ يُضِلُّهُ وَمَنْ يُشَأْ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٧﴾ .

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، أَي : خَارِقٌ عَلَى مَقْتَضَى مَا كَانُوا يَرِيدُونَ وَمَا يَتَعَتُونَ كَقَوْلِهِمْ : ﴿٣٥﴾ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا ﴿٣٦﴾ الْآيَاتِ ﴿٣٧﴾ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِيلَ آيَةَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ أَي : هُوَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ حُكْمَتُهُ تَعَالَى تَقْتَضِي تَأْخِيرَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا وَفَقَ مَا طَلَبُوا ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا لِعَاجِلِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ ، كَمَا فَعَلَ بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿٣٩﴾ وَمَا مَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا نُمُودُ النَّافَةِ مُبِيرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٣٤﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿٣٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْثَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَيِ أَصْنَافٍ مُصَنَّفَةٍ تَعْرِفُ بِأَسْمَائِهَا . وَقَالَ قَتَادَةُ : الطَّيْرُ أُمَةٌ وَالْإِنْسُ أُمَةٌ ، وَالْجِنُّ أُمَةٌ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : ﴿٣٧﴾ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْثَالُكُمْ ﴿٣٨﴾ أَي : خَلَقَ أَمْثَالَكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿٣٩﴾ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٣٤﴾ أَي : الْجَمِيعَ عِلْمِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْ جَمِيعِهَا مِنْ رِزْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ سِوَاكَ كَانَ بَرِيًّا أَوْ بَحْرِيًّا ، كَقَوْلِهِ : ﴿٣٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٦﴾ أَي : مَفْصُحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمَقَانِئِهَا ، وَحَاصِرُ لِحَرَكَاتِهَا وَسُكُنَاتِهَا ، وَقَوْلُهُ : ﴿٣٧﴾ ثُمَّ إِلَيْكُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حَشَرَهَا الْمَوْتَ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَوْتَ الْبَهَائِمِ حَشَرَهَا .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنْ حَشَرَهَا هُوَ بَعَثَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿٣٩﴾ وَإِلَّا الْوُشَّ حُيِّرَتْ ﴿٣٤﴾ وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ انْتَضَحَتْ عِزْرَانُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَذَرُونَنِي فِيمَ انْتَضَحَتَا ؟ » قَالُوا : لَا نَذْرِي قَالَ : « لَكِنَّ اللَّهَ يَذْرِي وَسَيُفْضِي بَيْنَهُمَا » (١) . وَعَنْ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْجَمَاءَ لَتَقْتَصَّ مِنَ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿٣٧﴾ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُنْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٥) والبيهقي في مجمع الزوائد (٣٥٢/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٧٢/١ والهندي في كنز العمال (٣٨٩٨٦) .

سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون .

وقال مالك : ﴿ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ رخاء الدنيا ويسرها ، وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ ، قال : « إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَقَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِذْرَاجٌ » ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا سَوَا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُجِّحَ بِمَا أَوْفُوا أَخَذْنَاهُمْ بِنَعْتِهِ إِذَا هُمْ يَخْلُسُونَ ﴾ ^(١) وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو فتح عليهم - باب خيانة ^(٢) ﴿ حَتَّى إِذَا فُجِّحَ بِمَا أَوْفُوا أَخَذْنَاهُمْ بِنَعْتِهِ إِذَا هُمْ يَخْلُسُونَ ﴾ كما قال : ﴿ فَتَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَلَمَسُوا لَوَّ رَبِّ الْمَلِئِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْتُمْ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِنَعْتِهِ أَوْ جَهَنَّةٌ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ ﴾ أي : سلبكم إياها كما أعطاكموها . كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ الآية ، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ، ولهذا قال : ﴿ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ كما قال : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ وقوله : ﴿ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ ﴾ أي : هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال : ﴿ أَنْتُمْ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ ﴾ أي : نيينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴾ أي : ثم هم مع البيان يصدقون أي : يعرضون عن الحق ويصدقون الناس عن اتباعه ، وعن ابن عباس : يصدقون أي : يعدلون ، وقال مجاهد وقتادة : يعرضون ، وقال السدي : يصدقون .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بِنَعْتِهِ ﴾ أي : وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم ﴿ أَوْ جَهَنَّةٌ ﴾ أي : ظاهراً عياناً ﴿ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقوله : ﴿ وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أي : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بالنسبة لما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه وحافظهم فيما تركوه ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ ﴾ أي : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٢٠/٧) .

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٩٦٠) .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢﴾ وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُوفِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٤﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مِنْ عِندِ رَبِّكُمْ وَسَوْءٌ يُجَاهِلُونَكُمْ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنْتُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أي : لست أملكها ولا أتصرف فيها ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي : ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله ﷻ ، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي : ولا أدعي أنني ملك ، إنما أنا بشر من البشر ، يوحي إلي من الله ﷻ ، شرفني بذلك وأنعم علي به ، ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي : لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدى إليه ، ومن ضل عنه فلم يتقدم له ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَفَنِعْمَ أُمَّةٌ آتَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لِمَقْ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِمَّا يَنْذَرُ أَوْ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْآلِيبِ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي : وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أي : يومئذ ﴿ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم ﴿ لَقَدْهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ﷻ ﴿ لَقَدْهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه . وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُوفِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ، وقوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : يعبدونه ويسألونه ﴿ بِالْقُدُوفِ وَالْعِشِيِّ ﴾ المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي : أتقبل منكم وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي : يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم ، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات .

وقوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ قال : ﴿ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَسْمُوكَ ﴾ (٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أي : إنما حسابهم على الله ﷻ وليس علي من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ، وقوله : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : إن فعلت هذا والحالة هذه . وعن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وخباب وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا : يا محمد أراضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ - إلى قوله - أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿ (١) . وعن المقدم بن شريح عن أبيه قال : قال سعد : نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود ، قال : كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه ونسمع

(١) أخرجه : الطبراني في الكبير (١٠٥٢٠) والبخاري في مسنده (٢٢٠٩) . ونحوه .

منه ، فقالت قريش تدني هؤلاء دوننا ، فنزلت ﴿ وَلَا تَقْرُؤِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَوِّ وَالْمَنِيِّ ﴾ ^(١) .
وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : ابتلينا واختبرنا وامتحاننا بعضهم ببعض ﴿ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء
الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح :
﴿ وَمَا نَرُوكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكَ بِدْءَ الرَّأْيِ ﴾ الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان
حين سألته عن تلك المسائل ، فقال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ،
فقال : هم أتباع الرسل ، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون
من يقدر عليهم منهم ، وكانوا يقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء
إلى الخير لو كان ما صاروا إليه خيرا ويدعنا ، وقوله : ﴿ أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِالشَّاكِرِينَ ﴾ أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقههم ويهديهم سبل
السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، كما قال تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَسِينَ ﴾ وفي الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى
صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَلْوَانِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ^(٢) . وعن عكرمة في قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ
بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِنْ رَبَّهُمْ ﴾ الآية . قال : جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي
والحارث بن نوفل وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل في أشراف من بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي
طالب ، فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا ، فإنما هم عبيدنا
وعسفاؤنا ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له ، قال : فأتى
أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بذلك ، فقال عمر بن الخطاب ﷺ : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي
يريدون وإلى ما يصيرون من قولهم ، فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِنْ
رَبَّهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ قال : وكانوا بلالاً وعمار بن ياسر وسالمًا مولى أبي
حذيفة وصبيحا مولى أسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود وابن القاري وواقد بن
عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد ، وأبو مرثد الغنوي حليف
حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء ، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء
﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ الآية ، فلما نزلت أقبل عمر
فأتى النبي ﷺ فاعتذر من مقاتله ، فأنزل الله ﷻ ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم
برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال : ﴿ كُنْكُمْ رَحْمَةً عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةِ ﴾ أي : أوجبها على
نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ قال بعض السلف : كل
من عصي الله فهو جاهل ، وعن أبان بن عكرمة قال : الدنيا كلها جهالة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْثِهِمْ وَأَصْلَحَ ﴾

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٥ ، ٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٤) وأحمد في مسنده (٢٨٥/٢) وابن ماجه في سننه (٤١٤٢) .

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٢٦٥/٧ .

أي : رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود ، وأصلح العمل في المستقبل ﴿ فَأَنذَرْتُ غَمُورًا رَّجِيمًا ﴾ . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا قَضَى اللَّهُ عَلَى الْخَلْقِ كِتَابَ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي » ^(١) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْخَلْقِ أَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَأَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيُفْبِضُ قُبْضَةً أَوْ قُبْضَتَيْنِ فَيُخْرِجُ مِنَ الثَّارِ خَلْقًا لَمْ يَفْعَلُوا خَيْرًا مَكْتُوبٌ بَيْنَ أَغْيَظِهِمْ عِتْقَاءُ اللَّهِ » ^(٢) وعن سلمان في قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ قال : إنا نجد في التوراة عطفين أن الله خلق السموات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة ، قال : فيها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتبادلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تبخ البقرة وبها تنغو الشاة وبها تتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع ، وما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضًا قوله ﷺ لمعاد بن جبل : « أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » ، ثم قال : « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » ^(٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٤) قُلْ إِنِّي نَبِيٌّ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ^(٥) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْأَحْكَمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ^(٦) قُلْ لَّوْ أَنَا عِندِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَفَعَضْتُ الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ^(٧) * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ زَرْعٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا زَرْعٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ .

يقول تعالى : وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعدا ﴿ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ أي : التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول وقرئ ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ^(٤) أي : ولتستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل المجرمين . وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي : على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي ﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ أي : بالحق الذي جاءني من الله ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ ﴾ أي : من العذاب ﴿ إِنَّ الْأَحْكَمَ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ أي : وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده . وقوله : ﴿ قُلْ لَّوْ أَنَا عِندِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَفَعَضْتُ الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : لو كان مرجع ذلك إلي لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤) ومسلم في التوبة (١٦) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢ ، ٤٣٣) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٠) والترمذي في السنن (٢٦٤٣) وأحمد في مسنده ٢٣٠/٥ .

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر (ولتستبين) بالتذكير والباقون بالتأنيث و (سبيل) قرأ المدنيان بنصب اللام والباقون بالرفع (تقرب النشر في القراءات العشر ص ١١٠) .

وبين ما ثبت عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ليلى بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني ، فظننت ، فإذا فيها جبريل ﷺ ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما زدوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين » ، فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » (١) فقد عرض عليه عذابهم واستصالحهم فاستأنى بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا ، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق بهم . وقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ » (٢) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : محيط علمه الكريم بجميع الموجودات برها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وقوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ أي : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ دَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها . وقوله : ﴿ وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا يَكُوسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال عبد الله بن الحارث : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبره إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها ، رطوبتها إذا رطبت ويوسفها إذا يبست .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (٣) وَهُوَ الْقَاهِرُ قَوْدٌ عِساوِيهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ » (٤) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَيُّ لَا لَهُ الْهَوْلُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ .

يقول تعالى : إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى :

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١) ومسلم في الجهاد والسير (١١١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٧) وأحمد في مسنده (٢٤/٢) .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمَنِّيكَ إِلَىٰ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَجَ إِلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمَ ﴾ فذكر في هذه الآية الوفايتين الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال : ﴿ سَوَاءٌ يَنصُرُكُم مِّنْ أَسَرِّ الْقَوْلِ وَمِنْ جَهَرٍ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَنَارِ النَّهَارِ ﴾ وقوله ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ ثُمَّ يَبَيِّنُ لَكُمْ فِيهِ ﴾ أي : في النهار ، قال عبد الله بن كثير : أي : في المنام ، والأول أظهر ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكٌ إِذَا نَامَ أَخَذَ نَفْسَهُ وَيُرَدُّ إِلَيْهِ ، فَإِنْ أَذِنَ اللَّهُ فِي قَبْضِ رُوحِهِ قَبْضَهُ وَإِلَّا رُدُّوا إِلَيْهِ » ^(١) . فذلك قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ . وقوله : ﴿ لِيَقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ أي : يخبركم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ويجزيكم على ذلك إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ قَوْدَ عِبادِهِ ﴾ أي : وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ أي : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله : ﴿ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ وحفظه يحفظون عمله ويحصونه ، كقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي : احتضر وحن أجله ﴿ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا ﴾ أي : ملائكة موكلون بذلك ، قال ابن عباس : للملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد ، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم ، وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُعْرَطُونَ ﴾ أي : في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ﷻ ، إن كان من الإبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين ، عيادا بالله من ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْآخِرَ ﴾ قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْآخِرَ ﴾ عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا : اخْرِجِي أَتَيْهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرِجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا ، فَيَقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيَقَالُ فُلَانٌ ، فَيَقَالُ : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اذْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ قَالُوا : اخْرِجِي أَتَيْهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، اخْرِجِي ذَمِيمَةً ، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَاقٍ وَآخِرٍ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ، فَلَا تَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحُ لَهَا فَيَقَالُ : مَنْ هَذَا ؟ فَيَقَالُ : فُلَانٌ ، فَيَقَالُ : لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ اخْرِجِي ذَمِيمَةً ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفْتَحُ لِكَ أَبْوَابِ السَّمَاءِ ،

فَتُرْسَلُ مِنَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ ، فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ ، وَتُجْلِسُ الرَّجُلُ السَّوءُ فَيَقَالُ لَهُ مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي ^(١) . ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا ﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله ولهذا قال : ﴿ مَوْلَاهُمْ الْحَيُّ لَا لَهُ الْخَلْقُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِ ﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنَجِّنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذَيِّقَ بَعْضُكُم بِأَسَافٍ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائهم المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقعين في المهامة البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت للعاصفة ، فحيث يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ الآية ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي : جهرا وسرا ﴿ لَّيْنٍ أَنَجِّنَا ﴾ أي : من هذه الضائقة ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي : بعدها ، قال الله : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ ﴾ أي : بعد ذلك ﴿ تُشْكِرُونَ ﴾ أي : تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى . وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ لما قال : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴾ عقبه بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا ﴾ أي : بعد إنجائهم إياكم . قال الحسن : في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ قال : هذه للمشركين . وقيل : لأمة محمد ﷺ وعفا عنهم ، ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة .

قال البخاري رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذَيِّقَ بَعْضُكُم بِأَسَافٍ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يلبسكم : يخلطكم من الالتباس ، يلبسوا : يخلطوا ، شيعا : فرقا ^(٢) وعن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ قال : « أَعُوذُ بِوَجْهِكَ » ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذَيِّقَ بَعْضُكُم بِأَسَافٍ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هَذِهِ أَهْوُونُ - أَوْ - أَيْسَرُ » ^(٣) .

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه ، فناجى ربه ﷻ طويلا ثم قال : « سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا ، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالْعَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بِأَسْهُمِهِمْ يَتَنَاهَهُمْ فَمَنْعَنِهَا » ^(٤) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٤/٢ ، ٣٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن باب قوله ﴿ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأحمد في مسنده (٣٠٩/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٨) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥/١) والهندي في كنز العمال (٦٠/٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧/٣ ، ١٨) .

وعن خباب بن الأرت مولى بني زهرة وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ أنه قال : وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر ، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ، فقلت : يا رسول الله لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها ، فقال رسول الله ﷺ : « أَجَلُ إِنَّهَا صَلَاةٌ رَغِبَ وَرَهَبَ ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ فِيهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ ، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي وَاحِدَةً ، سَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لَا يُهْلِكَنَا بِمَا أَهْلَكَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَنَا فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْنَا عَذَابًا مِنْ غَيْرِنَا فَأَعْطَانِيهَا ، وَسَأَلْتُ رَبِّي ﷻ أَنْ لَا يَلْبَسَنَا شَيْعًا فَمَنْعَنِيهَا » ^(١) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْخِلَكُمْ فِيْ بَعْضِكُمْ نَافِثًا مِّنْ بَعْضِكُمْ ﴾ قال : فقام النبي ﷺ ، فتوضأ ثم قال : « اللَّهُمَّ لَا تُرْسِلْ عَلَيَّ أُمَّتِيْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِهِمْ وَلَا مِنْ تَحْتِ أَرْضِهِمْ وَلَا تَلْبِسْهُمْ شِيْعًا وَلَا تُدْخِلْ بَعْضَهُمْ فِيْ بَعْضٍ » قال : فأتاه جبريل فقال : يا محمد إن الله قد أجاز أمرك أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ^(٢) .

وعن أبي بن كعب ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْخِلَكُمْ فِيْ بَعْضِكُمْ نَافِثًا مِّنْ بَعْضِكُمْ ﴾ قال : فهي أربع خلال منها اثنان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ، ألبسوا شيْعًا وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنان لا بد منهما واقعتان الرجم والخسف ، وعن الحسن في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ ﴾ الآية ، قال : حسبت عقوبتها حتى عمل ذنبها فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبیر وأبو مالك والسدي وابن زيد وغير واحد : في قوله : ﴿ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ يعني الرجم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ يعني الخسف ، وهذا هو اختيار ابن جرير ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ قال : كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المسجد أو على المنبر ، يقول : ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم ، إن الله يقول : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدًا ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْضِكُمْ ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحد ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْخِلَكُمْ فِيْ بَعْضِكُمْ نَافِثًا مِّنْ بَعْضِكُمْ ﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث .

وقوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ يعني يجعلكم متلبسين شيْعًا فرقًا متخالفين . وعن ابن عباس يعني الأهواء ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال : « وَسَتَفْتَرُقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ فُرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » ^(٣) . وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ فِيْ بَعْضِكُمْ نَافِثًا مِّنْ بَعْضِكُمْ ﴾ قال ابن عباس : يعني يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل . وقوله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ ﴾ أي : نبينها ونوضحها مرة ونفسرها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴾ أي : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه . قال زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : « لَا تَزْجِعُوا بَغْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ؟ قال : « نَعَمْ » فقال بعضهم : لا يكون هذا أبدًا أن يقتل بعضنا بعضًا ونحن مسلمون ، فنزلت : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴾ ^(٤) وكذَّبَ بِهِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٥) . (٢) أخرجه أحمد في مسنده ١٣٤/٥ ، ١٣٥ . (٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣٠/٤) .

قَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْتَعِينَكُمْ بِرُكْبَلٍ ﴿١١﴾ لِكُلِّ نَجْرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْتَعِينَكُمْ بِرُكْبَلٍ ﴾ ﴿١١﴾ لِكُلِّ نَجْرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَائِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَفُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنَّ ذِكْرًا لِّمَنَّهُمْ يَنْفَرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن الذي جهلهم به والهدى والبيان ﴿ قَوْمَكَ ﴾ يعني قريشاً ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أي : الذي ليس وراءه حق ﴿ قُلْ لَأَسْتَعِينَكُمْ بِرُكْبَلٍ ﴾ أي : لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم ، كقوله : ﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ أي : إنما عليّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ لِكُلِّ نَجْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أي لكل نأ حقيقة ، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين ، كما قال : ﴿ وَلَتَمْلَأُنَّ نَجْرًا بَعْدَ جِينٍ ﴾ وقال : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَائِنَا ﴾ أي : بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وَإِنَّمَا يُغِيثُكَ الشَّيْطَانُ ﴾ ، والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِىَ ﴾ بعد التذكر ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ولهذا ورد في الحديث : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ ، وَالنَّسِيَانُ ، وَمَا اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ » (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَفُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : إذا تجنبوهم ، فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدهم وخلصوا من إثمهم ، وعن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَفُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ، أي : إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم ، وقال آخرون : بل معناه : وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء ، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله : ﴿ إِنْ كُنْ إِذَا يَتَلَثَّمُ ﴾ وعلى قولهم يكون قوله : ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرًا لِّمَنَّهُمْ يَنْفَرُونَ ﴾ أي : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حيث ذكروا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا كَتَبْتَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَدُلُّ كُلَّ عَذْلٍ لَا يُوْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا كَتَبْتَ ﴾ أي : دعهم وأعرض عنهم وأهلهم قليلاً فإنهم صاثرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي : ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢١) ومسلم في الإيمان (١١٩ ، ١٢٠) وأحمد في مسنده (٢٣٠/١) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٣) .

كَسَبَتْ ﴿١﴾ أي : لفلان تبسل ، وعن مجاهد وعكرمة والحسن والسدي : تبسل : تسلم ، وعن ابن عباس : تفتضح . وقال قتادة : تحبس . وقال مرة بن زيد : تؤاخذ . وقال الكلبي : تجزى . وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب ، كقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ ١٥ ﴿ إِلَّا أَمْحَصَ إِلَيْنَا ﴾ ١٦ وقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ١٧ أي : لا قريب ولا أحد يشفع فيها : ﴿ وَإِنْ تَدِيدْ كُلَّ عَدَلٍ لَا يُوْخَذُ بِهَا ﴾ ١٨ أي : ولو بذلك كل مبذول ما قبل منها كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُمْسِكَ مِنْهُمْ جَنَّةُ بَنِي آدَمَ ﴾ ١٩ الآية ، وكذا قال ههنا : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ٢٠ .

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أِقْنِتْنَا قُلْ إِنِّي هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِسُلَيْمٍ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ وَأَنْ أَقْبِسُوا السَّكَلَةَ وَالتَّقْوَةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَمِيدُ ﴾ .

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَدْعُوا إِلَى دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ۚ أَي : في الكفر ﴾ ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول : مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : اتنا فإننا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام . وقال قتادة : ﴿ أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أضلته في الأرض يعني استهوته سيرته ، كقوله : ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ قُلْ أَدْعُوا إِلَى دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الآية ، هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها ، والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله ﷻ ، كمثل رجل ضل عن طريق تائها ، إذ ناداه مناد يا فلان ابن فلان هلم إلى الطريق ، وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة ، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق ، وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان ، يقول : مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله ، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت ، فيستقبل الندامة والهلكة .

وقوله : ﴿كَأَنِّي أَسْمَوْتُهُ الشَّيْطَانُ فِي الْأَرْضِ﴾ هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ، وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقد رمته في هلكة ، وربما أكلته ، أو تلقى في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله ﷻ . وعن ابن عباس في قوله : ﴿كَأَنِّي أَسْمَوْتُهُ الشَّيْطَانُ فِي الْأَرْضِ حَيَّرَانِ لَهُ أَصْحَابٌ﴾ هو الذي لا يستجيب لإهدى الله ، وهو رجل أطاع الشيطان ، وعمل في الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه ، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى ، يقول الله : ذلك لأوليائهم من الإنس ﴿إِنَّ إِلَهَهُ هُدًى

الله ﴿ والضلّال ما يدعوا إليه الجن . قال : ﴿ قُلْ إِنَّ إِلَهُنَّ هُدَى اللَّهِ ﴾ كما قال : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ وقال : ﴿ إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدْنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَمْرًا لِلْيَسْلِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : نخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ ﴾ أي : وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي : يوم القيامة . ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما . وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب ، ويوم منصوب إما على العطف على قوله : واتقوه ، وتقديره : واتقوا يوم يقول : كن فيكون ، وإما على قوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : وخلق يوم يقول : كن فيكون ، فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل تقديره : واذكر يوم يقول كن فيكون ، وقوله : ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ جملة من محلها الجر على أنهما صفتان لرب العالمين ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ يحتمل أن يكون بدلًا من قوله : ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ في الصور ، ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ كقوله : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ واختلف المفسرون في قوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ فقال بعضهم : المراد بالصور هنا جمع صورة ، أي يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : كما يقال سور : لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور ، القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . قال ابن جرير : والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿ إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدْ اتَّقَمَ الصُّورَ وَحَتَّى جِبْهَتُهُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفَخُ ﴾ ^(١) وعن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : يا رسول الله ما الصور ؟ قال : ﴿ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ ﴾ ^(٢) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ اتَّخَذَ آصَنَامًا إِلَهَةً إِنْ آتَاكَ وَقَوْمَكَ فِي سَلَكٍ مُبِينٍ ﴾ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴿ قَلَّمَ جَنَّ عَلَيْهِ آيِلَ رَا كَوَكِبًا قَالَ هَذَا رَبِّي قَلَّمَ أَقْلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ قَلَّمَ رَا الْقَمَرُ بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي قَلَّمَ أَقْلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوَّيْنِ الصَّالِينَ ﴿ قَلَّمَ رَا الشَّمْسُ بَارِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ قَلَّمَ أَفَلَتْ قَالَ يَقْوَرُ إِي بَرِيَّ مَتَا تُشْرِكُونَ ﴾ إِي وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

قال ابن عباس : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما كان اسمه تارخ . وعن عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ اتَّخَذَ آصَنَامًا إِلَهَةً ﴾ يعني بآزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه تارخ وأمه اسمها شاني وامراته اسمها سارة وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم ، وهكذا قال غير واحد من علماء النسب : أن اسمه تارخ ، وقال مجاهد والسدي : آزر اسم صنم ، قلت : كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم ، وقال ابن جرير وقال آخرون : هو سب وعيب بكلامهم ومعناه معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد . وقد ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبي يقرأ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ اتَّخَذَ آصَنَامًا إِلَهَةً ﴾ قال : بلغني أنها أعوج ، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم ﷺ ، ثم قال ابن جرير : والصواب

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٦/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٢/٢) والترمذي في سننه (٣٢٤٤) والدارمي في سننه (٣٢٥/٢) .

أن اسم أبيه آزر ، ثم أورد على نفسه قول النسائين : أن اسمه تارخ ، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً ، وهذا الذي قاله جيد قوي ، والله أعلم .

واختلف القراء في أداء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَارَرَ ﴾ فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَارَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ معناه يا آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، وقرأ الجمهور بالفتح إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف ، وهو بدل من قوله : لأبيه ، أو عطف بيان وهو أشبه ، وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود ، فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ﴾ تقديره يا أبت أتتخذ آزر أصناماً آلهة ، فإنه قول بعيد في اللغة ، فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لأن له صدر الكلام ^(١) . وهو مشهور في قواعد العربية ، والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَارَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ؟ ﴾ أي : أتأله لصنم تعبد من دون الله ﴿ إِنِّي أَرَبُّكَ وَوَقَّامُكَ ﴾ أي : السالكين مسلكك ﴿ فِي سَبِيلِ مُبِينٍ ﴾ أي : تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل وأمرهم في الجحالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم . وقال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴾ ١٥ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَتَّبِعُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ١٦ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ١٧ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ١٨ يَتَّبِعْ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ١٩ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٢٠ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَقِيقَةٍ ٢١ وَاعْتَرَضْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٢٢ فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، وثبت في الصحيح : أن إبراهيم يلقي أباه آزر يوم القيامة ، فيقول له آزر : يا بني اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون ، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم انظر ما وراءك ، فإذا هو بذبح متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ رُئِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقهما ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كقوله : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ رُئِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنه تعالى جلا له الأمر سره وعلايته ، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلاق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا ، فرده كما كان قبل ذلك ، فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً ، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده ، وتحقيقه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة ، كما في حديث المنام : « أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى ؟ قُلْتُ : لَا أَذْرِي يَا رَبِّ ، فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ

(١) قرأ يعقوب (آزر) بالرفع والباقون بالنصب . (تقريب النشر ص ١١١) . (٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٠) .

وَعَرَفْتُ ذَلِكَ» ^(١). وقوله : ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَوَقِّينَ﴾ قيل : الواو زائدة تقديره : وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ رَلِستَيْنِ سَبِيلِ الْمُتَجَرِّبِينَ﴾ وقيل : بل هي على بابها ، أي : نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً .
وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي : تغشاه وستره ﴿رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ أي : نجماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي : غاب . قال محمد بن إسحاق بن يسار : الأفول : الذهاب ، وقال ابن جرير : يقال : أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً إذا غاب .

ويقال : أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا ﴿قَالَ لَا أُجِبُّ الْآفِلِينَ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي : طالعا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَدِينِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي : هذا المنير الطالع ربي ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي : جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ أي : غابت ﴿قَالَ يَنْفَوِرُ إِلَيَّ بَرًى مِّنَّا فُشْرُوكُونَ﴾ ﴿إِلَيَّ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي : أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي : خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي : في حال كوني حنيفاً أي : مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال : ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ، فروي عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله : ﴿لَيْنَ لَمْ يَدِينِي رَبِّي﴾ الآية ، وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمورد بن كنعان ، لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامثذ ، فلما حملت أم إبراهيم به وحن وضعها ، ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد ، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك ، وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف .

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية . ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، فبين أولاً صنوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تريغ عنه مبيّناً ولا شمالاً ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من الشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر ، فبين فيه مثل ما بين في النجم ، ثم انتقل

إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : أنا بريء من عبادتهم وموالاتهم ، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومديرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه . وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرًا في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِينَ ﴾ ١٥ إذ قال لإبراهيم وقومه ما هذه الأصنام التي أشركتم ما عبادتم ﴿ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ » (١) وعن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ إِنِّي خَلَقْتُ عَبَادِي حُنَفَاءَ » (٢) وقال الله في كتابه العزيز : ﴿ فَطَرَنَ اللَّهُ إِلَىٰ فَطَرِ النَّاسِ عَلَيْهَا ﴾ كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين ناظرًا في هذا المقام ، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلاشك ولا ريب ، وما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا قوله تعالى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ١٦ وَكَتَبَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٧ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ١٨ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٩ .

يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظره بشبهه من القول أنه قال : ﴿ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي ﴾ أي : تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرتني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة ، وشبهكم الباطلة ، وقوله : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ أي : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبت إليه : أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون ، بل عاجلونني بذلك . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله ﷻ ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أي : أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فيما بينت لكم ، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتزجروا عن عبادتها ، وقوله : ﴿ وَكَتَبَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي : كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ قال ابن عباس : أي حجة وقوله : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : فأَيُّ طائفتين أصوب ، الذي عبد من يده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) وأحمد في مسنده (٢٣٣/٢) وأبو داود في سننه (٤١٧٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٦٣/١٧) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٦/٢) .

دليل ، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أي : هؤلاء الذين أحلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً ، هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وعنه أيضاً قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس ، فقالوا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْتَوْنَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : ﴿ يَبْتَئِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إِنَّمَا هُوَ الشُّرْكُ » (١) .

وعن جرير بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله ﷺ : « كَأَنَّ هَذَا الرَّايِبُ إِذَا كُنْتُمْ يُرِيدُ » فانتهى إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه ، فقال له النبي ﷺ : « مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ » قال : من أهلي وولدي وعشيرتي قال : « فَأَيْنَ تُرِيدُ ؟ » قال : أريد رسول الله ﷺ قال : « فَقَدْ أَصَبْتُهُ » قال : يا رسول الله علمني ما الإيمان ؟ قال : « أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتُحْجَّ الْبَيْتَ » قال : قد أقررت ، قال : ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جردان ، فهوى بعيره ، وهوى الرجل ، فوقع على هامته فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « عَلَيَّ بِالرَّجُلِ » فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعدها ، فقالا : يا رسول الله قبض الرجل ، قال : فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ : « أَمَا رَأَيْتُمَا إِعْرَاضِي عَنِ الرَّجُلِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ مَلَكَ يَنْدُسَانِ فِي فِيهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مَاتَ جَائِعًا » ثم قال رسول الله ﷺ : « هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ ﷻ فِيهِمْ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ الآية ، ثم قال : « دُونَكُمْ أَحَاكُم » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطاه وكفناه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال : « أَلْحِدُوا وَلَا تَشْقُوا فَإِنَّ اللَّحْدَ لَنَا وَالشَّقَّ لِعِزَّتِنَا » (٢) .

وعن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي ، فقال : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادي وتلاذي ومالي لأهتدي بهداك وأخذ من قولك ، وما بلغت حتى ما لي طعام إلا من خضر الأرض فاعرض علي ، فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل ، فازدحمنا حوله ، فدخل خف بكرة في بيت جردان ، فتردى الأعرابي فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَقَدْ خَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ وَتِلَاوِهِ وَمَالِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهَدَايَ ، وَيَأْخُذَ مِنْ قَوْلِي وَمَا يَلْغَنِي حَتَّى مَا لَهُ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ خَضِرِ الْأَرْضِ ، أَسْمِعْتُمْ بِالَّذِي عَمِلَ قَلِيلًا وَأَجِرَ كَثِيرًا ؟ هَذَا مِنْهُمْ . أَسْمِعْتُمْ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ؟

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٧٣٦٠) ومسلم في الإيمان (١٩٧) وأحمد في مسنده (٤٤٤/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٤) والهيدي في كثر العمال (٤٢٣٧٧) .

فَإِنْ هَذَا مِنْهُمْ ^(١) . وعن عبد الله بن سخبرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ وَمُنِعَ فَصَبَرَ وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ وَظَلِمَ فَتَغَفَّرَ » وسكت قال : فقالوا : يا رسول الله ما له ؟ قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُنْتَدُونَ ﴾ ^(٢) .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أي : وجهنا حجته عليهم ، قال مجاهد وغيره : يعني بذلك قوله : ﴿ وَكَتَبَ آخَاثَ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُوكَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْآمَنُ ﴾ الآية ، وقد صدقه الله وحكى له بالأمن والهداية فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُنْتَدُونَ ﴾ ثم قال بعد ذلك كله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة ^(٣) ، كما في سورة يوسف ، وكلاهما قريب في المعنى . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حكيم في أقواله وأفعاله ، عليم أي : بمن يهديه ومن يضلّه ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .
﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورَيْهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَكَرَّمْنَا يَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُولِيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْكِتَابُ الَّذِي نَفْخُ فِيهِ نُفُوحًا فَكَفَرُوا بِهَا هَوْلًا فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لِّيَسْأُوا بِهَا بِكَفِيرَةٍ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْبَدَهُ قُلْ لَا أَشْتَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرُنَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن وأيس هو وامراته سارة من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ قَالَتِ يَذَرْنِي إِبْرَاهِيمُ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ قَالُوا أَنْتَجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَيُرَكِّتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿ فبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلاً وعقباً ، كما قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة وقال : ﴿ فَبَشِّرْهُمَا بِإِسْحَاقَ وَمِن دُونِهِ إِسْحَاقُ يَقُوبُ ﴾ أي : ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، ففقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام ، حين اعتزل قومه وتركهم ونزع عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله ﷻ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَغْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩١/٤) والبيهقي في السنن الكبرى (١٦٧/٩) .

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٤/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٨/٤) .

(٣) قرأ الكوفيون (نرفع درجات من) هنا وفي يوسف بالتثنية ووافقهم يعقوب هنا والباقيون بغير تثنية (تقريب النشر في القراءات العشر ص ١١١) .

وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٨٤﴾ وَقَالَ ههنا : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وقوله : ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبله هديناه كما هديناه. ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عليه السلام بعده نبيا إلا من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي : وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية ، وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه ، فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه هاران بن آزر ، اللهم إلا أن يقال : إنه دخل في الذرية تغليبا كما في قوله : ﴿أُمُّ كُنتُمْ شَهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا مَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَإِنَّا بِآبَائِكَ إِزْمِعُوا وَلِمَا تَصْحَقُ﴾ فإسماعيل عمه دخل في آباءه تغليبا ، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ؛ لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له . فعن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي عليه السلام تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ حتى بلغ ﴿وَيَحْيَى وَيَعْقُوبَ﴾ قال : بلى ، قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت . فلماذا إذا أوصى الرجل لذرته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فأما إذا أعطى الرجل بنيه ، أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا
بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيهم أيضا لما ثبت أن رسول الله عليه السلام قال للحسن بن علي : «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» ^(١) فسماه ابنا ، فدل على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوز . وقوله : ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبعتهم وأن الهداية أو الاجتهاد شملهم كلهم ، ولهذا قال : ﴿وَأَجْنِبْتُمْ وَهَدَيْتُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي : إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملاسته ، كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَحِطَّ عَنْكَ﴾ الآية ، وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع . وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أي : أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفًا منا بالخلقة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي : بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة ، الكتاب

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (٣٨/٥) .

والحكم والنبوة . وقوله : ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ يعني أهل مكة ، قاله ابن عباس وغير واحد ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي : إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابين ، فقد وكلنا بها قوماً آخرين ، أي : المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي : لا يجحدون منها شيئاً ولا يردون منها حرفاً واحداً ، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها جعلنا الله منهم بمته وكرمه وإحسانه .

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي : هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِ ﴾ أي : اقتد وتابع ، وإذا كان هذا أمر للرسول ﷺ فأتمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به ، وسئل ابن عباس أفي (ص) سجدة ؟ فقال : نعم ثم تلا ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِ ﴾ ثم قال : هو منهم (١) . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَشْتَكُمُ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي : لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً ، أي : أجرة ولا أريد منكم شيئاً ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُحْفَوْنَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنشَرْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ وهذا كندب أنزلته مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون .

يقول الله تعالى : وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم ، قال ابن عباس : نزلت في قريش ، وقيل : نزلت في طائفة من اليهود . وقيل : في فحاص ، رجل منهم ، وقيل : في مالك ابن الصيف ﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ والأول أصح ؛ لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر ﴿ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة ﴿ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى ابن عمران ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ، أي : ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات . وقوله : ﴿ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُحْفَوْنَ كَثِيرًا ﴾ أي : يجعلون جملتها قراطيس ، أي : قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم ، وتحرفون منها ما تحرفون ، وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند الله ، أي : في كتابه المنزل ، وما هو من عند الله ، ولهذا قال : ﴿ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَتُحْفَوْنَ كَثِيرًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنشَرْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ﴾ أي : ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق ونبا ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا

أباؤكم ، وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب .

وقال مجاهد : هذه للمسلمين ، وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ قال ابن عباس : أي : قل : الله أنزله ، وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معني ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي : لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة (الله) وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها .

وقوله ﴿ تَدْرَأَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ .

وقوله ﴿ وَمَا كُنْتُ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَنْزَلْتُهُ مُبَارَكًا مُّصَدِّقًا لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعني مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ قُلْ يَحْيَايْهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وقال : ﴿ لَا يُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي » وذكر منهم : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَصِمُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَصِمُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً » (١) ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي : يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةَ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ولقد جنحتموا فرددنا كما خلقناكم أول مرة ونزككم ما حولكم وركبكم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركوا لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم زعمون .

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شركاء ، أو ولدا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ قال عكرمة وقاتدة : نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول : ﴿ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي : في سكراته وغمراته وكرباته ﴿ وَالْمَلَائِكَةَ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي : بالضرب ، وقال الضحاك وأبو صالح : باسطوا أيديهم أي بالعذاب كقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمَّا لَكُمُ يَصْرِيئُونَ رُجُومُهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴾ ولهذا قال : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي : بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتفرق روحه في جسده وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٨) ، ومسلم في المساجد (٣) ، وأحمد في مسنده (٣٠٤/٣) .

غَيْرَ الْمَوْتِ ﴿٩٣﴾ الآية ، أي : اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والالتقياد لرسله ، وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر ، وهي مقررة عند قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرُودًا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : يقال لهم يوم معادهم هذا ، كما قال : ﴿ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث ، وقوله : ﴿ وَرَكَّبْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي : من النعم والأموال التي اقتنيتوها في الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت أن رسول الله ﷺ قال : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبْ ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » ^(١) . ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ تفريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب ﷻ على رؤوس الخلائق . ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَعَمُوا ﴾ ؟ ويقال لهم : ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْعَدُكُمْ أَوْ يَنْصِرُكُمْ ؟ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : في العبادة لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم ، ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرئ بالرفع أي شملكم وبالنصب ^(٢) أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أي : ذهب عنكم ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى ﴾ يُخْرِجُ الْغَيْثَ مِنَ الْغَيْثِ وَيُخْرِجُ النَّوَى مِنَ النَّوَى ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى ﴿٩٤﴾ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى ﴿٩٥﴾ وَالنَّوَى الَّذِي هُوَ كَالْجَمَادِ الْمَيِّتِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَيَسْتَعْمِلُونَهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَيُخْرِجُ الْغَيْثَ مِنَ الْغَيْثِ ﴾ معطوف على ﴿ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى ﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله : ﴿ وَيُخْرِجُ الْغَيْثَ مِنَ الْغَيْثِ ﴾ وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ، ومن قائل : يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه ، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٣) وأحمد في مسنده (٢٤/٤) والحاكم في المستدرک (٥٣٤/٢) .

(٢) قرأ المدنيان والكسائي وحفص بنص النون والباقون بالرفع (تقريب النشر ص : ١١١) .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ ﴾ أي : فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِنَّ تَوَفَّكَونَ ﴾ أي : كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل ، فتعبدون معه غيره . وقوله : ﴿ فَإِنَّ الْإِنشِاجَ وَجَمَلَ آيَلِ سَكَا ﴾ أي : خالق الضياء والظلام كما قال في أول السورة : ﴿ وَجَمَلَ أَنْفُلَتِ وَالنُّورِ ﴾ أي : فهو سبحانه يخلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضياءه وإشراقه ، كقوله : ﴿ يَقْنِىَ آيَلِ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُكَ ﴾ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظيمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه ﴿ فَإِنَّ الْإِنشِاجَ ﴾ وقابل ذلك بقوله : ﴿ وَجَمَلَ آيَلِ سَكَا ﴾ أي : ساجيا مظلما لتسكن فيه الأشياء كما قال : ﴿ وَالضُّحَى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝ ﴾ وقال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَنشَقُ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ ﴾ وقال صهيب الرومي رحمه الله لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب ، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه . وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ﴾ أي : يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيرتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَجَعَلَ مَنَازِلَ ۝ الآية . وقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أي : الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم ، كما ذكر في هذه الآية وكما في قوله : ﴿ وَآيَةً لَهُمُ آيَلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن في أول سورة حم السجدة قال : ﴿ وَرَبَّنَا أَلَمَلْنَا الدُّنْيَا بِمَصَافِحَ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ التَّجُومَ لِيَهْدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ ﴾ أي : قد بيناها ووضحناها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْحِهَا قِثَاقٌ وَآيَةً وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْصَانِ الْزَيْتُونِ وَالْأَمْثَانِ مَسْجِدًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبَةٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني آدم عليه السلام ، كما قال : ﴿ بِمَا أَنَا النَّاسُ انْقُرُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَطَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً ﴾ وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ اختلفوا في معنى ذلك ، فمن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وغيرهم ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أي : في الأرحام قالوا ، أو أكثرهم ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي : في الأصلاب ، وعن ابن مسعود وطائفة عكسه ، وعن ابن مسعود أيضا وطائفة : فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت . وعن ابن مسعود : ومستودع في

الدار الآخرة والقول الأول أظهر ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي : بقدر مباركنا ورزقا للعباد وإحياء وغياثا للخلائق رحمة من الله بخلقه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أي : زرعًا وشجرا أخضر ، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والتمر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَوَكِّبًا ﴾ أي : يركب بعضه بعضًا كالسنابل ونحوها ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أي : جمع قنو وهي عذوق الرطب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي : قريبة من المتناول ، كما قال ابن عباس ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ أَشْجَبٍ ﴾ أي : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّمَانُ مُشَبَّهًا وَعَبَرٌ مُتَشَبِّهٌ ﴾ قال قتادة : وغير متشابه في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلًا وطعمًا وطبعًا ، وقوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعِهِ ﴾ أي : نضجه ، قال البراء بن عازب وابن عباس وغيرهم ، أي : فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطبًا صار عنبًا ورطبًا ، وغير ذلك مما خلق ﷻ من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَدِّدٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْنَبٍ وَزَرْعٍ وَفَيْلٍ صِنَوَانٌ وَعَبَرٌ صِنَوَانٌ يَتَقَى إِمْلًا وَيَبِيءُ وَتُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ الآية . ولهذا قال ها هنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي : دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : يصدقون به ويتبعون رسله .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرُّوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَنَدَتْ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ . هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدت الجن مع أنهم إما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم لإياهم بذلك كقوله : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا سَيِّئَاتِنَا مَرِيدًا ﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿ وَلَا يُشْفِعُهُمْ وَلَا يُمْسِكُهُمْ وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ أَفْعَادِهِمْ وَلَا تُغْنِيهِمْ فَلْيَحْذَرُوا خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا هُرُودًا ﴿ الآية وقال إبراهيم لأبيه : ﴿ يَأْتِيكَ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أي : وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره كقول إبراهيم : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿ ومعنى الآية أنه ﷻ هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له وقوله تعالى : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَنَدَتْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يبينه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى

بأن له ولدا ، كما يزعم من قال من اليهود في عزيز ، ومن قال من النصارى في عيسى ، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة : إنها بنات الله ﴿ سُبْحَنُكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ومعنى ﴿ وَخَرُّوْا ﴾ أي : اختلقوا واتصفكوا وتخرسوا وكذبوا كما قال علماء السلف ، قال ابن عباس ﴿ وَخَرُّوْا ﴾ يعني تخرسوا . وقال : جعلوا له بنين وبنات ، وقال مجاهد : ﴿ وَخَرُّوْا لَمْ يَبَيِّنْ وَبَيَّنَّ ﴾ قال : كذبوا ، ولهذا قال : ﴿ سُبْحَنُكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهمية الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .
 ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي ، ومنه سميت البدعة بدعة ؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي : كيف يكون له ولد ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أي : والولد إنما يكون متولدا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ؛ لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له ، ولا ولد ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنى يكون له ولد ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

﴿ ذَٰلِكُمْ أَنَّهُ رَكَّبَهُمُ الْإِلَٰهَ إِمَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۖ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاصِرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ أَنَّهُ رَكَّبَهُمُ ﴾ أي : الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي : فاعبدوه وحده لا شريك له ، وأقروا له بالواحدانية ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عدیل ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار . وقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف أحدها : لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة ، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن ، كما قال مسروق : عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمدا أبصر ربه فقد كذب ، وفي رواية : على الله ، فإن الله تعالى قال : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَاصِرَ ﴾ ^(١) . وثبت عن عائشة من غير وجه ، وخالفها ابن عباس ، فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين ، ويحیی ابن معين قال : سمعت إسماعيل ابن علقمة يقول في قول الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴾ قال : هذا في الدنيا ، وذكر أبي عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك . وقال آخرون : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ﴾ أي : جميعها ، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة .

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضي ما فهموه من هذه الآية : أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة ، فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله .

(١) أخرجه : الترمذي في السنن (٣٠٦٨) .

أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ يَهْتَدِي لَكُمْ سَبِيلًا﴾ وقال تعالى عن الكافرين : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ قال الإمام الشافعي : فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين .

وقيل : المراد بقوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ أي : العقول ، وقيل : إن الإدراك في معنى الرؤية . وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم ، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ؛ فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ؛ فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى . وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة .

قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وفي صحيح مسلم : « لا أخصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا . قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ قال : لا يحيط بصر أحد بالملك ، وقال عكرمة أنه قيل له : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ قال : ألسنت ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : فكيف ترى ؟ وقال قتادة في الآية : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ : هو أعظم من أن تدركه الأبصار .

وعن عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ يَهْتَدِي لَكُمْ سَبِيلًا﴾ قال : هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم ، وبصره محيط بهم ، فذلك قوله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ﴾ . وقال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ قال : اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها ، والله أعلم ، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿يَبْنِيْهَا إِن تَكُ شَقَالًا حَبْرٌ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ . ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وكذلك نُصِرْتُ الْآيَاتِ وَلِقَوْلُوا دَرَسْتَ وَلْيُبَيِّنْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

البصائر : هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ كقوله : ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ ولهذا قال : ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لما ذكر البصائر قال : ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي : إنما يعود وباله عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي : بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وقوله : ﴿وَكَذَلِكَ نُصِرْتُ الْآيَاتِ﴾ أي : وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد ، وأنه لا إله إلا هو ، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبيها في كل موطن لجهالة الجاهلين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون : دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب ، وقارأتهم وتعلمت منهم ، هكذا قاله ابن عباس ^(١) ،

وقال ابن عباس : دارست : تلوت ، خاصمت ، جادلت وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَيْنَهُ وَأَنطَمُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَّكْرُورُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝١٠٤﴾ وقالوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَسْكَتْنَاهَا ﴿ الآية وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَنَدَرُوا ۝١٠٥﴾ فَنَقِلَ كَيْفَ نَدَرُوا ۝١٠٦ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ نَدَرُوا ۝١٠٧ ثُمَّ نَظَرَ ۝١٠٨ ثُمَّ عَسَى وَبَرَّرَ ۝١٠٩ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝١١٠ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا جِغْرٌ يُؤْتَرُ ۝١١١﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿ ، وقوله : ﴿ وَلَيْسَتُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيبتعونه والباطل فيجتنبونه ، فلهذا تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء ، كقوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِإِذْنِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِإِذْنِهِ كَثِيرًا ﴾ الآية . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء ، ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَلْبَابَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلَيْسَتُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقرأ بعضهم ﴿ دَرَسْتَ ﴾ قال التميمي : عن ابن عباس درست أي : قرأت وتعلمت ، وقال الحسن ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ : تقادمت وانمحت ، وعن عمرو بن دينار قال : سمعت ابن الزبير يقول : إن صبياناً يقرءون ها هنا دارست وإنما هي دَرَسْتُ ^(١) ، قال ابن جرير : ومعناه انمحت وتقادمت ، أي : أن هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديماً وتناولت مدته .

﴿ أَلْبَغِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝١١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿ .

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته : ﴿ أَلْبَغِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : اقتد به واقتف أثره واعمل به ، فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذي لا مزية فيه ؛ لأنه لا إله إلا هو ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم ، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ، ولو شاء لجمعهم على الهدى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ أي : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاءه ويختاره ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أي : حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي : موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَاسًا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝١١٣﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿ .

﴿ وَلَا تَسْأَلُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا يَغْيَرُ عَلَيْهِمْ كَذَلِكَ ذَرَأَ لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين : وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ؛ وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كما قال ابن عباس في هذه الآية قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فَيَسْأَلُوا اللَّهَ عَدُوًّا يَغْيَرُ عَلَيْهِمْ ﴾ ^(٢) . وعن قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (دارست) بألف بعد دال وإسكان السين وفتح التاء وابن عامر ويعقوب بغير ألف وفتح السين وإسكان التاء والباقيون بغير ألف وإسكان السين وفتح التاء (تقريب النشر ص ١١١) .

(٢) ذكره الطبري في تفسيره ٤٠٣/٧ .

الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .
عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية : لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه ، فإننا نستحي أن نقتله بعد موته ، فنقول العرب : كان يمنعهم فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأمّية وأبي ابن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلاً منهم يقال له : المطلب قالوا : استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه فدخلوا عليه ، فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فنتهاه عن ذكر آلهتنا ولدنعه وإلهه ، فدعاه فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله ﷺ : « مَا تُرِيدُونَ ؟ » قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ولدنعدك وإلهك ، فقال النبي ﷺ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أُعْطِيتُكُمْ هَذَا هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِي كَلِمَةٍ إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا الْقَرْبَ وَذَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ وَأَذَتْ لَكُمْ الْحَرَجَ » قال أبو جهل : وأليك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، قالوا : فما هي ؟ قال : « قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : يا ابن أخي قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها ، قال : « يَا عَمُّ مَا أَنَا بِالَّذِي يَقُولُ غَيْرَهَا حَتَّى يَأْتُوا بِالشَّمْسِ فَيَضَعُوهَا فِي يَدَيَّ ، وَلَوْ أَتَوْا بِالشَّمْسِ فَوَضَعُوهَا فِي يَدَيَّ مَا قُلْتُ غَيْرَهَا » إرادة أن يؤسهم ، فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتعنك ونشتمن من يأمرك ، فذلك قوله : ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيًّا ﴾ ^(١) ومن هذا القبيل ، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ، ما جاء رسول الله ﷺ قال : « مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » قالوا : يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ » ^(٢) أو كما قال ﷺ . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ أي : وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والحماية لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤوه ويختاره ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ ﴾ أي : معادهم ومصيرهم ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .
﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلُوبُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يَشْعُرُكُمْ أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) وَتَقَلِّبْ أَيْدِيَهُمْ وَأَبْصُرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .
يقول تعالى إخباراً عن المشركين : أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي : حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا ﴾ أي : ليصدقنها ﴿ قُلُوبُ الْإِنْسَانِ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتا وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ، فعن محمد بن كعب القرظي ، قال : كلم رسول الله ﷺ قريش فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٨/٣) والطبري في تفسيره ٤٠٥/٧ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) أحمد في مسنده (١٦٤/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣٥/١٠) .

يضرب بها الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة ، فأنتا من الآيات حتى نصدقك ، فقال رسول الله ﷺ : « أَيُّ شَيْءٍ تُحِبُّونَ أَنْ آتِيَكُمْ بِهِ » ، قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً فقال لهم : « فَإِنْ فَعَلْتُ تُصَدِّقُونِي » قالوا : نعم والله لئن فعلت لتبعنك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ما شئت إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا ذلك ليعذبهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ : « بَلْ يَثُوبُ تَائِبُهُمْ » فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل : الخطاب بما يشعركم المشركون ، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول : وما يدريك بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها ، وعلى هذا فالقراءة ﴿ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إناها على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها ، وقرأ بعضهم ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء المثناة من فوق ^(٢) ، وقيل : الخطاب بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ المؤمنون يقول : وما يدريك أيها المؤمنون ، وعلى هذا فيجوز في قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم ، وعلى هذا فتكون لا في قوله : ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صلة كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَشْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ . وقوله ﴿ وَحَكْرَهُمْ عَلَىٰ قَرْبَرَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي : ما منعك أن تسجد ؛ إذ أمرتك ، وحرام أنهم لا يرجعون ، وتقديره في هذه الآية وما يدريك أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ، قال بعضهم : إنها بمعنى لعلها ، قال ابن جرير : وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب ، قال : وقد ذكر عن العرب سماعاً اذهب إلى السوق إنك تشتري لنا شيئاً ، بمعنى لعلك تشتري .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَقَلِبْ أَقْدَارَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قال ابن عباس في هذه الآية : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَنَقَلِبْ أَقْدَارَهُمْ وَابْصُرْهُمْ ﴾ ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ، وقال ابن عباس : أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه وقال : ﴿ وَلَا يَنْتَفِكُ يَنْدَلٌ خَيْرٌ ﴾ جل وعلا ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا قَرَّبْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْصِينَ ﴾ فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى ، وقال : ﴿ وَكَوْذِبُوا لَعَادُوا لِمَا بُدِّعُوا عَنْهُ وَلَهُمْ لُحُوبٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَنَقَلِبْ أَقْدَارَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَا يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقال : ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، وقوله : ﴿ وَنَذَرَهُمْ ﴾ أي : تركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ ، قال ابن عباس والسدي : في كفرهم . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة : في ضلالهم ﴿ يَمْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش : يلعبون ، وقال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره : في كفرهم يترددون .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٩/٣) وابن الجوزي في زاد المسير (١٠٣/٣) .

(٢) قرأ ابن كثير والبصريان وخلف وأبو بكر بخلاف عنه (إنها إذا) بكسر الهزة من أنها والباقون بالفتح ، وقرأ ابن عامر وحزمة (لا يؤمنون) بالخطاب والباقون بالغيب (تقريب النشر ص ١١١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْنُّوْكَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا : ﴿ أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْفَلَاحُ وَالْجَلَاءُ ﴾ و ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْنُّوْكَ ﴾ أي : فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ قرأ بعضهم قبلًا بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعانية ، وقرأ آخرون بضمهما ^(١) قيل : معناه من المقابلة والمعانية أيضًا ، كما روي عن ابن عباس وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد ، وقال مجاهد : ﴿ قُبُلًا ﴾ أي : أفواجًا قبيلًا قبيلًا أي : تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أي : إن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد ﴿ لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته وهذه الآية كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿ وَلَيَصْنَعَنَّ اللَّهُ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضًا أعداء ، فلا يحزنك ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ ﴾ الآية ، وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وقوله : ﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ بدل من ﴿ عَدُوًّا ﴾ أي : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم ، وعن قتادة في قوله : ﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ قال : من الجن شياطين ومن الإنس شياطين يوحى بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغني أن أبا ذر كان يومًا يصلي فقال النبي ﷺ : « تَعَوَّذْ يَا أَبَا ذَرٍّ مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فقال : أو إن من الإنس شياطين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ » ^(٢) ، وروي عن أبي ذر قال : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ ؟ » قلت : لا قال : « قُمْ فَصَلِّ » قال : فقممت فصليت ثم جلست فقال : « يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال : « نَعَمْ » وذكر تمام الحديث بطوله ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي : يلقي بعضهم إلى بعض القول

(١) قرأ المدنيان وابن عامر (قبلا) بكسر القاف وفتح الباء والباقون بضمهما (تقريب النشر ص ١١١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٩/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٨/٥) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٩/١) .

الذين المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿ وَكَوْشَاءَ رِيكٌ مَا قَلَوْهُ ﴾ أي : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيعته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فَذَرْنَهُمْ ﴾ أي : فدعهم ﴿ وَمَا يَقْتُرُونَ ﴾ أي : يكذبون . أي : دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم . وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَصْنَعَنَّ إِلَهُ ﴾ أي : ولتعمل إليه . قاله ابن عباس ﴿ أَفَعِدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أي : قلوبهم وعقولهم وأسماعهم ، وقال السدي : قلوب الكافرين ﴿ وَلَيَرْمِزُوهُ ﴾ أي : يحويه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ مَا أَشَرَّ عَلَيْهِ يَفْقَهُنَّ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنَّةِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ تُخَلِّفُ ﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَتَيْكَ ﴿ وقوله : ﴿ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ قال ابن عباس : وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، وقال السدي وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَتَعْبِرَ اللَّهُ أَتَبْنَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَرْزُوقٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ . يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أَفَتَعْبِرَ اللَّهُ أَتَبْنَى حَكْمًا ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ أي : مبينًا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ ﴾ أي : من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أي : بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَانْزِلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا أَشْكُ وَلَا أَشَأَلُ » (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ قال : صدقًا فيما قال وعدلًا فيما حكم ، يقول : صدقًا في الأخبار وعدلًا في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ، كما قال تعالى : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ إلى آخر الآية ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ ﴾ أي : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ لأقوال عباده ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

﴿ وَإِنْ طُغِيَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ فَيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿ .

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فإن الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهو حزر ما عليها من الثمر ، وذلك كله عن قدر الله ومشيعته ﴿ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ فييسره لذلك ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ فييسرهم لذلك

وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴾ .

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها ، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه ، وقرأ بعضهم فصل بالتشديد ، وقرأ آخرون بالتخفيف ^(١) ، والكل بمعنى البيان والوضوح ﴿ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴾ أي : هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم .

﴿ وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِنْتِهْرِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِهْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِنْتِهْرِ وَبَاطِنَهُ ﴾ المعصية في السر والعلانية ، وفي رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل ، وقال قتادة : ﴿ وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِنْتِهْرِ وَبَاطِنَهُ ﴾ أي : سره وعلانيته قليله وكثيره ، وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا ذوات الرايات ، وباطنه الزنى مع الخلية والصدائق والأخذان ، وقال عكرمة : ظاهره نكاح ذوات المحارم ، والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله وهي كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِهْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : سواء كان ظاهراً أو خفياً فإن الله سيجزيهم عليه ، وعن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الإنثم فقال : « الإنثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه » ^(٢) .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ آذَانَهُمْ يُجِدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء ترك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو مروي عن ابن عمر ونافع مولاة ، وهو رواية عن الإمام مالك ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية ويقولون في آية الصيد : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا آسَكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ ، والضمير قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير الله ، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدي

(١) قرأ عامة الكوفيين بفتح الفاء وتشديد الصاد في (فصل) وقرأ عطية العوفي بتخفيف الصاد (الطبري في تفسير سورة الأنعام آية ١١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في البر (١٤ ، ١٥) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والترمذي في سننه (٢٣٨٩) .

ابن حاتم وأبي ثعلبة : « إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمَعْلَمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ » ^(١) ،
 وحديث رافع بن خديج : « مَا أَتَهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ » ^(٢) ، أيضاً ، وحديث ابن مسعود أن
 رسول الله ﷺ قال للجن : « لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » ^(٣) ، وحديث جندب بن سفيان
 البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ فَلْيَذْبَحْ مَكَانَهَا أُخْرَى وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبِيحَ
 حَتَّى صَلَّيْنَا فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ » ^(٤) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن ناساً قالوا : يا رسول الله إن قومنا يأتوننا باللحم
 لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : « سَمِعُوا عَلَيْهِ أَنْتُمْ وَكُلُوا » قالت : وكانوا حديثي عهد
 بالكفر ^(٥) . ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها ، وخشوا أن لا يكون وجدت من أولئك
 لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم
 تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد والله أعلم .

والمذهب الثاني في المسألة : أنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة ، فإن تركت عمداً أو نسياناً لا
 يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل .
 وهو رواية عن الإمام مالك ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكي عن ابن
 عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح ، والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا
 تَرْتَدُّوا عَنْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ رَأْيُهُ قِيسٌ ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى : ﴿ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾
 وقال عطاء ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا تَرْتَدُّوا عَنْهُ ﴾ أي ما ذبح لغير الله عليه . قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش
 للأوثان ، وينهى عن ذبائح الجحوس ، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي ، وقد حاول
 بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله ﴿ رَأْيُهُ قِيسٌ ﴾ حالية ، أي : لا تأكلوا مما لم يذكر
 اسم الله عليه في حال كونه فسقاً ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله . ثم ادعى أن هذا
 متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية
 طلبية ، وهذا ينتقض عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّكْبَابِينَ لَيُوحُونَ لِمَا أَوْلَايَهُمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن
 كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها ، فإن عطف على
 الطلبية ورد عليها ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله ، والله أعلم ،
 وعن ابن عباس في الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا تَرْتَدُّوا عَنْهُ ﴾ قال : هي الميتة . وقد استدلل لهذا
 المذهب بما روي عن الصمت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم
 ابن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذَبِيحَةُ الْمُسْلِمِ حَلَالٌ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ أَوْ لَمْ
 يَذْكُرْ ، إِنَّهُ إِنْ ذَكَرَ ، لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا اسْمَ اللَّهِ » ^(٦) . وما روي عن ابن عباس أنه قال : « إِذَا ذَبَحَ الْمُسْلِمُ

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٧٥) ومسلم في الصيد (١) .

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٢٠) وأحمد في مسنده (١٤٢/٤) والترمذي في سننه (١٤٩١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٦٢/٩) .

(٥) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٠٧) والدارمي في سننه (٨٣/٢) .

(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٠/٩) .

وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ فَلْيَتَكَلَّمْ فِيهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ» ^(١) واحتج البيهقي أيضًا . بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم أن ناسًا قالوا : يا رسول الله : إن قومًا حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقالوا : « سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُّوا » ^(٢) قال : فلو كان وجود التسمية شرطًا لم يخصص لهم إلا مع تحققها والله أعلم .

المذهب الثالث في المسألة : إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانًا لم يضر ، وإن تركها عمدًا لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه ، وهو محكي عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن . ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمدًا ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ : لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع ، وهذا الذي قاله غريب جدًا ، وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعي والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمته الله : من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك ، يعني ما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « الْمُسْلِمُ يَكْفِيهِ اسْمُهُ إِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ حِينَ يَذْبَحُ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ وَلْيَأْكُلْهُ » ^(٣) وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي رواه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس عن قوله : فزادا في إسناده أبا الشعثاء ووثقاه وهذا أصح ، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانًا ، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرًا والله أعلم . إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفًا لقول الجمهور فيعده إجماعًا فليعلم هذا والله الموفق . وعن جهير بن يزيد قال : سئل الحسن ، سأله رجل أتيت بطير كذا ، فمعه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه واختلط الطير ، فقال الحسن : كله كله ، قال : وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ : « إِنْ اللَّهُ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » ^(٤) وفيه نظر والله أعلم ، وقد روي عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي ، فقال النبي ﷺ : « اسْمُ اللَّهِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » ^(٥) .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٢٩٦/٤) .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٨٣/٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٣٩/٩) والدارقطني في سننه (٢٩٦/٤) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠٤٥) .

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٤٠/٩) .

بعضهم : لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنيت به ، وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم ، وروي عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال الله : ﴿ فَكُلُوا مِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِنَّهُ لَیَسُقُ ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ فمن مكحول قال : أنزل الله في القرآن ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ، وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ ها هنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ ﴾ قال أبو إسحاق : قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق وتلا هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ قوله ﴿ لِيُجْدِلُوهُمْ ﴾ وعن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة : أحدهما : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا .

الثاني : أن الآية من الأنعام وهي مكية .

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي عن ابن عباس بلفظ أتى ناس النبي ﷺ ، فذكره وقال : حسن غريب وروي عن سعيد بن جبير مرسلًا .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله ﷻ بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حراما ، فترلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ ﴾ وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش ، وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ أَطْعَمَهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَجْنَادَهُمْ وَفَعَلَتْهُمْ أَزْوَاجًا بَيْنَ دُوبِ اللَّهِ ﴾ الآية وقد روي عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : « بَلَىٰ إِنَّهُمْ أَحْلَوْا لَهُمُ الْحَرَامَ وَخَرَّضُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » (١) .

﴿ أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّارِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي : في الضلالة هالكا حائرًا فأحياه الله ، أي :

(١) تفسير الطبري (٢٢/٨) والشمشير هو السكين .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٥) .

أحيا قلبه بالإيمان وهده ووقفه لاتباع رسله ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ أي : يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به والنور هو القرآن كما روي عن ابن عباس ، وقال السدي : الإسلام ، والكل صحيح ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أي : الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنَّا ﴾ أي : لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَتَمَنَّ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ افْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ » ^(١) كما قال تعالى : ﴿ أَفَنْ يَبْنِي نُكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَشَى سَوًى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : حَسَنَ لَهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ قَدْرًا مِنَ اللَّهِ وَحِكْمَةً بِالْفِعْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمَهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك ، ثم لهم العاقبة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَدُوا فِيهَا ﴾ الآية قيل : معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوها فدمرناهم ، وقيل : أمرناهم أمرا قدريا ، كما قال ههنا : ﴿ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَكْبَرُ مُجْرِمَهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا ﴾ عن ابن عباس ﴿ أَكْبَرُ مُجْرِمَهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا ﴾ قال : سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكتناهم بالعذاب . وقال مجاهد وقتادة : ﴿ أَكْبَرُ مُجْرِمَهَا ﴾ عظماءها . قلت : وهكذا قوله تعالى : ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كقوله تعالى إخبارا عن قوم نوح : ﴿ وَتَكَرَّرُوا مُكْرًا كَبِيرًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : وما يعود وبال مكروهم وإضلالهم من أضلوهم إِلَّا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْصَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ أي : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ أي : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل .

وقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ أي : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ الآية ، يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ أي : من مكة والطائف ، وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا ، وعنادا واستكبارا كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَدمُوكَ إِلَّا هُزُورا أَعْنَدُوا لِلَّهِ يَبْكُ اللَّهُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٧/٢) والحاكم في المستدرک (٣٠/١) .

رَسُولًا ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاهُ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ هذا وهم معترفون بفضلهم وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ، ومنشئه - صلى الله عليه وسلم - وملائكته والمؤمنون عليه - ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه « الأمين » ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَىٰ مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاضْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاضْطَفَىٰ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاضْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » ^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونٍ بَنِي آدَمَ قُرُونًا قَفَرْنَا حَتَّىٰ بُعِثْتُ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ » ^(٢) وعن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : « مَنْ أَنَا ؟ » قالوا ؟ أنت رسول الله ، فقال : « أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، وَجَعَلَهُمْ يَتُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ يَتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ يَتًا ، وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا » ^(٣) صدق صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ الآية ، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة ، كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَلِيزِينَ ﴾ أي : صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً وهو التلطف في التحيل والخديعة قبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاءً وفاقاً ﴿ وَلَا يَطَّلِعُ رُبُّكَ أَمَّا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ بُيُوتُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي : تظهر المستورات والمكنونات والضمائر ، وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ اسْتِئْذَانِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ^(٤) فَيَقَالُ : هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ابْنِ فُلَانٍ ، والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل . ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرِّبًا كَأَنَّمَا يَصْبَهُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أي : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذا علامات على الخير كقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانُ أُولَٰئِكَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٧) وأحمد في مسنده (٣٧٣/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٠/١) والترمذي في جامعه (٣٥٣٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١١) وأحمد في مسنده (٧٠/٢٠) والترمذي في سننه (٢١٩١) .

هُمُ الرَّبِّشِدُونَ ﴿١﴾ وقال ابن عباس ؓ في قوله : ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول تعالى : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وعن أبي جعفر قال : سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أكيس ؟ قال : « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَكْثَرُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا » ^(١) قال : وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿مَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نُورٌ يُغْذَفُ فِيهِ فَيُشْرَحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ » قالوا : فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال : « الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْمَوْتِ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء والأكثرون ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهين ، وقرأ بعضهم ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء وكسر الراء ^(٣) قيل : بمعنى آثم ، قاله السدي ، وقيل : بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء والراء وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب ؓ رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء ، فقال عمر ؓ : كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير . وقال ابن عباس : يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً والإسلام واسع وذلك حين يقول : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق ، وقال مجاهد والسدي : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شاكاً ، وقال عطاء الخراساني : ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أي : ليس للخير فيه منفذ ، وقال ابن جريج ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بلا إله إلا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه ، وقال سعيد بن جبير : ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قال : لا يجد فيه مسلماً إلا صعداً ، وقال السدي : ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ من ضيق صدره .

وقال عطاء الخراساني : ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء ، وعن ابن عباس ؓ ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه ، وقال الأوزاعي : ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : وهذا مثل ضرب به الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، يقول : فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته ، وقال في قوله : ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول : كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله من أبي الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الله ، وعن ابن عباس : الرجس الشيطان ، وقال

(١) أخرجه : ابن ماجه في السنن (٤٢٥٩) والحاكم في المستدرک ٥٤٠/٤ ، والطبراني في الكبير ٤١٧/١٢ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣١١/٤ .

(٣) عامة القراء كانوا يقرأونها (ضيقاً) بالتشديد وبعض المكين بالتسكين (الطبري الأثر ١٠٧٩٧) .

مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب .
﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ۝ لَمْ دَارُ السَّالِكِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبيه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى : ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ ﴾ منصوب على الحال أي : هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن وهو صراط الله المستقيم ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أي : وضحنها وبينها وفسرناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴾ أي : لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله ﴿ لَمْ دَارُ السَّالِكِينَ ﴾ وهي الجنة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتضي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أي : حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَنْمَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آلَئِكَ الْوَعْدَ لَنَّا قَالُ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى : واذكر يا محمد فيما تقصيه عليهم وتنذرهم به ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴿ يَنْمَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أي : يقول : يا معشر الجن ، وسياق الكلام يدل على المحذوف ومعنى قوله : ﴿ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أي : من إغوائهم وإضلالهم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَعْهِدْ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ مَاذَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ وَأَنْ أَغْبَوِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ يَنْمَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرُوا مِنَ الْإِنْسِ ﴾ يعني أضللتهم منهم كثيرا . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة . ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا . عن الحسن في هذه الآية قال : استكثرتم من أهل النار يوم القيامة فقال أولياءهم من الإنس : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس . ﴿ وَبَلَّغْنَا آلَئِكَ الْوَعْدَ لَنَّا قَالُ ﴾ قال السدي : يعني الموت ﴿ قَالُ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ ﴾ أي : ماؤاكم ومنزلكم أنتم ولأيامهم وأولياؤكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكنين فيها مكثا مخلدا إلا ما شاء الله . قال بعضهم : يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ ، وقال بعضهم : هذا رد إلى مدة الدنيا ، ﴿ قَالُ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارًا .

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

قال قتادة في تفسيرها : إنما يولي الله الناس بأفعالهم ، فالؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي . وعن قتادة في تفسير

الآية يولي الله بعض الظالمين بعضًا في النار يتبع بعضهم بعضًا . وقال مالك بن دينار : قرأت في الزبور أنني أنتقم من المنافقين بالمنافقين ، ثم أنتقم من المنافقين جميعًا وذلك في كتاب الله . قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ قال : ظالمي الجن وظالمي الإنس . وقرأ ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ يَقْنِ ﴾ قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

ومعنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض ونتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم .

﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُزِدُّوكُم بِآيَاتِي هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِمَيَّةٍ دُونِهَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ .

وهذا أيضًا مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم - وهو أعلم - هل بلغتكم الرسل ورسالاته وهذا استفهام تقرير ﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ ﴾ أي : من جملتكم والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل . وقال ابن عباس : الرسل من بني آدم ومن الجن نزر . وحكى ابن جرير عن الضحاک بن مزاحم أنه زعم أنه في الجن رسلًا ، واحتج بهذه الآية الكريمة ، وفيه نظر لأنها محتملة وليست بصريحة والله أعلم ، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ رَسُولًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وقوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب ، وقال تعالى في هذا الآية الكريمة : ﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَّا يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُزِدُّوكُم بِآيَاتِي هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أي : أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ، وقال تعالى : ﴿ وَغَرَّبْنَاهُمْ لِمَيَّةٍ دُونِهَا ﴾ أي : وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ أي : في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ يَنْفِلُ عَمَّا يَسْمَلُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أي : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مِنْ أَتَمَّةٍ إِلَّا حَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ وقوله :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثْنَا رَسُولًا ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ يَطْلُرُ ﴾ وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . والوجه الثاني : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ يقول : لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك والله غير ظلام لعبيده ، ثم شرع يرجح الوجه الأول ولا شك أنه أقوى ، والله أعلم .

قال : وقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عِلْمٌ ﴾ أي : ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر . قلت : ويحتمل أن يعود قوله : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّنَّا عِلْمٌ ﴾ أي : من كافرين الجن والإنس أي : لكل درجة في النار بحسبه كقوله : ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذَّابُنَّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه . ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنتَ أَكُفٌّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿ قُلْ يَقُولُوا أَصْلَحُوا عَلَىٰ مَكَاتِحِكُمْ إِنِّي عَاسِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْغَفُورُ ﴾ أي : عن جميع خلقه من جميع الوجوه وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أي : وهو مع ذلك رحيم بهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَظَوُّوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي : إذا خالفتم أمره ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : قوماً آخرين ، أي : يعملون بطاعته ﴿ كَمَا أَنتَ أَكُفٌّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أي : هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : ولا تعجزون الله بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً ورفاتاً وعظاماً ، هو قادر لا يعجزه شيء ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَغْفِلُونَ فَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » ^(١) .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٧/٣) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَقَوِّرُ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَائِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي : استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي كقوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ وَأَنْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ : عن ابن عباس ﴿ عَلَى مَكَاتِكُمْ ﴾ ناحيتكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تَكُونُ لَكُمْ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : أكون لي أو لكم ، وقد أنجز الله مواعده لرسوله صلوات الله عليه ، أي : فإنه تعالى مكنه في البلاد وحكمه في نواصي مخالفه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلُي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة الحمديّة وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً وجعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء ﷻ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي : مما خلق وبرأ ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ أي : من الزرع والثمار ﴿ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ أي : جزءاً وقسماً ﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ شُرَكَائِهِمْ ﴾ قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصدد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله ؛ جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله ، فقال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ الآية .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية : كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة ، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه ، وقرأ الآية حتى بلغ ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : ساء ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولاً في القسم ؛ لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شيء له وفي تصرفه ، وتحت قدرته ومشيتته لا إله غيره ولا رب سواه ، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جلّ وعلا : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ نَقُتْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ يُرِيدُوهُمْ وَيَرْغَبُوا عَلَيْهِمْ ﴾

وَيَنْهَى وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٧﴾

يقول تعالى : كما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله ما ذرا من الحرث والأنعام نصيبا ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق وواد البنات خشية العار ، قال ابن عباس ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ زينوا لهم قتل أولادهم . وقال مجاهد : شركاؤهم شياطينهم يأمرونهم أن يبدوا أولادهم خشية العيلة ، وقال السدي : أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم أي : فيخلطوا عليهم دينهم . وهذا كقوله : ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُتِلَتْ ﴿١﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر ، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك ، وإنما كان هذا كله من تزوين الشياطين وشرعهم ذلك ، قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي : كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوننا وله الحكمة التامة في ذلك ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي : فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم .

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي أَتَيْنَا بِهِ مِنْ نَشْأَةِ رَبِّهِمْ وَأَتَيْنَاهُمْ خُلُودَهَا وَأَتَيْنَاهُمْ لَآ يَذْكُرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَقْبَرَاءَ عَلَيْهِمْ سَيِّئَرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ .

قال ابن عباس : الحِجْر الحرام مما حرّموا من الوصيلة وتحريم ما حرّموا ، وقال قتادة : ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَمْثَلُ الَّذِي أَتَيْنَاهُمْ بِهِ مِنْ نَشْأَةِ رَبِّهِمْ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى ، وقال ابن زيد بن أسلم : ﴿حِجْرٌ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم ، وقال السدي : ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَبِّهِمْ﴾ يقولون : حرام أن يطعم إلا من شطنا ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ زَرْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَرَأَيْتُمْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ﴾ وقال السدي : أما الأنعام التي حرمت ظهورها ، فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها قال : لا إذا ولدوها ولا إن نحروها . وعن عاصم بن أبي النجود قال لي أبو وائل : أتدري ما في قوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ خُلُودَهَا وَأَتَيْنَاهُمْ لَآ يَذْكُرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ قلت : لا ، قال : هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها ، وقال مجاهد : من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ، ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملت شيئا . ﴿أَقْبَرَاءَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : على الله وكذبا منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم ﴿سَيِّئَرِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي : عليه ويسندون إليه .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّنَّ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاؤُا سَيِّئَرِهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ خَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

قال ابن عباس : ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية ، قال : اللبن . كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكراهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكرا ذبحوه وكان للرجال

دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك ، وقال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء ، وقال مجاهد في قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْثَىٰ خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ قال : هي السائبة والبحيرة ، وقال أبو العالية ومجاهد وقائدة في قول الله : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي : قولهم الكذب في ذلك يعني كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لِمَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴾ متع ﴿ الآية . إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ أي : في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزئهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصبرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴾ متع ﴿ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا نَادِمِينَ ﴾ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿ وعن ابن عباس ؓ قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْلِطًا أَكْلَهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتِ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَرًا حَقًّا يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرَفُوا لَكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ومن الأنعام حمولة وفَرْشًا كُلُّوا مِنَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزأوها فجعلوا منها حراماً وحلالاً ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : معروشات مسموكات ، وفي رواية : فالمعروشات ما عرش الناس ، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات ، وقال : معروشات ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم ، وقال ابن جريج ﴿ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ ﴾ ، قال : متشابهاً في المنظر وغير متشابه في الطعام ، وقال محمد بن كعب : ﴿ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قال : من رطبه وعنبه ، وقوله تعالى : ﴿ وَآثَرًا حَقًّا يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة . وعن يزيد بن درهم قال : سمعت أنس بن مالك يقول : ﴿ وَآثَرًا حَقًّا يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : الزكاة المفروضة ، وقال ابن عباس : يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كياله ، وقال العوفي عن ابن عباس : وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم

يخرج مما حصد شيقاً ، فقال الله تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله ، وقد روي عن جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ أمر من كل جاذٍ عشرة أوسق من التمر بقتل يعلق في المسجد للمساكين ^(١) ، وقال الحسن البصري : هي الصدقة من الحب والثمار . وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة ، وروي عن ابن عمر في قوله : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : كانوا يعطون شيقاً سوى الزكاة . وقال مجاهد : إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه ، وقال : عند الزرع يعطي القبضة وعند الصرام يعطي القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصرام ، وقال سعيد بن جبير : كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته ، وقال آخرون : هذا شيء كان واجباً ثم نسخه الله بالعشر أو نصف العشر قلت : وفي تسمية هذا ناسخاً نظر ؛ لأنه قد كان شيقاً واجباً في الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار الخرج وكميته . قالوا : وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة ، فإله أعلم . وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة « ن » ﴿ إِذْ أَقْبَمُوا بِصِمْنِهَا تُمْحِيلًا ۚ وَلَا يَسْتَوُونَ ۚ فَلَا عَلَى لَهَافٍ مِنْ رَبِّكَ وَهَرْ مَقَابِيحٍ ۚ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۚ أَيُّكُمْ يَرْجُو أَنْ يُؤْتَىٰ مِنْ سَحَابٍ مِثْلَ هَذِهِ ۚ فَيَقُولُ هَذِهِ حَبْلٌ مُنْجِيٌّ ۖ فَلَا يَصْبِرُ وَلَا يَكْتُمُ ۚ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ قيل : معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف ، وقال أبو العالية : كانوا يعطون يوم الحصاد شيقاً ثم تباروا فيه وأسرفوا ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ وقال ابن جريج : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخل له فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّكُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ . وقال سعيد بن المسيب في قوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ، ثم اختار ابن جرير قول عطاء : إنه نهى عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ أن يكون عائداً على الأكل أي : لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الآية ، وفي الحديث : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْشَرُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ » ^(٢) ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَغَرَضٌ ﴾ أي : وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش ، قيل : المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل والفرش الصغار منها . قوله : ﴿ حَمُولَةٌ ﴾ ما حمل عليه من الإبل ، والفرش الصغار من الإبل ، وقال ابن عباس : الحمولة هي الكبار ، والفرش الصغار من الإبل . وقال : أما الحمولة : فالإبل والحيل والبغال والحميز وكل شيء يحمل عليه ، أما الفرش : فالغنم ، واختاره ابن جرير ، قال : أحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض . وقال الربيع بن أنس وغيره : الحمولة الإبل والبقر ، والفرش الغنم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ؛ شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً ، وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٣٦٠٥) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٩/٣) .

الكرامة حسن يشهد له قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صَمَاتٍ أَتَيْنَا أَتَيْنَا أَنفُسَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴾
وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿ وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أي : من الثمار
والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم
الله من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ ﴾ أي : إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾
أي : بين ظاهر العداوة .

﴿ تَمَنَّى أَزْوَاجَ نِسَاءٍ فَتَنَ الْفَتَنَ أَتَيْنَا نَارَ الْآلَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَزْوَاجُ الْآلَيْنِ نَبْئِي بِمَلِيرٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَمِنْ الْآلِ الْأَوَّلِ أَتَيْنَا نَارَ الْآلَيْنِ قُلْ الْفُكْرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْآلَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
الْآلَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْآلَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعاً بحيرة
وسائبة ووصيلة وحاماً وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار ، فبين
أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض الضأن وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه ، إلى إبل ذكورها وإناثها ،
وبقر كذلك ، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبني آدم
أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَمِيَّةً
أَزْوَاجَ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْآلَيْنِ ﴾ رد عليهم في قولهم : ﴿ مَا فِي
بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَكُمْ كَرُونَا وَحَرَّمُوا عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ نَبْئِي بِمَلِيرٍ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة
والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ تَمَنَّى أَزْوَاجَ نِسَاءٍ فَتَنَ الْفَتَنَ أَتَيْنَا نَارَ الْآلَيْنِ ﴾
وَمِنْ الْآلِ الْأَوَّلِ أَتَيْنَا نَارَ الْآلَيْنِ قُلْ الْفُكْرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْآلَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْآلَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؟ ﴿ أي : فلهم أربعة أزواج ﴾ ﴿ قُلْ الْفُكْرَيْنِ حَرَّمَ أَرِ الْآلَيْنِ ﴾ يعني :
هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى ، فلم تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً ؟ ﴿ نَبْئِي بِمَلِيرٍ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يقول تعالى : كله حلال . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ
بِهَذَا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : لا أحد أظلم منه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴾ وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قعدة ؛ لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول
من سبب السوائب ووصل الوصيلة وحمل الحامي .

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَ دَمٍ مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمِ خَنزِيرٍ
فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى أمراً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله
افتراء على الله ﴿ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي : أكل يأكله ، قيل : معناه لا

أجد شيئاً مما حرمتهم حراماً سوى هذه ، وقيل : معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه ، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية ، ومن الناس من يسمي هذا نسخاً والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً ؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم ، وقال ابن عباس : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ يعني المهرق ، وقال عكرمة في قوله : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ لولا هذه الآية لتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود ^(١) . وعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأمتا والحمرة والدم يكونان على القدر بأمتا ، وقرأت هذه الآية ^(٢) .

وعن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وقرأ هذه الآية : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ الآية ^(٣) .

وعنه أيضا قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة ، فقالت : يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة ، قال : « قَلِمَ لَا أَحْذِثُكُمْ مِنْهَا ؟ » قالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ ﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ ﴾ وَإِنَّكُمْ لَا تَطْعَمُونَهُ أَنْ تَذِبُوهُ فَتَتَفَقَّهُوا بِهِ » فأرسلت فسلخت مسكها فذبغته ، فاتخذت منه قربة حتى تحرقت عندها ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حَرَّمَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَتْلَسٍ يَبْغِي وَلَا عِدْوَانٍ ﴾ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ أي : غفور له رحيم به ، والغرض من سياق هذه الآية الكريمة ، الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وإنما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو مسكوت عنه ، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله ؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَرَبِّ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَائِصَ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِغَلْظٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيدُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : يقول تعالى : وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر ، وهو البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط ^(٥) . قال ابن عباس : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٩٣/٨ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٧/١) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ١١٥/٤ .

(٤) تفسير الطبري ٩٦/٨ .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک ١١٥/٤ .

كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴿١﴾ وهو البعير والنعامة ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي ليس بمنفرج الأصابع ، وفي رواية عنه : كل متفرق الأصابع ومنه الديك ، وقال مجاهد : كل ذي ظفر قال : النعامة والبعير شقاً شقاً ، قلت للقاسم بن أبي بزة وحديثه : ما شقاً شقاً ؟ قال : كل ما لا ينفرج من قوائم البهائم ، قال : وما انفرج أكلته ، قال : انفرجت قوائم البهائم والعصافير ، قال : فيهود تأكله ، قال : ولم تنفرج قائمة البعير - خفه - ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ولا تأكل حمار الوحش ، وقوله تعالى : ﴿ ذَرِكُوا الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا ﴾ قال السدي : يعني الثرب وشحم الكليتين ، وكانت اليهود تقول : إنه حرمة إسرائيل فنحن نحرمه ، وقال ابن عباس : ﴿ إِلَّا مَا حَكَمْتَ ظُهُورُهُمَا ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم ، وقال السدي وأبو صالح : الآية مما حملت ظهورهما وقوله تعالى : ﴿ أَوْ الْحَوَايَا ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير : الحوايا جمع ، واحداها حاوية وحاوية وحوية : وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباخر ، وتسمى المرباض ، وفيها الأمعاء . قال : ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرما علينا شحومهما إلا ما حملت ظهورهما . وما حملت الحوايا . وعنه : ﴿ أَوْ الْحَوَايَا ﴾ وهي المبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : الحوايا المرباض التي تكون فيها الأمعاء تكون وسطها ، وهي بنات اللبن ، وهي في كلام العرب تدعى المرباض ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِمَظَرٍ ﴾ يعني : إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللتناه لهم ، وقال ابن جريج : شحم الآية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي : هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغْيهم ومخالفتهم أوامرنا ، كما قال تعالى : ﴿ فَيُظْلَمُونَ أَلَدَّتْ حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ وإنا لعادلون فيما جازيناهم به ، وقال عبد الله بن عباس : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سمرة باع خمرا ، فقال : قاتل الله سمرة ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا فَبَاغَوْهَا » ^(١) . قال عطاء بن أبي رباح : سمعت جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح : « إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ » فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال : « لَا هُوَ حَرَامٌ » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا ثُمَّ بَاغَوْهَا وَأَكَلُوهَا ثَمَنَةً » ^(٢) .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُمُ عَنِ الْقَوَرِ النَّجْرِيَّتِ ﴾ .

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) ومسلم في المساقاة (٧٢) وأحمد في مسنده (٢٥١) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) ومسلم في المساقاة (٧١) وأحمد في مسنده (٢١٣/٣) .

يقول تعالى : فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل : ﴿ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَرِسْعَةٍ ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ﴿ وَلَا يَزِدُّ بِأُسْمَائِهِ عَنِ الْقَوْرِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن ، كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ وَلَئِنَّ لَمَفْعُورٌ رَجِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا تَسْمِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَكِيدُونَ ﴾ .

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ، ولهذا قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ الآية ، وقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة ؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا تَسْمِعُونَ ﴾ أي : فقطهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿ إِنْ تَسْمِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ أي : الوهم والخيال والمراد بالظن ها هنا الاعتقاد الفاسد ﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه ، قال ابن عباس : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ وقال : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى ، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم فقلوه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ يقول تعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أي : له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشئته واختياره . وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ ﴾ أي : أحضروا شهداءكم ﴿ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ أي : هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافترتم على الله فيه ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ﴾ أي : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَكِيدُونَ ﴾ أي : يشركون به ويجعلون له عديلا .

﴿ قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ لِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

مِنْ لِمَلَقْنِي تَحْتَنُ زُرْفُكُمْ وَإِنَافَهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

قال ابن مسعود رضي الله عنه ، من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء
الآيات ﴿ قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
وقال ابن عباس : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ : ﴿ قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ
رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات ^(١) . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَيْتُكُمْ
يُبَايِعُنِي عَلَى ثَلَاثٍ ؟ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ
من الآيات « فَمَنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَذْرَكُهُ اللَّهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ
عُقُوبَتُهُ ، وَمَنْ أَخَّرَ إِلَى الْآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَذْبُهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ » ^(٢) ﴿ قُلْ ﴾ لهم
﴿ تَمَالَوْا ﴾ أي : هلموا وأقبلوا ﴿ أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ أي : أقص عليكم وأخبركم بما
حرم ربكم عليكم حقًا لا تخرصا ولا ظنًا بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وكأن
في الكلام محذوفًا دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ولهذا قال في آخر
الآية : ﴿ ذَلِكَ وَصَنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ
شَيْئًا مِنْ أُمَّتِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ . قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى
وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ، وَإِنْ
شَرِبَ الْخَمْرَ » وفي بعض الروايات أن قاتل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ وأنه عليه الصلاة
والسلام قال في الثالثة : « وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ » ^(٣) فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وَإِنْ
رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ » . وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يَقُولُ تَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا
دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي فَأَنْتِي أَغْفِرُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي ، وَلَوْ أَتَيْتَنِي بِقِرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً
أَتَيْتَكَ بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً مَا لَمْ تَشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَإِنْ أَخْطَأْتُ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ
اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ » ^(٤) ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . وعن ابن مسعود « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَا آلِ زُلَيْكَةَ إِحْسَنُوا ﴾ أي : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانًا أي : أن تحسنوا
إليهم كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَا آلِ زُلَيْكَةَ إِحْسَنُوا ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه
قال : سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الصَّلَاةُ عَلَى وَفْيِهَا » قلت : ثم أي ؟ قال :
« بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » قلت : ثم أي ؟ قال : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال ابن مسعود : حدثني بهن رسول

(١) أخرجه : الحاكم في المستدرک ٣١٧/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (٤١ ، ٤٣) .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٧) ومسلم في الإيمان (١٥٣) والترمذي في السنن (٢٦٤٤) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥٠/٥) . (٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥١) وأحمد في مسنده (٥٩/٥) .

اللَّهُ ﷻ ولو استزددته لزادني ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يبدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد عن عبد الله بن مسعود ﷻ أنه سأل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قلت : ثم أي ؟ قال : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ^(٢) الآية ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ قال ابن عبادة وقتادة والسدي وغيره : هو الفقر ، أي : ولا تقتلوه من فقركم الحاصل ، وقال في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً إِمْلَاقٍ ﴾ أي : لا تقتلوه خوفاً من الفقر في الآجل ، ولهذا قال هناك : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَافِرُونَ ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أي : لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلًا قال : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّا كَافِرُونَ ﴾ لأنه الأهم هنا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ عن ابن مسعود ﷻ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء عن ابن مسعود ﷻ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثٌ : الثُّبْتُ الزَّانِي ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ » وفي لفظ لمسلم : « وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يَحِلُّ دَمُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ » ^(٤) وذكره . وروي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا يَأْخُذَ ثَلَاثٌ خِصَالٍ : زَانٍ مُخَصَّنٌ يُزْجَمُ ، وَرَجُلٌ قَتَلَ مُتَعَمِّدًا فَيُقْتَلَ ، وَرَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَخَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَيُقْتَلَ أَوْ يُضْلَبُ أَوْ يُنْفَى مِنَ الْأَرْضِ » ^(٥) . وروي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ مرفوعاً : « مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَخْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنْ رِيحُهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » ^(٦) وقوله : ﴿ ذَلِكَ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٢) وأحمد في مسنده (٤٤٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في المحارين (٦٨١١) ومسلم في الإيمان (١٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٣٢٤) ومسلم في التوبة (٣٣ ، ٣٤) وأحمد في مسنده (٤٣٦/١) .

(٤) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧٨) ومسلم في القسامة (٢٤) وأحمد في مسنده (٦١/١) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن ٩٢/٧ ، وأبو داود في السنن (٤٥٠٢) والحاكم في المستدرک ٣٥٠/٤ .

(٦) أخرجه البخاري في الجزية والمواذعة (٣١٦٦) وأحمد في مسنده (٣٦/٥) وابن ماجه في سننه (٢٦٨٦) .

أي : هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون من الله أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن عباس : لما أنزل الله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ الآية ، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه فجعل يفضل الشيء فيحس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ حَيَّ وَإِنْ غَالَطْتُمُوهُمْ فَلَا ضَرْرَ لَكُمْ ﴾ قال : فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال الشعبي ومالك : يعني حتى يحتلم ، وقال السدي : حتى يبلغ ثلاثين سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : ستون سنة ، وقال : وهذا كله بعيد ها هنا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ، كما توعد على تركه في قوله تعالى : ﴿ وَبَلِّغُوا لِلْمُطَلَّعِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : « إِنَّكُمْ وَلَيْتُمْ أَمْراً هَلَكْتُ فِيهِ الْأُتَمُّ السَّالِفَةُ قَبْلَكُمْ » ^(٢) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا تَكْلِفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي : من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ الله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال .

وقوله : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ قال ابن جرير : يقول : وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا وإفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الدال وآخرون بتخفيفها ^(٣) .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَنْفَقُونَ ﴾ . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : « هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ »

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢٨٧١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٢١٧) بلفظ : « إِنَّكُمْ قَدْ لَيْتُمْ أَمْرِينَ » .

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص (تَذَكَّرُونَ) بتخفيف الدال ، حيث وقع إذا كان بالخطاب وحسن ما تاءه أخرى ، والباقيون (تَذَكَّرُونَ) بالتشديد (انظر : تقريب النشر ص : ١١٢ ، ١١٣) .

ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ^(١) .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَنْ جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ شُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتٌ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ شُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّ اذْخُلُوا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ جَمِيعًا وَلَا تَفْرَقُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ : قَالَ وَيَحْكُ لَا تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَجَّهُ ، فَالْصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالشُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُمُ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « أَيْكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ » ثم تلا : ﴿ قُلْ تَكَلَّوْا أَتَدْرِكُونَ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات ثم قال : « وَمَنْ وَفَى بِهِمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَذْرَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتُهُ ، وَمَنْ أَخْرَجَهُ إِلَى الْآخِرَةِ كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ : إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَقَا عَنْهُ » ^(٣) .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يُقَاتِلُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ تقديره ثم قل يا محمد مخبراً عنا : أنا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله : ﴿ قُلْ تَكَلَّوْا أَتَدْرِكُونَ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٤) . قلت : وفي هذا نظر ، وثم ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر ، لا للترتيب ههنا .

وههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها فقال : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ وبعدها ﴿ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ الآية ، وقال تعالى مخبراً عن المشركين : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَتْ مِثْلَ مَا أَوْفَتْ مُوسَى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا ﴾ أي : آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته كقوله : ﴿ وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَانِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ أي : جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ أحسن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) وابن ماجه في سننه (١١) والدارمي في السنن (٦٧/١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٢/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨) ومسلم في الحدود (٤١ ، ٤٣) .

(٤) ذكره الطبري في تفسيره (١١٨/٨) .

فيما أعطاه الله ، وقال قتادة : من أحسن في الدنيا تم له ذلك في الآخرة ، واختار ابن جرير أن تقديره ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه ، فكأنه جعل الذي مصدرية كما قيل في قوله تعالى : ﴿وَحُضِّنْتُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ فَجَاؤُكُمْ فِي ظُلُمٍ﴾ أي : كخوضهم .

وقال آخرون : الذي ههنا بمعنى الذين ، قال عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأها ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾^(١) وقال مجاهد : تمامًا على الذي أحسن ، قال : على المؤمنين والمحسنين ، وكذا قال أبو عبيدة ، وقال البغوي : المحسنون الأنبياء والمؤمنون ، يعني أظهرنا فضله عليهم ، قلت : كقوله تعالى : ﴿قَالَ يَسْمُوعَ إِصْحَابُكَ عَلَى النَّاسِ رِيسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل ﷺ لأدلة أخرى ، وروي أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرأها ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا وَتَفْصِيلًا﴾ رفعا بتأويل على الذي هو أحسن ، ثم قال : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها في العربية وجه صحيح ، وقيل : معناه تمامًا على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن إليه ، حكاه ابن جرير والبغوي ولا منافاة بينه وبين القول الأول ، وبه جمع ابن جرير كما بيناه والله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ بِرُحْمَةٍ﴾ وهذا كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَآتَيْنَاهُ وَأَقْرَأُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿فيه الدعوة إلى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده في كتابه ، ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ .

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا : ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني لينقطع عذرهم ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى ، وكذا قال مجاهد والسدي وقاتدة وغير واحد ، وقوله : ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَنَافِلِكُمْ﴾ أي : وما كنا نفهم ما يقولون ؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه . وقوله : ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أي : وقطعنا تعللهم أن يقولوا : لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِمْدَى الْأُمَمِ﴾ الآية ، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه .

وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي : لم ينتفع بما جاء به الرسول

ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره ، بل صدف عن اتباع آيات الله أي : صرف الناس وصدّهم عن ذلك ، قاله السدي ، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أعرض عنها ، وقول السدي ههنا فيه قوة لأنه قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كما تقدم في أول السورة ﴿ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَلَهُ يَكُونُ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ سَخَّرَ الَّذِينَ يَصِدُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصِدُّونَ ﴿ وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : لا آمن بها ولا عمل بها كقوله تعالى : ﴿ فَلَا مَعَدَّ وَلَا مَعْلَ ﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَكَّلْ ﴿ وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ، ولكن كلام السدي أقوى وأظهر والله أعلم ؛ لأن الله قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ رِذْوَتُهُمْ عَذَابٌ قَوْفٍ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ .

يقول تعالى متوعدا للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها حين يرون شيئا من أشرار الساعة ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية : عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا » فذلك حين ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالذَّجَالُ ، وَذَابَةُ الْأَرْضِ » (٢) . وعن أبي ذر جندب بن جنادة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « إِنَّهَا تَنْتَهِي دُونَ الْعَرْشِ فَتَخْرُجُ سَاجِدَةً ، ثُمَّ تَقُومُ حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي ، فَيُوشِكُ يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْ يُقَالَ لَهَا : ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ وَذَلِكَ حِينَ ﴾ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٣) .

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال رسول الله ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالذَّخَانُ ، وَالذَّابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَخُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَخُرُوجُ الدَّجَالِ ، وَثَلَاثَةٌ خُسُوفٌ : خُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٦) ومسلم في الإيمان (٧٢) وأبو داود في السنن (٤٣١٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٩) وأحمد في مسنده (٤٤٥/٢) والترمذي في السنن (٣٠٧٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٥٠) وأحمد في مسنده (١٦٥/٥) .

تَشَوْقٌ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ ؛ تَبَيَّتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » ^(١) .

وعن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتِلُ » فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص : إن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ إِحْدَاهُمَا تَهْجُرُ الشَّيَاطِينَ وَالْأُخْرَى تُهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَلَا تَنْقَطِعُ مَا تُقْبَلُ الثَّوْبَةُ ، وَلَا تَزَالُ الثَّوْبَةُ تُقْبَلُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ ؛ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلُ » ^(٢) .

فقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك فإن كان مصلحًا في عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحًا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته .

قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ أي : ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملًا به قبل ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوف يإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقترب الساعة وظهور أشراتها كما قال : ﴿ قُلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاهُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ، وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتنفروا فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ الآية . والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له ؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق . فمن اختلف فيه ﴿ وَكَانُوا شِيْعًا ﴾ أي فرقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات ؛ فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية ، وفي الحديث : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » ^(٣) فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء ، والرسل براء منها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ الآية ، ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧/٤) والترمذي في السنن (٢١٨٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ومسلم في فضائل (١٤٣) وأحمد في مسنده ٤٦٣/٢ .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا يَمْلِكُهَا وَمَنْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية ، فروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : « إِنْ رُبُّكُمْ ﷻ رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ . وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ ﷻ ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » ^(١) . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ ﷻ : مَنْ عَمَلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا وَأَزِيدُ ، وَمَنْ عَمَلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهُ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ ، وَمَنْ عَمَلَ قِرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِنْتِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً ، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْسِيهِ أَتَيْتُهُ هَزْولَةً » ^(٢) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ » ^(٣) .

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل وثيقة ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح « فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَوَائِي » ^(٤) أي من أجلي . وتارة يتركها نسيانًا وذهولًا عنها فهذا لا له ولا عليه ؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًا . وتارة يتركها عجزًا وكسلًا عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيِّئَتَيْهِمَا فَاَلْقَا بِلِ الْمَقْتُولِ فِي النَّارِ » قالوا : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » ^(٥) .

وعن خريم بن فاتك الأسدي أن النبي ﷺ قال : « إِنْ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ وَالْأَعْمَالُ سِتَّةٌ ، فَالنَّاسُ مُوسِعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمُوسِعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُونٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَمَقْتُونٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوسِعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالْأَعْمَالُ مُوجِبَتَانِ ، وَمِثْلٌ بِمِثْلِ ، وَعَشْرَةٌ أَضْعَافٍ ، وَسَبْعِمِائَةٌ ضَعْفٍ ، فَالْمُوجِبَتَانِ : مَنْ مَاتَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَمَنْ مَاتَ كَافِرًا وَجِبَتْ لَهُ النَّارُ ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبُهُ وَحَرَصَ عَلَيْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةٌ وَلَمْ تُضَاعَفْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ عَمَلَ حَسَنَةً كَانَتْ عَلَيْهِ يَعْشُرُ أَثْنَالِهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ كَانَتْ بِسَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ » ^(٦)

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٩/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٢٧٩/١) .

(٣) أخرجه : مسلم في الإيمان (٢٠٥) وأحمد في مسنده ٣١٧/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) ومسلم في الفتن (١٥) وابن ماجه في السنن (٣٩٦٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٥/٤) .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : « يَخْضُرُ الْجُمُعَةُ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ : رَجُلٌ خَضَرَهَا يَلْعُو فَهُوَ حَظُهُ مِنْهَا ، وَرَجُلٌ خَضَرَهَا بِدُعَاءٍ ؛ فَهُوَ رَجُلٌ دَعَا اللَّهَ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُ ، وَرَجُلٌ خَضَرَهَا بِإِنْصَابٍ وَشُكُوبٍ ، وَلَمْ يَخْطُ رَقَبَةً مُسْلِمٍ ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَدًا ؛ فَهِيَ كَفَّارَةٌ لَهُ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ » وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ : ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا ﴾ ^(١) . وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ فَقَدْ صَامَ الدُّهْرَ كُلَّهُ » وزاد الترمذي : « فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا ﴾ ^(٢) ، وقال ابن مسعود : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْنَالِهَا ﴾ من جاء بلا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك .

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى آمراً بنبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أي : قائماً ثابتاً ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ وليس يلزمه من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية ، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قام بها قياماً عظيماً وأكمل له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام . وعن ابن أبيزى عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال : « أَصْبَحْنَا عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَمِلَّةِ آيِنَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ^(٣) وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : أي الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال : « الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ » ^(٤) . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه ^(٥) . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يومئذ : « لَتَعْلَمَنَّ يَهُودُ أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً ؛ إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ » ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أي : أخلص له صلاتك وذبحك ، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١١١٣) والبيهقي في السنن الكبير (٢١٩/٣) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٥/٥) والترمذي في السنن (٣٠٧٣) وابن ماجه في السنن (١٧٠٨) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٠٦/٣) والهيثم في مجمع الزوائد (١١٦/١٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/١) والطبراني في المعجم الكبير (٢٢٧/١١) .

(٥ ، ٦) أخرجه أحمد في مسنده (١١٦/٦) .

عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى . قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ النسك الذبح في الحج والعمرة . وقال سعيد بن جبير ﴿ وَنُسُكِي ﴾ قال : ذبحي ، وعن جابر بن عبد الله قال : ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكشين ، وقال حين ذبحهما : « وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَخْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ^(١) .

وقوله ﷻ : ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ قال قتادة : أي من هذه الأمة وهو كما قال ؛ فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْنِي أَنْ آجُرَ إِنْ آجُرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضها ، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الأبد ، ولا تزال قائمة منصوره وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاقٍ دِينَنَا وَاحِدٌ » ^(٢) فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمها شتى ؛ فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وعن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَقِيقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى آخر الآية « اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَأَعِزَّنِي لِذُنُوبِي جَمِيعًا لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » ^(٣) .

﴿ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ لَا أَمَّا أَتَى رَبِّكَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ مَرْجِعُكُمْ فَيُنْفِكُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ لَا أَمَّا أَتَى رَبِّكَ ﴾ أي : أطلب ربًا سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، أي : لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه ؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١ ، ٢٠٢) والترمذي في السنن (٣٤٢١) والدارمي في السنن (٢٨٢/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ومسلم في الفضائل (١٤٣) وأحمد في مسنده ٤٦٣/٢ جميعهم بنحوه .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) والدارقطني في السنن (٢٦٧/١) .

له ، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن ، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا زُرْدٌ وَارِدُهُ وَزُرْدٌ أُخْرَى﴾ لإخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى كما قال : ﴿وَلَنْ تَدْعُ مَثَلَهُ إِنْ جِئَهَا لَا يَحْتَمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وقوله تعالى : ﴿فَلَا يَخَافُ عُذْبُهُ وَلَا هَضْبًا﴾ قال علماء التفسير : أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وقوله : ﴿ثُمَّ إِنْ رَبُّكَ تَزَيَّجَكَ فَيُنْفِثُكَ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي : اعملوا على مكائتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه وبيننا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله : ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْتَلَى عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ❶ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي : جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف . وقوله : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي : فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والחסن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ فِي الْعِزَّةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي : ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتنحكم به ، ليخبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الدُّنْيَا خُلُوةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُبْتَخِلُكُمْ فِيهَا فَنَاطِظٌ مَادَا تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» ❷ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب . وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله : ﴿وَلَنْ رَبُّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَطَعَ أَحَدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، خَلَقَ اللَّهُ مِائَةَ رَحْمَةٍ ، فَوَضَعَ وَاحِدَةً بَيْنَ خَلْقِهِ يَتَرَاخَمُونَ بِهَا ، وَعِنْدَ اللَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ» ❸ .

وعن العلاء قال : قال رسول الله ﷺ : «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وأحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والترمذي في السنن (٢٩١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) والترمذي في السنن (٣٥٤٢) .

الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » ^(١) .

وعنه أيضًا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَنْزَاحُمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعُ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ » ^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١٤) وأحمد في مسنده (٢٦٠/٢) .

(٢) مسلم في التوبة (١٧) والدارمي في السنن (٣٢١/٢) .

٥	مقدمة الكتاب
٢١	مقدمة ابن كثير
٢١	تفسير سورة الفاتحة
٤٣	تفسير سورة البقرة
٢٧٥	تفسير سورة آل عمران
٣٦٣	تفسير سورة النساء
٤٨٥	تفسير سورة المائدة
٥٧٧	تفسير سورة الأنعام